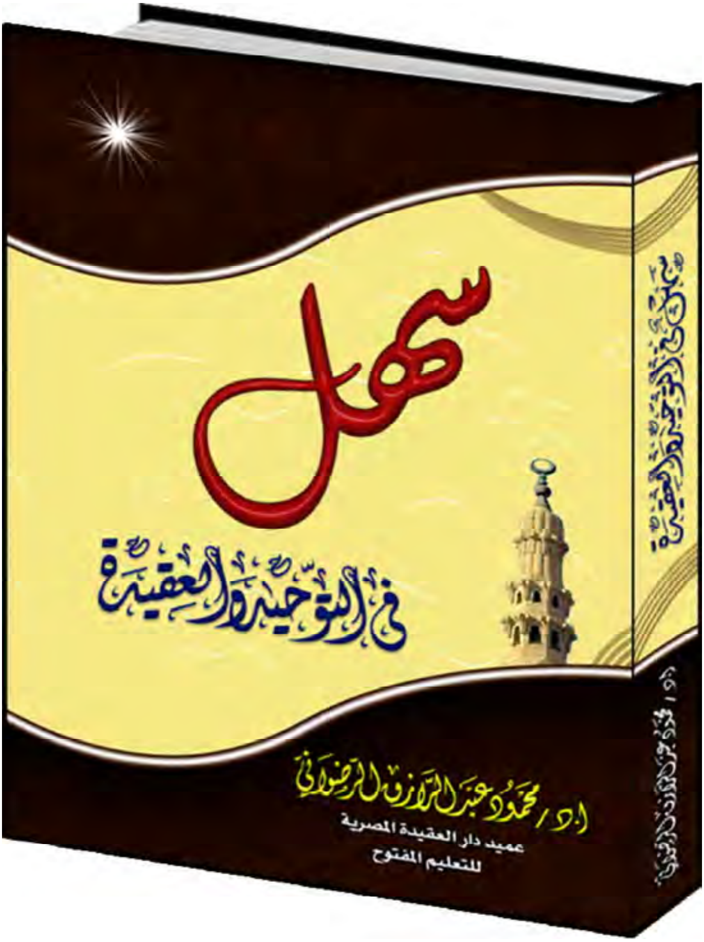

سهل
في التوحيد والعقيدة
أ.د / محمود عبد الرازق الرضواني
عميد دار العقيدة المصرية
للتعليم المفتوح

سهل

في التوحيد والعقيدة

بسم الله الرحمن الرحيم

سهل في التوحيد والعقيدة

www.alridwany.com

موقع الرضوانية

دار العقيدة المصرية

٠١٠٠٢٦٤٢٦٨٧ ـ ٠١١٤٧١٧١٠٧٠ ـ ٤٤٣٤٢١١٨

٥ ش أبو بكر الصديق ـ المرج الجديدة ـ القاهرة

ababm@hotmail.com

الرضوانية
دار العقيدة المصرية

سهل
في التوحيد والعقيدة

تأليف

أ.د/ محمود عبد الرازق الرضواني

عميد دار العقيدة المصرية
للتعليم المفتوح

مكتبة سلسبيل

٠٢٢٤٥٢٢٩١٩ – ٠١٠٠٦٧٦١٢١٩

سهل في التوحيد والعقيدة

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ/ ٢٠١١م

وكيل التوزيع في مصر وجميع دول العالم

مكتبة سلسبيل

٢٤٥٢٢٩١٩ ـ ٠١٠٠٦٧٦١٢١٩

شارع العزيز بالله ـ حدائق الزيتون ـ القاهرة

الرضوانية
دار العقيدة المصرية

٠١٠٠٢٦٤٢٦٨٧ ـ ٠١١٤٧١٧١٠٧٠ ـ ٠٢٤٤٣٤٢١١٨

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠١١/٢٠٣٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة كتاب سهل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة كتاب سهل

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضل له، ومن يضلل؛ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ آل عمران:١٠٢. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب:٧٠/ ٧١.

أما بعد..

فإن أفضل نعمة يَمُن الله بها على الإنسان هي نعمة التوحيد وسلامة العقيدة ودوام الإسلام وزيادة الإيمان، تلك النعمة التي يوفق الله بها من شاء من عباده إلى التزام الصراط المستقيم، واتباع المنهج النبوي القويم، منهج أهل السنة والجماعة الذي قام على توحيد العبادة لله وتوحيد الاستعانة به على طاعته وتقواه؛ وهو منهج القائلين إياك نعبد، وإياك نستعين، فمن وفقه الله

وهداه إلى نعمة التوحيد وتحقيق اليقين؛ وجب عليه دوام الحمد والشكر لله رب العالمين، ولذلك كان هذا الحمد هو آخر دعوى المؤمنين الموحدين، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠ ﴾ يونس:/ ١٠. وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٤٣ ﴾ الأعراف:٤٣.

- **ما حقيقة التوحيد الذي دعا إليه أهل السنة والجماعة؟**

التوحيد الذي دعا إليه أهل السنة والجماعة مرتبط بمعناه في اللغة، وهو الانفراد والتميز، ونفي المثيل والشبيه والشريك؛ وبيان ذلك أن المتوحد المنفرد عن غيره، لابد أن ينفرد بشيء يتميز به، وأن يكون هو الوحيد المتصف به، أما الذي لا يتميز بشيء عن غيره، ولا يوصف بوصف يلفت الأنظار إليه، فهذا لا يكون منفردا، ولا متوحدا، ولا متميزا؛ فلو قلت مثلا: فلان لا نظير له؛ سيقال لك: في ماذا؟ تقول: في علمه، أو في خُلقه، أو لا نظير له في كرمه، أو في صدقه، أو في أي صفة تفرد بها عن غيره، فلا بد من ذكر الوصف الذي انفرد به، وتوحد فيه، وتميز به.

لكن من العبث أن يقال لك: فلان لا نظير له في ماذا؟ فتقول: في لا شيء، أو تقول: لا صفة له أصلا؛ فالله ﷻ وله المثل الأعلى انفرد عمن سواه بثلاثة أمور لن تجدها في أحد سواه، هذه الأمور تسمى بأنواع التوحيد التي وصف الله

بها نفسه في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ؛ لا بد من إثباتها لله كما أثبتها لنفسه، ولا بد من الإيمان بها والعمل بمقتضاها، فالتوحيد هو الإفراد، ولا يكون التوحيد توحيدا إلا مع الإثبات؛ فما الذي انفرد به رب العزة والجلال مما ورد في النصوص والآيات؟ عند استقصاء الأدلة من القرآن والسنة، يتبين أن الله انفرد بثلاثة أمور جامعة لا يشاركه فيها غيره وهي:

أولها: انفراده سبحانه وتعالى بالربوبية؛ فلا رب سواه؛ ولا خالق للكون إلا الله، فله سبحانه الخلق والأمر كما قال في كتابه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ الأعراف:٥٤. وهذا هو توحيد الربوبية، الذي تدل عليه ثلث الآيات القرآنية تقريبا.

ثانيا: انفراده سبحانه بالعبادة والإلوهية، فلا يقبل الشركة فيها، فمن عبد الله وعبد غيره معه،؛ فعبادته مردودة عليه لما فيها من الشرك بالله. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)﴾ النساء:٤٨. وقد ورد في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (قال اللهُ تبارك وتعالى: أنا أغْنى الشركاءِ عنِ الشِّرْك، منْ عمِل عملا أشرك فِيهِ معِي غيْرِي، تركْتهُ وشِرْكهُ) [1]. وهذا النوع هو حقيقة الشهادة وتوحيد العبادة، وثلث ما ورد في آيات القرآن تقريبا يدور حول هذا

(١) مسلم في الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله ٤/ ٢٢٨٩ (٢٩٨٥).

النوع من التوحيد.

ثالثا: انفراده سبحانه وتعالى بالأسماء الحسنى والصفات العلى، فكما أنه سبحانه انفرد بالربوبية والإلوهية، فإنه أيضا انفرد بالأسماء والصفات، فلا سَمِيّ له ولا نظير، ولا شبيه ولا مثيل. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ الشورى:١١. فبعد أن بدأ الله في الآية بالتوحيد وبين أنه لا شبيه له ولا مثيل اتبع ذلك بإثبات الأسماء والصفات كاسمه السميع واسمه البصير، وكل ما ورد في القرآن والسنة من هذا القبيل، فالتوحيد يستلزم إثبات الصفات، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة التي تناسب الفطرة السليمة والعقول المستقيمة.

ومن نظر إلى دلالة ما ورد في النصوص القرآنية والنبوية؛ وجد أنها إما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو توحيد الأسماء والصفات؛ وإما خبر عن قضائه وقدره، وحكمته ومشيئته، وكمال تقديره وقدرته، وملكه لخلقه، وتدبيره لكونه، ووصفه لفعله، وهذا توحيد الربوبية؛ وإما دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، وذلك من خلال أمر الله الشرعي ونهيه التكليفي وبالدرجات المتنوعة للأمر والنهي في كل حكم تعبدي، فهذا هو توحيد العبادة، وإما خبر عن إكرام الله لأهل توحيده وطاعته، وما ابتلاهم به في الدنيا بحكمته، وما يكرمهم به في الآخرة بفضله ورحمته، فهو جزاء توحيده واتباع هدايته؛ وإما خبر عن أهل الشرك والعصيان، واتباعهم للطواغيت من بني الإنسان والشيطان، وما ينالهم من الخزي والخسران في الدنيا، والحسرة والندامة في والآخرة، فهو جزاء من

خرج عن حكم التوحيد.

• ما حقيقة العقيدة التي كان عليها أهل السنة والجماعة؟

العقيدة التي كان عليها أهل السنة والجماعة مرتبطة بمعناها اللغوي؛ وهو المعنى الذي نزل به القرآن؛ فالعقيدة من العقد كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ المائدة: ١. أو من العقدة كما في قوله عن موسى ﷺ: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾ طه:٢٧/ ٢٨.

وحقيقة العقيدة في الإسلام هي عقد الوفاء بحق الله في مقابل النجاة من عذابه يوم القيامة؛ وقد ورد ذلك واضحا فيما رواه البخاري من حديث معاذ بن جبل ﷺ أنه قال: (بيْنا أنا رديفُ النبي ﷺ ليس بيني وبيْنهُ إلاّ آخرة الرّحْل، فقال: يا مُعاذ، قلتُ: لبّيك رسُول الله وسعْديْك؛ ثمّ سار ساعةً ثمّ قال: يا مُعاذ؛ قُلتُ: لبّيك رسُول الله وسعْديْك؛ ثمّ سار ساعةً ثمّ قال: يا مُعاذ؛ قلتُ: لبّيك رسُول الله وسعْديْك؛ قال: هل تدْرِى ما حقّ الله على عِبادِهِ ؟ قلتُ: اللهُ ورسُولهُ أعْلمُ، قال: حق الله على عِبادِهِ؛ أنْ يعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكُوا بِهِ شيْئًا؛ ثمّ سار ساعةً ثمّ قال: يا مُعاذ بْن جبل؛ قلتُ: لبّيك رسُول الله وسعْديْك، فقال: هل تدْرِى ما حق العِبادِ على الله إِذا فعلوهُ؟ قُلتُ: اللهُ ورسُولهُ أعْلمُ، قال: حق العِبادِ على الله أنْ لا يُعذبهُمْ)[1].

وقد كان المسلم في عصر النبوة وخير القرون عندما يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؛ فإنه يعقد في نفسه عقدا على أن يصدق الله في خبره

(١) البخاري في كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل ٥/ ٢٢٢٤ (٥٦٢٢).

دون تكذيب، وأن يطيعه في أمره دون عصيان، وتلك حقيقة العقيدة والإيمان التي نزل بها القرآن، وفهمها أصحاب النبي ﷺ، فكانت العقيدة في القلب رباطا معقودا على عروة وثقى، وعقدة متينة لا تنحل أبدا؛ وهذا هو الإسلام على وجه الكمال والإحسان كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ لقمان: ٢٢.

والعروة الوثقى هي عروة الإسلام وكلمة التوحيد، والمسلم بقوله لا إله إلا الله قد عهد عهدا على نفسه، وعقد في قلبه عقدا أنه سيسلم نفسه لربه، ولن يطيع أحدا في معصيته، ولن يتحاكم إلا إلى شرعه، وسوف يلتزم ما أمر الله به في كتابه وصح في سنة نبيه ﷺ.

إن عقيدة التوحيد مبنية على الالتزام بتوحيد العبادة لله، والكفر بما يعبد من دونه، فالذي يختار دين الله بإرادته يقر بعقد التوحيد عند شهادته، فيعقد الموحد النية في قلبه على أن الله هو المعبود بحق، وأنه بهذا العهد سيوفي لربه بكامل ما ورد في مفردات العقد، عقد التوحيد الذي أمضاه بشهادته ألا إله إلا الله، وهو مبني على شرط التزامه بتنفيذ أمر الله واتباع شريعته في مقابل حصول العبد على جنته والنجاة من ناره.

وقد بين الله حقيقة التوحيد والعقيدة فقال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ البقرة:٢٥٦/ ٢٥٧.

ذكر ابن القيم رحمه الله أن أساس التوحيد والعقيدة، وأساس الهداية التي مَنَّ الله ﷻ بها على عباده، يقوم على تصديق خبر الله ﷻ من غير اعتراض شبهة، وامتثال أمره من غير اعتراض شهوة، ثم قال: (وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان، وهما تصديق الخبر، وطاعة الأمر)[1].

ولما كان الصحابة ﷺ هم أهل الفصاحة واللسان، وقد خاطبهم الله ﷻ بنوعي الكلام في القرآن؛ النوع الأول هو الخبر الذي يتطلب التصديق، والنوع الثاني هو الأمر الذي يتطلب التنفيذ، فإن منهجهم في مسائل التوحيد والإيمان هو تصديق الخبر وتنفيذ الأمر، فلو أخبرهم الله عن شيء صدقوه تصديقا جازما يبلغ حد اليقين؛ ولو أمر الرسول ﷺ صحابته ﷺ بشيء نفذوه تنفيذا كاملا بالقلب واللسان والجوارح.

وهذا هو المنهج الإسلامي السلفي الحقيقي الذي يعد منهجا إيمانيا فطريا مبنيا على العقيدة الصحيحة، والفهم الدقيق لحقيقة الإسلام والإيمان، فالسلف هم أهل السنة والجماعة كانوا ﷺ يصدقون خبر الله ورسوله ﷺ تصديقا جازما ينفي الوهم والشك والظن، وكانوا ينفذون الأمر تنفيذا كاملا يقوم على الطاعة والإخلاص والحب، بحيث تنسجم فطرتهم النقية مع توجيه النصوص القرآنية والنبوية، فمبدؤهم في تصديق الخبر وتنفيذ الأمر هو الذي يمثل العقيدة الإسلامية الصافية، بعيدا عن الفلسفات العقلية

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٤٠.

والآراء الكلامية التي أحدثها أصحاب الفرق البدعية المخالفة للسنة النبوية.

- **ما هي أهمية دراسة العقيدة الصحيحة بصورتها النقية؟**

أهمية دراسة العقيدة الصحيحة بصورتها النقية تكمن في السلامة من بدع الاعتقادات، وبدع العبادات، والتأويل الباطل للنصوص والآيات، وغير ذلك من الشبهات التي تغلغلت في أذهان المسلمين حتى أصبحت الفتن قطعا كقطع الليل المظلم، لا يعرف المسلم فيها طريق النور وسبل السلام، فكان لا بد من العودة إلى الإسلام بالتوحيد والعقيدة البسيطة التي يكفي المسلم فيها أن يصدق كل خبر ورد عن الله ورسوله ﷺ تصديقا جازما ينفي الوهم والشك والظن، وأن ينفذ كل أمر تنفيذا كاملا، وينقاد له بتعظيم وحب دون رد، كما كان الحال في عهد الصحابة والتابعين وسائر السلف المتقدمين، وهو عهد النقاء والصفاء، والتزام الموحدين بدين الفطرة وسلامة التوحيد والعقيدة، وتحقيقا للغاية من وجود الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦.

وقال تعالى عن نور الوحي الذي نزل من السماء: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ المائدة: ١٦.

لقد قامت عقيدة التوحيد في الإسلام على فهم الغاية من وجود الإنسان، وأن الله خلقه لعبادته، من خلال تخويله في أرضه، واستخلافه فيها على وجه الابتلاء والامتحان؛ فوكله الله فيها واسترعاه، واستأمنه فيها وهداه إلى ما

يصلحه في الدنيا والآخرة ، روى البخاري من حديث عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (كُلكُمْ رَاعٍ، وَكُلكُمْ مَسْـئُول عَنْ رَعِيَّتِهِ) [١].

وانطلاقا من العمل على تحقيق الغاية التي خلق الله العباد من أجلها والسعي إلى رفعة الأمة الإسلامية وتحقيق مجدها وعزها، بنشر كلمة التوحيد والعقيدة الصحيحة المبنية على الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة؛ دون التقليد الأعمى أو التعصب البغيض؛ يأتي هذا الكتاب في صيغة سؤال وجواب تلخيصا سهلا في التوحيد والعقيدة، مصاغا بتبسيط يسير من الدورات العلمية المنهجية التي تدرس في دار العقيدة المصرية ليتناسب مع العامة والخاصة، وكذلك يأتي استجابة لطلب الكثير من طلاب العلم في عمل مختصر جامع يشمل أهم ما يحتاجه المسلم في التوحيد والعقيدة، بحيث يمكنهم من شرحه لعامة المسلمين.

• ما هي خطة الدراسة في كتاب سهل في التوحيد والعقيدة؟

الهدف الأساسي من كتاب سهل في التوحيد والعقيدة هو اختصار الدورات العلمية المنهجية في العقيدة الإسلامية والمقررة في دار العقيدة المصرية، فهذه الدورات مكونة من ثمانية مجلدات كموسوعة تغني طالب العلم في باب العقيدة، غير أنها قد تكون مرهقة لعامة المسلمين، ولما كانت الدورات العلمية مقسمة إلى أربع دورات منهجية تعادل كل دورة منها سنة دراسية جامعية، فإن الخطة الدراسية لكتاب سهل في التوحيد والعقيدة

(١) رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن ١/ ٣٠٤ (٨٥٣).

جاءت مقسمة إلى أربعة أبواب جامعة، كل باب يختصر أهم العناصر في كل دورة، وكل باب مقسم أيضا لخمسة فصول جامعة على النحو التالي:

الباب الأول:

عقيدة أهل السنة والجماعة في الغيبيات وتوحيد الأسماء والصفات

- الفصل الأول: كيف نتعرف على الله عز وجل؟
- الفصل الثاني: عقيدة أهل السنة في توحيد الصفات.
- الفصل الثالث: صفات الله في الكتاب والسنة.
- الفصل الرابع: عقيدة أهل السنة في الأسماء الحسنى.
- الفصل الخامس: قواعد معرفة الأسماء الحسنى.

الباب الثاني:

عقيدة أهل السنة في توحيد الربوبية والإيمان بالقضاء والقدر والحكمة والتدبير

- الفصل الأول: الفقر الذاتي والغنى الذاتي.
- الفصل الثاني: مراتب القدر وأنواع التقدير.
- الفصل الثالث: التدبير الكوني والتدبير الشرعي.
- الفصل الرابع: أركان الاختيار في الإنسان.
- الفصل الخامس: بداية الكون والإنسان.

الباب الثالث:

عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان

- **الفصل الأول:** توحيد العبادة ومدارج السالكين.
- **الفصل الثاني:** قواعد العبودية وأحكامها.
- **الفصل الثالث:** أنواع الشرك بالله وأسبابه.
- **الفصل الرابع:** أركان الإيمان وأنواع الكفر.
- **الفصل الخامس:** الإيمان بين الزيادة والنقصان.

الباب الرابع:

عقيدة أهل السنة في بيان فرق المسلمين وملل المخالفين ومذاهب المعاصرين

- **الفصل الأول:** دواعي الفتن وظهور الشيعة والخوارج.
- **الفصل الثاني:** المعطلة والصوفية وفرق الباطنية.
- **الفصل الثالث:** ظهور اليهودية والصهيونية.
- **الفصل الرابع:** النصرانية والأديان الوثنية.
- **الفصل الخامس:** المذاهب الفكرية المعاصرة.

روى البخاري من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء: (ربِّ اغْفرْ لي خطيئتي وجهْلي، وإسْرافي في أمْري كُلّه، وما

أنْت أعْلمُ به منّي، اللهُمّ اغْفرْ لي خطاياي، وعمْدي وجهْلي وهزْلي، وكُلُّ ذلك عنْدي، اللهُمّ اغْفرْ لي ما قدّمْتُ وما أخّرْتُ، وما أسْررْتُ وما أعْلنتُ أنْت المقدّمُ؛ وأنْت المؤخّرُ، وأنْت على كُلّ شيءٍ قديرٌ) [(١)].

وفي ختام هذه المقدمة؛ أسأل الله العلي العظيم أن يغفر لي ذنبي، وما أخطأت فيه من سوء نظري، وعمدي وجهلي وهزلي، وكل ذلك عندي، وما أبرء نفسي؛ فإن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، فأسأله سبحانه أن يرحمني؛ وأن يرحم معي كل من قرأ هذا الكتاب أو تعلمه أو علمه، وأن يجمعنا وإياهم في مقعد صدق عند ملك مقتدر، بصحبة نبينا المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

وكتبه

أ/د/ محمود عبد الرازق الرضواني

عميد دار العقيدة المصرية

للتعليم المفتوح

القاهرة في ١/ ١/ ١٤٣٣هـ

(١) البخاري في الدعوات، باب قوله ﷺ اللهم اغفر لي ما قدمت ٥/ ٢٣٥٠ (٦٠٣٥) .

الباب الأول

عقيدة أهل السنة والجماعة في الغيبيات
وتوحيد الأسماء والصفات

الفصل الأول

كيف نتعرف على اللّه عز وجل؟

الفصل الثاني

عقيدة أهل السنة في توحيد الصفات.

الفصل الثالث

صفات اللّه في الكتاب والسنة.

الفصل الرابع

عقيدة أهل السنة في الأسماء الحسنى.

الفصل الخامس

قواعد معرفة الأسماء الحسنى.

الفصل الأوّل

كيف نتعرف على الله عزّ وجلّ؟

• ما المقصود بالعقل؟

العقل غريزة غيبية لا نعرف كيفيتها، وضعها الله في قلوب المكلفين من عباده، وموضوعة في الجانب الغيبي من قلب الإنسان، نتعرف على وجودها، ووجود أوصافها من خلال الحكم على أفعال الإنسان في ظاهر البدن، فيقال: هذا عاقل إذا فعل أفعال العقلاء، وهذا مجنون إذا لم يتصف بها.

والدليل على أن العقل موجود في القلب قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ الحج:٤٦.

• ما هي الغاية الرئيسية من وجود العقل؟

الغاية الرئيسية من وجود العقل، معرفة الإنسان ما ينفعه أو يضره، وكيف يحصّل الخير الأعلى والأفضل دائما؟ فالعقل مرتبط باستخدام الإنسان للمناهج الدقيقة والتشريعات المحكمة التي تضمن له سبل السعادة في الحياة الدنيا والآخرة، ولن نجد نظاما يتصف بالدقة والشمولية أكمل من أوامر الله وتوجيهاته الشرعية، فلو وضع الله ﷻ للإنسان نظاما وأحكاما، وحلالا وحراما، كان الكمال كله فيه، وكان صلاح العقل في اتباعه، وذلك لأن علم

البشر لا يقارن بعلم الله؛ كما أن شريعة الإسلام شريعة راقية عظيمة؛ لأنها بنيت على تقديم المصلحة العليا، وتفضيل ما عند الله بطلب الجنة، والبعد عن النار، فليس بعد نعيم الجنة من خير، وليس بعد عذاب النار من شر.

وقد أخبرنا الله ﷻ في كتابه أن المعرض عن ربه يعترف بذنبه، ويقر على نفسه بأن الله منحه غريزة العقل؛ لكنه لم ينتفع بها، وأنه لم يكن عاقلا حين فضل الدنيا على الآخرة. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١ ﴾ الملك:٨/ ١١.

- **ما هي حدود المعرفة بالعقل؟**

حدود المعرفة بالعقل هي ما يقع تحت مدارك الإنسان من معلومات يدركها بحواسه الخمس، وما ينشأ في العقل الموجود في القلب من علم ينتج عن النظر في عالم الشهادة، وذلك بفهم دلالة الأسباب على نتائجها.

وقد خلق الله ﷻ الإنسان بجهاز إدراكي محدود ليمتحنه بالطاعة فيما استخلفه واستأمنه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ ﴾ الإنسان:٢.

وذلك الابتلاء يُظهر حكمة الله في تكليف العباد بالشرائع والأحكام، وتمييز الحلال من الحرام، والتصديق بما جاء في رسالة الإسلام، فوجب على المسلم أن يشهد شهادة الحق، وأن يترك قول الزور والبهتان والإفك، ولا يتكلم عن الله ﷻ وأسمائه وصفاته أو عن عالم الغيب إلا بدليل نصي من الكتاب أو صحيح السنة.

• ما هي العتبات المطلقة للحواس الخمس؟

لقد أجريت التجارب والدراسات الحديثة لتقدير الحدود التي تستقبلها حواس الإنسان، وتسمى في علم النفس بالعتبات المطلقة للحواس الخمس، فوجدوا أن البصر يدرك به الإنسان صورة شمعة مضاءة، ترى على بعد ثلاثين ميلا في ليل مظلم صاف.

ووجدوا أن السمع يدرك به الإنسان صوت دقة ساعة في ظروف هادئة تماما على بعد عشرين قدما، وأن التذوق يدرك به الإنسان ملعقة صغيرة من السكر مذابة في جالونين من الماء. وكذلك الشم يدرك به الإنسان نقطة عطر منتشرة في غرفة مساحتها ستة أمتار مربعة . وحاسة اللمس يدرك بها جناح ذبابة، يسقط على الصدغ من مسافة سنتيمتر واحد تقريبا.

وإذا كان الجهاز الإدراكي في الإنسان قاصرا بتلك الصورة في الدنيا، فمن الصعب أن يرى ما يحدث في القبر من عذاب أو نعيم، أو يرى الملائكة، أو الجن، أو عالم الغيب، أو يرى الله سبحانه وتعالى من باب أولى؛ ومعلوم أن عدم رؤيته لهذه الحقائق لا يعنى عدم وجودها، فالجن مثلا جهازه الإدراكي يختلف عن الإنسان من حيث القوة، كما قال تعالى في وصفه: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ الأعراف:٢٧.

ومن ثم فإننا نؤمن بعالم الغيب ولا نسأل عن كيفية الحقائق التي فيه؛ فلا يجوز السؤال عن الذات الإلهية، أو كيفية صفاتها؛ لأن السنن التي أوجدها الله في عالمنا المحسوس لا تسمح بذلك؛ اللهم إلا إذا حدث خرق للعادة في بعض معجزات الأنبياء؛ فيرون الملائكة أو يرون شيئا من الجنة أو النار، أو

بعض أمور الغيب مما يحدث في القبر، أو في السماوات السبع، أو ما يعجز الإنسان العادي عن إدراكه، كما حدث لنبينا محمد ﷺ.

أما نظام الإدراك الذي يكون عليه الإنسان في الآخرة؛ فهو مختلف تماما، إذ أن مدركات الإنسان في الآخرة تختلف عن مدركاته في الدنيا، فإن الإنسان يوم القيامة يكون على صورة آدم عليه السلام طوله ستون ذراعا؛ فمداركه وحواسه تتغير بالكيفية التي تناسب أمور الآخرة وما يحدث فيها؛ فإذا أخبرنا رسول الله ﷺ أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، علمنا أن إدراك العين المبصرة في الدنيا، وقدرتها على الرؤية؛ تختلف عن إدراكها في الآخرة.

روى البخاري عن جرير بْن عبْد الله رضي الله عنه أنه قال: (كُنّا عنْد النّبيّ ﷺ فنظر إلى القمر ليْلةً، يعْني البدْر، فقال: إنّكُمْ سترْوْن ربّكُمْ كما تروْن هذا القمر، لا تُضامُّون في رُؤْيته، فإنْ اسْتطعْتُمْ أنْ لا تُغْلبُوا على صلاةٍ قبْل طلوع الشّمْس وقبْل غُرُوبها فافْعلوا؛ ثمّ قرأ: وسبّحْ بحمْد ربّك قبْل طُلوع الشّمْس وقبْل الغُرُوب) [(١)]. من أجل ذلك وجب الإيمان برؤية الله في الآخرة لموافقته للعقل الصريح والنقل الصحيح، وكذلك الحال في بقية الأسماء والصفات التي أخبرنا الوحي عنها، نؤمن بها ونثبتها لله دون أن نبحث عن كيفيتها.

• ما هي وسائل إدراك اليقين لدى سائر العقلاء؟

أقصى حدود العقل الصريح أن يتعرف بمفرده على وجود الله وعظمته من خلال الأسباب ودلالتها على نتائجها، وكيفية التلازم بينها، وهناك عدة أمور يدرك بها العقل الصريح حقائق الأشياء على وجه اليقين:

---

(١) البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر ١/ ٢٠٣ (٥٢٩).

أولها: البديهيات أو الأوليات، وذلك كالحكم على أن البعرة تدل يقينا على البعير، وأن الأثر يدل يقينا على المسير، وهكذا الحكم بأن كل مخلوق لابد له من خالق، وكل نتيجة لابد لها من سبب، فنحن ما رأينا سيارة تتحرك دون قائدها، أو أوراقا مسطرة بكلمات بديعة كُتبت وحدها بغير كاتبها، وما شاهدنا أبدا حجارة ورمالا تتحرك وحدها، فتجتمع على بعضها، وترتب نفسها بنفسها، لتقيم قصرا بديعا، أو سدا منيعا. ولهذا لما سئل أعرابي عن وجود الخالق فقال معبرا في إجابته عن منطق فطرته: (إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير؛ فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على اللطيف الخبير؟)[1].

لقد بنى الأعرابي إجابته على دلالة الأوليات على الخالق، ودلالة البديهيات على الاعتقاد اليقيني بوجود الله، وأنه من المستحيل عقلا أن يوجد مخلوق بغير خالق، وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۝٣٦ ﴾ الطور:٣٥/ ٣٦.

وقد أكد الإنسان العاقل صاحب العقل الصريح بنظره في الواقع أنه لا يمكن أن يخلق نفسه، فضلا عن غيره، ولو استطاع أن يخلق نفسه، لصورها كما يشاء، ولأوجد فيها كل صفات الكمال، ولم يجعلها عرضة لنوازع النفس التي تنتقص من قدر الشخص بين الناس؛ ولكن الواقع الذي يراه ويحسه الجميع، أن الإنسان يبدأ من نطفة قذرة، ويمر بأطوار مختلفة، حتى إذا اكتمل تكوينه، خرج من بطن أمه في منتهى العجز والضعف، لا يعلم من أمر الحياة

(١) جوهر الأدب لأحمد الهاشمي ٢/ ١٩.

شيئا، ثم يتدرج في النمو حتى يبلغ في القوة مداها، ثم يبدأ في الضعف والوهن بالشيخوخة والاضمحلال إلى أقصاه، ثم تنتهي حياته فيموت ويرجع إلى التراب، ثم يتحول بعد ذلك إلى عظام بالية، كأن لم يكن ويصبح بعد ما كان نسيا منسيا، ولذلك قال الله تعالى مخاطبا العقلاء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ الحج:٥.

والحق سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى النظر في آياته الكونية، والمخلوقات المرئية، بما في ذلك النفس البشرية، فدور العقل هنا البحث فيما يراه في المخلوقات من حكم وآيات، وذلك يدل باللزوم على وجود الله وقدرته، وعلمه ومشيئته، وكمال صنعه وحكمته، ومن هنا كان المسلم على يقين بوجود الله، من خلال إثبات وجود الخالق بدلالة الأوليات أو البديهيات.

ثانيا: المحسوسات وهي من الأمور التي يدرك بها العقل حقائق الأشياء، وقد جعلها الله ﷻ وسيلة من وسائل الإثبات، وجعلها من مدارك اليقين لدى صاحب العقل الصريح، فبالمحسوسات يوقن الإنسان بما يراه، وقد أمر الله عباده باستخدام المحسوسات التي هي من مكونات الجهاز الإدراكي في النظر إلى الإبداع الكوني، والتأمل في خلق السماوات، والتفكر في سائر المخلوقات.

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ

مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾ الغاشية:١٧/ ٢١. وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ الروم:٤٨/ ٥٠.

ثالثا: المتواترات، وهي من الأمور التي يدرك بها صاحب العقل الصريح حقائق الأشياء، فالخبر المتواتر بنقل العدل الصادق الضابط يدل على العلم اليقيني، كعلمنا بوجود مكة والمدينة، فإن العلم بوجودهما علم يقيني، وكذلك العلم ببعثة النبي ﷺ علم يقيني، لما ورد فيها من تواتر الأخبار؛ ونقل حملة الآثار، وقد اتفق علماء الحديث على أن الأحاديث المتواترة تدل على اليقين؛ والحديث المتواتر هو ما رواه جمع يستحيل اتفاقهم على الكذب عن جمع آخر يستحيل اتفاقهم على الكذب إلى نهاية الإسناد عن رسول الله ﷺ.

ويحصل اليقين أيضا بخبر الراوي الواحد المعروف معرفة شخصية بالعدالة والضبط، وعدم المبالغة في القول، والمعهود عنه عدم الكذب في حياته كالراوي الثقة الذي لم يعرف بارتكاب كبيرة، ولا إصرار على الصغيرة، فربما يُحدث خبره من اليقين في قرارة نفس السامع ما لا تحدثه أخبار التواتر.

ولم يختلف أحد من الأمم في أن رسول الله ﷺ بعث إلى الملوك رسولا واحدا يدعوهم إلى الإسلام، أرسل رجلا واحدا مفردا إلى كل مدينة وقبيلة، كصنعاء وحضرموت ونجران، وتيماء والبحرين وعمان، وغير ذلك من البلدان، وكان كل رسول يُعلم الناس أحكام دينهم كلها، عقيدة وشريعة،

وافترض النبي ﷺ على كل جهة قبول رواية أميرهم ومعلمهم؛ فصح عند أهل السنة والجماعة قبول خبر الواحد الثقة عن مثله مبلغا إلى رسول الله ﷺ.

رابعا: التجريبيات من الأمور التي يدرك بها العقل حقائق الأشياء، وذلك مثل حكمك بأن النار محرقة، وأن الماء يطفئها، وأن الشمس مشرقة، وأن السقف يحجبها، وأن الماء ينزل من السماء فتحيا به الأرض بعد موتها، فهي سنن وعادات، وتجارب وممارسات، تدل على حدوث اليقين في النفس؛ ولذلك حذرنا الله ﷻ من العصيان، وذكرنا بما حدث لأعدائه من الخسف والمسخ والصيحة والنيران، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣)﴾ فاطر:٤٣. ومن حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: (لا يُلدغُ المؤْمنُ منْ جُحْرٍ واحدٍ مرّتيْن)[١].

خامسا: الاعتراف، وهو من الأمور التي يدرك بها صاحب العقل الصريح حقائق الأشياء اعتراف الإنسان على نفسه بذنبه، وهو سيد الأدلة، وعليه أقام النبي ﷺ حد الزنا على ماعز والغامدية، كما ورد عند مسلم من حديث بريدة بن الحصيب ؓ أنه قال: (جاء ماعزُ بْنُ مالكٍ إلى النّبيّ ﷺ فقال: يا رسُول الله طهّرْني؟ فقال: ويْحك ارْجعْ فاسْتغْفرْ الله وتُبْ إليْه. قال بريدة: فرجع غيْر بعيدٍ ثمّ جاء فقال: يا رسُول الله طهّرْني؟ فقال رسُول الله ﷺ: ويْحك ارْجعْ فاسْتغْفرْ الله وتُبْ إليْه. قال: فرجع غيْر بعيدٍ ثمّ جاء فقال: يا رسُول الله طهّرْني؟ فقال النّبيُّ ﷺ مثل ذلك، حتّى إذا كانتْ الرّابعةُ، قال لهُ رسُول الله: فيم أُطهّرُك؟ فقال: منْ الزّنا، فسأل رسُول الله ﷺ أبه جُنُونٌ؟ فأُخْبر أنّهُ ليْس بمجْنُونٍ،

---

(١) البخاري في كتاب الأدب، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ٥/ ٢٢٧١ (٥٧٨٢).

فقال: أشرب خمْرًا؟ فقام رجُل فاستنكحه، فلمْ يجدْ منْهُ ريح خمْر؛ فقال رسُول الله ﷺ: أزنيْت؟ فقال: نعمْ، فأمر به فرُجم)[١].

تلك مدارك اليقين، ودور صاحب العقل الصريح هو النظر من خلالها في الأسباب، والتعرف بدلالتها وجود الخالق، فقول العامة: ربنا عرفناه بالعقل لا يصح إلا على معرفة وجوده من خلال النظر في الأسباب ودلالتها عليه، والتعرف من خلالها على عظمته.

ولا يجوز للإنسان أن يتجاوز ذلك كما فعلت بعض فرق المبتدعة كالمعتزلة والأشعرية والماتريدية وغيرهم من أتباع الجهمية؛ لأن صاحب العقل سوف يقع حتما في الضلال؛ لعجزه عن تحديد ما يليق بالله من صفات الكمال، وسيتقول على الله بما لا يعلم، فلو أردنا أن نتعرف على عالم الغيب أو ما يحدث في القبر من عذاب أو نعيم، أو عالم الملائكة، أو عالم الجن والشياطين، أو نتعرف على ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا بد من الرجوع إلى ما أخبر الله ﷻ فيه عن نفسه في الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الإسراء:٣٦.

- **ما هي أنواع الدلالات التي نميز بها الأشياء والأسماء؟**

الدلالات المقصودة هي التي نميز بها الأشياء والأسماء، وهي التي تعارف عليها العقلاء من بني آدم، وهذه الدلالات لها أهمية كبيرة في فهم عقيدة أهل السنة والجماعة، وهذه الدلالات أربعة أنواع:

---

(١) مسلم في الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا ٣/ ١٣٢١ (١٦٩٥).

١- دلالة المطابقة: وهي دلالة اللفظ على ما عناه المتكلم ووضعه له، أو هي دلالة اللفظ على المعنى المقصود لدى المتكلم؛ فمن المعلوم أن الألفاظ أو الأسماء تطلق على الأشياء لتتميز بها عن غيرها، وكل اسم أو لفظ في أي لغة، وعلى أي لسان، ينطبق في دلالته بين العقلاء على شيء متعارف عليه في لغة التخاطب التي عند كل إنسان، فالألفاظ المنطوقة أو المكتوبة لها مدلولات معينة يعيها القلب ويدرك معناها.

ومثال دلالة المطابقة دلالة لفظ البيت على مجموع الجدران والسقف والأبواب والنوافذ؛ ودلالة لفظ المسجد على مبنى معين أقيم للصلاة والجماعة والجمع؛ فلو قال أحدهم لأخيه: انتظرني في المسجد؛ فإنه لا ينتظره في السوق؛ لعلمه أن المسجد لفظ يدل على مكان معلوم للصلاة والعبادة، وأن لفظ السوق يدل على مكان آخر وضع للبيع والشراء.

وأيضا لو قال المشتري للبائع: أعطني تفاحا، فإن البائع يعطيه شيئا معينا، أو فاكهة معلومة يطلق عليها هذا اللفظ؛ وليس إذا قال له: أعطني تفاحا أعطاه عنبا أو برتقالا، أو جزرا أو خيارا؛ لأن الله ﷻ فطر العقلاء على أن يتعلموا الأسماء، وما تنطبق عليه من مدلولات في واقعهم، فالمشتري والبائع يعلمان أن لفظ التفاح يدل على شيء معين غير الذي يدل عليه لفظ البرتقال، لكن لو قلت للبائع: أعطني خيارا؛ فأعطاك برتقالا، فذلك إما لأنه لم يسمع، فيعاد اللفظ ويكرر حتى يفهم؛ أو لأنه لم يعقل أصلا، ومثل هذا لا يعد من العقلاء، ولا يصلح للبيع والشراء.

٢- دلالة التضمن: وهي دلالة اللفظ على بعض ما عناه المتكلم ووضعه له أو دلالته على بعض المعنى المقصود من قبل المتكلم، كدلالة لفظ الشجرة

على الأوراق؛ فإن الشجرة تضمنت الأوراق وغيرها، فالذهن يتصور الأوراق وبقية الأجزاء مباشرة عند النطق بلفظ الشجرة، فيتصور بدلالة التضمن فروعها، وخشبها، وثمارها، وجميع ما حوت من أجزاء، فتقول دلالة الشجرة على الأوراق دلالة تضمن، ودلالتها على كل أجزائها مجتمعة دلالة مطابقة.

ومثال ذلك أيضا دلالة لفظ المدرسة على الفصول دلالة التضمن، وعلى التلاميذ دلالة التضمن، وعلى المدرسين دلالة التضمن؛ ودلالتها على كل أجزائها ومحتوياتها مجتمعة دلالة مطابقة.

وكل اسم من أسماء الله تعالى يدل على ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى الصفة وحدها بالتضمن؛ فاسم الله العزيز يدل على صفة العزة وحدها بالتضمن، كما يدل أيضا على ذات الله وحدها بالتضمن، ويدل على ذات الله وعلى صفة العزة معا بالمطابقة، وأخطأ من قال بأن اسم الله الرحمن يدل على ذات الله بالمطابقة لأن ذلك هو مذهب المعتزلة.

٣- دلالة اللزوم: وهي دلالة الشيء على سبب وجوده، كدلالة الشجرة على البذرة، ودلالة الثمر على الشجرة، ودلالة السيارة على مصنعها، ودلالة السقف على وجود الحوائط والأعمدة ؛ فهذه دلالة لزوم لأن العاقل يعلم أن السقف لا يوجد إلا بعد وجود الحائط والأعمدة، وكدلالة الحمل على الزواج أو الزنا، إلا في بعض الخوارق الاستثنائية، ولذلك لما جاء الملَك إلى مريم وأعلمها أنها ستحمل بقدرة الله، أخبرته أن الولد لا يكون بدلالة اللزوم إلا بسبب مشروع أو ممنوع، ولم يحدث أنها تزوجت، أو فعلت ما حرمه الله، فأخبرها أن هذا خارج عن اللوازم المنطقية، وهو استثناء خاص

من القواعد الشمولية لدلالة اللزوم العقلية، وعلى ذلك فإن دلالة اللزوم مبنية على فهم العقل لترابط الأسباب، بحيث ترتبط النتيجة بسببها.

وقد دعا الله ﷻ عبادة للنظر إلى ما في الكون من آيات ومفعولات تدل على عظمة أوصافه، وكمال أفعاله بدلالة اللزوم، وجميع أسماء الله الحسنى تدل أيضا باللزوم على أن الله ﷻ حي قيوم، فلا يمكن لمن انعدمت فيه الحياة أو غلبته السنة والنوم أن يكون إلها يدبر أمر الخلائق، أو يجيب المضطر إذا دعاه، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ النحل: ٢٠/ ٢١.

٤ – دلالة الالتزام: وهي دلالة الشيء على نتيجته، فإذا كانت دلالة اللزوم هي دلالة الشيء على سببه، فإن دلالة الالتزام عكسها، وهي دلالة الشيء على نتيجته، وتوقع حدوث أثره كدلالة الغيوم على اقتراب المطر، وكدلالة شرب الدواء على توقع حصول الشفاء، ودلالة الفعل على توقع رد الفعل، فكل فعل له رد فعل بدلالة الالتزام.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن الأسماء الحسنى تدل على الصفات بالمطابقة والتضمن واللزوم، فدلالة اسم الله الرحمن على ذات الله وصفة الرحمة دلالة مطابقة، ودلالة اسم الله الرحمن على ذات الله وحدها أو صفة الرحمة وحدها دلالة تضمن، ودلالة اسم الله الرحمن على صفة الحياة والقيومية دلالة لزوم. وكذلك اسم الله الخالق يدل على ذات الله وعلى صفة الخالقية بدلالة المطابقة، ويدل على أحدهما بالتضمن، ويدل على العلم والقدرة باللزوم؛ ولذلك لما ذكر الله خلق السماوات والأرض، عقب بذكر ما دل عليه وصف الخلق باللزوم، فذكر القدرة والعلم، فالذي يصنع مثل هذا

العالم لا بد أن يكون عليما قديرا. قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾ ﴾ الطلاق:١٢.

ومن وفقه الله لفهم دلالة اللزوم كانت أقواله صادرة عن حكمة، وكانت أفعاله عن روية وفطنة، ووزن جميع أموره بدقة، بحيث يغلب جانب المنفعة على جانب المضرة، ويتخير الأحسن والأفضل على الدوام، وأغلب ما يحل بالإنسان من بلاء وشقاء سببه الغفلة عن لازم قوله وفعله، وقد ثبت من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إنّ العبد ليتكلمُ بالكلمة، ما يتبينُ فيها، يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق)[1].

• ما المقصود بالنقل؟

النقل هو ما نزل من الرسالة التي نقلها جبريل عليه السلام من عند الله إلى رسول الله ﷺ ونقلها رسول الله إلينا ليعرفنا الله فيها بنفسه، وما أراده منا في أرضه، ويبين لنا فيها أسماءه وأوصافه وأفعاله، ويبين ما هو كائن في عالم الغيب من الملائكة والجن، وما يحدث في الملأ الأعلى، وما سيحدث لنا ولغيرنا يوم القيامة. وعلماء العقيدة إذا ذكروا كلمة النقل فمعناها عندهم الوحي المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وتسمى عندهم أيضا بالشرع، أو السمع، أو الخبر، أو الدليل النصي، أو الآثار المروية، وكلها عندهم معان مترادفة تدل على الكتاب والسنة.

• كيف يتأكد المسلم من صحة النقل عن رسول الله؟

(١) البخاري في الرقاق باب حفظ اللسان ٥/ ٢٣٧٧ (٦١١٢).

الطريق الوحيد في ثبوت ما ورد عن رسول الله ﷺ، أو معرفة الصحيح من الضعيف والموضوع هو الالتزام بقواعد المحدثين في معرفتها، وهو ما عرف عند المسلمين بعلم الحديث، أو العلم بالأصول التي يعرف بها أحوال الرواة في السند الموصول من حيث القبول والرد، ومعرفة ما نقلوه من أقوال النبي ﷺ وأفعاله، ورواياتها وضبطها وتحريرها، وإسناد ذلك إلى من نسب إليه من الرواة، بتحديث أو إخبار أو عنعنة أو غير ذلك.

وليس كل ما نسب إلى النبي ﷺ يقبل بلا ضابط أو نقاش، فلا بد من الترابط العلمي المتصل بين رواة السند، بحيث يتلقى اللاحق من الرواة عن السابق، فلا يكون بين اثنين من رواة الحديث فجوة زمنية، أو مسافة مكانية يتعذر معها اللقاء، أو يستحيل معها التلقي والأداء، كما يلزم اتصاف الرواة بالعدالة، وهي صفة خلقية تحمل صاحبها على ملازمة المروءة والتقوى، ومجانبة الفسوق والابتداع، ولا بد أن يتصف الراوي أيضا بالتثبُّت من الحفظ، والسلامة من الخطأ، وانعدام الوهم مع القدرة على استحضار ما حفظه؛ وهذا شرط في جميع رواة الحديث الصحيح من أول السند إلى آخره؛ يضاف ذلك إلى عدم مخالفة الراوي لمن هو أوثق منه، ولا يكون أيضا في روايته علة قادحة، أو سبب ظاهر يؤدى إلى عدم ثبوت الحديث.

أما الحكم على ثبوت الحديث بالهوى والرأي المجرد عن الدليل كما فعل أغلب الفرق البدعية من الصوفية والمعتزلة والأشعرية والفلاسفة؛ فلا يعد ذلك رجوعا إلى الوحي أو النقل الصحيح؛ لأن الآراء العقلية متعددة، والأذواق مختلفة ومتغيرة، ولا يمكن ضبط مثل هذه الأشياء.

ومن ثم لا عبرة بمثل قول ابن عربي الصوفي في زندقته: (ربما صح عندنا من

أحاديث الأحكام ما اتفق المحدثون على ضعفه وتجريح نقلته، وقد أخذناه عن الكشف عن قائله صحيحا، فنتعبد به أنفسنا على غير ما تقرر عند علماء الأصول، ورب حديث قد صححوه واتفقوا عليه، وليس بصحيح عندنا بطريقة الكشف، فنترك العمل به) [1].

• هل يمكن أن يتعارض العقل الصريح مع النقل الصحيح؟

العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح بل يشهد له ويؤيده لأن المصدر واحد، فالذي خلق العقل هو الذي أرسل إليه النقل؛ ومن المحال أن يرسل إليه ما يفسده، وإذا تعارض العقل مع النقل؛ فذلك لسببين لا ثالث لهما: إما أن النقل لم يثبت، فيتمسك مدعي التعارض بحديث ضعيف أو موضوع، وإما أن العقل لم يفهم النقل، ولم يدرك خطاب الله على النحو الصحيح.

إن الله ﷻ أعلم بصناعته لعقل الإنسان، وأعلم بما يصلحه في كل زمان ومكان، فإذا وضع الله نظاما ببالغ علمه وحكمته لصلاح صنعته، والتزم الإنسان به، كان من المحال أن يضل أو يشقى، أو يعيش معيشة ضنكا، إذا اتبع هذا النظام؛ ومعلوم عند سائر العقلاء أن أولى وأفضل من يضع نظام التشغيل للمصنوعات هو صانعها؛ فالهداية الحقيقية تكمن في قيادة النقل الصحيح لصاحب العقل الصريح، أو بتعبير آخر تكمن في قيادة الوحي الذي يمثل منهج الإسلام ودستوره ونظامه للعقلاء من البشر أصحاب الفطرة السليمة النقية.

والأدلة على ذلك من كتاب الله كثيرة لا تكاد تحصى؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ

---

(١) رسائل ابن عربي ص٤، دار إحياء التراث، حيدر آباد، الهند، ١٩٤٨م.

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ الشورى:٥١/ ٥٣.

وقد بين النبي ﷺ في أحاديث كثيرة أن صلاح الإنسانية في اتباع دينه ومنهجه في الحياة، والممثل في النقل الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ، وأن سنته هي وحدها سبيل النجاة، كما صح من حديث أبي هُريرة رضي الله عنه أنّ رسُول الله ﷺ قال: (كُل أُمّتي يدْخُلون الجنّة إلا منْ أبى، قالوا: يا رسُول الله، ومنْ يأْبى؟ قال: منْ أطاعني دخل الجنّة، ومنْ عصاني فقدْ أبى) [١].

ولا يمكن لعاقل يعلم أن صلاح الصنعة في اتباع نظام التشغيل الذي وضعه صانعها، لاسيما إن كان الصانع موصوفا بالعلم والخبرة، وكمال الحكمة وجودة الصنعة، ثم يعتمد في تشغيلها على نظام بديل لا علاقة له بالصنعة في قليل أو كثير، قد وضعه إنسان جاهل عاجز فقير، مهما ادعى أن نظامه ليس له في الدنيا مثيل أو نظير في الحرية والتقدم!

وكذلك لم نر عاقلا لديه صنعة قيمة في ذاتها، وقد دفع أموالا طائلة في شرائها، ثم عجز عن تشغيلها، أو ظن أنها قد تعطلت عن وظيفتها، وذهب في إصلاحها إلى غير وكيلها أو مُصنِّعها؛ فإذا كان المسلم العاقل مقرا بذلك فيما يحدث بين البشر، فكيف يترك شرع الله وهدايته، ويطلب هداية غير المسلمين في تشريعاتهم، ونظم حياتهم، وأخلاقهم وسلوكياتهم، ويستوردها من اليهود والنصارى والبوذيين وعباد الهوى في الشرق والغرب؟

---

(١) البخاري في الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ٦/ ٢٦٥٥ (٦٨٥١).

قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) ﴾ البقرة:١٢٠. وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ الكهف:١٠٣/ ١٠٤.

• ما المقصود بمصطلح السلف؟

المقصود بمصطلح السلف هو الجيل المؤسس الذي أقام الدين، وطبق منهج الإسلام، وهو جيل الصحابة ﷺ والتابعين وتابع التابعين، وأئمة المذاهب الفقهية الكبرى؛ ويمكن تحديد من ينطبق عليه اصطلاح السلف بأمرين أساسيين: الأول زمني، والآخر منهجي؛ فالعامل الزمني يتناول كل من أدرك عصر خير القرون، وهي المدة الزمنية التي ورد ذكرها في قول النبي ﷺ: (خيْرُ الناس قرْني، ثمّ الذين يلونهُمْ، ثمّ الذين يلونهُمْ، ثمّ يجيءُ قوْمٌ تسْبقُ شهادةُ أحدهمْ يمينهُ، ويمينهُ شهادتهُ) [(١)].

وهذه المدة الزمنية تنتهي بنهاية الربع الأول من القرن الثالث الهجري عندما فرض الخليفة المأمون بن هارون الرشيد مذهب المعتزلة بالقوة على مستوى الخلافة الإسلامية، فأصبح مذهب المعتزلة الذين يقدمون عقولهم على كتاب ربهم هو السائد بعد عصر السلف.

أما العامل المنهجي فهو اتباع طريقة السلف الصالح في الإيمان والتسليم، إذ يؤمنون بكل خبر عن الله ورد في القرآن والسنة، ويصدقون به تصديقا

(١) البخاري في الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا ٥/ ٢٣٦٢ (٦٠٦٥).

جازما يبلغ حد اليقين، وينفذون الأمر الشرعي تنفيذا كاملا، ويعلمون أن ما جاء في القرآن وصحيح السنة لا يمكن أن يعارض العقل الصريح.

ومن ثم فإن كل من تحقق فيه هذان العاملان فهو سلفي اصطلاحا، كما أن كل من أعقبهم وجاء بعدهم وسار على طريقهم فهو سلفي في المنهج وهو من خير خلف لخير سلف، وإن لم يدخل تحت السلف اصطلاحا.

• ما المقصود بمصطلح الخلف؟

يقال: خلف فلان فلانا جاء خلفه، والخلَف اصطلاح يتناول كل من أعقب عصر السلف، أو كل من لم يدرك عصر خير القرون، وقدم عقله وهواه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبدايته الرسمية وقت سيطرة المعتزلة على الخلافة الإسلامية في عصر المأمون بن هارون، حيث اتبع المعتزلة منهج فلاسفة اليونان كأرسطو وأفلاطون وغيرهما من المشركين، واعتبروا كلامهم أصلا وميزانا لقياس الأمور الغيبية، وما عارض ذلك من القرآن والسنة جعلوها أدلة ظنية لا تفيد اليقين، أو مجازات خيالية لا حقيقة لها، أو أنها أخبار آحاد لا يجوز أن يحتج بها على أصولهم العقلية، هذا الاتجاه هو ما عرف بمذهب الخلف قديما، ويصدق عليه من سار على دربهم حديثا.

ومعلوم أن طريقة السلف هي أسلم وأعلم وأحكم طريقة، وهي الطريقة الواجبة على جميع الخلق في التوحيد والعقيدة والإيمان بالغيبيات والعمل بالأوامر والتكليفات، فليس هناك أفضل من الالتزام بقول الله ورسوله ﷺ، لأن الله تعالى بعث محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وشهد له بأنه بعثه داعيا إليه بإذنه وسراجا منيرا؛ ومن المحال عقلا

ودينا أن يكون نبينا محمد ﷺ قد ترك العلم بالله ملتبسا مشتبها، ولم يميز للناس ما يليق بالله من الأسماء والصفات أو الشرائع والتكليفات حتى يأتي أهل البدع من المعتزلة وأتباعهم بكلام فلاسفة المشركين ليبينوا لنا حقيقة أصول الدين!

• ما هي مراتب الناس في تصديق خبر الله ورسوله ﷺ ؟

الخبر هو ما يحتمل الصدق أو الكذب، ويتطلب التصديق، والأمر هو ما لا يحتمل الصدق أو الكذب، ويتطلب التنفيذ؛ والناس في مراتب التصديق بخبر الله ورسوله ﷺ على ستة أنواع: ثلاثة منها لغير المسلمين، وثلاثة للمسلمين على تنوع أهل اليقين في درجاته؛ فأما الثلاثة التي لغير المسلمين فهي مرتبة الوهم، ثم مرتبة الشك، ثم مرتبة الظن؛ وأما الثلاثة التي للمسلمين فلا بد فيها من اليقين كشرط لازم من شروط لا إله إلا الله، وهي مرتبة علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، ولمزيد من البيان يمكن ترتيب تلك المراتب على النحو التالي:

أولا: الوهم، وهو غلبة التكذيب بالخبر على التصديق، فإن كان تكذيب القلب بخبر الله ورسوله ﷺ أكبر من التصديق، سمي ذلك عند علماء الأصول وهما، وصاحبه لا يكون مسلما.

ثانيا: الشك، وهو استواء نسبة التكذيب في القلب مع نسبة التصديق، فإن كان تكذيب القلب بخبر الله ورسوله ﷺ مساويا للتصديق، سمي ذلك شكا، وصاحبه لا يكون مسلما أيضا.

ثالثا: الظن، وهو زيادة نسبة التصديق في القلب على التكذيب، حتى لو

امتلأ القلب بالتصديق وبقي فيه شيء يسير من التكذيب فإنه يسمي ظنا، وصاحبه لا يكون مسلما أيضا؛ وقد ذكر الله ﷻ حال المشركين والكافرين واعتقادهم الظن في وقوع البعث فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ الجاثية:٣٢.

رابعا: علم اليقين، وهي درجة تنفي الوهم والشك والظن، فإذا صدَّقت بقلبك تصديقا كاملا لا تكذيب فيه، فإن ذلك يسمى يقينا، كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ التكاثر:٥/٦. وعلم اليقين شرط من شروط لا إله إلا الله، ولا يصح الإسلام إلا بهذا اليقين، الذي يمحو التكذيب من القلب بدرجاته المختلفة، وربما يضعف نور اليقين في قلب المسلم، لكنه لا ينزل أبدا إلى الظن والشك والوهم .

خامسا: عين اليقين، وهي درجة أعلى من علم اليقين، حيث يصل المسلم إلى درجة يعبد ربه كأنه يراه، وتلك الحالة التي كانت تحدث لكثير من الصحابة ﷺ إذا ذكرهم النبي ﷺ بالجنة أو النار، كما قال حنظله الأسيّدي ﷺ قال: (نَكُونُ عِنْدكَ تذكِّرُنَا بالنَّارِ وَالجَنَّةِ حتى كَأَنَّا رَأْيَ عَينٍ) [1].

سادسا: حق اليقين، وهي درجة أعلى في اليقين تؤثر في شعور الإنسان وإحساسه الإيماني عند إدراكه اليقيني، فعلم اليقين كعلمك بوجود العسل، وعين اليقين رؤيتك له بالبصر، وحق اليقين إحساسك بمذاقه على اللسان، وقد صح أن النبي ﷺ قال: (يا أُمّة مُحمّد، والله لوْ تعْلمُون ما أعْلمُ،

---

(١) رواه مسلم في كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر ٤/ ٢١٠٦ (٢٧٥٠).

لضحكْتمْ قليلا، ولبكيتمْ كثيرًا)[1].

• **ما هي طريقة الصحابة والتابعين في فهم القرآن والسنة؟**

حقيقة الإسلام في القرون الفاضلة قبل قيام الفرق الضالة والمذاهب المنحرفة كانت ممثلة في تصديق الصحابة ﷺ لخبر الله، وتنفيذ أمره، فتصديق الخبر هو معنى الإيمان، وتنفيذ الأمر هو معنى الإسلام.

وهذا المنهج يعتبر منهجا إيمانيا فطريا مبنيا على الفهم الدقيق لحقيقة الإسلام والإيمان، فهم كانوا ﷺ يصدقون خبر الله ورسوله ﷺ تصديقا جازما ينفي الوهم والشك والظن، وكانوا ينفذون الأمر تنفيذا كاملا يقوم على الطاعة والإخلاص والحب، بحيث تنسجم فطرتهم النقية مع توجيه النصوص القرآنية والنبوية، فتصديق الخبر وتنفيذ الأمر هو منهج السلف الصالح في مختلف العصور.

لقد كان المسلم في عصر خير القرون عندما يشهد ألا إله إلا الله؛ فإنه يعقد في نفسه عقدا أن الله ﷻ هو المعبود الحق الذي يصدق في خبره دون تكذيب، والذي يطاع في أمره دون عصيان، وتلك حقيقة الإيمان التي نزل بها القرآن، وفهمها أصحاب اللسان.

• **ما هي أركان الإيمان المتعلقة بتنفيذ الأمر وتصديق الخبر؟**

الإيمان في باب تنفيذ الأمر له ثلاثة أركان، وهي الإيمان بالقلب، والإيمان باللسان، والإيمان بالجوارح، وكل واحد من هذه الأركان يستقل بتنفيذ أحكام العبودية بأنواعها المختلفة، فالنية والإخلاص والمحبة والخوف

(٢) رواه البخاري في الكسوف، باب الصدقة في الكسوف ١/ ٣٥٤ (٩٩٧).

والرجاء وغيرها من الأعمال الباطنة هي دور القلب ووظيفته، وقد يشترك القلب مع اللسان في تنفيذ حكم واحد كالنطق بالشهادتين، أو يشترك القلب مع اللسان والجوارح في تحقيق أحكام العبودية مثل الصلاة والزكاة والصيام والحج، فالإيمان في باب تنفيذ الأمر؛ يعني عند أهل السنة الإسلام والخضوع والاستسلام لأحكام العبودية.

أما الإيمان في باب تصديق الخبر فله ستة أركان، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وهي أركان تتطلب التصديق بكل ما جاء في القرآن والسنة عن عالم الغيب، وهي تسمى في علم العقيدة توحيد العلم والخبر، أو توحيد المعرفة والإثبات، أو توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

والقصد أنه إذا تم الإيمان بنوعيه المتعلقين بتصديق الخبر، وتنفيذ الأمر، ظهر كمال الدين وصدق اليقين، والدليل على ذلك ما صح عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: (بينما نحنُ عنْد رسُول الله ﷺ ذات يوْم، إذ طلع علينا رجُل، شديد بياض الثياب، شديد سواد الشّعر، لا يرى عليه أثرُ السّفر، ولا يعْرفهُ منّا أحد، حتى جلس إلى النّبي ﷺ فأسْند رُكْبتيه إلى رُكْبتيه، ووضع كفّيه على فخذيه، وقال: يا مُحمّد أخْبرْني عن الإسْلام؟ فقال رسُول الله ﷺ: الإسْلامُ أنْ تشْهد أنْ لا إله إلاّ اللهُ، وأنّ مُحمّدا رسُول الله، وتقيم الصّلاة، وتؤْتى الزّكاة، وتصُوم رمضان، وتحُجّ البيت إن اسْتطعْت إليه سبيلاً. قال: صدقْت. قال: فعجبنا لهُ يسْألهُ ويصدقهُ. قال: فأخْبرْني عن الإيمان؟ قال: أنْ تؤْمن بالله وملائكته وكُتبه ورُسُله واليوْم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه، قال: صدقْت. قال: فأخْبرْني عن الإحْسان؟ قال: أنْ تعْبُد اللهّ كأنّك تراهُ؛ فإنْ

لم تكنْ تراهُ فإنّهُ يراك. قال: فأخْبرْني عن السّاعة؟ قال: ما المسئُول عنْها بأعْلم من السّائل. قال فأخْبرْني عنْ أمارتها؟ قال: أنْ تلد الأمة ربّتها وأنْ ترى الحفاة الْعُراة الْعالة رعاء الشّاء يتطاولون في الْبُنْيان . قال: ثمّ انْطلق فلبثْتُ مليًّا ثمّ قال لي: يا عُمرُ أتدْرى من السّائل؟ قلْتُ: الله ورسُولهُ أعْلمُ. قال: فإنّهُ جبْريل، أتاكُمْ يُعلّمُكُمْ دينكُمْ)[1].

• ما معنى الإيمان في حديث سفيان؟

روى مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ أنه قال: (قُلت: يا رسُول الله، قُل لي في الإسْلام قوْلاً لا أسْأل عنْهُ أحدا بعْدك؟ وفي حديث أبي أُسامة، غيرك، قال: قُل آمنْت بالله فاسْتقمْ)[2].

الإيمان الذي سأل عنه سفيان في الحديث هو تصديق خبر الله، وتنفيذ أمره، وهذا الإيمان يهدف إلى تأسيس العقيدة الصحيحة على اتباع طريق الاستقامة والاعتدال، وهو طريق الوسطية والشمولية.

وقد ظل أمر السلف الصالح في القرون الأولى الفاضلة على هذا الطريق، يسيرون بفضل الله على درب نبيهم، يلتزمون بالسنة لا يقصرون فيها، ولا يهونون منها، ويحذرون من البدعة وينبهون على خطورتها.

• كيف ظهرت بدعة الجهمية وأصحاب المدرسة العقلية؟

المقصود بالجهمية هم أصحاب المدرسة العقلية الذين يقدمون آراءهم على كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، وينسبون إلى رجل يسمى الجهم بن صفوان

---

(١) مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/ ٣٦ (٨).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام ١/ ٦٥ (٣٨).

الخرساني (ت:١٢٨هـ)، وكان متحذلقا كثير الكلام والجدال، ولم يكن له علم، ولا مجالسة لأهل العلم، بل كلامه وجداله أساسه الفلسفة الكاذبة واتباع الرأي وهوى النفس.

وكانت عقائد الجهم ونظرياته مبنية على التشكيك في العقيدة، والاعتراض على الوحي، وقد كانت بداية أفكاره البدعية عندما لقي أناسا من المشركين، يقال لهم السمنية، نسبة إلى قرية بالهند تسمى سُومنات، وهي فرقة وثنية تعبد الأصنام وتنكر الوحي والدين، حيث جرت بينهم وبين الجهم مناظرة؛ فقالوا له: نكلمك ونناظرك، فإن ظهرت حجتنا عليك، دخلت في ديننا؛ وإن ظهرت حجتك علينا، دخلنا في دينك؛ فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له: ألست تزعم أن لك إلها؟ قال الجهم: نعم؛ قالوا له: فهل رأيت إلهك؟ قال: لا؛ قالوا: فهل سمعت كلامه؟ قال: لا؛ قالوا: فهل شممت له رائحة؟ قال: لا؛ قالوا: فوجدت له حسا؟ قال: لا؛ قالوا: فما يدريك أنه إله؟ فتحير الجهم، فلم يدر من يعبد أربعين يوما.

ثم زعم أن الله حل في العالم، وأنه بذاته في كل مكان، وهو موجود في كل الوجود، كوجود الروح في الجسد، فقال لمن ناظره من السمنية: ألست تزعم أن فيك روحا؟ قال السمني: نعم، فقال له: هل رأيت روحك؟ قال: لا؛ قال: فسمعت كلامها؟ قال: لا؛ قال: فوجدت لها حسا؟ قال: لا؛ قال: فكذلك الله لا يرى له وجه، ولا يسمع له صوت، ولا يشم له رائحة، وهو غائب عن الأبصار، وهو في كل مكان، وهو موجود في كل الوجود، هو هذا الهواء، مع كل شيء، وفي كل شيء، ولا يخلو منه شيء، فالمخلوقات بمثابة الجسد، والله في داخلها بمثابة الروح.

• ما هو الرد السلفي على شبهة السمنية؟

كان يكفي الجهم بن صفوان في الرد على السمنية أن يقول: إن الله يُرى في الآخرة جزاءا للمؤمنين، ولا يُرى في الدنيا ابتلاءا للناس أجمعين؛ لأنه اختبرنا فيها، وابتلانا بها، فاستخلفنا في أرضه، واستأمننا في ملكه، فلو رأينا الله، أو رأينا ملائكته، أو رأينا جنته أو عذابه، لما كان لوجود الإنسان في الأرض بهذا الوضع أي معنى يذكر، فكيف يتحقق معنى الابتلاء والامتحان ويمتاز أهل الطاعة والإيمان عن أهل الشرك والعصيان؟ أو كيف يتحقق معنى الإيمان بالله ونحن نراه؟ وإذا كان الله ﷻ لا يرى في الدنيا ابتلاءا، فإنه يرى في الآخرة جزاء وإكراما لأهل طاعته، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ القيامة:٢٢/٢٣. وقد تواترت الأحاديث النبوية الصحيحة في إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

غير أن الجهم بن صفوان بهذا الفكر العقلي الخبيث الذي زعم به أن الله ﷻ حل في مخلوقاته، وأنه سبحانه موجود في كل الوجود، نظر في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكذلك نظر إلى كلام النبي ﷺ، فما توهم بظنه السيئ أنه يوافق رأيه من النصوص احتج بها، وما توهم أنه يخالفه منها أنكرها وأولها وعطلها عن مدلولها، أو اتهمها بأنها أمور ظنية وآحاد مروية لا تدل على أمور يقينية، فوجد قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥)﴾ طه:٥. فأراد أن يحذفها من المصحف.

قال أبو نعيم البلخي وكان قد أدرك جهما: (كان للجهم صاحب يكرمه ويقدمه على غيره، فإذا هو قد هجره وخاصمه، فقلت له: لقد كان يكرمك،

فقال: إنه جاء منه ما لا يتحمل، بينما هو يقرأ سورة طه والمصحف في حجره، إذ أتى على هذه الآية: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ ﴾ طه:٥. فقال: لو وجدت السبيل إلى أن أحكها من المصحف لفعلت، فاحتملت هذه؛ ثم إنه بينما يقرأ آية أخرى إذ قال: ما أظرف محمدا حين قالها؛ فاحتملت هذه؛ ثم بينما هو يقرأ القصص والمصحف في حجره، إذ مر بذكر موسى عليه السلام فدفع المصحف بيديه ورجليه، وقال: أي شيء هذا؟ ذكره هنا فلم يتم ذكره، وذكره هنا فلم يتم ذكره!)[1].

وقد زعم الجهم بن صفوان أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ فهو مشبه، وأن التوحيد الحق هو نفي هذه الصفات، متمسكا في زعمه كسائر أتباعه الجهمية من المعتزلة والأشعرية بقوله تعالى: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ الشورى:١١. سواء كان نفي الصفات عندهم نفيا واضحا، أو كان بتأويل القرآن على غير معناه، أو بلَوْي أعناق النصوص بغير ما تحتمل، فزعم الجهم أن الله في كل مكان كما الروح في الجسد، وهذا كلام باطل من جميع الوجوه، لأن الله سبحانه وتعالى لا يحل في مخلوقاته، فقد ثبت أنه بذاته في السماء فوق العرش، وعرشه فوق الماء، والماء فوق السماء السابعة، وهو سبحانه في سمائه يدبر أمر مخلوقاته، ويعلم ما هم عليه، غير أن الجهم بن صفوان قد أضل خلقا كثيرا، وتبعه على قوله رجل يقال له واصل بن عطاء، وآخر يقال له عمرو بن عبيد، وإليهما ينسب مذهب المعتزلة الذي استمر على طريقة الجهمية.

(١) كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل ١/ ١٦٧ (١٩٠).

• كيف نشأت المعتزلة وما هي أصولهم الخمسة؟

تبنى واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد فكرة الجهم بن صفوان في تقديم العقل على النقل، وأن يكون عقل الإنسان حاكما على القرآن والسنة، فيأخذ ما يراه مناسبا، ويبطل ما يراه مخالفا لهواه، وإلى هذين الرجلين ينسب مذهب الاعتزال، فالمعتزلة هم أتباع واصل بن عطاء الغزال (ت:١٣١هـ) الذي كان تلميذا ضمن الطلاب الدارسين في حلقة شيخه الحسن البصري، أحد علماء السلف الصالح، فجاء إلى الحلقة رجل من عامة المسلمين يسأل عن الحكم الشرعي في مرتكب الكبيرة؟

ومعلوم أن أهل السنة والجماعة يقولون بأن مرتكب الكبيرة مسلم فاسق، لا يخرج عن الملة، والخوارج يقولون بأن مرتكب الكبيرة كافر بالله العظيم مخلد في النار؛ وقبل أن يجيب الشيخ حسن البصري قام واصل بن عطاء دون أدب ولا حياء، وقال: إن الفاسق من هذه الأمة لا هو مؤمن ولا هو كافر، هو في منزلة بين المنزلتين.

أجاب واصل بن عطاء بعقله دون احترام لشيخه، ودون علم أو نظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، عند ذلك رده الحسن البصري، وبين حكم مرتكب الكبيرة؛ وبدلا من أن يرجع واصل بن عطاء عن خطئه، ويعتذر لشيخه عن سوء أدبه أخذته العزة بالإثم، واعتزل مجلس الحسن البصري، وجلس إلى سارية من سواري المسجد في البصرة، وانضم إليه بعد ذلك رجل آخر يقال له عمرو بن عبيد، واجتمع إلى واصل بن عطاء أراذل الناس من أتباع الجهم بن صفوان، فكان الحسن البصري يقول: اعتزلنا واصل، اعتزلنا واصل، وكان بقية طلاب العلم من تلاميذ الحسن البصري يطلقون عليهم

المعتزلة، فأصبح هذا الاصطلاح مقترنا بهم عند عامة المسلمين.

وكان هؤلاء المعتزلة يزعمون أنهم يريدون الزهد والصلاح، والنصح والإصلاح، وكانت لهم صلة وصحبة ببعض حكام الدولة العباسية كالخليفة المأمون بن هارون الرشيد (ت:٢١٨هـ) فزينوا له مذهبهم الباطل حتى جعل العقيدة الرسمية للخلافة الإسلامية عقيدة المعتزلة، ووقعت الأمة الإسلامية بأسرها في بدعة كبرى وطامة عظمى عصفت بها في القرن الثالث الهجري، وهي بدعة خلق القرآن التي ما زال المسلمون يكابدون آثارها حتى الآن.

وقد أسس المعتزلة مذهبهم على خمسة أصول رنانة وشعارات فتانة، اغتر بها كثير من المسلمين في الماضي، وكثير من العلمانيين في الحاضر، وكل أصل من أصولهم الخمسة وضعوه على عكس معناه الوارد في الكتاب والسنة، فالأصل الأول هو التوحيد ومعناه عندهم هدم التوحيد عند السلف، والثاني هو العدل وحقيقة معناه نفي العدل في حق الله، وإثبات الظلم العظيم باعتقادهم وجود شركاء لله في الخلق، والثالث هو المنزلة بين المنزلتين، ويقصدون به أن العاصي خرج من الإسلام ولم يدخل في الكفر، وهذا مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والرابع هو إنفاذ الوعيد حيث أوجبوا على الله ألا يُخرج من النار من شاء بشفاعة النبي ﷺ، والخامس هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويقصدون بالمعروف أصولهم الخمسة والمنكر هو ما خالفها حتى لو كان من القرآن والسنة، كما أحدثوا بدعا كثيرة ابتليت بها الأمة الإسلامية على رأسها بدعة القول بخلق القرآن.

- **ما المقصود بعلم التوحيد لغة واصطلاحا؟**

التوحيد لغة مصدر وحد يوحد أي أفرد الشيء يفرده، فالمتوحد هو

المنفرد عن غيره باسمه ووصفه وفعله، والمقصود بتوحيد الصحابة ﷺ لربهم أنهم أفردوا الله ﷻ عن غيره بما أثبته لنفسه من أنواع الكمالات في العبودية والربوبية والأسماء والصفات، فهو وحده رب العالمين المستحق للعبادة، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ الفاتحة:٥. وهو المتوحد في أسمائه وصفاته وأفعاله كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١﴾ الشورى:١١. وهو المتوحد في الربوبية، فهم يؤمنون بأنه سبحانه وتعالى منفرد بالخلق والتدبير، وإليه يرجع الأمر والتقدير، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٥٤﴾ الأعراف: ٥٤.

أما التوحيد في الاصطلاح؛ فهو علم يعرف به طريقة الصحابة والتابعين في توحيد الله بالعبودية، مع إثبات العقائد الإيمانية بأدلتها النقلية والعقلية، والرد على المبتدعين في العبادات، والمخالفين لأهل السنة والجماعة في الاعتقادات بالأدلة النقلية والعقلية.

• ما هي أنواع التوحيد التي وردت في القرآن والسنة؟

التوحيد الذي ورد في القرآن والسنة نوعان: نوع يتعلق بتنفيذ الطلب والآخر يتعلق بتصديق الخبر، فالنوع الأول الذي يتعلق بتنفيذ الطلب، أو الطاعة لأمر الله ورسوله ﷺ، يطلق عليه توحيد الغاية لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ الذاريات:٥٦. ويسمى أيضا توحيد الإلوهية، وربما يطلق عليه أيضا توحيد العبادة، وتوحيد القصد والطلب، وتوحيد الشرع والقدر، وتوحيد الإرادة.

أما النوع الثاني الذي يتعلق بتصديق الخبر؛ فيطلق عليه توحيد الوسيلة، لأن الإيمان به وحده لا يكفي لدخول الجنة؛ فلابد من تحقيق توحيد العبادة، ويسمى النوع الثاني أيضا بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، أو يطلق عليه توحيد المعرفة والإثبات، أو توحيد العلم والخبر.

لقد كان أصحاب النبي ﷺ يعلمون أن مصطلح الإسلام الذي ورد تعريفه في حديث جبريل عليه السلام هو في حقيقته توحيد العبادة لله، وإفراده بها، فالإسلام هو الخضوع والاستسلام للمعبود على وجه المحبة والتعظيم، وهذا تعريف العبادة؛ كما أن أركان الإيمان التي وردت في حديث جبريل عليه السلام هي في حقيقتها توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وما يجب على المسلم اعتقاده في باب الغيبيات.

والصحابة كلهم رضي الله عنهم كانوا على عقيدة واحدة في توحيد الله بالعبودية، والإقرار بما جاء من عند الله، سواء في توحيد الربوبية، أو في توحيد الأسماء والصفات أو سائر ما ورد في النقل الصحيح من الغيبيات، فتصنيف السلف الصالح للتوحيد إلى نوعين يتوافق مع النقل والعقل والفطرة السليمة.

وقد يصنف التوحيد إلى ثلاثة أنواع على اعتبار أن توحيد الربوبية الأسماء والصفات هو في حقيقته نوعان، الأول توحيد الربوبية، والثاني توحيد الأسماء والصفات، وعلى ذلك فإن النوع الثالث سيكون توحيد العبادة لله كما تقدم، وهذا التصنيف هو الذي اشتهر حتى الآن.

الفصل الثاني

عقيدة أهل السنة في توحيد الصفات

• ما هي قواعد العقيدة في توحيد الصفات عند أهل السنة؟

عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد الصفات تقوم على أربع قواعد أساسية، ولكل قاعدة محذوران أساسيان لا بد من عدم الوقوع فيهما، القاعدة الأولى هي التوحيد، وهو أساس الاعتقاد السلفي في باب الأسماء والصفات، ومحذورات القاعدة الأولى التي لا يجوز للمسلم الاقتراب منها هي التمثيل المبني على قياس التمثيل، والتكييف المبني على قياس الشمول.

أما القاعدة الثانية فهي إثبات الصفات على مراد الله ورسوله ﷺ، ومحذوراتها أمران أساسيان يجب على المسلم عدم الاقتراب منهما، المحذور الأول هو التعطيل ورد الآيات القرآنية والنصوص النبوية الثابتة، والمحذور الثاني هو التحريف المبني على التأويل بغير دليل.

وأما القاعدة الثالثة فهي الكف عن طلب الكيفية للحقائق الغيبية، وصيانة لهذه القاعدة يجب الحذر أيضا من أمرين أساسيين، الأمر الأول هو القول بالتفويض أو الزعم الباطل بأن كلام الله ورسوله ﷺ بلا معنى، والأمر الثاني هو تقديم العقل على النقل في التعرف على توحيد الأسماء والصفات وسائر ما ورد في الوحي عن الغيبيات.

أما القاعدة الرابعة والأخيرة فهي الإيمان بما جاء في الوحي كله، سواء في الأسماء والصفات؛ أو في سائر الموضوعات الأخرى، فلا يجوز للمسلم أن يؤمن ببعض ما نزل من عند الله في أسمائه وصفاته دون بعض؛ وأما محذورات القاعدة الرابعة فيجب على المسلم أن يحذر من أمرين أساسيين، الأول هو بدعة المعتزلة في إثبات الأسماء ونفي الصفات، والثاني هو بدعة الأشعرية في إثبات سبع صفات دون غيرها مما ورد في الكتاب والسنة.

- **ما المقصود بالقاعدة الأولى في توحيد الصفات؟**

القاعدة الأولى التي قام عليها اعتقاد أهل السنة والجماعة في التعرف على أوصاف الله ﷻ هي توحيده وإفراده عمن سواه، فهم يتميزون عن سائر الناس بهذه الصفة، صفة التوحيد، سواء كان ذلك في إيمانهم بربوبية الله تعالى وإفراده بالخلق والأمر؛ كما قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ الأعراف:٥٤. أو كان في عبادتهم له سبحانه، فلا يخضعون لأحد عن إخلاص ومحبة ورغبة إلا لله، ولا يشركون معه في العبادة سواه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ البينة:٥. أو كان في إيمانهم بما أثبته الله لنفسه من أنواع الكمالات في الأسماء والصفات، فالتوحيد يُقصد به في باب الصفات إفراد الله سبحانه بذاته وصفاته وأفعاله عن الأقيسة والقواعد والقوانين التي تحكم ذوات المخلوقين وصفاتهم وأفعالهم.

والدليل على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ الشورى:١١. والشاهد من الآية أن الله سبحانه بين

انفراده بجميع ما ثبت له من أوصاف الكمال والجمال، وتوحده فيها عن أوصاف المخلوقين وعن كل ما يحكمهم من قوانين. وقال تعالى في أول سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ الإخلاص:١. وقال في نهايتها مبينا معنى الأحدية: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ الإخلاص:٤. أي أن الأحد هو المنفرد بأوصاف الكمال، الذي لا مثيل له فنحكم على كيفية أوصافه من خلاله، ولا يستوي مع سائر الخلق؛ فيسري عليه معهم قانون جامع، أو قياس شامل، أو قواعد تحكمه كما تحكمهم، لأنه اتصف بالتوحيد، وانفرد عن أحكام العبيد. وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ مريم:٦٥. والمعنى الذي دلت عليه الآية: هل تعلم لله شبيها مناظرا يدانيه أو يساويه، أو يرقي إلى سمو ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؟

وعلى ذلك فإنه لا يمكن بحال من الأحوال أن نخضع أوصاف الله لما يحكم أوصاف البشر من قوانين، فمن البلاهة العقلية أن نطبق قوانين الجاذبية الأرضية على استواء الله على عرشه، أو على حملة العرش، أو على نزوله إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل؛ لأن ذلك قد ينطبق على الإنسان وهو في مجال الأرض، لكنه ذلك لا ينطبق على رب السماوات والأرض، فهو سبحانه متوحد عن قوانين البشر؛ منفرد بذاته وصفاته وأفعاله.

ومعلوم أننا لم نر الله، ولم نر له مثيلا، أو شبيها، أو نظيرا، والشيء لا يعرف إلا برؤيته، أو برؤية نظيره، فكيف نقول كما قالت الجهمية والمعتزلة والمتكلمون الأشعرية والماتريدية لو كان الله على العرش لكان محمولا؟! ولذلك فإن السلف الصالح فرقوا بين النصوص التي تدل على المخلوق، والنصوص التي تدل على الخالق؛ فالنصوص التي تدل على المخلوق تليق به،

وظاهرها مراد في حقه؛ وهي معلومة المعني لورودها في القرآن والسنة باللغة العربية، وكذلك معلومة الكيفية؛ لأننا نراها بحواسنا ومداركنا، أو نري نظيرها فنحكم عليها بالتشابه أو المثلية.

أما النصوص القرآنية والنبوية التي تدل على الخالق فهي معلومة المعني أيضا؛ لأن الله ﷻ خاطبنا باللغة العربية، ولم يخاطبنا بالأعجمية، فلا يمكن القول إن كلام الله بلا معنى، أو إن كلام الله يشبه كلام الأعاجم والألغاز التي لا تفهم؛ أما الكيفية الغيبية للصفات الإلهية التي دلت عليها تلك النصوص فهي كيفية حقيقية، معلومة لله وتليق به، لكنها مجهولة لنا، لا نعلمها، لأننا ما رأينا الله ﷻ. فقد روى مسلم أن النبي ﷺ قال: (تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَي أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ ﷻ حتى يَمُوتَ) [1]. وكذلك ما رأينا لكيفيته سبحانه وتعالى نظيرا أو مثيلا نحكم عليها من خلاله إذ يقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ⑪﴾ الشورى:١١.

• ما هي محذورات القاعدة الأولى في توحيد الصفات؟

من الأمور الهامة التي ينبغي الحذر منها صيانة للقاعدة الأولى، وحتى لا يهدم المسلم التوحيد في قلبه، أو تشوبه شائبة في الإيمان بوصف ربه، أن يحذر من نوعين من القياس حرمهما الله ﷻ على من استخدمهما في حقه، الأول يسمى قياس التمثيل، والثاني يسمى قياس الشمول.

وقد وقع فيهما أهل الضلال من الممثلة والمشبهة الذين جسدوا في أذهانهم صورة للإنسان، وزعموا أن أوصاف الله ﷻ التي وردت بها النصوص في

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد ٤/ ٢٢٤٥ (١٦٩).

القرآن والسنة على هذه الكيفية الجسدية، وقد استخدم الممثل النوع الأول من القياس وهو قياس التمثيل؛ أما النوع الثاني وهو قياس الشمول فقد استخدمه المشبه، وأحيانا يطلق عليه المكيف.

- **ما هو قياس التمثيل ولماذا لا يجوز استخدامه في حق الله؟**

قياس التمثيل هو إلحاق فرع بأصل في حكم جامع لعلة؛ وهو جائز في باب الفقه، ومثاله قياس مخدر الحشيش كفرع على الخمر كأصل في حكم التحريم لعلة الإسكار وذهاب العقل، وهذا القياس وإن كان استخدامه جائزا في باب الفقه وقياس الأشياء في عالم الشهادة، فإنه لا يجوز استخدامه في حق الله، فلا يصح قول الممثل: استواء الله على العرش كاستواء الإنسان على العرش، وله وجه كوجه الإنسان، ويد كيد الإنسان؛ لأن الممثل جعل صفة الإنسان التي لا يعرف غيرها أصلا، وجعل صفة الله ﷻ التي دلت عليها النصوص فرعا، ثم طابق الفرع على الأصل، وحكم بينهما بالتماثل.

ولو سئل عن السبب في هذا التمثيل؟ لقال: لأن الله له أوصاف، والإنسان له أوصاف؛ قد ذكرت بنفس الألفاظ، فهذا يقتضي التماثل، ومن أجل ذلك حكمت بأن استواء الله على العرش يماثل استواء الإنسان، ووجه الله يماثل وجه الإنسان، ويد الله تماثل يده، وهكذا في سائر أوصاف الله وأوصاف الإنسان، قيل له: ما من شيئين إلا بينهما قدر مشترك وقدر فارق، فمن نفى القدر المشترك فقد عطل، ومن نفى القدر الفارق فقد مثل.

لقد علم العقلاء أن قول الممثل باطل لا يتوافق مع العقل السليم، فلو قيل: نملة قوية، وسفينة قوية، فهل صورة النملة كصورة السفينة في الكيفية لاشتراكهما في لفظ قوية مجردا عن الإضافة؟

وإذا كانت أوصاف البشر مختلفة، فهناك فرق كبير بين عرش بلقيس وعرش سليمان، ووجه يوسف عليه السلام ووجه غيره من بني الإنسان، فإن الفرق أعظم وأكبر من باب أولى بين أوصاف الخالق وأوصاف المخلوق، وسيقر المسلم في خشوع وخضوع أن استواء الله على عرشه ليس كاستواء البشر، ووجهه تعالى ليس كوجوههم، وسائر أوصافه ليست كأوصافهم، وأن الله عز وجل ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله، وتلك طريقة الموحدين.

أما الممثل لأوصاف الله بأوصاف البشر فهو ظالم لنفسه، متقول على ربه ما ليس له به علم، فهو في الحقيقة تخيل في ذهنه أن صفة الله الواردة في نصوص الكتاب والسنة كصورة إنسان، ثم عظمها له الشيطان، فعبدها على أنها المقصودة عند ذكره لأوصاف الله، وهو في الحقيقة إنما يعبد صنما، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية في وصف حال الممثل: الممثل يعبد صنما.

• ما هو قياس الشمول ولماذا لا يجوز استخدامه في حق الله؟

قياس الشمول هو النوع الثاني من الأقيسة التي حرمها الله في حقه، وهو القانون الشامل، أو الأحكام الكلية العامة التي تطبق على جميع الأفراد، أو كما عرفوه بأنه قياس كلي على جزئي، فالمكيف أو المشبه الذي يستخدم قياس الشمول جعل الكيفية التي عليها أوصاف الإنسان قانونا يحكم به على أوصاف الله، كقوله: لو كان الله عز وجل متصفا بالكلام لكان له فم ولسان، لأنه لم ير المتكلم في أحكام الدنيا إلا على هذه الكيفية، وكقوله: لو كان على العرش لكان محمولا، فطبق قانون الجاذبية الأرضية على كيفية استواء الخالق كما يطبقها على استواء الإنسان، أو حمله للأشياء. ومعلوم أن صاحب الفطرة السليمة يأبى أن يقال مثل هذا في أوصاف الله، بل يعلم أن هذه الأحكام ربما

لا تطبق على الإنسان خارج نطاق الجاذبية الأرضية، مثل أماكن انعدام الوزن، أو المحطات الفضائية، أو ربما يسمع صوتا من غير فم أو لسان، كما يري المسجل يعيد الصوت ويكرره كالإنسان.

وإذا قيل لا يدخل قاعة الاختبار إلا طلاب السنة النهائية، علم العقلاء أن ذلك لا ينطبق على الأساتذة المراقبين، أو القائمين على النواحي الإدارية، وإذا قيل: لا يدخل المصنع إلا العاملون، علم العقلاء أن ذلك لا ينطبق على صاحب المصنع ومن رافقه من أولاده وأهله وأصحابه؛ وهكذا يعلم العقلاء وأصحاب الفطرة السليمة أن القوانين التي تحكم أوصاف البشر لا تنطبق على ربهم، وأن الله ﷻ ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله.

- **ما المقصود بالقاعدة الثانية في توحيد الصفات؟**

القاعدة الثانية التي قام عليها اعتقاد السلف في توحيد الصفات هي إثبات الصفات على مراد الله ورسوله ﷺ؛ لأن الله ﷻ بعد أن بدأ بالتوحيد في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الشورى:١١. اتبع ذلك بإثبات الأسماء والصفات التي تليق به فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ⑪﴾ الشورى:١١. فالتوحيد يستلزم إثبات الصفات نقلا وعقلا.

وبيان ذلك أن المتوحد المنفرد عن غيره لابد أن ينفرد بشيء يتميز به، ويكون وحده المتصف به، أما الذي لا يتميز بشيء عن غيره ولا يوصف بوصف يلفت الأنظار إليه، فهذا لا يكون منفردا ولا متوحدا ولا متميزا عن غيره، فلو قلت مثلا: فلان لا نظير له، سيقال لك في ماذا؟ تقول: في علمه وحكمته، أو في غناه وقدرته، أو في ملكه أو استوائه على عرشه، أو في أي

صفة تثبتها له، فلا بد من ذكر الوصف الذي يتميز به.

لكن من العبث أن يقال لك: فلان لا نظير له في ماذا؟ فتقول: في لا شيء، أو تقول: لا صفة له عندي، فالله ﷻ وله المثل الأعلى أثبت لنفسه أوصاف الكمال التي انفرد بها دون غيره، ونفي عن نفسه أوصاف النقص ليثبت توحده في ذاته وأسمائه وصفاته، فأثبت لنفسه الوحدانية في استوائه، فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. فاستواؤه له كيفية تليق به، يعلمها الله وحده لا نعلمها نحن، ولا مثيل ولا شبيه له فيها.

وأثبت الوحدانية في كلامه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝١٦٤﴾ النساء:١٦٤. فكلامه بكيفية تليق به، ليس كمثله شيء فيها، ولا علم لنا بها، فمداركنا وإن استوعبت معنى كلامه، فإنها لا تستوعب كيفية أداء الكلام؛ لأنها كيفية غيبية، وأثبت الله لنفسه يدين لا مثيل ولا شبيه له فيهما فقال: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ص:٧٥. وكذلك الحال في سائر الصفات والأفعال.

• ما هي طريقة السلف في إثبات الصفات؟

طريقة السلف الصالح في إثبات الصفات هي طريقة القرآن والسنة، وهي تعتمد على أمرين اثنين:

الأمر الأول: النفي المجمل لصفات النقص، والإثبات المفصل لصفات الكمال، فالله ﷻ نفي عن نفسه كل صفات النقص إجمالا، ولم يفصل فيما نفاه عن نفسه تفصيلا، فقال تعالى في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الشورى:١١.

وقال أيضا: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ الإخلاص:٤. وقد أثبت الله ﷻ لنفسه صفات الكمال على وجه التفصيل، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الحشر:٢٢/ ٢٤.

وغير ذلك من الآيات التي عدد الله ﷻ فيها أسماءه وأوصافه وأفعاله، مثبتا لها ولكمالها وجلالها ومفصلا في ذلك. واعلم أن طريقة السلف في الإثبات والنفي على العكس من طريقة أهل البدع والمتكلمين، فإنهم يجملون في الإثبات ويفصلون في النفي، فمثال الإجمال في الإثبات، ما فعله أهل الاعتزال حين أثبتوا وجود الله بلا أي صفة له.

ومثال التفصيل في النفي عندهم قولهم في مدح الله: ليس بجسم، ولا شبح، ولا صورة، ولا لحم، ولا دم، ولا بذي لون، ولا طعم، ولا رائحة، ولا مجسة، ولا بذي حرارة، ولا رطوبة، ولا يبوسة، ولا طول، ولا عرض، ولا عمق، ولا.. ولا.. الخ. وهذا يماثل قول الأحمق في مدح الملك أو الأمير: لست بزبال، ولا كناس ولا حمار، ولا نسناس، ولا خادم، ولا حقير، ولا متسول، ولا فقير، ولا.. ولا... الخ.

وكان يكفيه أن يجمل في النفي ويقول للأمير: ليس لك نظير فيما رأت عيناي، أو لا يماثلك أحد في وصف كذا؛ كما كان يكفيهم أن يقولوا في مدح الله ﷻ كما قال تعالى عن نفسه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ الشورى:١١. لكنهم لا يرغبون في إثبات أي صفة من صفات الله ﷻ، فإن سألتهم: من تعبدون؟

قالوا: نعبد من لا صفة له، قيل لهم: من لا صفة له يكون معدوما بلا وجود، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: المعطل يعبد عدما.

وهذه الطريقة التي اتبعتها المعتزلة والأشعرية، أو أي طائفة من أتباع الجهمية هي في الحقيقة طريقة ذم، وليس فيها مدح، فالنفوس مفطورة على أن تمدح بالإجمال في النفي، والتفصيل في الإثبات وليس العكس، فتدبر.

الأمر الثاني: في طريقة إثبات الصفات عند أهل السنة أن طريقتهم في نفي النقص عن الله، النفي المتضمن لإثبات كمال الضد، فإذا قال تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ البقرة:٢٥٥. علمنا أن نفي السنة والنوم يتضمن كمال الضد، وهو إثبات حياة الله وقيوميته. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩ ﴾ الكهف:٤٩. فيه نفي الظلم عن الله المتضمن لكمال الضد، وهو منتهى العدل، وهكذا في سائر ما ورد في الكتاب والسنة.

وكل نفي لا يتضمن إثباتا للكمال لم يصف الله به نفسه في الكتاب والسنة، ولذا فإن طريقة الخلف من المعتزلة والأشعرية في نفي صفات النقص عن الله هي بذاتها عين النقص؛ لأنهم إذا قالوا: الله ليس بجسم، وتساءل العقلاء؟ ماذا يكون إذا لم يكن جسما؟ هل يكون عرضا؟ قالوا: ولا عرضا، فماذا يكون إن لم يكن عرضا؟ هل يكون شبحا خياليا؟ قالوا: ولا شبحا، ولا صورة، ولا لحم، ولا دم، ولا بذي لون، ولا طعم، ولا رائحة، ولا مجسة، ولا بذي حرارة، ولا رطوبة، ولا يبوسة، ولا طول، ولا عرض، ولا عمق، فيقال لهم: إن الله إذا نفى عن نفسه وصفا أثبت كمال ضده، فماذا أثبتم بهذا النفي غير الكلام الفارغ الخالي من المدح؟

• ما هو القياس الذي يصح استخدامه في إثبات صفات الله؟

القياس الذي يصح استخدامه في إثبات الصفات يسمى قياس الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ النحل: ٦٠. فمن المعلوم أن كل كمال يمدح به الإنسان، فالرب سبحانه أولى به منه، فإذا كان العلم والإرادة والقدرة والقوة والكلام والعزة وصف كمال للإنسان، وقد أثبت الله لنفسه وصف العلم والإرادة والقدرة والقوة والكلام والعزة، فهي ثابتة لله من باب أولى، وكذلك كل نقص أو عيب تنزه عنه الإنسان، فالرب أولى أن يتنزه عنه.

وقد ذكر ابن أبي العز الحنفي شارح الطحاوية أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلي يستوي فيه الأصل والفرع، ولا بقياس شمولي يستوي أفراده، فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء، فلا يجوز أن يمثل بغيره، ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت دستور كلي يستوي أفراده فيه، ولكن يستعمل في ذلك قياس الأولى كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ النحل: ٦٠.

واعلم أن كل ما ثبت عن النبي ﷺ من إشارة حسية في الصفات الإلهية فهو من باب إثبات الصفات بقياس الأولى، كما ورد في حديث الإشارة إلى السماء، وحديث قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن، وحديث اليهودي في حمل السماوات على إصبع، وغير ذلك مما ثبت عن رسول الله ﷺ فهو محمول على إثبات الصفات بقياس الأولى؛ وعدم فهم المتكلمين في قياسهم تلك الإشارات بقياس التمثيل والشمول أدى بهم إلى رد السنة وتعطيل نصوص القرآن، واتهام نصوص الشرع بأن ظاهره باطل مستحيل، وأنهم فهموا ما لم يفهمه النبي ﷺ وأصحابه من تلك الإشارات.

• ما هي محذورات القاعدة الثانية في توحيد الصفات؟

من الأمور الهامة التي ينبغي للموحد أن يحذر منها صيانة للقاعدة الثانية حتى لا يهدم إيمانه بما أثبته الله ﷻ لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ أن يحذر من نوعين من الضلال، الأول هو التعطيل، والثاني هو التحريف المبني على التأويل بغير دليل، أو التأويل الباطل.

وحقيقة التعطيل هي رد النصوص الثابتة في الكتاب والسنة، ورفض محتواها، وعدم التسليم لها، وسببها اعتقاد المعطل أن إثبات الصفات التي وردت في النصوص يلزم منه التمثيل والتشبيه بالإنسان، فالمعطل جسد صورة لربه في ذهنه، فوقع في محذورات القاعدة الأولى حيث اعتقد فيها التمثيل والتشبيه، وزعم أن ظاهر النصوص القرآنية والنبوية دل على ذلك الباطل، فأحس بالرفض التلقائي لتلك الصورة، وأحس بالرغبة في تنزيه الله ﷻ عنها؛ وبدلا من أن يعيب فهمه السيئ؛ وظنه الآثم في كلام الله ورسوله ﷺ وجه العيب إلي الكتاب والسنة، وبدأ في رفض محتوى الآيات والأحاديث والتحامل على النصوص بالباطل، فادعى أولا أن ظاهرها باطل مستحيل وتشبيه وتضليل، وأن هذا غير مراد في كلام الله ورسوله ﷺ، ثم حاول محو ما دلت عليه بأي طريقة، وتعطيلها عن مدلولها الذي يطابق الحقيقة.

قال عمرو بن عبيد المعتزلي لأبي عمرو بن العلاء؛ وهو أحد القراء: أحب أن تقرأ قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ النساء:١٦٤. بنصب اسم الجلالة، ليكون موسى عليه السلام هو الذي كلم الله، فقال له: هب أني وافقتك على تحريف هذه الآية فكيف تصنع بقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا

﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ الأعراف:١٤٣؟ فبهت المعتزلي!

وهكذا المعطل اعتقد في النصوص التمثيل، فاضطر إلى أن يعطلها كما قال فخر الدين الرازي في بيان وجوب تعطيل الاستواء وتأويله بالاستيلاء: (إن الجالس على العرش لا بد أن يكون الجزء الحاصل منه في يمين العرش غير الحاصل في يسار العرش، فيكون في نفسه مؤلفا مركبا، وكل ما كان كذلك احتاج إلى المؤلف والمركب، وذلك محال) [1].

لقد حاول المعطل أن يقبح الاستواء الحقيقي في نفس السامع بأن يجعل الاستواء في حق الخالق يعني الجلوس، ولم يفهم من آية الاستواء على العرش إلا معنى باطلا مستهجنا يدل على تمثيل الخالق بالمخلوق، فوصف السلف الصالح بالمجسمة أو المشبهة، ونفي الاستواء. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ الحاقة:١٧. لم يفهم منه أيضا إلا أنّ الملائكة تحمل عرش الله بقوانين الجاذبية الأرضية، وأنه يلزم منه أنهم يحملون الله وأنه مفتقر إليهم، وهو في حقيقته قد طبق قانون الجاذبية الأرضية على الله تعالى في استوائه على عرشه، فهل يصح لأحد أن يطبق قانون الجاذبية الأرضية على الخالق سبحانه وتعالى، أو على حملة العرش؟!

إن الجالس على الكرسي أو المحمول عليه تجذبه الأرض إليها بقوة منتظمة خلقها الله في ذات الأرض، وتسمى بعجلة الجاذبية الأرضية، وتلك القوة التي خلقها الله في الأرض هي العلة في عملية الجلوس والاستقرار، وهي العلة في ثقل الأشياء عند رفعها، فالجسم المحمول على الكرسي تجذبه

(١) أساس التقديس للفخر الرازي تحقيق دكتور أحمد حجازي السقا ص ١٩٩، ص٢٠٣.

الأرض، والكرسي أو المقعد أو الحامل له رد فعل يساويه في المقدار ويضاده في الاتجاه، ولذلك يبدو الجسم مستقرا، ويسمى المحمول محمولا.

أما لو انعدمت الجاذبية الأرضية بخروج الإنسان في السفن الفضائية، أو المحطات الفضائية، فلا يكون محمولا على الكرسي، بل هو الحامل له، فإن جاز في حق الإنسان المخلوق أن يكون عال الشيء ولا يكون محمولا عليه؛ والمستوي على الشيء لا يفتقر إليه، فإن الله إذا أخبرنا بأنه استوى على العرش، وجب علينا أن نؤمن بذلك دون طلب العلم بالكيفية؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يرى في الدنيا، وليس كمثله شيء في استوائه.

• ما معنى التأويل الذي ورد ذكره في القرآن والسنة؟

التأويل الذي ورد ذكره في القرآن والسنة له معنيان، المعنى الأول هو الذي عرف بين الصحابة والتابعين وسائر السلف المتقدمين، هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، أو الحقيقة المعبرة عن مدلول الكلام. وهذا المعنى هو الذي نطقت به آيات الكتاب، فلقد تكررت كلمة التأويل في القرآن في أكثر من عشرة مواضع، كان معناها في جميع استعمالاتها الحقيقة التي يؤول إليها الكلام. قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ يوسف:١٠٠.

وعند البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللهمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ)[1]. وهي تعني أن النبي ﷺ كان عند ركوعه وسجوده في

---

(١) البخاري في الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود ١/ ٢٨١ (٧٨٤).

الصلاة ينفذ أمر الله ﷻ الذي ورد في قوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾ النصر:٣. فالتأويل عندها هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، وتأويل الأمر عندها تنفيذه، والشاهد واضح جدا.

المعنى الثاني للتأويل في عرف السلف هو التفسير والبيان، ويقصدون به كشف المعنى، وتوضيح مراد المتكلم، وهذا التأويل كالتفسير، يحمد حقه ويرد باطله، ومثاله دعاء الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: (اللهمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلمْهُ التَّأْوِيل)[1].

• هل المعنى القرآني للتأويل هو ما يقصده علماء الكلام؟

اشتهر معنى جديد للتأويل يسمى بالمجاز اللغوي؛ استحدثه بعض اللغويين والبلاغيين والفقهاء وأرادوا به صرف نصوص القرآن والسنة عن معناها الظاهر إلى معنى آخر بدليل، وهذا لا غبار عليه إن دل دليل واضح على أن هذا هو مراد المتكلم، مثل تفسير قرب الله من عبده بقرب الملائكة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ ق/١٦. والدليل ما ورد بعدها في قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ق/١٨. وتفسير القراءة بقراءة جبريل في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ القيامة/١٨. لما ورد في سبب نزول الآية.

وقد وجد كثير من علماء الخلف من المعتزلة والمتكلمين الأشاعرة بغيتهم

(٢) رواه البخاري ١/ ٦٦ (١٤٣).

في هذا التأويل، واستخدموه بدليل أو بغير دليل؛ ليضفوا الشرعية على آرائهم، ويبرروا تعطيلهم لأوصاف الله ﷻ؛ فصرفوا معاني النصوص الظاهرة إلى معان ابتدعوها بغير دليل، وقاموا بلَوْي أعناق النصوص وذبحها بصورة لا تخفى على عاقل، فقالوا في الاستواء استيلاء وقهر هروبا من إثبات فوقية الله على خلقه، وقالوا: معنى في السماء، أي في السماء عذابه وسلطانه، ومعني اليدين القدرة، ومعني الوجه الذات، ومعني المجيء مجيء الأمر، ومعني النزول نزول الرحمة، ومعني الرضا إرادة الإكرام، والغضب إرادة الانتقام، والقدم مثل للردع والزجر.

وهكذا فعلوا بأغلب الصفات حتى تشعر من أقوالهم بأن المتبادر إلى الذهن عند قراءة الكتاب والسنة اعتقادات فاسدة ومعان باطلة تدل على التشبيه والجسمية، وأنه كان ينبغي أن يكون القرآن أحسن من هذا، وكان ينبغي لكلمات النبي ﷺ في الأحاديث أن تكون بغير هذه الألفاظ القبيحة حتى لا يتكلفوا مشقة صرف الكلام عن معناه، وتأويله بغير دليل.

- **لماذا يجب الحذر من تأويل كلام الله ورسوله بغير دليل؟**

لأنه تحريف للكلم عن مواضعه؛ فالمتكلم يريد شيئا واضحا ظاهرا في كلامه يختلف عن المعنى الذي يريده المؤول، ولذلك يسمى التأويل بغير دليل تحريفا ومجازا باطلا.

والسبب الذي دفع الخلَف من المتكلمين إلى التأويل الباطل لنصوص الكتاب والسنة، أن المعطل بعد رفضه للنصوص بناء على اعتقاده فيها التمثيل والتشبيه، أراد أن يستر جريمة التعطيل حتى لا يقال في حقه إنه يكذب بالقرآن والسنة، فأخفى جريمة التعطيل تحت شعار التأويل وادعاء

المجاز والبلاغة في فهم النصوص، فاستبدل المعنى المراد من نصوص القرآن والسنة بمعنى بديل لا يقصده المتكلم بها.

ولذلك أراد أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي من الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد أن يحرف قول تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى:١١. إلى قوله: ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم. وكانت الآية مدونة على سترة الكعبة، فأراد أن يحرف كلام الله عمدا ويبدله لينفي وصفه تعالى بأنه يسمع ويبصر، وذلك لاعتقاده أن السمع في حق الله لا بد أن يكون بأذن وجارحة.

ويشبه هذا الصنيع الباطل قول المعتزلة والأشعرية بأن الاستواء في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ طه:٥. معناه الاستيلاء والقهر. وأن اليدين في قوله: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ﴾ ص:٧٥. هما القوة والقدرة. وكل ذلك وأمثاله منكر من القول وتزوير في لغة العرب، لأن العرب عند التحقيق لا تعرف الاستواء بمعنى الاستيلاء والقهر، ولا اليدين في مثل هذا السياق بمعنى القدرة؛ ولذلك ذكر ابن تيمية أن التحريف بالتأويل أقبح من التعطيل والتكييف والتمثيل، لأنه ما حرف إلا لأنه عطل، وما عطل إلا لأنه كيّف ومثل، فجمع أنواع الضلال بتأويله الباطل.

ولا حجة لقول بعضهم: إن اللغة فضفاضة مرنة وحمالة للمعاني، وتتسع لأنواع المجاز والتأويل؛ لأن اللغة لها ضوابط معروفة، لا يسعنا أن نخرج عن قواعدها، فالسلف استعملوا التأويل في عصرهم بمعنى غير ما يعرف الآن عند الأشعرية أو سائر علماء الكلام، إذ تقيدوا بما ورد في القرآن والسنة وما عرف بين الصحابة والتابعين من معاني التأويل.

• ما المقصود بالقاعدة الثالثة في توحيد الصفات؟

القاعدة الثالثة التي قام عليها اعتقاد السلف الصالح أنهم كفوا أنفسهم عن طلب العلم بكيفية الحقائق الغيبية، لاسيما ما تعلق منها بذات الله وصفاته. والدليل قوله تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ طه: ١١٠. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ البقرة: ٢٥٥. فقد شاء الله لنا أن نعلم معاني النصوص الدالة عليه، ومنع عن علمنا العلم بكيفية ذاته وصفاته وأفعاله، وكل ما يتعلق بكيفية الأمور في عالم الغيب، حتى الروح التي فينا، قال تعالى عنها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ الإسراء: ٨٥. فوجب على العاقل أن يحترم عقله، وأن يقف عند حده معظما لكتاب ربه وسنة نبيه ﷺ، فالله تعالى كيَّف مداركنا بحيث لا نستوعب من العلوم إلا في حدود عالم الشهادة فقط، أما عالم الغيب فهو عالم حقيقي حجبه الله عنا تحقيقا للابتلاء والامتحان، ثم ينكشف الغطاء عند الموت فنرى من حقائقه ما شاء الله تعالى أن نراه.

ويجب التنبه إلى أن الله ﷻ إذا أخبرنا في كتابه عن شيء من عالم الشهادة دعانا إلى البحث عن كيفيته وخصائصه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ الغاشية: ١٧/ ٢١. وكقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ الذاريات: ٢١. أما إذا خاطبنا عن شيء من عالم الغيب خص نفسه بعلم كيفيته فقال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ ﴿٧﴾﴾ آل عمران: ٧. أي لا يعلم حقيقة الغيبيات التي أخبرنا عنها إلا الله، فأمرنا بالكف عن طلب

الكيفية التي عليها تلك الحقائق لأن ذلك خارج عن إمكانيات حواسنا.

وإذا كان الله قد حجب عنا كيفية الحقائق في عالم الغيب فإنه أولى من يعرفنا بها؛ لأنه لا يخفي عليه شيء في عالم الغيب ولا في عالم الشهادة، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ﴾ السجدة: ٦.

ومن ثم إذا عرفنا الله بنفسه في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ أو عرفنا بشيء مما في عالم الغيب، وجب على كل من أسلم لله أن يصدق بخبره دون اعتراض، فمهمة العقل تجاه النقل تصديق الخبر، وتنفيذ الأمر.

• ما هي محذورات القاعدة الثالثة في توحيد الصفات؟

يجب على الموحدين صيانة للقاعدة الثالثة الحذر من نوعين من الضلال، الأول هو التفويض، والثاني تقديم العقل على النقل في التعرف على الغيبيات. أما التفويض، فهو زعم الأشعرية أن مذهب السلف هو القول بأن كلام الله بلا معنى، وأن ما ورد في الكتاب والسنة عن صفات الله كلام مجهول لجميع البشر، ولا يعلمه إلا الله كالألغاز والحروف الأجنبية التي لا يعرفها صاحب اللسان العربي، وهذا كلام باطل؛ فليس معنى أن السلف منعوا أنفسهم من الخوض في التعرف على الكيفية الغيبية التي دلت عليها النصوص، وفوضوا العلم بها إلى الله ﷻ أنهم منعوا أنفسهم أيضا من معرفة معنى الكلام الذي ورد في الآيات والأحاديث عن أوصاف الله، فادعاء الأشعرية أن مذهب السلف هو تفويض المعاني قول باطل وكذلك قول صاحب كتاب تحفة المريد علي جوهرة التوحيد الذي يدرسه أبنائنا في الأزهر حتى الآن:

وكل نص أوهم التشبيه : أوِّله أو فوِّض ورم تنزيها

ثم يقول صاحب تحفة المريد في صفة المجيء والنزول: (فالسلف يقولون مجيء ونزول لا نعلمه)[١]. وقال أبو المعالي الجويني في العقيدة النظامية في ادعائه أن مذهب السلف هو تفويض المعنى: (وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب سبحانه)[٢]. ثم يستدلون على ادعائهم الباطل بما ثبت عن الإمام مالك بن أنس لما سئل عن كيفية استواء الله على عرشه؟ فغضب وقال: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)[٣].

والحقيقة أنهم لم يفهموا قول مالك؛ ولا يصلح دليلا لهم على تفويض المعنى، لأنه فرق في جوابه بين معنى الاستواء على العرش أو معنى الصفات بوجه عام، وبين كيفية الاستواء على العرش أو كيفية الصفات بوجه عام، فالمعنى الوارد في النصوص معلوم لأن العقل يستوعب معنى الكلام العربي، أما الكيفية فلا يمكن التعبير عنها لا بكلام العرب، ولا بكلام العجم. ولما غضب مالك على السائل، غضب لأنه جاء يسأله عن كيفية الاستواء الغيبية التي تخرج عن جهاز الإدراك البشري عند الإنسان، فكيف سيجيبه؟ وهل سيخترع له جوابا يصف فيه الكيفية التي عليها استواء الله على العرش، والإمام مالك يعلم أن ذلك قول على الله بلا علم ؟ فالسائل إذا مبتدع.

أما لو جاء السائل مالكا يسأله عن معنى الاستواء في لغة العرب التي خاطبنا الله بها لما غضب عليه، إذ أن حق السائل على أهل العلم أن يفهم

(١) شرح البيجوري على الجوهرة، طبعة المعاهد الأزهرية ص١٠٩.

(٢) العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية ص١٠٥.

(٣) شرح أصول أهل السنة والجماعة للالكائي ٣/ ٣٩٨.

معاني النصوص. والجواب عند ذلك بيّن واضح، إذ أن استواء الله له وجود حقيقي، ويعني في اللغة العلو والارتفاع. ومن ثم فإن معتقد الإمام مالك رحمه الله الذي يمثل مذهب السلف الصالح هو تفويض العلم بالكيفية إلى الله، أما المعنى فهو معلوم ظاهر من لغة العرب ومراد مفهوم من الآية.

ولو قلنا كما قالت الأشعرية بأن مالكا فوض العلم بمعنى الاستواء إلى الله مع الكيفية، فإن هذا يماثل قولنا: إن كلام الله في الاستواء وما شابهه من نصوص الصفات كلام بلا معنى، وهذا اللازم لم يتنبه له من زعم أن مذهب السلف هو تفويض معاني النصوص لجهلهم بحقيقة المذهب السلفي، وإلا لو سألنا أحدهم: هل تعتقد أن كلام الله بلا معنى؟ فماذا يقول؟ وعلى ذلك فالقول بأن الاستواء غير معلوم، أو لا نعلمه، أو نجهل معناه، هو قول باطل، وكذلك القول بأن معنى الاستواء غير معلوم قول باطل أيضا، فيجب الحذر من تفويض المعنى، أما القول بأن كيفية الاستواء فقط، أو الكيفية التي دلت عليها نصوص الصفات فقط غير معلومة أو مجهولة لنا؛ فهو القول الحق الذي دلت عليه الأدلة.

• هل آيات الصفات من المحكمات أو من المتشابهات؟

المحكم هو المعلوم الواضح المعنى، والمتشابه عكس المحكم، وهو المجهول الذي لا يعلمه إلا الله، وعلى ذلك فإن معاني نصوص الصفات محكمات لأنها معلومة؛ ويمكن ترجمتها إلى لغة أخرى، أما الكيفية الغيبية التي دلت عليها فهي مجهولة؛ ومن المتشابهات التي لا يعلمها إلا الله.

أما إذا كان معنى النص معلوما، والكيفية التي دل عليها معلومة أيضا، كانت الآية محكمة لأهل العلم على تفاوتهم في المعرفة والفهم، كما هو الحال

في جميع آيات الأحكام، ولذلك والله أعلم سميت نصوص الأوامر التكليفية أحكاما، لوضوح معناها والعلم بكيفية أدائها.

وإن كان معنى الآية معلوما، والكيف مجهولا، كانت الآية محكمة في المعنى متشابهة في الكيف. وإذا قيل في عرف السلف: هذا النص متشابه، فيقصدون بذلك أنه متشابه باعتبار الكيف لا المعنى، وأن الخوض في تصور ما دلت عليه الآيات من الكيفيات الغيبية، هو خوض في المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، إما بتمثيلها بالأقيسة التمثيلية والشمولية التي تحكم سائر المخلوقات، أو القول بتعطيل الصفات حتى لا نقع في التشبيه، أو تأويلها على غير مراد الله من الآيات، فإن الخوض في ذلك كله باطل. والنتيجة التي نصل إليها من هذه الرؤية أن القرآن جميعه محكم المعنى لقوله تعالى عن جميع آيات القرآن: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ هود:١. أي أحكمت باعتبار المعنى، فليس في القرآن كلام بلا معنى.

أما من جهة الكيفية التي دلت عليها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فبعضها محكم معلوم، وبعضها متشابه مجهول، وهذا هو المقصود بقول الإمام مالك رحمه الله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول؛ وهو المعنى المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ ﴾ آل عمران:٧. فلو سأل سائل عن استواء الله في قوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ ﴾ طه:٥. هل هو من المحكمات أم من المتشابهات؟ قيل له: الاستواء محكم المعنى، متشابه الكيف.

وأما ما عاينه الإنسان من الكيفيات التي تتعلق بالمخلوقات، والتي دلت

عليها الآيات ككيفية أداء الصلاة والزكاة والصيام وأفعال الحج وما شابه ذلك، فهذا محكم المعنى والكيفية، فلو سأل مسلم أعجمي لا يعرف العربية عن معنى الصلاة في قول الله تعالى: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ البقرة:٣؟ لقيل له بلسانه: الصلاة أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم، فيسأل عن كيفية أدائها؟ يقال له: أمرنا رسول الله ﷺ بأن نحاكيه تماما في الكيفية، فقال مبينا ذلك في بعض الأحاديث النبوية: (وَصَلوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أصَلي) [(١)].

أما إذا كان المعنى معلوما والكيف الذي دل عليه المعنى مجهولا كانت الآية من المتشابه باعتبار الكيف لا باعتبار المعنى، كما في جميع الأخبار والنصوص التي وردت في وصف عالم الغيب؛ فالجنة مثلا سمعنا عن وجود ألوان النعيم فيها، وأخبرنا الله بذلك في كتابه وسنة نبيه ﷺ، وعلى الرغم من ذلك قال رسول الله ﷺ عن كيفية ألوان النعيم فيها: (قَال اللهُ: أعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأتْ، وَلا أذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلى قَلبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ السجدة:١٧) [(٢)].

وجميع آيات القرآن لها معنى معلوم عند الراسخين في العلم حسب اجتهادهم في تحصيله، وعليه جاء قول ابن عباس رضي الله عنهما: (أنا من الراسخين في العلم) [(٣)]. أما المتشابه في هذا الباب فهو الذي استأثر الله بعلمه، من الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا هو، والتي أخبرنا بها في كتابه، ومن ثم فإن القرآن

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر ١/ ٢٢٦ (٦٠٥).

(٢) البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة ٣/ ١١٨٥(٣٠٧٢).

(٣) انظر تفسير الطبري ٣/ ١٨٣.

كله محكم باعتبار المعنى الذي دل عليه اللفظ، وباعتبار الكيفية ففيه المحكم والمتشابه. وقد يأتي المتشابه بمعنى التماثل في الحسن، وعليه فإن القرآن كله متشابه كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ الزمر:٢٣. أي أن جميع آيات القرآن يشبه بعضها بعضا من حيث الصحة والإحكام، وإعجاز الصياغة في سائر الكلام، والبناء على الحق والصدق، والهداية ومنفعته الخلق، وتناسب ألفاظه وتناسقها في الإصابة والبلاغة وقوة الصياغة.

وأما المحذور الثاني للقاعدة الثالثة فهو وجوب الحذر من تقديم العقل على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لأن ذلك ينافي معنى الإسلام والخضوع لرب العالمين، فالله ﷻ أنزل الوحي وأمرنا بتصديق ما جاء فيه من أخبار، وتنفيذ ما جاء فيه من أوامر؛ وقد أمرنا بتوحيده وإفراده عمن سواه، وأن نقف عند حدود مداركنا، فهو سبحانه ليس كمثله شيء مما نرى أو نسمع أو ندرك في عالم الشهادة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ الإسراء:٣٦. فإذا تطاول العاقل وأخذ يقيس بعقله شيئا من عالم الغيب على أحكام عالم الشهادة؛ كقولهم لو كان على العرش لكان محمولا، أو لو اتصف بالمجيء لفصل القضاء لكان متحركا؛ وكل متحرك محدث، أو لو كانت له يد لكان له أعضاء وجوارح، وغير ذلك من أحكام العقل التي يخضع لها المخلوق، إذا فعل العقل ذلك لم يوحد الله في أوصافه، لأن الله ﷻ لا يقاس على خلقه بقياس تمثيلي ولا بقياس شمولي كما ورد في محذورات القاعدة الأولى، فنحن ما رأيناه، وما رأينا له مثيلا، فكيف نظلم أنفسنا ونحاكم أوصاف الله إلى القوانين التي تحكمنا.

• ما المقصود بالقاعدة الرابعة في توحيد الصفات؟

القاعدة الرابعة التي قام عليها اعتقاد السلف الصالح في توحيد الصفات هي الإيمان بما جاء في الوحي كله، سواء في باب الأسماء والصفات، أو سائر الغيبيات والموضوعات الأخرى، فالوحي وحدة واحدة، والإيمان بالله يقتضي أن الله ﷻ إذا أخبرنا بشيء صدقناه في كل ما أخبر، وإذا أمر بشيء نفذناه في كل ما أمر، ونستقيم على ذلك مدى الحياة، فهذا مقتضى الإيمان الحق.

ومن الواجب أيضا الرجوع إلى القرآن والسنة بكل ما فيهما لمعرفة الدليل على الموضوع الواحد، سواء في باب توحيد الأسماء والصفات، أو غيره من أبواب العقيدة والشريعة، وذلك لكي يكون المنهج منهجا صحيحا نابعا من القرآن والسنة بالفعل؛ فلا بد لكل مسلم أن يعلم أن القرآن يفسر بعضه بعضا، فما أجمله في موضع، أفاض فيه في موضع آخر، فينبغي علينا حتى نتعرف على دليل يثبت حقيقة غيبية أو مشهودة واقعية، أو أي موضوع من الموضوعات، ينبغي علينا أن ننظر في جميع الآيات، وما ثبت في السنة من الأخبار والمرويات؛ وأن تكون نظرتنا للقرآن والسنة نظرة شاملة، حتى نخرج بالحقيقة صحيحة كاملة، ولو اقتصر الأمر على بعض الآيات دون بعض، فسوف نصل إلى حقيقة مشوهة ناقصة، وتبريرات عقلية خاوية مُفلِسَة، أو سنصل إلى جزء من الحقيقة في القرآن والسنة دون الأخر.

والأمر الذي وقع فيه كثير من طوائف المسلمين وفرقهم البدعية والكلامية لاسيما علماء الخلف، هو عدم أخذهم للأدلة كلها كوحدة واحدة، في الموضوع الواحد، شأنهم في ذلك شأن علماء بني إسرائيل وأحبارهم في العبث بكتابهم، أخذوا بعض الكتاب ليوافق آراءهم وعقولهم وأهواءهم،

فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، فبدلوا وغيروا وأولوا وحرفوا، تحريفا لفظيا، أو تحريفا معنويا يقوم على إخفاء بعض الحقائق وإلغائها، أو التغاضي عنها وتكذيبها، أو كفر الأحكام بتغطيتها وجحودها. قال الله تعالى في وصف علماء اليهود: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ البقرة:٨٤/ ٨٥.

وانحراف العقل سوف يؤدي بهوى النفس إلى الإيمان ببعض الكتاب ورد البعض الآخر؛ وتعطيله عن مدلوله الحقيقي، أو لوْي أعناق النصوص بالتحريف أو التأويل المتعسف، لتسير الأدلة في غير اتجاهها، كمطية يركبها صاحب الأهواء ويوجهها حيث يشاء، وهذا العمل كان مسلكا لليهود حتى لعنهم الله ﷻ وقال في وصفهم: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ الحجر:٩٠/ ٩١. روى البخاري عن ابن عباس ﷺ أنه قال: (هُمْ أَهْلُ الكِتَابِ، جَزَّءُوهُ أَجْزَاءً، فَآمَنُوا بِبَعْضِهِ، وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ) [١].

• ما هي محذورات القاعدة الرابعة في توحيد الصفات؟

يجب على الموحدين صيانة للقاعدة الرابعة الحذر من بدعة المعتزلة وبدعة الأشعرية؛ وكلاهما من أتباع الجهمية، لأنهم أخذوا بعض ما ورد في القرآن والسنة وآمنوا به وردوا البعض الآخر وأنكروه وعطلوه وحرفوا معناه بالتأويل الباطل، فأما بدعة المعتزلة فزعموا فيها أنهم يؤمنون بذات الله ولا يؤمنون بصفاته؛ لأن النصوص التي دلت عليها تدل حسب زعمهم على

(١) البخاري في فضائل الصحابة، باب إتيان اليهود النبي ﷺ ٣/ ١٤٣٥(٣٧٢٩).

التشبيه والجسمية، وظواهر باطلة ومستحيلة.

والرد عليهم أن القول في الصفات كالقول في الذات، فإن الله ﷻ ليس كمثله شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان لذات الله ﷻ وجود حقيقي لا يماثل سائر الذوات، فذات الله متصفة بصفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات، فإذا قال السائل: كيف استوي على العرش؟ وما كيفية أوصافه؟ قيل له: كيف هو؟ فإن قال: أنا لا أعلم كيفية ذاته، قيل له: ونحن لا نعلم كيفية صافته، ولا كيفية استوائه، إذ العلم بكيفية الصفة تابع للعلم بكيفية الموصوف، فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمع الله وبصره وتكليمه واستوائه ونزوله، وأنت لا تعلم كيفية ذاته؟ وإذا كنت تقر بأن لله ﷻ ذات حقيقية لا يماثله شيء فيها، فكذلك وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوق وبصره وكلامه ونزوله واستوائه وسائر صافته.

ومن ثم فإنه لا بد من الإيمان بصفات الله جميعها، كالإيمان بوجود ذاته، والذي لا يعرف كيفية الذات، فإنه كذلك لا يعرف كيفية الصفات، والذي يزعم أن إثبات الصفات يدل على التشبيه، فيُخَاصم بأن إثبات الذات يدل أيضا على التشبيه، فالقول في الذات كالقول في الصفات سواء بسواء.

وأما بدعة الأشعرية ومن سلك سبيلهم في الصفات الإلهية من المتكلمين الماتريدية، فقد ابتدعوا تقسيما عجيبا في صفات الله ﷻ على أهوائهم، فجعلوا منها ما هو واجب لله ﷻ، وما هو جائز له، وما هو مستحيل عليه؛ فقالوا: الوجود صفة نفسية، والقدم، والبقاء، والمخالفة للحوادث، والقيام بالنفس، والوحدانية صفات سلبية؛ والقدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والكلام، والسمع، والبصر صفات معاني أو معنوية؛ وبقية الصفات الواردة في القرآن

الكريم والسنة النبوية صفات خبرية، تدل على التشبيه والأعضاء والجسمية، وظاهرها غير مراد؛ لأنه باطل قبيح دل على معان كفرية شركية، لا يثبتها العقل لربهم حسب زعمهم، حتى قال قائلهم كما سبق:

وكل نص أوهم التشبيه : أوِّله أو فوِّض ورم تنزيها.

ولو سألناهم: لم أثبتم قدرته سبحانه، وإرادته، وعلمه، وحياته، وكلامه، وسمعه، وبصره مع أنها وردت في الكتاب والسنة، ونفيتم صفة المحبة، والرضي، والغضب، والاستواء، والعلو، والمجيء، وسائر الصفات الخبرية مع أنها أيضا وردت في الكتاب والسنة؟ قالوا: لأن الصفات التي أثبتناها لا تدل على التشبيه، أما الصفات التي نفيناها تدل على التشبيه، فيقال لهم: إن العقلاء لا يقرون هذا، فالقول في الصفات كالقول في بعض، فإما أن تقولوا بالتمثيل الباطل في الذات وجميع الصفات كما فعل الممثل، وقال: إرادة الله مثل إرادة المخلوق، ومحبته، ورضاه، وغضبه، واستواءه، وعلوه، وسائر الصفات الخبرية مثل أوصاف المخلوق، ومعلوم أن هذا كذب على الله ﷻ وقياس باطل محرم؛ وإما أن تقولوا كما قال أهل التوحيد إرادة الله تليق به، وإرادة المخلوق تليق به، والله ﷻ ليس كمثله شيء في إرادته، ومحبته، ورضاه، وغضبه، واستواءه، وعلوه، وسائر الصفات الثابتة في الكتاب والسنة كما هو اعتقاد أهل الحق.

أما أن يأتي صاحب المذهب الأشعري بحجج عقلية سقيمة ينفي بها ما يشاء ويثبت من صفات الله ﷻ، فالعقل لن يسأم من مقارعة الحجة بالحجة، فإن قال: نفيت الغضب لأنه غليان دم القلب لطلب الانتقام، وهذا لا يجوز على الله سبحانه وتعالى؛ قيل له: والإرادة التي أثبتها هي ميل القلب إلي جلب

منفعة، أو دفع مضرة، وهذا لا يجوز على الله سبحانه وتعالى؛ فإن قال: تلك إرادة الإنسان، أما إرادة الله فليست كذلك، قيل له: وهذا الغضب الذي وصفته غضب الإنسان، أما غضب الله فليس كذلك، وهذا لازم في كل صفة أثبتها أو نفاها، فالقول في الصفات كالقول في بعض، فلا يجوز أن نؤمن ببعض الصفات، ولا نؤمن بباقي الصفات، أو نردها بالتعطيل والتأويل بغير دليل، فهذا استخفاف بكلام الله ﷻ ونوع من العبث، ومن ثم فإن منهج أهل السنة واحد في كل ما ورد من الصفات وسائر الغيبيات.

• ما هو أسلم الضوابط التي في توحيد الصفات؟

إن من أسلم الضوابط الشمولية التي وضعت لتوضيح اعتقاد السلف الصالح في توحيد الصفات ما ذكره ابن تيمية رحمه الله حيث قال: (ومذهب السلف أنهم يصفون الله ﷻ بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ونعلم أن ما وصف الله ﷻ به من ذلك فهو حق، ليس فيه لغز ولا أحاجي، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه، لاسيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق، وأفصحهم في البيان والدلالة والإرشاد، وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعاله) [(١)].

لقد جاءت هذه الكلمات معبرة عما دلت عليه نصوص القرآن والسنة في هذا الباب بمجموعها، منبها على مواطن الانحراف، وتسلسله من أعلاه إلى أدناه في عبارة بليغة موجزة؛ ونحن لو تأملنا تلك المحذورات لظهر لنا مدى

---

(١) مجموع الفتاوى ٥/ ١٩٥.

الدقة في التعبير عن المنهج السلفي، وكيف أخطأ من ضل عن طريقهم من المخالفين حيث توهم في بعض الصفات، أو كثير منها، أو أكثرها، أو كلها أنها تماثل صفات المخلوقين، ثم يريد أن ينفى ذلك الذي فهمه فيقع في أربعة أنواع من المحاذير وهي التمثيل والتكييف والتعطيل والتحريف ثم ادعي بعد ذلك التفويض، وسبب البلاء الذي وقع فيه هو تقديم العقل على النقل كما فعلت المبتدعة من المعتزلة والأشعرية.

ومن ثم كان هذا الضابط الذي وضعه ابن تيمية يعد بحق من أسلم الضوابط في توحيد الصفات؛ لأنه اشتمل على قواعد مذهب السلف الصالح، وحذر من التمثيل والتكييف والتعطيل والتحريف وجهالة التفويض، بحيث ينكشف التدرج في الضلال والانحراف الذي وقع فيه المخالفون من أتباع الجهمية. وقد بان لنا أن أعلاها وأشرها وأقبحها هو التأويل الباطل الذي سماه ابن تيمية تحريفا، ولذلك بدأ به جملة المحذورات لأنه مبني على التعطيل، والتعطيل سببه التكييف، والتكييف مرده إلى التمثيل، ثم حذر بعد ذلك من تفويض معاني النصوص، والنظر إليها على أنها كاللغة الأعجمية والألغاز والأحاجي، وأن ذلك مخالف لمذهب السلف، وبين أيضا شمولية هذا المنهج لكل ما ثبت عن رسول الله ﷺ في باب الأسماء والصفات، فمن أراد النجاة فعليه إتباع من سلف وترك ما أحدثه الخلف.

الفصل الثالث
صفات الله في الكتاب والسنة

• ما هي أنواع الصفات الثابتة لله في الكتاب والسنة؟

الأصل في صفات الله ﷻ أنها من باب الخبر الذي يتطلب التصديق؛ فما أخبر الله ﷻ به عن نفسه في وصفه، وما أخبر به رسوله ﷺ وجب علينا تصديقه تصديقا يقينيا، نثبته لله ﷻ كما أثبته الله ورسوله ﷺ.

وقد تبين مما ورد في النقل الصحيح أن ما أثبته الله لنفسه من الصفات، إما وصف ذاتي، وإما وصف فعلي، فالوصف الذاتي وصف ملازم لذات الله أزلا وأبدا، لا يتعلق بمشيئة الله، وهو وصف كمال لازم لوجود الرب وتحقيق معاني التوحيد في الربوبية، ولا يمكن أن نتصور وجود الرب إلا موصوفا به، مثل العلم والحياة والقيومية، والقدرة والقوة والصمدية، والسمع والبصر والأحدية، والملك والعلو والفوقية، والحكمة والخبرة، والكبرياء والعظمة، والغنى والعزة، وغير ذلك من الصفات الذاتية التي تدل على أن الله ﷻ متوحد في وصف الربوبية، وأنه سبحانه يبقى ببقائه موصوفا بها، ويبقى باستغنائه فيها عمن سواه في الأولية والآخرية.

وهذه الصفات الذاتية دلت عليها أسماؤه الحسنى التوقيفية، أو ورود النص في الكتاب والسنة مستقلا بثبوتها، فاسم الله العليم يتضمن الدلالة على

وصف العلم، واسمه الحي يتضمن الدلالة على وصف الحياة، وقس على ذلك دلالة أسمائه كالقيوم، القدير، القوي، الصمد، السميع، البصير، الأحد، الملك، الأعلى، العلي، الحكيم، الخبير، المتكبر، العظيم، الغني، العزيز، الرب، الأول، الآخر.

وقد يرد الخبر في الكتاب والسنة بالنص مستقلا في الدلالة على بعض الصفات الذاتية، وهي صفات كمال باقية ببقاء الله أخبرنا الله بها، كالوجه والعينين، والساق والقدم والأصابع واليدين، وغيرها مما ورد به النقل الصحيح، نؤمن بها ونصدق خبر الله فيها على الكيفية الحقيقية التي أرادها ربنا سبحانه وتعالى، والتي يعلمها هو ولا نعلمها، فنحن ما رأينا الله وما رأينا له مثيلا، لا في ذاته ولا في صفاته، ونسأله سبحانه أن نكون يوم القيامة ممن يمُنّ عليهم بجنته ورؤيته يوم أن نلقاه.

وأما الوصف الفعلي الذي أثبته الله لنفسه في كتابه وفي سنة نبيه ﷺ فهو وصف ملازم لذات الله أزلا وأبدا، يتعلق بمشيئة الله وقدرته، وإمكانية فعله لما يشاء وفق إرادته وحكمته، إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، كالخلق والإبراء والتصوير والرحمة، والعفو والحلم والإحسان والنصرة، والقبض والبسط والإكرام والتوبة، والعطاء والفتح والمنِّ والرزق، والحفظ واللطف والإجابة والرفق، وغير ذلك من صفات الأفعال التي تضمنتها أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة.

وكذلك كل فعل ورد في الكتاب والسنة فإنه يدل على وصف فعل لله ﷻ، لأن حقيقة الفعل هو وصف فعل تعلق بمشيئة الله وقدرته، وتعلق أيضا بالزمان والمكان، ولا بد لطالب العلم من التعرف على الفرق بين الاسم

وصفة الذات، وصفة الفعل، والفعل، فالقدير اسم من أسماء الله الحسنى ثبت بنصه في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ الروم:٥٤. وقد دل اسم الله القدير على وصف القدرة، وهي صفة كمال ملازمة لذات الله لا تتعلق بمشيئته، فلا يصح قول القائل: هل يشاء الرب أن يكون عاجزا؟ لأن القدرة وصف ذاتي لا يمكن أن يوجد الإله بدونها، فلا تعلق للقدرة بمشيئته أصلا لأنها صفة كمال ملازمة لذات الله.

أما التقدير فهو وصف فعل لله يتعلق بمشيئته، إن شاء قدر، وإن شاء لم يقدر، وأما الفعل "قدّر" فهو متعلق بالمشيئة والزمن، فالله ﷻ قدر مقادير الخلائق في زمن مرتبط ببداية ونهاية، تم فيه إيجاد الله للمفعول الذي قدره، كما صح من حديث ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إن الله قدّر مقادِير الْخلائِق قبْل أنْ يخْلق السّماوات والأرْض بخمْسِين ألْف سنة، وكان عرْشه على الْماء)[١]. فالفعل قدر دل على وصف التقدير وارتباطه بالزمن معا، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ۝٢﴾ الفرقان:٢. وكذلك اسم الله العليم ورد في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٩٦﴾ الأنعام: ٩٦. وقد تضمن الدلالة على صفة العلم؛ وهي صفة كمال ملازمة لذات الله لا تتعلق بمشيئته كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ فاطر:١١. أما التعليم فهو وصف فعل لله يتعلق بمشيئته، إن شاء علم، وإن شاء لم يفعل، وأما الفعل "علّم" فتعلق بالمشيئة والزمن كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾ النساء:١١٣. وكذلك الفرق بين اسم الله العزيز ودلالته على صفة

---

(١) مسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى ٤/ ٢٠٤٤ (٢٦٥٣).

العزة، فقد ورد الاسم في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾الأنعام:٩٦. ودل على صفة العزة كصفة ذاتية لله ﷻ كما قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾فاطر:١٠. أما الإعزاز فهو وصف فعل لله تعلق بمشيئته إن شاء أعز وإن شاء أذل، دل عليه الفعل أعز في قوله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾آل عمران: ٢٦. ولا يصح تسمية الله المعز لأنه لم يثبت بنص توقيفي.

وكذلك أيضا الفرق بين صفة الكلام كصفة ذاتية لله، وصفة التكليم كصفة فعلية، والفعل كلم الذي تعلق بالمشيئة والزمن، ومع ذلك لا يجوز تسمية الله بالمتكلم أو المكلم اشتقاقا من الصفة أو الفعل لأن أسماء الله الحسنى توقيفية على النص، ولم يرد بهذين الاسمين دليل توقيفي.

ومن صفات الله الفعلية المتعلقة بمشيئته وقدرته، إن شاء فعلها ، وإن شاء لم يفعلها، صفة الاستواء على العرش، والنُّزُول إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، وإجابة الدعاء، والمجيء لفصل القضاء، والرضا عن الأولياء، والغضب على الأعداء، والطي للسماء، وعطاء الله لمن يشاء، وغير ذلك من صفات الأفعال التي ثبتت في الكتاب والسنة.

• ما هي عقيدة أهل السنة في علو الله على خلقه؟

عقيدة أهل السنة والجماعة في علو الله على خلقه أنهم يؤمنون بما أخبر الله عن نفسه في كتابه وفي سنة نبيه ﷺ، وقد دلت النصوص مجتمعة على أن الله ﷻ بذاته فوق سمائه على عرشه، وأن عرشه فوق الماء، وأن الماء فوق السماء السابعة، وهو سبحانه وتعالى من فوق عرشه معنا أينما كنا، يسمعنا ويرانا ويدبر أمورنا، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فما يكون من

نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم، ولا خمسة إلا وهو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا وهو معهم أينما كانوا، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة. وهو سبحانه من فوق عرشه يدبر أمورنا تدبيرا كونيا وتدبيرا شرعيا، فله سبحانه بتدبيره الكوني معية عامة لجميع خلقه، يبسط فيها أرزاقهم، ويقلب أفئدتهم وأبصارهم، ويعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ويعلم سرهم وجهرهم وما توسوس به أنفسهم، وكل ذلك وهو سبحانه فوق عرشه. وله سبحانه أيضا تدبير شرعي يوجه فيه الإنسان لصلاحه في الدنيا والآخرة، فمن استجاب منهم لشرعه فالله معه يؤيده بمعية خاصة، ينصر فيها أولياءه على أعدائه، ويوفقهم إلى حبه ومرضاته، وهو مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وهو سبحانه الإله الحق الذي يعبده من في السماء ومن في الأرض، فهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، وعلى الرغم من سعة الكون وعلو الله على العرش فوق جميع الخلق إلا أنه سبحانه أقرب إلينا من حبل الوريد.

والدليل على أن الله ﷻ له العلو المطلق قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ البقرة:٢٥٥. والدليل على استواء الله على عرشه قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ طه:٥. والدليل على أن الله في السماء على العرش قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ الملك:١٦. وقد روى مسلم من حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لجارية معاوية: (أيْن اللهُ؟ قالتْ: فِي السّماءِ. قال: منْ أنا؟ قالتْ: أنْت رسُول الله. قال: أعْتِقْها فإِنّها مُؤْمِنةٌ)(١).

(١) مسلم في كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة ١/ ٣٨١ (٥٣٧).

والدليل على أن الله ﷻ من فوق عرشه يعلم السر وأخفى في خلقه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ المجادلة:٧.

تلك عقيدة الصحابة ﭫ في علو الله على خلقه، يؤمنون بأن الله في السماء على عرشه، ويعلم ما نحن عليه من فوق سبع سماوات، روى البخاري من حديث أنس ﭬ أنه قال: (كانتْ زيْنبُ تفْخرُ على أزْواجِ النّبِيِّ ﷺ تـقُول: زوّجكُنّ أهاليكُنّ وزوّجنِي اللهُ تعالى مِنْ فوْقِ سبْعِ سموات)[1]. وفي رواية أنها كانت تفْخرُ على نساء النبي ﷺ وتقول: (إنّ الله أنْكحنِي في السّماءِ)[2]. وفي المسند من حديث ابن عباس أنه قال لعائشة وهي على فراش الموت: (كُنْتِ أحبّ أزْواجِ رسول الله ﷺ إليه، ولم يكُنْ يُحِبُّ إلا طيِّباً، وأنْزل الله ﷻ براءتكِ من فوْقِ سبْعِ سماوات)[3].

• هل يصح تأويل الاستواء على العرش بالاستيلاء والقهر؟

لا يصح تأويل الاستواء على العرش بالاستيلاء والقهر، ومن اعتقد بأن استواء الله ﷻ هو الاستيلاء والقهر فهو من الجهمية وأتباعهم من المعتزلة والأشعرية وغيرهم من المبتدعة، واعتقاده باطل، وهو تحريف للكلم عن مواضعه؛ لأن لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله تعالى بلغتهم، وأنزل بها كلامه ليس فيها معنى استولى، ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين

(١) البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ٦/ ٢٦٩٩ (٦٩٨٤).

(٢) السابق ٦/ ٢٧٠٠ (٦٩٨٥).

(٣) رواه أحمد ١/ ٣٤٩ (٣٢٦٢). وقال شعيب: إسناده قوي على شرط مسلم.

يعتمد قولهم، والذين قالوا: إن استوى معناها استولى استدلوا ببيت شعر ليس من شعر العرب وهو قول الأخطل النصراني:

قد استوى بشر على العراق : من غير سيف أو دم مهراق

قال ابن كثير: (هذا البيت تستدل به الجهمية على أن الاستواء بمعنى الاستيلاء، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه، وليس في بيت هذا النصراني حجة ولا دليل على ذلك، ولا أراد الله ﷻ باستوائه على عرشه استيلاءه عليه، ولا نجد أضعف من حجج الجهمية حتى أداهم الإفلاس من الحجج إلى بيت هذا النصراني المقبوح، تعالى الله عما تقول الجهمية علوا كبيرا) [1]. وهذا الأخطل النصراني هو الذي قال مستهزئا بدين الله:

ولست بصائم رمضان يوما : ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بزائر بيتا بعيدا : بمكة ابتغي فيه صلاحي
ولست بقائم كالعير أدعو : قبيل الصبح حي على الفلاح

ولو كان الاستواء هنا بمعنى الاستيلاء، لكان الكلام عديم الفائدة، لأن الله تعالى قد استولى على كل شئ في السماوات والأرض، فما معنى تخصيصه العرش بالذكر؟! ثم إن الاستيلاء لا يستوعبه العقلاء إلا بعد خصومة ومنازعة وعداء، وانتصار لطرف على آخر يقهر، فمن الذي حارب الله ونازعه على عرشه حتى قهره واستولى منه على عرشه.

• ما هي عقيدة أبي الحسن الأشعري في الاستواء والمعية؟

قال أبو الحسن الأشعري في كتابه الإبانة: (إن قال قائل: ما تقولون في

---

(١) انظر البداية والنهاية ٩/ ٢٩٥.

الاستواء؟ قيل له: نقول: إن الله ﷻ يستوي على عرشه استواء يليق به.. كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾ الملك:١٦. فالسماوات فوقها العرش فلما كان العرش فوق السماوات قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنه مستو على العرش الذي فوق السماوات، وكل ما علا فهو سماء، والعرش أعلى السماوات.. ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء؛ لأن الله تعالى مستو على العرش الذي هو فوق السماوات، فلولا أن الله ﷻ على العرش، لم يرفعوا أيديهم نحو العرش.

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية.. إن معنى قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. أنه استولى وملك وقهر، وأن الله تعالى في كل مكان، وجحدوا أن يكون الله ﷻ مستو على عرشه كما قال أهل الحق، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة، ولو كان هذا كما ذكروه، كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة؛ لأن الله تعالى قادر على كل شيء) [(١)].

- **ما هي معاني العلو التي دل عليها الكتاب والسنة؟**

معاني العلو التي وردت في الكتاب والسنة ثلاثة معان:

المعنى الأول علو الفوقية، وهو علو الذات، ودليله قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. وعقيدة أهل السنة أن الله سبحانه وتعالى مستو على عرشه، بائن من خلقه، لا شئ من ذاته في خلقه، ولا خلقه في شئ من

---

(١) الابانة عن أصول الديانة ذكر الاستواء على العرش ص١٠٥.

ذاته، وهو من فوق عرشه يعلم السر وأخفى في خلقه.

وأما المعنى الثاني للعلو فهو علو القهر ودليله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ الأنعام:١٨. فهو سبحانه الذي قهر الطغاة في الأمم الغابرة، وأذل لعظمته وكبريائه رقاب الجبابرة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ غافر: ١٦/ ١٧.

وأما المعنى الثالث للعلو فهو علو الشأن، ودليله قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى:١١. وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ الأعلى:١. وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ الإخلاص:٤. فالله ﷻ هو المنفرد بأوصاف الكمال والجمال وله وحده علو الشأن فيها.

• هل سؤال السائل: أين الله؟ سؤال باطل لا يجوز؟

زعم كثير من المتكلمين الأشعرية أن سؤال السائل: أين الله؟ سؤال باطل لا يجوز، لأن أين سؤال عن المكان، ولو كان الله في مكان لكان محصورا فيه؛ وزعمهم هذا زعم كاذب يصادم ما فعله رسول الله ﷺ فقد سأل الجارية: أين الله؟ ولا شك أن النبي ﷺ يعلم أن السؤال بأين يدل على المكان في حق الإنسان، ولكنه بالرغم من ذلك سأل عن الله ﷻ بأين؟ وأجابت الجارية بقولها: في السماء، وقال رسول الله ﷺ لسيدها: اعتقها فإنها مؤمنة؛ فأي اعتراض على ذلك إنما هو اعتراض على رسول الله ﷺ، ووصف له بعدم الفهم، أو بعدم القدرة على البيان والعلم، وطعن منهم في التوحيد الخالص

الذي دعا إليه رسول الله ﷺ أمته، فهل هناك مسلم عاقل يسمع النبي ﷺ يسأل الجارية: أين الله؟ ثم يقول: هذا سؤال باطل؟

والحقيقة أن فهم الأشعرية هو الفهم الباطل، وزعمهم أن السؤال عن الله بأين يدل على أن الله محصور في مكان بين أربعة جدران، هو زعم باطل؛ لأنهم يتصورون بعقولهم المريضة أن ما ورد من أوصاف الله في القرآن والسنة هي أوصاف الإنسان سواء بسواء، فيستخدمون في حق الله قياس التمثيل والشمول وهذا باطل لا يجوز، ثم يرغبون في نفي ما تصوروه واعتقدوه في صفات الله، فيتحاملون على نصوص القرآن والسنة ويبطلون مدلولها ومعانيها الصحيحة بدلا من أن يراجعوا أنفسهم؛ ويتراجعوا عن تصورهم الباطل وظنهم السيئ في وصف ربهم.

والحقيقة أن المكان عند أهل السنة والجماعة نوعان، وليس نوعا واحدا كما هو حال المتكلمين الأشعرية، فالنوع الأول من المكان هو المكان المحسوس المحصور في محيط عالم الشهادة، وهو ما يخضع للمحاور الفراغية الهندسية الثلاثة التي نراها؛ وقد فهم المتكلمون الأشعرية أن معنى قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ الملك:١٦. أو قول الجارية: في السماء، فهموا من ذلك الظرفية وحلول الذات الإلهية بين تلك المحاور الفراغية الهندسية التي نراها، وأن الله محصور في مكان بين أربعة جدران، داخل هذا المحيط المذكور، تعالى الله عن قولهم.

النوع الثاني من المكان ما كان خارجا عن محيط عالم الشهادة، أو المحاور الفراغية الهندسية التي نراها، وهذا المكان عالم غيبي لا يقاس بقياس تمثيلي أو بقياس شمولي، ولا نعرف كيفيته، لا يخضع بحال من الأحوال لمقاييس

المكان في حسابات الإنسان، ولا شك أن هذه المقاييس المكانية المحسوسة لا تصلح لقياس كل ما هو موجود في عالم الغيب كالملائكة والجن وكل من انتقل إلى عالم الغيب من بني الإنسان، ولو كانت المقاييس المكانية التي تحكم عالم الغيب هي ذات المقاييس التي تحكم الإنسان في عالم الشهادة كما يتصور الأشعرية في اعتقادهم الفاسد، لما استطاع ملك الموت أن يقبض روح إنسان محصور في غرفة مغلقة بإحكام، لأنه وقتها سوف يعجز عن دخولها، ومعلوم أن هذا هو الباطل بعينه وذلك لمخالفته الواقع الذي عليه ملك الموت قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ النساء:٧٨. وقال تعالى في بيان وقوع الأجل على التقدير فورا دون تأخير: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ النحل:٦١.

ولو كانت المقاييس الزمانية التي تحكم عالم الغيب هي نفس المقاييس التي تحكم الإنسان في عالم الشهادة، لما استطاع ملك الموت أن يقبض روح إنسان في مشرق الأرض ويقض روح آخر في مغربها، لأن انتقاله يتطلب سفرا طويلا تقطعه الطائرات في ساعات وساعات، وسوف يتأخر أجل الإنسان عما قدره الله في اللوح المحفوظ، ولا شك أن هذا كلام باطل وقياس فاسد، لأن الزمان في عالم الغيب يختلف عن الزمان في عالم الشهادة، ولأن ملك الموت تطوى له الأرض بكيفية زمانية ومكانية لا نعلمها ولا تستوعبها مداركنا؛ ولله المثل الأعلى كيف يقاس الخالق على الإنسان في نزوله إلى السماء الدنيا أو في استوائه على عرشه؟ وكيف لمن اعتقد هذا القياس الفاسد من الأشعرية وأمثالهم أن يطالبنا بنفي صفات الله كالاستواء والنزول والمجيء وغيرها، أو يطالبنا بتأويلها كما يشاء وصرفها عن معناه الظاهر في حق الله

حتى لا نقع فيما تصوره هو في نصوص الصفات بعقله الفاسد.

ويضاف أيضا أن رسول الله ﷺ لما سأل الجارية: أين الله؟ وقالت: في السماء. شهد لها بالإيمان، ولم ينكر عليها، ولم يقل لها: ألا تعلمين أن أين للمكان، وكل من كان في مكان فهو محصور؟ فعلمنا بذلك أنه لا إشكال في السؤال عن الله بأين، وأن الأمر واضح ظاهر جلي، وأن العيب في الاعتقاد الفاسد الذي يعشش في ذهن كل أشعري تجاه وصف ربه.

- **ما هي عقيدة أهل السنة والجماعة في صفة النزول ؟**

عقيدة أهل السنة في صفة النزول الإيمان بما أخبر رسول الله ﷺ عن ربه، وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ أن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، كما ورد عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ينْزِل ربّنا تبارك وتعالى كُلّ ليْلةٍ إِلى السّماءِ الدّنْيا حِين يبْقى ثُلُثُ اللّيْلِ الآخِرُ، يقُول: منْ يدْعُونِي فأسْتجِيب لهُ، منْ يسْألُنِي فأعْطِيهُ، منْ يسْتغْفِرُنِي فأغْفِر لهُ).

واعتقاد السلف في النزول إلى السماء الدنيا كاعتقادهم في استواء الله على عرشه فكما قالوا: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فكذلك القول في النزول: النزول معلوم المعنى، غير معلوم الكيفية، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

ومعلوم أن حقيقة السماء الدنيا لا يعلم كيفيتها إلا الله، فهذه الكواكب والنجوم التي زينت بها السماء الدنيا والتي لا يحصيها إلا الله ﷻ، قد عجز الإنسان في العصر الحديث أن يخرج من مجال المجموعة الشمسية التي لا تمثل

شيئا في هذه النجوم؛ ومن المعلوم أيضا أن بيننا وبين أقرب الكواكب من المجرات الأخرى ملايين السنوات الضوئية، في كون فسيح لا يعلم مداه ولا منتهاه إلا الله ﷻ، والخطأ الذي وقع فيه الأشعرية الذين ينفون صفة النزول أنهم تصوروا أن السماء في شأنها يماثل سبعة طوابق في عمارة كبيرة، وأن النازل إلى أول طبقاتها لا بد أن يهبط على الدرج باتجاه سلالمها، ثم أرادوا بعد هذا الفهم السيئ الذي جسدوه في أذهانهم أن ينفوا أحاديث النزول بتأويل نصوصها تأويلا باطلا.

والحقيقة أن نزول الخالق سبحانه لا يعني أنه يتخلل في طبقات السماوات حتى يصل إلى السماء الدنيا كما كيفوه، وهذا الفهم لا يمكن أن يرد بحال على ذهن واحد من أهل السنة والجماعة، لأنهم يعلمون أن الله ﷻ لا يحيط به شئ من مخلوقاته، وهو مستو على عرشه بائن من خلقه كما بينت نصوص القرآن والسنة، فالكرسي الذي وسع السماوات والأرض لا يمثل بالنسبة لعرش الرحمن إلا كحلقة في الصحراء كما ثبت في السنة.

ويضاف أيضا أن الزمان والمكان في عالم الشهادة يختلفان تماما عن الزمان والمكان في عالم الغيب، فلا يلزم قول القائل: الليل هنا نهار هناك، أو الثلث الأخير يحل في كل لحظة على مدار خطوط الطول والعرض على سطح الأرض، فالله سبحانه وتعالى نزوله نزول حقيقي معلوم، له كيفية مجهولة لنا، معلومة لله ﷻ، والإيمان بوجود الكيفية واجب، والسؤال عنه بدعة.

والرسول ﷺ وهو أعلم الخلق بالله ﷻ، وأنصحهم للأمة، وأقدرهم على البيان وحسن العبارة التي لا توقع لبسا، قد صرح بالنزول مضافا إلى الله في جميع الأحاديث، ولم يذكر في موضع واحد ما ينفي الحقيقة، فمن حاول رد

هذه الأحاديث، أو قال بأن النزول نزول معنوي وليس حقيقيا، فقد نسب إلى الرسول ﷺ التقصير في بيانه وتعليمه ونصحه.

• ما هي عقيدة أهل السنة والجماعة في رؤية الله؟

عقيدة أهل السنة والجماعة في رؤية الله ﷻ أن الله لا يرى في الدنيا ابتلاء لعباده، ويرى في الآخرة إكراما وجزاءً لأوليائه، فالمؤمنون يرون ربهم يوم القيامة عيانا بأبصارهم كما يرون الشمس صحوا ليس دونها سحاب، وكما يرون القمر ليلة البدر، لا يضامون في رؤيته؛ يرونه سبحانه في أرض المحشر؛ ثم يرونه بعد دخولهم الجنة في أيام الجمعة والعيدين؛ فيكرمهم الله ويتجلى لهم من فوقهم، ولا يراه الكافرون إهانة لهم كما قال تعالى في شأنهم: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ المطففين:١٥.

وأهل السنة يخالفون أهل الضلال من المعتزلة القائلين بأن الله لا يرى في الآخرة، خلافا لما دلت عليه دلالة قاطعة، ويخالفون قول غلاة الصوفية الذين يزعمون أن الله يرى في الدنيا متجليا بذاته في الوجود بأسره، وكذلك يخالفون قول الأشعرية وأغلب المتكلمين الذين يقولون: إن الله ﷻ يرى في الآخرة لا في جهة، فاشترطوا شروطا جعلوا رؤية الله من المستحيلات، وكل هذه الآراء أقوال باطلة لأن الدليل على خلافها، قال تعالى في إثبات رؤية المؤمنين له في الآخرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ القيامة:٢٢/ ٢٣. وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ يونس:٢٦.

وروى مسلم من حديث صُهيْب أن النبي ﷺ قال: إِذا دخل أهْل الجنَّةِ الجنّة قال اللهُ تبارك وتعالى: تُرِيدُون شيْئًا، أزِيدُكُمْ؟ فيقُولون: ألمْ تُبيِّضْ

وُجُوهنا؟ ألَمْ تُدْخِلنا الجنّة وتُنجّنا مِنْ النّارِ؟ قال: فيكْشِفُ الحِجاب، فما أُعْطُوا شيْئًا أحبّ إِليْهِمْ مِنْ النّظرِ إِلى ربِّهِمْ ﷻ. ثمّ تلا هذهِ الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1].

وروى البخاري عن جرير بن عبد الله ﷺ أنه قال: (كُنّا جُلوسًا عِنْد النّبِيِّ ﷺ إِذ نظر إِلى القمرِ ليْلة البدْرِ، قال: إِنّكُمْ سترَوْن ربّكُمْ كما ترَوْن هذا القمر، لا تُضامُون فِي رُؤْيتِهِ، فإِنْ اسْتطعْتُمْ أنْ لا تُغْلبُوا على صلاةٍ قبْل طلوعِ الشّمْسِ، وصلاةٍ قبْل غرُوبِ الشّمْسِ فافْعلوا)[2].

• ما هي عقيدة أهل السنة والجماعة في صفة الكلام ؟

عقيدة أهل السنة والجماعة في صفة الكلام هي إثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ من وصف الكلام والتكليم، فالكلام وصف ذاتي لله أزلي أبدي لأنه من لوازم الكمال، وضده من أوصاف النقص، ولهذا ذم الله بني إسرائيل لاتخاذهم العجل إلها يعبد من دون الله. قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ الأعراف:١٤٨.

وكذلك التكليم وصف فعلي لله ﷻ متعلق بمشيئته، فالله ﷻ يتكلم إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء بالكيفية التي تليق بجلاله، يتكلم بحرف وصوت يسمع، سمعه جبريل عليه السلام من الله، وسمعه بعض أنبيائه كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ

(١) مسلم في الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ١/ ١٦٣ (١٨١).

(٢) البخاري في التوحيد، وجوه يومئذ ناضرة ٦/ ٢٧٠٣ (٦٩٩٧).

دَرَجَٰتٍ ﴾ البقرة:٢٥٣. وروى البخاري من حديث عدي بن حاتم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ما مِنْكُمْ مِنْ أحدٍ إلاّ سيُكلّمُهُ ربّهُ ليْس بيْنهُ وبيْنهُ تُرْجُمانٌ، ولا حِجابٌ يحْجُبُهُ)[1].

وقد تواترت الأدلة بما لا يدع مجالا للشك على ثبوت صفة الكلام لربنا تبارك وتعالى، وأنه يتكلم إذا شاء، وبما شاء، وكيف شاء، وأنه يتكلم بكلام يُسْمعه من يشاء، وأن القرآن الكريم الذي هو سور وآيات، وحروف وكلمات هو عين كلامه حقا، لا هو من تأليف ملك، ولا هو من تأليف بشر، وأن القرآن بجميع حروفه ومعانيه نفس كلامه الذي تكلم به.

وأهل السنة والجماعة لا يقولون في صفة الكلام بقول أهل الضلال والبدع من الفلاسفة وأتباع الجهمية كالمعتزلة والأشعرية، فلا يقولون بقول الفلاسفة وزعمهم أن كلام الله هو ما يجول في عقول النفوس الزكية كنفوس الأنبياء من أفكار ذاتية و طاقة كونية تصدر من العقل الفعال، ويقصدون به رب العزة والجلال تعالى الله عن قولهم.

وأهل السنة لا يقولون أيضا بقول المعتزلة في نفي صفة الكلام عن الله، وزعمهم أن كلام الله هو كلام محمد ﷺ، وأن محمدا ﷺ لما كان مخلوقا، فكلام الله مخلوق أيضا، والقرآن مخلوق خلقه الله ﷻ في محمد ﷺ كما خلق سائر الأشياء، وكل ذلك هدم صريح للنقل الصحيح وإبطال للكتاب والسنة.

وكذلك فإن أهل السنة لا يقولون بقول الأشعرية وغيرهم من المتكلمين بأن كلام الله كلام نفسي، وإيحاء رباني، يماثل إيحاء الأخرس العاجز عن البيان

---

(١) البخاري في التوحيد، باب وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ٦/ ٢٧٠٩ (٧٠٠٥).

النصي، وأن جبريل عليه السلام هو الذي يعبر نيابة عن الله عز وجل وينقل هذه الإيحاءات الربانية للأنبياء والرسل، سواء كان الكلام عربيا أو عبريا أو سريانيا، فإن عبر عنه جبريل عليه السلام بالعربية سمعه منه محمد ﷺ قرآنا عربيا، وإن عبر عنه بالعبرانية سمعه منه موسى عليه السلام توراة عبرية، وإن عبر عنه بالسريانية سمعه عيسى عليه السلام إنجيلا سريانيا، ومثل هذا المذهب أعني مذهب الأشعرية الذي يجعل كلام الله كلاما نفسيا تبطله النصوص القرآنية والنبوية وتأباه الفطرة النقية، وترده جميع الدلالات العقلية.

- **ما حقيقة بدعة خلق القرآن وكيف تصدى لها الإمام أحمد؟**

لما اتبعت المعتزلة طريقة الجهم بن صفوان في أن العقل هو الذي يقرر إثبات الصفات الإلهية أو نفيها، ووجدوا ما ورد في الكتاب والسنة يخالف ما ذهبوا إليه في إثباتها، تشبعوا بالرغبة في نفي النصوص وتعطيلها، محتجين بأن إثباتها يدل على التشبيه وأنواع المحال، وأن ظاهر النصوص باطل واعتقاده ضلال، ورتبوا على هذا الأصل نفي أوصاف الكمال اللائقة برب العزة والجلال، فردوا الأخبار وأنكروا الآثار التي ثبتت في رؤية الله عز وجل يوم القيامة، وقالوا أيضا بنفي صفة الكلام عن الله عز وجل، وجعلوه عاجزا عن التكلم بالقرآن، بحجة أنه لو كان متكلما في زعمهم لكان له فم ولسان، وهذا على زعمهم تشبيه لله بالإنسان.

ولما أصر المعتزلة على نفي صفة الكلام عن الله عز وجل تبادر إلى الذهن سؤال هام، وهو: إذا كان الله عز وجل لا يتكلم، فهذا القرآن كلام من؟ ومن الذي تكلم به؟ فقالوا تكلم به محمد ﷺ ولم يتكلم الله به، ولما كان محمد ﷺ مخلوقا فكلامه مخلوق، وقد خلق الله محمدا وخلق كلامه كما خلق سائر الأشياء، فرفعوا هذا

الشعار البدعي، وقالوا بخلق القرآن تعبيرا منهم عن نفي صفات الله.

وفي بداية القرن الثالث الهجري تصادق المأمون بن هارون (ت:٢١٨هـ) مع بعض دعاة المعتزلة، وذلك قبل أن يكون خليفة المسلمين، فقرب إليه رجلا يقال له بشر المريسي من أصل يهودي، وآخر يقال له أحمد بن أبي دؤاد الإيادي، وكان من أشد المتعصبين للمذهب الاعتزالي، فلما قرب الخليفة المأمون رجالا من هؤلاء المعتزلة أقنعوه ببدعتهم في خلق القرآن، وأصبح ألعوبة في أيديهم، ونصحوه أن يلزم جميع المسلمين بقولهم إصلاحا للدين على زعمهم. ولما تولى المأمون بن هارون الخلافة فرض على الناس بدعة القول بخلق القرآن وهي بدعة جديدة لم تكن في أسلافهم تسمى في التاريخ الإسلامي بالبدعة الكبرى، أو بدعة تعطيل الصفات، فقد أحدثت انقساما شديدا في الأمة الإسلامية، وصار الناس وقتها فريقين:

الفريق الأول: فريق يتابع الخليفة على رأي المعتزلة، وينفون صفة الكلام عن الله ﷻ، ويعتقدون أن القرآن مخلوق، ومن قال بغير ذلك أصبح عندهم مشبها مرتدا، كافرا يستوجب القتل حدا، وهؤلاء هم أهل القوة وولاة الأمر، فالمأمون استخدم قوة الدولة في تأييد هذا الرأي وإلزام الناس بهذه البدعة، وأصبحت بدعة القول بخلق القرآن وإلزام المسلمين بها على رأس القضايا في اهتمامات الخلافة، حيث يواجه فيها أضعف الناس من المعترضين على هذه البدعة قوة الدولة ورهبة الخلافة والسلطان.

الفريق الثاني: فريق مستضعف يمثلهم علماء أهل السنة والجماعة ومعهم عامة المسلمين المستضعفين وغيرهم، وهؤلاء يقولون بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، ويؤمنون بما أخبر الله عن نفسه في كتابه وسنة نبيه ﷺ، من غير

تمثيل ولا تكييف، ومن غير تعطيل ولا تحريف.

غير أن المواجهة اشتدت بين الفريقين، فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ولا مؤذن ولا معلم إلا ألزموه أن يقول بأن القرآن مخلوق، وهرب كثير من الناس فرارا بدينهم، وملئت السجون بمن أنكر على المبتدعة من المعتزلة، وقد وصل التحدي إلى أن الخليفة المأمون أمر أن يكتب على أبواب المساجد: لا إله إلا الله رب القرآن وخالقه، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي وأحمد من المحاضرات في المساجد وتبليغ العلم؛ ولم يكتف المأمون بذلك بل أرسل إلى جميع علماء أهل السنة رسالته الشهيرة التي أوجب فيها على كل مسلم أن ينفي عن الله ﷻ صفة الكلام، وأن يقول بخلق القرآن تحقيقا لسلامته وإلا سيواجه قوة الدولة بمفرده.

وقد نصر الله سنته وأعز دينه بالإمام أحمد بن حنبل الذي وقف لله ﷻ وقفة يضرب بها المثل في الثبات على الحق والتمسك بالسنة حتى قيل: أبو بكر ليوم الردة، وعمر ليوم السقيفة، وأحمد ليوم البدعة.

وقد بدأت المحنة الحقيقية سنة ٢١٨هـ عندما أرسل المأمون كتابه الشهير الذي طلب فيه من الولاة أن يختبروا أهل العلم في القول بخلق القرآن، وبرر ذلك بحجج باطلة، وشبهات فاسدة، وقد كان رد الفعل في بغداد أن إسحاق بن إبراهيم والي الخليفة أحضر الفقهاء والمحدثين والقضاة، وكان من أبرزهم أحمد بن حنبل، حيث رفض الإقرار برأي الخليفة، وأصر على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وثبت معه في المحنة عالم من علماء السنة يقال له محمد بن نوح، فوضعهما إسحاق بن إبراهيم في القيود وأخْرجهما من سجن بغداد متوجهين على بعير واحد متعادلين مقيدين إلى الخليفة المأمون، وكان بمدينة طرسوس

في شمال الشام، فلما اقتربا من معسكر الخليفة ونزلوا على مسافة منه وجد الإمام أحمد أن الناس في خوف شديد ورهبة ووعيد إذا لم يقولوا بخلق القرآن، فجثا الإمام أحمد على ركبتيه ودعا ربه قائلا: (سيدي ومولاي غر حلمك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته).

وما أن انتهى الإمام أحمد من دعائه حتى أمات الله الخليفة المأمون، وأهلكه على الفور، وذلك قبل أن يلقاه، ومات المأمون غير مأسوف عليه، فقد جمع أهل البدعة والضلالة وقربهم إليه، وآزرهم ومكنهم من رقاب العباد، فخدعوه وأخذ عنهم هذا المذهب الباطل. وبعد ذلك تأكد للعامة قبل الخاصة صدق ما عليه إمام أهل السنة، وقويت مكانته في القلوب، ولكن المعتصم الذي تولى الخلافة بعد هلاك المأمون لم يتعظ بما حدث لأخيه، فأعاد الإمام أحمد بن حنبل إلى سجن بغداد وبقي وحيدا في سجنه مقيدا بالحديد في يديه ورجليه ثمانية وعشرين شهرا، وهو صامد صادق، يؤم السجناء ويخفف عنهم، ويعلمهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقد أخرجوه بعد هذه المدة لمناظرة المعتزلة في حضور الخليفة المعتصم، وقد استمرت المناظرة في أول يوم عدة ساعات، والإمام أحمد واقف يجادلهم ويناظرهم ويغلبهم في الحجة، والخليفة المعتصم يعلوه الهم والغم، ويرى ضعف أتباعه من المعتزلة في مواجهته، فكلما استدلوا بدليل أبطله الإمام أحمد، فربما يستدلون بآية في غير موضعها، وربما يحرفون المعاني عن دلالتها، حتى طال المجلس أياما، وغلب الهم على المعتصم، وانتقل من الترغيب إلى الترهيب وانتصر لسلطانه، وقام إلى الإمام أحمد وقال له: عليك اللعنة، خذوه

واسحبوه وعلقوه؛ فضربوه قرابة ثمانين سوطا ضربا مبرحا شديدا حتى سال دمه على ثيابه، وتقطع اللحم من جسده حتى ذهب عقله وحسه، فأرعب ذلك المعتصم وأحس بقوة الحق التي تدفع الإمام أحمد إلى الصبر والثبات، فأمر به فأطلقوه؛ وأفاق الإمام أحمد من غيبوبته فوجد القيود قد حلت من يديه ورجليه؛ وقال له أحدهم: إنا كببناك على وجهك ودسناك بأقدامنا.

وقد ندم المعتصم على جلده للإمام أحمد، وأرسل إليه من يتابع خبر معافاته من آثار ما فعله به، حتى صح الإمام أحمد وبرئ بحمد الله، وعلى الرغم من ذلك ظل أمر العقيدة أيام المعتصم والمذهب الرسمي للخلافة الإسلامية في جميع الأقطار هو مذهب المعتزلة. وكان ذلك بسبب حاشية الخليفة وبطانة السوء من اتباع الجهمية وعلماء الكلام، فبقيت المساجد مكتوب عليها: لا اله إلا الله رب القرآن وخالقه.

وكان الفقهاء والمحدثون قد امتلأت بهم السجون، والناس يهربون إلى البادية خوفا من البطش والقتل وفرارا بدينهم، فكم من دماء سفكت، وكم من رقاب قطعت، وكم من رؤوس علقت، لأنهم عارضوا أهل البدعة القائمين على الخلافة. وقد ظهر جيل جديد في الأمة الإسلامية شب وترعرع بين هذه الأفكار البدعية التي أحدثتها فرقة المعتزلة بأصولها الخمسة، وتقديمها العقل وشبهات الجهمية على ما ورد في النصوص القرآنية والنبوية، هذه البيئة مثلت مستنقعا فكريا نتن الرائحة لم تسلم الأمة من الأمراض والأوبئة التي نشأت فيه حتى اليوم.

• **ما هي قاعدة رد البدعة التي وضعها أبو عبد الرحمن الأزدي؟**

أبطل علماء أهل السنة والجماعة بدع المعتزلة العقلية، ووضعوا القواعد

التي يردون بها على من قدم العقل على النقل في باب الصفات وسائر الأمور الغيبية، وكان من أبرزهم الشيخ أبو عبد الرحمن بن محمد بن إسحاق الأزدي، حيث أدخل على الخليفة الواثق بن المعتصم وهو مقيد بالسلاسل، وكان قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد قد أمر باعتقاله؛ لأنه كان لا يقول بخلق القرآن، فسلم على الخليفة غير هائب. فقال له الواثق: يا شيخ، ناظر أحمد بن أبي دؤاد. فقال الشيخ الأزدي: يا أمير المؤمنين هذا لا يقوى على المناظرة. فغضب الواثق وقال له: ابن أبي دؤاد لا يقوى على مناظرتك أنت؟! فقال: هوّن عليك يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في كلامه؟ فقال الواثق: قد أذنت لك. ثم التفت الشيخ الأزدي إلى أحمد بن أبي دؤاد رأس البدعة وقال له: يا بن أبي دؤاد أخبرني، أمقالتك في خلق القرآن واجبة في أصول الدين فلا يكون كاملا إلا بما قلت؟ قال ابن أبي دؤاد: نعم. قال الشيخ أبو عبد الرحمن: هل ستر الرسول ﷺ شيئا مما أمر الله به المسلمين في أمر دينهم؟ قال: لا. قال الشيخ: أفدعا إلى مقالتك هذه؟ فسكت بن أبي دؤاد! قال الشيخ الأزدي للخليفة الواثق: يا أمير المؤمنين هذه واحدة.

ثم قال: يا ابن أبي دؤاد أخبرني حين أنزل الله ﷻ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ المائدة:٣. فقلت أنت: الدين لا يكون تاما إلا بمقالتك في خلق القرآن، فهل كان الله تعالى الصادق في إكمال دينه؟ أم أنت الصادق في نقصانه؟ فسكت بن أبي دؤاد. قال الشيخ لأمير المؤمنين الواثق: يا أمير المؤمنين اثنتان. ثم قال الشيخ: يا أحمد مقالتك هذه علمها رسول الله أم جهلها؟ قال: علمها. قال الشيخ: أفدعا الناس إليها؟ فسكت بن أبي دؤاد. قال: يا أمير المؤمنين ثلاث.

ثم قال: أخبرني يا ابن أبي دؤاد ، لما علم رسول الله ﷺ مقالتك التي دعوت الناس إليها، هل وسعه أن أمسك عنها أم لا؟ قال أحمد بن أبي دؤاد: علمها وسكت عنها. قال الشيخ: وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ؟ قال: نعم. فأعرض الشيخ عنه وأقبل على الخليفة وقال: يا أمير المؤمنين إن لم يسعه ما وسع رسول الله ﷺ السكوت عنه، فلا وسّع الله على من لم يسعه ما وسع رسول الله ﷺ أن يسكت عنه. قال الواثق: نعم، لا وسّع الله على من لم يسعه ما وسع رسول الله ﷺ أن يسكت عنه، فبكى الواثق وأمر بحل قيوده، فجاذب الشيخ الحداد على القيود ليحتفظ بها. قال الواثق: ولم؟ قال: نويت أن تجعل بيني وبين كفني لأخاصم بها هذا الظالم يوم القيامة، وبكى الشيخ أبو عبد الرحمن، وبكى الواثق، وبكى الحاضرون.

وبعد هذه المناظرة التي تعد قاعدة في هدم البدعة، رفع الله المحنة عن العباد، فلما تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢هـ انتصر لأهل السنة وانتقم من أهل البدعة وجعل مذهب الدولة هو اتباع السنة وإن لم يعد بنقائه المعروف.

• ما الفرق بين اعتقاد الأشعري ومذهب الأشعرية؟

ظهر المذهب الأشعري بعد عصر المعتزلة متبنيا للأصول العقلية الاعتزالية في ثوب جديد، واستمر من وقتها حتى الآن، وبعد استقراء ما تركه أبو الحسن الأشعري من تراث، ومقارنته بما ورد في أقول العلماء الذين انتسبوا إلى المذهب الأشعري، تبين أن الفرق واسع بين عقيدة الأشعري والمنتسبين إليه من المتكلمين الأشعرية الذين يزعمون أنهم هم أهل السنة والجماعة، بل بينهما فرق كبير، فقد نصر أبو الحسن الأشعري ما كان عليه علماء السلف ومنع التأويل بغير دليل، ودافع عن مذهبهم وحارب البدعة بالنصوص النقلية

وآرائه العقلية، وذلك بخلاف ما عليه علماء الأشعرية حتى اليوم.

ومعلوم أن علماء الأشعرية أخذوا طريقة المعتزلة التي وضعوا بها الأصول الخمسة، والمبنية على تقديم العقل على النقل، ثم نظروا بها إلى الكتاب والسنة، فما وافق أصولهم أخذوه وما خالفها أنكروه بالتأويل ولو كان باطلا، فأظهروا لنا منهجا مسخا مشوها مخنثا مذبذبين فيه بين الحق والباطل، وهو في حقيقته أشد تعقيدا من مذهب المعتزلة؛ لأن رؤيتهم العقلية لا تثبت لله إلا خمس صفات فقط، يسمونها الصفات السلبية، ولم يثبتوا أيضا إلا سبع صفات معنوية، وما عدا ذلك مما ورد من النصوص القرآنية والنبوية فهي عندهم نصوص موهمة للتشبيه والجسمية وإثباتها لله كما أثبتها لنفسه ضلال مبين.

وقد كان الإمام أبو الحسن الأشعري يفند مذهب المعتزلة ليثبت الصفات التي ورد بها القرآن والسنة، فقد كان منهجه منهجا قرآنيا نبويا يقدم فيه النقل على العقل، ويبذل ما استطاع من الجهد ليثبت ما أرده الله ورسوله ﷺ، فترك لنا اجتهادات رائعة في إثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

وهذا كتابه الإبانة عن أصول الديانة، وهو من أواخر ما كتبه في بيان عقيدته، ولا يجرؤ أحد من الأشعرية أو غيرهم أن يشكك في نسبته إليه، لتواتر تلك النسبة عند سائر المترجمين لشخصيته، وقد جاء فيه بلا لبس أو غموض التصريح بأن عقيدته التي يدين لله بها هي بذاتها عقيدة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وقد أثبت فيها علو الله على خلقه، واستوائه بذاته على عرشه، وأنه تعالى في السماء، وأثبت جميع ما ورد في صفات الذات والأفعال على عكس طريقة المتكلمين الأشعرية المنتهجين لطريقة الجهمية والمعطلة.

قال في كتابه الإبانة: (فصل في إبانة قول أهل الحق والسنة، فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون. قيل له: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب الله ربنا ﷻ، وبسنة نبينا محمد ﷺ، وما روى عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكين فرحمة الله عليه من إمام مقدم، وجليل معظم، وكبير مفهم) [(١)].

ومن أبرز أئمة هذا المذهب الأشعري السقيم الذي يخالف ما كان عليه اعتقاد أبي الحسن الأشعري القاضي أبو بكر الباقلاني (ت:٤٠٢هـ) وهو من كبار علماء الكلام، وأبو إسحاق الإسفراييني (ت:٤١٨هـ)، وأبو القاسم القشيري الصوفي (ت:٤٦٥هـ)، وأبو إسحاق الشيرازي الفيروز أبادي (ت:٤٧٦هـ)، وإمام الحرمين أبو المعالي الجويني (ت:٤٧٨هـ)، وأبو حامد الغزالي الصوفي (ت:٥٠٥هـ).
ومن أشدهم وأخطرهم قبل توبته وعودته لمذهب السلف فخر الدين الرازي الطبرستاني (ت:٦٠٦هـ)، لأن اعتقاد الرازي هو المعبر عن المذهب الأشعري في مرحلته الأخيرة، وتلك المرحلة هي السائدة الآن في البلاد الإسلامية والمقررة على طلاب المعاهد والجامعات الأزهرية.

والقصد أن منهج أبي الحسن الأشعري منهج سلفي قائم على تصديق كل

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص١٩.

خبر ورد في الكتاب والسنة على وجه اليقين، وتنفيذه الأمر على وجه الكمال، فقد سعى بكل حجة نصية أو عقلية إلى إثبات ما أثبته الله ﷻ لنفسه، وما أثبته رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فحقيقة مذهب أبي الحسن الأشعري امتداد للمنهج السلفي.

- **ما هي عقيدة أهل السنة في صفة اليدين؟**

مذهب أهل السنة والجماعة هو إثبات ما أثبته الله ﷻ لنفسه، وما أثبته رسوله ﷺ من أن لله تعالى يدين حقيقيتين، هما من صفات ذاته، ونثبتهما من غير تمثيل ولا تكييف، ومن غير تعطيل ولا تحريف. وقد تنوعت الأدلة في الكتاب والسنة على إثبات اليدين لله ﷻ وإثبات الأصابع لهما، وإثبات القبض بهما، وذلك كقول الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾ ص:٧٥. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ﴾ المائدة:٦٤. فالله تعالى لم ينكر على اليهود وصفهم له باليد، وإنما أنكر عليهم وصف اليد بالغلول، وهذه الآية من الأدلة الواضحة على إثبات يدين لله على الحقيقة.

وكذلك وصفت اليد بأوصاف تدل على أنها صفة ذاتية حقيقية، منها القبض كما صح من حديث ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إِنّ الله يقْبِضُ يوْم القِيامةِ الأرْض، وتكُونُ السّماواتُ بِيمِينِهِ، ثمّ يقول: أنا الملكُ)[1]. وصح من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إِنّ المقْسِطِين عِنْد الله على منابِرِ مِنْ نُورٍ عنْ يمِينِ الرّحْمنِ ﷻ، وكِلتا يديْهِ يمِينٌ، الذِين يعْدِلون فِي

(١) البخاري في الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة ٥/ ٢٣٨٩ (٦١٥٤).

حُكْمِهِمْ وأَهْلِيهِمْ وما ولوا)[١].

ووصفت اليد أيضا بالأصابع التي تدل على أن اليد حقيقية وليست مجازية أو معنوية كما ادعى أهل التأويل الباطل، ففي حديث ابن مسعود ﷺ: (أنّ يهُودِيًّا جاء إِلى النّبِيِّ ﷺ فقال: يا مُحمّدُ، إِنّ الله يُمْسِكُ السّمواتِ على إِصْبعٍ، والأرضِين على إِصْبعٍ، والجِبال على إِصْبعٍ، والشّجر على إِصْبعٍ، والخلائِق على إِصْبعٍ، ثمّ يقُول: أنا الملكُ، فضحِك رسُول الله ﷺ حتّى بدتْ نواجِذُهُ ثمّ قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ الزمر:٦٧. قال ابن مسعود ﷺ: فلقدْ رأيْتُ النّبِيّ ﷺ يضْحكُ حتّى بدتْ نواجِذُهُ تعجُّبًا وتصْدِيقًا لقوْلِهِ)[٢].

وأغلب المتكلمين يؤولون اليدين إما بالقدرة، أو النعمة، أو الخزائن، وهذا باطل في سياق التثنية؛ لأن لغة العرب التي نزل بها القرآن يجوز فيها استعمال الواحد في الجمع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ العصر:٢. ويجوز فيها استعمال الجمع في الواحد كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ آل عمران:١٧٣. فكلمة الناس يقصد بها شخص واحد، وهو نعيم بن مسعود الأشجعي، وكلمة الناس الثانية هم عسكر قريش. ويجوز استعمال الجمع في الاثنين كقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ التحريم:٤. ولكن لا يجوز في لغة العرب استعمال الواحد في

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة ٣/ ١٤٥٨ (١٨٢٧).

(٢) البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: لما خلقت بيدي ٦/ ٢٦٩٧ (٦٩٧٨).

الاثنين، فلا يجوز أن تقول: عندي رجل، وأنت تعني رجلين، ولا يجوز في لغة العرب استعمال الاثنين في الواحد، فلا تقل: عندي رجلان، وأنت تعني به جنس الرجال. وعلى ذلك لا يجوز تأويل اليدين بالقدرة؛ لأن القدرة صفة واحدة، ولا يجوز أن يعبر بالاثنين عن الواحد، ولا يجوز أيضا تأويل اليدين بالنعمة، لأن نعم الله ﷻ لا تحصى ولا تعد، وعلى ذلك، فلا يجوز أن يعبر بالاثنين عن الجمع، مما يبطل تأويل اليدين في سياق التثنية بالنعمة أو القدرة، ومن فعل ذلك فقد حرف كلام الله عن مواضعه.

• ما هي عقيدة أهل السنة في صفة العينين؟

عقيدة أهل السنة في صفة العينين الإيمان بما أخبر رسول الله ﷺ عن ربه، وقد جاء ذكر العين وصفا لله تعالى في القرآن مفردة مضافة إلى ضمير المفرد كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ طه:٣٩. كما جاءت مجموعة مضافة إلى ضمير الجمع كما في قوله تعالى: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ القمر:١٤.

ولم يأت ذكر العين وصفا لله تعالى في القرآن مثناه، ولكن جاء ذلك في السنة كما صح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال: (ذُكِرِ الدّجّال عِنْد النّبِيِّ ﷺ فقال: إِنّ الله لا يخْفى عليْكُمْ، إِنّ الله ليْس بِأعْور، وأشار بِيدِهِ إِلى عيْنِهِ، وإِنّ المسِيح الدّجّال أعْورُ العيْنِ اليُمْنى، كأنّ عيْنهُ عِنبةٌ طافِيةٌ)[1].

ووجه دلالة الحديث أن العور فقد أحد العينين وذهاب نورها، فهذا يدل على أن لله ﷻ عينين حقيقتين، وهذه الصفات يجب إثباتها لله على ما يليق بجلاله فكما أن الله حي بذاته وحياته لا تشبه حياة المخلوقين، فكذلك وصف

(١) البخاري في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال برقم (٧١٢٧).

الله ﷻ باليدين والعينين وغيرهما من الصفات، نثبتها بالكيفية التي تليق بجلاله كما ورد الخبر، مع اعتقادنا أنه سبحانه ليس كمثله شئ فيها.

- **ما هي عقيدة أهل السنة في بقاء الله وبقاء أهل الجنة؟**

عقيدة أهل السنة في الجمع بين بقاء أهل الجنة ودوامها وأبديتها مع وصفه تعالى بأنه الآخر الذي ليس بعده شيء، أنهم يفرقون بين ما يبقى ببقاء الله ﷻ، وما يبقي بإبقائه ﷻ، فالجنة باقية بإبقائه، أما ذاته وصفاته فهي باقية ببقائه، وشتان بين ما يبقي ببقائه، وما يبقي بإبقائه، فالجنة خلقها الله ﷻ، وهي وأهلها دائمون بأمره، ورهن مشيئته وحكمه، فمشيئة الله ﷻ حاكمة علي ما يبقى وما لا يبقى، فأهل السنة يعتبرون بقاء الجنة وأهلها إلى ما لا نهاية إنما هو بإبقاء الله ﷻ ومشيئته، وقد شاء الله لها البقاء، فالبقاء ليس من طبيعة المخلوقات ولا من خصائصها الذاتية، بل من طبيعتها جميعا الفناء، فخلود الجنة وأهلها إنما هو بمدد دائم من الله تعالى وإبقاء مستمر لا ينقطع.

أما صفات الله كعلوِّه ووجهه، وعينه ويده، وسمعه وبصره، ورحمته ومحبته، وعزته وقوته، ومشيئته وقدرته وغير ذلك من صفاته باقية ببقائه ملازمة لذاته، فالآخرية صفة ذاتية له، كما أن الأولية والأزلية صفة ذاتية لله تعالى، فلابد أن نفرق بين صفات الله وأبديتها، وبين مخلوقات الله الأبدية وطبيعتها، وقد فرق القرآن الكريم بين نوعين من البقاء:

الأول: ما ورد في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ الرحمن:٢٦/ ٢٧. وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ القصص:٨٨. فالآيات دلت على بقاء صفة من صفات الذات وهي

صفة الوجه، ودلت على أن بقاء الصفة مرتبط ببقاء الذات، فأثبتت بقاء الذات بصفاتها، وفناء ما دونها، أو إمكانية فنائه، إذ أن الله ﷻ هو الأول قبل كل شيء، وهو الآخر بعد كل شيء.

والثاني: ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ الأعلى:١٧. فبقاء مخلوقات الآخرة الذي ورد في الآية بقاء مرتبط بإبقاء الله وبعطائه الدائم الذي لا ينقطع، وذلك البقاء من الله لإكرام أهل طاعته، وإنفاذ عدله في أهل معصيته، ولذلك قال تعالى: ﴿ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ﴿٣٦﴾ ﴾ النبأ:٣٥/ ٣٦.

• **ما هي عقيدة أهل السنة والجماعة في الصفات المقيدة؟**

عقيدة أهل السنة والجماعة في صفات الله أن الله ﷻ لا يتصف إلا بالكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه كالحياة والعلم والقدرة، والسمع والبصر والرحمة، والعزة والحكمة والعظمة، وغير ذلك من أوصاف الكمال، أما ضد ذلك من أوصاف النقص كالموت والعجز والظلم، والغفلة والسنة والنوم، فقد تنزه ربنا عن ذلك وسبحه الموحدون، وقال المؤمنون في وصفه كما قال المرسلون: ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ الصافات:١٨٠.

أما إذا كان الوصف عند عدم الإضافة إلى الخالق أو المخلوق في موضع احتمال، فكان كمالا في حال ونقصا في حال، فلا يصح إطلاقه على الله إلا في موضع الكمال فقط، ونقول: هذه الصفة من صفات الله المقيدة بموضع الكمال كالمكر والخداع والنسيان ،والسخرية والكيد والإبرام، والاستهزاء والسؤال والتردد والاستخلاف وغير ذلك مما ورد في القرآن والسنة.

وبيان ذلك أن المكر عند التجرد هو التدبير في الخفاء بقصد الإساءة أو

الابتلاء، أو المعاقبة والجزاء، فقد يكون قبيحا مذموما إذا كان مكرا بالسوء عند الابتداء، وقد يكون محمودا ممدوحا إذا كان بقصد الابتلاء أو المعاقبة والجزاء، ولهذا لا يصح إطلاق الماكر في حق الله ﷻ، اسما أو وصفا دون تخصيص بموضع الكمال؛ لأن الإطلاق فيه احتمال اتصاف الله بالنقص أو الكمال؛ وقد نسب الله ﷻ المكر إلى نفسه مقيدا بموضع الخيرية والكمال في مقابل مكر الكافرين بالسوء والنقص، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الأنفال:٣٠. فالمكر مقيد بموضع الكمال فقط.

ولذلك لم ينسب الله لنفسه الخيانة في مقابل خيانة الكافرين، لأن الخيانة لا تكون إلا نقصا على الدوام سواء في الفعل أو رد الفعل في البداية والنهاية كما قال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال: ٧١. ولم يقل: خانوا الله فخانهم؛ لأن الخيانة نقص دائم.

وما يقال في المكر يقال أيضا في الخداع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ النساء:١٤٢. وكذلك النسيان قد يكون بمعنى عدم التذكر؛ فلا يجوز نسبته إلى الله ﷻ كما قال موسى عليه السلام: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ طه: ٥٢. وقد يكون بمعنى عدم الذكر في الملأ الأعلى كما قال تعالى:﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ التوبة: ٦٧. في مقابل قوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ البقرة:١٥٢.

وكذلك الاستهزاء لم ينسبه الله لنفسه إلا في مقابل استهزاء المنافقين برب العالمين وعباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا

إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ البقرة:١٤/ ١٥. وقس على ذلك السخرية والكيد والإبرام، فإن ذلك يكون كمالا في موضع ونقصا في آخر، فلا يتصف به إلا في موضع الكمال كما قال رب العزة والجلال في السخرية بالمنافقين في مقابل سخريتهم بالمتصدقين من فقراء المؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ التوبة:٧٩. وقال سبحانه في الكيد بالكافرين في مقابل كيدهم بالمؤمنين: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ ﴾ الطارق:١٥/ ١٦. وقال في الإبرام: ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الزخرف: ٧٩. أي أبرم هؤلاء المشركون من قريش أمرا فأحكموه ليكيدوا به للحقّ الذي جئناهم به، فإنا محكمون لهم ما يخزيهم ويذلهم من النكال.

وكذلك السؤال قد يكون لعدم العلم، وقد يكون لإظهار الفضل، فلا ينسب إلى الله إلا مقيدا بموضع الكمال كما ورد عند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ: (يتعاقبُون فِيكُمْ ملائِكةٌ بِاللّيْلِ وملائِكةٌ بِالنّهارِ، ويجْتمِعُون فِي صلاةِ الْعصْرِ وصلاةِ الْفجْرِ، ثُمّ يعْرُجُ الّذِين باتُوا فِيكُمْ؛ فيسْألهُمْ وهْو أعْلمُ بِهِمْ؟ فيقُولُ: كيْف تركْتُمْ عِبادِي؟ فيقُولُون: تركْناهُمْ وهُمْ يُصلّون، وأتيْناهُمْ وهُمْ يُصلّون)[١].

وكذلك أيضا ما ورد في السنة في شأن التردد، فالتردد عند الإطلاق قد يكون كمالا في موضع ونقصا في آخر، فلو كان التردد عن جهل، وقلة علم،

---

(١) البخاري في مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر ١/ ٢٠٣ (٥٣٠).

وعدم إحكام للأمر كان نقصا وعيبا ومذمة، وإن كان التردد لإظهار الفضل والمحبة مع إنفاذ الأمر وتحقيق الحكمة؛ كان كمالا ولطفا وعظمة، وهو المقصود في الحديث الذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا إلى النبي ﷺ عن رب العزة أنه قال: (وما تردّدْتُ عنْ شيْءٍ أنا فاعِلهُ تردُّدِي عنْ نفْسِ المُؤْمِنِ، يكْرهُ الموْت، وأنا أكْرهُ مساءتهُ)[1].

وكذلك الاستخلاف لا يصح نسبته إلى الله إلا مقيدا بموضع الكمال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠. فلا يجوز القول بأن الإنسان خليفة عن الله ﷻ في أرضه دون تقييد؛ لأن الاستخلاف قد يكون بسبب عجز المستخلِف عن القيام بملكه أو تدبير أمره، إما لغيابه أو قلة علمه، وإما لمرضه أو موته كاستخلاف القائد نائبا لولاية الأمر على قومه أو جنده، ومثل هذا لا يجوز نسبته إلى الله بحال من الأحوال. وقد يكون الاستخلاف سببه اختبار الإنسان وامتحانه وتشريفه وإكرامه إذا نجح فيما ابتلاه الله، وأطاعه فيما خوله واسترعاه، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ الإنسان:٢.

وعلى ذلك المعنى يصح القول إن الإنسان خليفة عن الله ﷻ في الأرض لتنفيذ الأوامر الشرعية وتحقيق التوحيد في العبودية، وألا يشرك بالله في شيء من معاني الربوبية، فيؤمن بأن الله ﷻ من فوق العرش معه، يراه ويسمعه، ويدبر أموره في كل لحظة تدبيرا كونيا وتدبيرا شرعيا.

وينبغي الحذر من عقيدة بعض المتكلمين الأشاعرة الذين يجعلون نسبة

---

(١) البخاري في الرقاق، باب التواضع ٥/ ٢٣٨٤ (٦١٣٧).

الصفات المقيدة أمورا مجازية، ويزعمون أنها أطلقت على الله ﷻ من باب المشاكلة اللفظية دون إثبات الصفات الحقيقية في موضع الكمال، وهذا تأويل منهم بلا دليل يخالف مراد الله ورسوله ﷺ.

الفصل الرابع
عقيدة أهل السنة في الأسماء الحسنى

• ما هي عقيدة أهل السنة في الفرق بين أسماء الله وصفاته؟

الفرق بين اسم الإنسان ووصفه، أن الاسم في حقه قد يتضمن الوصف، فالمولود يسميه والده باسم من الأسماء لينادى به على ذاته وشخصه، بغض النظر إلى معنى الاسم ودلالته على وصفه، فيسميه أبوه سعيدا، ويأمل أن يكون سعيدا في الحياة، والله أعلم هل سيكون اسما على مسمى، أو سيكون حزينا شقيا، فيكون اسمه بلا مسمى، ومن ثم فإن الاسم في حق الإنسان قد لا يتضمن الوصف فنقول سعيد بلا سعادة، وصالح بلا صلاح، وفالح بلا فلاح، وناصر بلا معنى، فاسمه ناصر ولا ينصر أحدا، هكذا أغلب أسماء البشر قد تتضمن الدلالة على الوصف وقد لا تتضمنه، بل تجد الوصف الذي تضمنه الاسم إما ناقصا وإما معدوما.

أما عقيدة أهل السنة والجماعة في الفرق بين أسماء الله وصفاته، فالاسم لا بد أن يتضمن الدلالة على وصف الكمال بلا نقص؛ فهي أسماء على مسمى، وهي أسماء وصفات، فاسم الله الحي تضمن الدلالة على صفة الحياة المطلقة الكاملة الدائمة التي لا نوم فيها ولا موت. واسم الله القيوم دل بالتضمن على الكمال المطلق في وصف القيومية المطلقة الكاملة الدائمة التي تدل على استغنائه

وعدم احتياجه إلى غيره، سواء في قيامه بنفسه أو إقامة غيره. واسمه العليم تضمن الدلالة على صفة العلم الذي لا حدود له. واسمه القدير تضمن الدلالة على صفة القدرة المطلقة التي لا حدود لها. فالقدير اسمه، والقدرة صفته، والقوي اسمه، والقوة صفته، والكريم اسمه، والكرم صفته.

وجميع أسماء الله الحسنى يدل كل منها على صفة من صفات الكمال لله، فأسماء الله ﷻ لابد فيها من اجتماع العلمية والوصفية معا، فهي أعلام وأوصاف، أو هي أسماء عَلَمية تدل على ذات الله وحده، وهي أسماء وصفية يتضمن كل اسم منها صفة من صفات الله، فلا فرق بين اسم الرحمن والعليم والقدير باعتبار الدلالة على ذات الله وحدها، فهي مترادفة في دلالتها على ذات الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ الإسراء:١١٠. أي ادعوا الله، أو ادعوا الرحمن، أو ادعوا الملك، أو ادعوا القدوس، أو ادعوا السلام، أو ادعوا أي اسم من أسمائه؛ فجميعها لا فرق بينها عند دلالتها على ذاته سبحانه.

وهي أيضا أسماء وصفية دل كل منها على وصف كمال يليق برب العزة والجلال مختلف عن غيره، فاسم الله الرحمن دل على صفة الرحمة، واسم الله العليم دل على صفة العلم، واسم الله القدير دل على صفة القدرة، ومعلوم أن معنى الرحمة غير معنى العلم، ومعنى العلم غير معنى القدرة، فهذه الصفات مختلفة في معانيها ومتنوعة في دلالتها، وهناك فرق في المعنى بين معنى اسم الرحمن والعليم والقدير، ولذلك أمرنا الله ﷻ أن ندعوه بها مراعاة لمعناها فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ الأعراف:١٨٠. فالجاهل يسأل الله ويتوسل إليه باسمه العليم الخبير، والضعيف يسأله باسمه القوي القدير،

والفقير يسأله باسمه الغني الكبير، والمذنب يسأله باسمه التواب الغفور، وهكذا يدعوا ويتوسل إلى ربه بأسمائه التي تضمنت الدلالة على صفاته، والتي تناسب حال العبد واحتياجاته.

• ما هو العدد الكلي لأسماء الله الحسنى؟

أسماء الله الحسنى لا يعلم عددها إلا الله ﷻ فلا تحصى ولا تعد، وهو سبحانه الذي يعلم عددها، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد وصححه الشيخ الألباني من حديث ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال في دعاء الكَرْب: (أَسْأَلُكَ بكُل اسْم هُوَ لكَ، سَمَّيت بهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلتهُ فِي كِتابكَ، أَوْ عَلَمْتهُ أَحَداً مِنْ خَلقِكَ، أَوْ اسْتأْثرْت بهِ فِي عِلمِ الغَيْب عِنْدَكَ)[1].

وما استأثر الله تعالى به في علم الغيب عنده لا يمكن لأحد حصره، ولا الإحاطة به؛ أما ما ورد في الحديث الذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إنّ لله تِسْعَة وَتِسْعِين اسْمًا، مِائة إلا وَاحِدًا، مَنْ أحْصَاهَا دَخَل الجنة)[2]. فلا يدل على حصر الأسماء بهذا العدد، وإنما يدل على أن هذا العدد من جملة أسماء الله الكلية التي لا يعلم عددها إلا الله، والتي تعرف بها إلى عباده في الدنيا، وأن من أحصاه من الكتاب والسنة على مراتب الإحصاء المعروفة دخل الجنة.

• ما هي مراتب إحصاء أسماء الله الحسنى؟

إحصاء الأسماء الحسنى وجمعها من الكتاب والسنة له من الأهمية والمكانة

---

(١) رواه أحمد ١/ ٤٥٢ (٤٣١٨)، وانظر صحيح الترغيب والترهيب (١٨٢٢).

(٢) رواه البخاري في الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط ٢/ ٩٨١ (٢٥٨٥).

في قلوب المسلمين ما تتطلع إليه نفوس الموحدين، وتتعلق بها ألسنة الذاكرين ويرتقي العابدون من خلالها درجات السابقين المقربين، وقد أخبرنا نبينا ﷺ أن الله ﷻ أنزل عليه في كتابه وسنة نبيه ﷺ جملة من أسمائه، عددها تسعة وتسعون اسما مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة، والمراد بإحصاء الأسماء الحسنى ليس فقط مجرد جمعها من الكتاب والسنة بأدلتها، ولكن إحصاءها له ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها، وجمع التسعة والتسعين اسما بصيغتها التي وردت بها في أدلتها التوقيفية الواردة في النصوص القرآنية والنبوية، ثم بعد ذلك حفظها، لما ورد عند مسلم في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (للهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا مَنْ حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ) [1].

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها، فيؤمن بأن أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين الثابتة في الكتاب والسنة هي أسماء على مسمى، تضمن كل منها الدلالة على الوصف والمعنى، ويعتقد أن هذه الأسماء تدل على الصفات بالمطابقة والتضمن واللزوم، وأن الصفات التي دلت عليها هذه الأسماء هي صفات حقيقية، معلومة المعنى مجهولة الكيفية، وأنها لا تخضع للأقيسة التمثيلية والشمولية التي يستخدمها أصحاب المذاهب الكلامية.

المرتبة الثالثة: دعاء الله بها، فيدعو الله ﷻ بالأسماء التسعة والتسعين التي أخبر نبيه ﷺ عن وجودها في الكتاب والسنة، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟

(١) مسلم في كتاب الذكر، باب في أسماء الله تعالى ٨/ ٦٣ (٦٩٨٥).

﴿يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ الأعراف:١٨٠. والدعاء بها نوعان:

النوع الأول: أن يطلب من الله متوسلا إليه في دعائه بذكر أسمائه وما دلت عليه من صفاته، ويتخير منها ما يناسب طلبه واحتياجاته، فيدعو الله بها، كما ورد في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ آل عمران:٨. وكما صح من حديث زيد بن أرقم ﷺ أن النبي ﷺ دعا فقال: (اللهم آتِ نفسي تقوَاهَا، وَزَكِّهَا أنت خَيْرُ من زَكَّاهَا، أنت وَلِيُّهَا وَمولاَهَا)[1]. فدعا الله باسمه المولى. وكذلك ما صح من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أتي مريضًا أو أتِي به قال: (أذهب البَاسَ رَب الناسِ، اشف وأنت الشافي، لا شِفاءَ إلا شِفاؤُك، شِفاءً لا يغادِر سَقما)[2]. وهذا كله يسمى دعاء مسألة.

النوع الثاني: دعاء العبادة، وهو أثر يَظهَر العبد بمقتضاه موحدا لله في أسمائه الحسنى، ففي حال فقره يستغني بالله عمن سواه توحيدا له في اسمه الغني، فيتعفف عن السؤال، ويتوكل على رب العزة والجلال، آخذا بأسباب الحلال على وجه الكمال، راضيا بما قسمه الله. وإن كان العبد ممن أنعم الله عليه فأغناه، فإنه يظهر بمظهر الفقر في غناه توحيدا لله في اسمه الغني، وتواضعا لله في افتقاره الذاتي، وهكذا يكون توحيد العبودية لله في سائر حياته، توحيدا منه لله في أسمائه وصفاته، وهو المقصود بدعاء العبادة التي أمرنا الله بها فقال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ الفرقان:٧٧.

---

(١) مسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب التعوذ من شر ما عمل ٤/ ٢٠٨٨ (٢٧٢٢).

(٢) البخاري في الطب، باب دعاء العائد للمريض ٥/ ٢١٤٧ (٥٣٥١).

- **ما معنى قول أهل السنة بأن الأسماء الحسنى توقيفية؟**

اتفق علماء الأمة على اختلاف مذاهبهم إلا من شذ من أهل البدع كالمعتزلة على أنه يجب الوقوف على ما جاء في الكتاب والسنة بذكر أسماء الله ﷻ نصا دون زيادة أو نقصان، وأن أسماء الله الحسنى توقيفية على النص لا مجال للعقل في استحداثها أو إنشائها أو اختراعها، كما أنهم اتفقوا على أن أسماء الله أزلية أبدية غير محدثة، وأن من قال باستحداث اسم لله ﷻ لم يسم نفسه به، أو اخترع اسما لم يرد عليه دليل قرآني بنصه، أو دليل نبوي صحيح ينص على ذكره فهو معتزليٌّ ضال، يعبث في أسماء رب العزة والجلال؛ وذلك لأن العقل البشري مهما بلغ من الكمال لا يمكنه بمفرده أن يميز ما يستحقه الرب سبحانه من أسماء الجلال الدالة على صفات الكمال والجمال، ومن ثم فإن تسمية رب العزة والجلال بما لم يسم به نفسه قول على الله بلا علم، وهو أمر حرمه الله ﷻ على عباده كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الإسراء:٣٦ .

ومن ثم فإن دورنا اتجاه أسماء الله الحسنى الجمع والإحصاء ثم الحفظ والدعاء، وليس الاشتقاق والإنشاء، فالنبي ﷺ قال: من أحصاها دخل الجنة. ولم يقل: من أنشأها، أو اخترعها، أو اشتقها بشرط الكمال ليسمي الله بها، وكأنه يسمي طفله عند الولادة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

كما أن دعوة النبي ﷺ لإحصائها تدل على وجودها فيما أخبرنا الله به عن نفسه؛ مما ورد في كتابه وصح عن نبيه ﷺ، ولذلك أمر عباده أن يدعوه بها، ونهاهم عن الإلحاد فيها؛ إما بجحدها، أو إنكار معانيها، أو بتسميته بما لم يسم به نفسه، أو بتسمية غيره بها، وتوعد من خالف بسوء العذاب .

وقد اشتهرت في ذلك مناظرة وقعت بين إمام أهل السنة أبي الحسن الأشعري (ت:٣٢٤هـ) وشيخه أبي علي الجبائي المعتزلي عندما دخل عليهما رجل يسأل: هل يجوز أن يسمى الله تعالى عاقلا؟ فقال الجبائي: لا يجوز، لأن العقل مشتق من العقال، وهو المانع، والمنع في حق الله محال؛ فلا يصح إطلاق العاقل على الله. قال له الأشعري: فعلى قياسك لا يُسَمى الله سبحانه حكيما؛ لأن هذا الاسم مشتق من حكمة اللجام، وهي الحديدة المانعة التي توضع على وجه الدابة لتمنعها من الحركة؛ فإذا كان اللفظ مشتقا من المنع؛ والمنع على الله محال؛ لزمك أن تمنع إطلاق اسم الحكيم على الله تعالى. فلم يجب الجبائي إلا أنه قال للأشعري: فلم منعت أنت أن يسمى الله عاقلا وأجزت أن يسمى حكيما؟ قال الأشعري: لأن طريقي في مأخذ أسماء الله ﷻ التوقيف والإذن الشرعي دون القياس اللغوي؛ فأطلقت حكيما لأن الشرع أطلقه، ومنعت عاقلا لأن الشرع منعه، ولو أطلقه الشرع لأطلقته [1].

واحتج أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) على أن الأسماء توقيفية بالاتفاق على أنه لا يجوز لنا أن نسمي رسول الله ﷺ باسم لم يسمه به أبوه؛ ولا سمى به نفسه، وكذا كل كبير من الخلق، فإذا امتنع ذلك في حق المخلوقين فامتناعه في حق الله أولى[2]. والأقوال في ذلك كثيرة يعز إحصاؤها، وكلها تدل على أن عقيدة أهل السنة والجماعة، وكذلك أغلب المخالفين لهم من الخلف المتكلمين الأشعرية وأئمة الصوفية عقيدة مبنية على أن أسماء الله الحسنى توقيفية، لا زيادة فيها ولا نقصان، وأنه لا بد في كل اسم من دليل نصي

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣/ ٣٥٨ .

(٢) فتح الباري ١١/ ٢٢٣ .

صحيح، يُذكر فيه الاسم بنصه، فدورنا تجاه الأسماء الحسنى الجمع والإحصاء، ثم الحفظ والدعاء، وليس الاشتقاق والإنشاء.

- **هل صح تعيين الأسماء التسعة والتسعين في نص واحد؟**

إن المتفق على ثبوته وصحته عن رسول الله ﷺ هو الدعوة إلى إحصاء الأسماء، لكن لم يثبت عن النبي ﷺ تعيين الأسماء الحسنى التسعة والتسعين أو سردها في نص واحد، وهذا أمر لا يخفى على العلماء قديما وحديثا، وأهل الحديث منهم خصوصا.

قال ابن حزم (ت:٤٥٦هـ): (وجاءت أحاديث في إحصاء التسعة والتسعين اسما مضطربة، لا يصح منها شيء أصلا، فإنما تؤخذ من نص القرآن، ومما صح عن النبي ﷺ وقد بلغ إحصاؤنا منها إلى ما نذكر) [(١)] .

وقال ابن تيمية (ت:٧٢٨هـ) عن رواية الترمذي وابن ماجه في تعيين الأسماء التسعة والتسعين: (وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروايتين ليستا من كلام النبي ﷺ، وإنما كل منهما من كلام بعض السلف) [(٢)].

وقال ابن الوزير اليماني (ت:٨٤٠هـ): (تمييز التسعة والتسعين يحتاج إلى نص متفق على صحته أو توفيق رباني، وقد عدم النص المتفق على صحته في تعيينها، فينبغي في تعيين ما تعين منها الرجوع إلى ما ورد في كتاب الله ﷻ بنصه، أو ما ورد في المتفق على صحته من الحديث) [(٣)] .

(١) انظر المحلى لابن حزم ٨/ ٣١، والفصل في الملل والنحل ٢/ ١١٢.

(٢) دقائق التفسير لابن تيمية ٢/ ٤٧٣ .

(٣) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم ٧/ ٢٢٨ .

وقال الأمير الصنعاني (ت:٨٥٢هـ): (اتفق الحفاظ من أئمة الحديث أن سردها إدراج من بعض الرواة)(١). وقال ابن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ): (والتحقيق أن سردها من إدراج الرواة)(٢).

• كيف ظهرت الأسماء المشهورة منذ أكثر من ألف عام؟

الحديث الذي أخبر فيه رسول الله ﷺ أن الله له تسعة وتسعون اسما مائة إلا واحدا وأن من أحصاها دخل الجنة، لم يسمعه من النبي ﷺ إلا صحابي واحد، هو أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر (ت:٥٧هـ) ﷺ، وقد رُوِيَ عن بعض الصحابة كأبي ذر، وسلمان الفارسي، وابن عباس، وابن عمر ﷺ، وكلها روايات واهية لا تصح عن رسول الله ﷺ، ولم تظهر الأسماء المشهورة بسردها المتتالي المعروف الآن إلا في نهاية القرن الثاني الهجري.

وقد حاول الوليد بن مسلم الشامي الدمشقي مولى بني أمية (ت:١٩٥هـ) أن يحصي أسماء الله الحسنى باجتهاده الشخصي، إما جمعا لما ورد في القرآن والسنة، وإما نقلا عن بعض العلماء في عصره، ثم أراد أن يفسر بها جمعه حديث التسعة والتسعين. فقد جمع ثمانية وتسعين اسما بالإضافة إلى اسم الجلالة، ورتبها ابتداء من اسم الله الرحمن الرحيم الملك القدوس.. سردا متتاليا، ختمه حسب رؤيته الشخصية باسم الرشيد الصبور.

وقد كان الوليد بن مسلم يحدث الناس بحديث أبي هريرة ﷺ المتفق عليه والذي يشير إجمالا إلى وجود تسعة وتسعين اسما في القرآن والسنة، حيث

---

(١) سبل السلام ٤/ ١٠٨.

(٢) بلوغ المرام من أدلة الأحكام ص٣٤٦ .

يرويه عن شعيب بن أبي حمزة (ت:١٦٢هـ)، عن أبي الزناد عبد الله بن ذكوان (ت:١٣٠هـ)، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج (ت:١١٧هـ)، عن أبي هريرة (ت:٥٧هـ) ﷺ، عن رسول الله ﷺ، وبعد ذكره للحديث، يتبعه الوليد بن مسلم بذكر الأسماء التي أصبحت مشهورة الآن، والتي توصل إليها كتفسير شخصي منه للحديث. وقد اشتهرت شهرة واسعة بسبب تدوين الإمام أبو عيسى الترمذي (ت:٢٧٩هـ) لها في سننه مدرجة من كلام الوليد بن مسلم مع نص حديث النبي ﷺ، فالإمام الترمذي هو السبب المباشر في نقلها لعامة الأمة الإسلامية وتعريفهم بها، وذلك بسبب اشتهار كتابه السنن في الآفاق؛ فهذه الأسماء لم تعرف على مستوى العامة في الأمة الإسلامية إلا في نهاية القرن الثالث الهجري، ولم يعرفها من الرواة إلا الذين جاءوا بعد الوليد بن مسلم، وهم الذين نقلوها عنه مدرجة أو ملحقة في حديث أبي هريرة ﷺ، والذي خلا في جميع رواياته التي تزيد على الخمسين من ذكر الأسماء المشهورة.

ومع أن الإمام الترمذي لما دون هذه الأسماء في سننه مدرجة مع الحديث النبوي الذي ورد في فضل إحصائها نبه على غرابتها، وهو يقصد بغرابتها ضعفها وانعدام ثبوتها، بخلاف نص الحديث المرفوع كما ذكر الشيخ الألباني رحمه الله، إلا أن التساهل في نقل الأحاديث بين عامة الناس والوعاظ، أو عدم تحقيقها عند كثير من المتكلمين الأشعرية وغلاة الصوفية وأصحاب المذاهب البدعية كان سببا في تقديس العامة لهذه الأسماء كتقديسهم للقرآن الكريم سواء بسواء.

• كيف كان جمع الوليد بن مسلم للأسماء المشهورة؟

كانت محاولات الوليد بن مسلم (ت:١٩٥هـ) التي نقلت عنه في جمع التسعة

والتسعين اسما محاولات متعددة ومضطربة، تدل بما لا يدع مجالا للشك على المعاناة الشديدة التي واجهها في جمع الأسماء وإحصائها، واختيار الأقرب من حيث ثبوتها، وتحري الدليل النقلي على علميتها، وأن تكون بصيغة الأسماء في نصوصها، فالأسماء التي كان يذكرها للناس كتفسير شخصي منه للحديث، لم تكن واحدة في كل مرة، ولم تكن متطابقة أو متناسقة، بل يتنوع الإحصاء عند الشرح والإلقاء، فيذكر لتلاميذه أسماء مختلفة عما ذكره في اللقاء السابق، فالأسماء التي رواها عنه الطبراني (ت٣٦٠هـ) اختلف عن الأسماء المشهورة في عدة أسماء، وهي القائم الدائم الشديد الأعلى المحيط المالك، وحذف في المقابل من الأسماء المشهورة القابض الباسط الرشيد الودود المجيد الحكيم.

والأسماء التي رواها عنه ابن خزيمة في صحيحه اختلف عن الأسماء المشهورة في عدة أسماء، وهي، الحاكم القريب المولى الأحد، وحذف في المقابل اسم الحكيم الرقيب الوالي المغني من الأسماء المشهورة.

والأسماء التي نقلها عنه اِبْن مَنْدَهْ وضع فيها الوليد بن مسلم أربعة وعشرين اسما وهي، الحافظ العادل الفرد الرب الكافي الدائم العالم المعطي القاهر المبين الأحد الصادق الأبد الجميل البادي القديم البار الوفي الوتر ذو القوة البرهان الشديد القدير الواقي، وحذف الوليد في المقابل من الأسماء المشهورة التي نقلها عنه الإمام الترمذي أربعة وعشرين اسما وهي، القدوس الغفار القهار الفتاح الحكم العدل الكبير الحفيظ الحسيب الجليل الواسع المحصي الماجد المقتدر المقدم المؤخر البر المنتقم مالك الملك ذو الجلال والإكرام المغني النافع البديع الصبور[1].

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١١/ ٢١٦ .

وعلى الرغم من هذه المحاولات المتعددة والمضطربة إلا أن الأسماء المدرجة التي فسر بها الوليد بن مسلم الحديث الذي رواه الترمذي هي الأسماء التي اشتهرت من بداية القرن الرابع الهجري حتى عصرنا، وفي المقابل أصبحت أسماء الله الحسنى الثابتة بنصوصها التوقيفية في مواضعها المتفرقة في الكتاب والسنة، أصبحت أسماء مغيبة لا تكاد تنال من الحفظ والاهتمام أو الشرح والبسط والكلام ما تناله الأسماء التي جمعها الوليد بن مسلم، والتي تضمنت أسماء لا دليل عليها، ولا يجوز تسمية الله بها.

ومن ثم فإن الأسماء المشهورة ليست وحيا مقدسا كالقرآن وصحيح السنة، وإنما هي جمع وإحصاء بشري، مطالب فيه صاحبه بذكر النص التوقيفي على كل اسم منها، وأي اسم لا دليل عليه في الأسماء المشهورة لا يصح نسبته إلى الله ﷻ، وهو مردود على من جمعه، وتقديس الناس له ظنا منهم أنه من الأسماء الحسنى لا يلام فيه الوليد بن مسلم، أو الإمام الترمذي الذي نقله في الأسماء المشهورة، وإنما الخطأ يكمن في أن عامة الناس تعودوا على ترديد أسماء لا يسألون عن أدلتها التوقيفية النصية من القرآن الكريم أو ما صح في السنة النبوية، بل سار أغلبهم على منهجية الإمعية لكل متكلم في المسائل الاعتقادية والغيبية، أو الأحكام الشرعية التكليفية.

- **ما الدليل على تناقض الإحصاء للأسماء المشهورة؟**

الدليل على تناقض الوليد بن مسلم الذي جمع الأسماء المشهورة منذ أكثر من ألف عام أنه نسب لله ﷻ أسماء لا دليل عليها من الكتاب أو السنة، في حين ترك أسماء توقيفية تحققت فيها العلمية والوصفية، وقد ثبتت بنصها في ذات الموضع الذي أخذ منه بعضها وترك البعض، ومثال ذلك أننا وجدنا في

الأسماء المشهورة اسم المقتدر، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾ القمر:٥٤/ ٥٥.

وقد ورد معه اسم الله المليك، وكما هو ظاهر لكل ناظر عاقل أن الاسمين وردا معا، أحدهما يقارن الآخر في ثبوت النص والعلمية وثبوت الحجة النقلية، فجعل الوليد بن مسلم اسم المقتدر اسما مدرجا فيما اشتهر بين الناس منذ أكثر من ألف عام، وترك اسما من أسماء الله ﷻ بنص القرآن وهو اسم الله المليك، وأي عاقل له الحق في أن يتساءل: أليس اسم المليك أولى وأوجب من اسم لا دليل عليه لم يرد في الكتاب والسنة كالضار النافع الرشيد ؟!

ويتكرر الأمر عند الوليد بن مسلم في اسم الحق، وهو ضمن ما أورده في الأسماء المشهور منذ أكثر من ألف عام، حيث اقترن اسم الحق باسم المبين في نص قرآني واحد، فأخذ الوليد اسما وترك آخر، قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ النور:٢٥ .

وكذلك ورد في الأسماء المشهورة اسم العليم، وقد ورد مقترنا باسم الخلاق في نص واحد، فأخذ الوليد بن مسلم اسم العليم ووضعه في الأسماء المشهورة وترك اسم الخلاق.قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ يس:٨١.

وفي الأسماء المشهورة اسم المجيب، وقد ورد به النص مع اسم القريب في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ هود:٦١.فأخذ الوليد بن مسلم اسم المجيب وأدرجه في الأسماء المشهورة وترك اسم القريب. وكذلك ورد في

الأسماء المشهورة اسم الغفور الرحيم، وقد ورد الاسمان مع اسم القدير في نص واحد في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ الممتحنة:٧. فأخذ الوليد بن مسلم اسم الغفور والرحيم وترك اسم القدير.

وورد في الأسماء المشهورة اسم الواحد مقرونا باسم الإله في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ إبراهيم:٥٢. فأخذ الوليد بن مسلم اسم الواحد وأدرجه في الأسماء المشهورة وترك اسم الإله.

وأيضا ورد في الأسماء المشهورة اسم الله الصمد، وقد ورد مع اسمه الأحد في نص واحد، كما ورد عند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (قال الله تعالى: كذّبني ابنُ آدمَ، ولم يكُن له ذلك، وشَتَمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبُهُ إيايَ فقوله: لن يعيدني كما بدأنِي، وليس أوَّل الخلقِ بأَهونَ عليَّ من إعادته وأما شتمُهُ إيايَ فقولُه: اتّخَذَ اللهُ ولداً، وأنا الأَحدُ الصمدُ لم أَلِدْ ولم أولَد، ولم يكُن لي كُفواً أحد)[1].

وكذلك لم يرد دليل على اسم القابض والباسط إلا النص النبوي المرفوع الذي ورد فيه اسم المسعر والرازق، فأخذ الوليد بن مسلم اسمين وترك اسمين، دون بيان علة أو سبب. فقد روى أبو داود وصححه الألباني من حديث أنس بن مالك ﷺ أنه قال: (قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ الله غَلاَ السِّعْرُ فَسَعِّرْ لَنَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنَّ اللهَ هُوَ الْمسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطِ الرَّازِقُ)[2].

وجاء في الأسماء المشهورة اسم القدوس، وقد ورد مع اسم السبوح في

---

(١) رواه البخاري في التفسير، باب تفسير قل هو الله أحد ٤/ ١٩٠٣ (٤٦٩٠).

(٢) الترمذي في كتاب البيوع ٣/ ٦٠٥ (١٣١٤) ومشكاة المصابيح (٢٨٩٤).

نص واحد، فأخذ الوليد بن مسلم اسم القدوس وترك السبوح دون بيان علة أو سبب. فقد روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: (سُبُّوحٌ قدّوسٌ، رَبّ المَلاَئِكَةِ وَالرُّوحِ)[1].

والأمثلة في ذلك كثيرة والقصد أن كثيرا من الأسماء المدرجة والمشتهرة على ألسنة العامة والخاصة ليست من الأسماء الحسنى، وإنما هي أوصاف لله ﷻ أو أفعال، وهي إن كان معناها حق إلا أن الأسماء الحسنى توقيفية نصية، فدورنا تجاه الأسماء الجمع والإحصاء، ثم الحفظ والدعاء، وليس الاشتقاق والإنشاء، أو تسمية الله كما نشاء.

- **من هو أول من قام بتعديل الأخطاء في الأسماء المشهورة؟**

أول من قام بتعديل الأخطاء في الأسماء المشهورة هو العلامة ابن حجر رحمه الله (ت:٨٥٢هـ)، فقد بدأ بإحصاء الأسماء الحسنى من القرآن ملتزما بإحصاء الأسماء التي وردت بصيغة الاسم فقط؛ وكذلك لم يعتمد سرد الأسماء المشتهرة وترتيبها لأنها من إدراج الوليد بن مسلم، وفيها كثير من الأسماء التي لا دليل عليها، ولا يصح تسمية الله بها، فحذف منها رحمه الله سبعة وعشرين اسما، وأحصى بدلا منها سبعة وعشرين وردت بنصها في القرآن الكريم.

قال ابن حجر: (وقد تتبعت ما بقي من الأسماء مما ورد في القرآن بصيغةِ الاسم مما لم يذكر في رواية الترمذي وهي: الرب، الإله، المحيط، القدير، الكافي، الشاكر، الشديد، القائِم، الحاكم، الفاطر، الغافر، القاهر، المولى،

(١) رواه مسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ١/ ٣٥٣ (٤٨٧).

النصير، الغالب، الخالق، الرفيع، المليك، الكفيل، الخلاق، الأكرم، الأعلى، المبين بالموحدةِ، الحفي بالحاءِ المهملة والفاء، القريب، الأحد، الحافظ. فهذه سبعة وعشرون اسما إِذا انضمت إِلى الأسماء التي وقعت في رواية الترمذي، مما وقعت في القرآن بصيغة الاسم تكمل بها التسعة والتسعون وكلها في القرآن، لكن بعضها بإِضافة)[1] .

ونلاحظ الخطأ الذي سها فيه العلامة ابن حجر عن اسم الخالق، وأنه موجود في الأسماء المشتهرة، وعليه فإن قوله: (فهذه سبعة وعشرون اسما) هو سهو واضح منه، والصواب أن الأسماء التي أضافها ستة وعشرين اسما.

ونلاحظ أيضا أن الأسماء المطلقة الصحيحة التي أضافها ابن حجر وأراد أن تكون ضمن الأسماء التسعة والتسعين التي ينبغي أن يتعبد بها الناس ربهم هي الرب، الإله، القدير، الشاكر، القاهر، المولى، النصير، المليك، الخلاق، الأكرم، الأعلى، المبين، القريب، الأحد.

ثم يصرح العلامة ابن حجر العسقلاني بلا لبس أو غموض بالأسماء التي تُحذف من الأسماء المشهورة، مع كونه أخطأ سهوا في كثير منها كما بيناه مفصلا في كتاب أصول العقيدة، فقال رحمه الله: (والأسماء التي تقابل هذه مما وقع في رواية الترمذي مما لم تقع في القرآن بصيغةِ الاسم، وهي سبعة وعشرون اسما: القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل العدل الجليل الباعث المحصي المبديء المعيد المميت الواجد الماجد المقدم المؤَخر الوالي ذو الجلال والإِكرام المقسط المغني المانع الضار النافع الباقي الرشيد الصبور. فإِذا

(١) فتح الباري ١١/٢١٨.

اقتصر من رواية الترمذي على ما عدا هذه الأسماء، وأبدلت بالسبعةِ والعشرين التي ذكرتها خرج من ذلك تسعة وتسعون اسما كلها في القرآن، واردة بصيغةِ الاسم، ومواضعها كلها ظاهرة من القرآن إلا قوله الحفي؛ فإنه في سورة مريم في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ مريم:٤٧. وقل من نبه على ذلك)[1].

ونلاحظ أن العلامة ابن حجر أخطأ سهوا حين حذف من الأسماء المشهورة اسم الرافع، واسم ذي الجلال والإكرام، مع كونهما من الأسماء المضافة الواردة بصيغة الاسم نصا، ومنهجه يقتضي عدم حذفهما، فاسم الرافع ورد في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ آل عمران:٥٥. واسم ذي الجلال والإكرام ورد في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ الرحمن:٧٨.

وتنبه إلى قول ابن حجر: (وقل من نبه على ذلك)[2]. وقوله أيضا: (وقد عاودت تتبعها من الكتاب العزيز إلى أن حررتها منه تسعة وتسعين اسما، ولا أعلم من سبقني إلى تحرير ذلك). فقد صرح ابن حجر رحمه الله أنه أول من حذف من الأسماء المشهورة سبعة وعشرين اسما، حيث مكثت الأمة تتعبد لله عز وجل بها قرونا طويلة منذ أن وضعها الوليد بن مسلم (ت:١٩٥هـ) إلى زمن ابن حجر (ت:٨٥٢هـ)، وهي عنده ليست من أسماء الله الحسنى، ثم أحصى هو من القرآن سبعة وعشرين اسما دون السنة، وجميعها كما ذكر ابن حجر وارد

(١) المصدر السابق ١١/ ٢١٩.

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١١/ ٢١٩.

بصيغة الاسم ليكمل العدد تسعة وتسعين؛ وهذه التسعة والتسعون كما رأى ابن حجر أولى عنده وأفضل من الأسماء المشتهرة التي جمعها الوليد بن مسلم. ولم يقل أحد من العلماء القدامى والمعاصرين: إن ما فعله ابن حجر ابتداع في دين الله ﷻ، أو أنه زعم أنه أتى بما لم يأت به الأوائل، أو أنه أخطأ وقفز على علماء السلف الصالح ليأخذ الأسماء من القرآن مباشرة، ويترك اجتهاد الوليد الذي يظن البعض أن الأمة أجمعت عليه.

• ما هو موقف المسلم من الأسماء المشهورة التي لم تثبت؟

موقف المسلم من الأسماء المشهورة التي لم تثبت ولا دليل عليها من كتاب أو سنة، هو موقفه الذي أمر الله ﷻ به، فالمسلم يقبل ما ورد عن الله ﷻ في أسمائه وقام عليه الدليل ويؤمن بها، ويرد ما لم يرد في كتاب الله ﷻ أو في سنة رسوله ﷺ. وتلك عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم لا يسمون الله إلا بما سمى به نفسه في كتابه، أو فيما صح عن رسوله ﷺ لا يتجاوز في ذلك القرآن والحديث، وكل مسلم يلزمه أن يصدق الله ﷻ في خبره على شرط العلم واليقين، وأن يطيعه في أمره على شرط الإخلاص والمحبة والقبول والانقياد.

أما إلزامنا برأي من جمع الأسماء بلا دليل حتى ولو كان من السابقين في عصر السلف كالوليد بن مسلم، أو عبد الملك الصنعاني، أو عبد العزيز بن الحصين، أو سفيان بن عيينة ،أو أبي زيد اللغوي، أو جعفر الصادق أو غيرهم ممن سمى الله ﷻ بأسماء لم ترد في كتاب أو سنة كالخافض المعز المذل العدل الجليل الباعث المحصي المبديء المعيد المميت الواجد الماجد المقسط المغني المانع الضار النافع الباقي الرشيد الصبور، وغير ذلك من الأسماء التي لم تثبت وإن صح معناها، فهذا ليس بلازم، ولا نعتقد أن هذه من الأسماء الصحيحة

التي نسمى الله ﷻ بها، مهما كانت شهرتها ومهما طال إنشاد الناس لها على مر السنين، فكل يُأخذ من كلامه ويرد إلى صاحب الروضة الشريفة .

ونعذر من سبق وسمى الله ﷻ بها ظنا منه أنها من كلام النبي ﷺ، ونوقر علماءنا من السلف أهل السنة والجماعة الذين هم ورثة الأنبياء، ولا نظن أبدا أن حدا منهم يجيز لنفسه تسمية الله ﷻ بما لم يسم به نفسه في كتابه أو فيما صح عن رسوله ﷻ، أو أن أحدا منهم يتجاوز في ذلك القرآن والحديث، فهم الذين جاهدوا المخالفين المبتدعين، وذموا بدعتهم لأنهم عطلوا دلالة أسماء الله ﷻ على أوصافه، فكيف نعتقد في أهل السبق والفضل أنهم تمسكوا باسم لا دليل عليه، أو ردوا أسماء الله ﷻ التي ثبتت في القرآن السنة؟

• هل يجوز اشتقاق أسماء الله من الصفات والأفعال؟

لا يجوز شرعا اشتقاق أسماء لله ﷻ من الصفات والأفعال، ويجوز لغة القول بأن أسماء الله الحسنى التوقيفية التي سمى الله بها نفسه في كتابه وفي سنة نبيه ﷺ تلاقي مصادرها اللغوية، أو مشتقة من جهة اللغة والدلالة الصرفية، فلا بد من التفريق في مسألة الاشتقاق بين أمرين اثنين هما سبب الخطأ الذي وقع فيه كثير ممن تكلم في اشتقاق الأسماء الحسنى:

الأمر الأول: عدم جواز الاشتقاق من الناحية الشرعية، لأن تسمية الله ليست مسألة اجتهادية، أو تسمية إنشائية يخترع فيها الإنسان لربه ما يراه من الأسماء، أو ما يحدده بعقله وهواه من الكمال اللائق بالله، بل يحرم على المسلم من جهة التكليف والحكم الشرعي أن يشتق من صفات الذات والأفعال أسماء لرب العزة والجلال، وإن صح معناها أو رأى فيها الكمال، فقد وصف الله ﷻ نفسه بكثير من صفات الأفعال كالإرادة والكلام والاستواء،

والخسف والحشر والإفتاء، والنزول والإماتة والطي للسماء، وأنه يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وغير ذلك من الصفات الفعلية، لكن لا يجوز لنا ويحرم علينا أن نشتق لله من هذه الصفات أسماء، فيحرم أن نسميه باسم المريد المتكلم المستوى الخاسف الحاشر المفتي النازل المميت الطاوي المؤتي النازع المعز المذل.

ومن الخطأ أن نسمي الله ﷻ بهذه الأسماء أو بعضها، ومن فعل ذلك فقد سمى ربه بما لم يسم به نفسه في كتابه أو في سنة نبيه ﷺ، وهو نوع من الإلحاد في أسماء الله الحسنى، لأنها باتفاق السلف الصالح توقيفية على النص؛ لا بد فيها من ورود الاسم بصيغته في النصوص القرآنية، أو ما صح عن رسول الله ﷺ في السنة النبوية، والذين أجازوا الاشتقاق العقلي وجعلوا المرجعية في تسمية الله إلى أنفسهم أو اختراعهم أو اشتقاقهم ما يليق به من الأسماء أخطئوا خطأ كبيرا في حق ربهم؛ لأنهم جعلوه بمنزلة المولود الذي يتخيرون له اسما جديدا جميلا يُعرف به عند مناداتهم له.

ومعلوم أن أسماء الله أزلية أبدية بأزلية الذات الإلهية وأبديتها، وهو سبحانه الذي يسمي نفسه بما يشاء من الأسماء، ولم يمنح هذا الحق لغيره لأنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء في ذاته المقدسة، أو أسمائه الحسنى، أو صفاته العليا أو أفعال كماله، ولا يقاس على خلقه بقياس تمثيلي أو شمولي.

ومن المعلوم أن الإنسان في بدايته، وعند أول نشأته يكون ناقصا في أوصافه وأفعاله؛ ثم يضاف له الكمال بعد اكتسابه، فيقال عالم بعد أن يتعلم وكاتب بعد أن يكتب، وصادق بعد أن يصدق، وناجح بعد أن ينجح، ويكتسب مالا فيصبح غنيا، ويحمده الناس فيصبح محمودا، فيزول عنه

النقص الذاتي بإضافة الكمال الكسبي؛ ومن هنا يظهر بين الناس حسنهم، وحسن أسمائهم، وجمال أوصافهم، وكمال أفعالهم، أما رب العزة والجلال فأوصاف جماله وأفعال كماله مشتقة أصلا من جلاله وجلال أسمائه كما ورد في المسند عند أحمد وصححه الألباني من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ أن النبي ﷺ قال: (قَال اللهُ ﷻ: أَنَا الرَّحْمَنُ خَلقْتُ الرَّحِمَ، وشَقَقْتُ لَهَا مِنِ اسْمِي اسْماً، فَمَنْ وصَلهَا وصَلتُهُ، ومَنْ قَطَعَهَا بَتَتّهُ)[1].

وهذا الحديث دليل واضح على أن أفعال الله ﷻ مشتقة من أسمائه وأوصافه بعكس أسماء المخلوقين وأوصافهم التي تشتق من أفعالهم؛ فدورنا تجاه أسماء الله الحسنى الإحصاء، ثم الحفظ والدعاء، وليس الاشتقاق والإنشاء، لأن الاشتقاق هو استحداث اسم لله ﷻ ليس أزليا ولا أبديا كما فعل الوليد بن مسلم وغيره في بعض الأسماء المشهورة.

الأمر الثاني: أن الأسماء الحسنى التي سمى الله بها نفسه في النصوص القرآنية والنبوية تلاقي مصادرها اللغوية، فهي مشتقة من الصفات والأفعال من جهة اللغة والدلالة الصرفية، فاسم الفاعل مشتق من الفعل، وصيغ المبالغة مشتقة من اسم الفاعل، ومثال ذلك اسم الله الخلاق فهو اسم توقيفي ثابت بنصه في القرآن وهو مشتق من جهة اللغة من اسم الفاعل الخالق، واسم الخالق مشتق لغة من الفعل خلق، وكذلك الرزاق والرازق ورزق، والشكور والشاكر وشكر.

وقد علمنا أن الأسماء الحسنى التوقيفية تدل بالمطابقة والتضمن واللزوم

---

(١) المسند ١/ ١٩٤(١٦٨٠)، والسلسلة الصحيحة للشيخ الألباني ٢/ ٤٩ (٥٢٠).

على الصفات والأفعال، فإذا قيل على لسان أحد من أهل السنة والجماعة أن الأسماء التوقيفية مشتقة من الصفات والأفعال فلا يعني إلا أنها مشتقة من الجانب اللغوي فقط، لكن لا يجوز لنا أن نستحدث لله من صفاته أو نخترع له من أفعاله أسماء لم ترد في الكتاب والسنة، لأن ذلك حق لله توقيفي على النص القرآني النبوي، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة أن الأسماء الحسنى توقيفية على النص، وأن التسمية حق لله له وحده، يسمي نفسه بما يشاء من الأسماء، ويمتنع من جهة النقل والعقل أن يكون مرجع التسمية لغير الله ورسوله ﷺ.

والباعث على قول أهل السنة والجماعة بأن الأسماء الحسنى التوقيفية تلاقي مصادرها اللغوية وهي مشتقة لغة من الصفات والأفعال هو إثبات دلالتها على صفات الكمال، وأنها ليست أسماء بلا مسمى أو جامدة لا معنى لها، وذلك ردا على المعتزلة الذين قالوا بأن أسماء الله بلا أوصاف، وهي أسماء على غير مسمى، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، فيصح القول بأن الأسماء الحسنى التوقيفية مشتقة من الصفات والأفعال من جهة اللغة واشتقاق الألفاظ في دلالتها الصرفية، وأنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، ولا محذور في اشتقاق أسماء الله تعالى بهذا المعنى. قال ابن القيم: (إنا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة منها تولد الفرع من أصله) [(١)].

ولولا أن الأسماء الحسنى تتنوع في اشتقاقاتها اللغوية ومبانيها الصرفية لما ظهرت معانيها المتنوعة والمتباينة، ومن ثم فإن أسماء الله ﷻ عند السلف

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٢٦.

أسماء على مسمى، ولذلك أمرنا الله أن ندعوه بها فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف:١٨٠.

- **هل معرفة أسماء الله الحسنى من المسائل الاجتهادية الخلافية؟**

الإيمان بالأسماء الحسنى التوقيفية ضرورة حتمية وليس مسألة خلافية، فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يخبره رب العالمين باسم من أسمائه الحسنى ثبت بنصه في كتابه أو في سنة نبيه، ثم يزعم أن تصديق خبر الله مسألة اجتهادية خلافية فيها قولان، بل يتحتم عليه أن يصدق بأسماء الله ويؤمن بها طالما وجدت بنصها في القرآن والسنة.

وكذلك لا يسع أحد من المسلمين أن يخترع لله اسما أو ينسب إليه اسما ليتعبد الناس به لم يرد بنصه ثم يعتقد أنه اسم صحيح يماثل أسماء الله التوقيفية ويدافع عنه بإصرار ويقدمه على أسماء رب العزة والجلال التي سمى الله بها نفسه أو سماه بها رسوله ﷺ .

ومن زعم أن التوقيف لا ينافي الاشتقاق وأن معرفة الأسماء مسألة خلافية لأنه يجوز ويصح اشتقاق الأسماء من الأوصاف والأفعال الثابتة لرب العزة والجلال، بشرط ألا يوهم نقصا في حق الله وأن تدل الأسماء التي اشتقها على الكمال، يقال له: أرنا قدرتك أنت على ذلك الاشتقاق، وحدد لنا ما تراه بعقلك صالحا لتسمية ربك في أكثر من ثلاثمائة وستين فعلا من أفعال الله في القرآن ذكرتها بأدلتها في كتاب أصول العقيدة، فليس بعاقل من أجاز لعامة المسلمين أن يشتقوا أسماء لرب العالمين من أفعاله بشرط الكمال، ثم يعجز هو عن تمييزها واشتقاق ما ينتقيه منها ولا يقوى هو على تحديدها، وهو عند

عامة المسلمين المرجع الأعلى في إصدار قواعد الاشتقاق والفتوى.

وبهذا علم قطعا بطلان زعم البعض أن عقيدة أهل السنة والجماعة هي اشتقاق أسماء الله من الأفعال بشرط الكمال، وأن هذا اعتقادهم دون نكير، فهذا كذب على أهل السنة والجماعة أو جهل بعقيدتهم، لأن عقيدتهم المعروفة نقلا عن الصحابة والتابعين وعلماء السلف أجمعين أنهم كانوا يتلقون نصوص القرآن وما ثبت في السنة بالتصديق والتسليم، ويقابلونها بالخضوع والحب والتعظيم، لا يفرقون فيها بين متواتر وآحاد، بل جميع ما صح وثبت عن رسول الله ﷺ وحي من الله ﷻ إلى سائر العباد، لا بد لهم أن يصدقوا خبره بشرط اليقين، ولا بد من تنفيذ أمره بكمال الانقياد.

ولم يذكر أحد منهم بأن كلامه لا بد أن يؤخذ ولا يرد، وأن قوله في أسماء الله ﷻ أو غيرها ملزم لجميع المسلمين، وأن من لم يأخذ بقوله فقد عصى الله رب العالمين، بل كلهم كانوا يقولون بأن كل واحد مهما علا شأنه يؤخذ من كلامه ويرد إلا خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن الملزم لكل المسلمين الصادقين أنهم إذا علموا الأسماء المذكورة الثابتة بالدليل النصي الصحيح لزمه أن يؤمن بها، ولا يجوز له ردها، وأنه يجوز أن يسمي ولده بالتعبد لها، وكذلك يدعو الله ﷻ بها، دعاء مسألة، ودعاء عبادة .

أما أن يصر مسلم على أن الأسماء المشهورة التي لم تثبت ولا دليل عليها هي أسماء صحيحة مقبولة ويجوز تسمية الله ﷻ بها، وأنه رأى مسوغا عقليا جوز به اختراعها واشتقاقها، وكل حجته في ذلك أنه رأي بعض العلماء شرحها، أو أنه أَلِف الآباء والأجداد يحفظونها، فهذا هو ما لا يصح ولا يجوز لمسلم يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ أن يفعله، وأن يفضل

طريقة الآباء على الثابت الصحيح من الأسماء؟

- **ما هي عقيدة أهل السنة والجماعة في اسم الله الأعظم؟**

اسم الله الأعظم هو اسم الجلالة الله؛ لأنه ورد في روايات الاسم الأعظم، ولأن الله خص نفسه به فلا يطلق على غيره، ولأنه يدل بالمطابقة على ذات الله وعلى جميع ما انفرد به من أوصاف الكمال في الربوبية والإلوهية والأسماء والصفات، ويدل بالتضمن على ذات الله وحدها، ويدل كذلك بالتضمن على أنواع التوحيد كلها أو بعضها، وجميع الصفات التي تضمنتها دلالة الأسماء الحسنى كوصف الربوبية الذي تضمنه اسم الرب، ووصف الإلهية الذي تضمنه اسم الإله، ووصف العلو المطلق الذي تضمنه اسم الأعلى، وغير ذلك من الصفات الإلهية التي تضمنتها سائر الأسماء الحسنى، ما علمنا منها وما لم نعلم، فاسم الجلالة هو اسم اللهّ الأعظم عند الإطلاق، وهو الأصل في إسناد الأسماء الحسنى إليه، لأن النبي ﷺ أضاف إليه الأسماء التسعة والتسعين، وهذا هو الرأي الذي عليه جمهور المسلمين.

ومن عقيدة أهل السنة أن أسماء الله ﷻ كلها حسنى وكلها عظمى على اعتبار ما يناسبها من أحوال العباد، ومن أجل ذلك تعرف الله ﷻ إليهم بجملة منها تكفي لإظهار معاني الكمال في توحيدهم وعبوديتهم لربهم، وتحقق كمال الحكمة في أفعال خالقهم؛ فاسم الله الأعظم الذي يناسب حال فقرهم المعطي الجواد المحسن الواسع الغني، واسمه الأعظم الذي يناسب حال ضعفهم القادر القدير المقتدر المهيمن القوي، وفي حال الذلة وقلة الحيلة يناسبهم الدعاء باسمه العزيز الجبار المتكبر الأعلى المتعالي العلي، وفي حال الندم بعد اقتراف الذنب يناسبهم الدعاء باسمه اللطيف التواب الغفور

الغفار الحيي الستير، وفي حال السعي والكسب يدعون الرازق الرزاق المنان السميع البصير، وفي حال الجهل والبحث عن أسباب العلم والفهم يناسبهم الدعاء باسمه الحسيب الرقيب العليم الحكيم الخبير، وفي حال الحرب وقتال العدو فنعم المولى ونعم النصير، وهكذا كل اسم من الأسماء الحسنى هو الأعظم في موضعه وعلى حسب حال العبد وما ينفعه، كما أن أسماء الله لا تحصى ولا تعد، وهو وحده الذي يعلم عددها، لكن الله من حكمته أنه يعطي كل مرحلة من مراحل خلقه معرفة ما يناسبها من أسمائه وصفاته؛ بحيث تظهر فيها دلائل جماله وكماله.

ومن عقيدة أهل السنة أن العظمة في أسماء الله ﷻ تكون باعتبار كل اسم على انفراده، أو باعتبار جمعه إلى غيره؛ فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال، والأعلى في الكمال هو الأعظم على هذا الاعتبار، ومن هنا تحمل الروايات التي ثبتت عن النبي ﷺ في ذكر الاسم الأعظم. كما ورد عند ابن ماجة وحسنه الشيخ الألباني من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ البقرة:١٦٣. وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ) [(١)]. وعند ابن ماجة من حديث أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ الذي إذا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ فِي سُوَرٍ ثَلاثٍ، البَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَطه) [(٢)]. وغير ذلك من الروايات.

---

(١) ابن ماجة ٢/ ١٢٦٧(٣٨٥٥)، وانظر صحيح الجامع (٩٨٠) .

(٢) رواه ابن ماجة ٢/ ١٢٦٧ (٣٨٥٦)، وانظر السلسلة الصحيحة ٢/ ٣٧١ (٧٤٦).

• ما هو حكم الأسماء التي ذكرها بعض العلماء ولا تصح؟

عقيدة أهل السنة والجماعة مبنية على أنه لا أحد أكبر من الدليل، وأن كلا يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم ﷺ، وأنه لا أحد من أهل العلم مهما علا شأنه يزعم أنه نزل عليه وحي من السماء لنسلم له بلا سؤال عن حجته في الأسماء، بل نطالبه بالدليل النصي من كتاب الله، أو من سنة النبي ﷺ، فلا يجوز لأحد أن يسمي الله ﷻ إلا بما سمى به نفسه في كتابه أو صح في سنة رسوله ﷺ.

وما ورد في كلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهما من أهل العلم من أتباع السلف مما ذكروه من أسماء لا دليل عليها، فينبغي أن يحمل على الجانب اللغوي، ولا يعتبر مجرد ذكر ابن تيمية أو غيره لاسم لم يرد في الكتاب والسنة مبررا لقبوله وتسمية الله بما لم يسم به نفسه، لأن ذلك يعارض كلامهم في تقرير أصول العقيدة السلفية المبنية على تصديق خبر الله وتنفيذ أمره.

قال ابن تيمية: (وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه، مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد، لا في أسمائه ولا في آياته، فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ الأعراف:١٨٠. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ فصلت:٤٠. فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات، إثباتا بلا تشبيه، وتنزيها بلا تعطيل)(١).

---

(١) الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣/ ٤ .

والأصل في الغيبيات والأسماء والصفات التوقيف كما هو مقرر في اعتقاد السلف، والتصديق الجازم دون الوهم والشك والظن، فما أخبر الله ﷻ به عن نفسه من الأسماء المطلقة صدقنا بها وآمنا أنها أسماء مطلقة، وما أخبر الله ﷻ به عن نفسه من الأسماء المقيدة صدقنا بها وآمنا أنها أسماء مقيدة، وما أخبر الله ﷻ به عن نفسه من الصفات صدقنا بها وآمنا أنها صفات، وما أخبر به عن نفسه من الأفعال صدقنا بها وآمنا أنها أفعال لرب العزة والجلال.

ومن الخطأ الذي وقع فيه كثيرون أنهم لما نظروا إلى الأسماء المشهورة التي لا دليل عليها، ووجدوا بعضها مذكورا في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم اعتبروا ذلك نصا وتوقيفا، وتسمية لله ﷻ بما سمى به نفسه، فجعلوا من أسماء الله ﷻ الضار النافع المبديء المعيد المانع الخافض المعز المذل المميت الصبور، وهذا وهم منهم، بل حدث خلط في أذهانهم، ولم يتنبهوا إلى ما أكده ابن تيمية وابن القيم في أصولهما، إذ يؤكدان في غير موضع على أن الأسماء الحسنى توقيفية على النص، وأنه لا يجوز أن نسمي الله ﷻ بما لم يسم به نفسه في كتابه، أو في سنة رسوله ﷺ.

وعلى الرغم من كون تراث شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم يعد مرجعا أساسيا لكل باحث عن منهج السلف إلا أنه لابد أن يتقيد أولا بأصولهما في اعتقاد السلف، ثم إن وجد في بعض كلامهما شيئا يختلف، تلمس لهما الحجة والعذر، أولا لأنهما بشر، يجوز على اجتهادهما ما يجوز على غيرهما. وثانيا أنه من المسلمات عندهما أن أصول العقيدة السلفية مبنية على الأدلة النقلية دون الفلسفات العقلية والمناهج الكلامية، وأن دور العقل مع النقل هو العلم به والتعرف إليه، وليس العقل عندهما أصلا في ثبوت النقل كما ادعى كثير من

المتكلمين، وهما يقرران أن العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح، بل يشهد له ويؤيده؛ إذ أن مصدرهما واحد؛ فالذي خلق العقل هو الذي أرسل إليه النقل، ومن المحال أن يرسل إليه ما يفسده. وهناك أصول كثيرة تجدها بين أميال طويلة مما سطّر ابن تيمية وابن القيم في تراثهما، ومن ثم لا بد من مراعاة أصولهما قبل الإلزام بشيء يخالفها، فلازم القول ليس بلازم إلا إذا أقر قائله بدلالة اللزوم؛ لأن ابن آدم خطّاءٌ وغير معصوم.

ومعلوم أن كل عالم يمر عبر حياته بمراحل علمية متعددة، فلم يولد ابن تيمية وهو يكتب منهاج السنة النبوية، ولم يولد ابن قيم الجوزية ومعه شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، بل كان حالهما كحال بقية أهل العلم في كل زمان ومكان، وإن كان لهما تميز مخصوص في المواهب العلمية والقدرات الذهنية ، فقد يُنقل عن ابن تيمية في بداية حياته بعض الأسماء التي لم تثبت في رواية الوليد نظرا لشهرتها الطويلة بين العامة، بل إن أغلب العلماء ما زالوا يتناقلون الأسماء المشهورة وهم يظنون أنها من كلام النبي ﷺ الثابت المسند في الروايات، ولا يستطيع أي باحث أن يحدد متى ذكر ابن تيمية وابن القيم في كلامهما أن الضار النافع الخافض المعز المذل من الأسماء الحسنى، هل كان ذلك في أول حياتهما أم في آخرها؟

وفضلا على ذلك فإن الأصول التي قررها ابن تيمية وابن القيم تفيد بلا شك أن الأسماء الحسنى توقيفية على النص، وهما يؤكدان في غير موضع أنه لا يجوز أن نسمي الله ﷻ بما لم يسم به نفسه في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ، قال ابن تيمية: (وأما تسميته سبحانه بأنه مريد وأنه متكلم؛ فإن هذين الاسمين لم يردا في القرآن، ولا في الأسماء الحسنى المعروفة ومعناهما حق، ولكن الأسماء

الحسنى المعروفة هي التي يدعى الله بها، وهي التي جاءت في الكتاب والسنة، وهي التي تقتضي المدح والثناء بنفسها) [١].

وقال ابن القيم: (ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفيا كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه؛ فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه: هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع؟) [٢].

ومن ثم لو نقل عن ابن تيمية قوله: (أسماء الله المقترنة كالمعطي المانع، والضار النافع، المعز المذل، الخافض الرافع، فلا يفرد الاسم المانع عن قرينه، ولا الضار عن قرينه لأن اقترانهما يدل على العموم) [٣].

ولو نقل عن ابن القيم رحمه الله قوله: (فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى، فمن أسمائه الغفور الرحيم العفو الحليم الخافض الرافع المعز المذل المحيي المميت الوارث الصبور، ولا بد من ظهور آثار هذه الأسماء؛ فاقتضت حكمته سبحانه أن ينزل آدم وذريته دارا يظهر عليهم فيها أثر أسمائه) [٤].

لو نقل عنهما مثل ذلك، فإن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام: على أي دليل استندا هذان الحبران إلى تسمية الله ﷻ بالضار النافع المعز المذل الخافض الرافع المميت إلى غير ذلك، وهي لم ترد إلا أفعالا ولا دليل على كونها من الأسماء الحسنى؟ فهل كل منهما يجوّز أن يشتق لله ﷻ اسما من كل

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية ص١٩.
(٢) بدائع الفوائد لابن القيم ١/ ١٧٠.
(٣) مجموع الفتاوى ٨/ ٩٥.
(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم ١/ ٣.

فعل؟ وكيف يكون ذلك وقد تقدم توبيخهما لمن فعل ذلك؟ لأن من تتبع الأسماء التي ذكروها في كلامهم السابق وجد أنه لم يثبت منها إلا المعطي العفو الأول الآخر الظاهر الباطن المقدم المؤخر، وهذه كلها دالة بمفردها على الكمال المطلق، ويجوز الدعاء بها، ويجوز أيضا إطلاقها في حق الله ﷻ، أو اقترانها بمقابلها أو غيره كما هو الحال في جميع الأسماء المقترنة .

وما ذكره ابن القيم رحمه الله في دعاء الله ﷻ بالأسماء المتقابلة حيث قال في قواعده: (أسماءه تعالى منها ما لا يطلق عليه بمفرده، بل مقرونا بمقابله كالمانع والضار والمنتقم؛ فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله؛ فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو، فهو المعطي المانع الضار النافع المنتقم العفو المعز المذل، لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله.. وأما أن يثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ، فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض.. ولذلك لم تجيء مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة فاعلمه، فلو قلت: يا مذل، يا ضار، يا مانع وأخبرت بذلك لم تكن مثنيا عليه ولا حامدا له حتى تذكر مقابلها) [1] .

وهذا الكلام الذي ذكره ابن القيم قد يصح لو ثبتت تلك الأسماء جميعها، ولكن بعد البحث تبين أنه لم يثبت منها غير المعطي والعفو، فليس من أسمائه الضار ولا النافع ولا المنتقم على إطلاق اللفظ، بل لا بد من وضعه في قائمة الأسماء المقيدة، وليس من أسمائه المانع ولا المعز ولا المذل، ولا دليل عليها من كتاب أو سنة، فالقاعدة التي ذكرها مبنية في الأصل على أساس ولا يصح، وكما علمنا أن كلا يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم ﷺ، والمسلم الصادق

ينبغي أن يكون واثقا في عقيدته، وعلى بصيرة في دعوته ومنهجيته، متمسكا بأصول السلف ومنهجهم، ولا يخيفه شهرة فلان، أو ظهوره المتكرر في وسائل الإعلام، أو منصبه العلمي أيا كان، فكل يأخذ من كلامه ويرد إلا نبينا المعصوم ﷺ، ومن ثم إذا ثبت الاسم بدليل الكتاب وصحيح السنة لا يسع أي مسلم صادق رده، أو عدم الإيمان به.

الفصل الخامس

قواعد معرفة الأسماء الحسنى

• ما هي قواعد أهل السنة في التعرف على الأسماء الحسنى؟

قواعد أهل السنة والجماعة في التعرف على الأسماء الحسنى خمسة قواعد أساسية مبنية على عقيدتهم في التصديق بخبر الله ورسوله ﷺ الذي ورد في أسمائه، فأسماء الله الحسنى توقيفية على النص، ولا يجوز لنا أن نسمي الله إلا بما سمى به نفسه، وما سماه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز في ذلك القرآن والحديث، فما ورد فيهما من أسماء الله مطلقا ذكرناه مطلقا، وما ورد فيهما مقيدا ذكرناه مقيدا، وآمنا بكل ما أخبر الله في أسمائه، وصدقناه دون تردد منا في تسمية الله بما سمى به نفسه، أو سماه به رسوله ﷺ.

ونؤمن أيضا أن كل اسم من أسماء الله التي سمى نفسه بها لا بد أن يكون اسما على مسمى، ولا بد أن يدل الاسم على وصف كمال لا نقص فيه؛ فإن كان الاسم مطلقا ودل على وصف مطلق في حق الله، سواء كان وصفا ذاتيا أو فعليا كان من أسماء الله الحسنى، وإن كان الاسم مقيدا بموضع الكمال دل على وصف مقيد بموضع الكمال، وما ورد من الأسماء الجامدة التي لا تتضمن وصفا لله، أو هي من إضافة المخلوق لخالقه؛ فليست من أسماء الله

الحسنى، وعلى ذلك فإن شروط وقواعد أهل السنة والجماعة في التعرف على الأسماء الحسنى خمسة قواعد أساسية هي:

أولا: ثبوت النص؛ لأن الأسماء الحسنى لا تؤخذ إلا من الوحي، وما لم يثبت بالنقل الصحيح فليس بوحي، وما اخترعه الإنسان واستحدثه اشتقاقا بعقله، من وصف الله وفعله، ليس بوحي حتى لو دل على الكمال.

ثانيا: علمية الاسم، لأن النبي ﷺ أخبرنا أن الله ﷻ في الكتاب والسنة تسعة وتسعين اسما، وأمرنا بإحصاء هذه الأسماء، فخرج بذلك عند جميع العقلاء إحصاء الوصف والفعل، والفرق بين الاسم والوصف والفعل أن الاسم علم على ذات الله يدل بالتضمن على الوصف أو الفعل.

ثالثا: الإطلاق، لأن ما ذكره الله ﷻ من أسمائه مطلقا في حقه يختلف عما ذكره مقيدا، فالاسم المطلق لو قيدناه لا يحتمل نقصا بوجه من الوجوه، أما الاسم المقيد لو أطلقناه فإنه قد يوهم نقصا، فلابد من مراعاة الإطلاق والتقييد في أسماء الله، فما ورد مطلقا آمنا به وذكرناه مطلقا، وما ورد مقيدا آمنا به وذكرناه مقيدا.

رابعا: دلالة الاسم على الوصف، لأن كل اسم من أسماء الله التي سمى نفسه بها؛ لا بد أن يكون اسما على مسمى، فخرجت الأسماء الجامدة، أو الأسماء التي هي من إضافة المخلوق إلى خالقه.

خامسا: دلالة الوصف الذي تضمنه الاسم على الكمال المطلق، فلا يكون الوصف عند التجرد منقسما إلى كمال ونقص، لأن الاسم قد يكون موافقا للقواعد السابقة، غير أن الوصف أو الفعل الذي اشتق منه الاسم منقسم

المعنى إلى كمال أو نقص، وفي تلك الحالة لا بد من تقييد الاسم بموضع الكمال دون موضع النقص، فيكون من الأسماء المقيدة؛ ومن جعله من الأسماء المطلقة فقد جانب الصواب.

• كيف نطبق القاعدة الأولى في التعرف على الأسماء الحسنى؟

لما كانت الأسماء الحسنى توقيفية على النص؛ فإن القاعدة الأولى في التعرف على أسماء الله الحسنى ثبوت النص؛ فالأسماء الحسنى لا تؤخذ إلا من الوحي، وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف:١٨٠.

وقال رسول الله ﷺ: (إِنّ لله تِسْعةً وتسْعِين اسْما مِائةً إِلاّ واحِدًا منْ أحْصاها دخل الجنّة)[١]. ووجه الدلالة من الآية والحديث أن الأسماء التي أمرنا بإحصائها والدعاء بها تدل على أنها معهودة موجودة، فالألف واللام هنا للعهد، ولما كان دورنا تجاه الأسماء الحسنى هو الإحصاء دون الاشتقاق والإنشاء؛ فإن الإحصاء لا يكون إلا لشيء موجود، ولا يعرف ذلك إلا بما نص عليه كتاب الله ﷻ، وما صح بالسند المتصل المرفوع إلى رسول الله ﷺ، فلا بد من ثبوت النص في التعرف على أسماء الله الحسنى.

والقواعد المعتمدة عند أهل السنة في ثبوت النص وتمييز الحديث المقبول من المردود والصحيح من الضعيف هي قواعد المحدثين، أو ما عرف بعلم مصطلح الحديث، الذي يشترط في الحديث الصحيح اتصال السند بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة، وعلى ما هو معتبر أيضا في قواعدهم.

---

(١) رواه البخاري في الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط ٢/ ٩٨١ (٢٥٨٥).

ومن الأسماء التي لم تتوافق مع القاعدة الأولى مما اشتهر في جمع الوليد بن مسلم المدرج في رواية الترمذي والمشهور بين الناس منذ أكثر من ألف عام اسم الواجد والماجد، وكذلك اسم الحنان في جمع عبد العزيز بن حصين المدرج في رواية الحاكم؛ فاسم الماجد لم يثبت في حديث صحيح، وما ورد في السنة ضعيف لا يحتج به، كما روى الترمذي من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال عن رب العزة: (ذلك بأَنِّي جوادٌ ماجِدٌ) [(١)]. وفي رواية عند أحمد لكنها ضعيفة: (ذلك لأَنِّي جوادٌ ماجِدٌ واجِدٌ أَفْعل ما أشاء) [(٢)].

واسم الحنان لم يثبت في القرآن أو صحيح السنة، وكل ما ورد من الروايات في النص على ذكر الحنان ضعيف، كما ورد في المسند بسند ضعيف جدا عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إن عبدا في جهنم لينادي ألف سنة: يا حنان، يا منان) [(٣)].

ومن الأسماء التي لم تتوافق أيضا مع القاعدة الأولى، ولم يثبت بها نص صحيح مرفوع مما ذكره أهل العلم في إحصائهم، اسم السخي والنظيف والهوِيّ والمفضل والمنعم ورمضان وآمين والأعز.

• هل يصح إحصاء الأسماء التوقيفية من القرآن دون السنة؟

لا يصح في عقيدة أهل السنة والجماعة إحصاء الأسماء الحسنى التوقيفية من النصوص القرآنية فقط؛ واستبعاد الأحاديث النبوية، لأن الإجماع قائم

---

(١) رواه الترمذي ٤/ ٦٥٦ (٢٤٩٥)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (١٠٠٨).
(٢) مسند الإمام أحمد ٥/ ١٥٤ (٢١٤٠٦)، وانظر ضعيف الجامع (٦٤٣٧) .
(٣) المسند ٣/ ٢٣٠، وقال شعيب الأرنئوط: إسناده ضعيف جدا.

على أن الوحي الذي نزل على رسول الله ﷺ ليس قرآنا فقط، بل هو قرآن وسنة؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ النجم:٣/ ٤.

ومن عقيدة أهل السنة أن الاحتجاج بصحيح السنة النبوية كالاحتجاج بالآيات القرآنية سواء بسواء، فالسنة حجة مستقلة في تشريع الأحكام، وأنها كالقرآن الكريم في تمييز الحلال من الحرام، وأنها المصدر الثاني لمعرفة أصول الإسلام، وأنها المفصحة عن معاني القرآن، والموضحة لأوامره وأخباره، والكاشفة عن تأويل النص وبيان أسراره، فالنقل الصحيح الثابت في القرآن والسنة حجة؛ يوجب على المسلم تصديق الخبر، وتنفيذ الطلب؛ ولا فرق أيضا في الاحتجاج بالسنة النبوية بين باب الأحكام الفقهية، وباب القضايا الاعتقادية.

ومجرد الاكتفاء بإحصاء الأسماء الحسنى من القرآن دون السنة تنقيص لمكانة الوحي الثابت في السنة. وقد أكد القرآن بوضوح لا لبس فيه أن السنة النبوية وحي من الله ﷻ يجب الإيمان به، ويجب اتباع الرسول ﷺ في كل شيء وفي كل وقت؛ في حياته وبعد مماته؛ فيجب تصديق الرسول ﷺ في خبره، والطاعة لأمره، ولذلك لا يحتج بما فعله بعض السلف كسفيان بن عيينة، وأبي زيد اللغوي، وجعفر الصادق، في طريقتهم لإحصاء الأسماء الحسنى، حيث جمعوا الأسماء من القرآن، وتركوا جمعها من السنة، ومعلوم أن فعلهم ليس حجة لأحد في تركه لإحصاء الأسماء من السنة.

وكذلك لا يحتج بما فعله العلامة ابن حجر العسقلاني في أخذه الأسماء من القرآن دون السنة، وينبغي أن نتلمس العذر لهم، فهم ما فعلوا ذلك إنكارا للسنة! حاشاهم، ولكنهم ظنوا كما ظن ابن حجر أنه يمكن إحصاء الأسماء

المطلقة التسعة والتسعين من القرآن وحده. وقد بان لنا أن العلامة ابن حجر تمنى أن يعيد النظر في منهجه كله ليحصي جميع الأسماء المطلقة فقط من القرآن والسنة معا، غير أن مشقة إحصائها بالمنهج الاستقرائي من السنة كلها مشقة كبيرة جدا، والأجل لم يسعفه ليفعلها، فرحمه الله رحمة واسعة حيث قال: (ويتتبع من الأحاديث الصحيحة تكملة العدة المذكورة، فهو نمط آخر من التتبع، عسى الله أن يعين عليه بحوله وقوته آمين)[(١)].

وقد كان العلامة ابن حجر يظن في بادئ الأمر أن الأسماء المطلقة في القرآن سيصل عددها إلى تسعة وتسعين اسما، ولذلك حذف من الأسماء المشهورة أربعة أسماء صحيحة صريحة، واردة بصيغة الاسم في صحيح السنة، وهي المقدم المؤخر، مع ورود نصهما في الصحيحين من حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: (أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت، أو لا إله غيْرك)[(٢)]. وكذلك حذف القابض الباسط وقد وردا في حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله هو المسعِّر القابِض الباسِط الرّازق)[(٣)].

والقصد أن محاولات بعض علماء السلف ومن جاء بعدهم في تعيين التسعة والتسعين اسما، كلها اجتهادات مأجورة، لكنها تحتوي على أمور غير مقبولة، فلا يصح الأخذ بالأسماء الواردة في القرآن، وترك الأسماء الواردة في السنة فذلك خطر عظيم، ولا يجوز للمسلم تقليد جمع أحد إلا إذا وجد الدليل التوقيفي الذي ورد فيه النص على ذكر الاسم بصيغته، سواء من

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١١/ ٢٢١.

(٢) رواه البخاري في الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل ٥/ ٢٣٢٨ (٥٩٥٨).

(٣) رواه الترمذي في كتاب البيوع ٣/ ٦٠٥ (١٣١٤)، وانظر مشكاة المصابيح (٢٨٩٤).

القرآن أو من صحيح السنة، مع تقديرنا لجهود السابقين، ووجوب حمل كلامهم على ما يليق بهم، فلا نقلل من شأنهم، ولا نقدح في علمهم، وإنما القصد أن نتمسك بالحق بعيدا عن التعصب الأعمى للرجال، فالحق لا يعرف بالرجال، ولكن يعرف الرجال بالحق.

• كيف نطبق القاعدة الثانية في التعرف على الأسماء الحسنى؟

لما كانت الأسماء الحسنى توقيفية على النص؛ فإن القاعدة الثانية هي الرجوع إلى الوحي لإحصاء الأسماء، فخرج بذلك عند جميع العقلاء إحصاء الأوصاف والأفعال، فالنبي ﷺ دعا أمته إلى إحصاء الأسماء المنصوص عليها في الكتاب والسنة، ومعلوم أن الاسم علم على ذات الله يدل بالتضمن على الوصف، فلا بد أن يرد الاسم في النص مرادا به العلمية، ومتميزا بعلامات الاسمية المعروفة في اللغة؛ وهي خمس علامات لغوية أساسية معروفة، كدخول حرف الجر في قوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ الفرقان:٥٨. والتنوين في قوله تعالى: ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ سبأ:١٥. والنداء كما في قول النبي ﷺ: (إِنّ الله وكّل فِي الرّحِمِ ملكًا فيقول: يا ربِّ نطْفةٌ، يا ربِّ علقةٌ، يا ربِّ مضْغةٌ) [١]. أو المعرف بالألف واللام كما في قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ الأعلى:١. أو يكون المعنى مسندا إلى الاسم محمولا عليه كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ الفرقان:٥٩. فالمعنى في الآية ورد محمولا على اسم الله الرحمن.

(١) البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم ٣/ ١٢١٣ (٣١٥٥).

وكثير من الأسماء المشتهرة على ألسنة الناس هي في الحقيقة أوصاف وأفعال، ولا يصح تسمية الله بها، والذين أدرجوا الأسماء في حديث الترمذي وابن ماجة والحاكم جعلوا المرجعية في علمية الكثير من الأسماء إلى أنفسهم واجتهادهم، وليست إلى النص الثابت في الكتاب والسنة، وهذا يعارض حقيقة التوقيف، ويخالف الأمر النبوي في إحصاء الأسماء.

ومثال الأسماء التي لم تتوافق مع القاعدة الثانية من الأسماء المشتهرة؛ تسمية الله ﷻ باسم الخافض المعز المذل العدل الجليل الباعث المحصي المبديء المعيد المميت الوالي المقسط المغني المانع الضار النافع الباقي الرشيد الصبور؛ فمن الذي سمى الله ﷻ بهذه الأسماء؟! هل سمى الله نفسه بها؟ أم سماه بها رسوله ﷺ؟

هذه الأسماء جميعها ليست من أسماء الله الحسنى؛ لأنه لم يرد بها نص توقيفي، فاسم الخافض استندوا فيه إلى الاشتقاق من الفعل، فيما رواه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إِنّ الله ﷻ لا ينام ولا ينْبغِي له أنْ ينام يخْفِض القِسْط ويرْفعه) [1].

وكذلك المعز المذل اسمان اشتهرا بين الناس شهرة واسعة على أنهما من الأسماء الحسنى، وهما وإن كان معناهما صحيحا لكنهما لم يردا في القرآن أو السنة اسمين علمين على ذات الله ﷻ، فقد ذكرهما من أدرج الأسماء في حديث الترمذي، وكذلك عند ابن ماجة، والبيهقي، وغيرهم، وحجتهم الاشتقاق من الفعلين في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن

---

(١) مسلم في الإيمان، باب في قوله ﷺ إن الله لا ينام ١/ ١٦١ (١٧٩) .

تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ آل عمران:٢٦.

ومعلوم أنه لا يجوز لنا أن نشتق لله ﷻ من كل فعل اسما، ولم يخولنا الله في تسميته بما نشاء، وإنما أمرنا سبحانه بإحصاء الأسماء وجمعها من الكتاب والسنة، ثم دعائه بها؛ فدورنا تجاه الأسماء الحسنى الإحصاء، ثم الحفظ والدعاء، وليس الاشتقاق والإنشاء.

ومن ثم لا يصح الاستدلال بالحديث أو الآية على تسمية الله الخافض المعز المذل، لأن الله ﷻ أخبر في الآية الكريمة عن أفعاله وليس عن أسمائه، وأخبر أنه يؤتي ويشاء وينزع ويعز ويذل، ولم يذكر فيها بعد اسمه مالك الملك واسمه القدير سوى صفات الأفعال، فالذين سموا الله ﷻ المعز المذل اشتقوا له اسمين من فعلين، وتركوا على قياسهم ثلاثة أسماء أخرى، فيلزمهم بالضرورة تسمية الله ﷻ بالشائي والمؤتي والنازع؛ طالما أن المرجعية في علمية الاسم إلى تسمية العقلاء، دون التتبع والجمع والإحصاء.

وقس على ذلك بقية الأسماء المدرجة والمشتهرة على ألسنة العامة والخاصة، فهي وإن كان أغلبها صحيح المعنى؛ إلا أنه لا يجوز لنا تسمية الله بها لعدم ورودها في الكتاب والسنة، فدورنا تجاه الأسماء الحسنى الجمع والإحصاء، ثم الحفظ والدعاء، وليس الاشتقاق والإنشاء، أو تسمية الله بما نشاء، فهذه الأسماء المذكورة لا تتوافق مع القاعدة الثانية.

- **هل يجوز نسبة الضار إلى رب العزة والجلال اسما أو وصفا؟**

تسمية الله ﷻ بالضار إلحاد في أسماء الله وضلال مبين، بل هو جهل مبين

بأوصاف رب العالمين حتى لو أضيف له النافع، فهذا لا يرفع النقص، وإذا كان الإنسان لا يقبل على نفسه أن يكون الضار اسما لشخصه أو وصفا من وصفه، فكيف ينسبه إلى ربه؟ فلا يصح نسبة الضار إلى رب العزة والجلال، لا اسما ولا وصفا ولا فعلا، لأنه لم يرد بذلك نص قرآني أو نبوي.

وليس لمن سمى الله بالضار النافع إلا مجرد الرأي والاجتهاد الشخصي في الاشتقاق من المعنى الذي ورد في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴿١٨٨﴾﴾ الأعراف:١٨٨. أو المعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ الأنعام: ١٧.

وربما اشتقها مما رواه الترمذي وصححه الألباني من حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال له: (واعْلَمْ أنّ الأمّة لِو اجْتمعت على أنْ ينْفعوك بِشيْءٍ لم ينْفعوك إِلا بِشيْءٍ قدْ كتبه اللهّ لك، ولِو اجْتمعوا على أنْ يضرّوك بِشيْءٍ لم يضرّوك إِلا بِشيْءٍ قدْ كتبه الله عليْك)[1].

وكيف يعقل تسمية رب العزة والجلال أو وصفه بالضار، وليس فيه كمال ولا جمال، ولا حجة على ثبوته من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ؟ وكيف يكون الضار اسما علما على ذات الله والمفترض أن تكون الأسماء التي نجمعها أو نحصيها كلها حسنى تفيد المدح والثناء على الله بنفسها؟ بل إن عامة المسلمين وخاصتهم يدعون ربهم كل صباح ومساء باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، عملا بما ورد عند الترمذي وصححه الألباني أن النبي ﷺ قال: (ما مِنْ عبْدٍ يقول في صباحِ كلّ يوْمٍ، ومساءِ كلّ

---

(١) الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ٤/ ٦٦٧ (٢٥١٦).

ليْلةٍ: بِسْمِ الله الذي لا يضرّ مع اسْمِهِ شيء في الأرْضِ ولا في السّماءِ وهو السّمِيع الْعلِيم، ثلاث مرّاتٍ فيضرّه شيء)[1].

وورد في صحيح مسلم من حديث علي بن أبي طالب ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال: (لبّيْك وسعْديْك، والْخيْر كلّه فِي يديْك، والشّرّ ليْس إِليْك، أنا بِك وإِليْك، تباركْت وتعاليْت)[2].

وكيف يكون الضار من الأسماء الحسنى المحفوظة المشهورة في حين لا يذكر فيها اسم الأعلى ونحن نسبح الله به في كل سجدة، وقد نص الله ﷻ في كتابه على إسميته وعلميته فقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ الأعلى:١؟ فالواجب على كل مسلم أن يقف عند النص القرآني والنبوي الصحيح، إن ورد فيه الاسم بنصه سمى الله ﷻ به، وإن لم يرد؛ فليس لأحد الحق في تسمية الله ﷻ به، وإن صح معناه.

• كيف نطبق القاعدة الثالثة في التعرف الأسماء الحسنى؟

القاعدة الثالثة في التعرف على الأسماء الحسنى الإطلاق، فيلزم لإحصاء الأسماء الحسنى أن يرد الاسم في سياق النص مطلقا، يفيد المدح والثناء على الله بنفسه، لأن ما ذكره الله ﷻ من أسمائه مطلقا في حقه يختلف عما ذكره مقيدا، فالاسم المطلق لو قيدناه لا يحتمل نقصا بوجه من الوجوه، أما الاسم المقيد لو أطلقناه، فإنه قد يوهم نقصا، فلابد من مراعاة الإطلاق والتقييد في أسماء الله، فما ورد مطلقا ذكرناه مطلقا، وما ورد مقيدا ذكرناه مقيدا.

---

(١) الترمذي ٥/ ٤٦٥ (٣٣٨٨)، وانظر صحيح الجامع (٥٧٤٥).

(٢) مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ١/ ٥٣٤ (٧٧١).

ولا يحق لأحد أن يتدخل بعقله في أسماء الله ﷻ فيطلق المقيد ويفصل المضاف بحجة أنه رأى في إطلاق اسم كمالا، ووجد في إطلاق الآخر نقصا، فالأسماء توقيفية على النص، والله ﷻ أمرنا بذكره كما هدانا، وكما أرشدنا نبينا ﷺ، ولم يأمرنا بذكره على ما نراه بعقولنا وأهوائنا فقال: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ البقرة:١٩٨.

وقد ذكر الله تعالى اسم الرافع مقيدا في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ آل عمران:٥٥. فأدرجه الوليد بن مسلم في الأسماء المشهورة اسما مطلقا وهذا لا يصح؛ لأن الرافع عند إطلاقه سينافي كمال الحكمة، ويوهم نقصا عند التعميم، فالله لا يرفع الكافرين على المؤمنين على وجه الإطلاق، ولا يرفع إلا من يشاء في وقوع الجزاء والعطاء والأرزاق على مقتضى حكمته، فالإطلاق للرافع قد يوهم نقصا، ولا بد من ذكره في قائمة الأسماء المقيدة؛ لأن الله سبحانه ذكره مقيد، ولو جاز إطلاق الرافع للزم إطلاق المتوفي والمطهر والجاعل؛ وإلا كان تناقضا ظاهرا في إطلاق اسم وتقييد آخر.

وكذلك اسم المنتقم ورد مقيدا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾ السجدة:٢٢. فأطلقه الوليد بن مسلم، وأدرجه في الأسماء المشهورة، وأوهم إطلاق الاسم عموم وصف الانتقام من الناس أجمعين، في حين ذكره الله مقيدا بالمجرمين، ولهذا لا يصح إطلاق المنتقم في أي موضع ورد في القرآن إلا مقيدا بأعداء الدين.

وكذلك ما ورد بصيغة الاسم مقيد فلا يصح إطلاقه كاسم الخادع؛ فإنه مقيد بخداع المنافقين للمؤمنين، ولا يجوز غير ذلك، وكذلك عدو الكافرين ومخزيهم ومهلكم ومعذبهم.. الخ، فمثل هذا النوع من التقييد ينبغي أن يذكر كما ورد النص به؛ مقرونا فيه الاسم بما قيده الله من أنواع الإضافة أو التقييد أو التخصيص.

وكذلك ما ورد في اسم الحفي والصاحب والخليفة، فهذه أسماء مقيدة وهو سبحانه الحفي بإبراهيم عليه السلام، وهو الصّاحِب في السّفرِ، والخليفة في الأهل، والغالب على أمْرِهِ، والفعال لما يريد، والقائم على كل نفس بما كسبت، وهو كاشف الضر، وهو المقلب لقلوبنا، والمصرف والمثبت لها، وهو المستعان على أمورنا، وهو الناصر لأنبيائه، والصانع لما شاء، والمحيط بكل شيء، وهو فالق الحب، ومخرج الحي من الميت، وهو سبحانه شديد العقاب، وشديد المحال، وهو أهل التقوى، وأهل المغفرة، وجامع الناس، وبديع السماوات، ونورها، وفاطرها، وقيمها، وجاعلها، وهو خير الحافظين، وخير الحاكمين، وخير الراحمين، وكذلك ذو الجلال والإكرام، وذو العرش، وذو المعارج، وغير ذلك مما قيده الله تقييدا ظاهرا، أو في سياق النص كما ورد في اسمه الزارع والمنزل والمنشئ الموسع والماهد والكاتب والمبتلي وغير ذلك مما ذكره الله مقيدا، فلا بد من تقييد ما قيده الله ورسوله من الأسماء.

ولا يدخل في الأسماء المقيدة الأسماء المقترنة بالعلو المطلق؛ لأن معاني العلو سواء علو الشأن، أو علو القهر، أو علو الذات والفوقية، جميعها في حد ذاتها إطلاق؛ فالعلو يزيد الإطلاق كمالا على كمال، وجلالا فوق الجلال كاسم القدير والمقيت والشهيد والحفيظ والرقيب والحسيب والمقتدر

والقاهر، كلها من أسماء الله المطلقة.

- **كيف التزم من تتبعوا إحصاء الأسماء بالقاعدة الثالثة؟**

عند مراجعة ما قام به العلماء في تتبعهم لإحصاء الأسماء الحسنى، نجد أنهم جميعا يحصون الأسماء المطلقة من القرآن والسنة أولا، أو من القرآن فقط، فإن عجز أحدهم عن استكمال العدد المشار إليه في حديث أبي هريرة ﷺ، والذي ينص على وجود تسعة وتسعين اسما في القرآن والسنة، أدخل بعضا من الأسماء المضافة والمقيدة، وترك أكثرها، وهذا الأمر نجده واضحا جدا في إحصائهم جميعا.

وقد كان ابن حزم الأندلسي من أشد الناس التزاما بجمع الأسماء المطلقة، وكان في استطاعته أن يحصي ما شاء من الأسماء المقيدة ليجعل العدد تسعة وتسعين، لكنه لم يفعل كما فعل غيره التزاما بمنهجه في إحصاء الأسماء الحسنى، ولذلك فضل أن يترك الأمر لمن جاء بعده، فذكر نيفا وثمانين اسما اعتقدها جميعا أسماء مطلقة، تفيد المدح والثناء على الله بنفسها، وأنها ثابتة بنصها وصيغتها في الكتاب والسنة[1].

ومن نظر في الأسماء التي ذكرها ابن حزم وجد أنه استبعد من الأسماء المشهورة الأسماء المقيدة، وهي المنتقم والبديع والرافع والنور والمحيي والجامع والهادي وذو الجلال والإكرام، فلم يرد ذكرها في الأسماء التي جمعها في حين أدخل في الأسماء الحسنى مما لم يرد في الأسماء المشهورة واحدا وعشرين اسما، جميعها مطلقة ثابتة صحيحة بصيغتها التوقيفية، وهي الأكرم

(١) المحلى لأبي محمد بن حزم ٨/ ٣١.

الرب الإله القريب الشاكر القاهر القدير الأحد الأعلى الخلاق المليك السيد السبوح الوتر المحسن الجميل الرفيق المسعر المبين الشافي المعطي.

وقد أبقى ابن حزم على الأسماء التوقيفية المطلقة الواردة في الأسماء المشتهرة وهي: الله الرحمن الرحيم العليم الحكيم الكريم العظيم الحليم القيوم السلام التواب الوهاب السميع المجيب الواسع العزيز الآخر الظاهر الكبير الخبير البصير الغفور الشكور الغفار القهار الجبار المتكبر المصور البر المقتدر الباري العلي الغني الولي القوي الحي الحميد المجيد الودود الصمد الواحد الأول المتعال الخالق الرزاق الحق اللطيف الرءوف العفو الفتاح المتين المؤمن المهيمن الباطن القدوس الملك القابض الباسط المقدم المؤخر.

ومن راجع جمع العلامة ابن حجر وجد أنه رحمه الله كان ينكر على كل من أخذ الأسماء اشتقاقا، وكل من لم يلتزم ثبوت النص، وعلمية الاسم، والإطلاق، ثم إنه كما تقدم أخذ يعتذر عما أدخله في إحصائه من الأسماء المقيدة بعد أن أنكر على محمد بن إبراهيم الزاهد أنه أدخل أسماء مضافة ومقيدة، ثم ألزمه بإحصاء جميع الأسماء المقيدة بالإضافة لو أراد اتباع المنهج الصحيح الذي ينبغي أن يكون، وذلك حين أشار إلى أن محمد الزاهد ذكر من المضاف اسم الفالق، وكان يلزمه أن يذكر القابل.

قال ابن حجر: (ووقفت في كتاب المقصد الأسنى لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الزاهد أنه تتبع الأسماء من القرآن، فتأملته فوجدته كرر أسماء، وذكر مما لم أره فيه بصيغة الاسم: الصادق، والكاشف، والعلام، وذكر من المضاف الفالق من قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ الأنعام:٩٥. وكان يلزمه أن

يذكر القابل من قوله: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ غافر:٣) [1].

ولما عجز العلامة ابن حجر عن إحصاء سبعة وعشرين اسما مطلقا من القرآن ليضيفها إلى الاثنين والسبعين اسما المطلقة التي انتقاها هو من الأسماء المشهورة ورآها صحيحة، وأيضا لما لم يجد في القرآن من الأسماء المطلقة إلا خمسة عشر اسما فقط، اضطر إلى مخالفة منهجه في إدخال بعض الأسماء المضافة ليكمل التسعة والتسعين ويترك البعض، فأخذ يعتذر عن ذلك، وكأنه يقول: لو احتج عليّ أحد بأنني أدخلت المضاف في إحصائي للأسماء، فسأحتج عليه أيضا بأن الوليد بن مسلم فعل ذلك في الأسماء المشهورة التي أدرجها في الحديث، ورواها عنه الترمذي، وبقيت قرونا طويلة لم يحتج عليه أحد فيها.

ومن تتبع جمع المعاصرين كشيخنا محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في القواعد المثلى وجد أنه اعتمد في منهج الإحصاء على تتبع ما ورد في القرآن وصحيح السنة من الأسماء التوقيفية التي وردت بنصها مطلقة غير مقيدة، إلا في بعض الأسماء التي تردد في إدخالها، كما قال رحمه الله في علة تردده في إدخال اسم الله الحفي فقال: (وإن كان عندنا تردد في إدخال الحفي لأنه إنما ورد مقيدا بإبراهيم) [2]. مع غض النظر عن إدخاله العالم والحافظ والمحيط حيث اعتقدها مطلقة وهي ليست كذلك.

وكذلك كل العلماء الذين حاولوا إحصاء الأسماء التزموا جميعا في المقام

(١) المصدر السابق ١١/ ٢١٨.

(٢) القواعد المثلى ص١٦، نشر دار الأرقم، الطبعة الأولى، الكويت ١٤٠٦هـ.

الأول بإحصاء ما ورد في النص بصيغة الاسم مطلقا من غير تقييد، حتى بلغ إحصاء كل منهم للأسماء المطلقة ما يقارب بضعا وتسعين اسما، أدخل ما تيسر له من الأسماء المقيدة، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن الإطلاق هو الأصل عندهم وعند غيرهم في جمع الأسماء الحسنى، وهذا واضح جدا لكل من له عينان.

- **كيف نطبق القاعدة الرابعة في التعرف على الأسماء الحسنى؟**

لا بد لإحصاء الاسم من دلالته على الوصف، وأن يكون اسما على مسمى؛ فأسماء الله ﷻ لا تكون حسنى وهي بلا معنى، فلا بد من دلالتها على المعنى الذي تضمنه كل اسم من أسماء الله، والذي يختلف في معناه عن الآخر، ودليل ذلك قول الله تعالى في الدعاء بما دلت عليه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ الأعراف:١٨٠.

كما أن الأسماء الجامدة لا مدح فيها، ولا دلالة لها على الثناء، ويلزم لو كانت جامدة أنه لا معنى لها، ولا قيمة لتعدادها، أو الدعوة إلى إحصائها، وقد علمنا أن أسماء الله الحسنى أعلام تدل على ذاته، وأوصاف تدل على معاني الكمال، فكلها تدل على مسمى واحد، ولا فرق بين الرحمن أو الرحيم، أو الملك أو القدوس إلى آخر ما ثبت من أسمائه الحسنى في الدلالة على ذاته، فهي من جهة العلمية مترادفة، ومن جهة الوصفية متنوعة متباينة.

ومثال ما لم يتحقق فيه دلالة الاسم على الوصف من الأسماء الجامدة اسم الدهر، فقد ذكره ابن حزم في الأسماء الحسنى استنادا لما ورد عند البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (قال الله ﷻ: يؤْذِينِي ابْن آدم يسبّ

الدّهْر، وأنا الدّهْر، بِيدِي الأمْر، أقلب الليْل والنّهار) [١].

والأمر لا يصح؛ لأنه اسم جامد لا يتضمن وصفا يفيد المدح والثناء على الله بنفسه. قال القاضي عياض: (زعم بعض من لا تحقيق له أن الدهر من أسماء الله وهو غلط؛ فإن الدهر مدة زمان الدنيا .. ويكفى في الرد عليهم قوله في بقية الحديث: أنا الدهر أقلب ليله ونهاره، فكيف يقلب الشيء نفسه! تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا) [٢].

ويلحق بذلك أيضا الحروف المقطعة في أوائل السور والتي اعتبرها البعض عَلَما في الإشارة إلى أسماء الله الحسنى، وهذا قول باطل. قال أبو بكر بن العربي: (ومن الباطل علم الحروف المقطعة في أوائل السور) [٣].

• كيف نطبق القاعدة الخامسة في التعرف على الأسماء الحسنى؟

يلزم لإحصاء الأسماء الحسنى دلالة الوصف الذي تضمنه الاسم على الكمال المطلق، فلا يكون الوصف عند التجرد منقسما إلى كمال ونقص، لأن الاسم قد يكون موافقا للقواعد السابقة، غير أن الوصف أو الفعل الذي اشتق منه الاسم لغة منقسم المعنى عند التجرد إلى كمال أو نقص، وفي تلك الحالة لا بد من تقييد الاسم بموضع الكمال دون موضع النقص، فيكون من باب الأسماء المقيدة؛ ومن جعله من الأسماء المطلقة فقد جانب الصواب.

ومثال ذلك اسم المبرم في قوله تعالى: ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ الزخرف:٧٩.

---

(١) رواه البخاري في التفسير، باب: وما يهلكنا إلا الدهر ٤/ ١٨٢٥ (٤٥٤٩).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١٠/ ٥٦٦.

(٣) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٦.

واسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ الأنبياء:١٧. واسم المبتلي في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ المؤمنون:٣٠. واسم المرسل في قوله تعالى: ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ ﴾ الدخان:٥. وكذلك اسم الطبيب فيما ورد عند أبي داود وصححه الشيخ الألباني من حديث أبي رمثة ﷺ أنه قال للنبي ﷺ: (أرني هذا الذي بِظَهْرِك فإني رجل طَبِيبٌ؟ قال ﷺ: الله الطَّبِيب، بل أَنْت رجل رفِيقٌ، طَبِيبها الذي خلقها)[1].

هذه الأسماء قد تتوافق مع القواعد السابقة في التعرف على الأسماء الحسنى، لكن الوصف الذي دل عليه الاسم منقسم عند تجرد المعنى إلى ما يمدح عليه الفاعل أو يذم، فلا بد من تقييدها بموضع الكمال، فتضاف إلى قائمة الأسماء المقيدة.

• ما هي الأسماء وافقت قواعد التعرف على الأسماء الحسنى؟

أسماء الله الحسنى التي وافقت القواعد الخمسة، وهي ثبوت النص وعلمية الاسم، وأن يكون الاسم مطلقا يفيد المدح والثناء على الله بنفسه، والتزم دلالة الاسم على وصفه، ودلالة الوصف الذي تضمنه الاسم على الكمال المطلق، هي تسعة وتسعون اسما تضاف إلى اسم الجلالة، فتكمل المائة وبيانها على النحو التالي:

الله الرّحْمن الرّحيم الملك القدّوس السّلام المؤْمن المهيْمن العزيز الجبّار

---

(١) رواه أبو داود ٤/ ٨٦ (٤٢٠٧)، وانظر السلسلة الصحيحة (١٥٣٧).

المتكبّر الخالق البارئ المصوّر الأوّل الآخر الظّاهر الباطن السّميع البصير الموْلى النّصير العفوّ القدير اللطيف الخبير الوتْر الجميل الحييّ السّتير الكبير المتعال الواحد القهّار الحقّ المبين القويّ المتين الحيّ القيّوم العليّ العظيم الشّكور الحليم الواسع العليم التّواب الحكيم الغنيّ الكريم الأحد الصّمد القريب المجيب الغفور الودود الوليّ الحميد الحفيظ المجيد الفتّاح الشّهيد المقدّم المؤخّر المليك المقْتدرْ المسعّر القابض الباسط الرّازق القاهر الديّان الشّاكر المنانّ القادر الخلاّق المالك الرّزّاق الوكيل الرّقيب المحْسن الحسيب الشّافي الرّفيق المعْطي المقيت السّيّد الطّيّب الحكم الأكْرم البرّ الغفّار الرّءوف الوهّاب الجواد السّبوح الوارث الرّبّ الأعْلى الإله.

وهذه الأسماء جملة من أسماء الله الكلية التي استأثر الله بها في علم الغيب عنده، تعرف بها إلى عباده في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ. وتجدر الإشارة إلى أن ترتيب الأسماء على هذا النحو مسألة اجتهادية، راعينا في معظمها ترتيب اقتران الأسماء بورودها في النصوص القرآنية والنبوية على قدر المستطاع؛ ليسهل حفظها بأدلتها التوقيفية التالية:

١ – الرّحْمن الرّحيم، قال تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ فصلت:٢.

٣– الملك القدّوس السّلام المؤْمن المهيْمن العزيز الجبّار المتكبّر، والدليل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ الحشر:٢٣.

١١– الخالق البارئ المصوّر، والدليل قوله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ الحشر:٢٤.

١٤- الأوّل الآخر الظّاهر الباطن، والدليل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ الحديد:٣.

١٨- السّميع البصير، والدليل قول الله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ الشورى:١١.

٢٠- المولى النّصير، قال تعالى: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ الحج:٧٨.

٢٢- العفو القدير، والدليل قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ النساء:١٤٩.

٢٤- اللطيف الخبير، والدليل قول الله تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ الملك:١٤.

٢٦- الوتر، والدليل قول النبي ﷺ: (وإنّ الله وتْرٌ يحبّ الْوتْر) [١].

٢٧- الجميل، والدليل قول النبي ﷺ: (إنّ الله جميلٌ يحبّ الْجمال) [٢].

٢٨- الحييّ السّتير، والدليل قول النبي ﷺ: (إنّ الله ﷻ حييٌّ ستّيرٌ يحبّ الْحياء والسّتْر) [٣].

٣٠- الكبير المتعال، والدليل قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩﴾ الرعد:٩.

٣٢- الواحد القهّار، والدليل قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ

(١) رواه البخاري في الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحد ٥/ ٢٣٥٤ (٦٠٤٧).
(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه ١/ ٩٣ (٩١).
(٣) رواه أبو داود ٤/ ٣٩ (٤٠١٢)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٤٧).

﴿ٱلْقَهَّٰرُ ۝١٦﴾ الرعد:١٦.

٣٤- الحقّ المبين، والدليل قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝٢٥﴾ النور:٢٥.

٣٦- القويّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦﴾ هود:٦٦.

٣٧- المتين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ الذاريات:٥٨.

٣٨- الحيّ القيّوم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ البقرة:٢٥٥.

٤٠- العليّ العظيم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ البقرة:٢٥٥.

٤٢- الشّكور الحليم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧﴾ التغابن:١٧.

٤٤- الواسع العليم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝١١٥﴾ البقرة:١١٥.

٤٦- التّواب الحكيم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ النور:١٠.

٤٨- الغنيّ الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ النمل:٤٠.

٥٠- الأحد الصمد، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ الإخلاص:٤٠.

٥٢- القريب المجيب، والدليل قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ هود:٦١.

٥٤- الغفور الودود، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ البروج:١٤.

٥٦- الوليّ الحميد، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٨﴾ الشورى:٢٨.

٥٨- الحفيظ، والدليل قوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾ سبأ:٢١.

٥٩- المجيد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ هود:٧٣.

٦٠- الفتّاح، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ سبأ:٢٦.

٦١- الشّهيد، قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ سبأ:٤٧.

٦٢- المقدّم المؤّخر، قال رسول الله ﷺ: (أنْت الْمقدّم، وأنْت الْمؤخّر)[1].

٦٤- المليك المقْتدر، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ القمر:٥٥.

٦٦- المسعّر القابض الباسط الرّازق، والدليل قول النبي ﷺ: (إنّ الله هو الْمسعّر الْقابض الْباسط الرّازق)[2].

٧٠- القاهر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ الأنعام:١٨.

٧١- الديّان، والدليل قول النبي ﷺ: (يحْشر الله الْعباد فيناديهمْ بصوْتٍ يسْمعه منْ بعد كما يسْمعه منْ قرب، أنا الْملك، أنا الدّيّان)[3].

٧٢- الشّاكر، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ النساء:١٤٧.

٧٣- المنان، والدليل ما ورد مرفوعا: (لا إله إلاّ أنْت الْمنّان)[4].

٧٤- القادر، قال تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ المرسلات:٢٣.

٧٥- الخلاّق، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ الحجر:٨٦.

---

(١) رواه البخاري في أبواب التهجد، باب التهجد بالليل ١/ ٣٧٧ (١٠٦٩).
(٢) انظر صحيح ابن ماجة (١٧٨٧)، ومشكاة المصابيح (٢٨٩٤).
(٣) رواه أحمد ٣/ ٤٩٥ (١٦٠٨٥)، البخاري تعليقا ٦/ ٢٧١٩.
(٤) أحمد في المسند ٣/ ١٢٠ (١٢٢٢٦)، وانظر مشكاة المصابيح (٢٢٩٠).

٧٦- المالك، والدليل قول النبي ﷺ: (لا مالك إلاّ الله ﷻ) [(١)].

٧٧- الرّزّاق، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ الذاريات:٥٨.

٧٨- الوكيل، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ آل عمران:١٧٣.

٧٩- الرّقيب، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾ الأحزاب:٥٢.

٨٠- المحْسن، والدليل قول النبي ﷺ: (إن الله محسن يحب الإحسان) [(٢)].

٨١- الحسيب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ النساء:٨٦.

٨٢- الشّافي، والدليل قول النبي ﷺ: (اشْف وأنْت الشّافي) [(٣)].

٨٣- الرّفيق، والدليل قول النبي ﷺ: (إنّ الله رفيقٌ يحبّ الرّفْق) [(٤)].

٨٤- المعْطي، والدليل قول النبي ﷺ: (والله المْعْطي وأنا الْقاسم) [(٥)].

٨٥- المقيت، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ النساء:٨٥.

٨٦- السّيّد، والدليل قول النبي ﷺ: (السّيّد الله تبارك وتعالى) [(٦)].

٨٧- الطّيّب، والدليل قول النبي ﷺ: (إنّ الله طيّبٌ لا يقْبل إلاّ طيّبًا) [(٧)].

٨٨- الحكم، والدليل قول النبي ﷺ: (إنّ الله هو الحكم وإليْه الحكْم) [(٨)].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الآداب ٣/ ١٦٨٨ (٢١٤٣).

(٢) انظر صحيح الجامع (١٨٢٤).

(٣) رواه البخاري في كتاب المرضى ٥/ ٢١٤٧ (٥٣٥١).

(٤) رواه البخاري في كتاب استتابة المرتدين ٦/ ٢٥٣٩ (٦٥٢٨).

(٥) رواه البخاري في كتاب فرض الخمس٣/ ١١٣٤ (٢٩٤٨).

(٦) انظر مشكاة المصابيح (٤٩٠٠)، وصحيح الجامع (٣٧٠٠).

(٧) رواه مسلم في الزكاة، باب قبول الصدقة ٢/ ٧٠٣ (١٠١٥) .

(٨) انظر إرواء الغليل (٢٦١٥)، ومشكاة المصابيح (٤٧٦٦).

٨٩- الأكْرم، والدليل قوله: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ﴾ العلق:٣.

٩٠- البرّ، والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨ ﴾ الطور:٢٨.

٩١- الغفّار، قال تعالى: ﴿ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢ ﴾ غافر:٤٢.

٩٢- الرّءوف، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٢٠ ﴾ النور:٢٠.

٩٣- الوهّاب، قال تعالى: ﴿ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴾ ص:٩.

٩٤- الجواد، والدليل قول النبي ﷺ: (إنّ الله ﷻ جوادٌ يحب الجود)[١].

٩٥- السّبوح، والدليل قوله ﷺ: (سبّوحٌ قدّوسٌ ربّ الْملائكة والرّوح)[٢].

٩٦- الوارث، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾ الحجر:٢٣.

٩٧- الرّبّ، قال تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨ ﴾ يس:٥٨.

٩٨- الأعْلى، قال تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ﴾ الأعلى:١.

٩٩- الإله، قال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ البقرة:١٦٣.

• ما هي الصيغ اللغوية التي وردت عليها أسماء الله التوقيفية؟

أغلب أسماء الله الحسنى سواء كان الاسم مطلقا أو مقيدا، إما يرد بصيغة اسم الفاعل، أو يرد بصيغة المبالغة من اسم الفاعل، كفعال، ومفعال، وفعول، وفعيل، وفعل، أو يرد بصيغة أفعل التفضيل.

ومثال ما ورد من بصيغة اسم الفاعل من الأسماء المطلقة، الْمُهيْمِنُ،

---

(١) انظر صحيح الجامع (١٧٤٤).

(٢) مسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ١/ ٣٥٣ (٤٨٧).

الخالقُ، البارِئُ، المُصوِّرُ، الظّاهِرُ، الباطِنُ، الواحِدُ، الواسِعُ، المُبِينُ، المُجيبُ، المُقدِّمُ، المُؤخِّرُ، القابِضُ، الباسِطُ، الرّازِقُ، القاهِرُ، المُسعِّرُ، الشّاكِرُ، القادِرُ، المالكُ، المُحْسِنُ، الشّافِي، المُعْطي، المُقيتُ، الوارِث.

ومن الأسماء التي وردت بصيغة اسم الفاعل، ولا بد أن تذكر مقيدة، ولا يجوز إطلاقها على الله ﷻ إلا بالإضافة، أو القرينة التي وردت معها في نص الكتاب والسنة، البالغ، الجامع، الحاسب، الجاعل، الخادع، الرافع، الزارع، الشاهد، العالم، الغافر، القابل، الغالب، الفاطر، الفالق، الفاعل، القائم، الكافي، الكاشف، الماكر، الماهد، المبتلي، المبرم، المبدي، المتم، المتوفي، المحي، المخرج، المخزي، المرسل، المستمع، المطهر، المعذب، الممد، المنتقم، المنذر، المنشئ، المهلك، الموسع، الكاتب، المحيط، الموهن، الهادي، الصادق، الصانِعُ، المجري، المنزل، الهازم، المقلب، المثبت، المصرف، الناصر، المذهب، الصاحب، الخليفة.

هذه جميعها أسماء الله المضافة والمقيدة التي ردت بصيغة اسم الفاعل وتفيد المدح والثناء على الله ﷻ بذكر غيرها من أنواع المضاف، أو القرينة الواردة معها في النص، ولا يجوز إطلاق ما قيده الله ورسوله ﷺ.

ومن أمثلة أسماء الله الحسنى المطلقة مما ورد بصيغ المبالغة من اسم الفاعل: الرّحِيم، الملكُ، العزِيزُ، الجبّارُ، السميعُ، البصِيرُ، النّصِيرُ، القدِيرُ، اللطِيفُ، الخبِيرُ، الجميل، الحيي، الستيرُ، الكبِيرُ، القهّارُ، العظِيم، الشّكُورُ، الحليم، العليم، التّوابُ، الحكِيم، الكرِيم، القرِيبُ، الغفُورُ، الودودُ، الحميدُ، الحفيظُ، المجيدُ، الفتّاحُ، الشّهيدُ، المليكُ، الديانُ، المنانّ، الخلاّقُ، الرزاقُ، الوكيل، الرّقيبُ، الحسيبُ، الرِّفيقُ، الغفّارُ، الرّءوفُ، الوهّابُ. ومما ورد في

الكتاب والسنة بصيغ المبالغة من اسم الفاعل من أسماء الله المقيدة التي تذكر على ما ورد نصها: البديع، الرفيع، السريع، العلام، الشديد، الفعال، الكفيل، الطبيب، القيام.

ومن أمثلة أسماء الله الحسنى مما ورد بصيغة أفعل التفضيل من الأسماء المطلقة: الأعلى والأكرم. ومن المقيدة: الأرحم، الأحكم، الأسرع، الأقرب، الأبقى، الأحق، الأشد، الأوْلى، الأعلم، الأجل، الأغير، الأصبر، الأكبر، الأغنى. وهناك بعض الأسماء الحسنى من باب الصفة المشبهة نحو الرب، الرحمن، الأول، الآخر.

• ما هو الإلحاد في الأسماء الحسنى الذي حذرنا الله منه؟

أصل الإلحاد هو الميل عن الطريق المستقيم، قال تعالى: ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ الأعراف:١٨٠. والإلحاد في الأسماء الذي حذرنا الله ﷻ على عدة أنواع:

الأول: أن ينكر شيئا من أسماء الله التوقيفية، أو مما دلت عليه من الصفات الذاتية والفعلية، كما فعل أهل التعطيل من المتكلمين وأتباع الجهمية، وإنما كان ذلك إلحادا لأن الله ﷻ أوجب علينا الإيمان بها، وبما دلت عليه من الصفات اللائقة بجلاله، مطابقة وتضمنا والتزاما، فإنكار شيء من الأسماء والصفات ميل بها عما يجب فيها.

والثاني: أن يجعل الأسماء الحسنى دالة على صفات تماثل أو تشابه صفات المخلوقين، كما فعل أهل التشبيه في قياسهم أسماء الله وصفاته بقياس تمثيلي أو شمولي، وذلك لأن التمثيل معنى باطل لا يمكن أن تدل عليه النصوص،

فجعلها دالة عليه ميْل بها عما يجب فيها.

الثالث: أن يسمي الله تعالى بما لم يسم به نفسه، في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ كتسمية النصارى له بالأب، أو الابن، وتسمية الفلاسفة له بالعقل الفعال أو العلة الأولى، وذلك لأن أسماء الله تعالى توقيفية، فتسمية الله تعالى بما لم يسم به نفسه، ميل بها عما يجب فيها وهو من الإلحاد في أسمائه. قال أبو الحسن علي بن محمد الخازن (ت:٧٤١هـ) في تفسيره: (الإلحاد في أسماء الله، هو تسميته بما لم يسمّ به نفسه، ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة، لأن أسماء الله سبحانه وتعالى كلها توقيفية، فلا يجوز فيها غير ما ورد في الشرع، بل ندعو الله ﷻ بأسمائه التي وردت في الكتاب والسنة على وجه التعظيم) [1].

الرابع: أن يشتق من أسماء الله الحسنى أسماء للأصنام والأوثان، كما فعل المشركون في اشتقاق العزى من العزيز، واشتقاق اللات من الإله، فسموا بها أصنامهم، وذلك لأن أسماء الله تعالى مختصة به، لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ الأعراف:١٨٠. وكما أفرد الله نفسه بالعبادة والإلوهية وجميع معاني الربوبية؛ فإنه سبحانه أفرد نفسه بالأسماء الحسنى، فتسمية غيره بها على الوجه الذي انفرد الله به ميل بها عما يجب فيها، ومنه ما يكون شركا، أو كفرا حسبما تقتضيه الأدلة الشرعية.

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل ٣/ ١٣٧.

الباب الثاني

عقيدة أهل السنة في توحيد الربوبية والإيمان بالقضاء والقدر والحكمة والتدبير

الفصل الأول

الفقر الذاتي والغنى الذاتي.

الفصل الثاني

مراتب القدر وأنواع التقدير.

الفصل الثالث

التدبير الكوني والتدبير الشرعي.

الفصل الرابع

أركان الاختيار في الإنسان.

الفصل الخامس

بداية الكون والإنسان.

الفصل الأول

الفقر الذاتي والغنى الذاتي

• ما هي علة وجوب الحمد لله رب العالمين؟

علة وجوب الحمد لله رب العالمين ما أنعم الله به على الخلائق أجمعين؛ لأن الذي يستحق الحمد والشكر هو من يفعل الخير للناس بلا مقابل أو عوض، ويقوم على نفعهم بلا غرض؛ وسمي كل قائم بعمل الخير المتعدي للآخرين محمودا وممدوحا ومشكورا على ما قام به، وأنه يستحق الشكر ويستوجب على فعله الحمد والثناء، ويكثرون له من التمجيد والدعاء، بل يمدحونه بأحب ما ينسب إليه من الأسماء، ويذكرونه فيما بينهم بجميل الأوصاف والأفعال، ولذلك فإن النبي ﷺ قد شرفه الله ﷻ بأن جعله صاحب المقام المحمود الذي يطلب جميع الخلائق منه الشفاعة العظمى.

وقد سُمِّي هذا المقام بالمقام المحمود؛ لأنه يمثل مكانة عليا للنبي يحمده ﷺ فيها الأولون والآخرون جميعا، وهو مقام يقومه النبي ﷺ ليريحهم من كرب الموقف، ويريهم فيه بما يفعله عندما يخر على وجهه للسجود، ما ينبغي أن يكون من الثناء على من خلق الوجود، وأسبغ نعمه على كل موجود، فهو سبحانه الحميد المجيد الودود الذي أسبغ نعمه ظاهرة وباطنة، فكان كل من في السماوات والأرض قائما باسم الله الرحمن الرحيم؛ ومن ثم وجب إقرار الحمد لله رب العالمين؛ ولذلك بدأ الله كتابه بالبسملة والحمد.

وإذا كان الإنسان مستوجبا للحمد، مستحقا للمدح والثناء، لأنه يفعل الخير لا لنفسه، ولا لمصلحة تعود على شخصه، ولكن يفعله حرصا على غيره، وإرادة منه لمحبته ونفعه، فكيف بفعل الله في خلقه وهو الغني بذاته عنهم؟ وكيف بإيجاده وإمداده وإنعامه وعطائه؟ فلما كان نفعه لعباده لا يحصيه إلا هو، كان حمده والثناء على أفعاله لا يحصيها إلا هو.

وقد أخبر الله ﷻ أن له الحمد، وأنه حميد مجيد، وأن له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم، ونحو ذلك من أنواع المحامد؛ فحمده سبحانه حمْد على إحسانه إلى عباده مع غناه عنهم، وحمْد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله الدالة على غناه في أسمائه وصفاته.

• ما الدليل على وجود الله عند أهل السنة والجماعة؟

الدليل على وجود الله عند أهل السنة والجماعة يسمى دليل الفطرة، وهو الإقرار بأن وصف الغنى والكمال وصف ذاتي انفرد به رب العزة والجلال، وأن وصف الحاجة والافتقار وصف ذاتي لكل مخلوق على وجه الاضطرار.

وبيان ذلك أن واقع الفطرة يشهد بأن جميع الخلائق فقيرة بذاتها؛ ولا تقوم بنفسها، وأنها تحتاج إلى غيرها في استمرار وجودها وبقائها؛ فكان فقرها بذاتها في وجودها واستمرار بقائها دليلا دامغا على وجود غني بذاته أقامها؛ لا يحتاج إلى غيره في وجوده وبقائه، وأن جميع الخلائق ترجع إليه بالضرورة لا محالة، فهو الذي أوجدهم فأحياهم، ورزقهم فأغناهم، ودبر أمورهم فأبقاهم، فبقاؤهم بإبقائه لهم، وبقاؤه ببقائه؛ واستغنائه عنهم، وذلك يشهد به فقرهم الذاتي، واحتياجهم الضروري لوجود إله غني بذاته، خلقهم الله فسواهم، وقدر أمورهم فهداهم، وكل ذلك واقع فيهم لتحقيق آثار قدرته،

وظهورا لآثار حكمته، وتوحيدا موجبا لاستغنائه وربوبيته، وفقرا بالفطرة موجبا لاحتياجه إلى عبوديته، فتسبح الخلائق بحمده ومجده ورحمته، إما اضطرارا، وإما اختيارا، وإما فقرا، أو افتقارا. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ فاطر:١٥.

لقد بين الله سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر مركب في ذاتهم؛ لا ينفك عن طبيعتهم، كما أن كونه سبحانه غنيا حميدا محمودا على عطائه الدائم وصف ذاتي له؛ لأنه موصوف بالربوبية، فغناه وحمده واقع لذاته؛ وليس لسبب استحق به الغنى بعد أن كان فقيرا، بل هو رب العالمين قبل وجود الخلائق أجمعين، وحاجة العبد إلى ربه أمر ذاتي؛ يمثل فطرة العبودية، فهم فقراء بذواتهم إلى الله؛ سواء شعروا بذلك أو لم يشعروا، فالفطرة حاكمة عليهم؛ ودليل على علة احتياجهم إلى ربهم.

ومن هداه الله منهم؛ هو الذي لا يزال يشاهد فقره إلى ربه في كل حال، سواء في أمور دينه؛ أو شئون دنياه، يتضرع في كل وقت إلى الله، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على ذكره وشكره وحسن عبادته، ويستصحب هذا الافتقار موقنا به في قلبه وعقيدته. قال تعالى عن فقر نبيه موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ القصص:٢٤.

• بين كيف أن الحاجة إلى الرزق دليل الفقر والافتقار؟

لما كانت عقيدة أهل السنة والجماعة هي الإقرار بأن وصف الغنى والكمال وصف ذاتي انفرد به رب العزة والجلال، فإن الله خلق الخلائق فقراء بذواتهم وأنهم في فقرهم لا حول لهم ولا قوة إلا بربهم، فكان من عدله وحكمته

وفضله ورحمته أنه فرض على نفسه أن يتكفل بعد خلقهم بقضاء حوائجهم؛ وإمدادهم بما يكفي لقيام حياتهم، فقضى سبحانه تفضلا منه وتكرما أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فالعبد لا ينقطع رزقه أبدا؛ منذ أن شق سمعه وبصره في بطن أمه إلى أن يموت، غير أن الله ﷻ جعل رزقه في الدنيا مرتبطا بحكمته في تقليب الأسباب بالمنع والعطاء؛ وذلك لتحقيق معاني الامتحان والابتلاء؛ فإذا خرج منها فإن آخر رزقه من الدنيا يليه أول رزقه من الآخرة ؛ وذلك لتحقيق حكمته في ظهور معاني الجزاء.

وإذا أيقن الإنسان بذلك اطمأن قلبه إلى أن حوائجه ستقضى، وأنه لا بدّ من وصول الرزق إليه في وقته، كما لا بدّ من بلوغ أجله في موعده، فلم يكن عليه إلا مراعاة العمل بالأحكام، وتمييز الحلال من الحرام، والعمل بشريعة الإسلام. روى ابن ماجه وصححه الألباني من حديث جابِر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسُول الله ﷺ قال: (أيها الناسُ، اتقوا الله وأجملوا في الطّلبِ، فإِن نفسًا لن تموت حتى تسْتوْفِي رزْقها، وإِن أبْطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطّلبِ، خُذوا ما حل، ودعُوا ما حرم)[1].

وقد يكون الإنسان ممن أعطاهم الله من فضله، ووسع عليهم من رزقه، فيكون كالخازن في ملك سيده، كما كان سليمان بن داود عليه السلام؛ لما منحه الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، وكذلك الأغنياء من الأنبياء والصحابة رضي الله عنهم؛ كانوا لا يرون لأنفسهم ملكا حقيقيا، بل كانوا يرون ما في أيديهم أمانة لله ﷻ، ووديعة استرعاهم الله فيها، وابتلاهم بها، لينظر هل يتصرفون فيه تصرف العبد الفقير بذاته، أو تصرف الذين يعطون ويمنعون لأهوائهم.

(١) رواه ابن ماجه ٢/ ٧٢٥ (٢١٤٤)، وانظر والسلسلة الصحيحة (٢٦٠٧).

وهكذا ابتلى الله الناس في رزقهم، فكان وجود المال في يد العبد المقر بفقره الذاتي لا يقدح في افتقاره، وكان كالخازن لسيده الذي ينفذ أوامره في ماله، فهذا لو كان بيده من المال أمثال الجبال لم يضره، ومن لم يقر بفقره الذاتي، وظن أنه استغنى بذاته عن الغني، أصبحت الدنيا في قلبه أكبر همه، ومبلغ علمه، إن أعطي رضي، وإن مُنع سخط، فهو عبد الدرهم والدينار، يصبح مهموما، ويمسي مغموما، قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ المؤمنون:٥٥/ ٥٦.

وروى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (ليس الغِنى عن كثرة العرضِ، ولكِن الغِنى غِنى النفس) [(١)].

قال ابن تيمية: (وأما فقر المخلوقات إلى الله بمعنى حاجتها كلها إليه، وأنه لا وجود لها ولا شيء من صفاتها وأفعالها إلا به، فهذا أول درجات الافتقار، وهو افتقارها إلى ربوبيته لها وخلقه وإتقانه، وبهذا الاعتبار كانت مملوكة له، وله سبحانه الملك والحمد، وهذا معلوم عند كل من آمن بالله ورسله الإيمان الواجب، فالحدوث دليل افتقار الأشياء إلى محدثها، وكذلك حاجاتها إلى محدثها بعد إحداثه لها دليل افتقارها، فإن الحاجة إلى الرزق دليل افتقار المرزوق إلى الخالق الرازق) [(٢)].

• ما علاقة الطغيان والاستكبار بتجاوز حدود الافتقار؟

لما كانت فطرة الإنسان قائمة على الإقرار بأن وصف الغنى والكمال

---

(١) رواه البخاري في الرقاق، باب الغنى غنى النفس ٥/ ٢٣٦٨ (٦٠٨١).

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ٤٥.

وصف ذاتي انفرد به رب العزة والجلال، وأن وصف الحاجة والافتقار وصف ذاتي لكل مخلوق على وجه الاضطرار، فإن كل من عصى الله ونازعه في أمره واستغنى بماله أو جاهه أو ملكه؛ فإنه خرج عن حده، من كونه عبدا فقيرا بذاته، شأنه الخضوع والافتقار إلى أن طغى وبغى واغتر بعدم الحاجة والاضطرار، فرأى نفسه مستغنيا بذاته عن غيره، وأنه لا يفتقر إلى ربه في قيام وصفه وتحقيق مراده.

قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ العلق:٦. ثم بين أن طغيانه سببه رؤية العبد لنفسه أنه استغنى عن ربه، فقال: ﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ العلق:٧. ثم بين سبحانه أنه الغني بذاته الذي يركن إليه كل من سواه؛ لأنهم فقراء بذواتهم؛ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾ العلق:٨ .

وحقيقة الطاغوت تجاوز الحد في الخروج من الفقر الذاتي إلى طلب الغنى الذاتي، وذلك باستعلاء هوى النفس في الإنسان، والاستكبار والظلم والطغيان، فالطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله ﷻ. قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ النازعات:١٥/ ٢٦.

وقد سُمِّي الطاغوت طاغوتا لتجاوز الحد من كونه عبدا فقيرا زعم لنفسه؛ أو زعم له غيره أنه علا في الكمال؛ واستغنى عن ربه في الطلب والسؤال؛ كما قال رب العزة والجلال: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ

ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ البقرة:٢٥٦. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾ الزمر:١٧.

إذا كانت معاني العبودية تقوم على معاني الذل والافتقار والحاجة والاضطرار؛ فإن معاني الربوبية تقوم على الاستغناء بالنفس في كل اسم أو وصف؛ بحيث يكون المسمى والموصوف كاملا، فكمال الأسماء والصفات والأفعال هو الذي يغني صاحبه عن كل معاني الحاجة والاضطرار؛ والذل والافتقار، وهذا الوصف ليس لأحد على الإطلاق إلا لرب العزة والجلال، وفي المقابل فإن توحيد العبودية لله هو إفراده بالطاعة والمحبة والتسليم، والافتقار بالخضوع والتعظيم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ مريم:٨٨/ ٩٣.

والسبب في أن اتخاذ الولد شرك بالله، يستوجب غضبه، أن الولد يستغني بأبيه، ودعوى استغنائه تستوجب توجّه الفقير الذاتي بطلب الحاجة إلى الغني الذاتي، وحقيقة الأمر أن عيسى عليه السلام ليس غنيا بذاته، بل فقير بذاته يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق ، فحقيقة عيسى عليه السلام أنه عبد وليس غنيا بذاته، وإنما الله وحده هو الغني بذاته، وما سواه فقير إليه فقرا ذاتيا، ومن ثم فإنهم إذا التجئوا إلى عيسى عليه السلام اعتقادا منهم أنه موصوف بالغنى الذاتي ضيعوا

أنفسهم، وضيعوا جميع الفقراء بذواتهم حين اتبعوهم في طلب المدد منهم، وفسد الكون بشركهم لأنهم ركنوا إلى عاجز فقير بذاته، ولو كان من ركنوا إليه موصوفا بالغنى على الحقيقة، أو كان للرحمن ولد على الحقيقة، لما منعهم الله ﷻ من عبادته، أو رجوع الفقير بذاته إليه في طلب حاجته، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ الزخرف:٨١.

لكنهم في الحقيقة أضعف من الذباب في فقرهم الذاتي، وفي حاجتهم إلى الله الغني، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ الحج:٧٣/ ٧٤.

ركنوا إلى فقراء بذواتهم من أمثالهم على الرغم من أن قيامهم الفعلي على إقامة الله لهم، وضمان حوائجهم وبقائهم هو من فضل ربهم؛ فما من دابة إلا على الله رزقها، وهو سبحانه آخذ بناصيتها، وهذا الشرك عين الظلم العظيم الذي وعظ لقمان ولده أن ألا يقع فيه، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ لقمان:١٣. فالله سبحانه يخلقهم، وهم يعبدون غيره، ويرزقهم، وهم يشكرون سواه.

- **هل طلب الجنة وبغض النار ينافي التوحيد والافتقار؟**

كما كانت فطرة الإنسان مبنية على أن الفقر الذاتي متأصل في وجوده؛ فإن الحرص على مصلحته، والسعي إلى سد فقره وحاجته، أمر لا يستطيع دفعه عن نفسه، فخلق الله كل إنسان حريصا على جلب المنفعة وتحصيلها، وحب

الخيرات وتفضيلها، وألا يفضل الخير الأدنى على الخير الأعلى، وأن يكون حريصا على دفع المضرة وإبعادها، كما أنه يتحمل مشقة أدنى ليحصِّل منفعة أعلى، ويضحي بالقليل ليحصِّل الكثير، ويحرص على الباقي ويزهد في الفاني، فالمريض يتحمل مرارة الدواء طلبا للشفاء؛ فهذه أوصاف العقلاء وأصحاب الفطرة السليمة التي تقوم على تحقيق معاني العبودية والافتقار إلى رب العزة والجلال، وقد جعل الله ﷻ طلب الجنة والبعد عن النار أعلى حاجة يسعى إليها العقلاء، فليس بعد نعيم الجنة من خير، وليس بعد عذاب النار من شر، وقد صح عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (يُؤْتي بِأَنْعمِ أَهْل الدُّنْيا مِنْ أَهْلِ النّارِ يوْم القِيامةِ، فيُصْبغُ فِي النّارِ صبْغةً ثمّ يُقال: يا ابْن آدم هل رأيْت خيْرًا قطُّ؟ هل مرّ بِك نعِيمٌ قطُّ؟ فيقُول: لا واللهِ يا ربِّ.. الحديث)[1].

لقد جعل الله الجنة دارا للمؤمنين لتبقى دليلا على دوام الافتقار المقترن بعبودية الاختيار، وجعل النار دار للكفار لتبقى دليلا على دوام الفقر المقترن بعبودية الاضطرار، وفي المقابل يبقى وجود الإنسان دليلا على الغنى المطلق لرب العزة والجلال، فجعل الخلائق على فطرة الحاجة والعبودية، وليبقى سبحانه أولا وآخرا غنيا كاملا منفردا بالربوبية.

ويستحيل أن يوجد مخلوق يستغني مطلقا عن الحاجة والافتقار إلى رب العزة والجلال، ولذلك أخطأ الصوفية خطأ عظيما عندما أخرجوا طلب الجنة والنار من حساباتهم، واعتقدوا أن العبادة الحق تكون بغير انتظار للثواب وعلى غير خوف من العقاب، حتى وصلوا إلى درجة يحتقرون فيها من عبد الله ﷻ انتظار لثوابه، أو خوفا من عقابه، وصنفوه من التجار الذين لا

(١) مسلم في صفة القيامة، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار ٤/ ٢١٦٢ (٢٨٠٧).

يعطون إلا لانتظار العوض، بل غالى بعضهم فوصف هذا الفريق بأنهم عبيد السوء الذين لا يوقرون الله ﷻ لذاته، ولكن لما يصلهم من نفع أو نعمة.

كما أدى ذلك أيضا إلى استهجان البعض منهم لعذاب النار، فصرح بعدم الخوف منها، وقلل من شأنها، وكقول رابعة العدوية: (ما عبدتك خوفا من نارك، ولا طمعا في جنتك، ولكن حبا لذاتك)[١]. وقال أبو بكر الشبلي: (إن لله عبادا لو بزقوا على جهنم لأطفئوها)[٢]. وقال أبو يزيد البسطامي: (الجنة لا خطر لها عند أهل المحبة، وأهل المحبة محجوبون بمحبتهم)[٣]. وقال أيضا: (إن الله قد أمر العباد ونهاهم، فأطاعوه، فخلع عليهم خلعة، فاشتغلوا بالخلع عنه، وإني لا أريد من الله إلا الله)[٤].

هذا الكلام وأمثاله مخالف للفطرة وتوحيد العبودية، وهدم للشريعة الإسلامية؛ لأن نصوص القرآن والسنة دلت على بطلان هذا الاعتقاد الفاسد، ودلت على مدح المؤمنين بسؤالهم الجنة ورجائها، والاستعاذة من النار والخوف من عذابها، وقد كانت محصلة هذه الدعوة الباطلة الخروج عن وصف الفطرة والعبودية، والوقوع في وصف الاستغناء والربوبية، وقد ترتب على ذلك تأليه الأولياء وشيوخ الطرق الصوفية، كما نرى ما يحدث عند أضرحتهم المنتشرة في البلاد الإسلامية، من مظاهر التعظيم والتقديس لهم، والاستغاثة بهم، وتقبيل أعتابهم، والطواف حول قبورهم، وغير ذلك من

(١) طبقات الصوفية للسلمي ص٣٨٧.
(٢) اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي ص٤٩٠ .
(٣) طبقات الصوفية لأبي عبد السلمي الأزدي ص٧٠.
(٤) السابق ص٧٢.

مظاهر الشرك المختلفة.

- **ما المقصود بالفقر الاضطراري العام والاختياري الخاص؟**

الفقر الذاتي وصف متأصل في مخلوق كائن في هذا العالم، وفقر الإنسان واحتياجه فقران:

الفقر الأول: هو الفقر اضطراري، وهو فقر عام، لا خروج لبر ولا فاجر عنه، وهذا الفقر لا يقتضي مدحا ولا ذما، ولا ثوابا ولا عقابا.

الفقر الثاني: فقر اختياري يعرف فيه العبد بربه ويعرف بنفسه، فينتج عنه فقر هو عين الغنى بالله، وهو عنوان فلاحه وسعادته، فمن عرف ربه بالغنى المطلق، عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامة، عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام، عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة، عرف نفسه بالجهل، فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئا، ولا يقدر على شيء، ولا يملك شيئا، ولا يقدر على عطاء ولا منع، ولا ضر ولا نفع، فكان فقره إلى ربه أمرا مشهودا محسوسا لكل أحد، وكان صلاحه وفلاحه في الافتقار إلى الله، ودعائه وطلب حوائجه منه، وعبادته والاستعانة به، وكان هلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به، وهذا هو حقيقة توحيد العبودية ووصف الافتقار إلى رب العزة والجلال.

والله سبحانه وتعالى غني كريم، عزيز رحيم، محسن إلى عبده لعلمه أنه فقير بذاته، ومن ثم يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحسانا، ولطفا وإنعاما، فهو

سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثر بهم من قلة، ولا ليعتز بهم من ذلة، ولا ليرزقوه ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾ الذاريات:٥٦/ ٥٨.

وأما العباد فهم لفقرهم وحاجتهم يحسن بعضهم إلى بعض، وينتفع بعضهم ببعض، ولولا تصور ذلك النفع بينهم لما أحسن أحدهم إلى الآخر، فكل واحد منهم إنما أراد الإحسان إلى نفسه، وجعل إحسانه إلى غيره وسيلة وطريقا إلى وصول نفع ذلك الإحسان إليه، فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاج إلى ذلك الجزاء، أو معاوضة بإحسانه، أو لتوقع حمده وشكره[1].

وهو أيضا إنما يحسن إليه ليحصل منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسن إلى نفسه بإحسانه إلى الغير، وإما أن يريد الجزاء من الله تعالى في الآخرة، فهو أيضا محسن إلى نفسه بذلك، وإنما أخر جزاءه إلى يوم فقره الأعظم، فهو غير ملوم في هذا القصد، فإنه فقير محتاج، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أن يحرص على ما ينفعه ولا يعجز عنه[2].

روى مسلم من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ أن النبي ﷺ قال عن ربه: (يا عِبادِي كُلكُم ضال إلا من هديْتهُ، فاستهدوني أهْدِكُم، يا عِبادِي كُلكُم جائعٌ إلا من أطْعمتهُ، فاستطعموني أُطْعِمكُم، يا عِبادِي كُلكُم عار إلا من كسوْتهُ، فاستكسوني أكْسُكُم، يا عِبادِي إِنكُم تخْطِئُون بِالليْل والنهار، وأنا أغْفر

(١) السابق ص٤١ بتصرف.

(٢) السابق ص٤١ بتصرف.

الذنوب جميعا فاستغفروني أغْفر لكُم، يا عِبادِي إِنكُم لن تبْلغُوا ضري فتضُروني، ولن تبْلغُوا نفعِي فتنفعُوني، يا عِبادِي لو أن أوّلكُم وآخِركُم وإِنسكُم وجنكُم كانوا على أتقى قلبِ رجل واحِدٍ منكُم، ما زاد ذلك في ملكِي شيئا، يا عِبادِي لو أن أوّلكُم وآخِركُم وإِنسكُم وجنكُم كانوا على أفجر قلبِ رجل واحِدٍ، ما نقص ذلك من ملكِي شيئا، يا عِبادِي لو أن أوّلكُم وآخِركُم وإِنسكُم وجنكُم قاموا في صعِيدٍ واحِدٍ، فسألوني، فأعْطيْت كُل إِنسان مسْألتهُ، ما نقص ذلك مما عِندِي إلا كما ينقصُ المخْيط إذا أُدْخِل البحْر، يا عِبادِي إنما هِي أعْمالكُم، أُحْصِيها لكُم، ثم أُوفيكُم إِيّاها، فمن وجد خيْرا فليحْمدْ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسهُ» [1].

إن فقر المخلوقات إلى الخالق ودلالتها عليه وشهادتها له أمر فطرى، فطر الله عليه عباده، كما فطرهم على الإقرار به بدون براهين عقلية، أو دلالات الأقيسة الشمولية والتمثيلية، فالعلم بأن المحدث لابد له من محدث، هو علم فطرى ضروري في كل نفس، وفطرة العبودية يتعرف صاحبها على الخالق بدون الفلسفات الكلامية، فإن الإنسانية قد فطرت على ذلك، والناس يعلمون أن هذه المخلوقات فقيرة بذواتها، وأنها آيات ودلائل على وجود الخالق، وما من عبد إلا ويشعر في نفسه أن سعادته تكمن في كمال افتقاره إلى ربه، واحتياجه إليه، وأن يقر بذلك، ويشهد به، ويعرفه، ويتصف بما يجب عليه من الذل والخضوع والخشوع، وهذا هو الافتقار الذي يؤدي إلى المدح والكمال، وإلا فالخلق كلهم محتاجون إلى الله بالضرورة والاضطرار، لكن الإنسان قد يظن أنه استغنى عن الله فيطغى.

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٤ (٢٥٧٧).

كما السعادة في معاملة الخلق أن تعاملهم من منطلق الفطرة والحاجة، والافتقار والعبودية لله وحده، فترجوا الله فيهم ولا ترجوهم، وتخافه فيهم ولا تخافهم، وتحسن إليهم رجاء ثواب الله لا لمكافئتهم، وتكف عن ظلمهم خوفا من الله لا منهم، وألا تفعل شيئا من أنواع العبادات والقرب لأجلهم، لا لرجاء مدحهم، ولا خوفا من ذمهم، بل ترجو الله وحده، ولا تخفهم فيما تأتي وما تذر، بل افعل ما أمرت به وإن كرهوه، فإن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله، فإذا أرضيتهم بسخطه لم تكن موقنا بوعده ولا برزقه، فإذا أرضيت الله نصرك ورزقك، وكفاك مؤنتهم.

ولا يزول فقر العبد وفاقته إلا بالتوحيد، فإنه لابد له منه، وإذا لم يحصل له لم يزل فقيرا محتاجا، معذبا في طلب ما لم يحصل له، والله تعالى لا يغفر أن يشرك به، وإذا حصل مع التوحيد الاستغفار حصل له غناه وسعادته، وزال عنه ما يعذبه، فالعبد مفتقر دائما إلى التوكل على الله، والاستعانة به كما هو مفتقر إلى عبادته، فلابد أن يشهد دائما فقره إلى الله، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجأ من الله إلا إليه.

- **ما هي علة احتياج العالم إلى وجود الله عند المتكلمين؟**

علة احتياج العالم إلى الله عند المتكلمين يسمى بدليل الحدوث، وهو زعمهم أن الحوادث لو قامت بذات الباري لا تصف بها بعد أن لم يتصف، ولو اتصف لتغير، والتغير دليل الحدوث، إذ لا بد من مغير.

ومعلوم أن مذهب السلف في علة احتياج العالم إلى الله هو افتقار المخلوق إلى خالقه، وأن وجوده تعالى وغناه بنفسه عمن سواه أمر فطري معلوم بالضرورة، يُعلم من نَظِر العبد إلى ضروريات نفسه، وافتقاره إلى غيره،

والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى، نراها في الكون والآفاق، والنفس والأعماق، وأدلة الوحي المختلفة.

أما الأشاعرة فدليل احتياج العالم للخالق عندهم دليل جدلي كلامي، استخدموه لنفي أغلب ما دلت عليه النصوص القرآنية والنبوية من الصفات الذاتية والفعلية، فهم يستدلون على ضرورة وجود الله بأن الكون حادث، وكل حادث فلا بد له من محدث قديم، وأخص صفات القديم عندهم مخالفته للحوادث، وعدم حلولها فيه. ومن مخالفته للحوادث إثبات أنه ليس جسما ولا عرضا، ولا متحركا ولا مستويا، ولا نازلا ولا متعاليا، ولا يسأل عنه بأين؟ لأنها تدل على المكان والجهة، فلو كان الله متقيدا بمكان متصوراً بصورة، متحيزا بحد ونهاية، مختصا بجهة، لكان متغيرا بصفة حادثة، والتغير دليل الحدوث، لأنه يستدعي مغيرا.

ويستدلون لكلامهم العقلي بنص قرآني كدليل ثانوي، يؤولونه على أهوائهم، ولا يؤيد ما ذهبوا إليه أصلا، وهو قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ الأنعام:٧٤/ ٧٦.

والمعنى عند الأشاعرة لا أحبّ عبادة الأرباب المتغيرين من حال إلى حال، المتنقلين من مكان إلى آخر، فإن ذلك من صفات الأجرام.

والقصد من ذكر هذا الكلام أن دليل الحدوث الذي يقرره المتكلمون، لم يضعوه في الاتجاه الذي عناه القرآن في تقرير دلالة المخلوق على الخالق، كما ذكر الأعرابي البسيط بفطرته، واستدلاله على وجود الخالق، بأن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا

تدل على اللطيف الخبير؟! وهذا ما خاطب الله عباده في مثل قوله: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الطور:٣٥.

ولكن دليل الحدوث عند الأشعرية من البدع العقلية الاعتقادية، القصد منها عندهم تعطيل الصفات الإلهية، تحت مسمى نفي التشبيه والجسمية، كتعطيلهم الاستواء والنزول والغضب والرضا، ونحو ذلك مما يتعلق بإرادة الله وقدرته، فرارا من قيام الحوادث به كما يزعمون، بخلاف دليل الفطرة الذي عليه سلف الأمة؛ فإنه دليل ناطق واضح صريح في أن علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه أن وصف الغنى والكمال، وصف ذاتي انفرد به رب العزة والجلال، وأن وصف الحاجة والافتقار، وصف ذاتي لكل مخلوق على وجه الاضطرار.

- **ما هي علة احتياج العالم إلى وجود الله عند الفلاسفة؟**

علة احتياج العالم إلى وجود الله عند الفلاسفة دليل الإمكان، وبيانه عندهم أن العالم بأسره وجوده وعدمه أمر ممكن، والممكن لا بد له من مرجح يرجح وجود العالم على عدمه، فلابد إذا من واجب الوجود، وواجب الوجود هو الله كما قرره الفلاسفة، وهذا ما يسمى عندهم بدليل الإمكان وهو الدليل على وجود الله.

وهذا الدليل يعتمد عند الفلاسفة على تقسيم الأشياء التي يحكم فيها العقلاء إلى ثلاثة أقسام: واجب الوجود، وممكن الوجود، وممتنع الوجود، فالمقصود بواجب الوجود في عرف الفلاسفة هو استحالة تصور العقل لانتفاء وجود الشيء، كاستحالة حكم العقل بانتفاء وجود الخالق، والمقصود

بممتنع الوجود هو ما يقابل واجب الوجود في المعنى، أما الحكم الثالث وهو ممكن الوجود فالمقصود به إمكانية وجود الشيء أو انتفاء وجوده، كحكم العقل بوجود المخلوق أو عدم وجوده.

ولنضرب مثالا لدليل الإمكان عند الفلاسفة: إذا اتفق اثنان على التوقيع على عقد شراء أو بيع، واشترط كل واحد منهما أنه لن يوقع على العقد إلا إذا وقع الطرف الثاني، عند ذلك يستحيل أن يتم التوقيع على العقد إلى يوم وفاتهما، إلا إذا تدخل مرجح بينهما وقدم أحدهما على الآخر؛ فيكون التوقيع ممكنا. وكذلك إذا تقدم اثنان لركوب السيارة واشترط كل منهما أن يركب الآخر قبله، فإن ركوب كل واحد منهما أمر ممكن بشرط وجود مرجح كالسائق، وأم مستحيل بغير وجوده.

والفلاسفة يستدلون لكلامهم العقلي بما استدل به المتكلمون الأشاعرة وهو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ﴾ الأنعام:٧٤/ ٧٦. والمعنى عند الفلاسفة لا أحبّ عبادة الممكن الجائز، لأن الإله الحق واجب الوجود، وهذا تأويل باطل، لا يدل على مراد الخليل إبراهيم عليه السلام.

ودليل الإمكان قد يكون دليلا مقبولا من جهة العقل عند السلف على اعتبار أنه دليل ضمن الأدلة الكثيرة التي لا حصر لها في إثبات حقيقة الفقر الذاتي للخلائق، وقيامها على معنى العبودية، وحقيقة الغنى الذاتي للخالق، واتصافه بمعاني الربوبية، واحتياج جميع الخلائق إلى ربهم، فهذا مقبول طالما أنه موافق للمعقول الصريح، ومثال ذلك ترجيح وجود الشمس في مكانها،

فيمكن أن تكون قريبة جدا من الأرض؛ فتقتل من عليها من شدة الحر، ويمكن أن تكون بعيدة جدا؛ تهلك من على الأرض من شدة البرد، فالذي وضعها في مكانها على هذا النحو هو الله .

وكان من الممكن في خلق الإنسان أن تكون عيناه في ظهره، أو بين شعر رأسه أو بطنه بدلا من وجهه، فهذه كلها ممكنات، لكن من خصصها هو الذي خلق العين ووضعها في أمان، وجعلها في أنسب مكان من الإنسان، وهذا دليل على مشيئته وقدرته، ورحمته وحكمته، ودليل على افتقار المخلوق في وجوده الذاتي إلى وجود الخالق الغني، وإقامته لمن سواه، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ (٦) ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ (٨) ﴾ الانفطار:٦/ ٨. وقال سبحانه: ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ (٨) وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ (٩) وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ (١٠) ﴾ البلد:٨/ ١٠.

• ما هو الرد على من فسر الأفول بالحركة والإمكان؟

أغلب الفرق الضالة من المتكلمين والفلاسفة والصوفية يأخذون كلمات القرآن والسنة، ثم يضعونها على معنى آخر كاصطلاحات يناقضون بها دين الله؛ ليُظهروا أنهم على شيء من كتاب الله، وهم ليسوا كذلك.

ومن ذلك استدلال الأشاعرة بقول إبراهيم ﷺ عن الكوكب لما أفل قال: لا أحب الآفلين. أن الأفول هو الحركة والتغير والانتقال، وكل متغير محدث، وهو استدلال باطل؛ لأن الأفول هنا بمعنى الغياب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على الأشعرية: (ودعواهم أن هذه طريقة إبراهيم الخليل في قوله: لا أحب الآفلين. كذب ظاهر على إبراهيم؛

فإن الأفول هو التغيب والاحتجاب باتفاق أهْل اللغة والتفسير، وهو من الأمور الظّاهرة في اللغة)[1].

ولو كان مراد إبراهيم عليه السلام بالأفول الحركة كما يزعمون لقال: لا أحب الآفلين. من وقت طلوع الكوكب، لأن الكوكب متحرك على الدوام، وإنما قال ذلك حين غاب واحتجب، والحجة التي أرادها إبراهيم عليه السلام بيان أن الإله لا يغيب، لاحتياج الخلائق إليه في كل لحظة، وهم وفقراء بذواتهم إليه، والإله غني بذاته يقضي حوائجهم، فكيف يغيب عنهم؟ وقول إبراهيم عليه السلام لهم عن الكوكب: هذا ربي. كان من باب التنزل مع الخصم في الجدال والمناظرة، وليس من قبيل البحث عن وجود الله من خلال الشك والنظر في وجود الله كما يتوهمون.

وما فعله الأشعرية في التفسير الباطل للأفول بالحركة، فعله الفلاسفة كابن سينا وأمثاله حين فسروا الأفول بمعنى الإمكان، وقالوا: إن ما هوى وسقط في حظيرة الإمكان، هوى في حظيرة الأفول، فالممكن آفل، والإمكان أفول ما، والآفل عندهم هو الذي يكون موجودا بغيره.

ومعلوم أن كلا القولين من باب تحريف الكلم عن مواضعه، سواء قول المتكلمين أو الفلاسفة، وإنما الأفول هو الغياب والاحتجاب، ليس هو الإمكان ولا الحركة، ومن ثم فإن كلام الفلاسفة في جعل الأفول بمعنى الإمكان أفسد من كلام المتكلمين في جعل الأفول بمعنى الحركة والتغير.

ومن الغريب أن يزعم بعضهم أن قول علماء السلف الصالح بأن الأفول

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥/ ٥٤٧.

على معنى الغياب، هو قول أهل الظاهر من العوام أصحاب الرتبة السطحية، وأن القول بأن الأفول هو الحدوث كما رأى المتكلمون، هو قول الخواص والأواسط من أهل الفهم والبصيرة، وأن القول بأن الأفول هو الإمكان، هو قول خواص الخواص وأصحاب الفهم العالي والتحقيق الراقي!

قال برهان الدين البقاعي: (قال لا أحب الآفلين. لأن الأفول حركة، والحركة تدل على حدوث المتحرك وإمكانه، فالخواص يفهمون من الأفول الإمكان، والممكن لا بد له من موجد واجب الوجود، يكون منتهى الآمال ومحط الرحال وأن إلى ربك المنتهى. والأوساط يفهمون منه الحدوث للحركة، فلا بد من الاستناد إلى قديم، والعوام يفهمون أن الغارب كالمعزول لزوال نوره وسلطانه، وأن ما كان كذلك لا يصلح للإلهية)[1].

وكلام البقاعي فيه ازدراء لعلماء السلف، وتنقيص لقدرهم، وادعاء أن كلام الفلاسفة والمتكلمين أعلم وأحكم من السلف المتقدمين، فإن تفسير الأفول بالغياب والغروب، هو المحفوظ عن سائر الصحابة والتابعين وأئمة السلف أجمعين، ومعلوم أنهم أفضل الناس فهما وعلما، وأعلاهم إيمانا واتباعا، وهم خير الناس، وخير القرون، ومن المحال يكونوا غير عالمين أو غير قائلين في كتاب الله بالحق المبين، ولا يجوز أن يكون أتباع أرسطو وأفلاطون، أعلم من الصحابة أجمعين، كما يزعم من لم يقدرهم حقهم، ويدعي أن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم. وهذا القول الذي فيه تقديم كلام الفلاسفة والمتكلمين على طريقة السابقين الأولين أتباع

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي ٢/ ٦٥٩.

خاتم النبيين، إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة، بل في غاية الضلالة.

• ما المقصود بدليل التمانع الذي يحتج به الأشعرية؟

الأشاعرة يثبتون توحيد الربوبية بدليل التمانع، وخلاصته أنه لو كان للعالم ربان صانعان؛ فعند اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم، وآخر يريد تسكينه، أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته، فإما أن يحصل مرادهما، أو مراد أحدهما، أو لا يحصل مراد واحد منهما، والأول ممتنع لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون، وهو ممتنع، ويستلزم أيضا عجز كل منهما، والعاجز لا يكون إلها، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان هذا هو الإله القادر والآخر عاجزا لا يصلح للإلهية، فيتعين أن الرب هو الذي يحقق مراده من غير ممانع ولا مدافع، هذا دليل التمانع عند الأشعرية، وهو دليل عقلي من إنشائهم، يحتجون له على زعمهم بقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الأنبياء:٢٢.

واستدلالهم باطل؛ لأن التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، هو توحيد العبادة المتضمن لتوحيد الربوبية، فالإله هو المعبود بحق، وفساد الأرض بسبب الشرك في العبادة، وليس بسبب الشرك في الربوبية كما يظن الأشعرية، فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بالربوبية، وأن خالق السماوات والأرض واحد كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ العنكبوت:٦١.

ومثل هذا في القرآن كثير، ولم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الأمم، من الهند

والترك والبربر وغيرهم، تارة يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والصالحين، ويتخذونهم شفعاء ويتوسلون بهم إلى الله، وهذا هو أصل شرك العرب، ونحن لو نظرنا في الآية التي يحتجون بها على دليل التمانع، ودققنا فيما قبلها وما بعدها، لوجدناها تتحدث عن توحيد العبادة لله صراحة، وليس لتقرير أن الكون له رب واحد .

• لماذا قامت الخلائق على معاني الشفعية والزوجية؟

أقام الله الخلائق على معاني الزوجية والشفعية لينفرد سبحانه وتعالى بالوحدانية والأحدية والوترية، وليفتقر كل منهم إلى الآخر، فيقروا بالتوحيد في عبوديتهم إلى ربهم، ويعودوا بفقرهم إلى خالقهم؛ لأنه الغني بذاته في كل اسم له، أو وصف، أو فعل، وألا يستغنوا عنه بقوتهم التي منحها لهم، أو يخرجهم طغيانهم عن حدود فقرهم. قال تعالى في بيان حقيقة قيام الخلائق على الزوجية: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ الذاريات:٤٩. وقال: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ النجم:٤٥.

والوترية هي انفراد الله ﷻ بصفاته، فهو العزيز بلا ذل، والقدير بلا عجز، والقوي بلا ضعف، والعليم بلا جهل، وهو الحي الذي لا يموت، والقيوم الذي لا ينام، أما الخلائق فهي قائمة على الزوجية، بين حياة وموت، وقوة وضعف، وقدرة وعجز، وإتيان ونزع، وعز وذل، وعلم وجهل، وفقر وغنى، وعقم وإنجاب، بحيث تتردد الحياة بين السلب والإيجاب، ومعاني الفقر الذاتي والغنى الذاتي.

ثم إذا أيقنوا بفقر من لجئوا إليه دون الله، وأنه لو أعطاهم مرة فلن يعطيهم

مرة أخرى، علموا أنهم فقراء لجئوا إلى فقراء أمثالهم، وأن الفقير لا يلجأ إلى فقير، وأن الصغير لا يستند إلى صغير، بل لا بد من غني كبير، يبتغون عنده العزة والرزق، وكل ألوان العبادة له وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ الأعراف:١٩٤.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ العنكبوت: ١٧. وفي مقابل توحيدهم لله في العبودية وحدوا الله في الربوبية، فكان لهم ربا واحد أحدا، وترا صمدا قويا غنيا قديرا عليا، له الأسماء الحسنى والصفات العليا، يدعونه ويركنون إليه.

• ما العلاقة بين مشيئة العبد في الدنيا والآخرة بمشيئة الله؟

إن الله ﷻ يخلق ما يشاء، وهو على كل شيء قدير، خلق الإنسان بقدره وأماته وأحياه بحكمته، فاقتضت حكمته أن تكون مشيئة الإنسان في الدنيا معلقة بمشيئة الله، بحيث إذا أراد العبد شيئا عاد بفقره إلى مولاه، إما اضطرارا، وإما اختيار، فالعاقل المختار إذا علم ذلك وأراد شيئا في هذه الحياة استعان بالله، وفوض أمره إليه، وتوكل عليه، ورد حوله وقوته إليه، ليقينه أن مشيئته لن تتحقق إلا إذا شاء الله سبحانه تحقيقها.

والسبب في كون تحقيق مراد العباد في الدنيا متوقف على مشيئة الله ابتلاء الله لهم، فقد استخلفهم في أرضه، واستأمنهم في ملكه، ليبلوهم أيهم أحسن عملا، فإذا علم العبد ذلك استسلم لربه، وعاد بفقره إليه، مسَلّما له ما

استرعاه، مطيعا له فيما استأمنه وخوله، فيعطيه الله ما يريد، ويحقق له مطلبه.

وقد ثبت في الحديث القدسي الذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا إلى النبي ﷺ: (وما تقرب إلى عبدي بشيءٍ أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه) [1].

ولما كانت العلة في الدنيا هي الابتلاء، وهي دار تعب وكبد، ولا يحقق الإنسان فيها ما يشاء إلا إذا شاء الله، فإن الآخرة جعلها الله ﷻ دارا للبقاء والجزاء، وجعل الجنة فيها دار القرار والنعيم المقيم، ومن ثم اقتضت حكمة الله أن يكون تحقيقه لمراد أهل الجنة معلقا بمشيئتهم، فما من نعيم يطلبونه إلا ويخلقه لهم في توال مستمر، خالدين فيها أبد، قال تعالى: ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾ الفرقان:١٥/١٦.

وكما اقتضت حكمة الله أن يكون تحقيقه لمراد أهل الجنة معلقا بمشيئتهم، فإن حكمته اقتضت أيضا أن يكون تحقيقه لمراد أهل النار معلقا على عكس مشيئتهم، تبكيتا لهم، وإظهارا لعدله فيهم.

وإذا كانت قدرة الله مظهرة لمشيئته، والكون كله بقضائه وقدره، فإن حكمته اقتضت أن يتقلب الخلائق بين فضله وعدله، فتحقيق المراد لأهل الجنة علقه الله بمشيئتهم إكراما لهم، وإظهارا لمحبتهم، بعكس الوضع في الدنيا فتحقيق المراد لأهل الدنيا علقه الله بمشيئته لا بمشيئتهم، ابتلاء لهم

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع ٥/ ٢٣٨٤ (٦١٣٧).

وإظهار لإيمانهم فسبحانه وتعالى من قدير حكيم.

- **ما معنى اسم الرب وما دلالته على أوصاف الله؟**

الرب في اللغة هو الذي يربي غيره، وينشئه شيئا فشيئا، فوصف الرب يكون لمن أنشأ الشيء حالا فحالا إلى حد التمام، أو من قام على إصلاح شئون الغير ورعاية أمره بانتظام. والرب يطلق على المالك فرب الدار مالكها، ويطلق على السيد المطاع، وعلى المصلح والمدبر والقائم على رعاية غيره، ويطلق الرب أيضا على المعبود.

والرب عند الإضافة يقال لله ولغيره، نحو رب الدار، ورب الفرس أي صاحبها، أما عند الإطلاق فلا يقال إلا لله تعالى الذي تكفل بمصلحة الموجودات، وتدبير أمورهم، فالرب سبحانه هو المتكفل بخلق الموجودات وإنشائها، والقائم على هدايتها ورعايتها وإصلاحها، وهو الذي نظم معيشتها ودبر أمرها.

واسم الرب يدل على ذات الله وعلى صفة الربوبية بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى الصفة وحدها بالتضمن، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية، والسمع والبصر والعلم والمشيئة والقدرة، والملك والغنى والقوة والعزة، والإحياء والهداية والإبقاء، والرزق والإمداد والعطاء، والرعاية والإحاطة والرحمة والخبرة والحكمة، وكل ما يلزم لتخليق الشيء وتصنيعه، وإيجاده واختراعه، فصفة الخالق أن يستغني بنفسه فلا يحتاج إلى غيره، وأن يفتقر إليه كل من سواه.

واسم الله الرب يدل باللزوم أيضا على انفراد الله ﷻ بتدبير أمر المخلوقات

وتقدير أحوالهم، والقيام على شئونهم، والعناية واللطف بهم، والهداية إلى ما يصلحهم، والقضاء والحكم بينهم، وتهيئة الكون لتحقيق الغاية من خلقهم، وغير ذلك من صفات الكمال.

ومعنى الربوبية في النصوص القرآنية يقوم على معنيين جامعين دل عليها قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ الأعراف:٥٤. وقوله تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ الزمر:٦٢. ومثل ذلك في القرآن كثير.

المعنى الأول: إفراد الله بالخلق والتقدير، وإنشاء الشيء من العدم، ومن ثم إفراده بلوازم ذلك من الصفات الإلهية كالعلم والمشيئة والقدرة، والملك والغنى والقوة، وكل ما يلزم من صفات الذات والأفعال لتخليق الشيء وتصنيعه، وإيجاده واختراعه.

المعنى الثاني: إفراد الله بتدبير أمر المخلوقات والعناية بهم، وتقدير أحوالهم، والقيام على شؤونهم، والفصل والقضاء والحكم بينهم، لتحقيق الغاية من خلقهم، وذلك من خلال نوعين من تدبير الله: نوع يتعلق بالقدرة وإظهار معاني الربوبية، وهو الأمر الكوني، ونوع يتعلق بالحكمة وإظهار معاني العبودية، وهو الأمر الديني أو الأمر التعبدي الشرعي.

- **ما هي اللوازم المترتبة على إفراد الله بالخلق والتدبير؟**

إذا كان توحيد الربوبية قائما على ركنيين اثنين، ومرتبط بالمعنيين السابقين، فإن كثيرا من المعاني المتعلقة بالربوبية تظهر كلوازم ضرورية، تفيض من هذين الركنين، ويتمثل أبرزها فيما يلي:

١ – أول اللوازم إفراد الله بالملك، فمن المعلوم بالضرورة العقلية أن الذي يصنع الشيء ويبتدعه، أو ينشئه ويخترعه، له فيه حق الملكية والحرية، ولما كان الله منفردا بالخلق والتدبير؛ فإنه أيضا ينفرد بالمُلك والملكِيّة، وقد بين الله ﷻ في تقرير انفراده بالملك كلازم لانفراده بالخلق والتدبير، فساد جميع الوجوه التي يتذرع بها المشركون في شركهم فقال: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ سبأ:٢٢/ ٢٣.

وإذا كان صانع الشيء ومخترعه ومؤلفه هو مالكه المتصرف فيه، ولو اعتدى أحد عليه بسلب ملكه ونسبته إلى نفسه دونه، سواء بالفعل أو بالادعاء، لكان ظالما مدعيا ما ليس له بحق، مستوجبا أشد العقاب، فالله ﷻ وله المثل الأعلى لما كان منفردا بالخلق والتكوين، لا يشاركه في ذلك أحد، وكان الملك ملكه والحق حقه، فإنه من الظلم العظيم والشرك المبين أن يدعى أحد من الخلق ما ليس له بحق من معاني الربوبية، كما فعل فرعون وقارون والنمرود، أو ينسب لنفسه الملك على وجه الأصالة، لا على وجه الأمانة والامتحان، فالإنية الشركية كانت ولا تزال مصدرا لهلاك الأمم.

٢– من اللوازم المترتبة على إفراد الله بالخلق، إفراده بمراتب القضاء والقدر، فمن المعلوم أن المُصنِّع الذي يشيد البنيان، لا بد أن يبدأ مشروعه أولا بفكرة وتصور في الأذهان، ومعلومات مقننة بدقة وإتقان، درسها جيدا وقام فيها بتقدير حساباته، وضبط أموره وإمكانياته، ثم يقوم بكتابة تلك المعلومات، ويخط لها في بضع ورقات أنواعا من الرسومات التي يمكن أن يخاطب من خلالها مختلف الجهات، ثم يتوقف الأمر بعد ذلك على مشيئته

وإرادته في التنفيذ وتوقيت الفعل، هذا إن توفرت لديه القدرة والإمكانيات، ثم يبدأ التنفيذ إلى أن ينتهي البنيان كما قدر له في الحسبان، فتلك مراحل تصنيع الأشياء بين المخلوقات بحكم ما وضعه الله فيها من أسباب وعلل ومعلولات على تقدير وصف الحكمة في المخلوق، فالله سبحانه وتعالى وله المثل الأعلى منفرد بمراتب القضاء والقدر، وهى عند المتبعين لمنهج السلف المراحل التي يمر بها المخلوق من كونه معلومة في علم الله ﷻ في الأزل إلى أن يصبح واقعا مخلوقا مشهودا، وهى عندهم أربع مراتب تشمل كل صغيرة وكبيرة في الوجود. قال ابن قيم: (مراتب القضاء والقدر التي من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر أربع مراتب: المرتبة الأولى علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها، المرتبة الثانية كتابته لها قبل كونها، المرتبة الثالثة مشيئته لها، والرابعة خلقه لها) [1].

٣- من اللوازم المترتبة على إفراد الله بالأمر والتدبير إفراده بنوعين من التدبير في خلقه، الأول تدبير كوني خلق به جميع الموجودات، ومتمثل في مشيئة الله، وإرادته الكونية، وقضائه الكوني، وهذا التدبير لا يمكن أن يرد، أو يتخلف وقوعه.

أما النوع الثاني من التدبير فهو تدبير شرعي ديني يخص الإنس وسائر المكلفين، وموضوع لصالحهم، ومتعلق بمشيئتهم، ويمكن أن يُرد وأن يتخلف وقوعه، ويلزمهم فيه إفراد الله ﷻ بالعبودية، والعمل بالشريعة الإسلامية، على اعتبار أنهم ممتحنون مبتلون أمناء في الأرض مستخلفون، وهذا يتطلب بالضرورة منهجا يسيرون عليه وصراطا مستقيما يلتزمون به،

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٢٩.

وعقيدة يؤمنون بها، ويهتدون بنورها.

• اذكر بعض أقوال السلف في التعرف على وجود الله؟

طريقة السلف في التعرف على وجود الرب وتوحيد الربوبية، هي طريقة الأنبياء والرسل، وهي طريقة الفطرة في إثبات الفقر الذاتي لمن أوجد هذا العالم، وهو الله الغنى بذاته.

روى عن أبي حنيفة رحمه الله أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى، فقال لهم دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه، ذكروا لي سفينة في البحر كبيرة، فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء، وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتى تخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها، من غير أن يسوقها أحد، فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع، فبهت القوم ورجعوا إلى الحق، وأسلموا على يديه.

وسئل الشافعي رحمه الله عن وجود الخالق ﷻ فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد، تأكله الدود فيخرج منه الحرير، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاه والبقر والأنعام، فتلقيه بعرا وروثا، وتأكله الظباء فيخرج منه المسك، وهو شيء واحد.

وسئل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن ذلك، فقال هاهنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره، فخرج منه حيوان سميع بصير،

ذو شكل حسن، وصوت مليح.

وقال أحد السلف لرجل: أخبرني عن أمر الله ﷻ أيه أعجب؟ فقال: وأيه ليس بأعجب فأخبرك بأعجبه؟ قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الطور:٣٥/ ٣٦.

• ما أهمية الإيمان بعلو الفوقية في فهم توحيد الربوبية؟

الإيمان بالاستواء على العرش وعلو الذات والفوقية له أهمية عظمى في فهم توحيد الربوبية، وإفراد الله ﷻ بالخلق وتدبير الأمر، فالمعطلة الذين نظروا إلى إثبات الاستواء نظرة ضيقة باطلة من خلال قياسهم الخالق على المخلوق بقياس تمثيلي أو شمولي، تصوروا أن ظاهر النصوص الواردة في إثبات حقيقة استواء الرحمن على عرشه، هو بعينه ما يصدق على استواء الإنسان على عرش، وبسبب هذه النظرة الباطلة زعموا أن ظاهر النصوص يدل على التشبيه والجسمية، ولا بد من تعطيله وتأويله بأي وسيلة كلامية، فقالوا في الاستواء، استيلاء وقهر، وجمعوا بين الظن السيئ في كلام ربهم وتعطيلهم له، إذ فهموا كلام الله ﷻ على غير مراده، واعتقدوا فيه التمثيل، ثم حرفوا الكلم عن مواضعه بالتأويل الباطل، واعتقدوا في النصوص التعطيل.

وإذا كانت قضية الاستواء وإثبات علو الذات والفوقية قد أخذت جهدا كبيرا في دفع شبهات المبتدعة وآرائهم العقلية، وإثبات ما دلت عليه الأصول القرآنية والنبوية؛ فإنه من الأهمية بمكان تناول قضية الإيمان بعلو الذات والفوقية من جانب توحيد الربوبية، حتى يظهر مدى التوافق في العقيدة السلفية بين إيمانهم بتوحيد الأسماء والصفات من جهة، وتوحيد الربوبية من

جهة أخرى.

وبيان ذلك إن ملوك الدنيا مع أن ملكهم محدود زائل، واستحقاقهم للملك إنما هو من الله الملك الحق، منة منه لهم على سبيل الأمانة والابتلاء، والاستخلاف والاسترعاء، فهو سبحانه الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، إلا أن ملوك الدنيا يبالغون في الحفاظ على عروشهم، ويجعلون قصورهم في الأماكن المرتفعة فوق الماء، ويفتخر كل منهم بأنه صاحب العرش والسلطة والقوة والهيمنة، فأعلاهم استكبارا الطاغوت الأكبر إبليس، لما نزل هذا الخبيث إلى الأرض، نصب لنفسه عرشا على الماء؛ ليتشبه باستواء الله على عرشه في السماء، بحيث يكون هو المعبود بالباطل والشرك في مقابل المعبود بحق، فجعل نفسه إلها لأتباعه ومن على شاكلته، وقرب إليه من كان من حزبه وطريقته.

روى مسلم من حديث جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِن إِبْليس يضعُ عرْشهُ على الماءِ، ثمّ يبْعثُ سراياهُ، فأدْناهُمْ مِنهُ منزِلةً أعْظمُهُمْ فِتْنةً) [1].

وقد أصبح الشيطان رأس الطواغيت، ومؤسس سبل الطغيان، لكل ملك ظالم من بني الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ النساء:٧٦.

والإنسان في دار الابتلاء بالخيار بين عبودية الملك الحق الذي استوى على عرشه فوق الماء في السماء، وعبودية الطاغوت أو الشيطان الذي نصب عرشه على الماء في الأرض.

(١) مسلم في صفة القيامة، باب تحريش الشيطان ٤/ ٢١٦٧ (٢٨١٣).

ومن عظمة العرش ودلالته على إثبات الملك، أن العرش ذكر في سورة النمل في قصة سليمان مع الهدهد ست عشرة مرة، فكل ملك من الملوك يتخذ لنفسه عرشا عظيما يدل على منزلته وقدره، فشتان بين عرش وعرش، وقد فرق الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الرحمن.

وإذا كان هذا حال ملوك الدنيا في حماية عروشهم وقصورهم ووضعها في الأماكن المرتفعة على الماء، وهم يعدون ذلك كمالا في حقهم، فإن الله ﷻ الذي وهب الكمال لخلقه أولى أن نؤمن بما أثبته لنفسه في علوه على خلقه، واستوائه على عرشه، وما وصف به العرش من أنواع الكمال اللائق بعرش رب العزة والجلال.

وقد وصف عرشه بالعظمة في مقابل تولي الخلق وكفرهم، فهو رب العرش العظيم، لأنه لما كان الاستواء على العرش دليلا على تولي أمور الملك، فلو أعرض الناس عن ملِك من ملوك الدنيا خلعوه من عرشه، ونصّبوا غيره، لأنه ما وصل إلى الملك إلا بهم، سواء بانتخاب أهله وعشيرته، أو حزبه وجماعته، أما ملك الملوك لو أعرض عنه سائر الخلق فالزوال لهم والبقاء لله وحده.

وملك الملوك على عرشه لا يأمر إلا لمصلحة تعود على رعيته، لأنه غني كريم عزيز رحيم، محسن إلى عبده لعلمه أنه فقير بذاته، وأنه لا غني لذاته إلا هو سبحانه، ومن ثم يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحسانا، ولطفا وإنعاما، ولهذا كانت جميع أوامر الله خير للإنسان، ولا يكون شر فيها أبدا، كما ورد عند مسلم من حديث علي ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لبّيْك وسعْديْك، والخيْرُ كُلهُ فِي

يديْك، والشّرُّ ليْس إِليْك) [١] .

أما ملوك الأرض فلو أمروا بأمر، فالغالب على أوامرهم مراعاة مصالحهم قبل مصالح رعيتهم، وقضاء حاجاتهم والثناء عليهم قبل تحقيق مطالب رعيتهم، فالملك الرب من فوق عرشه إنما يريد الإحسان إليك لا لمنفعته، ويريد دفع الضرر عنك، فكيف لعاقل أن يعلق أمله ورجاءه وخوفه بغير الله. وإذا كان ملوك الدنيا يبادرون المخالف بالعقوبة فور وقوع المخالفة، وربما يحاسبونه قبل وقوعها بقانون الطوارئ والاشتباه، بل ربما يظل الإنسان مسجونا ظلما بغير ذنب وينتظر العفو بغير جدوى، أما ملك الملوك القدير من فوق عرشه حكيم في صبره على أذى رعية، كما روى البخاري من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: (ليْس أحدٌ أصْبر على أذى سمِعهُ مِن الله، إِنهُمْ ليدْعُون لهُ ولدًا، وإِنهُ ليُعافِيهِمْ ويرْزُقُهُمْ) [٢] .

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ الشورى٢٥.

ومن أعجب ما يرى المرء ما يحدث من أمور الشرك، والله ﷻ من فوق العرش يصبر على المشركين ويعافيهم ويرزقهم، فربما تجد من بعض الرعية من يتركون عبادة الملك الجبار رب العزة والجلال، ويشركون معه غيره، أو يعبدون المخلوق على سبيل الاستقلال، ويهتفون باسمه في الغدو والآصال، ويسألونه قضاء حوائجهم، بل يعتقد بعض المغالين منهم أن بعض الأولياء

(١) مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ١/ ٥٣٤ (٧٧١) .

(٢) البخاري في كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى ٥/ ٢٢٦٢ (٥٧٤٨).

هو المتصرف في الكون، والمدبر له في كل حال، وقد ضربوا عليهم القباب وزخرفوها، وحبسوا عليها العقارات والأموال وأوقفوها، وجعلوا لها النذور والقربات، ووقتوا لها المواقيت زمانا ومكانا، وصنفوا فيها المناسك في حج المشاهد، وحجوا إليها أكثر مما يحجون إلى بيت الله الحرام، بل رأوها أولى بالحج منه، ورأوا من أخل بشيء من مناسكها أعظم جرما ممن أخل بشيء من مناسك الحج، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وإذا كان هذا شأن الملك فيمن عصاه، فكيف يكون شأنه ورأفته بمن أطاعه، إن الله ﷻ رفيق بعباده، قريب منهم، يغفر ذنوبهم، ويتوب عليهم، وهو الذي تكفل بهم من غير عوض أو حاجة، فيسر أسبابهم، وقدر أرزاقهم، وهداهم لما يصلحهم، فنعمته عليهم سابغة، وحكمته فيهم بالغة، يحب عباده الموحدين، ويتقبل صالح أعمالهم، ويقربهم، وينصرهم على عدوهم، ويعاملهم بعطف ورحمة وإحسان، ويدعو من خالفه إلى التوبة والإيمان، فهو الرفيق المحسن في خفاء وستر، يحاسب المؤمنين بفضله ورحمته، ويحاسب المخالفين بعدله وحكمته، ترغيبا لهم في توحيده وعبادته ليدخلوا في طاعته، والله رفيق يتابع عباده في حركاتهم وسكناتهم، ويتولاهم في حلهم وترحالهم، بمعية عامة، ومعية خاصة.

الفصل الثاني

مراتب القدر وأنواع التقدير

• لماذا ارتبط فهم السلف للقضاء والقدر بتوحيد الربوبية لله؟

ارتبطت عقيدة المسلمين في الإيمان بالقضاء والقدر بتوحيد الربوبية؛ لأن توحيد الربوبية هو إفراد الله بأفعاله، ومفعولات الله لا تكون إلا بقضاء وقدر، والإيمان بالقضاء والقدر أحد أركان الإيمان الستة المتعلقة بتصديق خبر الله ﷻ، فأركان الإيمان حددها رسول الله ﷺ بستة أركان معلومة، وردت فيما رواه مسلم من حديث عمر رضي الله عنه مرفوعا: (قال فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت) [1].

والشاهد أن أركان الإيمان التي ذكرها رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام وهو في صورة الأعرابي أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، وقد صدقه جبريل عليه السلام على ذلك، ومنها الإيمان بالركن الأخير، وهو الإيمان بالقدر خيره وشره، وتأخير هذا الركن ليكون سادس الأركان فيه دلالة على أنه لن يخرج عن قدر الله أحد، فالقدر فعل الله ﷻ في خلقه، والإيمان بالله إيمان بأسمائه وصفاته وأفعاله، وهذا أول ركن من أركان الإيمان، فالبداية منه تقديرا وتدبيرا، والتمام عليه خلقا وقدرا مقدورا.

---

(١) مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/ ٣٦ (٨).

ولذلك فإن هذه الأركان حملت في ترتيبها معنى مقصودا يدل على الجمع بين قدرة الله ﷻ وحكمته، فالمعنى الموضوع بين أركان الإيمان، أن تؤمن بالله الذي أنزل ملائكته بكتبه على رسله، ليحذروا العباد في دار الابتلاء من اليوم الآخر في دار الجزاء، فإذا انتهى الناس بعد العرض والحساب، واستقروا في الآخرة للثواب والعقاب، عندها يتم قدر الله ﷻ كما قدره في أم الكتاب، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

وتلك حقيقة الإيمان بالقدر خيره وشره، روى مسلم من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة) [١]. وروى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه أن سراقة بن مالك رضي الله عنه قال: (يا رسول الله، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن؟ فيما العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما نستقبل؟ قال: لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير. قال: ففيم العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسرٌ لعمله) [٢].

ومن ثم فإن توحيد الربوبية هو أساس الفهم السلفي الصحيح لقضية الإيمان بالقضاء والقدر؛ لأنه مبني على إفراد الله بالخالقية، وما يلزمها من صفات الله كالعلم والإرادة والقدرة، فيستحيل عندهم حدوث شيء أو وقوع فعل بدون تقدير الله وقدرته، فلا يخرج عن قدرته مقدور، ولا ينفك عن حكمه مفطور، ولا يعذب عن علمه معلوم، ولا يجرى في سلطانه إلا ما يشاء، ولا يحصل في ملكه إلا ما سبق به القضاء، فهو سبحانه وتعالى عالم بما

---

(١) مسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى ٤/ ٢٠٤٤ (٢٦٥٣).

(٢) السابق، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه ٤/ ٢٠٤٠ (٢٦٤٨).

كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

ومن شروط صحة إيمان العبد أن يصدق بجميع أقدار الله تعالى خيرها وشرها، وأنها من الله تعالى، سابقة في علمه، جارية في خلقه بحكمه، فلا حول لهم عن معصيته إلا بعصمته، ولا قوة لهم على طاعته إلا برحمته، ولا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولا نفعا إلا بمشيئته.

- **ما المقصود بمراتب القضاء والقدر عند أهل السنة؟**

مراتب القضاء والقدر عند أهل السنة هي المراحل التي يمر بها المخلوق وينتقل من كونه معلومة في علم الله ﷻ وتقديره إلى أن يكون مخلوقا واقعا بقدرة الله ومشيئته.

ولنضرب لذلك مثلا بقياس الأولى، وهو القياس الوحيد الجائز في الغيبيات ولله المثل الأعلى، فمن المعلوم أن الإنسان الذي ينشئ المشروعات العملاقة، لابد أن يبدأ مشروعه أولا بتخطيط محكم في الأذهان، ومعلومات مقدرة مقننة ومحسوبة بدقة وإتقان، ولا بد أن يكون قد درسها جيدا وقام فيها بتقدير حساباته، وضبط أموره وإمكانياته، ثم يقوم بعد ذلك بكتابة تلك المعلومات، ويخط لها أنواعا من الرسومات في بضع ورقات أو مجموعة من الملفات، حتى يمكنه أن يخاطب من خلالها مختلف الجهات، فصاحب البناء لا بد له من موافقة المسئول في المحليات أو البلديات، فإذا شاء له البناء أذن له، وإن لم يشأ رفضه.

ثم يتوقف الأمر بعد ذلك على مشيئة الشخص في الإنشاء، وإرادته في تنفيذ مشروعه والقيام بتصنيعه، واختياره توقيت الفعل المناسب إن توفرت

لديه القدرة والإمكانيات، فكم من مشروع يفشل بسبب العجز في القدرة، فإن كانت لديه القدرة نفذ ما يشاء من غير تأخير وإلا طلب المشاركة من الآخرين، فأصبح المشروع مِلكا مشتركا لمن يرغب من المساهمين، وكل منهم حسب قدرته، وقوة أسهمه التي سيشارك بها في المشروع، ثم يبدأ صاحب المشروع في التنفيذ شيئا فشيئا إلى أن ينتهي البنيان كما تصوره ورتبه في مخططه، فهذه مراحل تصنيع الأشياء المتقنة بين العقلاء، وكلما كان العلم أكمل وأدق، والقدرة أتم، كانت الصنعة في جودتها وإتقانها أعلى وأفضل.

وإذا كانت تلك المراتب ومراحل التصنيع تعد كمالا لدى المخلوق، ولابد في هذا الكمال من العلم والكتابة والمشيئة والتنفيذ أو القيام بعملية التصنيع، فالله سبحانه وتعالى وله المثل الأعلى أولى من المخلوق في هذا الكمال، لاسيما أنه أخبرنا في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ أنه قدر أمور الخلائق قبل كونها، ثم كتبها في اللوح المحفوظ، ثم شاء كونها كما قدرها، ثم خلقها بقدرته المطلقة، فهو سبحانه منفرد بمراتب القضاء والقدر، وهى عند السلف الصالح المراحل التي يمر بها المخلوق من كونه معلومة في علم التقدير، إلى أن يكون مخلوقا واقعا بمشيئته الله وقدرته، وهى عندهم أربع مراتب تشمل كل صغيرة وكبيرة في الوجود.

قال ابن القيم رحمه الله: (مراتب القضاء والقدر التي من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر أربع مراتب: المرتبة الأولى علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها، المرتبة الثانية كتابته لها قبل كونها، المرتبة الثالثة مشيئته لها، والرابعة خلقه لها) [1].

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٢٩.

• ما هي الأدلة النقلية على أن علم التقدير من مراتب القدر؟

دلت الأصول القرآنية والنبوية على أن تقدير أمور الخلائق تمت في علم الله ﷻ قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة، لما رواه الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث عبد الله بن عمرو ؓ أنه سمع النبي ﷺ يقول: (قدر الله المقادير، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)[1].

والعلم المتعلق بما قدره الله من أمور الخلائق هو علم التقدير، وهو علمه تعالى بما سيكون، وهو نوع من علم الغيب الذي دون في اللوح المحفوظ، والذي فيه تفصيل ما سيكون من الخلائق بقدرة الله ﷻ، وما سينشأ من أحداث قدر الله وقوعها، فهو سبحانه قدرها ثم كتبها في اللوح، دل على ذلك ما رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو ؓ أنه سمع النبي ﷺ يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وعرشه على الماء)[2].

ومن هنا نعلم أن الكهان والعرافين والمنجمين كاذبون على رب العالمين في إدعائهم علم الغيب، وإخبارهم بما سوف يحدث للإنسان، لأنهم لا يخلقون شيئا في الملك، وليس لهم شركة مع الله ﷻ في إنشاء الخلق، وليس لهم شيء في تدبير الأمر، فهو الذي يملك الخلائق ويتصرف فيها كما يشاء، ولم يجعل لولي، أو شيخ، أو شهيد، أو إمام، أو حتى نبي، أو ملك، أو جني أن يطلعوا على الغيب متى شاءوا، بل الله ﷻ قد يطلع من يشاء على ما يشاء متى يشاء، لا يجاوز علمهم ما أراد الله إطلاعهم عليه مثقال ذرة، بل ذلك خاضع لإرادة

---

(١) رواه الترمذي في كتاب القدر ٤/ ٤٥٨ (٢١٥٦)، وانظر صحيح الجامع (٤٣٨٠).

(٢) مسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى ٤/ ٢٠٤٤ (٢٦٥٣).

الله تعالى لا لأهوائهم. قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ الأعراف:١٨٨.

- **ما مراتب علم الله وتعلقاته بأنواع معلوماته ومخلوقاته؟**

اتفق أهل السنة والجماعة على مراتب العلم الإلهي، وهي علم الله تعالى بما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. قال ابن كثير: (وهو تعالى العالم بما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة)[1].

ونظرا لأهمية هذه العقيدة المتعلقة بعلم الله ﷻ وتعلقه بمعلوماته، يمكن بيان مراتب العلم الإلهي على النحو التالي:

١- علمه بالشيء قبل كونه: وهو علم التقدير، وما سيقع بقدرة القدير، وهو سر الله ﷻ في خلقه، أخفاه ربنا سبحانه وتعالى فلا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهو المراد بقولهم: عالم بما سيكون. وهو المقصود بالمرتبة الأولى من مراتب القدر، وهو علم مفاتيح الغيب وتقدير الأمور.

٢- علمه بما لم يكن لو كان كيف يكون، وهو علمه بما لم يقع من خلق جديد، لو أنه قدره كيف سيكون شأنه، ويدخل فيه علمه بما في اللوح بعد كتابته، وقبل إنفاذ مشيئته، فالله ﷻ كتب مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ

---

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٣٤١، ٣/ ٤٠٥.

قبل أن يخلقهم، فالمخلوقات في اللوح عبارة عن كلمات، وتنفيذ ما في اللوح من معلومات تضمنتها تلك الكلمات مرهون بمشيئته في تحديد الأوقات المناسبة لأنواع الحكم والابتلاءات، وكل ذلك عن علمه بما في اللوح من حسابات وتقديرات، فتلك الكلمات قضاها الله ﷻ بحكمه المبرم أنها ستقع لا محالة كما قدرها، وإن لم يتحقق وقوعها بعد.

٣- علمه بما هو كائن، وهو علمه بالشيء حال كونه وتنفيذه، وتخليقه وتصنيعه، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ الحديد:٤. وقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ النجم:٣٢.

وينبغي أن يعلم أن علم الله تعالى واحد؛ لأنه وصف ذاتي قائم بالموصوف ومن لوازم كماله، فلا يتبدل ولا يتغير، وإنما تتبدل الأحوال التي للمعلوم، حيث تتغاير المعلومات، ولا يتغير العلم ولا العليم، ولا القدرة ولا القدير، والأمر في ذلك متعلق بصفة التقدير، وفعل التقدير هو الذي يتعلق بمشيئة الله، ووقوع المقدر الذي ارتبط وقوعه بزمان ومكان.

٤- علمه بالشيء بعد كونه وتخليقه وإحاطته الشاملة والكاملة بعد تمامه وانتهائه، وهو قولهم: عالم بما كان. قال الله ﷻ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ الأنعام:٥٩.

وقد تضمنت هذه الآية علم التقدير، وهو العلم التفصيلي اللازم لتخطيط

عملية إنشاء كل ما في البر والبحر، وكل حبة في ظلمات الأرض، وكل ورقة تنمو على شجرة، ثم علمه بها بعد أن رفع القلم عن كتابتها في اللوح كقضاء مبرم سوف ينفذ لا محالة، ثم علمه بها حال إنشائها وظهورها وخلقها حتى اكتمالها، ثم إمدادها بمقومات حياتها، ثم علمه بها عند انتهائها وسقوطها واضمحلالها، ولذلك عبر بقوله: وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولم يقل: وما تنشأ من ورقة، لأن سقوطها يتضمن مراتب العلم في تعلقها بمعلوماتها.

وقد بين الله ﷻ بعد هذه الآية التي تتضمن الدلالة على مراتب العلم وتعلقاته، أنه لما خلق عباده لم يخلقهم، وينعزل عنهم، بل تولاهم، وهو عليم بحالهم في ليلهم ونهارهم، أحاط بما كسبته جوارحهم، وكتبها عليهم كتابة أخرى تحقق الحكمة عند حسابهم. قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ الأنعام:٦٠.

• بين وجه ارتباط علم الله بالقدرة والتقدير والحكمة والتدبير؟

لما كان توحيد الربوبية في القرآن والسنة يقوم على إفراد الله بالخلق والقدرة التقدير، وإفراده بالحكمة والتدبير،كان العلم الإلهي متعلقا أيضا بهذين الركنين، فإما يرتبط بالخلق والقدرة والتقدير لإظهار ما جرت به المقادير، وهو العلم السابق المسمى بعلم التقدير، أو يرتبط بالحكمة والتدبير وإظهار العدل والفضل في ابتلاء العباد وتكليفهم، واختبارهم في الاختيار والتيسير لما خلقهم الله له، وهو علم الإحاطة والتدبير.

ولذلك إذا ذكرت معاني الخلق والقدرة والإنشاء وباقي معاني الربوبية

اقترن اسمه العليم باسمه القدير في أغلب مواضع القرآن، كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ الروم:٥٤.

وقوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ الشورى:٤٩/ ٥٠.

و إذا ذكرت معاني الحكمة والعبودية والمصلحة، وأمور التشريع والعدل والحكم وانتفاء الظلم، وشواهد توحيد العبودية اقترن اسمه العليم باسمه الحكيم في أغلب مواضع القرآن، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾ النساء:١٧٠. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ النساء:١٧.

وقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ التوبة:٦٠.

- **ما الدليل على أن كتابة المقادير من مراتب القدر؟**

المرتبة الثانية من مراتب القدر هي المرتبة المتعلقة باللوح المحفوظ، وهي مرتبة كتابة المعلومات وتدوينها بالقلم في كلمات، فكل مخلوق مهما عظم

شأنه، أو دق حجمه، كتب الله ﷻ ما يخصه في اللوح المحفوظ، وكتب تفصيل خلقه وإيجاده، وما يلزم لنشأته وإعداده وإمداده، وجميع ما يرتبط بتكوينه وترتيب حياته، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة.

والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ يس:١٢. فجمع بين الكتابين، الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم، والكتاب المقارن لأعمالهم، كتاب فيه علم التقدير، وكتاب فيه علم الإحاطة، فأخبر أنه يحييهم بعد ما أماتهم للبعث، ويجازيهم بأعمالهم، ونبه بكتابته لها في اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، وهو الذكر الذي كتب فيه كل شيء، حيث يتضمن كتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها، والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها، وحفظها لها، والإحاطة بعددها، وإثباتها فيه. وروى الترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (كنت خلف رسول الله ﷺ يوما. فقال: يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت، فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف)[1].

والمراد أن ما يصيب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه فكله مقدر عليه، ولا يصيب العبد إلا ما كتب له من مقادير ذلك في الكتاب السابق، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعا. وقوله ﷺ: رفعت الأقلام وجفت الصحف.

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة ٤/ ٦٦٧ (٢٥١٦)، وصحيح الجامع (٧٩٥٧).

للدلالة على تقدم كتابة المقادير كلها، والفراغ منها من أمد بعيد، فإن الكتاب إذا فرغ من كتابه، ورفعت الأقلام عنه، وطال عهده؛ فقد رفعت عنه الأقلام، وجفت الأقلام التي كتب بها من مدادها، وجفت الصحف التي كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها، وهذا من أحسن الدلالات وأبلغها.

• ما العلة في عدم المحو والتغيير لما دون في اللوح المحفوظ؟

ما دون في أم الكتاب لا يقبل المحو والتبديل، أو التعديل والتغيير، فكل ما كتب فيه واقع لا محالة، وسر ذلك أن عملية إنشاء الخلائق وتكوينها، وتصنيع الأشياء وإيجادها قائمة على ما دون في اللوح من تقديرات، وما خط فيه من كلمات تبين الحال الذي ستكون عليه هيئات المخلوقات، وما تتطلبه تلك الكيفيات من إمدادات القدرة، فالمخلوقات وسائر المصنوعات إلى قيام الساعة قد أحكم الله غاياتها إحكاما تاما، وقضى في اللوح أسبابها قضاء مبرما، فلا تتغير معلومات بنيان الخلق الذي قدره الحق إلا بعد استكماله وإتمامه، ولا يتبدل سابق الحكم في سائر الملك إلا بقيامه على ما قدره بتمامه.

وهذه مشيئة الله في خلقه، وما قضاه وقدره في ملكه، فالله ﷻ على عرشه في السماء يفعل ما يشاء، حكم بعدله أن تقوم الدنيا على حقيقة الابتلاء، ثم يتحول العالم بعد ذلك إلى دار الجزاء، ولذلك ينبهنا الله ﷻ في كثير من المواطن إلى أنه قادر على أن يفعل ما يشاء، لولا ما دون في أم الكتاب من أحكام القضاء. قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ الأنفال:٦٧/ ٦٨. والمعنى المراد

وجسدوا له مجسما مصورا في ورقات ولوحات، بعد أن درسوا فيها جميع الجوانب بمختلف المقاييس والدراسات، وراعوا في خطتهم حكمة الموازنة بين السلبيات والإيجابيات، ووضعوا تخطيطا محكما لا مجال فيه للإضافات، ثم انتهوا إلى تقرير شامل دونوه في كتاب كامل أو مجموعة من الملفات، ثم قدموا هذا المكتوب لإدارة التنفيذ والمشروعات، هل يصح بعد ذلك لعامل أن يعترض على المكتوب وهو جاهل بحقيقة الأمر من بدايته وينقصه العلم والفهم، وهل يحق له أن يغير أو يبدل في مثل هذا المشروع الضخم؟ هل يصح أن يعبث فيه حسب هواه، أو يغير في تخطيطه وفق ما يراه، دون أن يراعي الحكمة العليا والغاية العظمى من تأسيسه وإنشائه؟ فالله ﷻ وله المثل الأعلى كتب مقادير كل شيء، ورفعت الأقلام وجفت الصحف حتى يتم الخلق على ما قضى به الحق، لأن العالم موضوع على تخطيط محكم شامل، ولا يصح الاعتراض على القدر من قبل جاهل قصير النظر.

• متى كانت بداية وقت الكتابة في اللوح المحفوظ؟

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (التقى آدم وموسى، فقال موسى لآدم: آنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته، واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة) [1]. وروى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين

(١) مسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى ٤/ ٢٠٤٢ (٢٦٥٢).

ألف سنة، وعرشه على الماء) [١]. وكذلك ما رواه الترمذي وصححه الألباني من حديث النعمان ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطانٌ) [٢].

دل مجموع الحديثين على أن ابتداء وقت الكتابة في الألواح كان قبل أن يخلق الله ﷻ السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وآخرها ابتداء خلق آدم، فمدة الكتابة خمسين ألف قبل بداية الخلق، واستمرت خلالها في أوقات متنوعة. قال ابن الجوزي: (المعلومات كلها قد أحاط بها علم الله القديم قبل وجود المخلوقات كلها، ولكن كتابتها وقعت في أوقات متفاوتة، وقد ثبت في الصحيح أن الله قدر المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فيجوز أن تكون قصة آدم بخصوصها كتبت قبل خلقه بأربعين سنة، ويجوز أن يكون ذلك القدر مدة لبثه طينا إلى أن نفخت فيه الروح، فقد ثبت في صحيح مسلم أن بين تصويره طينا ونفخ الروح فيه كان مدة أربعين سنة، ولا يخالف ذلك كتابة المقادير عموما قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة) [٣].

ولا بد من مراعاة أن الزمان السابق المقدر بخمسين ألف سنة أو الأيام الستة التي بدأ الله فيها الخلق حتى الاستواء على العرش، هذا الزمان يختلف في مقداره عن مقاييس الزمان الذي نعرفه بتعاقب الليل والنهار. ولذلك قال

---

(١) الموضع السابق ٤/ ٢٠٤٤ (٢٦٥٣).

(٢) الترمذي في فضائل القرآن ٥/ ١٥٩ (٢٨٨٢)، وصحيح الجامع (١٧٩٩).

(٣) فتح الباري لابن حجر ١١/ ٥٠٨.

ابن تيمية: (وخلق ذلك في مدة غير مقدار حركة الشمس والقمر، كما أخبر أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، والشمس والقمر هما من السموات والأرض، وحركتهما بعد خلقهما، والزمان المقدر بحركتهما وهو الليل والنهار التابعان لحركتهما إنما حدث بعد خلقهما، وقد أخبر الله أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، فتلك الأيام مدة وزمان مقدر بحركة أخرى غير حركة الشمس والقمر)(١).

• ما الدليل على أن اللوح المحفوظ فوق العرش؟

اللوح فوق العرش عند رب العالمين، لما ثبت في عند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوبٌ عنده فوق العرش)(٢).

وكلمة الفوقية على العرش التي وردت في شأن اللوح المحفوظ هي على ظاهرها الذي يدل وجود كتاب غيبي يخص الخالق، وبالكيفية التي يعلمها هو ويجهلها الإنسان، لأن المكان الغيبي لا يعني المحاور الفراغية الهندسية التي تظهر على أثرها المجسمات والبعد الثلاثي، ولا تعني ما يهيئه الشيطان في مخيلة الإنسان من مساحة عرش المخلوق لو وضع عليه كتاب، ثم يجعله يقيس عرش الله ﷻ وفوقية أم الكتاب عليه بقياس تمثيلي أو شمولي. فالمكان الغيبي لا يخضع بحال لمقاييس المكان في حسابات المخلوقين، والمقاييس المكانية للإنسان لا تصلح بحال من الأحوال في قياس ما هو خارج عن محيط العالم، فضلا عن عدم صلاحيتها في تحديد مكان ملك الموت حين يقبض

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/ ١٢٣.

(٢) رواه البخاري في التوحيد، باب قوله تعالى: بل هو قرآن مجيد ٦/ ٢٧٤٥ (٧١١٥).

روح إنسان وضع في غرفة مغلقة بإحكام؛ لأنه حينئذ يعجز عن دخولها بالمقاييس المكانية التي يقيسون بها الخالق على المخلوق، ويزعمون فيها أن النصوص القرآنية والنبوية ظاهرها باطل مستحيل، ويجب صرفها إلى تأويلاتهم المتعسفة، ومن ثم فلا يصلح بحال أن نمنع دلالة الأحاديث على ظاهرها اللائق بالله ﷻ وبعالم الغيب بحجة أننا لو أثبتناها لكان تشبيها وتجسيما، فهذا مذهب الجهمية وأتباعهم.

وعلى ذلك فإن المراد بكون الكتاب فوق العرش هو ما دل عليه النص من فوقية حقيقية لأم الكتاب واللوح المحفوظ الذي فيه ذكر تقديرات الخلائق، وبيان أمورهم، وذكر آجالهم وأرزاقهم، والأقضية النافذة فيهم، ومآل عواقب أمورهم[1].

• ما الدليل على أن مشيئة الله من مراتب القضاء والقدر؟

مشيئة الله في خلقه لا تكون إلا كونية فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهي المرتبة الثالثة من مراتب القضاء والقدر، وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله عليها خلقه، وجميع أدلة المعقول والمنقول، وليس في الوجود أمر إلا بمشيئة الله وحده، وهذا أصل عقيدة التوحيد، وأساس بنيانها الذي لا يقوم إلا به، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهذا أمر يعم كل مقدور من الأعيان والأفعال والحركات والسكنات، فسبحانه أن يكون في مملكته ما لا يشاء، أو أن يشاء شيئا فلا

(٣) شرح السنة للبغوي ١٤/ ٣٧٧.

يكون، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ الإنسان: ٢٩/ ٣٠.

وكل ما في العالم مما كان أو وهو كائن، فقد شاءه الله تعالى كونه، وكل ما لم يكن ولا يكون، فلم يشأه الله تعالى كونه، أخبر الله بذلك في القرآن نصا ظاهرا مستفيضا لا يحتمل تأويلا، كقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ التكوير: ٢٨/ ٢٩.

• ما هو أثر الإيمان بمشيئة الله على حياة الإنسان؟

التوحيد الحق أن يعلق العبد أفعاله على مشيئة الله ﷻ في جميع الأوقات، سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، فكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن، وقد علمنا نبينا ﷺ أن المسلم يقول فيما وقع من الأحداث ومضى وانتهى: قدر الله وما شاء فعل، ولا يقول: لو كان كذا وكذا، لكان كذا وكذا، فلا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، لاسيما بعد نفاذ أمره ووقوعه، وإنما يجوز أن يقول ذلك فيما يستقبل.

قال رسول الله ﷺ: (المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خيرٌ، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، لم يصبني كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان) [1].

---

(١) مسلم في القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز ٤/ ٢٠٥٢ (٢٦٦٤).

أما رد الأمر إلى المشيئة في الحاضر فلقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ الكهف:٣٩. وهنا ينسب الموحد النعمة إلى ربه الذي أنعم بها عليه، ويرد الأمر فيها إليه، فالعبد الصادق الموحد مؤمن بأن الله ﷻ منفرد بالمشيئة والتقدير، والقدرة والتدبير، يتولى تدبير شئون العالمين، وهو أحكم الحاكمين، وخير الرازقين، لا يطمع في سواه، ولا يرجو إلا إياه، ولا يشهد في العطاء إلا مشيئته، ولا يرى في المنع إلا حكمته، ولا يعاين في القبض والبسط إلا قدرته، ويقول عندما يرى نعم الله عليه، ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وأما رد الأمر إلى المشيئة في المستقبل فهو كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ الكهف:٢٣/ ٢٤. وذلك لأن تحقيق مشيئة الإنسان متوقفة على مشيئة الله في العطاء، وخلقه سبحانه لسائر الأشياء، فلو قال العبد: إن شاء الله لربما تحقق مطلبه، وأعطاه الله ما يريد، فإن الله تعالى له المشيئة المطلقة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لكن جميع أفعاله لا تخرج عن حكمته، فهو سبحانه متصف بالقدرة والحكمة، ومن أسمائه القدير الحكيم، فبالقدرة خلق الأشياء وأوجدها، وهداها وسيرها، وهذا توحيد الربوبية، وبالحكمة رتب الأسباب ونتائجها، وابتلانا واستخلفنا وخولنا، وكلفنا لنأخذ بها تحقيقا لتوحيد العبودية.

- **هل يصح الاحتجاج بقدر الله ومشيئته على المعصية؟**

الاحتجاج بمشيئة الله على المعصية نوعان، نوع باطل وهو الاحتجاج

بمشيئة الله وقضائه وقدره علي المعصية التي وقعت ولم يتب منها العبد، أو ما زال قائما عليها، وهذا مذهب الجبرية، إذ يفعلون المنكر ويحتجون بقدر الله، وأن عصيانهم ليس بإرادتهم، وإنما ذلك فعل الله بهم ومشيئته التي لا يستطيعون دفعها. وقد احتج سارق من هؤلاء على عمر بن الخطاب ﷺ بالقدر، فقال له عمر: لم سرقت؟ قال سرقت بقدر الله ومشيئته، فقال: وأنا أقطع يدك بقدر الله ومشيئته [1].

أما النوع الثاني من الاحتجاج على المعصية بمشيئة الله وقضائه وقدره هو الاحتجاج على المعصية التي وقعت من العبد وتاب منها وندم على فعلها، وهذا جائز مشروع، مثل المحاجة التي حدثت بين آدم وموسى عليهما السلام، فقد حج آدم موسى لكونه تاب من الذنب، وأصبح له ماضيا ومصيبة لا يستطيع دفعا، وقد لحقت الذرية بسبب أكله من الشجرة، فليس له إلا التسليم للقدر عند وقوع المصائب وعدم لوم المذنب التائب، وأن المؤمن مأمور أن يرجع إلى القدر عند المصائب لا عند الذنوب والمعائب، فيصبر على المصائب، ويستغفر من الذنوب والمعائب.

قال رسول الله ﷺ: (حاج موسى آدم فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم، قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقني، أو قدره علي قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى) [2].

---

(١) منهاج السنة النبوية ٣/ ٢٣٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير، سورة طه ٤/ ١٧٦٤ (٤٤٦١).

• ما عقيدة أهل السنة في الفرق بين مشيئة الله وإرادته ومحبته؟

عقيدة أهل السنة في الفرق بين مشيئة الله وإرادته ومحبته، أن مشيئة الله لا تكون إلا كونية، أما إرادته فتكون كونية وشرعية، وأما محبته فلا تكون إلا شرعية، وبيان ذلك أن مشيئة الله لا يمكن أن تتخلف، وقد أجمعت الرسل من أولهم إلى آخرهم وجميع الكتب المنزلة من عند الله على أنه ليس في الوجود أمر إلا بمشيئة الله وحده، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ولذلك فإن العبد يعلق أفعاله على المشيئة، وليس على الإرادة، ولا يصح إطلاق الإرادة فتقول ما أراد كان وما لم يرد لم يكن، بل لا بد من تقييدها على المعنى الكوني، لأن إرادة الله ﷻ على نوعين يدبر الله الخلق من خلالهما:

النوع الأول: إرادة كونية قدرية، وهي بمعنى المشيئة الشاملة لجميع الموجودات، سواء ما يحبه أو ما لا يحبه، وبها يصدر الأمر القدري الحتمي الذي يتحقق وقوعه في جميع المخلوقات من الأرض إلى السماوات، يتحقق في الجن والإنس والملائكة، وكل ما في الكون على سبيل الخلق والإيجاد والإمداد والمتابعة، وهذا الأمر نافذ لا محالة، فلا يمكن صده أو رده، وهو شاهد لربوبية الله لخلقه.

النوع الثاني: إرادة شرعية يريد الله بها من الإنسان أن يفعل ما ينفعه ولا يفعل ما يضره، وهي الأوامر الشرعية التكليفية الدينية التي يصدر بها أمر ابتلائي خاص للإنس والجن، وهذه الإرادة قد يلتزم بها الإنسان وقد يمتنع، وعليها يكون الثواب والعقاب، وهذه الإرادة هي المتضمنة لمحبة الله لمن اتبعها، فمن استجاب لها أحبه الله وقربه وأكرمه ونعمه، ومن امتنع عن

تنفيذها أبغضه الله ﷻ وأبعده وعذبه.

سئل سهل بن عبد الله التستري عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ البقرة:٣٤. قال السائل: لما أمر الله إبليس بالسجود لآدم، أراد منه ذلك أم لا؟ فقال سهل بن عبد الله: أراده ولم يرده[1]. وهو يعني أنه أراده شرعا وإيجابا وتكليفا، ولم يرده كونا ووقوعا لأن الله لا يكون في ملكه إلا ما يشاء، فلما لم يقع السجود علمنا أنه لم يشأ وقوعه، ولذلك تحقق في إبليس الأمران معا، إرادة الله له بالتكليف والتعبد، وإرادة الله كونا بأن لا يسجد، فإرادة الله على نوعين، فمن الإرادة الكونية ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ البقرة:٢٥٣. ومن الإرادة الشرعية قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ البقرة:١٨.

- **ما الدليل على المرتبة الرابعة من مراتب القدر؟**

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ الملك:١٤. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ الأحزاب:٣٨. المرتبة الرابعة من مراتب القدر هي خلق الأشياء بقدرة الله، فأهل السنة والجماعة يؤمنون بقدرة الله التي أنشأ بها جميع الموجودات، ويؤمنون بخلقه وتكوينه لجميع الكائنات، وينزهون الله ﷻ أن يكون في ملكه شيء يقع بغير قدر الله وقدرته، أو إرادته الكونية ومشيئته، فيثبتون علم التقدير وأن العباد يعملون على ما وافق ما قدره الحق، وأن ما جف به القلم في اللوح عند الله ﷻ، واقع محتوم بالمشيئة والقدرة

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي ١/ ٢٢٢.

المطلقة، وأنهم لا يشاءون إلا أن يشاء الله، وأنه لا يحدث مخلوق إلا من بعد تقدير الله لوجوده، ثم كتابته في اللوح، ثم مشيئته له، ثم إنشاؤه وصناعته، أو تنفيذه وخلقه، وإبراؤه وتصويره، وهذا عام لكل ما خلقه الله ، وما يخلقه، وما سيخلقه.

وأصل القدر عند أهل السنة مبنى على أمرين اثنين: الأمر الأول التقدير. والأمر الثاني القدرة. فبدايته في التقدير، وهو العلم السابق، أو علم التقدير، وحساب المقادير، وهو تقدير كل شيء قبل تصنيعه وتكوينه، وتنظيم أمور الخلق قبل إيجاده وإمداده، فهذا العلم هو التقدير الجامع التام، وهو حساب النظام العام، الذي كتبه الله ﷻ في اللوح المحفوظ أو أم الكتاب، وقد شاء كونه في الوقت المعلوم الذي يحدده بمشيئته، وهذا قضاء الله الكوني الذي يسير عليه الكون بمنتهى الدقة والإتقان من بدايته إلى نهايته.

وإذا كانت بداية القدر في التقدير ثم الكتابة والمشيئة، فإن نهايته في الخلق والتنفيذ بالقدرة وتحقيق المقدر، فتقع الأشياء بقدرة الله تعالى على تحقيق ما قدره في علمه، ويخلق ما كتبه في لوحه، وما شاء تكوينه في الواقع، فلا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بعد تقديرها في علمه، وبعد كتابتها في لوحه وبعد مشيئته وقدرته، فبداية القدر علم التقدير، والنهاية في القدرة وإيجاد المقادير، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ الأحزاب:٣٨. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ الزمر:٦٢. وهذا التخليق عام لا يخرج عنه شيء، فالعالم بما فيه من كائنات وموجودات بجميع أعيانها وأفعالها وحركاتها وسكناتها وذاتها وصفاتها، الخالق لها هو الله، وما سواه مخلوق له.

• ما هو أثر الإيمان بمراتب القدر في الأخذ بالأسباب؟

خلق الله الدنيا بأسباب تؤدي إلى نتائج، السبب والنتيجة مخلوقان بمراتب القدر، سواء ارتبط السبب بنتيجته أو انفصل عن نتيجته، فالعلل والأسباب سواء ترابطت، أو انفصلت فلا يؤثر ذلك في تعلقها بمراتب القدرة، ولكن العلل والأسباب ترابطها أو انفصالها ظاهر عن كمال الحكمة.

وبيان ذلك أن الله بنى الحياة على ترابط الأسباب بحيث لا يخلق النتيجة إلا إذا خلق السبب أولا، ولا يخلق المعلول إلا إذا خلق علته، فلا يخلق النبتة إلا إذا خلق البذرة أو الحبة، ولا يخلق الثمرة إلا إذا خلق النبتة، لا يخلق الابن إلا إذا أوجد الأب والأم. ومن هنا ظهرت الأسباب للعقلاء كابتلاء يصح من خلاله العمل بالسنن والبديهيات، وحكم التجارب والأوليات، فأهل اليقين ينظرون إلى الأسباب، ويعلمون أن الله ﷻ خلقها بمراتب القدر، فيجدون أنه سبحانه تارة ينسب الفعل إليه؛ لأنه الخالق بتقدير وقدرة، وتارة ينسب الفعل إليهم عند دعوتهم إلى العمل بمقتضى الشريعة والعقل والحكمة فمرة يقول في بيان التقدير والقدرة: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ الواقعة:٦٣/ ٦٤. فنفى عن الناس خلقهم لأفعالهم، وتأثير الأسباب في خلق أرزقهم، وأثبت لنفسه الأفعال وتصريف الأسباب لأنه الخالق في الحقيقة، الذي قدر وكتب وشاء وخلق، قدر كل شيء في علمه، وكتبه في أم الكتاب بقلمه، وأمضاه بمشيئته، وخلقه بقدرته إظهارا لتوحده في ربوبيته.

ثم أمر الناس أن يأخذوا بالأسباب التي خلقها، وأحكم لهم تدبيرها

وجريانها، إظهار لحكمته وتوحيده في عبوديته، وعملا بشريعته كما قال جل في علاه: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ يوسف:٤٧. وقال أيضا: ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ الفتح:٢٩. فسماهم زراعا وقال تزرعون، وسماهم كفارا لأنهم يكفرون البذرة أي يضعونها في الأرض ويغيبونها ويغطونها، وذلك أننا في دار ابتلاء وامتحان، والأخذ بالأسباب حتم لازم على بني الإنسان، فهم مستخلفون في ملكه، مخولون في أرضه، فطالبنا بالعمل والإنفاق، ليصل كل منا إلى ما قدره الله له الأرزاق. قال تعالى: ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) ﴾ الحديد:٧.

ومن ثم فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، ولا بد أن يجتازها الإنسان، وهو في هذه الدار بالخيار، حر بين نجدين يوصلان إلى جنة أو نار، كل ذلك ليؤول الناس إلى مصيرهم بعد الحساب، ويتم ما قدره الله في أم الكتاب، قال تعالى: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) ﴾ الشورى:٧. فكل ميسر لما خلق له، وكل سينال ما قدر الله له. إن الله تعالى أظهر الدنيا أسبابا، ونسب الفعل إلى أهلها لإظهار حكمته عند دعوتهم لتوحيد الله بالعبودية، ونسب الفعل وأثبته لنفسه في موضع آخر لإظهار قدرته عند دعوتهم لتوحيد الله بالربوبية.

والتوحيد الحق ألا يتغافل الموحد عن قدرته سبحانه بدعوى الانشغال في النظر إلى حكمته، وألا يتغافل عن شرعه وحكمته بدعوى الانشغال في النظر إلى قدرته، فالله ﷻ يخلق بأسباب وبغير أسباب، إن خلق بأسباب فهي العادات، وإن خلق بغير أسباب فهي خوارق العادات، أو الكرامات والمعجزات. فالثمرة يخلقها الله تعالى بعد خلق النبتة، ويربط خلق الثمرة

بوجود النبتة، ويمكن أن يخلق الثمرة من غير نبتة، فهذه مريم قال تعالى في شأنها: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ آل عمران:٣٧.

وهي قد علمت أن الذي يخلقها بأسباب يخلق بغير أسباب، ويرزق بحساب من العبد أو بغير حساب، ولذلك كان من قوة يقينها أن الله ﷻ اختارها لأعظم ابتلاء، وأنها ستحمل على غير عادة النساء، وتلد عيسى عليه السلام كمعلول بغير علة، ونتيجة بلا سبب.

وقد يخلق الله العلة ولا يخلق معلولها، كما فعل بإبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ الأنبياء:٦٨/ ٦٩. وقد يخلق المعلول بلا علة، كما فعل بناقة صالح، حيث أخرجها من وسط الصخر فانشق الجبل وخرجت منه.

ولذلك كان أثر الإيمان بمراتب القدر إفراد الله بتقدير الأرزاق والعطاء، والتوكل عليه في الشدة والرخاء، فأول أركان التوكل على الله، اعتقاد العبد أنه لا خالق إلا الله، ولا يدبر الكون سواه، واعتقاد الموحد أن الذي يرزق العباد بأسباب قادر على أن يرزق من غير أسباب، وكلاهما عند المؤمنين في الإيمان سيان، طالما أن الله هو الخالق في أي وضع كان، ولذلك فإن التوكل من أعلى مقامات اليقين، وأشرف أحوال المقربين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ آل عمران:١٥٩.

ومن هنا إذا علم العبد الذليل أن الملك الكبير قائم بالقسط والتدبير، ومنفرد بالمشيئة والتقدير، عنده خزائن كل شيء، وكل شيء عنده بمقدار، لا

ينزله إلا بقدر معلوم، وعلم أن الوكيل سبحانه قابض على نواصي الملك، وله خزائن السماوات والأرض، فأيقن أن ربه بيده ملكوت كل شيء، وأنه يملك السمع والأبصار، ويقلب القلوب أو يصرفها أو يثبتها في البشر أجمعين، وأنه يتولى تدبير شئون العالمين، وأنه أحكم الحاكمين وخير الرازقين، إذا علم العبد ذلك أيقن أن الملك الكبير من فوق عرشه كفيل بأمره ورزقه، يغنيه من فضله وكرمه، واعتمد عليه في كل شيء، ووثق به دون كل شيء، وقنع منه بأدنى شيء، وصبر علي ما ابتلاه به في هذه الحياة. وهنا لا يطمع العبد في سواه، ولا يرجو إلا إياه، ولا يشهد في العطاء إلا مشيئته، ولا يرى في المنع إلا حكمته، ولا يعاين في القبض والبسط إلا قدرته، عند ذلك حقت للعبد معاني التوحيد في عبادته، وصدق في إسلامه وشهادته، ووحد الله في ربوبيته، فعرف أن المخلوق لا حول ولا قوة له إلا بخالقه، وأن طلب الرزق لا يكون إلا عند رازقه.

• ما الفرق بين قضاء الله وقدره؟

مراتب القدر أربع مراتب، المرتبة الأولى علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها، والمرتبة الثانية كتابته لها قبل كونها، المرتبة الثالثة مشيئته لها، والرابعة مرتبة خلق الأشياء وتكوينها، وتصنيعها وتنفيذها، على وفق ما قدر لها بمشيئة الله في اللوح المحفوظ. والفرق بين القضاء والقدر أربعة أمور:

١- القضاء ثلاث مراتب والقدر أربع، فالقضاء علم وكتابة ومشيئة فهو ثلاث مراتب، لأن الله إذا قضى أمرا كونيا فيعني أنه قدره وكتبه وشاء كونه، ولم يتبق إلا تنفيذه بقدرته، وعندها يصبح ما قضاه قدرا واقعا، قال تعالى عن قضائه الكوني: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن

﴿فَيَكُونُ ۝٤٧﴾ آل عمران:٤٧. وإذا كان القضاء في أفعال البشر يستصدر منه الأحكام التي لا تقبل النقد أو الرد كما يحدث في الأحكام النهائية للسلطة القضائية، وهي واجبة التنفيذ بالقدرة البشرية الكائنة في السلطة التنفيذية، فإن قضاء الله الكوني من باب أولى ولله المثل الأعلى قضاء مبرم، لا يقبل النقد أو الرد، والحكم فيه حكم حتمي مكتوب واقع لا محالة، لا يمكن رده أو مواجهته، وتنفيذه واقع بالقدرة الإلهية في الوقت الذي ينفذ الله ما شاء من أحكامه الكونية.

٢- الفرق الثاني بين القضاء والقدر أن القضاء غيب ويكون مشهودا بالقدرة عند وقوع القدر، فالقضاء علم وكتابة ومشيئة، وعلم التقدير غيب لا أحد يعلم عنه شيئا، واللوح وما فيه سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ومشيئة الله غيب أيضا لا نعلم ما فيها إلا بعد وقوعها في القدر.

٣- الفرق الثالث بين القضاء والقدر أن القضاء يسبق القدر ويشترك معه في علم التقدير، فكلاهما يتفقان في العلم والكتابة والمشيئة، ويزيد القدر مرتبة الخلق والتنفيذ، ولذلك نقول قضاء وقدر، ولا نقول قدر وقضاء.

٤- الفرق الرابع بين القضاء والقدر أن القضاء أعم من حيث التعلق والقدر أخص، والقدر أعم من حيث المراتب والقدر أخص، فالقضاء يتعلق بما كان، وما هو كائن، وما سيكون، أما القدر من جانب القدرة والخلق والتكوين فيتعلق بما كان، وما هو كائن، أو بم تم ويتم خلقه وتنفيذه، أما من جهة المراتب فالقدر أعم لأنه أربع مراتب، والقضاء أخص لأنه ثلاث مراتب، والله أعلم.

• ما هي أنواع التقدير في القرآن والسنة؟

عقيدة أهل السنة والجماعة أن الأصول القرآنية والنبوية دلت على خمسة أنواع من التقدير، دبر الله ﷻ أمور الكون من خلالها، ورتبها من تقدير عام يشمل المخلوقات بأسرها إلى تقدير خاص يتعلق بآحاد المخلوقات وأفرادها، فأنواع التقدير عند السلف خمسة أنواع: تقدير أزلي، وتقدير ميثاقي، وتقدير عمري، وتقدير حولي أو سنوي، وتقدير يومي.

والمقصود بأنواع التقدير تنظيم أمور الكون من خلال مجموعة من التقديرات تتعلق بجميع المخلوقات أو بعضها، عمومها وخصوصها، فهناك تقدير أزلي عام مدون في اللوح المحفوظ، وشامل لكل أمر سيحدث لجميع المخلوقات بلا استثناء، وقد قضاه الله وقدره في أم الكتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وقد تقدم ذكر دليله.

ومن أنواع التقدير أيضا التقدير الميثاقي، وهو تقدير خاص بالإنسانية جمعاء، قدر الله فيه أهل النعيم والشقاء، وكان ذلك وقت أخذ الميثاق على آدم وذريته، وإشهادهم وهم في عالم الذر أن يوحدوا الله في ربوبيته، فقد قدر الله ﷻ أهلا للفريقين، وفصل في علمه السابق بين النوعين، وخلق بعضهم للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وخلق بعضهم للنار وبعمل أهل النار يعملون، وهذا التقدير أخص من الأول وداخل فيه.

ودليله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ الأعراف:١٧٢. وهذان التقديران، الأزلي والميثاقي لا يقبلان المحو

والتبديل، ولا يخضعان للإضافة والتغيير، ولا يطلع عليهما ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا يعلم عنهما أحد شيئا إلا بعد حدوثهما، ووقوع ما قدره الله فيهما، أو يخبر الله ﷻ أنبيائه ورسله عن بعض ما فيهما تحقيقا لحكمته وظهور أثار أسمائه وصفاته.

أما التقدير الثالث فهو أخص من التقدير الثاني، ويسمى بالتقدير العمري، ويشمل مجموعة الأوامر التي يكلف بكتابتها الملك الموكل بالنطفة في الرحم، مما يخص عمر كل إنسان، ويكتب فيه رزقه وشقي هو أم سعيد؟ ودليله قول رسول الله ﷺ: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيدٌ؟)[1]

والتقدير الرابع يسمى بالتقدير السنوي، وهو أخص من الثالث، ويشمل مجموعة الأوامر السنوية التي تصدر من الله لملائكته في ليلة القدر مما يخص حياة الناس وموتهم، وتصنيف أرزاقهم على قدر أعمالهم، كل ذلك على مدار عام كامل. ودليله قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦ ﴾ الدخان:١/ ٩.

وهناك نوع خامس من أنواع التقدير يسمى بالتقدير اليومي، وهو أخص من الرابع، ويشمل مجموعة الأوامر اليومية التي تصدر في شأن الناس

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة ٣/ ١١٧٤ (٣٠٣٦).

وحياتهم لحظة بلحظة. ودليله قوله تعالى: ﴿ يَسْئَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾ الرحمن: ٢٩/ ٣٠.

وهذه التقديرات الثلاثة أعنى التقدير العمري والسنوي واليومي، هي القضاء المعلق بالأسباب الغيبية والمشهودة، وهي التقدير الابتلائي المظهر للحكمة، وهي تقبل المحو والإثبات والتغيير، وتتولاها الملائكة المكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ولكنهم لا يعلمون إن كان ما صدر لهم من أوامر وأحكام يتطابق مع ما كتب في اللوح من تقدير أزلي أو يتطابق مع ما صدر من أحكام في التقدير الميثاقي أم لا؟ فهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله، ولا يطلعون على ما دونه الله في أم الكتاب.

- **لماذا تعددت أنواع التقدير بين التقدير المبرم والمعلق؟**

الجواب أن الله حكيم في صنعه، والحكمة صفته، ومقتضى الحكمة أن تقع الصنعة على وجه الكمال والإتقان، ولنضرب مثلا بقياس الأولى ولله المثل الأعلى، إذا كانت الصناعة المتقنة في الدنيا تتطلب الخبرة والحكمة، لاسيما المشروعات العملاقة الضخمة، فإن بناء أي مشروع من هذا النوع يتطلب تقديرا عاما شاملا وكاملا، لا يدع صغيرة أو كبيرة إلا بين فيها الأمر بيانا مفصلا، ثم إنه عند التنفيذ والتكوين بعد ذلك يقسم التقدير المكتوب في العموم والجملة والمجموع، إلى تقديرات في الخصوص تتعلق بكل جزء من أجزاء المشروع، وكل جزء من أجزاء المشروعات العملاقة يقسم أيضا إلى أجزاء أخص وأخص، وكل جزء له من التقدير الأدق والأدق ما يخصه حسب الزمان والمكان الذي يتم فيه الإنشاء والبنيان، فقد تتغير أحكام الزمان

والمكان بتغير أحوالها، فمكان يقتضي أن يكون العمل فيه بالنهار لأن الطقس مشمس حار، ومكان يتطلب التأخير بعض الشيء لهطول الأمطار.

وهكذا تتفاعل منظومة العمل في إتمام المشروع، ثم إعداد تقرير عن كل موضوع، بحيث إذا رفع كل تقرير إلى الإدارة العليا يتوافق مع التقدير العام بمنتهى الإتقان والتوافق التام، لا خلل في الأمور صغيرها وكبيرها، وعلامة الجودة على جميع المصنوعات وأجزائها، هكذا يكون الكمال في الصنعة، وهكذا تكون الأعمال الناتجة عن الحكمة والخبرة، ولا أحد ينكر ذلك بين جميع العقلاء.

إذا كان ذلك من مقتضيات الكمال والإتقان في صنعة المخلوق، فالله ﷻ له المثل الأعلى في السماوات والأرض قال عن نفسه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى

ومن جهة أخرى كلف الله الملائكة بمتابعة الإنسان ليشعر بعجزه عندما يتأمل في فقره وانعدام قوته وحوله، ومدى ضعفه وهو في بطن أمه، وكيف سخر الله ﷻ من يقوم على رعايته، وهو لا يدري شيئا عن نفسه، كالطفل حين ولادته وعجزه، واحتياجه في كل شيء إلى غيره، اقتضت حكمة ربه أن غرس الحنان والرحمة في قلب أمه لينال كامل الرعاية حتى يصبح مكلفا مختارا مستخلفا راعيا مسئولا.

والتقدير اليومي يشمل مجموعة الأوامر اليومية التي تصدر في شأن الناس وحياتهم لحظة بلحظة، فالله ﷻ كل يوم هو في شأن حتى يقع التقدير اليومي مطابقا لما سبق به التقدير في اللوح المحفوظ، فيجتمع فيه مقتضى التدبيرات السابقة لحظة وقوع الحدث وتوالي خلق الأسباب، فالله ﷻ وله المثل الأعلى أتقن كل شيء بكمال حكمته، ورتب أمور التقدير في ملكه وصنعته، فكما تطلبت الصنعة ببالغ الحكمة تقديرا أزليا عاما شاملا، وتقديرا ميثاقيا يتناول الإنسانية تناولا كاملا، وتقديرا عمريا يخص حياة كل إنسان على حدة، وتقديرا حوليا يخص سنة واحدة، كذلك فإنها تتطلب تقديرا يوميا ختاميا، لمتابعة التنفيذ في وقوع الخلائق لحظة بلحظة، وكلمة من اللوح بكلمة، إلى أن ينتهي العالم كل يوم كما كتبه الله في اللوح المحفوظ، وينكشف سر التقدير بوقوع القدر والمقدر.

وكما أن كمال الصنعة يتطلب الخبرة، والمشروعات العملاقة تتطلب الحكمة، فإن مقتضى الكمال لدي العقلاء أن بناء أي مشروع محكم يتطلب خطة عامة، ولله المثل الأعلى ألا ترى أن كل دولة راقية في حكومتها تضع للبلاد خطة شاملة، أو خطة خمسية أو سداسية مفصلة، لا تدع صغيرة ولا

كبيرة إلا قدرت أمرها، فكل جزئية في المشروع مهما قل حجمها أو زاد وزنها، لا بد من بيانها وتحديد علتها، كيف تنفذ؟ ومتى تنفذ؟ ولماذا تنفذ؟ وتضع أيضا موازنة عامة لحساب الإمكانيات من خلال معرفة الناتج والدخل المحلي والاستهلاك القومي، حيث يوازنون بين الصادرات والواردات، وغير ذلك من الحسابات، حتى يمكن تحديد الأهداف والغايات، وقياس العجز والفائض في الموازنات، ثم يضعون المقررات لكل هيئة حكومية، والرواتب المقدرة والعلاوات الوظيفية.

كل ذلك في إطار خطة عامة تقسم عند التنفيذ إلى ملفات ومجموعات، وكل مشروع له ملفه الخاص الذي وافق المسئولون على تنفيذه، ولكل شخص يدير المشروع له تكليف معين بخصوصه، فالمكتوب في الخطة العامة يقسم إلى تقديرات خاصة، تتعلق بكل جزء من أجزاء المشروع، وكل جزء من أجزاء المشروعات، يقسم أيضا حسب الزمان والمكان إلى أجزاء أخص وأدق، ومحسوب في كل خطة جزئية أو كلية معدل التغيير والتبديل حسب التغيرات الزمانية والمكانية، فقد تختلف الأوامر من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان.

وهكذا تتفاعل منظومة العمل في إتمام المشروع أو الخطة الخمسية أو السداسية، وإعداد التقارير عن كل جزئية، حتى تراجع الحسابات الختامية، وتنهي متعلقات كل سنة مالية. والإدارة العليا مفترض أن تراجع ما يحدث يوما بيوم ولحظة بلحظة، تراجع مراقبة الجودة وكمال الصنعة، وحسابات التكلفة بمنتهى الدقة، وحساب المتميزين في العمل والمقصرين، وأهم شيء عندها أن تنفذ الخطة العامة لمصلحة المواطنين يوما بيوم في منتهى الإتقان،

وجميع التقديرات الخاصة تتوافق مع التقديرات العامة، بمنتهى الإتقان في الصنعة، ووضع الأشياء بمنتهى الحكمة، لا خلل في الأمور صغيرها وكبيرها، فهذه هي صفة الأعمال المحكمة، والصنعة البديعة المتقنة.

وإذا كان ذلك كمالا بالغا في المخلوق، فالله ﷻ وله المثل الأعلى أتقن كل شيء بكمال حكمته، ورتب أمور التقدير في ملكه وصنعته، فكما تطلبت الصنعة ببالغ الحكمة تقديرا أزليا عاما شاملا، وتقدير ميثاقيا يتناول الإنسانية تناولا كاملا، وتقدير عمريا يخص حياة كل إنسان على حدة، وتقديرا حوليا يخص سنة واحدة، كذلك فإنها تتطلب تقديرا يوميا وعملا ختاميا، لمتابعة التنفيذ في مشرع الخلق لحظة بلحظة، وكلمة كلمة إلى أن ينتهي العالم كل يوم كما كتبه الله ﷻ في اللوح المحفوظ.

- **هل يصح الدعاء بطول العمر مع تقدير الأجل في أم الكتاب؟**

المحو والتغيير لا يكون في التقدير المبرم، والتقدير المبرم يتناول التقدير الأزلي والميثاقي فلا يقبلان المحو والتبديل، ولا يخضعان للإضافة والتغيير، ولا يطلع عليهما ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا يعلم عنهما أحد شيئا إلا بعد حدوثهما، ووقوع ما قدره الله فيهما، فالأجل مكتوب ولا يتغير ولا يتبدل في التقدير المبرم.

أما التقدير المعلق ويشمل التقدير العمري والسنوي واليومي، فهو متعلق بالأسباب الغيبية والمشهودة، وهو تقدير ابتلائي مظهر لحكمة الله في خلقه، وتتولاها الملائكة المكرمون، ولكنهم لا يعلمون إن كان ما صدر لهم من أوامر وأحكام يتطابق مع ما كتب في اللوح من تقدير أزلي أم لا؟

فالملائكة لا يعلمون إلا ما علمهم الله، ولا يطلعون على ما دونه الله في أم الكتاب، ولذلك فإن هذا التقدير يقبل المحو والتغيير، والأسباب مؤثرة فيه، فالدعاء يرد القضاء المعلق، ولا يرد المبرم، وصلة الرحم تطيل العمر المكتوب في أيدي الملائكة من القضاء المعلق دون المبرم، كما قال النبي ﷺ: (من سره أن يبسطَ له في رزْقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه)[1].

✹

(١) البخاري في البيوع، باب من أحب البسط في الرزق ٢/ ٧٢٨ (١٩٦١).

الفصل الثالث

التدبير الكوني والتدبير الشرعي

• ما المقصود بالتدبير الكوني والتدبير الشرعي؟

عقيدة أهل السنة والجماعة تقوم على أن العبد لا يصل إلى مرضاة الله حتى يسلم له بنوعين من التدبير في ملكه، النوع الأول هو التدبير الكوني، والنوع الثاني هو التدبير الشرعي، هذان التدبيران هما أساس الفهم السلفي الصحيح لموضوع القضاء والقدر وعلاقته بأفعال العباد وحريتهم، وإثبات استطاعتهم ومسئوليتهم، فمن اهتدى إلى الفرق بين النوعين نجاه الله ﷻ من ضلالات الجبرية والقدرية، فالجبرية اعتمدوا الإيمان بالتدبير الكوني وعدم العمل بالتدبير الشرعي، والقدرية المعتزلة اعتمدوا العمل بالتدبير الشرعي وتجاهلوا الإيمان بالتدبير الكوني، أما المنهج السلفي فقد سلم لله ﷻ بالنوعين، فآمن بالتدبير الكوني وعمل بالتدبير الشرعي.

وقد جعل الله حقيقة الابتلاء من الحقائق العظمى التي تفسر العلاقة بين قدرة الله وحكمته، والجمع بين الإيمان بتدبيره الكوني المتعلق بتوحيد الله في قدرته وربوبيته، والعمل بتدبيره الشرعي المتعلق بتوحيد الله في حكمته وعبوديته. قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ الملك:١/ ٢. وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ الإنسان:٢.

وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ الأنعام:١٦٥.

فبالتدبير الكوني ابتلانا الله ﷻ في الإيمان بقدرته وربوبيته، وبالتدبير الشرعي كلفنا الله بالعمل وفق شريعته وحكمته وتوحيده في عبوديته، وهكذا كانت حقيقة الابتلاء، فالابتلاء له وجهان:

الوجه الأول: الإيمان بتقدير كوني حتمي يمثل فعل الله ﷻ بنا، وهو قضاؤه الكوني فينا، وقدره الواقع علينا، وهذا لا يحاسبنا الله عليه، فلن يحاسبنا على ألواننا ولا صورنا، ولا عن مشيئته فينا، فالحساب ليس على مشيئته أو تدبيره الكوني لأن ذلك فعل الله بنا.

الوجه الثاني: ابتلاؤنا في موقفنا من تدبيره الكوني وسلوكنا تجاه فعل الله بنا، هل يوافق تدبيره الشرعي التكليفي الديني أم يخالفه؟ فإن وافق فقد وفق العبد واجتاز الابتلاء بنجاح، وزحزح عن النار، ومن زحزح عن النار فقد فاز، كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ آل عمران:١٨٥.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ هود:٧.

• ما علاقة التدبير الكوني بالقضاء والقدر وتوحيد الربوبية؟

التدبير الكوني هو مقتضى توحيد الربوبية، وهو قضاء الله وقدره، وفعله

في خلقه، وهو تدبير قدري حتمي الوقوع، أو تدبير جبري واقع على كل مصنوع، لا يمكن لأحد في العالم رده، ولا يمكن للإنسان صده، ما شاء الله فيه كان، وما لم يشأ لم يكن، تدبير متعلق بربوبية الله لخلقه، وهو كما أخبر سبحانه وتعالى عن نفسه له الخلق والأمر، فالخلق قضاؤه وقدره، وفعله وأمره، وحكمه الجاري في ملكه، لا خروج لأحد عن تدبيره الكوني، ولا غالب لأمره القدري.

وقد نزه أهل السنة والجماعة ربهم عن أن يكون في ملكه ما لا يقدر عليه، ولا تقع مشيئته فيه، وآمنوا أن العباد يعملون على ما قدره الله وقضاه، وفرغ منه قبل وجود الحياة، وأنهم لا يشاءون ولا يفعلون إلا من بعد مشيئته، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهم المؤمنون بلا حول ولا قوة إلا بالله على الحقيقة، قال الإمام الطحاوي: (لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره)[1]. وهو يعني بذلك الجانب الكوني من القضاء والحكم والأمر، فتنبه، لأن ذلك من مشيئته النافذة التي هي أحد مراتب القدر.

• ما علاقة التدبير الشرعي بمحبة الله وتوحيد العبودية؟

أما التدبير الشرعي فهو توحيد العبودية لله وهو ما يحبه وما ارتضاه لعباده من شريعته وأمره الديني فهو تدبير تكليفي اختياري، تدبير خاص بشريعة وهداية وبيان، تدبير من الله لمصلحة الجن والإنسان، تدبير يظهر من خلاله معاني الكفر والإيمان، ويتميز من خلاله أهل الطاعة وأهل العصيان، ويترتب عليه الثواب والعقاب، والعرض والحساب، والنعيم والعذاب. وهذا التدبير

(١) متن العقيدة الطحاوية ص ٢٢.

لمصلحة الإنسان وهو مخير فيه، يمكن أن يطيع الله ﷻ ويمكن أن يعصيه، فالإنسان يمكن أن يخالفه، وعندها يكون قد فعل ما لا يحبه الله ولا يرضاه.

ولا يعني مخالفة العبد للتدبير الشرعي أنه يخرج عن التدبير الكوني أو أن مشيئة العبد غلبت مشيئة الرب، سبحانه لا يفني ولا يبيد، ولا يكون في ملكه إلا ما يريده كونا، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ التكوير:٢٩. لقد شاء بحكمته أن يخلق الناس لعبادته، وأن يكونوا بين مخيرين بين نجدين أو طريقين ، وأن يصيروا في الآخرة فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير، وهذا مقتضي التدبير وكمال التقدير، أن يكون التدبير على نوعين، تدبير كوني وتدبير شرعي. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ هود:١١٨.

والتدبير الشرعي هو الذي ورد ذكره في الحديث القدسي الذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إن الله قال: من عادى لِي ولِيًّا فقدْ آذنتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تقرّب إِلَيّ عبْدِي بِشيْءٍ أحبّ إِلَيّ مِمّا افْترضْتُ عليْهِ، وما يزالُ عبْدِي يتقرّبُ إِلَيّ بِالنوافِلِ حتّى أُحِبّهُ) [1]. فالتدبير الشرعي متعلق بتوحيد العبودية، والعبد مطالب فيه بإتباع الشريعة الإسلامية، وهذا التدبير قد يخالفه الفجار، ويعصيه الفساق والكفار.

ونحن إذا طالعنا القرآن والسنة وجدنا الأدلة على نوعي التدبير بمنتهى البيان والتفصيل، فالتدبير الذي قضاه الله ﷻ وحكم به وأراده وكتبه وأمر به، وكذلك التدبير الذي أذن الله به وجعله وتكلم به وبعثه وأرسله وحرم فيه

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع ٥/ ٢٣٨٤ (٦١٣٧).

ما حرم، وهدى به من هدى ينقسم كله إلى تدبير كوني متعلق بمشيئته، وتدبير ديني متعلق بشرعه ومحبته.

• ما هي أنواع القضاء الذي ورد في كتاب الله؟

علمنا أن مراتب القضاء هي العلم والكتابة والمشيئة، وأن هذا القضاء واقع لا محالة، لأنه قضاء كوني حتمي قضاه الله ﷻ لتقع الخلائق على ما حكم في تكوين الأشياء بحكمه الكوني الذي دونه في اللوح المحفوظ، ويسمى هذا القضاء بالقضاء الكوني.

وقد يرد القضاء بمعنى قضاء الله لصالح العباد ليخيرهم في اتباعه، فقضى لمصلحتهم أفضل الطرق، وأكمل السبل لفوزهم ونجاتهم، وهذا القضاء قد يقبله العبد أو يرفضه، لكنه سيحاسب على قبوله أو رفضه في الدنيا والآخرة، ولذلك سمي القضاء الشرعي، أو القضاء التكليفي، أو القضاء الديني، فلا بد أن نميز بين نوعين من القضاء في كتاب الله تعالى، نوع يتعلق بالتدبير الكوني، وآخر يتعلق بالتدبير الشرعي.

ومثال القضاء الكوني قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ سبأ:١٤. أي قضينا على سليمان عليه السلام ساعة الأجل، وهذا أمر كوني لا يتقدم ولا يتأخر عن موعده، قدره الله في علمه، وكتبه في لوحه، وشاء بقدرته أن تنفذ ساعة أجله، فهو قضاء متعلق بتدبير الله الكوني.

ومن القضاء المتعلق بتدبير الله الشرعي الديني الذي قضاه لصالح الإنسان كأفضل منهج يتبعه في الحياة قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ

وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الإسراء:٢٣. ومعنى قضي ربك ألا تعبدوا إلا إياه، أي أمركم وشرع لكم، وأحب لكم، وكلفكم ألا تعبدوا إلا إياه، فهذا قضاء شرعي لا كوني قد يخالفه العباد ولا يستجيبون له ، فيعبدون غير الله ﷻ، ولو كان قضاء كونيا لما عبد أحد منهم غير الله تعالى، ولما رأينا أحدا يتأفف في وجه والديه أو ينهرهما، والأمثلة في القرآن والسنة كثيرة لنوعي القضاء.

• ما هي أنواع الحكم الذي ورد في كتاب الله؟

الحكم الذي ورد في كتاب الله منسوبا إلى الله يرد أيضا في كتاب الله على نوعين: فقد يكون حكما كونيا يتعلق بالتدبير الكوني، ويكون واقعا بمشيئة الله ﷻ لا محالة، ولا يمكن للإنسان مخالفته. وقد يكون حكما شرعيا يتعلق بالتدبير الشرعي الموجه إلى المكلفين من العباد، وهو متوقف على إرادتهم ورغبتهم واختيارهم، فربما خالفوا حكم الله الشرعي وربما وافقوه، وهذا الحكم الشرعي يتوقف على تنفيذ الإنسان له ومسئوليته في اختيار مصيره، وما سيلحق به من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة كنتيجة لاختياره الكفر أو الإيمان.

ومثال الحكم الكوني قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ الرعد:٤١. والمعنى أن الله يحكم حكما نافذا خاليا عن المعارض والمناقض الذي يعقب على الشيء بالرد والإبطال، فقد حكم للإسلام بالغلبة والإقبال، وعلى الكفر بالانتكاس والإدبار، وذلك كائن لا

يمكن تغييره، فهذا الحكم حكم كوني.

ومثال الحكم الديني المتعلق بالتدبير الشرعي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾ المائدة:١.

وقد يسأل سائل عن الفرق بين الحكم الكوني والقضاء الكوني؟ والجواب أن القضاء الكوني أعم من الحكم الكوني، فالقضاء تستصدر منه الأحكام الكونية، والأحكام الكونية خاصة بحالاتها ومفرداتها، وما حكم الله به لكل نوع من أفرادها كما وكيفا، ألا ترى بقياس الأولى أن القاضي من البشر يستصدر أحكاما متنوعة ومتعددة، وأن القضية الواحدة تشمل في طياتها أحكاما مختلفة ومتنوعة، وتلك الأحكام تقع على عدد من المحكومين، سواء فعلوا خيرا أو شرا، أو كانوا ظالمين أو مظلومين.

أما القضاء الشرعي فهو كالحكم الشرعي، فالحكم الشرعي قد يكون واجبا أو مندوبا أو مباحا أو مكروها أو محرما. وكذلك القضاء الشرعي، فالله قضى ألا نعبد إلا إياه، وعبادة الله وحده تتمثل في تنفيذ أحكام العبودية، وهي الأحكام الشرعية التكليفية التي تتنوع بين الواجب والمحرم، وبين المندوب والمكروه، أو التخيير في المباح.

• ما هي أنواع الأمر الذي ورد في كتاب الله؟

ورد الأمر في القرآن على المعنى الكوني تارة، وعلى المعنى الشرعي تارة أخرى، فالأمر الكوني أمر يتعلق بالتدبير الكوني النافذ، وهو بمعنى المشيئة والقضاء الكوني المبرم والحكم الكوني، وهو شاهد لتوحيد الربوبية، ومُظهر

لمعاني القدرة الإلهية، ومن أمثلة الأمر الكوني قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ الطلاق:٢/٣. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ الأحزاب:٣٨.

أما الأمر الشرعي فهو المقابل للنهي التكليفي الشرعي، وهو أمر من الله لعباده المكلفين ولمصلحتهم، وتكليف من الله ﷻ لهم فيما خولهم واستخلفهم وابتلاهم واسترعاهم واستأمنهم، ويترتب على موافقته أو مخالفته الثواب والعقاب عند الحساب، وهذا الأمر هو أمر بما يحبه الله ويرضاه للعباد فيما يختارون ويفعلون، وقد يخالفونه أو يعصونه، وهو شاهد لتوحيد العبودية، ومُظهر لمعاني الحكمة الإلهية. ومن أمثلة الأمر الشرعي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ الأعراف:٢٩. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ النحل:٩٠.

• ما هي أنواع الإرادة التي وردت في كتاب الله؟

مشيئة الله لا تكون إلا كونية فقط، كما أن المحبة لا تكون إلا شرعية فقط، أما الإرادة فهي كونية وشرعية، وعدم التفريق بين الإرادة الكونية والشرعية أدى إلى الضلال في النظر إلى أفعال الله ﷻ من وجه واحد فقط، فيجعلون التدبير الشرعي بمعنى التدبير الكوني حتى جعلوا الله مريدا محبا لجميع الكائنات، ولم يميزوا بعد ذلك بين إيمان وكفر، ولا معروف ولا منكر، ولا حق ولا باطل، ولا مهتدى ولا ضال، ولا راشد ولا غوي، ولا ولي لله ولا

عدو، ولا بين أعمال أهل الجنة وأعمال أهل النار، ولا بين الأبرار والفجار حيث شهدوا ما تجتمع فيه الكائنات من القضاء السابق والمشيئة النافذة والقدرة الشاملة، وقالوا الكل إرادة الله ﷻ ، محتجين بالنصوص التي وردت في الإرادة الكونية كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ يس:٨٢. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ۝٢٥٣﴾ البقرة:٢٥٣.

وهؤلاء شهدوا المشترك بين المخلوقات من نفاذ المشيئة الإلهية والقضاء المبرم والإرادة الكونية ووقوع المقادير، وتعاموا عن الفارق بينهما من جهة الأخذ بالأسباب وإرادة الله الشرعية في التكليف بالأحكام وشرائع الإسلام وتمييز الحلال من الحرام، وترتيب الأجر في الإسلام، والعقاب على الإجرام، وإرادة الله ﷻ التي وردت في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ۝٢٧﴾ النساء:٢٧. فلو كانت هذه الإرادة كونية لوقعت التوبة من جميع المكلفين.

وكذلك كان من ضلالة الشيعة الإمامية الإثنا عشرية في إيران والعرق ولبنان بسبب اعتقادهم أن إرادة التطهير لأهل البيت إرادة كونية وهي ليست كذلك، فالإرادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ۝٣٣﴾ الأحزاب: ٣٣.

- **اذكر أمثلة لضلال من لا يفرق بين نوعي التدبير؟**

طريقة الأنبياء وأتباعهم اتباع التدبير الشرعي والإيمان بالتدبير الكوني، فيعملون بشرع الله ﷻ ويؤمنون بقدر الله، يعملون بالحكم الشرعي والقضاء الشرعي والإرادة الشرعية، ويؤمنون بالحكم الكوني والقضاء الكوني

والإرادة الكونية، أما أعداء الله فيعصون أمره، ويحتجون بقضائه وقدره على معصيتهم، فلا ينفعهم وقوفهم مع المراد الكوني، ولا يكون ذلك عذرا لهم عند الله، إذ لو كان العذر مقبولا بسبب الاحتجاج بإرادة الله الكونية لم يذم الله أحدا من خلقه على معصيته، ولم يعاقبه على وزره، ولم يكن في خلقه عاص ولا كافر، ومن زعم ذلك فقد كفر بالله وكتبه كلها وجميع رسله.

رأى أحد الجبرية رجلا يزني بامرأته، فحاول أن يمسك به فهرب منه، فأقبل يضرب امرأته وهي تقول: القضاء والقدر، القضاء والقدر، فقال: يا عدوة الله أتزنين وتعتذرين بالقضاء والقدر؟ فقالت: هل تركت السنة وأخذت بمذهب ابن عباس؟ فتنبه ورمى بالسوط من يده واعتذر إليها وقال: لولاك لضللت. وحدث هذا لرجل آخر، رأى امرأته تزني، فقال لها: ما هذا الذي صنعت؟ فقالت: هذا اختيار الله وقضاؤه وقدره، فقال: الخيرة فيما اختاره الله وقضاه، فلقبه الناس بالخيرة فيما اختاره الله، وكان إذا ناداه أحد بذلك غضب.

وقال بعض الجبرية المحتجين على المعاصي بالإرادة الكونية: لي خمس بنات، لا أخاف على إفسادهن إلا من الله وتدبيره. ومثل هذه الأقوال والأفعال من قبيل القبائح العقلية والفضائح التي لا تقع إلا من السفهاء، فليس لأحد أن يحتج على فعل الذنوب والمعاصي بقدر الله، بل عليه أن لا يفعلها، وإذا فعلها فعليه أن يتوب منها.

وكذلك من نفى إرادة الله الكونية من المعتزلة القدرية، ولم يؤمن إلا بالمحاسبة على مخالفة الإرادة الشرعية، سوف يجعل إرادة العاصي أقوى من إرادة الله، وسوف يجعل جميع الكافرين أقوى من رب العالمين، وهذا شرك في

الربوبية تعالى الله عن قولهم.

جاء أعرابي إلى عمرو بن عبيد أحد المؤسسين لمذهب المعتزلة الباطل الذين لا يفرقون بين الإرادة الكونية والشرعية وقال له: ناقتي سرقت فادع الله لي أن يردها علي، فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم ترد أن تسرق ناقته فسرقت، اللهم فردها عليه. فقال له الأعرابي: لا حاجة لي في دعائك الخبيث. فقال عمرو بن عبيد: ولم؟ قال الأعرابي: إن كان السارق سرقها، ولم يرد الله سرقتها، فأخشى أن يريد الله ردها فيأبى السارق ولا يردها. فعلم الأعرابي أن مذهب المعتزلة باطل لأنهم يجعلون إرادة العاصي أقوى من إرادة الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

- **ما الفرق بين هداية التوفيق وهداية الدلالة والإرشاد؟**

هداية الله في القرآن والسنة نوع من أنواع التدبير الإلهي، وقد تكون كونية أو شرعية؛ فإن تعلقت بالمشيئة فهي هداية كونية حتمية، وتسمى هداية التوفيق، وهي تأتي بمعنى تيسير الأسباب للخلائق بتقدير الله وقدرته، وبمعنى ما كتبه الله في اللوح المحفوظ وأخفاه مما اختص به من شاء من عباده أن يكونوا من أهل الإيمان، وهذه الهداية لا تعرف إلا بعد وقوعها، ولا نعلمها إلا بعد موت العبد على التوحيد أو دخوله الجنة.

أما إذا تعلقت الهداية بفعل ما يحبه الله ويرضاه فهي هداية شرعية تكليفية دينية، وتسمى هداية البيان والدلالة والإرشاد، وقد جاءت بها الرسل من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وهي بيان الصراط المستقيم الذي يؤدي اتباعه إلى الجنة وتؤدي مخالفته إلى النار، وهذه الهداية حق العباد على ربهم تفضلا منه وتكرما

تحقيقا لوعده لهم ألا يعذبهم إلا إذا أرسل إليهم الرسل لهدايتهم إلى طريق السعادة في الدنيا، والنجاة في الآخرة، ومن أمثلة هذه الهداية الشرعية قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ البقرة:٣٨. وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ فصلت:١٧.

ومن أمثلة الهداية الكونية التي لا دخل لأحد فيها، وهي متعلقة بمشيئة الله وما قدره في اللوح قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ القصص:٥٦. وقوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ الأعراف: ١٧٨.

• كيف ترد على شبهة القدرية المعتزلة في نفي القدر؟

سبب الضلال الذي وقعت فيه القدرية المعتزلة أنها لا تفرق بين نوعي الهداية أو نوعي التدبير، فيعتبرون تقدير الله الذي كتبه في لوحه قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة يعتبرون ذلك ظلما في حق الكافرين لأن الله لو قدر الكفر والضلال على الكافرين ثم عذبهم على ما خلقه فيهم لكان ظالما لهم، ويقول قائلهم متسائلا: لو فرضنا أن إنسانا كتب الله عليه في اللوح المحفوظ أنه كافر مخلد في النار، ثم أطاع رب العزة والجلال طول الحياة، ومات على الطاعة في هذه الدار، فهل سيدخل الجنة أم النار؟

والجواب أن هذه شبهة إبليس، ولا يقع فيها إلا أصحاب التدليس من المعتزلة، وسبب هذه الشبهة هو إقرار السائل على الخطأ الذي اقترفه في

سؤاله، فالذي يفترض أن إنسانا ما كتب الله عليه في اللوح المحفوظ أنه كافر مخلد في النار، نقول له: فرضك خاطئ، فمن أين علمت أن الله ﷻ كتب عليه في اللوح المحفوظ أنه كافر مخلد في النار؟ لقد فاتك احتمال أن يكون الله ﷻ قد كتب عليه في اللوح المحفوظ أنه مؤمن مخلد في الجنة. فالذي فرضت أنه كافر في اللوح المحفوظ، ربما كتبه في اللوح المحفوظ مؤمنا، والعكس صحيح، فالقول بالاحتمال الواحد لشخص ما أنه مكتوب كافر في اللوح المحفوظ والتقدير السابق، قول على الله ﷻ بلا علم، وهو رجم بالغيب، فعلم الغيب هو سر القدر، وهذا السر أخفاه الله ﷻ لتصح الحكمة ويصح الجزاء على العمل، ولذلك لا يمكن لأحد أن يطلع على ما في اللوح لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، فالحال ليس كما فعلت المعتزلة في تصويرهم للوح المحفوظ كأنه جريدة صحفية مرئية أو غير مخفية، أو كتاب من كتب البشر يقرؤونه كما يشاءون، ثم يحاسبون ربهم لم كتبت هذا شقيا وهذا سعيد؟ ولو كتبت على فلان أنه كافر ثم عذبته لكان ظلما منك له؟ ولو كان كذا في اللوح، لكان كذا وكذا وكأن اللوح عندهم مطروح لمناقشته في رسالة علمية، تعالى الله عن قولهم.

وإنما يصح احتجاجهم لو قالوا: لو فرضنا أن إنسانا أنزله الله من بطن أمه، مكتوب على وجهه: كافر مهما فعلت وستدخل النار، وعلم هذا الإنسان أن قدره ومصيره إلى النار مهما أطاع رب العزة والجلال! عندها يصح احتجاج المعتزلة، ويكون الأمر ظلما بالفعل ومنافيا للعدل، وهذا لم يحدث أبدا، فما من إنسان يعلم مصيره غدا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي

نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾ لقمان:٣٤.

بل الواقع يشهد أن كل إنسان منا نزل من بطن أمه، وليس له إلا أن يأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى تحقيق مراده، فمن أراد الجنة أخذ بالأسباب المؤدية إليها، ومن أراد النار أخذ بالأسباب المؤدية إليها، فليس لنا غير العمل، وسيقع ما أخفاه الله في القدر، وليس أفضل من قول النبي ﷺ لسراقة بن مالك ﷺ: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، ثم قرأ ﷺ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠)﴾ الليل:٥/ ١٠.

ومن هنا كان شعار المعتزلة الذي رفعوه في الأصل الثاني من أصولهم الخمسة والمسمى عندهم بالعدل شعارا باطلا.

• ما هي أنواع الكتابة التي وردت في كتاب الله؟

الكتابة من أنواع تدبير الله في خلقه، وهي على نوعين، فقد تكون كتابة كونية، وتعني ما كتبه الله في أم الكتاب من كلمات كونية، سوف تنفذ بمشيئة الله وقدرته لا محالة، وتعني القضاء المبرم الذي سيحدث في العالم مما انفرد الله بعلمه، ولم يطلع عليه أحدا من خلقه. والكتابة الكونية هي المرتبة الثانية من مراتب القضاء والقدر، فالقضاء الكوني ثلاث مراتب علم وكتابة ومشيئة، والقدر أربع مراتب وهي مراتب القضاء بالإضافة إلى المرتبة الرابعة وهي مرتبة الخلق.

ولا بد من مراعاة نوعي الكتابة عند النظر إلى النصوص القرآنية والنبوية، لأن الخلط بينهما يؤدي إلى التخبط في فهم العقيدة أو التواكل في الحياة، أو

عدم التوكل على الله، وهذا ما وقع فيه الجبرية والقدرية، فالكتابة قد تكون كونية مظهرة لمعاني القدرة وتوحيد الربوبية، وقد تكون شرعية مظهرة لمعاني الحكمة وتوحيد العبودية. فمن المعاني الكونية ما ورد في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ التوبة:٥١. قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ الحديد:٢٢.

إن الله جعل الخلائق بين قدرته وحكمته، فكما أنه قادر على كل شيء، فإنه حكيم لا يظلم أحدا من خلقه، ولا بد من أن تظهر أثار اسمه الحكيم كما ظهرت أثار اسمه القدير، ولذلك شرعت الأحكام وألزمنا الله ﷻ بشريعة الإسلام، وكتب الله علينا العمل بها، وأمرنا في المقابل أن نعتقد فيما سبق في أم الكتاب من المقادير وأن نؤمن بها، فالتوحيد عند السلف الصالح توحيد الشرع والقدر معا.

وكما ذكر الله ﷻ في كتابه الكتابة الكونية الحتمية القدرية النافذة، ذكر أيضا الكتابة الشرعية الدينية التكليفية التي أحبها لنا، وابتلانا بها، ورتب المؤاخذة في أفعالنا على موقفنا منها، ومن أمثلة الكتابة التشريعية المظهرة لحكمة الله في عباده ما ورد في قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ المائدة:٣٢.

وقوله تعالى: ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ البقرة:١٨٧.

• ما هي أنواع التحريم الإلهي التي وردت في كتاب الله؟

التحريم الإلهي قد يكون بالمعنى الكوني المظهر للقدرة، أو المعنى الشرعي المظهر للحكمة، فالتحريم الكوني من قضاء الله وقدره ومشيئته في خلقه كما ورد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾ المائدة: ٢٦. وقوله تعالى: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) ﴾ القصص:١٢.

أما التحريم الشرعي الذي أوجب الله فيه على عباده ترك ما لا يحبه لهم ولا يرضاه، وأنه سيعاقب من فعل ما حرم الله، فمثاله قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ الأعراف:٣٣. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾ الأنعام:١٥١.

• بين كيف أن إسقاط التدبير قد يقع فيه الصديق والزنديق؟

مصطلح إسقاط التدبير من المصطلحات التي تتطلب بيانا وتحقيقا، فالتدبير قد يُراد به تدبير الله لعبده، وهذا كما سبق على نوعين: تدبير كوني بمعنى المشيئة والإرادة الكونية، وتدبير شرعي بمعنى المحبة والإرادة

الشرعية، وقد يُراد به تدبير العبد لنفسه، وهي إرادة العبد واختياره ما يشاء من خير أو شر، فإن أريد بإسقاط التدبير أن العبد يسقط تدبير الله الكوني، فهذا باطل لأنه لا حيلة له فيه، فالتدبير الكوني هو قضاء الله وقدره، ومشيئته الواقعة في خلقه، وهي سارية لا محالة في الخلائق أجمعين، سواء كانوا مؤمنين أو كافرين.

وإن أُريد بإسقاط التدبير أن العبد يسقط تدبير الله الشرعي، ولا يتبع أحكام العبودية، وأنه وصل كما زعم كثير من غلاة الصوفية إلى مرتبة الحرية من العبودية والتكاليف الشرعية، فهذا كفر وزندقة واتباع لمذهب الجبرية، فما من إنسان إلا وهو مكلف باتباع الشرع وأحكام العبودية، ومكلف بفعل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، ولا يسعه قط أن يسقط هذا التدبير الشرعي، أو يخرج عنه بأي حجة أو حال من الأحوال.

وإن أُريد بإسقاط التدبير أن العبد يخالف ما يهواه، ويريد الطاعة لله ورسوله ﷺ، ويسقط اختياره الشخصي تفضيلا منه للتقيد بتدبير الله الشرعي والعمل باختيار الله الديني التكليفي، فهذا صديق وولي من أولياء الله، قد وفقه الله إلى ما يحبه ويرضاه، فتوافقت إرادة العبد مع إرادة الله الشرعية، ومن ثم توافقت مع إرادة الله الكونية، وهذا هو التوفيق الذي نسأل الله أن يوفقنا إليه في هذه الحياة.

وقد سئل سهل بن عبد الله التستري عمن قال: أنا كالباب لا أتحرك إلا أن يحركوني، فقال: لا يقول هذا إلا صديق أو زنديق[1]. وهو يشير إلى انضباط

---

(١) الفتاوى الحديثية لأحمد شهاب الدين ابن حجر الهيتمي المكي ص٢٣٥.

الباطل برجله، لأنه يحول بين المرء وقلبه تيسيرا لأسباب الطاعة، كما أن الله ﷻ يكرم عبده الصديق الذي يوافق شرع الله موافقة تامة بإجابة الدعاء.

أما الزنديق فهو الذي أثبت القدر محتجا به على الشرع، محاربا له به، نافيا عن العبد قدرته التي منحه الله إياها، ونفى أمره سبحانه ونهيه، فقد نفى الحكمة عن أفعال ربه ونسب الظلم والعبث إليه كالجبرية. قيل لبعض هؤلاء الجبرية الزنادقة: ألم يقل الله: ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ الزمر:٧ ؟ فقال: دعك من هذا الكلام. لقد رضي الكفر وأحبه وأراده، ومن أفسدنا غير الله؟ تعالى الله عن قوله علوا كبيرا [(١)].

• ما هي أنواع العلاقة بين فعل العبد وفعل الرب؟

العلاقة بين فعل العبد وفعل الرب كما وردت في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، يمكن حصرها في أربعة أنواع:

١ – النوع الأول: حال الطاعة، فطاعة العبد لربه تتم بإرادة الله الكونية، وموافقة العبد بإرادته لإرادة الله الشرعية، فتتوافق الإرادات، ويظهر توفيق الرب للعبد، وفعله هنا يُنسب الفضل فيه إلى الله، فهو الذي وفق العبد إلى طاعته، وحقق له مراده بفضله ومنته، فالفضل لله وحده، وإن كان العبد سببا في فعل الطاعة وسيجازى عند ربه بسبب فعله، فالذين قالوا أسلمنا مِنة منهم على نبيهم ﷺ، رد الله الفضل في إسلامهم إلى منته فقال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص١٥٤.

صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ الحجرات:١٧. فالفضل لله في إتمام طاعة عبده، ويجب على العبد أن ينسب الفضل إلى ربه، فهو الذي حبب إليه الإيمان وزينه في قلبه. وقال رسول الله ﷺ: (قاربُوا وسدِّدُوا، واعلمُوا أنهُ لن ينجُو أحدٌ مِنكُمْ بِعملِهِ، قالوا: يا رسُول الله ولا أنت؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمّدني اللهُ بِرحمةٍ مِنهُ وفضْل) [(١)]. ودلالةَ الحديث واضحة في دخول الجنة بسبب العمل، لكن العمل لا يقابل الجزاء، فالجنة منحة من الله ﷻ لأهل التقوى، منحهم أياها بفضله، كما أنه أيضا وفقهم في الدنيا إلى الإيمان والتقوى بفضله، فهم يعلمون أنه لا حول ولا قوة لهم إلا بمعونة ربهم، والعبد لا ينتقل من حال إلى حال إلا بالله، ولا قوة للإنسان على فعل شيء من الطاعة إلا بالله، فلا حول ولا قوة إلا بالله كلمة عظيمة، وكنز من كنوز الجنة.

٢- النوع الثاني: من موقف العبد تجاه قدرة الرب وفعله، أو النوع الثاني من العلاقة بين فعل العبد وفعل الرب المعصية، والمعصية ينسب فيها الفعل إلى كسب العبد، وإن تم الفعل بقدرة الرب ومشيئته، قال تعالى عن الطاعة: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ النساء:٧٩. وقال في المقابل عن المعصية: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ ﴾ النساء:٧٩. فالمعصية لا يصح أن ينسبها العبد إلى الرب، فهذا فعل المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا ﴾ الأنعام:١٤٨.

وهنا يأتي معنى الإضلال، لأن الإضلال أصل الانحراف عن الطريق

---

(١) مسلم في القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ٤/ ٢١٧٠ (٢٨١٦).

والتخلف عنه وعدم الاتفاق عليه، ولأن إرادة العبد خالفت إرادة الله الشرعية، وإن وقعت عليه الإرادة الكونية، فباعتبار مخالفته للإرادة الشرعية نقول: ضل وننسب المعصية إليه، وباعتبار وقوع الإرادة الكونية الحتمية نقول أضله الله كما قال سبحانه: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ ﴾ القصص:٥٠.

والمعصية وإن كانت بقدر الله إلا أنه لا يجوز للعاصي أن يحتج فيها بالقدر، وأنه مسير مجبور على العصيان فهذا فعل الزنادقة. وصاحب هذا الاعتقاد الفاسد لا يكون إلا ظالما متناقضا، إذا آذاه غيره أو ظلمه طلب معاقبته والمبالغة في جزائه والانتقام منه، ولم يعذره بالقدر وأنه مسير مجبور، وإذا كان هو الظالم لغيره احتج هو لنفسه بالقدر وادعى أنه مسير مجبور، فلا يحتج أحد بالقدر على معصيته إلا لاتباع الهوى، وحجته باطلة داحضة فاسدة لا حق معه ولا دليل، ولذلك لما احتج المشركون بالقدر على شركهم بين الله كذبهم وقال لهم: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الأنعام:١٤٨ .

ولهذا كان هؤلاء المشركون المحتجون بالقدر إذا عاداهم أحد قابلوه وقاتلوه وعاقبوه وانتقموا منه ولم يقبلوا حجته إذا قال لهم: لو شاء الله ما عاديتكم. بل هم دائما يعيبون من ظلمهم واعتدى عليهم ولا يقبلون احتجاجه بالقدر أبدا، فلما جاءهم الحق من ربهم أخذوا يدافعون ذلك بالقدر، ويقولون نحن مسيرون في شركنا وذنوبنا، وقد رضي الله الشرك لنا، فصاروا يحتجون على ترك الشرع بما لا يقبلونه على أنفسهم.

وهؤلاء يعلمون أنهم لو اعتدوا على محارم أمير أو وزير، لأصابهم عقابه الشديد، فامتثلوا خوفا على أنفسهم من الوعيد، الذي يتوعدهم به مخلوق، ولم يمتثلوا خوفا من ملك الملوك، فانتهكوا محارم الله، وتركوا ما فرضه عليهم في هذه الحياة، فبئست العقيدة التي يكون فيها أمر المخلوق ونهيه أعظم عندهم من أمر الله ﷻ ونهيه.

٣- النوع الثالث: في موقف العبد تجاه فعل الرب المصيبة، وهي التي وقعت بقدر الله ﷻ كعلة لابتلاء العبد في موافقته للإرادة الشرعية أو عدمها كما قال الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ التغابن:١١.

قال ابن مسعود ﷺ: (هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم)[١]. فالسعيد يستغفر من المعائب، ويصبر على المصائب، والشقي يجزع عند المصائب، ويحتج بالقدر على المعائب.

٤- النوع الرابع: المعصية التي تاب العبد منها فيجوز الاحتجاج بالقدر عليها كما حدث في احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، وربما يقول قائل: كيف صح لآدم عليه السلام أن يحتج بالقدر على معصيته؟ وكيف لامه موسى عليه السلام بعد توبته؟ وجواب ذلك أن موسى أعرف بالله وأسمائه وصفاته من أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه، كما أن الله ﷻ بعد توبته اجتباه وهداه واصطفاه، كما أن آدم عليه السلام أعرف بربه من أن يحتج بقضائه وقدره على معصيته.

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٦٦ (٦٩٢٥).

• كيف نفهم العلاقة بين القدر والأخذ بالأسباب؟

خرج عمر بن الخطاب ﷺ إلى الشام ليتفقد الجند فلقيه أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ﷺ وأخبروه أن وباء الطاعون قد وقع بأرض الشام، فاستشار عمر ﷺ المهاجرين والأنصار وقرر أن يرجع بالناس ولا يدخلهم على هذا الوباء، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر ﷺ: نفر من قدر الله إلى قدر الله. ثم جاء عبد الرحمن بن عوف فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه[1].

ولا ريب أن المقادير سابقة بوقوع القدرة على التقدير، وقد جرى القلم بما هو كائن إلى الأبد، فلا محيص للإنسان عما قدره الله ﷻ كونا من أمور الابتلاء، لكنه سبحانه أمرنا شرعا بالحذر من أسباب البلاء، وباستفراغ الوسع في طلب الدواء عند وقوع الداء حتى يتم الشفاء من الشافي سبحانه وتعالى، ومعنى قوله ﷺ: إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه، يعني إذا كان الوباء بأرض فلا يقدم عليه أحد أخذا بالحزم والحذر والتحرز من مواضع الضرر، فإن صيانة النفس عن المكروه واجبة، وكذلك الخوف من سوء الاعتقاد بأن يقول القائل: لولا دخولي في هذا المكان لما نزل بي مكروه.

وهكذا الإسلام جاء بحسن الاعتقاد في الله والإيمان بقضائه وقدره، وجاء أيضا بمقتضى العقل والحكمة والأخذ بالأسباب. وهذا هو وجه الجمع بين

---

(١) هذا معنى الحديث وقد رواه البخاري في الطب، باب في الطاعون ٥/ ٢١٦٣ (٥٣٩٧).

قول النبيﷺ: لا عدوى ولا طيرة، وقوله ﷺ: فر من المجذوم فرارك من الأسد. روى البخاري عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: (لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد)[1].

وقد أراد النبي ﷺ بقوله: لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، نفي ما كان يعتقده أهل الجاهلية من الاعتقادات الباطلة التي تؤثر في القلب، وتضعف حسن الظن بالله، بل قد تزيله، وقد يكون معها نسبة الله ﷻ إلى النقص، إما بنفي القدرة، وإما بالشرك، فقد يجعل شريكا آخر معه في العبادة أو في التأثير، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: لا عدوى، يعني لا عدوى مؤثرة بطبعها؛ لأن أهل الجاهلية، كانوا يعتقدون أن العدوى تؤثر بنفسها تأثيرا لا مرد له، وتأثيرا لا صارف له.

وقوله ﷺ: لا عدوى، لا ينفي أصل وجود العدوى، وهي انتقال المرض من المريض إلى الصحيح بسبب المخالطة بينهما، فإن الانتقال بسبب المخالطة حاصل ملاحظ مشهود، لكنه ﷺ بقوله: لا عدوى، لا ينفي أصل وجودها، فالمرض لا ينتقل من المريض إلى الصحيح عند مخالطة الصحيح للمريض بنفسه، وإنما انتقاله وإصابة الصحيح بالمرض عند المخالطة، إنما هو بقضاء الله وقدره. وقد يكون الانتقال وقد لا يكون، فليس كل مرض معد يجب أن ينتقل من المريض إلى الصحيح، بل إذا أذن الله ﷻ بذلك انتقل، وإذا لم يأذن لم ينتقل، فهو واقع بقضاء الله وقدره، فالعدوى أو انتقال المرض من المريض للصحيح سبب من الأسباب التي يحصل بها قضاء الله وقدره، لكنها ليست لازما حتميا كما كان يعتقده أهل الجاهلية.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الطب، باب الجذام ٥/ ٢١٥٨ (٥٣٨٠).

وهذا ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في الأخذ بالأسباب: (لا يورد ممرض على مصح، ولا يورد ممرض على مصح)[1]. ومعنى لا يورد ممرض على مصح أن الإبل المريضة لا تورد على الإبل الصحيحة، لأن الخلطة سبب لانتقال المرض من الإبل المريضة إلى الصحيحة وهذا فيه إثبات لوجود العدوى، ولكنه إثبات لسبب، والسبب قد يحصل منه المكروه، كما أنه إذا باشر المرء أسباب الهلاك حصل له الهلاك بقدر الله، كما أنه إذا أكل حصل له الشبع، وإذا شرب حصل له الري، فذلك كله لأنها أسباب.

ومعنى قوله ﷺ: ولا طيرة، الطيرة نوع من التشاؤم كان يعتقده أهل الجاهلية، والمؤمن يجب عليه أن يتوكل على الله ﷻ حق التوكل فالطيرة باطلة، ولا أثر للأسباب إلا بقضاء وقدر. ومعنى قوله ﷺ: ولا هامة، إبطال ما كانت عليه عقيدة الجاهلية، وذلك لأن أهل الجاهلية كانوا يعتقدون أن الذي يقتل يبقى طائر على قبره يصيح للأخذ بثأره، وبعضهم يعتقد أن الهامة طائر كالبومة تدخل فيها روح الميت فتنتقل بعد ذلك إلى حي آخر، فمنع النبي ﷺ ذلك، لمنافاته توحيد الله، وأنها اعتقادات جاهلية لا أصل لها.

ومعنى قوله ﷺ: ولا صفر. يعني لا تشاءموا بشهر صفر، وهو الشهر المعروف بعد شهر الله المحرم، فقد كانوا في الجاهلية يتشاءمون بصفر، ويعتقدون أنه شهر فيه حلول المكاره والمصائب، فلا يتزوج من أراد الزواج في شهر صفر لاعتقاده أنه لا يوفق في زواجه، ومن أراد تجارة فإنه لا يمضي صفقته في شهر صفر لاعتقاده أنه لا يربح، ومن أراد التحرك والمضي في شئونه البعيدة عن بلده، فإنه لا يذهب في ذلك الشهر لاعتقاده أنه شهر

(١) رواه مسلم في السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ٤/ ١٧٤٣ (٢٢٢١).

تحصل فيه المكاره والموبقات، ولهذا أبطل ﷺ هذا الاعتقاد الزائف فشهر صفر شهر من أشهر الله، وزمان من أزمنته، لا يحصل الأمر فيه إلا بقضاء الله وقدره، ولم يخصص الله هذا الشهر بوقوع المكاره ولا بوقوع المصائب، بل حصلت في هذا الشهر أمور تاريخية عظمى وانتصارات عظيمة للمسلمين.

• ما هي مذاهب الناس في الأخذ بالأسباب وإبطالها؟

مذاهب الناس في الأخذ بالأسباب وإبطالها على ثلاثة مذاهب، طرفان ووسط، فالمذهب الأول تأسس على نفي النصوص الصحيحة الصريحة الكثيرة الدالة على العمل بالأسباب شرعا وقدرا، وعلى ضرورة الأخذ بها للوصول إلى الجنة والبعد عن النار، وقالوا إن الإنسان مجبور على فعله، ونظر هؤلاء إلى نصوص القرآن والسنة بعين عوراء، فلم يأخذوا بالنصوص الدالة على ضرورة العمل بالأسباب المظهرة لآثار حكمة الله ﷻ وما دل عليه اسمه الحكيم وعدله في إيقاع العذاب على الكافرين كما ورد في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ آل عمران:١٠٦.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾ الأنفال:٥٠/ ٥١.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ

ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ الأنعام: ٩٣.

والنصوص المثبتة لوجود الأسباب وعلاقتها بنتائجها في الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى، تجاهلها هؤلاء، وتجاهلوا إثبات مقتضى حكمة الله في خلق الأشياء وترتيب الأسباب على معاني الابتلاء والحكم العليا التي خلق الله ﷻ الإنسان من أجلها.

أما المذهب الثاني فهو رد النصوص الصحيحة الصريحة الكثيرة الدالة على أن الله ﷻ خالق السبب والنتيجة أو خالق العلة ومعلولها، إن شاء سلب النتيجة عن سببها وخلقها بلا سبب، وإن شاء خلق العلة وسلب عنها معلولها، فتخلفت النتيجة عن سببها، وإن شاء أن يخلق النتيجة بأسبابها، فنظر هؤلاء إلى نصوص القرآن والسنة بعين عوراء فلم يأخذوا بالنصوص الدالة على ثبوت المشيئة والقدرة التي دل عليها اسمه القدير، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ فاطر: ٣. وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ الواقعة: ٦٣/ ٦٦ . وقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ عبس: ٢٤/ ٣٢ .

وأما المذهب الثالث فهو المذهب الذي جاءت به الرسل ودل عليه الحس والعقل والفطرة وهو العمل بشرع الله والأخذ بالأسباب للوصول إلى النجاة في الدنيا والآخرة، والإيمان بتقدير الله وخلقه للأسباب في ترابطها فنتوكل

عليه في قضائها ونستعين به في تحقيقها بالدعاءِ والصدقة والذكر والاستغفار والصلاة والزكام والصيام وصلة الأرحام، فهذا مذهب من نظر إلى القرآن والسنة بعينين سليمتين على الفطرة التي خلقه الله عليها.

• ما هو أثر الإيمان بالقدر في عدم الاستسقاء بالأنواء؟

روى البخاري عن زيد بن خالد الجهني ﷺ أنه قال: (صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: أصبح من عبادي مؤْمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤْمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب)[1].

أخبر الله ﷻ أن من عباده مؤمنا به، وهو من أضاف المطر إلى فضل الله ورحمته، وأنه المنفرد بالقدرة على ذلك دون سبب ولا تأْثير لكوكب ولا لغيره، فهذا المؤمن بالله تعالى كافر بالكوكب، بمعنى أنه يكذب قدرة الكوكب على شيء من ذلك، ويجحد أن يكون له فيه تأْثير، وأن من عباده من أصبح كافرا به، وهو من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فأضاف المطر إلى النوء، وجعل له في ذلك تأْثيرا وللكوكب فعلا مستقلا. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ يوسف:١٠٦.

ومن هنا كانت عقيدة أهل السنة أن لا بد من الإقرار بأن الله ﷻ هو الذي قدر ودبر، وأن الأسباب التي يقلبها ربنا، مثلها كمثل الآلة بيد الصانع، ألا

(١) البخاري في الاستسقاء، باب وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ١/ ٣٥١ (٩٩١).

ترى أنه لا يقال: السيف ضرب العنق، ولا السوط ضرب العبد، وإنما يقال: السياف ضرب العنق، وفلان ضرب فلانا بالسوط، وإن كانت هذه الأشياء أسبابا مباشرة للأفعال إلا أنها آلة بيد صانعها، وكذلك العباد يباشرون الأسباب في ظاهر النظر عند البشر، والله من ورائهم محيط متوحد في الربوبية، هو القادر بلطائف القدرة وخفايا المشيئة.

وإنما ذكر الله تعالى الأسباب لأن الشرائع تتعلق بها والأحكام عائدة عليها بالثواب والعقاب، فالعبد لا بد أن يعتقد أنه لا خالق إلا الله ولا مدبر للكون سواه، وأن الرب الذي يرزق ويشفي ويحي ويميت بأسباب قادر على أن يرزق ويشفي ويحي ويميت من غير أسباب، فالأخذ بالأسباب ركن من أركان التوكل على الله، فلا يضر التصرف في أسباب العيش والتكسب في أسباب الرزق، والأخذ بأسباب الشفاء، والنجاة من الهلاك لمن صح توكله، ولا يقدح في مقامه ولا ينقص ذلك من حاله. كما روى الترمذي وحسنه الألباني عن أنس بن مالك ﷺ أن رجلا قال للنبي ﷺ: (أُرسل ناقتي وأتوكل؟ قال: اعقلها وتوكل)[1].

الموحد يعلم أن الله تعالى قد جعل في الأسباب منافع خلقه، ومفاتح رزقه وخزائن حكمته، وعلم أنه مقتد في ذلك بنبيه متبع لسنته. وقد ذكر ابن حزم أن النبي ﷺ صح عنه تصحيح الطب والأمر بالعلاج، وأنه ﷺ قال: تداووا، فإن الله تعالى لم يخلق داء إلا خلق له دواء إلا السام، والسام الموت. فاعترض قوم فقالوا: قد سبق علم الله ﷻ بنهاية أجل المرء، ومدة صحته، ومدة سقمه، فأي معنى للعلاج؟ قال ابن حزم فقلنا لهم: نسألكم هذا السؤال نفسه في

---

(١) رواه الترمذي ٤/ ٦٦٨ (٢٥١٧)، وانظر مشكلة الفقر وكيف عالجها الألباني ١ / ٢٣ (٢٢).

جميع ما يتصرف فيه الناس من الأكل والشرب واللباس لطرد البرد والحر والسعي في المعاش بالحرث والغرس والقيام على الماشية والتحرف بالتجارة والصناعة، ونقول لهم: قد سبق علم الله تعالى بنهاية أجل المرء، ومدة صحته، ومدة سقمه، فأي معنى لكل ما ذكرنا، فلا جواب لهم إلا أن يقولوا: إن علم الله تعالى قد سبق أيضا بما يكون من كل ذلك، وبأنها أسباب إلى بلوغ نهاية العمر المقدر، فنقول لهم: وهكذا الطب، قد سبق في علم الله تعالى أن هذا العليل يتداوى وأن تداويه سبب إلى بلوغ نهاية أجله، فالعلل مقدرة، وزمانها مقدرة، والموت مقدر، والعلاج مقدر، ولا مرد لحكم الله، ونفاذ علمه في كل شيء من ذلك[1].

(١) انظر رفع الشبهة والغرر لمرعي بن يوسف الكرمي ص٢٤.

الفصل الرابع

أركان الاختراق الإنساني

• ما حقيقة القلب الذي ورد في لغة القرآن والسنة؟

حقيقة القلب الذي ورد في القرآن والسنة هو المضغة الموجودة في الصدر نحو الجانب الأيسر، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ الحج:٤٦. وورد عند البخاري من حديث النعمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ألا وإِن فِي الجسد مُضْغة، إِذا صلحت صلح الجسد كُلهُ، وإِذا فسدت فسد الجسد كُلهُ ألا وهِي القلبُ)[1].

ويأتي القلب بمعني التقليب، فقلب الشيء هو صرفه من وجه إلى آخر، وقلب الإنسان سمي بذلك لكثرة تقلبه، كما قال رسول الله ﷺ: (إِنما سُمِّي القلبُ مِن تقلبِهِ، إِنما مثل القلبِ كمثل رِيشة مُعلقة فِي أصْل شجرة، يقلبُها الرَّيح ظهْرًا لبطْن)[2].

وكذلك يأتي القلب بمعني اللب والخلاصة، فقلب كل شيء لبه وخلاصته، وقلب الإنسان هو خلاصة ما فيه. روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (التّقْوى ها هُنا، ويُشِيرُ إِلى صدْرِهِ ثلاث مرّاتٍ)[3].

---

(١) البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/ ٢٨ (٥٢).

(٢) رواه أحمد ٤/ ٤٠٨ (١٩٦٧٧)، وانظر صحيح الجامع (٢٣٦٥).

(٣) مسلم في البر والصلة، باب تحريم الظلم ٨/ ١٠(٦٧٠٦).

ويأتي القلب بمعني البحث والنظر في عواقب الأمور تقول: أقلب الموضوعات وأبحثها وأنظر في عواقبها، وهذه أيضا صفة قلب الإنسان. روى ابن ماجة وصححه الألباني من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يكثر أن يقول: (اللهُمّ ثبِّت قلبِي على دينك، فقال رجل: يا رسول الله، تخافُ علينا وقد آمنا بِك وصدقْناك بِما جئْت بِهِ؟ فقال: إِن القُلوب بين إِصْبعين مِن أصابِعِ الرّحمن ﷻ يقلبُها، وأشار الأعْمشُ بِإِصْبعيهِ)[1].

وقد دل مجموع ما ورد في القرآن والسنة على أن القلب له جانبان، أحدهما جانب محسوس، والآخر غيبي، وأن القلب شأنه في الخطاب شأن الإنسان مكون من جانبين أحدهما مادي محسوس والآخر روحي غيبي، ويسمى الإنسان إنسانا بجانبيه المادي والروحي معا، وكذلك القلب مكون من جانبين أحدهما مادي محسوس مرئي، والآخر روحي غيبي غير مرئي، ويسمى القلب قلبا بجانبيه المادي والروحي معا، وهو الموجود في الصدر والمشار إليه في الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية.

والجانب المحسوس جانب جبري مسير كآلة منتظمة لضخ الدم في سائر الجسم ويمكن الآن استبداله، أما الجانب الغيبي من القلب فهو جانب غير مرئي ملابس للجانب المحسوس يمثل هوية الإنسان في وصفه الذاتي الإرادي الاختياري، ويتبع الروح في خصائصها وسريانها وتوفيها عند النوم أو انفصالها عند الموت، فلا يمكن استبداله أو ذهابه إلا بذهاب الروح.

وإذا نظرنا نظرة كلية لمجمل ما ورد في الأدلة القرآنية، وما ثبت في السنة النبوية يظهر وجه الشبه الكبير بين الجانبين، فالجانب الغيبي من القلب

(١) انظر صحيح ابن ماجه (٣٨٣٤).

ينقسم إلى منطقتين كما هو الحال في الجانب المادي، المنطقة الأولى هي مركز الخواطر وحديث النفس في الإنسان، وتحتوى كما بينت الأدلة النقلية القرآنية والنبوية على ركنين اثنين هما النازعان والهاتفان. أما المنطقة الثانية فهي منطقة الكسب وأعمال القلوب، وتحتوى على ركنين اثنين أيضا، تتردد الأعمال فيها بين طريق الخير وطريق الشر، أو بين نجدين اثنين مطروحين أمام أعمال القلوب في منطقة الكسب، وكما وجد عامل أمان في الجانب المحسوس يتمثل في الصمامين، كذلك يوجد بين المنطقتين صمام أمان للمساعدة على حسن الاختيار، وهو العقل الكائن بالقلب والمتصل بالدماغ في ذاكرة الإنسان.

• ما المقصود بالنازعين كأول ركن في اختيارات الإنسان؟

الركن الأول من أركان الاختيار في الإنسان النازعان والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ الشمس:٧/ ١٠. وقد دلت نصوص الوحي أن الله ﷻ ابتلى العباد بإيجاد الخواطر في القلب، وأن مصدر تلك الخواطر يتكون من ركنين اثنين، هما النازعان والهاتفان، فالركن الأول من أركان الاختيار في الإنسان هما النازعان، وهما غريزتان متقابلتان، ونازعان متضادان، ليس لأحدهما غلبة على الآخر من حيث بعث الخواطر في قلب الإنسان.

وجميع من تكلم في دراسة الخواطر النفسية تناول هذين النازعين في تعريفات اصطلاحية متنوعة ومتعدده، كلها تعبر عن أوصاف هذين النازعين، فإما تجد التسمية بنازع الخير مقابل نازع الشر، أو تجد التسمية بنازع التقوى مقابل نازع الفجور، أو تجد التسمية بنازع الإيمان مقابل نازع العصيان، أو تجد التسمية بخاطر الإلهام مقابل خاطر الهواجس، أو تجد

التسمية بخاطر العلم واليقين مقابل خاطر الهوى والاشتهاء، أو تجد التسمية بخاطر الحق مقابل خاطر النفس، أو تجد التسمية بخاطر الآخرة والزهد في الدنيا مقابل خاطر الطمع في الدنيا وإسقاط الآخرة، أو تجد التسمية بالخاطر المحمود مقابل الخاطر المذموم.

وأيا كان المصطلحات التي أطلقت على النازعين، فإنها جميعا تشير إلى وجود غريزتين متقابلتين، ونازعين نفسيين متضادين، مغروزين في قلب كل إنسان على وجه الابتلاء وتحقيق الحكمة في خلق الاختيار للإنسان، هاتان الغريزتان تنبعث منهما الخواطر في الجنان، وقلوب العباد فيهما بين أصبعين من أصابع الرحمن، الأول ويسمى نازع الخير وفطرة الإنسان، ومبعث التقوى والإيمان، والثاني ويسمى نازع الشر والهوى، ومبعث الفجور والعصيان في الإنسان، فنازع النفس والهوى يدعو الإنسان من خلال الخواطر والأفكار التي يبثها في القلب، فإن أطاعه الإنسان في معصية الله وسارع في مرضاة نفسه وهواه، فقد عبد الهوى واتخذه إلها يعبد مع الله.

• كيف يمكن التمييز بين الخواطر النابعة من النازعين؟

أنواع المشتهيات التي ابتلى الله العباد بها والتي تمثل متاع الحياة الدنيا جمعها الله في سبعة أصناف ورتبها ترتيبا تنازليا من حيث قوة الاشتهاء، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾ آل عمران:١٤.

ولما كانت الدنيا وسيلة إلى الآخرة والتعامل معها ضرورة، كان ما يهواه

الإنسان وما يشتهيه بين حالتين للنازعين، تحددان مبعث الخواطر وتميزها، فكل خاطر تعلق بأنواع المشتهيات وجعلها المؤمن وسيلة إلى الآخرة والعمل في أسباب الطاعة المؤدية إليها، فهو من نازع الخير وتوفيق الحق إلى التقوى وزيادة الإيمان، وكل خاطر تعلق بأنواع المشتهيات وجعلها الإنسان وسيلة إلى حب الدنيا والتعلق بها، أو جعلها للعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، فهو من نازع الشر في الإنسان وأساس الفجور والعصيان.

وجميع خواطر الخير يلقيها الحق في قلب العبد، ويقلبها له بحيث تحضه وتدعوه إلى أسباب الخير وتوحيد العبادة لله، فإن استجاب لها وانقاد قلبه بالإرادة التي في منطقة الكسب فقد زكاها ووفقه الله إلى الطاعة والتقوى والإيمان، وكذلك جميع خواطر الشر تنشأ من هوى النفس إذا دعت إلى معصية الله، فإن استجابت لها الإرادة فقد ضيع نفسه وأهلكها، فإن كان توفيق فمن الله، وإن كان ضلال فمن النفس ومن الشيطان، كما سيظهر لنا بعد بيان الركن الثاني من أركان الاختيار في الإنسان وهما الهاتفان.

- **ما هي مذاهب الناس في التعامل مع الشهوة والاشتهاء؟**

أولا: مذهب المغالين المنغمسين في حب الشهوات والقائلين: نشتهي ألا تنتهي، وهم عبيد الدنيا والهوى الذين يتمرغون في شهوتها ويتمتعون في لذتها، تجدهم أحرص الناس على البقاء في الحياة يود أحدهم لو يعمر ألف سنة في اللهو ومعصية الله، وهؤلاء رتبتهم كرتبة الأنعام أو هم أضل، وقد سماهم الله عبيد الهوى.

ثانيا: مذهب المغالين في محو الشهوات والقائلين: نشتهي ألا نشتهي. وهؤلاء مخالفون للفطرة مخالفون للسنة لأن الشهوة ابتلاء وضرورة لا يمكن

تحقيق الحكم العليا في توحيد العبادة لله إلا من خلال الأخذ بالأسباب الشرعية التي أمر الله بها، فالرسول ﷺ نهى عن التبتل، ونهي عن اعتزال الرجل لزوجته، ونهى عن صيام الدهر، ونهى عن الرهبانية وترك التكسب من أوجه الحلال وهذه هي السنة التي من رغب عنها فليس منها.

ثالثا: مذهب السلف القائلين: نشتهي ولكن نحتمي. فهم لا ينكرون وجود الشهوة والرغبات في أنفسهم، ولكن المسلم يعلم أنها ابتلاء لابد أن يخضع فيه لشرع الله، وقد راعت السنة ضروريات الحياة بالقدر الذي يتناسب مع وجود الإنسان وفقره الذاتي، فالوسطية والشمولية في ضبط المشتهيات مسلك النبي ﷺ الذي يقوم على التوازن ومراعاة كل نواحي الحياة، فإذا بالغ العبد في جانب سيظهر تقصيره في جانب آخر.

• ما المقصود بالهاتفين كثاني ركن في اختيارات الإنسان؟

علمنا أن الركن الأول في منطقة حديث النفس الكائنة في القلب أن الله ﷻ جعل لبعث الخواطر نازعين متقابلين ومتضادين كركنين نفسيين داخليين أو ذاتيين، أحدهما يدعو إلى التقوى والإيمان، والآخر يدعو إلى الفجور والعصيان، وهذا من عدل الله وحكمته في ابتلاء الإنسان.

وكان من عدل الله أيضا أنه أوجد الركن الثاني لبعث الخواطر في قلب الإنسان كثاني ركن من مقومات الاختيار وهما الهاتفان، والمقصود بهما وجود ركنين قرينين متقابلين ومتضادين ليس لأحدهما جبر أو غلبة على إرادة الإنسان، الأول يسمى الملك القرين أو هاتف الخير أو داعي الإيمان، والثاني يسمى الشيطان القرين أو هاتف الشر أو داعي الفجور والعصيان، وكلا الهاتفين والنازعين يسهمان كركنين أساسيين في تشكيل الخواطر في القلب

خيرها وشرها.

وأساس وجود القرينين أن الله جعل ابتلاء الإنسان بالشيطان من كمال حجته وبيان حكمته لإظهار آثار عدله في أعدائه، وفضله في أوليائه، فالشيطان لما أبى أن يكون مع الساجدين، وأن يدخل في جملة المقرين بالخلافة العظمى التي كرم الله ﷻ بها الإنسان، تملكه العلو والاستكبار، وأظهر الاعتراض والاستنكار، وشكك في حكمة رب العزة والجلال، حسدا وحقدا على آدم وذريته، كيف فضلهم الله بمنزلة أعلى من مكانته؟ فلما لعنه الله وطرده من رحمته، وأيقن اللعين بهلاكه وشقْوته، وأنه لا محالة ممنوع من جنته، أراد أن يحقر من شأن الإنسان حقدا وانتقاما، وأن يشكك في حكمة الرحمن عنادا منه وإلزاما بأن الإنسان لا يستحق هذه المنزلة، وأن إبليس والملائكة كانوا هم الأنسب لتلك المسألة، فطلب البقاء والإحياء إلى يوم القيامة، يوسوس للإنسان بالظلم والطغيان، ويدعوه إلى الكفر والفسوق والعصيان، ليثبت صدق كلامِه وحقارة الإنسان وعدم ملائمته لدوره في خلافة الأرض على وجه الابتلاء. قال الله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الإسراء:٦٢.

وقد كان من عدل الله في إبليس أنه أنظره وأمهله، وجعله ابتلاء للإنسان الذي استخلفه وخوله، وأن يرفع من شأن الإنسان لو تخطى هذه المشكلة فيزداد تكريما على تكريمه السابق حيث استخلفه في الأرض وخوله فيها، ومن رضي منهم بالشيطان بديلا عن الرحمن فبئس للظالمين بدلا.

وقد رد الله كيد الشيطان إلى الوسواس، فليس له سلطان أو جبر على إرادة

الإنسان. وأقر الشيطان أن سلطانه على من اتبعه، وليس على أولياء الله وعباده المخلصين، ومعلوم أن الشيطان بوسواسه وخواطره سيقوي نازع الهوى والشر في الإنسان، وكلاهما سيتفقان في دعوته إلى الكفر والفسوق والعصيان، وعندها ستكون دواعي الشر في الإنسان أقوى من نازع الخير فيه، وسيجد العاصي تبريرا لعدم مسئوليته عن فعله، وأنه لا يستحق عليه العذاب، لأن نازع الخير فيه كان وحيدا، وكانت دواعي الشر في الإنسان ركنان، أحدهما نازع الشر والآخر الشيطان، فهي بذلك أقوى في الإنسان من باعث التقوى والإيمان وداعي الخير في الإنسان.

ومن هنا ظهرت في الإنسان حكمة الله، وبلغ كمال العدل في الأشياء منتهاه، فجعل الله ﷻ تركيب الإنسان على مستوى الكمال، ظاهرا وباطنا على معنى الاعتدال، فكان من عدل الله وحكمته أنه كلف بكل إنسان ملكا قرينا، وأمره أن يلازمه ملازمة الشيطان للإنسان، لا يفارقه إلا إذا فارق دار الامتحان، وأمره أيضا أن يدعوه إلى الخير ويحضه عليه، كما أن الشيطان يدعوه إلى الشر ويحضه عليه، فيعتدل بذلك مقدار الدواعي في الإنسان، وتستوي الكفتان في الميزان، ولا يكون لأحد من أهل الجبر حجة على الله يوم القيامة في تبريره العصيان، ومن ثم فإن الله ﷻ كما هدى الإنسان النجدين، وركب فيه نازعين نفسيين متقابلين ومتضادين، وكّل أيضا بالإنسان قرينين هاتفين، مرغبين بلمتين، ليس لأحدهما سلطان أو جبر على إرادة الإنسان، فبات مقدرا لكل منا بحكمة الله وعدل الميزان، قرينان داعيان، هاتفان مرغبان، إما في الخير وإما في الشر، ولم يستثن الله أحدا من ذلك حتى سيد ولد آدم ﷺ. كما ورد في حديث عبد الله ﷺ أن رسُول الله ﷺ قال: (ما مِنكُمْ مِن

أحد إِلا وقد وُكِّل بِهِ قرينهُ مِن الجِن وقرينهُ مِن الملائِكة، قالوا: وإِياك يا رسُول الله، قال: وإِياي ولكِن الله أعانني عليهِ فلا يأْمُرني إِلا بِحقٍّ)(١).

وقال الإمام مسلم: باب تحريشِ الشّيطان وبعثهِ سراياهُ لِفتنة الناسِ وأن مع كُل إِنسان قرينا. ثم روى عن عائِشة رضي الله عنها أن رسُول الله ﷺ خرج مِن عندها ليلا: قالت عائشة فغِرت عليهِ، فجاء فرأي ما أصْنع، فقال: ما لكِ يا عائِشة أغِرت؟ فقُلت: وما لي لا يغار مِثلي على مِثلك، فقال رسُول الله ﷺ: أقد جاءكِ شيطانكِ؟ قالت: يا رسُول الله، أوْ معي شيطان؟ قال: نعمْ، قُلت: ومع كُل إِنسان؟ قال نعمْ قُلت ومعكَ يا رسُول الله قال: نعمْ. ولكِن ربِّي أعانني عليهِ حتى أسْلم)(٢).

وروى الترمذي وحسنه عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِن للشّيطان لَمّة بِابْن آدم، وللملكِ لمّة، فأمّا لَمّة الشّيطان فإِيعاد بِالشّر وتكْذيبٌ بِالحقِّ، وأمّا لَمّة الملكِ فإِيعاد بِالخير وتصْديقٌ بِالحقِّ، فمن وجد ذلك فليعلمْ أنهُ مِن الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوّذ بِالله مِن الشّيطان الرجِيم، ثمّ قرأ: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨ ﴾ البقرة:٢٦٨)(٣).

- **ما هو الركن الثالث من أركان الاختيار في الإنسان؟**

الركن الثالث من أركان الاختيار في الإنسان وجود العقل، فقد جعله الله

---

(١) مسلم في صفة القيامة، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه ٤/ ٢١٦٧ (٢٨١٤).

(٢) مسلم في صفة القيامة ، باب تحريش الشيطان ٤/ ٢١٦٨ (٢٨١٥).

(٣) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب سورة البقرة ٥/ ٢١٩ (٢٩٨٨).

غريزة في قلوب الممتحنين من عباده إظهارا لحكمته، وهو يمثل صمام الأمان في منطقة حديث النفس أو اختيارات الإنسان، فهو يقوم بجمع المعلومات الواردة من الخواطر في الداخل، أو حواس الإنسان في الخارج، ثم يقوم بتحليلها وتمييزها، ثم تخزينها في الذاكرة لاستدعائها وفق إرادة الإنسان، والوظيفة الأساسية التي يقوم بها العقل تمييز الخير من الشر حسب منهج تكليفي محدد، إما من وضع البشر وقوانينهم المظلمة، أو من وضع خالقهم وقوانينه المحكمة، والمسئولية واقعة على عاتق الإنسان.

وما يدركه الإنسان بعقله نوعان، النوع الأول معرفة الأسماء وحدودِ الأشياء والعلمُ بخصائصها، والإنسان يكتسب هذا العلم بطريقة تلقائية من بداية حياته إلى يوم وفاته. أما النوع الثاني فهو معرفة الطريق الشرعي التكليفي الذي يترتب عليه الثواب والعقاب في الآخرة. ومن هنا كان جميع العقلاء مكلفين بالبحث عن طريق النجاة الذي بينه الله ببعث الرسل ونزول الملائكة بالكتب للتعريف بأحداث القيامة، فالإيمان بالكتب من أركان الإيمان التي تحقق الحكمة الإلهية.

واعلم أن الرسالات السماوية إنما أنزلها الله ﷻ تحقيقا لحكمته في قيام حجته على سائر العقلاء، لعلمه سبحانه أن العاقل لا يمكن أن يحيا بغير طريق للهداية يميز فيه بعقله بين ما ينفعه وما يضره، لأن العقول تختلف في نظرتها إلى الأشياء حسنا وقبحا، فما يراه عاقل خيرا يراه غيره شرا، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ الإسراء: ١٥. فجعل الله سبحانه الإيمان بالكتب والرسل ركنين أساسيين من أركان الإيمان اللازمة لكل مسلم، بل لا يصح الدين إلا بها لأنهما من كمال الحكمة في تحقيق

مقومات الاختيار، ولأن كمال الحجة وهداية الخلائق لا تكون إلا بذلك .

والمراد بالإيمان بالكتب، الإيمان بكلام الله الذي أوحاه إلى رسله عليهم السلام، سواء ما أنزله مكتوبا بيد الله ﷻ كالتوراة، أو أنزله عن طريق طرق الوحي المختلفة كالإنجيل والقرآن. كما أن الإيمان بالكتب والتصديق بجميعها إقرار بقيام الحجة على السابقين وكمال الحكمة في أفعال رب العالمين، فيجب اعتقاد أنها كلها من الله تعالى أنزلها على رسله بالحق والهدى والنور، وأن من كذب بها فهو خارج من الدين جاحد كفور.

وكما أن الإيمان بالكتب التي نزلت على الأنبياء والرسل ركن من أركان الإيمان، فإن الإيمان بالرسل التي بعثت بتلك الكتب ركن آخر من أركان الإيمان، فلا بد من الإيمان بهم جميعا، لأنهم يمثلون القدوة العليا والنموذج الأعلى لسائر العقلاء، وقد جاءوا بالمنهج الأسمى قولا وعملا واعتقادا لمن أراد الخير الأعلى في الدنيا والآخرة، فليس بعد نعيم الجنة من خير، وليس بعد عذاب النار من شر، وهذا مدون في القرآن كما هو مدون في كتب الأنبياء السابقين.قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ الأعلى:١٦/ ١٩.

والإيمان بالرسل يقتضي اعتقاد ما أخبر الله ﷻ به عنهم في كتابه وأخبر به ﷺ في سنته إجمالا وتفصيلا، فالإيمان المجمل هو التصديق الجازم بأن الله ﷻ بعث في كل أمة رسولا يقيم الحجة على العقلاء منهم، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والكفر بما يعبد من دون الله ﷻ، ويقتضي الإيمان المجمل بالرسل الإيمان بأنهم صادقون هداة مهتدون كرام بررة راشدون،

حنفاء أتقياء أمناء، وبأنهم كلهم كانوا على الحق المبين، وتمسكوا بحبل الله المتين، جاءوا بالبينات من ربهم إلى أقوامهم، وأن أصل دعوتهم واحدة، وهي الدعوة إلى توحيد الله ﷻ، وأما شرائعهم فمختلفة، وأنهم قد بلغوا جميع ما أرسلوا به البلاغ المبين، فقامت بذلك الحجة على الخلق. ويجب الإيمان بأن الرسل بشر مخلوقون، ليس لهم من خصائص الربوبية شيء، وإنما هم عباد أكرمهم الله ﷻ بالرسالة وقيادة البشرية إلى الفضيلة.

- **ما هو الركن الرابع من أركان الاختيار في الإنسان؟**

علمنا أن منطقة حديث النفس كائنة في قلب الإنسان، وأن الله ﷻ جعل للخواطر فيها ركنين نفسيين ونازعين ذاتيين، متقابلين ومتضادين، أحدهما يدعو إلى التقوى والإيمان، والآخر يدعو إلى الفجور والعصيان. وجعل الله أيضا ركنين خارجيين، من خلال وجود هاتفين قرينين، متقابلين ومتضادين، ليس لأحدهما جبر، أو غلبة على إرادة الإنسان، الأول ويسمى الملك أو هاتف الخير وداعي الإيمان، والثاني يسمى هاتف الشر أو الشيطان، والهاتفان والنازعان يسهمان في تشكيل الخواطر خيرها وشرها. كما أن الله من كمال عدله أوجد في منطقة حديث النفس عقلا يمثل صماما للأمان، يضبط الأفكار والخواطر في قلب الإنسان، ويميز به بين ما ينفع وما يضر، ويقيس من خلاله معاني الخير والشر.

ومن أركان الاختيار ومقوماته في الإنسان وجود منطقة الكسب التي تحتوي مشيئة العبد واختياراته وجميع أعمال القلوب الكائنة في قلبه، و منطقة الكسب هي مصدر أصيل للنيات والإرادات، والباعث المباشر للحركات والسكنات في الإنسان، وعليها تقع المساءلة عن إرادته للكفر أو الإيمان، وما

يكتسبه الإنسان في الدنيا وما يقع عليه من الجزاء في الآخرة.

والأدلة على وجود الكسب في الإنسان كثيرة في القرآن والسنة، منها قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ المدثر:٣٨. والدليل على أن منطقة الكسب في القلب قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ البقرة:٢٢٥.

وكل الدلائل النقلية والعقلية والفطرية تشهد بأن المسئولية تقع على عاتق الإنسان في الدنيا بسبب كسبه وسعيه، واختياره وفعله، وأنه لا يصح من جهة النقل والعقل الاحتجاج بالجبر على نفي الاختيار والكسب، بل إن الفطرة شاهدة على أن الإنسان حريص كل الحرص على دفع الأذى والمضرة التي تقع من كسب الآخرين عليه وسعيهم، وحريص أيضا على إلقاء المسئولية على عواتقهم بأدنى فعل، وأن عاقلا لا يحتج بالجبر عندما يُسرق ماله، أو تُؤخذ أرضه، أو يُعتدى عليه، أو يُنتهك عرضه.

وهذا الكسب الذي يوجد في القلب بما يحويه من مشيئات وإرادات وقصود واختيارات من أعجب الدلالات على كمال حكمة الله ﷻ وقدرته وقيام حجته على عباده، فجعل الله تحرك الجوارح تبعا للاختيار القائم بالقلب وقد شبه ابن القيم قلب الإنسان بشأن الملك العظيم، الجالس على سرير مملكته، يأمر وينهى، ويولي ويعزل، وقد حف به الأمراء والوزراء والجند، كلهم في خدمته، إن استقام استقاموا، وإن زاغ زاغوا، وإن فسد فسدوا، فعليه المعول، والقلب محل نظر الرب تعالى، ومحل معرفته، ومحبته وخشيته، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والرضا به وعنه، والعبودية عليه أولا وعلى

رعيته وجنده تبعا، فأشرف ما في الإنسان قلبه، فهو العالِم بالله ﷻ الساعي إليه، المحب له، وهو محل الإيمان والعرفان، وهو المخاطب المبعوث إليه الرسل، المخصوص بأشرف العطايا من الإيمان والعقل. وإنما الجوارح أتباع للقلب يستخدمها استخدام الملوك للعبيد، والراعي للرعية، والذي يسري إلى الجوارح من الطاعات والمعاصي إنما هي آثاره، فإن أظلم أظلمت الجوارح، وإن استنار استنارت.

• ما هو حال القلب في منطقة الكسب مع الملك والشيطان؟

ذكر ابن القيم رحمه الله أنك إذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان رأيت أعجب العجائب، فهذا يلم به مرة، وهذا يلم به مرة، فإذا ألم به الملك حدث بسبب لمته الانفساح والانشراح، والنور والرحمة والإخلاص، والإنابة ومحبة الله، وإيثاره على ما سواه، وقِصر الأمل والتجافي عن دار البلاء والامتحان والغرور، فلو دامت له تلك الحالة لكان في أهنأ عيش وألذه وأطيبه، ولكن تأتيه لمة الشيطان، فتحدث له من الضيق والظلمة والهم والغم والخوف والسخط على المقدور والشك في الحق والحرص على الدنيا وعاجلها والغفلة عن الله ما هو من أعظم عذاب القلب، ثم للناس في هذه المحنة مراتب لا يحصيها إلا الله، فمنهم من تكون لمة الملك أغلب من لمة الشيطان وأقوى، فإذا ألم به الشيطان وجد من الألم والضيق وسوء الحال بحسب ما عنده من حياة القلب، فيبادر إلى طرد تلك اللمة ولا يدعها تستحكم، فيصعب تداركها، فهو دائما في حرب بين اللمتين والعاقبة للتقوى .

ومنهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليه وأقوى، فلا تزال تغلب لمة الملك حتى تستحكم، ويصير الحكم لها فيموت القلب، ولا يحس ما ناله الشيطان

به مع أنه في غاية العذاب والضيق ولكن سكر الشهوة والغفلة حجب عنه الإحساس بذلك الألم، فإذا كشف الحجاب أمكنه تداركه بالدواء وحسمه، وإن عاد الغطاء عاد الأمر كما كان حتى ينكشف عنه وقت المفارقة للدنيا فتظهر حينئذ تلك الآلام والهموم والغموم والأحزان وهي لم تتجدد له، وإنما كانت كامنة تواريها الشواغل، فلما زالت الشواغل ظهر ما كان كامنا وتجدد له أضعافه.

لقد تجلت حكمة الله في وجود إرادة الإنسان بين قرينين اثنين هما الملك والشيطان، الملك القرين يهتف بأمر الله للإنسان، ويدعو بإذنه إلى الخير والإيمان كلما هتف له الشيطان بالكفر والفسوق والعصيان. فظهر بهذا سر العداء بين الإنسان والشيطان، وظهر فيه حقد الشيطان على الإنسان، لأن الله ﷻ استخلفه في الأرض بالحق والميزان، وظهر عدل الله في الشيطان وفضله سبحانه وتعالى على الإنسان، حيث لم يجعل للشيطان سلطانا على الإنسان إلا أن يدعوه إلى العصيان بالوسوسة فقط.

والإنسان حر في الاستجابة لندائه أو الاستجابة للملك في دعائه، فقد وكل الله ﷻ الملك ليلازم الإنسان، ويدعوه إلى الخير في مقابل دعوة الشيطان، كما أن الله ﷻ يذكر الإنسان على لسان أنبيائه ورسله بمكر الشيطان، وتلبيسه وتدليسه على الإنسان، فأي كمال في تفسير وجود الخير والشر والعداوة بين الإنسان والشيطان أفضل من هذا البيان الذي كشفته آيات القرآن !!

ومعنى ذلك أن الإرادة الإنسانية بين نازعين وهاتفين، هاتف يوافق نازع التقوى في القلب وهو الملك، وآخر يوافق نازع الهوى وهو الشيطان، وليس

لأحدهما إلزام ولا إجبار للإرادة على اختيار هذا الجانب دون ذلك، فليس أحدهما مرجحا لفعل دون فعل، وإنما هما هاتفان وداعيان فقط، كما أن لمة الملك التي نصت عليها الأحاديث ليست إلا إيعاذا بالخير دون الإجبار عليه، ونحن لا ندرك كيفية حدوث الإيعاذ بالخير الذي يهتف به الملك، أو كيفية الوسوسة التي تتم من الشيطان، ولكننا نشعر به في قرارة أنفسنا، فالملك والشيطان وحقيقة الروح من الأمور التي حجب الله ﷻ كيفيتها عن الإنسان في الدنيا ولكنها حقائق موجودة .

وقال ابن القيم: (وأول ما يطرق القلب الخطرة، فإن دفعها استراح مما بعدها، وإن لم يدفعها قويت فصارت وسوسة، فكان دفعها أصعب، فإن بادر ودفعها وإلا قويت وصارت شهوة، فإن عالجها وإلا صارت إرادة، فإن عالجها وإلا صارت عزيمة، ومتى وصلت إلى هذه الحال لم يمكن دفعها، واقترن بها الفعل ولا بد، وحينئذ ينتقل العلاج إلى أقوى الأدوية وهو الاستفراغ التام بالتوبة النصوح)[1].

• ما هو الركن الخامس من أركان الاختيار في الإنسان؟

الركن الخامس من أركان الاختيار في الإنسان الاستطاعة البشرية، فقد جعلها الله سببا للتكليف والمسئولية قبل الفعل، وجعلها مع الفعل توفيقا بفضله لمن شاء من عباده، أو خذلانا بعدله لمن حاد عن هديه ومراده، وقد علمنا أنه من حكمة الله ﷻ خلق الاختيار الحر في الإنسان، وأن مقومات هذا الاختيار مبنية على وجود النازعين والهاتفين والعقل ومنطقة الكسب

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٧.

وسائر أعمال القلوب، فهذه المقومات تتبع الجانب الغيبي من الإنسان، وتعد أساسا متينا في إثبات حرية العبد ووقوعه تحت المساءلة وتوقيع الجزاء في الدنيا والآخرة.

أما الاستطاعة فهي من الأركان المرئية في البدن والأعضاء الخارجية، وقدرة الإنسان على تحقيق الإرادة وسائر الاختيارات الذاتية، فالله ﷻ استخلف العباد في الأرض، وخولهم فيها، واسترعاهم، واستأمنهم ليبتليهم، فالاستطاعة التي منحها الله ﷻ للبشر نفهم حقيقتها من خلال إدراك الغاية من خلقهم، والعلة من وجودهم في هذه الأرض بالكيفية التي تحقق معاني الابتلاء. قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ التغابن:١٦.

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ آل عمران:٩٧.

إن الله لما استخلف الإنسان في الأرض وخوله فيها جعل طبيعة الكائنات، وماهية المخلوقات المستخلف عليها، تسمح بقبول فعل الإنسان وتأثيره فيها، كما أن الله ﷻ أقام النواميس الكونية والقوانين الطبيعية بحيث تمكن الإنسان من التملك والسيطرة والقوة والهيمنة ما دام يأخذ في الدنيا بأسبابها، فالله سبحانه وتعالى أعطى العبد من فضله ومكنه من نعمه، فأصبح قادرا مستطيعا فاعلا، وأمره سبحانه عند القدرة بالتواضع واللين، وأن يرد الفضل في قوله وفعله إلى رب العالمين، وأن يعرف قدره في بداية حياته، وما سيؤول إليه في عاقبته، فإذا تذكر العبد وتفكر في نفسه، وأدرك حقيقة الأشياء من

حوله، علم أن حوله وقوته من عطاء ربه، وأن استطاعته إنما هي منحة من الله ﷻ له، فعند ذلك زال عنه العجب الكبر، ولزمه الخضوع والذل، وتواضع للمولى ﷻ، وشكر من أنعم عليه بغير حساب، وانكسرت نفسه خوفا من العقاب وطمعا في الثواب.

• ما هي حقيقة الفعل البشري وعلاقته بالاستطاعة؟

يمكن توضيح حقيقة الفعل البشري وعلاقته باستطاعة الإنسان من خلال مثل القلادة في شكلها الجميل المحبوب أو القبيح المكروه، فو مثلنا بقياس الأولى أن إرادة الإنسان في فعله تشبه الخيط الذي يربط حبات العقد أو الخرز، فالإرادة تنتظم عليها الأسباب كانتظام الحب أو الخرز ليكون شكلا حسنا أو شكلا قبيحا.

وهذا التشبيه بالغ الدقة؛ لأنه مما لا شك فيه أن أي فعل ظاهر يقوم به الإنسان يتم كما هو معلوم بالضرورة بأعضائه الجسدية، أو بالأدوات الخارجية التي يستعين بها على إتمامه، كما أنه من المعلوم أيضا أن أي فعل يحدث عبارة عن عدة أفعال صغيرة ينتهي كل منها في حقيقته إلى حركات وسكنات، سواء كانت حركات نفسية أو جسدية أو طبيعية، تلك الحركات والسكنات تتشكل بالضرورة في شكل معين، وبتوقيت معين يفرضهما نوع الفعل المكتسب والغاية من هذا الفعل، كما أن الفرق بين فعل وآخر هو اختلاف تلك الحركات والسكنات كما وكيفا، زمانا ومكانا.

ومثال ذلك أننا لو فرضنا والدا يؤدب ولده ضربا، وآخر يحتضن ولده شفقة وحنانا، فإن كلا الفعلين يستخدم فيهما الوالد والولد، وكل منهما يستخدم حركة الأعضاء في البدن مع إرادته الداخلية وبقية أعماله القلبية،

ومن ثم فمجموع الحركات والسكنات ليس في الحقيقة سوى علة لوجود الفعل المراد ونتائجه، وفي نفس الوقت فإن كل حركة سابقة تصبح علة أو سببا للحركة التالية المعلولة الناتجة، التي ما تلبث أن تصبح هي الأخرى علة لمعلولها الذي يليها، وهكذا حتى تأتي الحركة الأخيرة التي هي معلول وليست علة.

وعلى ذلك فالفعل البشرى يبدأ بنية وإرادة وينتهي بعد توالي الحركة والسكون بتحقيق المراد، فالفعل البشرى علته الأولى البادئة أو علة بدايته داخلية في ذات الإنسان ومتمثلة في إرادة الفعل، ونهاية الفعل أو معلوله الأخير أيضا داخلي في ذات الإنسان، ومتمثل في تحقيق المراد وإشباع الإرادة، فهو إما ينتهي محققا لذة وسرورا ومتعة، أو محققا ألما وضررا وبؤسا. ومساحة ما بين العلة الأولى والمعلول الأخير من العلل والمعلولات الخارجية في الفعل البشرى هي من خلق الله ﷻ وتوفيقه وإمداده وتيسيره وهذه المساحة هي حبات العقد أو الخرز في المثل الذي ذكرناه.

أما قيام العلة الأولى وامتدادها إلى تحصيل المعلول الأخير فهو الخيط الذي ينظم الحب والخرز في العقد، وهذا يطابق المعنى المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾ الليل:٤/ ١٠. وقوله: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦ ﴾ الصافات:٩٦.

ويمكن تعريف الفعل البشرى الاختياري بأنه مجموعة من العلل والمعلولات تبدأ بعلة أولى وهي الإرادة وتنتهي بالمعلول الأخير وهي تحقيق

المراد. فالفعل المختار نابع من ذات الإنسان وهو المسئول عنه تصديقا لقوله ﷺ: (إِنّما الأعْمال بالنِّيات، وإِنّما لكُل امْرِىءٍ ما نوى: فمنْ كانتْ هِجْرتُه إِلى دُنْيا يُصِيبُها، أوْ إِلى امْرأةٍ ينْكِحُها، فهِجْرتُه إِلى ما هاجر إِليه).

ومن هنا فلا عجب في تشبيه الإرادة البشرية بالخيط الرفيع الذي ينظم الخرز أو حبات العقد، فالاستطاعة أو العلل والمعلولات تتلبس بها الإرادة، وتصاحب الفعل مصاحبة الخيط لحبات العقد، فكما أن فصوص العقد موجودة أصلا، ودور الخيط هو تجميع الفصوص بالكم والكيف والشكل الذي يُنتج في النهاية شكلا مرغوبا أو مكروها، كذلك دور الإرادة مع الاستطاعة البشرية في إتمام الفعل، فدورها هو تجميع العلل والمعلولات وترتيبها بنسب معينة كما وكيفا، بحيث يؤدى هذا التجميع المنتظم حسب تلك النسب إلى أفعال مرغوبة ومرادة للفاعل أو مكروهة [(١)].

وأهل اليقين يرون في قلادة التوحيد التي يجب أن يتحلى بها المسلم أن خيطها هو الالتزام بشرع الله واختيارهم له، وحباتها أو خرزها هو فعل الله بهم سواء بترابط العلل بمعلولاتها أو بانفكاكها عن معلولاتها، وذلك يكون عندهم بالرضا والتسليم المطلق لله ﷻ في كل شيء شرعه لهم تحقيقا لمعنى توحيد العبودية، وفي كل فعل قدره عليهم تحقيقا لمعنى توحيد الربوبية.

• بين كيف أن الاستطاعة التي مع الفعل هي توفيق أو خذلان؟

استطاعة الإنسان عند علماء السلف قسمان: أحدهما استطاعة قبل الفعل وهو سلامة الجوارح وارتفاع الموانع. والثاني استطاعة مع الفعل وهو خلق

---

(١) انظر بتصرف قوت القلوب ٢/ ١١.

الله للفعل في فاعله، ولولاهما لم يقع الفعل. وكما أثبتت الأدلة النقلية استطاعة بشرية للإنسان بتكريم الله له، وتفضيله على ما دونه من المخلوقات التي سخرها الله ﷻ له واستخلفه عليها، فإنها أيضا أثبتت استطاعة ذاتية للإنسان، تتمثل في قدرته على إتمام الفعل المراد له في ظاهر البدن، وهذه الاستطاعة يخلقها الله ﷻ لهم مع أفعالهم عند إرادتهم، فالجوارح الظاهرة هي أدوات الاستطاعة التي تحول الفعل الداخلي الكائن في منطقة الكسب إلى فعل خارجي ظاهري ملموس يحاسب عليه الإنسان، ويكتسب به الحسنات والسيئات في سائر الأركان، فلا يتنفس الإنسان نفسا، ولا يتحرك حركة إلا بقوة يحدثها الله تعالى فيه، واستطاعة يخلقها الله ﷻ له مع أفعاله، لا يتقدمها ولا يتأخر عنها ولا يوجد الفعل إلا بها.

وفهم الاستطاعة على هذا النحو يبطل وصف الإنسان بأن له قوة مستقلة عن قوة الله يفعل بها ما يشاء، مما يوحى بإمكانية حدوث فعل خارج عن قضاء الله وقدره، ولذلك فالاستطاعة ليست محدثة للفعل، ولا خالقة له، لأن الخالق هو الله وحده، وإن كانت الاستطاعة مكتسبة للإنسان، ومن ثم فإن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لا لهم، والاكتساب من العباد والمسئولية واقعة على كسبهم.

والله تعالى هو المعطي الذي يعطي من يشاء ما يشاء، ويمنع من يشاء ما يشاء، وكل ما يصدر عن العبد من طاعة أو معصية، فالله ﷻ يخلقها بتمامها، فليست للعبد قدرة على خلق شيء، وإنما هي قدرة واستطاعة للأخذ بالأسباب للوصول إلى الشيء، فالأفعال لله والكسب للعبد، وبهذا الفهم يمتنع أن يكون الإنسان خالقا لفعله كما زعمت المعتزلة.

ومسألة خلق الفعل، وخلق أوصاف الإنسان من تدبير الله الكوني، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ التغابن:٢.

ولنضرب مثالا يوضح الأمر، فالذبح مثلا أفعاله واحدة، خلقها الله ﷻ وحده، خلق السكين والذبيحة، لكن الذبح يكون قربة لله ﷻ وإيمانا وتوحيدا إذا وافقت نية العبد وإرادته شرع الله، ويكون الذبح لعنة وكفرا وشركا إذا خالفت نية العبد واختياراته شرع الله ﷻ، فالفعل في الحالتين خلقه الله، ونية العبد في الأخذ بالأسباب تكسبه معنى الخير والشر.

وكذلك المعاشرة التي تكون بين الرجل والمرأة، أفعال المعاشرة واحدة، وتتم بقدر الله ﷻ وخلقه لعباده، هو الذي أقدرهم على الفعل ومنحهم سلامة آلاته، وركب في كل منهما نزعاته وشهواته ابتلاء وامتحانا له في حياته، لكن نقول عن المعاشرة زواجا وابتهاجا ونكاحا حلالا، إذا كانت بإذن أولياء المرأة وعلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ونقول عن المعاشرة زنا وفاحشة واغتصابا وخيانة إذا كانت مخالفة لشرع الله، فالفعل في الحالتين واحد وهو من خلق الله، والنية هي التي تكسب الفعل معنى الخير والشر بالموافقة أو المخالفة للشرع.

إن الاستطاعة التي خلقها الله للإنسان صالحة لضدين من الأفعال، وهي مسخرة له لتكون بين الخير والإيمان، وبين الشر والكفران، ومسئولية الإنسان تكمن في امتثاله الطاعة في الوقت الذي كان فيه مستطيعا أن يكتسب المعصية، والعكس كذلك، فالاستطاعة قبل الفعل آلات وأسباب مخلوقة، مجردة عن الخير والشر قبل أن تتلبسها إرادة العبد ويأخذ بها، والعباد مريدون مختارون لكسبهم، ميسرون لقدرهم، وليسوا بمحمولين عليه، ولا مجبرين

ولا مستكرهين فيه.

ومن هنا فإن الله تعالى لم يجبر عبدا على الاختيار ولو كان اختياره طاعة، كما أنه لم يجبر عبدا على الاختيار ولو كان اختياره معصية، فهو سبحانه يمد المؤمن بعد اختياره للإيمان والطاعة بالقوة والقدرة والاستطاعة، ويمد الكافر بعد اختياره للعصيان بالقوة والقدرة والاستطاعة، يمد الإنسان بما يشاء من عطائه ونعمائه خلقا وتوفيقا إن كانت أفعاله صالحة، وإضلالا وخذلانا إن كانت أفعاله طالحة كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ آل عمران:١٤٥. وقال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ الإسراء:١٨/ ٢١.

لقد سخر الله المخلوقات وفق ثوابت وسنن، ونواميس كونية، وقوانين تنظم السببية والعلية، بحيث تترابط فيها الأسباب لتسمح بقبول فعل الإنسان وتأثيره فيها تحقيقا لعلة الابتلاء، تلك العلل والمعلولات يحكمها الله سبحانه وتعالى ويدبر أمرها لانفراده بالخلق والتدبير، فالسبب أو العلة نحو البذرة، خلقها الله ﷻ وجعلها سببا في النبتة، والنبتة سبب في الثمرة، البذرة والنبتة والثمرة علل ومعلولات من خلق الله وتقديره، وإليه الحكم في حتمية الترابط بينها، فالعلة كالبذرة لا تملك حتمية إصدار نتيجتها أو معلولها وهي النبتة، إذ ليس لها فعل مستقل، وإنما يخلق الله نتيجتها أو معلولها للعبد ابتلاء له، أيشكر ربه وخالقه ويرد الفضل إليه، أم يتعالى ويكفر بربه ولا يتوكل عليه، فشتان بين من ظلم وتعالى بالأرض والمال، وبين من تواضع وقال: الله

ربي ولا أشرك بربي أحدا.

إن الله هو الذي خلق الأسباب والأفعال، وهو الذي يهيئ الأسباب ويمنح العبد استطاعته من خلالها، يعطى من يشاء ما يشاء، ويمنع من يشاء ما يشاء، وكما أن أهل الحق أثبتوا حقيقة الأسباب وأنها تؤدى فعلها في الكون بقدرة الله، وبسبب ما أودع فيها من قوى وتأثير لا ينبع من ذاتها، بل بإرادة الله فيها، فإنهم أيضا قالوا: لا يعنى وجود الأسباب وترابطها وتسلسلها واضطرادها باستمرار أن شيئا يحدث بعيدا عن قدرة الله ﷻ، أو أن فعلا يخرج عن فعل الله ﷻ وخلقه للأشياء.

إن من أثر هذا الفهم الإسلامي المبني على الدليل القرآني والنبوي أنه يفتح بابا واسعا عند أهل اليقين في الاستعانة بالله ﷻ على قضاء حوائجهم، وتوفيقهم إلى عبادته سبحانه وتعالى، فالأمر الأساسي الذي يوجهنا إليه المنهج القرآني النبوي في قضية القضاء والقدر وعلاقته باستطاعة الإنسان، هو التزامه بربه في شرعه وقدره، وإلزام العبد أن يلوذ به، ولا يستبد بقدرته أو يتمرد على الحق بالاعتماد على طاقته. روى البخاري من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (سيدُ الاستغفارِ أن يقول: اللهمّ أنت ربِّي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدُك، وأنا على عهدِك ووعدِك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شر ما صنعتُ، أبُوءُ لك بنعمتك عليّ، وأبُوءُ لك بذنبي، فاغفِرْ لي، فإنه لا يغفرُ الذنوب إلا أنت، من قالها من النهارِ مُوقِنا بها فمات من يومِهِ قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقِنٌ بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة)(١).

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار ٥/ ٢٣٢٣ (٥٩٤٧).

• ما هي العلاقة بين منطقة حديث النفس ومنطقة الكسب؟

تعرفنا على الجانب الغيبي من القلب، وعلمنا أنه يشتمل على منطقة حديث النفس وغريزة العقل ومنطقة الكسب، ثم علاقة ذلك بالاستطاعة والوسع، وعلمنا أن منطقة حديث النفس فيها نازعان نفسيان وهاتفان داعيان، وبينهما عقل الإنسان، ومنطقة الكسب فيها النية والإرادة وبقية أعمال القلوب، والاستطاعة في البدن هي القدرة التي ينفذ من خلالها الإنسان ما يريده خيرا كان أو شرا، إيمانا كان أو كفرا.

وعند المقارنة بين منطقة حديث النفس ومنطقة الكسب وعلاقة كل منهما بالعقل، وأثرهما الظاهر والباطن في ذات الإنسان، ينتج عن ذلك عدة أمور تبين لنا ما يدور في الجانب الغيبي من القلب:

الأمر الأول: أن منطقة حديث النفس لا يحاسب الإنسان على ما يحدث فيها أيا كان، فهذه المنطقة هي مصدر الخواطر والأفكار، ومحل الإلهام في الإنسان، لما ورد في الصحيح عن أبى هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إِن الله تجاوز لِأمّتي ما حدثت بِهِ أنفسها، ما لمْ يتكلمُوا أو يعملوا بِهِ) [1]. وقال تعالى ناسخا المساءلة عن حديث النفس: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ البقرة:٢٨٦. أما منطقة الكسب وأعمال القلوب فهي مصدر النيات والإرادات والحركات والسكنات في الإنسان، وعليها تقع المساءلة ويدور الحساب على الأقوال والأفعال، وكل ما يكتسبه الإنسان من الأعمال.

---

(١) مسلم في الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس ١/ ١١٦ (١٢٧).

الأمر الثاني: مما يتعلق بمنطقة حديث النفس ومنطقة الكسب أن منطقة الكسب تتحكم في منطقة حديث النفس تحكما كاملا، وتتحكم أيضا في بدن الإنسان وجوارحه، فالإرادة سيدة أعمال القلوب، وهي كالملك على عرشه، يوجه جنوده في أرجاء مملكته، فهي المهيمنة على ذاته وبدنه ظاهرا وباطنا.

وقد تستجيب الإرادة للخواطر التي تدب في منطقة حديث النفس فتستجيب لنازع الخير حتى يصل المسلم إلى أكمل ما يمكن في درجة الخير، وقد تستجيب لنازع الشر حتى يعبد هواه من دون الله ﷻ ويختم على قلبه وسائر الأعضاء في بدنه، وقد توقف الإرادة نازع الشر بالاستغفار، وقد تستجيب للملك وإلى الحق بتوفيق الله ﷻ، وقد تستجيب للشيطان حتى تجعل الشيطان طاغوتا معبودا ووليا لها من دون الله ﷻ، وقد توقف الإرادة هتاف الشيطان بالاستعاذة كما قال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ الأعراف:٢٠٠.

وقد تأخذ الإرادة بمقتضى العقل في اتباع النقل، ويصبح المسلم على بصيرة من أمره وتوحيده لربه، والبصيرة منتهى العقل والحكمة في التمييز بين ما يضر وينفع. والإرادة أيضا قد تهمل نور العقل في العمل بالنقل ولا تلتفت إلى نصحه وتوجيهه حتى تتجاهله بالكلية وكأنه معدوم ويصبح الإنسان كما قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ البقرة:١٧١ . وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ الملك:١٠.

الأمر الثالث: أن منطقة حديث النفس يخرج منها نسيان الخطأ، ومنطقة

الكسب وأعمال القلوب يخرج منها نسيان العمد، فنسيان الخطأ كقوله تعالى عن موسى عليه السلام وفتاه: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ الكهف:٦٣. وقوله عن يوسف عليه السلام: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ يوسف:٤٢. ونسيان الخطأ هو المقصود بقوله ﷺ: (إِن الله تجاوز عن أمّتِي الخطأ والنسْيان وما اسْتُكْرِهُوا عليهِ)[1].

وقد يكون نسيان الخطأ من الملك فيلقي خاطرا بإيحاء يكون لمصلحة العبد في حصوله على خير أعلى مما هو فيه وبتوفيق من الله ﷻ وحكمته كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ البقرة:١٠٦.

أما نسيان العمد فمثاله النسيان الذي ورد في شأن آدم عليه السلام، وهو وإن كان مبدؤه وسواس من الشيطان إلا أنه اكتسبه بأكله من الشجرة وتطلب كما هو معلوم الاستغفار والتوبة. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ طه:١١٥. وقال سبحانه: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ البقرة:٣٧. ومن نسيان العمد الذي ينبع من منطقة الكسب والمساءلة قوله تعالى عن حزب الشيطان: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ المجادلة:١٩. وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الحشر:١٩.

---

(١) انظر مشكاة المصابيح (٦٢٨٤)، وإرواء الغليل (٨٢).

الأمر الرابع: مما يتعلق بمنطقة حديث النفس ومنطقة الكسب أن منطقة حديث النفس تتطلب استغفارا عاما، فخاطر الشر أو نازع الهوى إذا ورد فإنه يتطلب استغفارا عاما وقائيا لإيقاف تأثير هذا الخاطر، أما لو انتقل الذنب في منطقة الكسب وعزمت عليه الإرادة أو قع فعلا فإنه يتطلب استغفارا خاصا. ومثال الاستغفار العام ما رواه مسلم من حديث ثوبان ﷺ، أن رسُول الله ﷺ كان إِذا انصرف من صلاته اسْتغْفر ثلاثاً، وقال: (اللهُمّ أنت السّلامُ ومِنك السّلامُ، تباركْت ذا الجلال والإِكْرام)[1]. وروى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (والله إني لأستغفرُ الله وأتوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعين مرّة)[2].

أما الاستغفار الخاص فهو كقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ نوح:١٠. وقوله: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ يوسف:٢٩.

• ما هي أصول الضلال التي دلت عليها أركان الاختيار؟

لما كانت جميع الدواعي في منطقة حديث النفس مردها إلى وجود النازعين والهاتفين، فإن أصول الضلال مرجعها إلى بابين أساسيين الشهوات والشبهات، وباب الشبهات أعظم البابين:

الباب الأول: باب الشبهات وهو مدخل خواطر الشيطان وحزبه من بني الإنسان والشيطان، ويتسع هذا الباب بين مصراعيه بسبب ضعف البصيرة

(١) مسلم في المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة ١/ ٤١٤ (٥٩١).
(٢) البخاري في الدعوات، باب استغفار النبي ٥/ ٢٣٢٤ (٥٩٤٨).

وقلة العلم، ولاسيما إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى، فهنالك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى، فقل ما شئت في ضلال سيء القصد، الحاكم عليه الهوى لا الهدى، مع ضعف بصيرته، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله ﷺ، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ النجم:٢٣.

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم، فجميعهم إنما ابتدعوا من باب الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال، ولا ينجى من هذه الفتنة إلا اتباع الرسول ﷺ وتحكيمه في الدين كله، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقى عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، وما يثبته لله من الصفات والأفعال والأسماء وما ينفيه عنه، كما يتلقى عنه وجوب الصلوات، وأوقاتها وأعدادها ومقادير الزكاة ومستحقيها ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة، وصوم رمضان، فلا يجعله رسولا في شيء دون شيء من أمور الدين، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل، لا يتلقى إلا عنه، ولا يؤخد إلا منه، فالهدى كله دائر على أقواله وأفعاله، وكل ما خرج عنها فهو ضلال، فإذا عقد قلبه على ذلك، وعرض ما سواه ووزنه بما جاء به الرسول ﷺ، فإن وافقه قبله لا لكون ذلك القائل قاله، بل لموافقته للرسالة، وإن، خالفه رده ولو قاله من قاله، فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات، وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه، وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع، فهي من عمى في

البصيرة وفساد في الإرادة[١].

الباب الثاني: باب الشهوات وهو مدخل كل خاطر تعلق بأنواع المشتهيات في الدنيا، وأدى إلى معصية الله، وكما أن فتنة الشبهات تدفع باليقين واتباع الحق بالدليل، فإن فتنة الشهوات تدفع بكثرة الاستغفار والتوبة والإنابة والصبر على طاعة الله واجتناب معصيته.

• ما حقيقة النفس المطمئنة واللوامة والأمارة بالسوء؟

إذا نظرنا إلى القلب وما فيه من منطقة حديث النفس ومنطقة الكسب وما بينهما من العقل، وجدنا تفسيرا علميا مبنيا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقسمة عقلية منطقية دقيقة في تنوع العباد، وتقليب قلوبهم وظهور قدرة الله وحكمته فيهم، فباعتبار النظر إلى الأركان في منطقة حديث النفس، وما يتم فيها من خواطر وابتلاءات فإن الأنفس تتنوع بالضرورة العقلية إلى ثلاثة أنواع: نفس مطمئنة، ونفس أمارة بالسوء، ونفس لوامة، وكذلك باعتبار النظر إلى الأركان في منطقة الكسب، وما يتم فيها من اختيارات وابتلاءات، فإن القلوب تتنوع بالضرورة العقلية إلى ثلاثة أنواع: قلب سليم، وقلب ميت قاس، وقلب مريض.

ولنبدأ بالتعرف على أنواع الأنفس التي ذكرها الله ﷻ ووصف حالها مع أركان الخواطر في منطقة حديث النفس، والتعامل مع مقتضى أحكام العقل وسلطان الأعمال في منطقة الكسب. لقد استعاذ النبي ﷺ من النفس وشرورها، فالنفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى مرضاة الرب، ولا

---

(١) إعاثة اللهفان لابن القيم ٢/ ١٦٥ بتصرف.

يصل العبد إلى مرضاة الرب إلا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها وأن يظفر بنفسه ويجعلها في طاعة ربه، فإن الناس على قسمين: قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته، وصار طوعا لها، تحت أوامرها. وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها فصارت طوعا لهم منقادة لأوامرهم.

والنفس تدعو بخواطرها إلى الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو عبده إلى خوفه، ونهي النفس عن الهوى، وكسب القلب بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي مرة، وإلى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء، وقد وصف سبحانه النفس في القرآن بثلاث صفات: المطمئنة والأمارة بالسوء واللوامة، وهي نفس واحدة باعتبار ذاتها، وثلاث باعتبار صفاتها، فإذا اعتبرت بنفسها فهي واحدة، وإن اعتبرت مع كل صفة دون الأخرى فهي متعددة.

أولا النفس المطمئنة: إذا سكنت النفس إلى الله ﷻ، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه فهي مطمئنة راضية مرضية. وحقيقة الطمأنينة السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربها وسكنت إلى تنفيذ أمره وذكره وطاعته ، ولم تسكن إلى سواه، فقد اطمأنت بذكره ومحبته وعبوديته، واطمأنت إلى تصديق خبره، واطمأنت إلى لقائه ووعده، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته، واطمأنت إلى الرضا به ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا، واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى أن الله وحده ربها وإلهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين فتوكلت عليه. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠ ﴾ الفجر:٢٧/ ٣٠.

ثانيا: النفس الأمارة بالسوء، فهي أمارة بالسوء، لأن الخواطر الملقاة من نازع الشر في منطقة حديث النفس تدعو صاحبها إلى أنوع المشتهيات التي لو اتبعها القلب وقع في الغي، وانقاد قلبه إلى الباطل وكل قبيح ومكروه، وهي دائمة الدعوة، لا تسأم من الأمر بتلبية الرغبة والحض على ملذات الشهوة الحيوانية في البدن، وقد أخبر سبحانه أنها أمارة بالسوء، ولم يقل آمرة لكثرة ذلك منها، وأنه عادتها ودأبها، ولذلك فإن أصحاب النفس الأمارة قوم لا يقومون إلا في أهواء نفوسهم، فلا يرضون إلا بتحقيق ما يشتهون ، ولا يغضبون إلا عندما يحرمون مما يشتهون، فإذا أعطي أحدهم ما يشتهيه من الشهوات زال غضبه، وحصل رضاه، والنفس الأمارة فيها داعي الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له والتعدي عليه في حقه، وداعي الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة كالزنا وأكل الخبائث، فهي قد تظلم من لا يظلمها، وتؤْثر هذه الشهوات وإن لم تفعلها، فإذا رأت نظراءها قد ظلموا وتناولوا هذه الشهوات، صار داعي هذه الشهوات أو الظلم فيها أعظم بكثير، ولا تسلم النفس الأمارة إلا بطلب المغفرة وكثرة الاستغفار من الذنوب والاستعانة بعلام الغيوب على هدايتها. كما ورد في قوله: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾ يوسف:٥٣.

ثالثا: النفس اللوامة والمراد بها النفس الواقعة بين الأمارة والمطمئنة، فلها وجهان، تترد بينهما في الاستجابة للنازعين، فتارة تستجيب لداعي الهوى والعصيان، ثم تلوم نفسها وتستجيب لنازع التقوى والإيمان، فلا تزال تتردد بين المعصية واللائمة والطاعة، تلوم نفسها على ترك المتابعة والإقدام على المخالفة، وتلوم نفسها أيضا على ما فات عنها في الأيام الماضية من الأعمال

والطاعات والمراتعة في مراتع الشهوات، ثم ترى وجها لها يقرب من وضعية النفس المطمئنة وهو وجه الإيمان، فإذا نظرت بهذا الوجه إلى المطمئنة وتنورت بنورانيتها واصطبغت بصبغتها تلوم أيضا نفسها على التقصيرات الواقعة منها، والمحذورات الكائنة عليها، فهي لا تزال لائمة لها، قائمة على سوق لومها إلى أن تتحقق بنعمة الاطمئنان، وهى المصدقة بوقوع الحساب على ما بدر منها يوم القيامة، فلا تفتأ تلوم نفسها أبدا في التقصير والتقاعد عن الخيرات، وإن أحسنت لا مت نفسها على عدم حرصها على الزيادة في أعمال البر والقربات، فكيف بها إن أخطأت وفرطت وبدرت منها بادرة كانت فيها من الغافلات؟

• ما حقيقة القلب السليم والمريض والميت القاسي؟

لما كانت منطقة الكسب في القلب هي المسيطرة على الخواطر في حديث النفس والجوارح في سائر أعضاء البدن، كان القلب لهذه الأركان والأعضاء كالملك المتصرف في الجنود الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت سلطانه وقهره وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، فالجسد فيه مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، فالقلب فيه مشيئة العبد ونيته وإرادته وسائر أعمال القلوب، والأعضاء منفذة لما يأمرها به، قابلة لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته، وهو المسئول عنها كلها، لأن كل راع مسئول عن رعيته [1].

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ١/ ٥ بتصرف.

ولما علم عدو الله إبليس أن مدار المسئولية على القلب، والاعتماد عليه أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزين له من الأحوال والأعمال ما يصده به عن الطريق، وأمده من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة والاستعاذة بالله تعالى والتعرض لأسباب مرضاته والتجاء القلب إليه وإقباله عليه في حركاته وسكناته، ولما كان القلب موصوفا بالحياة وضدها انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة:

١-القلب السليم: هو القلب الصحيح الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ الشعراء:٨٨/ ٨٩. والقلب السليم هو السالم الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له فهو ضد المريض والسقيم والعليل، وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق، وهذه حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده، فالقلب السليم هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة وتوكلا وإنابة وإخباتا وخشية ورجاء، وخلص عمله لله فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من

الانقياد والتحكيم لكل من سوى رسوله، فيعقد قلبه معه عقدا محكما على الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأعمال، من أقوال القلب وهي العقائد، وأقوال اللسان، وهي الخبر عما في القلب، وأعمال القلب وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقه وجله هو ما جاء به الرسول ﷺ[(١)].

٢-القلب الميت: وهو ضد هذا وهو القلب الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه سواء رضي ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله حبا وخوفا ورجاء ورضا وسخطا وتعظيما وذلا، إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه فهواه أفضل عنده وأحب إليه من رضا مولاه، فالهوى إمامه، والشهوة قائده والجهل سائقه، والغفلة مركبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور، يناديه داعي الخير في قلبه ومن كتاب ربه وسنة نبيه أن أقبل إلى الله وإلى الدار الآخرة، فلا يستجيب للناصحين ويتبع كل موسوس حزب الشياطين، تعلق بالدنيا فهي مبتغاه، تسخطه وترضيه، والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه، فمخالطة صاحب هذا القلب سقم ومعاشرته سم ومجالسته هلاك[(٢)].

٣-القلب المريض: وهو قلب له حياة وبه علة، فله مادتان تمده هذه مرة

---

(١) السابق ١/ ٨ بتصرف.

(٢) السابق ١/ ٩ بتصرف.

وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها، والحرص على تحصيلها، والحسد، والكبر، والعجب، وحب العلو والفساد في الأرض ما هو مادة هلاكه وعطبه، وهو ممتحن بين داعيين، داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابا، وأدناهما إليه جوارا، فالقلب الأول حي مخبت لين واع، والثاني يابس ميت، والثالث مريض، فإما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى[1].

وقد جمع الله بين هذه القلوب الثلاثة في قوله ﷻ: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ الحج:٥٢/ ٥٤. فجعل الله سبحانه وتعالى القلوب في هذه الآيات ثلاثة، قلبين مفتونين، وقلبا ناجيا، فالمفتونان هما القلب الذي فيه مرض والقلب القاسي، والناجي هو القلب المؤمن المخبت إلى ربه، وهو المطمئن إليه الخاضع له، المستسلم المنقاد.

• ما حقيقة الفتن التي تعرض على القلوب عودا عودا؟

روى مسلم من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ أنه سمع النبي ﷺ قال: (تُعرضُ الفتن على القُلوبِ كالحصِيرِ عودا عودا، فأي قلبٍ أُشْرِبها نكِت فيهِ نكْتةٌ سوداءُ، وأي قلبٍ أنكرها نكِت فيهِ نكْتةٌ بيضاءُ، حتّى تصِير على قلبين،

(١) السابق ١/ ١٠ بتصرف.

على أبْيض مِثل الصّفا، فلا تضُرُّهُ فتْنةٌ ما دامتِ السّماواتُ والأرْضُ، والآخرُ أسْودُ مُرْبادا، كالكُوزِ مُجخِّيا، لا يعرِف معرُوفا ولا ينكِرُ مُنكرا إِلاّ ما أُشْرِب مِن هواهُ» [١].

شبه النبي ﷺ عرض الفتن على القلوب شيئا فشيئا كعرض عيدان الحصير وهي الخواطر من دواعي هوى النفس وخواطر الشيطان وشبهاته، تعرض بالدعوة إلى أنواع الفتن شيئا فشيئا، وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين، قلب استجاب لها، فإذا عرضت عليه فتنة أشربها، كما يشرب السفنج الماء، فتنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس، وهو معنى قوله كالكوز مجخيا، أي مكبوبا منكوسا، فإذا اسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطيران:

أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر بتلبيس دواعي الشيطان وحزبه، فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرا، والمنكر معروفا، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلا والباطل حقا .

والثاني: تحكيمه هواه بتلبيس دواعي الهوى وتقديمها على ما جاء به الرسول ﷺ، وانقياده الشديد للهوى وإتباعه له أعماه عن الحق حتى أظلمت عيناه فلم ير إلا سوادا في القلب بانعدام البصيرة وسوادا في الحياة بانعدام بصره في اتباع حزب الله.

وأما حال القلب الثاني عند عرض الفتن عليه فهو قلب أبيض، قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهرت فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها

(١) مسلم في الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا ١/ ١٢٩ (١٤٤).

وردها، فازداد نوره وإشراقه وقوته [1].

والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات، فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل، فالأولى توجب فساد القصد والإرادة، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد.

• كيف نجمع بين الختم على القلب ومحاسبة العبد بالعدل؟

الختم والطبع على القلوب لا يتعارض مع حكمة الله وعدله في محاسبتها، ولا يعني ذلك إجبارها، أو ظلم الله لها إن عذبها، فمعلوم أن كل ما يقلبه الله في منطقة حديث النفس لا حساب عليه ولا عقاب، وأن ما قلبه الله للعباد إنما هو ابتلاء بالخواطر، وهي أسباب كسائر الأسباب، أما ما كان في منطقة الكسب من اختيارات العبد فعليه الثواب والعقاب، وهو الذي اختار طريق الباطل والضلال وتمسك به حتى أعلن لنفسه أن عودته للرشد والصواب أمر محال ودرب من الخيال، فطبع الله على قلبه وختم عليه.

وإذا أراد الله بعبد خيرا هيأ أسباب ذلك فأكمل عقله، وأتم بصيرته، ثم صرف عنه العوائق والدوافع، وأزاح عنه الموانع، ووفق له قرناء الخير، وسهل له سبله، وقطع عنه الملهيات وأسباب الغفلات، وقيض له ما يقربه إلى القربات، فيوافيها ثم يعتادها ويتمرن عليها.

وإذا أراد الله كونا بعبده شرا قدر له ما يبعده عن الخير ويقصيه، وهيأ له أسباب تماديه في الغي، وحبب إليه التشوف إلى الشهوات، وعرضه للآفات

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١/ ١٢ بتصرف.

والابتلاءات، وكلما غلبت عليه دواعي النفس خنست دواعي الخير، ثم يستمر على الشرور على مر الدهور، ويأتي مهاويها ويتعاون عليه الوسواس ونزعات الشيطان، ونزعات النفس الأمارة بالسوء، فتطبع الغفلة على قلبه غشاوة بقضاء الله وقدره، فذلك هو الطبع والختم والأكنة [1].

يكون القلب فارغا من الشر والمعصية، فيوسوس الشيطان إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه، ويمنيه ويشهيه، فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه، حتى تستجيب الإرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمني ويشهي وينسى علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث جنوده من أعضاء البدن وما تبعه في طلب الأمر المشتهى، فيبعث الشيطان معهم مدادا لهم وعونا، فإن فتروا حركهم، وإن ونوا أزعجهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ مريم:٨٣.

أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجا كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة، وأتم مكيدة، قد رضي الشيطان لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم فقعد لهم بكل طرق الخير، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه، يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه، وعوقه وشوش عليه بالمعارضات.

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص١٢٤، بتصرف.

وقد أقسم الشيطان بالله ليقعدن لبني آدم صراطه المستقيم، وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم حتى يعبد من دون الله، فهو ساع بأقصى جهده على إطفاء نور الله وإبطال دعوته وإقامة دعوة الكفر والشرك ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض(١).

ومن ثم فإن اتباع الإنسان للشيطان إذا انضم إلى مسارعة الإنسان في الاستجابة لكل ما يهواه، سقط قلبه في ظلمات لا يعلمها إلا الله، وعندها يصبح القلب بكل ما فيه مختوما لكل أنواع الباطل والضلال ومن ثم يتم الختم أيضا على الإسماع وتقع الغشاوة على الإبصار، لأن القلوب أقفلت، وجعلت عليها الأكنة والرين والطبع والختم والإغفال عن ذكر الرب حتى زاغ القلب، وتداخل الصدر، وأصبح ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء.

وقد تقدم أن منطقة حديث النفس لا حساب عليها، وأنها مفتاح الابتلاء ومحل البلاء، فتارة تتوالى الخواطر من النازعين، وتارة تتوارد من الهاتفين، فربما تختلف اللمتان من الملك والشيطان العدو، ويتفاوت الإلهام والوسوسة في طرح معاني الخير والشر، فلربما تقدمت لمة الشيطان بالأمر بالشر، وتقدح بعدها لمة الملك نصرة للعبد وتثبيتا على الخير، وعناية من الرب تعالى، فينتهي عن ذلك، وعلاقة ذلك بالإرادة أنه يجب على العبد أن يعصى خاطر الشر، ويستغفر الله ويتعوذ به من الشيطان، ويطيع الخاطر الثاني ويحمد الله.

ولربما تقدم إلهام الملك بالأمر بالخير، ثم يقدح بعده خاطر الشيطان بالنهى عنه، والتثبيط فيه، وتأخير الاستجابة، محنة من الله تعالى للعبد، لينظر كيف يعمل، وحسدا وحقدا من الشيطان، فعليه أن يطيع خاطر الحق ويعصى

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٨٢ : ٤٨٣ بتصرف.

خاطر الشيطان، ثم تدق الخواطر من إلهام الملك بالخير ومن وسوسة الشيطان بالشر، وقد يتفاوت ذلك من ضعف خاطر الخير لقوة الرغبة في الدنيا، ومن قوة خاطر الشر لقوة الشهوة والهوى، وتزداد الخواطر وتنقص حسب تقليب الله ومشيئته، وتوفيقه لعبده وهدايته، وتثبيته وعصمته، ليرجع الأمر إلى نفاذ قضاء الله وقدره وتحقيقه لحكمته وعدله وابتلائه العبد في قلبه وبدنه.

وكل هذا إلقاء من خالق النفس ومقلب القلوب، حكمة منه وعدلا لمن شاء، ومنة منه وفضلا لمن شاء، كما قال سبحانه: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾الأنعام:١١٥. أي بالهداية صدقا لأوليائه ما وعدهم من ثوابه، وبالإضلال عدلا على أعدائه ما أعد لهم من عقابه، فإذا أراد الله إظهار شيء من خزائن الغيب وظهور آثار قدرته وحكمته في عبده حرك بلطيف القدرة نازع الشر والاشتهاء في قلبه، فتحركت النفس بإذنه ابتلاء وامتحانا لعبده، فقدح من حركتها ظلمة تنكت في القلب همة سوء، فينظر الشيطان إلى القلب فيقوى نازع الشر، والعبد في غفلة، كان يجب أن يستغفر الله، ويستعيذ به من الشيطان ولكنه ما فعل، وتحرك بإرادته مستجيبا لحلاوة لشهوته فيقع في العصيان ويحاسب على ذنبه بعدل الله الذي لا يظلم أحدا من خلقه.

فإذا أراد الله تعالى بفضله سلامة عبده هذا الذي أشرف على الهلاك والبعد، بتسلط الشيطان عليه وتسويل النفس الأمارة له، ليطهِّر قلبه عند البلاء حرك له نازع الخير، وأمر الملك فحثه وحضه بخواطر كثيرة توقظه من غفلته، فيستغفر العبد بعزمه وإرادته، ويكثر من الاستغفار ويستعيذ ويكثر من الاستعاذة، فيهدى الله النفس بنور إيمانها بالله، وصدق الالتجاء إلي الله،

عائدا لائذا مخلصا مفوضا أمره إليه فوقاه الله مكر الشيطان، وجعل له مخرجا ونجاه، فينخمد نازع الشر وينمحق الهم من القلب ويخنس الشيطان ولا يبقى لخاطره من سلطان، فيصفوا القلب بقوة العزيز القهار، وتقليب الملك الجبار، فيخاف العبد مقام ربه، ويفزع من خطيئته وذنبه، ويهرب منها ويستغفر الله ويتوب.

وهذا كله تحقيق لحكمة الله في تقليب القلوب، وإنفاذ لمشيئة علام الغيوب في ابتلاء عبيده حتى يتحقق المكتوب، وهذا معنى كون الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتّى ما يكون بينه وبين الجنةِ إلا ذراع، فيسبقُ عليه كتابةُ في اللوح المحفوظ أن الله ﷻ سيبتليه فيفشل ويضل، حيث يبتليه الحق في منطقة حديث النفس فلا يستجيب العبد ويضل في منطقة الكسب، يستجيب لهواه ويسارع في إرضاء الشيطان، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وكذلك الرجل يعمل بعمل أهل النار حتّى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبقُ عليه كتابةُ في اللوح المحفوظ أن الله سيبتليه فينجح ويستجيب إلى هداية الله، يبتليه الله في منطقة حديث النفس بنازع التقوى ولمة الملك فيستجيب باختياره الكائن في منطقة الكسب لنازع الخير وهاتف الخير، ويسارع في إرضاء الحق، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، هكذا يتحقق عدل الله وفضله في تقليب القلوب لعباده ولا يظلم الله أحدا من خلقه فيما وقع من قضائه وقدره.

الفصل الخامس
بداية الكون والإنسان

• ما هو الوصف الذي يتميز به الإنسان عن غيره؟

صرح القرآن الكريم بأن الوصف الذي يتميز به الإنسان عمن حوله من الكائنات هو استخلافه في الأرض؛ فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠. وقد بينت النصوص بجلاء ووضوح أن الله ﷻ استخلف الإنسان في الأرض، واستأمنه عليها، وخوله واسترعاه فيها، وابتلاه بها إلى وقت محدود، وإلى يوم موعود، أخفاه الله عنه؛ فلا يعلمه أحد سواه، ثم يحاسبه على ما قدم من عمل في دار الابتلاء؛ بعد أن ينتقل إلى دار أخرى تسمى بدار الجزاء. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ الأنعام:٩٤. وقال تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ الحديد:٧. وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ الإنسان:٢. وصح أن النبي ﷺ قال: (إِنّ الدُّنْيا حُلوةٌ خضِرةٌ وإِنّ الله مُسْتخْلفُكُمْ فِيها فينْظُرُ كيْف تعْملون)[1].

وقال رسول الله ﷺ: (كُلكُمْ راعٍ وكُلكُمْ مسْئُول عنْ رعِيّتِهِ، الإِمامُ راع

---

(١) مسلم في الذكر والتوبة والاستـغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء ٤/ ٢٠٩٨ (٢٧٤٢).

ومسْئُول عنْ رعِيّتِهِ، والرّجُل راعٍ فِي أهْلِهِ وهُو مسْئُول عنْ رعِيّتِهِ، والمرْأةُ راعِيةٌ فِي بيْتِ زوْجِها ومسْئُولةٌ عنْ رعِيّتِها، والخادِمُ راعٍ فِي مال سيِّدِهِ ومسْئُول عنْ رعِيّتِهِ، وكُلكُمْ راعٍ ومسْئُول عنْ رعِيّتِهِ)[1].

ومن اللوازم الضرورية لمعنى الاستخلاف وجود مستخلِف، ومستخلف، ومستخلف عليه، فالمستخلِف هو الله ﷻ، والمستخلَف هو الإنسان، والمستخلَف عليه هي الأرض التي هو فيها؛ فهي محل الاستخلاف وموضع الابتلاء، والأمانة التي سيسأل عنها، وقد هيأها الله ﷻ لأداء هذه المهمة التي شرف الإنسان بها، كما أن العالم مهيأ أيضا لتبقى الأرض على هذا الحال أمانة لدى الإنسان إلى وقت معلوم، فالإنسان متميز عن غيره بأنه مستخلف في الأرض من قبل الله ﷻ بنص القرآن.

ولا عبرة بالآراء المبنية على الافتراضات العقلية الظنية في تحديد الوصف الذي يميز الإنسان عن غيره من الكائنات، فلم يتميز بأنه حيوان ناطق يتكلم بأجود الكلمات والعبارات كما قال علماء المنطق، ولم يتميز الإنسان عن غيره بأنه عاقل كما قالت الفلاسفة، ولم يتميز عن غيره بصفة الاجتماعية والأممية كما قال علماء الاجتماع، وغير ذلك من الآراء العقلية والفلسفات الظنية المردودة بالأدلة العقلية والنصوص القرآنية والنبوية.

• هل يصح القول بأن الإنسان خليفة لله في الأرض؟

لا يصح ذلك إلا على التقييد؛ فيصح القول بأن الإنسان خليفة لله في الأرض على وجه الابتلاء والامتحان؛ لأن الاستخلاف قد يكون كمالا في

---

(١) البخاري في الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن ١/ ٣٠٤ (٨٥٣).

حال ونقصا في حال، فلا يصح إثبات الوصف لرب العزة والجلال إلا مقيدا بموضع الكمال، وذلك شأن جميع صفات الأفعال المقيدة التي لا يصح إطلاقها، فلا يجوز القول: إن الإنسان خليفة لله ﷻ على الإطلاق، ولكن يجوز القول: إن الإنسان خليفة لله على معنى الابتلاء، والتقييد بهذا المعنى فيه الكمال والجمال، ويشهد لحكمة الله ﷻ بالعظمة والجلال، وقد دلت نصوص القرآن والسنة على أن استخلاف الإنسان له معنيان:

الأول: استخلاف عن نقص الأوصاف بحكم طبيعة الإنسان، ويكون عند عجز المستخلف عن القيام بملكه، أو تدبير أمره، إما لغيابه أو قلة علمه، وإما لمرضه أو موته، كاستخلاف القائد نائبا على جنده أو قومه، كما ورد ذلك في قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ الأعراف:١٤٢.

الثاني: استخلاف عن كمال الأوصاف، وذلك إذا كان لتشريف الإنسان وإكرامه، أو اختباره وامتحانه، وليس لعجز المستخلف عن القيام بشؤونه، ومثال ذلك امتحان الأستاذ لطلابه وهو يراقبهم من بعيد فيراهم ولا يرونه كمن، ولله المثل الأعلى ـ ويجوز في حق الله قياس الأولى ـ يصح القول: إن الإنسان خليفة عن الله ﷻ في الأرض على وجه الابتلاء والامتحان، لأن هذا الوجه كله كمال لا عجز فيه ولا نقصان.

ومن ثم فإن الله ﷻ لما قال لملائكته مبتليا لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠. فإن خلافة الإنسان في الأرض تحقق فيها معنيان جامعان، الأول أن يخلف بعضهم بعضا على وجه النقص والقصور في حياة الإنسان،

والثاني أنه خليفة لله في الأرض على وجه الابتلاء والامتحان، وكل الآيات التي وردت في خلافة الإنسان للأرض تدل على المعنيين معا: أن الإنسان خليفة لمن سبق من الذرية عن نقص في الأوصاف البشرية، وخليفة لله على وجه الكمال، استخلفه رب العزة والجلال لإظهار المعاني الشرعية وتوحيد الله في العبودية، غير أنه لا حول له ولا قوة في معاني الربوبية، فالله ﷻ من فوق العرش معه يتابعه، يراه ويسمعه، وهذا مقتضى الاستخلاف المبني على معاني الابتلاء والاختبار، ومعاني الأمانة والانتظار إلى دار الجزاء والاستقراء إما في جنة وإما في نار، نعوذ بالله منها.

• هل الخلافة عن الله تقتضي الغياب والعجز؟

خلافة الإنسان للأرض على وجه الابتلاء ليست خلافة عن غيبة المستخلف، لأن خلافة الإنسان لأخيه الإنسان وإن اقتضت الغياب في العادة إلا أنها في حق الله واستخلافه لآدم وذريته كانت سببا مباشرا في نشأة عالم الغيب والشهادة؛ فالله غيب بالنسبة للإنسان؛ لأنه ﷻ جعل مداركه محدودة على وجه الابتلاء، فهما غيب وشهادة ليس بالنسبة لله وعلمه بخلقه، ولكن بالنسبة لعلم الإنسان بمخلوقات ربه، سواء المرئية أو الغيبية، حيث قال سبحانه عن شمولية علمه لكل صغيرة وكبيرة في خلقه: ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ الرعد:٩. وقال في المقابل عن حدود علم المستخلف: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ الإسراء:٨٥.

ومن ثم فإن علم الإنسان في الدنيا مهما بلغ محدود، وحواسه لها حدود وقيود، وسوف يحاسب عليها في يوم موعود، وعلى ذلك ترتبت أمور

التكليف وأحكام الشرائع والعبودية؛ فكان النطق بشهادة الحق أمرا وتكليفا، وترك الزور وقول الصدق مدحا وتشريفا، فاستخلاف الإنسان في الأرض سببه مراعاة الأمانة وتحمل المسئولية، وليس نيابة عن الله ﷻ في معنى من معاني الربوبية، أو تخويلا لغيره في إرادته الكونية، سبحانه وتعالى أن يتخذ شريكا له في ملكه، أو يتخذ وليا من الذل وينعزل عن خلقه.

قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ الإسراء:١١١.

وقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ فاطر:٤١.

والذين نفوا أن يكون الإنسان خليفة عن الله ﷻ في أرضه كشيخ الإسلام ابن تيمية ومن قال بقوله إنما أرادوا هذا المعنى، وهو نفي النيابة عن الله في معنى من معاني الربوبية، أو غياب الحق وانعزاله عن تدبير شئون الخلق، لأن إطلاق لفظ الخليفة عن الله دون تقييده بمعنى الابتلاء يشمله.

• لماذا استخلف الله الإنسان في الأرض؟

لأن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي قبل الأمانة حين عرضت على الكائنات، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الأحزاب:٧٢.

وقد صح عن ابن عباس ﷺ في تفسير الآية أن الله قال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ

بما فيها، قال يا رب: وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت، فأخذها آدم فتحملها [١].

وهذا العرض الذي ورد في آية الأمانة عرض تخييري يحمل اختبارا لهذه المخلوقات من حيث المبدأ، وتخيرها في الموافقة على قبول الأمانة، واستمرار الابتلاء والمسؤولية والحساب، ثم تحمل الثواب والعقاب، حيث سيكلف من يقبلها بمراعاتها على طريقة ما يشرعها لهم. ومما روي عن السلف في ذلك أن عمر بن عبد العزيز ﷺ عرض العمل في الإمارة على محمد بن كعب فأبى، فقال له عمر: أتعصي؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن الله تعالى حين عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، هل كان ذلك منها معصية؟ قال: لا، فتركه) [٢].

والعقلاء عن الله ﷻ يفهمون من آية الأمانة أن المخلوقات التي خيرت في حمل الأمانة أو رفضها وهي السماوات والأرض والجبال والإنسان كانت على درجة واحدة في إمكانية القبول أو الرفض، فلهن إرادة حرة، ولولا أن لهن اختيارا حرا ما عرض عليهن قبول الأمانة أو رفضها، ولما عبر عن رأيهن بقوله عنهن: ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ الأحزاب:٧٢. فالإباء والرفض والإشفاق يقابل القبول والرغبة والموافقة، وهذا دليل على أن الله ﷻ خيرهن دون جبر منه عليهن في قولهن أو فعلهن.

كما دلت آية الأمانة أن تلك المخلوقات التي عرضت عليها الأمانة لهن عقل وعلم، ويتصفن بإدراك وفهم، لأنه لا معنى لتخييرهن في أمر لا يعرفن

---

(١) الحاكم وقال: صحيح علي شرط الشيخين ولم يخرجاه ٢/ ٤٥٨ (٣٥٨٠).

(٢) الدر المنثور، لعبد الرحمن جلال الدين السيوطي ٦/ ٦٧٠ .

عنه شيئا؛ فهذا نوع من العبث لا يقبله العاقل على نفسه فضلا عن ربه.

وقد دلت آية الأمانة أيضا على أن الإنسان له وجود غيبي سابق عند بداية النشأة والتكوين، وهذا الفهم تؤيده آيات كثيرة وأحاديث صحيحة تدل على خلق الله لجميع الذرية وإيجاد أفراد النوعية الإنسانية لفترة وقتية معينة أشهدهم فيها على أنفسهم وعلى قبولهم بما يتوجب على أبيهم من الحقوق والواجبات وإظهار الحكمة في تدبير أمور المخلوقات.

وبهذا علمنا لماذا استخلف الله الإنسان في الأرض على وجه الخصوص ولم يستخلف غيره؟ أو لماذا اختار الإنسان بالذات ليخوله في الأرض ويكرمه بهذه المنزلة الرفيعة؟ وهل الإنسان في ذلك التميز مجبور مقهور؟ أم أنه مخير مسئول وله في تميزه دور معقول؟ وأنه لا يحق لإنسان أن يحتج على ربه، أو يحاول التملص والتخلص من ذنبه، بأنه لم يكن يرغب في الأساس أن يكون مستخلفا في الأرض كسائر الناس؟

• لماذا عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال؟

عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال لتتحقق حكمة الله ويتحقق عدل الله ﷻ في الكون، وينتفي الظلم ويستقر الأمن، فمع كون الله ﷻ متصفا بالمشيئة المطلقة والقدرة التامة إلا أنه موصوف أيضا بالعدل والحكمة، فمن عدله أنه لا يظلم أحدا من خلقه، فيلزمه بالجبر المطلق، أو القهر على فعل مع انتفاء الحكمة الإلهية فيه، وإلا صار ذلك عبثا وظلما، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ الكهف:٤٩. ومعلوم أن نفي الظلم يدل على كمال العدل، ولكمال عدله ﷻ قامت السماء والأرض بأمره على

الحق والميزان فقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ ﴾ الرحمن:٧. وكذلك قال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩ ﴾ الدخان:٣٨/ ٣٩.

ولكون الباطل ضد الحق قال المؤمنون لما نظروا إلى تركيب الخلق: ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك. ولذلك كانت دعوة الله للعقلاء إلى النظر في المخلوقات وشأنها، كيف خلقها الله ﷻ ودبر أمرها؟ وكيف تتجلى حكمة الله من خلالها؟ فكلها شواهد لكمال عدله ونعمته وفضله، وكلها آيات وأسباب يعتبر بها أولو الألباب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١ ﴾ آل عمران:١٩٠/ ١٩١. وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ ﴾ فصلت:٥٣.

- **ما هي علة التخيير في تسخير من رفض الأمانة لمن قبلها؟**

جعل الله تخيير من رفض الأمانة في التسخير لمن قبلها تحقيقا للرضا والمحبة في بناء أركان العالم، لأن الله ﷻ يفعل ما يشاء في ملكه، والخلق قائم على تدبيره وأمره، وكل شيء مفتقر إلى قضائه وقدره؛ وهو سبحانه وتعالى إن شاء استخلف الإنسان في الأرض بغير إرادته، وإن شاء أجبر السماء على حمل أمانته، وإن شاء أكره الأرض والجبال بقدرته، إلا أن عدله من لوازم حكمته، وتخيير المخلوقات في حمل الأمانة من كمال حجته، واستقرار العالم وأمنه من

بديع صنعته، ولذلك خير الله المخلوقات في حمل الأمانة أو رفضها، وكانت نتيجة التخيير قسمان، قسم رفض الأمانة، وقسم قبلها وهو الإنسان.

وبعد أن خير الله تعالى السماوات والأرض والجبال في قبول الأمانة أو رفضها، وبعد ممارسة حقهن في الاختيار ورفضهن لها، كان من كمال عدل الله ﷻ أنه خيرهن مرة أخرى، لكن التخيير هذه المرة لإظهار الرضا منهن في الطاعة لأمره، والاستجابة لحكمه، إذا كلفهن بعمل ما أو سخرهن لوظيفة ما حتى وإن كانت لصالح الإنسان الذي قبل الأمانة، فاخترن جميعا الطاعة والخضوع لله ﷻ، يكلفهن بما شاء وسوف يلتزمن بأحكام القضاء تمام الالتزام، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ فصلت:١١.

وخلاصة ما ذكره المفسرون في التخيير للإتيان طوعا أو كرها أن الله ﷻ خيرهن وقال لهن: استجيبا لأمري، وانفعلا لفعلي، طائعتين أو مكرهتين؟ فقال للسموات: أطلعي شمسي وقمري والنجوم، وقال للأرض: شققي أنهارك، وأخرجي ثمارك. قالتا: أتينا طائعين، نستجيب لك مطيعين [(١)].

وبهذا التخيير الثاني قامت المخلوقات في السماوات والأرض على محبة الله، والرضا بأمره في العمل على استقرار الكون وأمنه، وبقائه على الدوام ثابتا في دقة وأمان، كي تتكامل معاني الأمانة التي حملها الإنسان، ومعلوم أن تحقيق الأمن الكوني المبني على الرضا أبلغ من غيره المبني على العدل فقط.

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٩٨، وتفسير ابن كثير ٤/ ٩٤، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٩بتصرف.

• كيف كانت بداية الكون في المرحلة الأولى؟

بداية الخلق قبل وجود السماوات والأرض لم يذكر فيها الحق سبحانه سوى العرش والماء واللوح والقلم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ هود:٧.

وروى البخاري من حديث عمران ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (كان اللهُ ولمْ يكُنْ شيْءٌ قبْلهُ، وكان عرْشُهُ على الماءِ، ثمّ خلق السّماواتِ والأرْض، وكتب فِي الذِّكْرِ كُل شيْءٍ)[1].

ومن باب الفضول ربما يسأل سائل ويقول: وماذا قبل العرش والماء؟ والجواب أن الله قد شاء أن يوقف علمنا بالمخلوقات عند العرش والماء، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ البقرة:٢٥٥. فالله أعلم، هل توجد مخلوقات قبل العرش والماء أم لا؟ لكن وجودها أمر ممكن لتعلقه بمشيئة الله وقدرته، والله ﷻ يخلق ما يشاء، ويفعل ما يشاء فقال: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ البروج:١٦.

وهو سبحانه متصف بصفات الأفعال، ومن لوازم الكمال أنه فعال لما يريد على الدوام أزلا وأبدا، سواء كان ذلك قبل وجود العرش والماء أو بعد وجودهما، لكن الله أوقف علمنا عند هذا الحد، كما أن جهلنا بذلك لا يؤثر فيما يخصنا من لوازم تحقيق الحكمة في خلق الكون والإنسان.

---

(١) البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، ٦/ ٢٦٩٩ (٦٩٨٢).

وقد بينت نصوص القرآن والسنة أن الله ﷻ خلق الأرض والسماء بعد العرش والماء وأنه خلقهما على مرحلتين كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الأنبياء:٣٠. هاتان المرحلتان تحققان حكمة الله في ابتلاء الإنسان وقيام الخلائق على الحق والميزان، المرحلة الأولى كانت في وضع الرتق والدخان، والمرحلة الثانية بعد خلق آدم وكما نراها الآن. وكل ذلك تم في عدة حقب زمنية سماها الله أياما، الله أعلم بمقدارها، وقد تكون مدة طويلة جدا تساوي اللحظات فيها سنين لا تحصى في حساباتنا، فمقاييسنا تعجز بجملتها عن تصور مقياس زمني، أو عامل حركي لكوكب من الكواكب لضبط تقديرات الزمان فيها.

وهذا ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيميه حيث قال: (وخلق العالم في مدة غير مقدرة بحركة الشمس والقمر، كما أخبر أنه خلق السماوات والأرض، وما بينهما في ستة أيام، والشمس والقمر هما من السماوات والأرض وحركتهما بعد خلقهما، والزمان المقدر بحركتهما وهو الليل والنهار التابعان لحركتهما إنما حدث بعد خلقهما، وقد أخبر الله أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام.. ويواصل قائلا. فتلك الأيام مدة وزمان مقدر بحركة أخرى غير حركة الشمس والقمر) [1].

وهذا فهم دقيق لشيخ الإسلام ابن تيمية حيث فسر الأيام الستة بأنها حقب زمنية الله أعلم بمقدارها، حتى لو أطلق على كل حقبة فيها اسم يوم

(١) درء التعارض بين العقل والنقل لابن تيمية ١/ ١٢٣.

من أيام الأسبوع في اصطلاحاتنا.

ومما ورد في مجموع الأدلة القرآنية والنبوية فإن الأيام الستة المذكورة في القرآن يراد بها المرحلة الأولى من خلق الكون، وهي المرحلة التي بدأت بخلق الأرض وما عليها، ثم السماوات في وضعها الأول، والمسمى بوضع الرتق والدخان، ثم كان استواء الله على العرش بعد ذلك. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ الفرقان:٥٩.

وفي المرحلة الأولى أيضا خلقت الملائكة والجن، وقد استمرت تلك المرحلة ست حقب زمنية أو ستة أيام سميت بالأيام الاصطلاحية في عرفنا من السبت إلى الخميس.

• كيف هيأ الله الكون في المرحلة الثانية لأجل الإنسان؟

المرحلة الثانية هي التي تمت بعد أن خلق الله ﷻ آدم ﷺ في آخر حقبة زمنية سميت يوم الجمعة، ثم عرض عليه الأمانة فقبلها في حين رفضتها السماوات والأرض والجبال، ثم خير الله ﷻ من رفضها في قضية التسخير لمن قبلها، فقالتا: أتينا طائعين، فهيأها الله ﷻ برغبتها، وسخرها عن محبتها، وأعد الكون على إثر موافقتها لاستخلاف الإنسان وابتلائه وتخويله فيها.

وقد بدأت هذه المرحلة الثانية بتهيئة السماوات، وترتيب الكواكب على مساراتها في السماء الدنيا، وظهور المجموعة الشمسية التي تحدد فيها الزمان باثني عشر شهرا قمريا، ثم دحيت الأرض بعد ذلك، وثبتت الجبال في الأرض بطبقاتها، لتسكن وتستقر في وضع يناسب وجود الإنسان، ويحقق له

معاني الاستخلاف والابتلاء، وتخويله بحرية في اختيار الإسلام، أو المنهج الشرعي كنظام يسلكه في أدائه للأمانة العظمى التي حملها.

وأغلب المفسرين يتفقون إجمالا في ترتيب الأحداث المتعلقة بنشأة الكون أنها تمت على مرحلتين: الأولى بدأت بخلق الأرض ثم السماء، والثانية بدأت بتهيئة السماء ثم دحو الأرض من أجل الإنسان. وقد ذكر ابن كثير أن الله ﷻ أيبس من الماء الذي كان عرشه عليه أرضا، فثار منه دخان، فارتفع وسما، فجعله سماء؛ فصار خلق الأرض قبل خلق السماء، ثم قصد إلى السماء فسواهن سبع سماوات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وكانت عند خلقها غير مدحوة. وسوف نلاحظ أن أغلب النصوص القرآنية والنبوية التي فيها البدء بخلق الأرض ثم السماء تتعلق بالمرحلة الأولى، وتلك التي فيها البدء بتهيئة السماء ثم الأرض تتعلق في أغلبها بالمرحلة الثانية.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ فصلت:٩/ ١٢.

وروى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: (أخذ رسُول الله ﷺ بيدِي فقال: خلق اللهُ ﷻ التُّرْبة يوْم السّبْتِ وخلق فِيها الجِبال يوْم الأحدِ، وخلق الشّجر يوْم الاثنيْنِ، وخلق المكْرُوه يوْم الثلاثاءِ، وخلق النُّور يوْم الأرْبِعاءِ، وبث فِيها الدّوابّ يوْم الخمِيسِ، وخلق آدم عليْهِ السلام بعْد العصْرِ مِنْ يوْمِ

الْجُمُعَةِ، فِي آخِرِ الخلقِ، فِي آخِرِ ساعةٍ مِنْ ساعاتِ الْجُمُعَةِ، فِيما بيْن العصْرِ إلى الليْل)[1].

وقد قدرت الدراسات العلمية البحتة أن عمر الكون على أقل تقدير عشرون مليار سنة بحساباتنا، ولا غرابة في ذلك لاختلاف المقاييس بين دوران الأرض حول الشمس والزمان الناتج عنه من جهة، ودوران الشمس حول مركز مجرتنا والزمان الناتج عنه من جهة أخرى، إذ يقدر العلماء المتخصصون في الكونيات أن السنة الكونية اللازمة لدورة الشمس حول مركز المجرة تعدل مائتين وخمسين مليون سنة في حساب دورة الأرض حول الشمس، ولا شك أن العدد سيتضاعف ملايين المرات عند تصور الزمان الناشئ عن دوران المجرة الواحدة حول مركزها بالنسبة لدورة الشمس حول مركز المجرة.

ومن هنا نعلم أن مجموع المجرات عند نشأتها وتكوينها، ثم انفصالها عن بعضها البعض ودورانها حول مركزها الذي لا يعلمه إلا الله، قد لا يستوعب العقل البشري حقيقة ما جرى في المدة الزمنية أو الكيفية المكانية إلا بوصفها ستة أيام أو كما سماها النبي ﷺ بما يسمى به أيام الأسبوع، فلا نبالغ إذا إن قلنا إن اللحظة عند النشأة في الأيام الستة تعدل مقدارا زمنيا غيبيا يصعب تصوره في حساباتنا الأرضية.

وقد خلق الله الملائكة والجن قبل يوم الجمعة الذي خلق فيه آدم، أي أنهم خلقوا في المرحلة الأولى، فالملائكة خلقوا من نور، والجن أبناء الجان خلقوا

---

(١) مسلم في صفة القيامة، باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام ٤/ ٢١٤٩ (٢٧٨٩).

من النار، وكانت مادتها قد خلقت من قبل وهي النور والنار، كما ورد ذلك عند مسلم من حديث عائشة أن النبي ﷺ قال: (خُلقتْ الملائِكةُ مِنْ نُورٍ، وخُلق الجانُّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ، وخُلق آدمُ مِمّا وُصِف لكُمْ)[1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ الحجر:٢٧/ ٢٨ .

والشاهد ظاهر في كون الملائكة أسبق من الإنسان في الوجود، وآدم عليه السلام خلق في حقبة زمنية سميت يوم الجمعة. كما أن الله لم يبين لنا في شأن الجن والملائكة تفصيل بداية خلقهم، أو كيف تحققت حكمته في تدبير أمورهم؟ غير أن ما ثبت في النقل الصحيح أن الجن خلقوا للعبادة من خلال معنى الابتلاء، والملائكة خلقوا أيضا للعبادة وكانت في السماء. وقد أخبرنا الله عز وجل أنه جعل إبليس بين الملائكة من حيث الرفعة والمكانة، غير أنه مخلوق من المادة التي خلق منها الجن، وجمهور العلماء على أن الجان أو إبليس هو أبو الجن، كما أن الله عز وجل لم يبين لنا تفاصيل الأحداث التي تم على إثرها وجوده بين الملائكة، فوجب أن نقف على ما أخبر، ولا نخوض في ذلك بالظن.

وبعد انتهاء المرحة الأولى من الكون في ستة أيام، أو ست حقب زمنية الله أعلم عز وجل بمقدارها، استوى الرحمن على عرشه، وهو ما عبر عنه اليهود في التوراة المحرفة بأنه استراح في اليوم السابع. وهذا من الأدلة القاطعة على تحريف التوراة، لأن الأمر ليس كذلك، ولا يمكن أن تكون كلمة الاستراحة في الألواح التي كتبها الله بيده لموسى عليه السلام، فالقرآن كشف بحمد الله خطأ

---

(١) مسلم في الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة ٤/ ٢٢٩٤ (٢٩٩٦).

الأحبار وتحريفهم للكلم عن مواضعه.

وكذلك خلق الله آدم عليه السلام كأول إنسان من تراب اختلط بالماء فصار طينا، ثم جف الطيف فأصبح صلصالا ثم حمأ مسنونا، ثم سواه الله على هيئة قويمة وصورة سليمة، ثم نفخ فيه من روحه وصار إنسانا بعد أن لم يكن شيئا مذكورا، وبعد وجود آدم عليه السلام ظهرت حكمة الله عز وجل في ابتلائه بجميع المخلوقات من حوله فكانت المخلوقات منه على نوعين:

النوع الأول: ابتلى فيه الإنسان مع السماوات والأرض والجبال في قضية عرض الأمانة، وقد تقدم ذكرها وما ترتب عليها.

النوع الثاني: ابتلاه مع من سبقه في الوجود ممن لم تعرض عليهم الأمانة وهم الملائكة والجن، وكان ذلك إظهارا للعدل الإلهي في سائر الخلق، وقيام السماوات والأرض على الحق والميزان.

وبعد ذلك جعل الله الكون في مرحلته الثانية بوضع مخصوص من أجل استخلاف الإنسان وبقائه على الأرض إلى يوم القيامة، فقد فصل الله عز وجل السماء عن الأرض من وضع الرتق والدخان كما قال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ فصلت:١٢. بناها سبعا طباقا، رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، فجعل فيها الشمس والقمر تحديدا لنوعية الزمن الجديد الذي سيتعاقب على الإنسان والذي عبر عنه القرآن حين بدأت المرحلة الثانية بخلق السماوات ثم خلق الأرض بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ التوبة:٣٦. ثم ثنى الله بالأرض فبسطها ودحاها ومدها، وأخرج ما كان مودعا فيها من أقوات وخيرات كما قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ النازعات:٣٠/ ٣٢.

وكل ذلك لتستقر الأرض للإنسان متاعا له على وجه الابتلاء والامتحان، ومهما كان الاجتهاد في الجمع بين النصوص إلا أنه من المؤكد أن الكون أعد بعناية خاصة من أجل الإنسان؛ فهو المستفيد الوحيد من الأرض وما عليها بنص القرآن، وكل ما فيها خلق لأجله هو، ومن أجل استخلافه الذي كرمه الله به وميزه عن غيره.

• ما الدليل على تهيئة الكائنات لابتلاء الإنسان بها؟

جعل الله ﷻ الأمانة التي حملها آدم ؈ وكرم النوع الإنساني بسببها متمثلة في قضية استخلافه في الأرض، حيث رفعه الله وكرمه ومنحه مقومات الخلافة من العلم والحرية والاستطاعة، وخوله في ملكه وكلفه بأمره ليمتثل لشرعه في كل ما منحه وأعطاه، هل سيكون أمينا راعيا وفق أحكام الله؟ أم سيكفر بربه ويطغى ويتعالى على خلقه، ولا يرد الأمر في ملكه إلى صاحبه؟

وهذه المعاني العظيمة التي ورد بها القرآن توضح الرؤية الصحيحة للعلاقة بين الله والإنسان والعالم، وهو ما حير الفلاسفة وعجزت العقول بمفردها عن تقديم حل مقنع لها؛ فالابتلاء يقتضي وجود مبتِلي ومبتَلى ومبتَلى به، والأمانة تقتضي وجود أمين وأمانه ومالك لها، والاستخلاف يقتضي وجود مستخلِف ومستخلف ووجود مستخلف عليه، فحقيقة الابتلاء

وارتباطها بمعنى الأمانة والاستخلاف حقيقة ظاهرة في نصوص القرآن والسنة، وهي تفسر بسهولة ويسر ما يعجز عنه كل مكتشفات العلم الحديث بمعطياته المتعددة. ولو طالعنا نصوص القرآن والسنة لوجدنا أن الله ﷻ يذكرنا بهذا التكريم الذي ناله بنو آدم، وما ترتب عليه من تسخير المخلوقات لهم ومحاسبتهم في الآخرة على هذه النعم السابغة والحجج الدامغة.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ الإسراء:٧٠.

وعند مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (فيلقى العبْد فيقُول: أي فُل، ألَمْ أكْرِمْك وأسوِّدْك وأزوِّجْك وأسخِّرْ لك الخيْل والإبِل وأذرْك ترْأسُ وترْبعُ؟ فيقُول: بلى، فيقُول: أفظننْت أنّك مُلاقِيّ؟ فيقُول: لا، فيقُول: فإني أنْساك كما نسيتني)[1].

وهذه النعم التي لا تحصى ولا تعد توجب علينا شكر الله بغير حد، ولازم الشكر كمال الطاعة والخضوع لله ﷻ وتوحيد العبودية له بلا شرك. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ الأعراف:١٠. وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق ٤/ ٢٢٧٩ (٢٩٦٨).

نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ إبراهيم:٣٢/ ٣٤.

ولما كانت الأنعام مسخرة للإنسان على وجه الابتلاء تكريما له إذ قبل الأمانة ورفضها من رفضها من الخلائق شرع لنا أن نتذكر خالقها ومالكها، وأن نذكره بالعلو والتنزيه عند الاستواء عليها فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ الزخرف:١٢/ ١٣.

وفي مواضع كثيرة من القرآن يذكر الله ﷻ الإنسان بالعلة من وجود المخلوقات على هذا الحال، وأن ينظر في نعمه التي توجب النظر والتفكر والشكر والتذكر والرجوع إلى الله بدوام الافتقار، ويلاحظ في منهج الآيات أن الله ﷻ يعدد نعمه وفضله على الإنسان بتهيئة الأسباب له ثم يذكر بعدها إلزامه بالتكليف والحساب؛ لأن هذه المخلوقات سخرها له، وطوعها كأمانة بين يديه، استخلفه عليها، وسوف يسأل عنها بالضرورة، والقرآن والسنة فيهما من هذا القبيل الكثير والكثير؛ فتلك المخلوقات مسخرات بأمر الله ﷻ قائمات على خدمة الإنسان، باقيات بمشيئة الله ﷻ لأداء دورها في تحقيق معنى الأمانة والاستخلاف.

• هل وجود الكون كان بسبب نظرية الانفجار الكبير؟

لم يكن الكون على هذا الحال وبهذا الإبداع والكمال لمجرد انفجار عشوائي مفاجئ كما تقول نظرية الانفجار، بل بنى أركانه الرب الإله الملك الجبار الكبير المتعال، وأمسكه بقدرته من التخبط والزوال كما بين ذلك في غير

موضع من كتابه فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾ فاطر:٤١. وقال أيضا: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ ﴾ الحج:٦٥.

وهذا الكون سيبقى في ثبات وأمان تتوالى أيامه على مر الزمان منذ أن رفع الله السماء وفتقها وبسط الأرض ومدها، ليحقق للإنسان حقيقة الابتلاء والامتحان كما شاء الله بحكمته، ولم يكن الإنسان يوما خلية أولية، ثم تطورت فأصبحت قردة برمائية، ثم تطورت فكونت السلالة البشرية إلى غير ذلك من فكر دارون ودعاوى الماركسية، ولم يكن آدم عليه السلام نسلا من سلالة بشرية همجية جعلها الله تعالى كما زعم البعض تجارب إلهية، ثم طورها فسواها وعدلها بمواصفات مثالية، بل خلقه الله عز وجل كما جاء في نص الكتاب والسنة من تراب. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ آل عمران:٥٩.

وعند أبي داود وصححه الألباني من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إِنّ الله خلق آدم مِنْ قَبْضةٍ قبضها مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فجاء بنُو آدم على قدْرِ الأرْضِ، جاء مِنْهُمُ الأحْمرُ والأبْيضُ والأسْودُ، وبيْن ذلك والسّهْل والحزْنُ والخبِيث والطّيِّبُ)[1].

ومن هنا يمكن لكل عاقل أن يدرك سر خلق العالم على هذا الوضع الذي نراه، وهل سيبقى على ذلك أبد الآبدين أم ليوم معلوم وأجل محتوم قدره

(١) أبو داود في السنة، باب في القدر ٤/ ٢٢٢ (٤٦٩٣)، والسلسلة الصحيحة (١٦٣٠).

الله؟ وهل هذا العالم الذي نعيش فيه على الأرض يحقق بالفعل تميزا مخصوصا للإنسان؟ وكثير من الأسئلة التي تتردد على الأذهان سوف يجد لها الدليل والبرهان بإذن الله تعالى.

• لماذا كان الإيمان باليوم الآخر ركنا من أركان الإيمان؟

جعل الله الإيمان باليوم الآخر ركنا من أركان الإيمان ليعلم كل إنسان أنه محاسب على الأمانة التي كرمه الله من أجلها، وأنه إذا انتهت دار الامتحان والابتلاء، هيأ الله ﷻ دارا أخرى للحساب والجزاء تحقق كمال الحكمة وتظهر مقتضى العدل والرحمة، وعندها تبدأ مرحلة الحياة الدنيا في الاضمحلال والزوال حيث تنفطر السماء وتتكور الشمس، وتتهاوي النجوم وتسير الجبال، وتتعطل العشار، وتسجر البحار، وتزلزل الأرض زلزالها، فالسماوات التي رفعها الله ﷻ وفصلها عن الأرض من أجل الإنسان سوف تتغير بعد انتهاء دورها في انقلاب كوني شامل يغير معالم الحياة الدنيا، ويبدلها إلى أرض جديدة بيضاء عفراء ليس فيها علم لأحد تتناسب مع دار الجزاء وأمور الآخرة. قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ التكوير: ١/ ١٤.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ الأنبياء:١٠٤. وقال ﷻ:

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ الفرقان:٢٥/٢٦.

كما أن الله ﷻ أخفى وقت قيام الساعة لتظهر حكمته في ابتلاء الإنسان ويرى سعيه في العبادة والإيمان. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ طه:١٥/١٦. وبذلك يحرص الإنسان دائما على طلب النجاة في الدنيا والآخرة، ويعلم أن سعادته في الدنيا مرهونة بالاستجابة لتدبير الله الشرعي والاستعانة بتدبيره الكوني، فيرجع على الدوام إليه ويتوكل عليه، ويخافه ويرجوه، ويحبه ويدعوه طالما أن أزمة الأمور بيديه ومرجعها إليه، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ العنكبوت:١٩/٢٠.

وهكذا يرى الموحدون الكون في كمال الانضباط، كل يسير خاضعا لأمر الله ﷻ لا الشمس تتأخر لحظة ولا القمر يتخلف عن موعده ليلة، وكل في فلك يسبحون، قال تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ يس:٤٠.

- **بين كيف ابتلى الله الملائكة بالإنسان لتحقيق حكمته؟**

لما خلق الله السماوات والأرض وتمت حكمته في إعدادها على مرحلتين

ابتداء من خلق الأرض في المرحلة الأولى، وانتهاء بتهيئة السماء ودحو الأرض في المرحلة الثانية، فقال تعالى في سورة البقرة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ البقرة:٢٩.

بين الله ﷻ بعدها مباشرة ابتلاء الملائكة بالإنسان، وابتلاء الإنسان بالملائكة فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ البقرة:٣٠.

وظاهر الآية أن الملائكة والجان سبقت وجود الإنسان وابتلاها الله ﷻ في بيان موقفهم من قضية استخلافه في الأرض، وما سيترتب عليها لاحقا، ولذلك فإن خطاب الله لملائكته أنه جاعل في الأرض خليفة هو إخبار منه لهم عن واقع سيحدث في الكون من جهة، وابتلاءا لهم بذلك من جهة أخرى، فالحكمة أو العلة في إعلام الله ﷻ للملائكة وإبليس باستخلاف الإنسان في أرضه أن ذلك كان امتحانا لهم ليرى موقفهم ممن استخلفه في أرضه دونهم، بعد أن كرمه وهيأ الكون من أجله بعدله، وبناء على موقف الملائكة وإبليس، أو بتعبير آخر بناء على رد فعلهم تجاه حكمة ربهم سوف يتحقق فيهم العدل والإنصاف كما تحقق للإنسان في قضية الاستخلاف، فإعلام الله ﷻ لهم باستخلاف الإنسان إنما هو اختبار وامتحان يترتب عليه تقرير المصير، وبيان حكمة الله ﷻ في سائر ما يخصهم من أنواع التدبير.

ولما قال الله للملائكة: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ البقرة:٣٠. كان رد

فعلهم أن قالوا لربهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ البقرة:٣٠. والرد المتوقع من الملائكة ومعهم إبليس أن يكون بخلاف ما صدر منهم، فالكل عبيده يفعل بهم أو بغيرهم ما تشاء فهو العليم الحكيم. أما قولهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ البقرة:٣٠. تعميم لم يستثنوا فيه أحدا حتى الرسل والأنبياء أو خاصة العباد من الأولياء، وإن قيل إنهم استعملوا القياس بين من سبق من الجن وما يكون عليه الناس فالإفساد في الأرض وسفك الدماء وجب أن يحمل على الظن أو الاحتمال لا على القطع بوقوع السوء من الأفعال، وقد رد الله ﷻ عليهم ذلك بقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ البقرة:٣٠.

قال ابن القيم: (لما اعترضت الملائكة على خلق الإنسان، وقالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، أجابهم سبحانه بأن في خلقه من الحكم والمصالح ما لا تعلمه الملائكة، والخالق سبحانه يعلمه، وإذا كانت الملائكة لا تعلم ما في خلق هذا الإنسان الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء من الحكم والمصالح، فغيرهم أولى أن لا يحيط به علما، فخلْق هذا الإنسان من تمام الحكمة والرحمة والمصلحة)[١].

وقد أثبت الله لهم أن الإنسان بأوصافه التي جعلت للابتلاء مناسب لاستخلافه فعلمه الله الأسماء: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ البقرة:٣٣.

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٢٤٩.

كما أن قول الملائكة: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ البقرة:٣٠. فيه ذكر لأنفسهم بالفضل وكمال العبادة، والله ﷻ أجل من أن يخفى عليه شيء من أفعال عباده، وقولهم أيضا فيه إشارة بالرغبة في تولي الخلافة بدلا من الإنسان، وتقليل من شأنه بإمكانية الإفساد والعصيان، ومعلوم أن الراسخين من العابدين إذا بلغ خضوعهم أعلاه كشأن النبي ﷺ عندما تورمت قدماه لا يذكرون عبادتهم لله بمدح وافتخار؛ بل يذكرونها على وجه التقصير والافتقار والذل والانكسار.

والقصد أن رد الملائكة ومعهم إبليس لم يكن على النحو المطلوب، وليس ذلك شأن المحب في سلوكه مع المحبوب، ولهذا ابتلاهم الله ﷻ جميعا بالسجود ليختبرهم ويرى مدى صدقهم في قولهم: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ البقرة:٣٠.

ولا شك أن الملائكة الذين خاطبهم الله ﷻ بقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ البقرة:٣٠. هم الذين خاطبهم بقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ ﴾ البقرة:٣٤. وذلك لأن الله ﷻ جمع الخطابين في موضع واحد فقال: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ الحجر:٢٨/ ٣١. فإبليس لا شك أنه كان بين القائلين: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ البقرة:٣٠. ومن ثم فإن قولهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ البقرة:٣٠. قول

مشترك لم يصدر من الملائكة فقط الذين خلقوا من النور ولكن صدر أيضا من إبليس الذي خلق من النار وله حكم الملائكة في مشاركة الخطاب والجواب.

قال ابن كثير: (لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابهم لأنه وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم، فلهذا دخل في الخطاب لهم وذم في مخالفة الأمر) [(١)].

ومن ثم فإن الاستنكار كان من إبليس لأن امتناعه عن السجود كشف عن سريرته، وظهر حقده على آدم وذريته، وقد بين الله ﷻ غروره واستكباره، وتشكيكه أيضا في حكمة الله تعالى؛ حيث رأى نفسه أنه والملائكة أفضل لهذه المنزلة الرفيعة التي وصل إليها الإنسان. أما الملائكة الذين خلقوا من نور فموقفهم كما ذكر ابن كثير: (إنما سؤالهم سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ولا يصدر منا شيء من ذلك وهلا وقع الاقتصار علينا؟) [(٢)].

لكنهم بقولهم هذا كانوا يرغبون أن يكون الخليفة في الأرض على صفة الطاعة المطلقة لا يعصي الله أبدا، ولما كانت هذه صفتهم فهم أولى بهذا الوصف من الإنسان، ولذا قالوا ما معناه: لو أردت أن تستخلف استخلف من لا يعصيك، يعنون أنفسهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٧٨.

(٢) السابق ١/ ٧٠.

• لماذا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟

أمر الله ﷻ الملائكة وإبليس على وجه الخصوص بالسجود لأدم عليه السلام لإظهار الحكمة الإلهية في خلقه وقد بدت حكمة الله في أمور كثيرة منها:

أولا: أن يعلم الإنسان مكانته عند الله ﷻ وعظم المهمة التي كلفه بها والتي من أجلها أسجد له ملائكته؛ فيدفعه ذلك إلى الطاعة والإيمان والتفكر بإمعان أبعد هذا الفضل والتكريم يتجرأ عاقل على الكفر والعصيان؟.

ثانيا: أن أمر الله ﷻ بالسجود لآدم ابتلاء للملائكة واختبار لهم في إظهار مدى صدقهم لما قالوا لربهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة:٣٠. فكانت حقيقة الابتلاء في قول الله ﷻ لهم: اسْجُدُوا لآدم، وهو أمر تكليفي وحكم تعبدي اختياري حتى لو كان بالسجود للإنسان، شأنه في ذلك شأن التخيير في الطاعة أو العصيان، فمن سجد منهم فقد صدق في قوله وكشف عن مراده، ومن امتنع كان ادعاؤه للتسبيح والتقديس كذبا وزورا وعلوا واستكبارا وانطبق عليه ما ورد في قول الله تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الأنبياء:٢٩.

ثالثا: أن سجود الملائكة لآدم عليه السلام إقرار منهم بمنزلة الإنسان وتعظيم لدوره في حمل الأمانة وابتلائه بين الكفر والإيمان، وأنه خليفة الله ﷻ في أرضه على وجه الابتلاء، وأنه الوحيد الذي ميزه وكرمه وفضله على كثير من المخلوقات، فهو القائم على أرض الله ﷻ بأمره وشرعه، وهو المستفيد منها إلى قيام الساعة بمشيئته وإذنه، فمن سجد لآدم عليه السلام أقر بذلك، ومن امتنع منهم كان معترضا على فعل الله ﷻ مشككا في عدله وحكمه.

رابعا: أن أمر الله ﷻ لملائكته بالسجود لآدم ﷺ لا يدل فقط على مطالبتهم بالإقرار وتعظيم الإنسان الذي كرمه الله، ولكن سجودهم سيتبعه تكليف جديد يقومون من خلاله بالقيام على تدبير الكون وضبط أموره وتدبير شئونه اللازمة لتحقيق استخلاف الإنسان في الأرض، والقيام أيضا على أمور الكائنات من حوله لكي تظل مسخرة له إلى يوم القيامة، ثم يتولون تدبير أموره أيضا في دار الجزاء سواء بتعذيبه إن كفر أو إكرامه إن شكر، وأنهم إذا سجدوا لن يعصوا لله أمرا في تدبير الكون وشئونه، ويفعلون ذلك خاضعين غير مستكبرين، فأبدوا بذلك الاستعداد التام لأمر الله في تدبير شئون الحياة.

والله تعالى له مطلق التدبير في ملكه، وهو سبحانه قادر على ألا يجعل الملائكة أسبابا غيبية لتدبير خلقه، وأن يتركهم على وضعهم الأول قبل نزول الإنسان على أرضه، فمشيئة الله في خلقه مشيئة مطلقة يقول للشيء كن فيكون، وهو قادر على أن يسير الأشياء بالأسباب المعهودة المشهودة في ترابط العلل والمعلولات، أو يسيرها بدون أسباب كالمعجزات وخوارق العادات، لكنه جعل الملائكة أسبابا غيبية لتدبير معيشة الإنسان كالأسباب المشهودة التي يحكمها الزمان أو المكان، وكلاهما عند الله ﷻ في حكم الابتلاء سيان.

وتلك حكمة الله في أن يبتلي الملائكة بالإنسان من جهة، ويبتليه بهم كتشريف لهم في ثاني ركن من أركان الإيمان من جهة أخرى، فانظر كيف أرسل الله ﷻ جبريل ﷺ في صورة أعرابي يجلس بين الصحابة ﷺ ليعلمهم دينهم فيسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، فالإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، ومن الإيمان بهم أن يؤمنوا بدورهم وشرفهم

وفضلهم ومكانتهم عند الله ﷻ.

فلما سجدوا لآدم وأقروا بمكانة الإنسان قسمهم الله ونوعهم، وكلفهم ووجههم، كل في عمل بالغ التخصص، فهم بأمر الله ﷻ قائمون على شئون الإنسان، يدبرون أمره على نحو ما جاء في القرآن.

قال تعالى في وصفهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ التحريم:٦.

والله تعالى اقتضت حكمته أن يجعل فريقا من الملائكة مكلفا بتبليغ كلامه ووحيه إلى الأنبياء والمرسلين، وجعل على رأسهم الروح الأمين جبريل ؏، وبهذا الوحي يذكر الله ﷻ الإنسان بفطرته، ويشرع لكل مستخلف منهجه في رعيته. كما جعل الله ﷻ فريقا منهم للعد والإحصاء سماهم حفاظا كراما كاتبين وجعلهم على عمل الإنسان قائمين يرقبون ويسجلون، ويدونون ويمحصون ويدققون، لا يغادرون صغيرة أو كبيرة من سعيه وكسبه، وهم يحاسبون الإنسان يوم القيامة على ما استرعاه الله من الأمانة، وعندها يشعر المؤمن يوم القيامة بالعزة والكرامة ويتقلب الكافر وقتها في الحسرة والندامة، حتى إذا جاء الكافر يوم القيامة تعجب من دقة حسابهم ومدى قدرتهم على تسجيل الأعمال كما قال رب العزة والجلال: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ الكهف:٤٩.

إن القلب ليخشع عندما يرى طلاقة العدل والكمال والحكمة والعظمة

والجلال في أن يكلف الله ﷻ الملائكة بالسجود لآدم ﷺ تعظيما له، ويكلفهم في المقابل بالإشراف على محاسبته تعظيما لهم، بل كلفهم بالقيام على قبض الأرواح وانتزاعها، واستدعاء الإنسان من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وجعل على رأسهم ملك الموت.

وجعل منهم خزنة الجنان قائمين على أمور المؤمنين، وجعل منهم أيضا الموكلين بالنيران، ملائكة غلاظ شداد على رأسهم خازنها مالك، وقد جعل الله ﷻ منهم أيضا أهل الإغاثة والنصر للقتال مع المؤمنين، وجعل منهم الموكل بالمطر، والموكل بالجبال، والموكل بحضور مجالس الذكر، والموكل بالنطفة في الرحم حتى حملة العرش ومن يطوف حوله منهم لهم صلة وثيقة بالإنسان؛ فهم بالإضافة إلى تسبيحهم وعبادتهم لله ﷻ يدعون للتائبين والمؤمنين الصالحين.

ومن حكمة الله في أمر التدبير أنه كلف كل يوم ملكين ينزلان من السماء يدعوان للإنسان أو عليه، يدعو أحدهما لكل منفق والآخر يدعو على كل ممسك. وتفصيل ما ذكر في القرآن والسنة عن الملائكة يضيق المقام عن ذكره.

- **كيف تحقق العدل في ابتلاء الإنسان بوسواس الشيطان؟**

امتنع إبليس وأبى أن يكون مع الساجدين، واستكبر أن يدخل في جملة المقرين بهذه المنزلة العظمى التي كرم الله ﷻ بها الإنسان، فتملكه العلو والاستكبار، وأظهر الاعتراض والاستنكار حسدا وحقدا على آدم وذريته، كيف فضلهم الله بمنزلة أعلى من مكانته؟ فلما لعنه الله وطرده من رحمته، وأيقن إبليس بهلاكه وشقوته، وأنه لا محالة ممنوع من جنته أراد أن يحقر من شأن الإنسان، وأن يشكك في حكمة الله وأمره، واستواء عدله في خلقه،

وكأنه يقول لربه: إن الذي استخلفته في الأرض ووضعته في هذه المنزلة مخلوق طيني أقل من ذلك، وكنت أنا والملائكة أولى بذلك، فدعني أحيا إلى يوم القيامة أو وسوس له فقط بالظلم والطغيان، ومكني من دعوته إلى الكفر والفسوق والعصيان، وسوف ترى صدق كلامي وحقارة الإنسان.

والله ﷻ له مطلق المشيئة في ردعه ومنعه من ذلك، لكن مقتضى عدله أنه أمهله وجعله ابتلاء لمن استخلفه وفضله وخوله، لأنه لو منع إبليس من هذه المسألة لصحت دعواه بوجه مقبول، ولكانت له على سائر العقول حجة وسلطان، وقد أقام الله ﷻ السماوات والأرض على الحق والميزان. وقد ظهر كمال العدل الإلهي عندما أذن الله للشيطان بالبقاء في دار الابتلاء يوسوس للإنسان بالعصيان من غير إلزام ولا سلطان. وتوعد أتباعه من بني الإنسان بالعذاب والخسران، فقال الله ﷻ مبتليا للشيطان بالإنسان: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾ الحجر: ٣٧/ ٣٨.

• كيف تحقق فضل الله في حماية الإنسان من كيد الشيطان؟

١- أن الله كلف ملكا قرينا يهتف له بالإيمان في مقابل هتاف الشيطان بالعصيان كما ورد عند مسلم من حديث ابن مسعود ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (ما مِنْكُمْ مِنْ أحدٍ إلا وقدْ وُكِّل بهِ قرِينُهُ مِن الجِنِّ وقرِينُهُ مِن الملائِكةِ، قالُوا: وإيّاك يا رسُول الله، قال: وإيّاي ولكِنّ الله أعانني عليْهِ فلا يأْمُرُنِي إلا بِحقٍّ)[1].

(١) مسلم في صفة القيامة، باب تحريش الشيطان ٤/ ٢١٦٨ (٢٨١٤).

٢- أن الله فتح باب التوبة للإنسان مهما بلغ به كيد الشيطان ما لم تغرغر النفس أو تطلع الشمس من مغربها، كما روى أحمد وصححه الألباني من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: (سمِعْتُ رسُول الله ﷺ يقُولُ: إنّ إبْلِيس قال لِربِّهِ بِعِزّتِك وجلالِك لا أبْرحُ أُغْوِي بنِي آدم ما دامتِ الأرْواحُ فِيهِمْ، فقال اللهُ: فبِعِزّتِي وجلالِي لا أبْرحُ أغْفِرُ لهُمْ ما اسْتغْفرُونِي) (١).

وعند مسلم من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إنّ الله عزّ وجل يبْسُطُ يدهُ بِاللّيْل ليتُوب مُسِيءُ النّهارِ ويبْسُطُ يدهُ بِالنّهارِ ليتُوب مُسِيءُ اللّيْل حتى تطْلُع الشّمْسُ مِنْ مغْرِبِها) (٢). وعند الترمذي وحسنه الألباني من حديث ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إنّ الله يقْبلُ توْبة العبْدِ ما لمْ يُغرْغِرْ) (٣).

٣- أن الإنسان لو اتبع الشيطان، وتمادى في الجرم والعصيان، فقتل مائة نفس وأراد التوبة والغفران، تاب الله عليه، وقبل منه الطاعة والإيمان، ولو تكرر العصيان من الإنسان وتكررت منه التوبة تاب الله عليه.

٤- أن الله ﷻ كما وعد بقبول التوبة عند رجوع الإنسان عن العصيان، فإنه بفضله وكرمه سيبدل للتائبين عدد ما فات من السيئات بنفس أعدادها حسنات، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٠﴾ الفرقان:٧٠.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣/ ٢٩ (١١٢٦٢)، والسلسلة الصحيحة ١/ ٢١٢ (١٠٤).
(٢) مسلم في التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب ٤/ ٢١١٣ (٢٧٥٩).
(٣) الترمذي في الدعوات ٥/ ٥٤٧ (٣٥٣٧)، وصحيح الجامع (١٩٠٣).

٥- أن الله سيعامل المؤمنين بفضله وسيحاسب الكافرين بعدله، والعدل أن يستوي العمل مع الجزاء، والفضل أن يفوق الجزاء العمل، فعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺقال: (إِذا أَحْسن أَحدُكُمْ إِسْلامهُ فكُلُّ حسنةٍ يعْملُها تُكْتبُ لهُ بِعشْرِ أَمْثالِها إِلى سبْعِ مِائةِ ضِعْفٍ، وكُلُّ سيِّئةٍ يعْملُها تُكْتبُ لهُ بِمِثْلِها)[1].

٦- أن الله سيفرح بتوبة عبده فرحا شديدا ترغيبا للإنسان وتبكيتا للشيطان ؛ فإن المذنب مخطئ في جنب الله، وعظم الذنب يقاس بعظم من أخطأ في حقه، فلو قبل الله توبة المذنب فإن مجرد القبول فقط كرم بالغ من الله عليه فما بالنا وهو يقبل توبة المذنب بعفو جديد وفرح شديد، فعند مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا: (للهُ أشدُّ فرحًا بِتوْبةِ أحدِكُمْ مِنْ أحدِكُمْ بِضالتِهِ إِذا وجدها)[2]. وفي مقابل توبة الإنسان وسجوده لرب العالمين يبكي الشيطان بكاء النادمين فعند مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إِذا قرأ ابْنُ آدم السّجْدة فسجد اعْتزل الشّيْطانُ يبْكِي، يقُولُ: يا ويْلِي أُمِر ابْنُ آدم بِالسُّجُودِ فسجد فلهُ الجنّةُ، وأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فأبيْتُ فلِي النّارُ)[3].

٧- أن الله تكفل بإيقاف الشيطان وإخناسه عند استعاذة الإنسان من وسواسه فقال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ

(١) البخاري في الإيمان، باب حسن إسلام المرء ١/ ٢٤ (٤٢).

(٢) مسلم في التوبة، باب في الحض على التوبة ٤/ ٢٠٩٩ (٢٦٧٥).

(٣) مسلم في الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ١/ ٨٧ (٨١).

﴿ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ فصلت:٣٦. وكان يمكن أن يقال: إذا نزغك الشيطان فقاومه بما استطعت من أسلحتك الفكرية ودلالاتك العقلية لكن فضل الله على الإنسان كان عظيما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ الناس:١/ ٦.

٨- أن الله وعد الإنسان ألا يعذبه إلا إذا بعث له رسولا يذكره بالشيطان وعداوته للإنسان فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ الإسراء:١٥. ولو فرض أن إنسانا انقطعت به أسباب العلم بحقيقة الشيطان وعداوته، ولم يعلم منهج الله في أرضه وأمانته، ولم يسمع عن الإسلام ورسالته؛ فإنه معذور بجهالته لاجتماع الأدلة على ذلك.

الباب الثالث

عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان

الفصل الأول

توحيد العبادة ومدارج السالكين.

الفصل الثاني

قواعد العبودية وأحكامها.

الفصل الثالث

أنواع الشرك بالله وأسبابه.

الفصل الرابع

أركان الإيمان وأنواع الكفر.

الفصل الخامس

الإيمان بين الزيادة والنقصان.

الفصل الأول

توحيد العبادة ومدارج السالكين

• ما هي حقيقة العبادة في الاصطلاح القرآني النبوي؟

العبادة التزام المسلم بأوامر الله ﷻ وشرعه تعظيما لربه، وإن خالف هوى نفسه؛ أو هي تعظيم العبد لله بامتثال أمره عن اختياره وحبه. والعبادة هي الغاية التي خلق الله العباد من أجلها، وبها أرسل الرسل وأنزل الكتب، وهي اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته، وكمال الخضوع لله ﷻ ونهايته؛ فالحب الذي يخلو عن خضوع، والخضوع الذي يخلو عن حب لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع الأمرين معا، ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله ﷻ. وهي وإن كانت منفعتها للعبد، والله غني عنها وعن العالمين؛ فهي لله من جهة محبته لها ورضاه بها، ولهذا كان الله أشد فرحا بتوبة عبده ممن أوشك على الهلاك بفقد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في أرض صحراء جرداء مهلكة، نام فاستيقظ فوجدها، فالله ﷻ أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته.

والعبادة هي أيضا اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، والجهاد في سبيل الله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن

السبيل، والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء وقراءة القرآن، وما يقوم بالقلب من حب الله ورسوله ﷺ، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والرضا بقضائه وقدره والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وغير ذلك من أمور التكليف التي أمر الله بها عباده هي من العبادة التي أمر الله بها.

وأصل كلمة العبد أي المعبد، وهو الذي عبّده الله ﷻ فذلله ودبر أمره وصرفه، والعبادة التي أمر الله بها، وخلق الإنسان من أجلها، هي عبادة الاختيار والافتقار إلى رب العزة والجلال، وهي العبادة التي يترتب عليها ظهور الحكمة في تشريع الأحكام، وتمييز الحلال من الحرام، والدخول في دين الإسلام، وترتيب الثواب والعقاب، وصحة العرض والحساب.

- **ما الفرق بين عبادة الله وتوحيد العبادة لله؟**

الفرق بين معنى العبادة وتوحيد العبادة، أن العبادة هي الخضوع التام المقترن بالإرادة وتعظيم المحبوب، فإن كان الخضوع والطاعة بغير إرادة فلا تسمى عند ذلك عبادة ، والعبادة لا تمنع الشرك؛ فالإنسان قد يعبد الله، ويعبد غير الله معه، أما توحيد العبادة لله؛ فيعني إفراد الله بها، وهذا يمنع الشرك ويمنع تشبيه المخلوق بالخالق، ولذلك كان من شروط لا إله إلا الله الإخلاص لله وحده، فالمخلص لا يشبه غير الله بالله، لأن أصل الشرك في العبادة تشبيه المخلوق بالخالق، فيعظمه كتعظيم الله، ويحبه كمحبة الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة:١٦٥. ولما عذبوا في جهنم قالوا عن علة عذابهم:

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٨ ﴾ الشعراء:٩٦/ ٩٨.

ولذلك كان دعاء الأموات وتأليه قبور الصالحين ينافي التوحيد والإخلاص ويستلزم أن تجعل من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا مشابها لمن كانت أزِمّةُ الأمور بيديه، ومرجعها إليه؟ فالذي يدعو الأموات يثبت لهم بصورة حتمية أوصاف الربوبية التي انفرد الله بها، فيثبت أنه يسمع ويبصر ويعلم ويقدر، وأنه غني يُدعى ويُقصد، وهذا هو الشرك في العبادة، أما توحيد العبادة فمبناه على الإخلاص لله وحده، هذا الإخلاص الذي يطهر العبد من دنس الشرك ويشعره بنور التوحيد في قلبه، فلا يدعو غير الله، ولا يطلب المدد من سواه، ولا يستعين إلا بالله، ويجعل الطواف مقصورا ببيت الله، ولا يقبل ضريحا أو مقصورة أو حجرا إلا حجرا واحدا أمرنا الله ﷻ بتعظيمه، ولا يذبح إلا لله، ويذبح باسم الله وحده، ولا يجعل النذر لسواه، ولا يتخذا على القبر مسجدا، ولا يقم فيه أبدا.

• ما هي أحكام العبودية ودرجات الأوامر التكليفية؟

درجات الأمر التكليفي هي أحكام العبودية، وهي درجات باعتبار إلزام العبد بها أو تخييره فيها، وتسمى الأحكام الشرعية الدينية التي دل عليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد صنفها علماء أصول الفقه إلى خمسة أنواع:

١ - الواجب أو الفرض: فإذا أمر الله عباده بأمر معين فإنه ملزم لهم ويتحتم عليهم تنفيذه، وإذا امتنع العبد كان عرضة للعقاب، لأن الإنسان في الأصل عبد مخلوق مملوك، ونعم الله عليه لا تحصى ولا تعد، فلكونه عبد يجب عليه طاعة معبوده، فإذا أمرنا الله ﷻ بأمر فالأصل فيه الوجوب والحتم والإلزام، وذلك أول أحكام العبودية ويسمى بالفرض أو الواجب ولا فرق بينهما عند الجمهور،

ويمكن التعرف على صيغ الأمر الملزم التي تدل على الوجوب من خلال فعل الأمر المجرد، أو يعبر عن الطلب بلفظ كتب؛ فإنه يدل على الفرض أو الوجوب، أو يصرح النص بلفظ فرض أو وجب، فإنه مصرح بدرجة الحكم وهى الفرضية أو الوجوب، أو تكون الصيغة التي تدل على طلب الفعل مقترنة في تركه بوعيد كعذاب أو غضب أو لعن على ترك الفعل .

٢- المندوب أو المستحب: فقد يأمر الله ﷻ بأمر، ولا يريد الحتم والإلزام، وإنها أراد به الاستحباب أو الندب، بمعنى أن الله يريد فعل ما يثاب عليه العبد فيكثر من حسناته ولا يعاقبه على تركه للفعل، وهذا هو معنى المستحب أو المندوب من أحكام العبودية، فالمستحب هو ما أمر به الشارع لا على وجه الحتم والإلزام، أو ما ندب الشارع إلى فعله دون إلزام أو عقاب، ويعرف أيضا بأنه ما يثاب على فعله، ولا يعاقب على تركه.

٣- المباح أو الجائز: قد يخرج الأمر عن الوجوب إلى الإباحة لدليل يقتضى ذلك، وأكثر ما يقع ذلك إذا ورد بعد الحظر، أو جوابا لما يتوقع أنه ممنوع، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ المائدة:٢ . أي بعد أن تتحللوا من إحرامكم للحج أباح لكم الاصطياد، فاصطادوا أو لا تصطادوا، فالأمر على وجه التخيير والإباحة، بعد أن كان محرما أثناء الحج، والمباح قد لا يتعلق بأمر أو نهي، ويترك الخيار للعبد في الفعل أو الترك، ويسمى أيضا بالحلال أو الجائز.

٤- المكروه: ويقابل المستحب هو ما نهى عنه الشارع لا على وجه الحتم والإلزام، أو هو ما يثاب تاركه، ولا يعاقب فاعله، ومن أمثلته مباشرة الرجل زوجته بدون ثوب وهى حائض؛ لأنه قد يؤدي إلى الجماع في الحيض.

٥- المحرم: ويقابل الواجب، ومعناه في اللغة الممنوع، ويقصد به في أحكام العبودية ما نهى عنه الشارع على وجه الحتم والإلزام، ويعرف الحرام إذا ورد النص بصيغة النهي المجرد عن القرائن كالمضارع المقرون بلا الناهية، نحو: ولا تقربوا. ويعرف الحرام أيضا إذا ورد التصريح بلفظ التحريم. ويعرف أيضا بأن تكون الصيغة التي تدل على طلب الترك مقترنة بوعيد وعقاب كالمنع من الجنة، أو الدخول في النار، أو اللعن أو الغضب أو الذم أو القبح أو ما شابه ذلك.

• ما هي أركان الإيمان في باب الأمر التكليفي التعبدي؟

الإيمان له ثلاثة أركان في باب الأمر التكليفي التعبدي، وهي تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان، وهي تتعلق بتنفيذ الأمر ظاهرا وباطنا، والسعي في تحقيق المطلوب من العبد شرعا، وهذا يسمى توحيد العبودية لله ﷻ، أو يسمى توحيد القصد والطلب.

قال ابن القيم رحمه الله: (رحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كملها كمل مراتب العبودية، وبيانها أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه، والأحكام التي للعبودية خمسة، واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح)[1].

وهذا الكلام من أدق وأشمل الضوابط في معنى العبودية التي يجب على المسلم أن يوحد الله فيها؛ لأن أركان الإيمان الأساسية باعتبار تنفيذ أحكام العبودية عند السلف ثلاثة أركان، وهي تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/ ١٠٩.

بالأركان؛ وكل واحد من هذه الأركان يستقل بتنفيذ أحكام العبودية بأنواعها الخمسة، وهي الواجب والمستحب والمباح والمكروه والمحرم، وقد يشترك القلب مع اللسان فقط في تنفيذ حكم واحد، أو يشترك القلب مع الجوارح، أو يشترك القلب واللسان والجوارح جميعا في تحقيق أحكام العبودية.

• ما هي أنواع الناس حسب موقفهم من دعوة النبي ﷺ؟

أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بأصناف الناس من بعده في موقفهم من دعوته إلى توحيد العبادة لله، والإيمان بما أخبرهم الله به مما سيحدث لهم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴾ فاطر:٢٩/٣٨.

قسّمت الآيات أتباع محمد ﷺ إلى ثلاثة أصناف، منهم ظالم لنفسه بالمعاصي التي هي دون الكفر، ومنهم مقتصد مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم، ومنهم مجتهد سابق بالخيرات مسارع فيها، وهو المؤدي للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه، فكلهم اصطفاه الله تعالى لوراثة هذا الكتاب والسنة وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته حتى الظالم لنفسه سيدخل الجنة في النهاية ولو عذب في النار ما شاء الله، فكلهم يدخلون الجنة ابتداء أو انتهاء بمشيئة الله وإذنه، وتوفيق الله ومعونته، وذلك هو الفضل الكبير، أي وراثة الكتاب لمن اصطفى تعالى من عباده.

ثم ذكر الله تعالى الصنف الباقي من الناس وهم الذين كفروا بالنبي محمد ﷺ ورسالته، وأصروا على الإعراض، ولم يستجيبوا لدعوته بعد أن سمعوا عنها، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ فاطر: ٢٩/ ٣٨.

ثم رد الله الأمر في وقوع ما أخبر عنه إلى علمه الذي سبق وجود العالم وتقديره المبرم، فهو سبحانه عالم غيب السماوات والأرض، علم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن ولو كان كيف يكون؛ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾ فاطر: ٣٨.

• ما هو التقسيم السني للسالكين إلى مرضاة رب العالمين؟

وردت أدلة الكتاب والسنة بتصنيف أولياء الله السالكين إلى نوعين: وهم أهل الإسلام المقتصدون، وأهل الإيمان السابقون المقربون، وكلاهما موصوف بالإخلاص والمراقبة والإحسان، فالدرجة الأولى تحصل بأداء الواجبات وترك المحرمات، والثانية لا تحصل إلا بأداء الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات، والدليل على ذلك ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إن الله قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضْته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه) [١]. فأنواع الولاية ودرجات السالكين مرتبطة بأسباب محبة الله لهم،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع ٥/ ٢٣٨٤ (٦١٣٧).

وهي في الحديث محصورة في أمرين، الأول منهما أداء فرائض الله، والثاني أن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبا لله، فإذا صار محبوبا لله، زاده الله ﷻ بفضله محبة أخرى فوق المحبة الأولى، فإن سمع سمع لمحبوبه، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشى مشى به .

وقد قسم القرآن أنواع السالكين في ولاية الله والملتزمين بالطريق إليها إلى طبقتين، إما سابقون مقربون، وإما أصحاب يمين مقتصدون، ذكرهم الله سبحانه في عدة مواضع من كتابه، منها قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ ﴾ الواقعة:٨٧/ ٩١.

وقد فضل الله عباده في درجات طاعتهم وأعمالهم، وجعلهم على درجتين أساسيتين، كل منهما يتفاضل من حيث درجة التقوى، والأكرم عند الله هو الأفضل في الطاعة والأتقى: درجة الإسلام وهي للمقتصدين، ودرجة الإيمان وهي للسابقين المقربين، وقد جعل الله الإحسان لازما لدرجة الإسلام ودرجة الإيمان، وليس الإحسان درجة ثالثة في الدين كما توهم ذلك كثير من المصنفين، بل داخلهم تقسيم الصوفية البدعي لأنواع السالكين، فجعلوا درجة الإسلام للعامة، ودرجة الإيمان للخاصة، ودرجة الإحسان لخاصة الخاصة، وهذا تقسيم باطل زلت فيه أقدام، وضلت فيه أعلام كما فعل الهروي في منازل السائرين.

روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: (بينما نحْن عِند رسول الله ﷺ ذات يوْمٍ، إذ طلع علينا رجُل، شدِيدُ بياضِ الثيابِ، شدِيدُ سوادِ الشعرِ، لا يرى عليهِ أثرُ السفرِ، ولا يعْرِفُهُ مِنا أحدٌ، حتّى جلس إلى

النبِي ﷺ، فأسند رُكْبتيهِ إلى رُكْبتيهِ، ووضع كفّيهِ على فخِذيهِ، وقال: يا مُحمّدُ، أخْبِرْني عن الإِسلامِ؟ فقال رسول الله ﷺ: الإِسلامُ أن تشهد أن لا إِله إِلا اللهُ، وأن مُحمّدًا رسول الله ﷺ، وتُقِيم الصّلاة، وتُؤْتِي الزّكاة، وتصُوم رمضان، وتحُجّ البيت إِن استطعْت إِليهِ سبِيلا. قال: صدقْت. قال: فعجِبْنا لهُ يسألهُ ويصدِّقُهُ. قال: فأخْبِرْني عن الإِيمانِ؟ قال: أن تُؤْمِن بِالله وملائِكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسلهِ واليوْمِ الآخِرِ وتُؤْمِن بِالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ. قال: صدقْت)[1].

أما الأدلة على أن لازم الإسلام والإيمان الإخلاص والمراقبة والإحسان، فهو ما بينه النبي ﷺ في حديث جبريل عليه السلام من تعريف الإحسان، وجعله على درجتين، درجة المقربين، ودرجة أصحاب اليمين فقال: (قال: فأخْبِرْني عن الإِحْسانِ؟ قال: أن تعْبُد الله كأنك تراهُ فإِن لمْ تكُن تراهُ فإِنهُ يراك).

ولذلك ربط الله تعالى الإحسان بالتقوى، وجعل التقوى صفة لازمة لصحة إسلام أصحاب اليمين، وصحة إيمان المقربين. قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ لقمان:٢٢. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ المرسلات:٤١/ ٤٤.

• ما هو الشرط اللازم لقبول عبادة المسلم لربه؟

لما كانت العبادة وصف الإنسان على وجه الإضرار، فإن الموحدين أتباع المرسلين توجهوا إلى الله الغني وعبدوه ووحده دون سواه، وتوجه المشركون إلى

(١) مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/ ٣٦ (٨).

غير الله طمعا في سد فقرهم وقضاء حاجتهم، ومن ثم كان توحيد العبادة لله ﷻ هو محور الخصومة بين الرسل وأممهم، فالأنبياء يدعونهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، وهم يصرون على الشرك وعبادة ما سواه، ومن هنا كانت العبادة المقبولة في الإسلام لها شرطان أساسيان يحققان معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهي شهادة التوحيد، وشهادة المتابعة:

١- الشرط الأول: الإخلاص الذي هو معني الركن الأول من شهادة ألا إله إلا الله. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾ البينة:٥. وقد روى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال عن رب العزة: (أنا أغْني الشُّركاءِ عنِ الشِّرْكِ، منْ عمِل عملا أشْرك فِيهِ معِي غيْرِي تركْتُهُ وشِرْكهُ)[1].

٢- الشرط الثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ، وهي شهادة أن محمدا رسول الله، وقد بينه النبي ﷺ في حديث عائشة رضي الله عنها حيث قال: (منْ عمِل عملا ليْس عليْهِ أمْرُنا فهُو ردٌّ)[2]. لأن الله تعالى إنما يعبد بما شرع، ولا يعبد بالبدع.

• ما هي العلة في تقديم العبادة على الاستعانة في فاتحة الكتاب؟

قرن الله العبادة بالاستعانة، وجعلها محور التوحيد لكل من أراد أن يتبع النهج الأسمى في السلوك والعبادة، وقد ذكر ابن القيم أن تقديم العبادة على الاستعانة لعلل عظيمة من أبرزها:

١- أن تقديم العبادة على الاستعانة من باب تقديم الغايات على الوسائل،

(١) مسلم في الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله ٤/ ٢٢٨٩ (٢٩٨٥).

(٢) مسلم في الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ٣/ ١٣٤٣ (١٧١٨).

إذ العبادة هي الغاية التي خلق العباد من أجلها، والاستعانة وسيلة إلى تحصيلها.

٢- أن العبادة في إياك نعبد متعلقة بإلوهية الله واسمه الله، والاستعانة في إياك نستعين متعلقة بربوبيته واسمه الرب، فقدم إياك نعبد على إياك نستعين كما قدم اسم الله على الرب لأن توحيد الإلوهية متضمن لتوحيد الربوبية.

٣- أن العبادة في قول العبد: إياك نعبد، قسم الرب، فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى لكونه أولى به، وإياك نستعين قسم العبد، فكان من الشطر الذي له، وهو اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة.

٤- أن العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به، ولا ينعكس؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات، قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم، ولهذا كانت قسم الرب، ولأن الاستعانة جزء من العبادة من غير عكس؛ ولأن الاستعانة طلب منه والعبادة طلب له، ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص.

٥- أن العبادة حق الله الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة، وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته، ولأن العبادة شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، والإعانة فعله بك، وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته ودخلت تحت رقها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سببا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم. والعبودية محفوفة بإعانتين إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على شكرها.

٦- أن العبادة في قوله إياك نعبد حق الله، وهي طلب محبته ورضاه، وإياك نستعين طلب فعله وإعانته، وهو متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار والطاعات والمعاصي، أما المتعلق بمحبته طاعاتهم وإيمانهم، فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدا، وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته؛ فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم إياك نعبد على إياك نستعين.

• ما هي أنواع الناس في العبادة والاستعانة بالله؟

لما كانت العبادة والاستعانة هما مدار توحيد العبودية لله تعالى، فإن أصناف الناس بحسب هذين الأصلين الشريفين أربعة أقسام بالضرورة، وقد بين ابن القيم حال كل قسم منهم على النحو التالي:

١- القسم الأول وهو أجلها وأفضلها، هم أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبي ﷺ لمعاذ بن جبل فقال: (يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[1]. فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها.

(١) انظر مشكاة المصابيح (٩٤٩)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٥٩٦).

٢- القسم الثاني وهو الذي يقابل هؤلاء، وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدهم واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه وتعالى يسأله من في السموات والأرض، يسأله أولياؤه وأعداؤه، ويمد هؤلاء وهؤلاء من عطائه، وأبغض خلقه عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتعه بها، ولكن لما لم تكن عونا له على مرضاته، كانت زيادة له في شقوته وبعده عن الله، وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ولم يكن عونا على طاعته كان مبعدا له عن مرضاته، قاطعا له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه، ومحبته له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظا لا بخلا، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه، فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة"[1].

٣- القسم الثالث من له نوع عبادة بلا استعانة، كالقدرية المعتزلة القائلين بأنه قد فعل بالعبد جميع ما يقدر عليه من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدور الله إعانة له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة، فأعان هؤلاء كما أعان

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/ ٧٨: ٧٩ بتصرف.

هؤلاء، ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق أوجب لهم الإيمان، وخذل هؤلاء بخذلان أوجب لهم الكفر، فهولاء لهم نصيب منقوص من العبادة لا استعانة معه، فيردون الفضل في عبادتهم إلى أنفسهم، وليس إلى توفيق ربهم، فهم موكولون إلى أنفسهم، مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد، فالإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

٤- القسم الرابع وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لكنه لم يلتزم بما يحبه الله ويرضاه كالجبرية، فتوكل عليه واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به فقضيت له، وأسعف بها، سواء كانت أموالا أو رياسة أو جاها عند الخلق، أو أحوالا من كشف وتأثير وقوة وتمكين، ولكن لا عاقبة له؛ فإنها من جنس المْلك الظاهر والأموال، لا تستلزم الإسلام، فضلا عن الولاية والقرب من الله، فإن الملك والجاه والمال والحال أعطاه الله للبر والفاجر والمؤمن والكافر، فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفة الله، ومعرفة دينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ويكرهه ويسخطه.

• ما هي أنواع السالكين في التصنيف البدعي الصوفي؟

يقسم الصوفية أنواع السالكين إلى مرضاة رب العالمين تقسيما بدعيا يتمثل في ثلاثة أنواع، وهم العابدون والمريدون والعارفون، فالعابدون هم العامة وهم الصحابة والتابعون، والمريدون هم الخاصة وهم أرقى درجة من العابدين،

والعارفون هم خاصة الخاصة وهم أعلى درجة من المريدين عند الصوفية، وقد ارتبط هذا التقسيم بالمراحل الفكرية المختلفة التي مر بها التصوف ولا زال حتى عصرنا، فهم ثلاثة أنواع:

النوع الأول: العابدون وهم أدنى أنواع السالكين وأقل الناس منزلة عند الصوفية، وهم الذين جعلوا غايتهم طلب الجنة والبعد عن النار، وتمسكوا بتوحيد العبادة لله كما ورد في الكتاب والسنة وكما كان عليه الصحابة والتابعون وسلف الأمة، وكما وصفهم الصوفية هم الزاهدون في الدنيا المعرضون عن زخرفها وجاهها، المقبلون على الله ﷻ بقلوبهم، قد أحكموا أركان الإسلام وحفظوا الحدود، وتمسكوا بالسنن، وبحثوا في أنواع الطاعات والآداب والعبادات والأخلاق الشريفة، والأحوال المرضية، وطالبوا أنفسهم بمتابعة رسول الله ﷺ والأسوة به، واقتفاء أثره، بما بلغهم من آدابه وأخلاقه، وأفعاله، وأحواله فعظموا ما عظم، واختاروا ما اختار، وتركوا ما ترك، وصبروا على ما صبر، وعادوا من عادى، ووالوا من والى، وفضلوا من فضل، ورغبوا فيما رغب وحذروا مما حذر.

النوع الثاني: من السالكين عند الصوفية هم المريدون، وهم أعلى من درجة العابدين، لأنهم لا يرغبون في جنة ولا يخافون من نار، بل جعلوا النفس سجينة في البدن، ولا مراد لهم إلا محبة ربهم، ولا يريدون في محبته عوضا من الدنيا أو من الآخرة، بل يمارس الرقابة على نفسه طالبا محبة الله وقربه.

وهؤلاء يظنون أن طلب الجنة مراد النفس، ولا بد للمرء من البعد عن مراده، فالجنة لا خطر لها عند المحبين، وأهل المحبة محجوبون عن الآخرة بمحبتهم، ويزعمون أن المريد من خواص العباد الذين لو بزقوا على جهنم

لأطفئوها وأن الله لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا بالخروج من الجنة، كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار.

ويزعمون أيضا أن الغاية عندهم هي الحرص على الوصول إلى رب الجنة، وليس إلى الجنة، والخوف من إعراض رب النار، وليس من حريقها، هاتان الغايتان مرتبتان أعلى عند هؤلاء من مرتبة التجار من العابدين التي كان ينظر بها للعلاقة بين العبد وربه.وأصبح الذكر عند المريدين غير مقيد بالقرآن والسنة بل بمعني تذكر القلب بلا نسيان، وترديد الأوراد على اللسان وهي من تلقين شيوخ الطريق العارفين يلقنونه للمريد ليغيب بترديده عن كل مراد سوى المحبوب، وينشغل عن كل خاطر سوى المطلوب، لا ينشغل بطلب جنة أو نار، ولا يكون لديه وقت لمثل هذه الأفكار.

النوع الثالث: من السالكين عند الصوفية هم العارفون، وهم أعلى درجة من المريدين لأنهم أصبحوا من أصحاب الفناء عن الحواس وفقدان الإحساس، الذي يصبح الصوفي متحدا بالله، حالا فيه، فاقدا لوعيه فقدانا تاما، فقد محيت رسومه، وفنيت هويته بهوية الله، وغيبت آثاره بآثار الله، وأصبحت المعرفة للعارف مرآة إذا نظر فيها تجلى له مولاه فلا يرى في نومه غير الله، ولا في يقظته غير الله، ولا يطالع غير الله تعالى.

هذا وصف العارف عندهم لا يتوقف عند حدود العابدين والمريدين بل طلق الدنيا والآخرة ثلاثا ثلاثا بتاتا لا رجعة فيها، إلى الاتحاد بالله، ويكون كلام الله هو كلام الصوفي؛ لأن كلا منهما حل بمحل الآخر، وتخلل فيه واتحد به، وقد أطلق الصوفية على العارفين منهم مصطلح أصحاب العلم الباطن، وأصحاب علم الحقائق، وأصحاب العلم اللدني.

• ما هو الرد على تصنيف الصوفية في تقسيماهم البدعية؟

الرد على تقسيم الصوفية في تقسيماتهم البدعية أن يقال: إن أكمل الناس توحيدا لله هم الأنبياء والمرسلون، وأولو العزم من الرسل أكملهم توحيدا، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وأكملهم توحيدا الخليلان محمد وإبراهيم صلوات الله عليهم أجمعين، فلا توحيد أكمل من الذي جاءت به الرسل ودعوا الناس إليه وجاهدوا الأمم عليه، ولهذا أمر الله نبيه أن يقتدي بهم في توحيدهم لربهم كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ الأنعام:٩٠. فملة إبراهيم التوحيد، ودين محمد ﷺ هو توحيد العبادة لله، وهو كل ما جاء به من عند الله قولا وعملا واعتقادا، فهذا هو التوحيد الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٣١ ﴾ البقرة:١٣٠/ ١٣١.

ولا شك أن تقسيم الصوفية تقسيم بدعي فأين قال الرسول: هذا توحيد العامة، وهذا توحيد الخاصة، وهذا توحيد خاصة الخاصة؟ وأين الدليل على أن من طلب الجنة والبعد عن النار فهو من التجار وعبيد السوء الذين لا يوقرون الله إلا لغرض؟ وأين الدليل على الحلول والاتحاد بالذات الإلهية كما قال النصارى في اتحاد الله بعيسى وحلول اللاهوت في الناسوت؟ فهذا كلام الله المنزل على رسوله ﷺ وهذه هي السنة، وهذا كلام خير القرون بعد الرسول، وسادات العارفين من الأئمة، هل جاء فيه ذكر الفناء والحلول والاتحاد ووحدة الوجود؟ أو جاء هذا التقسيم البدعي عن أحد منهم؟ فلا يلتفت إلى من قسم

التوحيد من الصوفية إلى ثلاثة أنواع، وجعل هذا النوع توحيد العامة، والنوع الثاني توحيد الخاصة، والنوع الثالث توحيد خاصة الخاصة.

- **ما هي المقامات البدعية والمراحل الانتقالية في السلوك الصوفي؟**

رسم الصوفية طريقا بدعيا للعابدين الزاهدين في الدنيا الراغبين في الجنة، والخائفين من النار، ينتهي ببداية طريق المريدين المحبين الذين لا يطلبون جنة ولا يخافون من النار، ويبدأ طريق العارفين المحققين الذين يسعون إلى الفناء والاتحاد برب العالمين عندما ينتهي طريق المريدين، فبداية طريق العابدين اجتياز المقامات، وهي عندهم تبدأ بالتوبة، ثم الورع، يعقبه الزهد، ثم الصبر، ثم التوكل، ثم الرضا، وينتهي الطريق بالحرية، فالحرية عندهم آخر مقامات العابدين، وهي تعني بلوغ الصوفي تمام العبودية، ففي الحرية تمام العبودية، وفي تحقيق العبودية تمام الحرية.

وإذا وصل العابدون إلى الحرية، أصبحوا مريدين محبين، لهم أحوال في ذكرهم وأورادهم، وسلكوا طريقا يسمى عندهم بطريق الحب الإلهي، وهذا الطريق رسموا له بداية ونهاية، فالبداية تكون بالخوف والرجاء، يعقبها القبض والبسط، ثم الهيبة والأنس، ثم التواجد والوجد والوجود، ثم ينتهي عندهم ببداية طريق الفناء الصوفي الذي يسلكه العارفون المحققون على زعمهم، فالطريق الثالث بدايته عند نهاية طريق المريدين المحبين، وفيه تعتريهم حالات من الحلول والاتحاد، والفناء عن النفس والأسباب؛ فيتقلبون بين ما يسمونه الفناء والبقاء، ثم الجمع والفرق، ثم الغيبة والحضور، ثم المحو والإثبات، ثم التلوين والتمكين، حتى يصل إلى التحقق بالفناء عن شهود السِّوى، وهو الحقل الذي ينبت فيه الحلول والاتحاد، فإذا وصل أحدهم إلى التحقق وصل إلى الكمال

درجة الحقيقة التي تقابل الشريعة في عرفهم، فأتت طريقة العرافين على صفاء المفاهيم وأصالة المعاني القرآنية، فزلزلت استقرارها، وحولت المفاهيم إلى أوضاع معكوسة، لكل ما تعارف عليه الناس واصطلحوا عليه، فالتقوى لم تعد هي التقوى، فلو مارس العبد تقواه لم يوحد الله في أعين هؤلاء.

وهذه الدرجات البدعية الباطلة هي التي دعا إليها الشيخ أبو إسماعيل الأنصاري الهروي في كتابه منازل السائرين والذي عقب عليها ابن القيم في كتابه مدارج السالكين، فقد جعل الهروي توحيد الأنبياء والمرسلين جحودا لتوحيد الله، وشركا برب العالمين، لأن الموحد الذي هو الإنسان، والموحد الذي هو الله أصبحا شيئا واحدا، فالإنسان هو الله فلا معنى للتوحيد إذا كان الله هو الذي يوحد نفسه؟

قال أبو إسماعيل الهروي في ضلالاته: (التوحيد على ثلاثة وجوه، الوجه الأول: توحيد العامة الذي يصح بالشواهد، والوجه الثاني: توحيد الخاصة وهو الذي يثبت بالحقائق، والوجه الثالث: توحيد قائم بالقدم، وهو توحيد خاصة الخاصة.. إلى أن قال: وقد أجبت في سالف الزمان سائلا سألني عن توحيد الصوفية بهذه القوافي الثلاث: ما وحد الواحد من واحد، إذ كل من وحده جاحد. توحيد من ينطق عن نعته، عارية أبطلها الواحد. توحيده إياه توحيده، ونعت من ينعته لاحد) [1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على الشيخ الهروي: (وحقيقة قول هؤلاء الإتحاد والحلول الخاص من جنس قول النصارى في المسيح، وهو أن

(١) منازل السائرين للهروي ص١٣٥.

يكون الموحد هو الموحد، ولا يوحد الله إلا الله، وكل من جعل غير الله يوحد الله، فهو جاحد عندهم)[(١)].

• ما هي حقيقة بدعة الفناء التي استحدثها الصوفية في عباداتهم؟

الفناء مصطلح بدعي لم يرد في الكتاب أو السنة وهو من إنشاء الصوفية وابتداعاتهم ويعني في الاصطلاح ثلاثة أنواع:

١- النوع الأول فناء العامة: ويسمونه فناء عن عبادة السِّوى، وهو فناء العابدين الزاهدين، ومعناه زوال الأوصاف المذمومة التي تؤدي إلى النار، وبقاء الأوصاف المحمودة التي تؤدي إلى الجنة، وفناء الجهل بالعلم، وفناء الغفلة بالذكر، وهذه المعاني إلى هذا الحد صحيحة يمكن قبولها لموافقتها الأصول القرآنية والنبوية.

٢- النوع الثاني فناء الخاصة: وهو فناء عن شهود السِّوى، وهو فناء المريدين المحبين الذي لا يرغبون في جنة ولا يخافون من نار، بل يفني في حب الذات الإلهية بلا عوض فلا يرى الأسباب المشهودة، ولا يميز بينها كالسكران الذي ذهب عقله، وهي الحالة التي تحدث للصوفية عند تراقصهم في الذكر حتى يذهب العقل ويدخل في حالة اللاوعي فيسقط على الأرض مغيبا عن الكل، وهم لا يذكرون الله إلا باسم الإشارة هو أو الاسم المفرد الله زعما منهم بأنهم لا يرغبون في ذكر غيره، وكل هذا الفناء نوع من الضلال الذي يجب الحذر منه.

٣- النوع الثالث فناء خاصة الخاصة: وهو فناء عن وجود السِّوى وهو فناء العارفين الزنادقة الغائبين في بحار الحلول والاتحاد ووحدة الوجود. ويسمى

(١) المصدر السابق ٥/ ٣٧١.

عندهم بفناء الوجود في الوجود، أو فناء الشهود في الشهود، أو كما زعم بعضهم بأن الوجود واحد وهو الله، ولا يرى الواحد ولا يرى الله بل يرى الله إذا نظر في المرآة، وهو النوع من الفناء هو الذي كتب فيه عمر بن الفارض قصيدته الشهيرة بالتائية وكلها زندقة وكفر بالله العظيم فقد جعل نفسه هو الله، وزعم أن ذاته اتحدت بذات الله، وأصبحت الذاتين ذاتا واحدة، فني كل منهما في ذات الآخر، ثم تكلم في شعره من هذا المنطلق الكفري تحت مسمى الفناء عن وجود السِّوى فقال: وكل الجهات السِّتِّ نحوي مشيرةٌ.. بما تم من نسكٍ وحجٍّ وعمرة. لها صلواتي بالمقام أقيمها.. وأشهد فيها أنها لي صلت. كلانا مصل واحدٌ ساجدٌ إلى.. حقيقته بالجمع في كل سجدة. وما كان لي صلى سواي ولم تكن.. صلاتي لغيري في أداء كل ركعة.

- **هل ترتيب الصوفية للمقامات ترتيب شرعي أم بدعي؟**

ترتيب الصوفية للمقامات ترتيب بدعي يشعر فيه من نظر إلى مقامات العابدين وطريق المريدين والعارفين الذي وضعه الصوفية للسالكين أنه يسير في منازل ومقامات، كل منها يتلو الآخر، بحيث لا ينتقل السالك إلى مقام إلا إذا فارق السابق، فيقطع المقام ويستوفيه، ثم يفارقه وينتقل إلى الثاني كمنازل السير الحسي، والأمر في أعمال القلوب ليس كذلك، بل هذا محال كما ذكر ابن القيم رحمه الله، فاليقظة وعدم الغفلة مثلا عمل من أعمال القلوب، لا بد أن يكون مع المؤمن في كل مقام لا تفارقه.

وكذلك البصيرة والإرادة والعزم، وكذلك التوبة، فإنها أول المقامات وآخرها، وكذلك الإخلاص؛ فإنه حقيقة الإسلام، وأساس جميع الأعمال، إذ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره، فمن لم يستسلم له فقد استكبر، ومن

استسلم لله ولغيره فقد أشرك، وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام، والإسلام ضد الشرك والكبر، وذلك في القرآن كثير.

ولهذا كان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وهي متضمنة عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين دينا سواه. كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ آل عمران:٨٥.

وكذلك الصدق لازم لقول العبد لا إله إلا الله، فلابد أن يتفق القلب واللسان والجوارح على عبادة الله وحده في جميع شعب الإيمان ومقامات الدين، ولا يشك عبد لحظة أن الله هو المعبود بحق الذي يصدق في خبره دون تكذيب ويطاع في أمره دون عصيان. وقد أخبر النبي ﷺ أن الصدق يستلزم البر، وأن الكذب يستلزم الفجور، والبر وصف البررة والأبرار، كما أن الصدق والإخلاص هما تحقيق الإيمان والإسلام، فإن المظهرين للإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق، فالفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق، وأخبر الله أن الصادقين في دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين جاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، ومعلوم أن من صدق الله في جميع الأمور، صدق في التوكل عليه وصح الإخلاص لديه، وصدق في خوفه من الله وحده، ونجاه الله عند البلاء، ورفع عنه أسباب الشقاء، ولا تنفع الأعمال الظاهرة بدون الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، بل علم القلب وعمله هو أصل الدين في الحقيقة.

وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك، كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة لا يكون تركها محمودا في

حال واحد دون آخر. ومن زعم أن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة، فقد غلط في ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها، فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط، وإنما يخرج عنها الكافر والمنافق.

ولا بد في مقامات القلوب من تقديم ما قدمه الله وتأخير ما أخره فمقام التوحيد أول المقامات التي يبدأ به المسلم وليس هو آخر المقامات كما فعل أبو إسماعيل الهروي في تقسيمه البدعي لمنازل السائرين، فالتوحيد أول دعوة الرسل كلهم. وصح من حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل ﷺ إلى اليمن قال له: (إنّك تقْدمُ على قوْمٍ مِنْ أهْل الكِتابِ، فليكُنْ أوّل ما تدْعُوهُمْ إلى أنْ يُوحِّدُوا الله تعالى، فإذا عرفُوا ذلك، فأخْبِرْهُمْ أنّ الله قدْ فرض عليْهِمْ خمْس صلواتٍ فِي يوْمِهِمْ وليْلتِهِمْ)[1].

ولا يصح مقام من مقامات القلوب، ولا حال من الأحوال إلا بالتوحيد فلا وجه لجعله آخر المقامات، لأنه مفتاح دعوة الرسل، وأول فرض فرضه الله على العباد، وما عدا هذا من الأقوال فخطأ كقول من يقول: أول واجب على المسلم النظر في وجود الله، أو القصد إلى النظر، أو البحث عن معرفة وجوده سبحانه، أو الشك في وجود الله الذي يوجب النظر. وكل هذه الأقوال خطأ، بل أول الواجبات مفتاح دعوة المرسلين كلهم وهو أول ما دعا إليه فاتحهم نوح وأول ما دعا إليه خاتمهم محمد ﷺ.

• ما الحكمة في تشبيه المؤمن بالشجرة الطيبة والكافر بالخبيثة؟

ورد في الكتاب والسنة تشبيه الإيمان ونماءه في قلب المؤمن وأثره في توحيد

(١) البخاري في التوحيد، باب دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله ٦/ ٢٦٨٥ (٦٩٣٧).

العبادة لله بالشجرة الطيبة في نموها ونفعها وعطائها، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ إبراهيم:٢٤/ ٢٧.

وفي هذا المثل من الحكم والعلوم التي توضح للمؤمن عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد العبادة لله، وأن الإيمان عندهم مبني على تصديق خبر الله تصديقا يقينيا يؤدي أثره إلى تنفيذ أمره تنفيذا كاملا بالقلب واللسان والجوارح وأن الإيمان عندهم يزيد بالعلم والطاعة وينقص بالجهل والمعصية، ومن هذه الحكم التي تظهر من مثل الشجرة:

١ – أن الشجرة لا بد لها من عروق، وساق، وفروع، وورق، وثمر، فكذلك شجرة الإيمان والإسلام، فعروقها العلم واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمرتها ما توجبه الأعمال الصالحة من الصدق والمحبة والانقياد والقبول، فشجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذا كان الأمر بالعكس كانت الشجرة المستقرة في القلب هي الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

٢– ومن الحِكم أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها، فإذا نقطع عنها الماء أوشكت أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها في سقايتها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، ودوام التذكر

والاعتبار والتفكر والاستبصار أوشكت شجرة الإيمان أن تيبس، فالإيمان يزيد وينقص، والغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك، ومن هنا يمكن أن ندرك شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله ﷻ به من العبادات على مدار الأوقات، لتبقى مستمرة في سقاية شجرة التوحيد والإيمان.

٣- ومن الحِكم أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لا بد أن يخالطه نبت غريب، ليس من جنسه ولا نفع فيه، يشاركه غذاءه ويقاسمه ماء سقياه، فإن تعاهده صاحبه وطهره ونقاه، وقلعه ونظف المكان وسواه، استكمل الزرع نماءه واستوى على سوقه، وكان أوفر لثمره، وأطيب وأزكى في منفعته، وإن تركه أوشك أن يغلب النبت الغريب على الزرع ويكون الحكم للحشائش الضارة، فيضعف الأصل وتصبح الثمار ذميمة ناقصة بحسب كثرة الحشائش والنبت الغريب أو قلته، فالمؤمن دائما سعيه في شيئين، أن يسقي هذه الشجرة الطيبة بماء العلم واليقين وأعمال الإيمان، وأن ينقي ما حولها من خواطر الهوى وشبهات الشيطان.

٤- ومن الحِكم أن الشجرة يؤثر أصلها على فروعها، فلو انقطع بعض جذورها أو انكسر ساقها تأثرت أوراقها وذبلت أو ماتت ويبست، وتؤثر فروعها على أصلها فلو حجبت عن ضوء الشمس أو كثر عليها غبار الطريق تأثر أصلها وضعفت وضعف محصولها، كذلك المؤمن إن مُنع أو امتنع من الذكر والطاعة وتحصيل العلم وأعمال الإيمان ينقص أصله ويتأثر قلبه.

٥- ومن الحِكم أن الشجرة الطيبة تنفي أي عضو معطوب فيها لا ينفعها، فالورقة تسقط إن لم تكن فعالة، والفروع تتهاوى إن تكن قوية حمالة، لتبقى الشجرة مرنة مع الرياح، كذلك المؤمن إذا أذنب ذنبا، أو أصاب مالا حراما، أو

أصيب بالبلاء والمحن، استغفر ربه وطهر ماله وزكى قلبه، وجدد إيمانه، حتى يكون طيب الرائحة كثير النفع له ولغيره كما هو حال الشجرة الطيبة في نفعها، ريحها طيبة، وثمراتها طيبة. وينتفع بكل جزء منها، ساقا وفروعا وأوراقا، وأزهارا وجمارا وثمارا.

٦- ومن الحِكم أن الشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلا عروق لها ثابتة، ولا فروع لها عالية، ولا ثمار لها زكية، فلا ظل منها لمستظل، ولا ساق تنمو ولا عرق، فتجتث من فوق الأرض للوقود والحرق، كذلك المشرك والمجرم والكافر، والمنافق والكذاب والفاجر، ما يلبث أن يراوغ ويكذب ويتحرى الكذب، ويؤذي الآخرين، ويأكل أموال الناس بالباطل، ولو كانوا فقراء مساكين، حتى ينال عقابه، فتقطع يده أو يسجن أو يقتل أو يرجم، أو توافيه المنية على كفره وشركه ليحرق في جهنم وبئس المصير.

• بين كيف أن عقد الإسلام التزام بلوازمه الظاهرة والباطنة؟

ذكر ابن القيم أن السابقين من العابدين تكلموا على أعمال القلوب وعلى الأحوال كلاما مفصلا جامعا مبينا مطلقا من غير ترتيب ولا حصر للمقامات بعدد معلوم، فإنهم كانوا أجل من هذا، وهمهم أعلى وأشرف، إنما هم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة وطهارة القلوب وزكاة النفوس وتصحيح المعاملة، ولهذا كان كلامهم قليل فيه البركة، وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة.

والأولى في توحيد العبودية أن نذكر منازل العبودية الواردة في القرآن والسنة، ونشير إلى معرفة حدودها ومراتبها، إذ معرفة ذلك من تمام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ، وقد وصف الله تعالى من لم يعرفها بالجهل والنفاق فقال

تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ التوبة:٩٧. فبمعرفة حدودها دراية، والقيام بها رعاية، يستكمل العبد الإيمان ويكون من أهل إياك نعبد وإياك نستعين(١).

ولما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ العصر:١/ ٣.

لقد أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما، ولما كان الأمر كذلك كان حريا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره، بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص نفسه من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن، وتفهمه وتدبره، واستخراج كنوزه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس إلا من مشكاته، ولا تستثمر إلا من شجراته(٢).

وذكر ابن القيم رحمه الله أن الناس انقسموا بحسب معرفة الحق والعمل به، إلى ثلاثة أقسام؛ لأن العبد إما أن يكون عالما بالحق أو جاهلا به، والعالم بالحق إما

---

(١) السابق ١/ ١٣٩ بتصرف.

(٢) السابق ١/ ٦: ٧ بتصرف.

أن يكون عاملا بموجبه أو مخالفا له، فهذه أقسام المكلفين، لا يخرجون عنها البتة، فالعالم بالحق العامل به هو المنعم عليه، وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو المفلح كما قال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ ﴾ الشمس:٩.

والعالم به المتبع هواه هو المغضوب عليه، والجاهل بالحق هو الضال، والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل، والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل، فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به[1].

• ما أصناف الناس في توحيد العبادة باعتبار الإخلاص والمتابعة؟

لا يكون العبد محققا لتوحيد العبادة أو متحققا بإياك نعبد إلا بأصلين عظيمين، أحدهما الإخلاص لله، والثاني متابعة الرسول ، وقد تقدم الحديث عن هذين الأصلين، وقد ذكره ابن القيم في تصنيف الناس بحسب هذين الأصلين إلى أربعة أقسام:

النوع الأول: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة، وهم أهل إياك نعبد حقيقة، فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهرا وباطنا لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم، ولا هربا من ذمهم، بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فالعمل لأجل الناس وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم البتة، بل

---

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ١/ ١١ بتصرف.

من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه، ولا يعامل أحدُ الخلقَ دون الله إلا لجهله بالله، وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، وهو الذي ابتلى عباده بالموت والحياة لأجله، فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه هباء منثورا.

النوع الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة فليس عمله موافقا لشرعه، وليس هو خالصا للمعبود كأعمال المتزينين للناس المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله، وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم إلى الله ﷻ، ولهم أوفر نصيب من قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ آل عمران:١٨٨ . يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص، وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة عن الصراط المستقيم، فإنهم يرتكبون البدع والضلالات والرياء والسمعة، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم، وهم على غير ذلك، فهم أهل الغضب والضلال.

النوع الثالث: من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة السنة، كجهال العباد والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره، واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله فهذا حاله، كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة،

وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة، وأمثال ذلك.

النوع الرابع: من أعماله على متابعة الأمر لكنها لغير الله، كطاعة المرائين وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة، ويحج ليقال حج، ويقرأ القرآن ليقال قارئ، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها لكنها غير صالحة فلا تقبل، فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر، والإخلاص له في العبادة، وهم أهل إياك نعبد وإياك نستعين.

الفصل الثاني

قواعد العبودية وأحكامها

• بين كيف أن أعمال القلوب إن لم تتعلق بالعبادة تعلقت بضدها؟

لما كان القلب هو أساس صلاح الإنسان أو فساده كما ورد النص على ذلك في قول رسول الله ﷺ: (ألا وإِن فِي الجسد مُضْغة، إِذا صلحت صلح الجسد كُلهُ، وإِذا فسدت فسد الجسد كُلهُ، ألا وهِي القلب) [1]. فإن صلاحه يكون بصلاح أعماله، وفساده يكون بفساد أعماله، فأعماله لا محالة بين نجدين متقابلين.

والقلب هو سلطان البدن والأعضاء الأخرى كالرعية، ولما كانت منطقة الكسب في القلب هي المسيطرة على الخواطر في منطقة حديث النفس من جهة، وهي المسيطرة أيضا على الجوارح في سائر أعضاء البدن من جهة أخرى، كان القلب بالنسبة لهذه الأركان والأعضاء كالملك المتصرف في الجنود الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت سلطانه وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، فالقلب فيه مشيئة العبد ونيته وإرادته وسائر أعمال القلوب، والأعضاء منفذة لما يأمرها به، قابلة لما يأتيها من توجيهه، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته، وهو المسئول عنها كلها، لأن كل راع مسئول عن رعيته.

---

(١) البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/ ٢٨ (٥٢).

وكل ما يحدث في أعمال الجوارح إنما هو آثار ناتجة عن أعمال القلب، ولا يمكن أن تنعدم أعمال الجوارح في المكلفين أبدا إلا بالنوم أو فقدان الوعي، وكما كانت أعمال الجوارح في الإنسان مترددة بين الطاعة والعصيان، فكذلك أعمال القلب التي تحركها مترددة بين الطاعة والعصيان، فلن نجد إلا عملا صالحا أو طالحا، أو بنسبة تتردد بينهما إن مال إلى الصلاح بقدر ابتعد عن الآخر بالنسبة التي تقابله. ولذلك لما علم عدو الله إبليس أن مدار المسئولية على القلب قارنه وعكف عليه بالوسواس ليلقي فيه جميع أنواع الشبهات، ويقوي جميع أنواع الشهوات، ويزين له من الأحوال والأعمال ما يصده به عن سواء الطريق، ويمده من أسباب الغي بما يقطع عليه أسباب التوفيق.

والإنسان في جميع أعماله القلبية مخير بين عبادتين، بين عبادة الله وحده لا شريك له وعبادة الطاغوت، والطاغوت هو الشيطان ومن استجاب له واتبعه من بني الإنسان، ومعلوم أن الشيطان لما نزل إلى الأرض نصب لنفسه عرشا على الماء ليتشبه باستواء الله على عرشه في السماء، بحيث يكون هو المعبود بالباطل والشرك في مقابل الإله المعبود بحق، فجعل نفسه إلها لأتباعه، وقرب إليه من كان من بني جنسه، أو كان من حزبه وطريقته، فالإنسان لا محالة بين عبوديتين إن أن يكون عبدا لله أو عبدا لشيطانه وهواه، وأعمال الجوارح في الإنسان إما تتحرك طاعة الله، وإما تتحرك طاعة لغيره، روى البخاري من حديث عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إِنما الأعْمال بالنيات، وإِنما لكُل امْرِىءٍ ما نوى: فمن كانت هِجْرته إِلى دُنيا يُصِيبُها، أَوْ إِلى امْرأةٍ ينكِحُها، فهِجْرته إِلى ما هاجر إِليه)[1].

---

(١) البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ١/ ٣ (١).

وكذلك الإخلاص في القلب والصدق والصفاء، والطهارة والنقاء، والمحبة والخوف والرجاء، والتفويض والتوكل والالتجاء، والصبر والغيرة والهيبة والحياء، كلها أعمال للقلب متلازمة تدور حول قوة الاعتقاد واليقين والتقوى الباعثة لحركة البدن في اتقاء ما يؤدي إلى هلكة الإنسان، أو العمل على نجاته من النيران. وكذلك التفكر والبصيرة، والمعرفة واليقظة والمحاسبة، والتوبة والورع والتواضع، والتسليم والرضا والسكينة، والزهد والإنابة والإخبات، والخشوع والخشية والمراقبة، والإيثار والثقة بالله كلها أعمال للقلب مترابطة تدل على مقدار الاعتصام بالله، وقوة اليقين والثبات على الاختيار، والتمسك بحبل الله في دار الابتلاء والاختبار.

- **ما هو الإخلاص لله؟ وما العلامات الدالة عليه؟**

حقيقة الإخلاص أن تجعل جميع أقوالك وأفعالك الظاهرة والباطنة صادرة عن إرادة خالصة لله، ونية وقصد وعزم واختيار، تريد به تحقيق التوحيد في العبادة وسيلة وغاية. والخالص كالصافي إلا أن الخالص هو ما زالت عنه شوائبه بعد أن كانت فيه ، وقد جعل الله لأعمال القلوب أثارا وعلامات ظاهرة في البدن تدل على وجود كل عمل من أعمال القلوب لا محالة، بحيث يعجز الشخص عن إخفائها مع طول الزمن، وقد جعلها الله دليلا يكشف عن حال المخلصين والمنافقين، وهذا الذي دعا أهل السنة إلى ربط العمل بالإيمان، وجعلهم العمل ركنا فيه، فلا إيمان إلا بعمل.

ومن علامات الإخلاص التي وردت في الكتاب والسنة دوام الاستقامة على الطاعة والسنة، فالإخلاص يعرف بدوام الاستقامة على الاتباع والطاعة في كل وقت، لأن المنافق قد يدعي الاستقامة في الظاهر وقلبه خال من الإخلاص، لكنه لا

يستطيع أن يداوم عليها في كل وقت، ولا يقوى على الثبات فيها، بل إن أظهر الاستقامة أظهرها رياء وطلبا لغرض في نفسه لا لله ﷻ، أما دوام الاستقامة في كل وقت فلا تكون إلا من مخلص موافق للاتباع في الطاعة لربه.

ومن علامات الإخلاص الجرأة في قول الحق، والغيرة من الوقوع في الحرمة والشرك، والخوف من الله وحده، وقطع الرجاء فيمن سواه من الخلق، ومن علامات الإخلاص الزهد في متاع الغرور، وطلب العون من الله في سائر الأمور، والتعامل مع الأسباب كطريق للتجاوز والمرور، والحرص على فعل المأمور وترك المحذور. ومن علامات الإخلاص صدق الحديث وعدم الغدر، والوفاء بالوعد، وانتفاء الحقد، وعدم التجاوز في الخصومة، فالمخلص لا يحقد على أحد، ولا يحسد أحدا، بل يغبطه ويتمنى له الخير، فلا مأرب له في الحياة إلا أن ينال رضا الله، ومن ثم يتمنى السعادة للآخرين في الدنيا والآخرة.

والإخلاص واجب على كل المسلمين سواء كانوا في درجة المقتصدين أو درجة السابقين، فليس فيه واجب أو مستحب، بل المقابل للإخلاص الشرك والنفاق، وهو محرم سواء كان الشرك شركا أكبر، أو شركا أصغر وكذلك النفاق، لكن الإخلاص قد يتأثر من حيث القوة والضعف بحسب اقترانه بقوة النية والقصد والإرادة والعزم، وجميع بواعث الفعل وعلله، من ثم كان الإخلاص شرطا من شروط لا إله إلا الله.

• ما حقيقة المحبة لله عز وجل؟ وما هي أنواعها المشروعة؟

الحب عمل من أعمال القلب، وهو ضد البغض؛ وقد جعل الله محبته في القلوب نورا للعابدين، وجعل لها في الأبدان دليلا على صدق المحبين، وسببا في رفعة أوليائه الصالحين، ابتلاء للعباد بحكمته، ليبقى الفائزون برحمته في جنته،

ويشقى الخاسرون في العذاب بنقمته؛ والحب شيء في القلب يدفع النفس إلى السعي في رضا المحبوب، أو الحصول على المطلوب المرغوب، وقلب الإنسان وعاء قد يمتلأ بحب الله أو يمتلأ بحب غيره. والمحبة شرط في التوحيد، وهي واجبة على المقتصدين والمقربين، فلا يصح قول اللسان، ولا يصلح ركن من أركان الإيمان إلا بإفراد الله بالمحبة. روى البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لا يُؤْمِن أحدُكُمْ حتى أكُون أحبّ إِلَيْهِ مِن والِدِهِ وولدِهِ والناسِ أجْمعِين)[1].

والمحبة درجات تنموا في القلب كلما ازداد مقدار الحب، وإذا تعلقت بالمخلوق فلها أسماء متعددة، منها الهوى والغرام والشوق، والهيام والشغف والعشق، والوجد والكمد والحرق، حتى تصل المحبة إلى أعلى درجاتها وهي درجة العبادة، فالتعبد هو غاية الحب مع غاية الذل للمحبوب، والمحبة التي تصل إلى درجة العبودية لا تصلح إلا لله وحده، ولا تجوز لغيره أبدا، وهي أشرف أنواع المحبة، وهي حق الله على عباده، ولا يصح فيها الشرك أبدا، ولذلك كانت شرطا من شروط لا إله إلا الله.

والمحبة الواجبة على كل مسلم هي المحبة لله وفي الله، فإن محبة الحبيب تقتضي محبة ما يحب، ومحبة ما يعين على حبه، ويوصل إلى مرضاته وقربه، وكيف لا يحب المؤمن ما يستعين به على مرضاة ربه، ويتوصل به إلى حبه وقربه، وقد صح من حديث معاذ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أسْألك حُبّك، وحُبّ منْ يُحِبُّك، وحُبّ عملٍ يُقرِّبُ إلى حُبّك)[2].

(١) البخاري في الإيمان، حب الرسول ﷺ من الإيمان ١/ ١٤ (١٥).

(٢) انظر مشكاة المصابيح (٧٤٨)، وصحيح الجامع (٥٩).

وأما المحبة مع الله فهي المحبة الشركية، وهي كمحبة أهل الأنداد لمعبوداتهم، وهي أصل الشرك الذي لا يغفره الله، فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الرب سبحانه في خلق السموات والأرض، وإنما كان شركهم بها من جهة محبتها مع الله، فوالوا عليها، وعادوا عليها، وتألهوها، وزعموا أنها آلهة صغار تقربهم إلى الإله الأعظم.

قال ابن القيم: (وهاهنا أربعة أنواع من المحبة يجب التفريق بينها، وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها: أحدها محبة الله ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله. والثاني محبة ما يحب الله، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة، وأشدهم فيها. الثالث الحب لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يحب الله. الرابع المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية، وكل من أحب شيئاً مع الله، لا لله ولا من أجله ولا فيه، فقد اتخذه ندّاً من دون الله، وهذه محبة المشركين، وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيه، وهى المحبة الطبيعية وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد، فتلك لا تذم إلا إن ألهت عن ذكر الله وشغلته عن محبته)[1].

• ما هي العلامات الدالة على وجود المحبة في القلب؟

١- التطلع إلى رؤية المحبوب، وإقبال البصر عليه، فإن العين باب القلب وهي المعبرة عن أفكاره والكاشفة عن أسراره، وهي أبلغ في ذلك من كلام

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص١٣٤.

اللسان وحركة الأبدان، ومن هنا بدت علامة العبودية والمحبة على الموحدين، فالموحد يعبد الله كأنه يراه وينعم بذكره في الصلاة والمناجاة، ويتطلع إلى أن ينعم الله عليه بعد جنته برؤيته، وهذا هو ما دفع موسى عليه السلام إلى طلبه رؤية الله، طلبها بباعث الحب وظهور علاماته، وفهمه لأسماء الله وصفاته.

٢- ومن علامات المحبة الغيرة للمحبوب، فالغيرة للمحبوب أن يكره ما يكرهه المحبوب، ويغار إذا عُصِي في كل مطلوب، فيغار العبد لربه إذا انتُهكت حرماته، وضُيعت كلماته، فهذه غيرة المحب على معبوده حقا، ودين الله يندرج تحتها صدقا، فأقوى الناس دينا أعظمهم غيرة لله، ومن قال لا إله إلا الله بحق وأحب الله ورسوله ﷺ بصدق يغار لله، ويغار لرسوله ﷺ على قدر محبته وإجلاله، وإذا انعدمت الغيرة لله ولرسوله ﷺ من القلب انعدم الحب فيه، وإن زعم أنه من المحبين فهو كاذب، فإذا كان من ادعى محبة إنسان ورأى غيره منتهكا لحرمته، ويسعى في أذيته، ويخوض في عرضه وذمته، وهو ساكن لا يتحرك قلبه، بل قلبه قلب بارد لا يغار لصديقه ومحبوبه، فإنه عند الجميع كاذب في حبه، منافق في ادعاء قربه، لعلمهم أن الغيرة للمحبوب من علامات المحبة الصادقة، فكيف يصح لعبد أن يدعي محبة الله وهو لا يغار لمحارمه إذا انتهكت، ولا لحقوقه إذا ضيعت، فأضعف الإيمان أن يغار لله من هواه الداعي إلى الشهوة، ومن شيطانه وطغيانه الداعي إلى الشبهة، فيغار لمحبوبه من تفريطه في حقه وارتكابه لمعصيته، وإذا ذهبت هذه الغيرة من القلب ذهب منه الحب، وسقط شرط من شروط لا إله إلا الله، بل ذهب منه الدين وأصوله، وإن بقيت آثاره وأطلاله. وهذه الغيرة هي أصل الجهاد الأكبر، وأصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن خلت هذه الغيرة من القلب لم يجاهد الإنسان، ولم يأمر بالطاعة

والإيمان، ولم ينه عن المنكر والعصيان.

وأما الغيرة على المحبوب كغيرة الإنسان على زوجته وغيرته على أمه وابنته، فيغار أن يتعرض أحد لذكرهن أو المساس بعرضهن، فإن هذه الغيرة تختص بالمخلوق، ولا يجوز تصورها في حق الخالق، لأن المحب الصادق يحب أن الناس كلهم يحبون الله، ويذكرونه ويعبدونه ويحمدونه ويشكرونه، ولا شيء أقر لعين المؤمن من ذلك، بل هو يدعو إلى ذلك بقوله وعمله.

وكثير من الصوفية لم يفرقوا بين الغيرة لله، والغيرة على الله، فضلوا وشبهوا غيرتهم على الله بغيرتهم على نسائهم، حتى وقع في كلامهم غلط عظيم وبهتان جسيم، وكان بعض جهلتهم إذا رأى من يذكر الله أو يحبه يغار منه، وربما أسكته إن أمكنه، ويقول: غيرة حبي على ربي تحملني على هذا، وإنما ذلك حسد وعصيان، وبغي وعدوان، ونوع معادة للرحمن، أخرجوها في قالب الغيرة، وشبهوا محبة الله بمحبة المخلوقين.

٣- ومن علامات المحبة بذل المحب كل ما في وسعه وطاقته لرضا لمحبوبه، كما كان الصحابة ﷺ يدافعون عن رسول الله ﷺ في الحرب بنفوسهم، حتى ولو أدى ذلك لهلاكهم، وذلك من فرط حبهم له ﷺ، ومعلوم أن من آثر محبوبه بنفسه بذل ما في وسعه من ماله وملكه، والصحابة ﷺ سلموا أنفسهم ووضعوا أموالهم لما يراه رسول الله ﷺ، فقالوا: هذه أموالنا نقدمها إليك، وهذه نفوسنا بين يديك؛ فاحكم فيها بما شئت يا رسول الله، لو خضت بنا البحر لخضناه معك، نقاتل بين يديك، ومن خلفك، وعن يمينك، وعن شمالك.

٤- ومن علامات المحبة التي تكشف مقدار الحب في القلب سرور المحب بما يسر به محبوبه كائنا ما كان، وإن كرهته نفس الإنسان، فيكون عنده بمنزلة

الدواء الذي يحبه لما فيه من الشفاء، وهكذا المحب مع محبوبه، يسره ما يرضيه على أي حال، أما من كان واقفا مع ما تشتهيه نفسه من الرخص في الأحكام متتبعا لفتاوى أهل الكلام فليست محبته لله محبة صادقة، بل هي محبة ناقصة.

٥- ومن علامات المحبة كثرة ذكر المحبوب والاستمتاع بحديثه، فمن أحب شيئا أكثر من ذكره واطمئن إليه بقلبه، وشتان بين أن تذكر الله لأنك مضطر إلى ذكره، وحياتك قائمة على أمره، وبين من يكثر من ذكره رغبة في حبه وقربه، ولهذا أمر الله عباده بكثرة ذكره على جميع الأحوال، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ الأحزاب:٤١/ ٤٢.

٦- ومن علامات المحبة الصادقة النظر إلى أفعال المحبوب فإن كانت نقصا سترها وإن كانت كمالا أذاعها ونشرها، ألا ترى الوالد مع ولده، من محبته يرفع من شأنه ودرجته، ويهون من نقصه وعيبته، فما بالنا إذا كان ربنا ومحبوبنا أفعاله كمال من كل وجه، ولا نقص فيها بوجه من الوجوه، ألا يحتم ذلك علينا مدحه والنظر في صنعه والمدوامة على شكره وذكره، ومن هنا وبدافع الحب الذي هيمن على القلب أراد إبراهيم عليه السلام مزيدا من القرب برؤيته لفعل الله في إحياء الموتى فقال: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ البقرة:٢٦٠.

٧- ومن أهم علامات المحبة التي هي شرط من شروط لا إله إلا الله طاعة المحبوب والانقياد لأمره والتصديق بخبره، وهذا يحصل فقط بالمتابعة لنبيه ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ آل عمران:٣١.

٨- ومن علامات المحبة ترديد كلام المحبوب والإقبال على حديثه وإلقاء

السمع إليه، وعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسُول الله ﷺ قال: (ليْس مِنا من لمْ يتغن بِالقُرْآن)(١).

٩- ومن علامات المحبة محبة بيت المحبوب، وانشراح الصدر لرؤيته، وشد الرحال لزيارته، وهذا هو السر الذي من أجله تعلقت القلوب بالبيت الحرام وكعبته حتى هجروا الأوطان وتحملوا السفر بمشقته طمعا في حب الله وعبادته، ركبوا الأخطار وجابوا المفاوز والقفار، واحتملوا في الوصول إلى البيت مشقة الأسفار، وسر هذه المحبة هي إضافة البيت إلى نفسه سبحانه وتعالى.

١٠- ومن العلامات الدالة على صدق المحبة في القلب أن ينام المحب على ذكر محبوبه، يذكره بلسانه عند نيامه وقيامه، ولذلك كان رسول الله ﷺ ينام وآخر كلامه ذكر الله، ويقوم وأول كلامه ذكر الله، روى البخاري عن حذيفة ﷺ أنه قال: (كان النبِيُّ ﷺ إِذا أراد أن ينام قال: بِاسْمِك اللهُمّ أمُوت وأحْيا، وإِذا اسْتيْقظ مِن منامِهِ قال: الحمْدُ للهِ الذي أحْيانا بعْد ما أماتنا وإِليْهِ النشُورُ)(٢).

• ما هي العلامات الدالة على وجود اليقين وقوته في القلب؟

١- أول العلامات الدالة على وجود اليقين صلاح اللسان وأعمال الجوارح، فمن كانت أعماله صالحة كان من أصحاب اليقين، والعمل الصالح في القرآن هو عمل اللسان والجوارح الناتج عن الإيمان وأعمال القلوب، فالعمل الصالح كما نص القرآن دليل الإيمان والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وكثرة الإنفاق وطهارة المأكل والمشرب، وسرعة الاستجابة لله ورسوله ﷺ، وحب الدعوة إلى الله، وطلب العلم والإخبات، والإنابة والقنوت ودوام الخشوع.

(١) البخاري في التوحيد، باب وأسروا قولكم أو اجهروا به ٦/ ٢٧٣٧ (٧٠٨٩).

(٢) البخاري في الدعوات، باب ما يقول إذا أصبح ٥/ ٢٣٣٠ (٥٩٦٥).

٢- الدعوة إلى العمل بشريعة الإسلام، والالتزام بتطبيق الأحكام، فليس بموقن من دعا إلى تطبيق القوانين الوضعية كبديل كلي أو جزئي للشريعة الإسلامية، وليس بموقن من زعم أن الأصول القرآنية والنبوية أصول نظرية غير تطبيقية ولا عملية، وأن الأحكام الشرعية من الأمور التي لا تتوقف حياة المسلمين وتقدمهم على تطبيقها، فيحاربون تطبيق الشريعة الإسلامية والداعين إليها، وفي المقابل يدعون إلى تطبيق المنهاج والقوانين العلمانية الانحلالية في كل نواحي الحياة، ومن ثم فإن الدعوة إلى تطبيق الأحكام والعمل بشريعة الإسلام دليل على وجود اليقين وقوته في القلب والعكس صحيح، قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ المائدة:٥٠.

٣- من علامات اليقين الصبر والثبات على الحق، وعدم الجزع من إعراض الخلق، وقوة الثبات عند المحك قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ الروم:٦٠.

٤- من علامات اليقين حب الدعوة إلى الله وتبني مسئوليتها قولا وفعلا والصبر عليها، فالصبر على مشاق الدعوة وتحمل أذى الخلق لله وحده، وعدم التأثر بكثرة الأتباع أو قلتهم، واعتبار الدليل النصي والأمر الشرعي التوقيفي معيارا لمعرفة الحق أو الباطل، وليس كثرة الأتباع، كل ذلك دليل على وجود اليقين وقوته في قلوب الموقنين. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ السجدة:٢٤.

٥- ومن علامات اليقين قلة الوساوس في القلب، وعدم التأثر بوسوسة الشياطين وترك الالتفات إلى الشبهات، وكثرة الاستعاذة منها، لأن دور

الشيطان إلقاء الشبهات التي تحدث الريبة والتردد والشك في القلب، واليقين ينفي الوهم والشك والظن، فلا تؤثر وسوسة الشيطان في قلوب الموقنين.

• ما هي حقيقة الصدق كشرط من شروط لا إله إلا الله؟

أصل الصدق من الموافقة والمصادقة والمصاحبة والمطابقة، وسمي الصاحب صاحبا لمصادقته صحبه في أغلب الأمور، ومناصحته بالصدق في الشدة والسرور، فالمصادقة هي الموافقة والملاقاة، وإذا توافق قول الجنان مع قول اللسان، وفعل الجنان مع حركة الأبدان، ظهرت معاني الصدق في الإنسان، وإن اختلف قول القلب عن قول اللسان، وفعل القلب عن فعل الأبدان، ظهرت حقيقة الكذب والخيانة، والنفاق والغدر وانعدام الأمانة، فالصدق مطابقة القول والفعل الظاهري للقول والفعل الباطني.

والصدق المنافي للكذب شرط من شروط لا إله إلا الله، ويقصد به الوفاء بالعهد الذي قطعه المسلم على نفسه عند قوله لا إله إلا الله، فيصدق مع الله في توحيده، ويحقق مقتضى الشهادة من خلال الصدق في قوله وفعله، فلا بد من تنفيذ الوعد ومطابقة القول والفعل لما تم في شروط العقد، وإن لم يفعل كان كاذبا منافقا، ولم يكن في عهده صادقا.

ويلزم من قول العبد لا إله إلا الله صدقا من قلبه أن يتفق القلب واللسان والجوارح على عبادة الله وطاعته عند النطق بها، ويرسخ في اعتقاده التصديق بها، ومهما ابتلي في الحياة فلن يشك في أن الله هو المعبود بحق الذي يصدق في خبره دون تكذيب ويطاع في أمره دون عصيان.

والصدق عماد الإيمان، وبه قيامه وفيه تمامه ونظامه، والصديقون يعقبون

النبيين، وأقل الصدق استواء السر والعلانية، والصادق من صدق في أقواله، والصديق من صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ التوبة:١١٩.

والعبد سعادته في صدق عزيمته، ثم صدق حركته وسكنته، فصدق العزيمة الإصرار بلا تردد، فإذا صدق في عزيمته بقى عليه الصدق في حركته وسكنته، فيستفرغ وسعه في رضا الله وطاعته، ويبذل جهده في ابتغاء قربه ومحبته، وألا يتخلف عن عبوديته بشيء من ظاهره أو سريرته، فعزيمة القصد تمنعه من ضعف إرادته، وصدق الفعل يمنعه من فتور همته، ومن صدق الله في جميع الأمور، صدق في التوكل عليه، وصح الإخلاص لديه، ونجاه الله عند البلاء، ورفع عنه أسباب الشقاء.

وقال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الأحزاب:٢٣.

• ما هي حقيقة الخوف من الله؟ وما العلامات الدالة عليه؟

الخوف من الله تعالى فرض على جميع المكلفين، وسائر المقتصدين والسابقين، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ آل عمران:١٧٥. والخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره، والخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، فهي خوف مقرون بمعرفة، وأما الهيبة فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، والخوف ليس مقصودا لذاته، بل يزول بزوال السبب المخوف، فإن أهل الجنة إذا زحزحوا عن

النار ودخلوا الجنة فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والقلب في سيره إلى مرضاة الله ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف، ومن العلامات الظاهرة الدالة على وجود الخوف في القلوب:

١- الترقب وطلب النجاة، وهو علامة تبدوا على الخائف خوفا شديدا لا يستطيع دفعها كما قال تعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ القصص:١٨. وعلامة الخائفين كثرة المراقبة لله، والاستعداد للرحيل عن الحياة، والتعلق بما ينال به النجاة. قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) ﴾ الأنعام:٥١.

٢- ومن علامات الخوف تقلب البصر، وكثرة دورانه إلى درجة قد تصل على عدم التمييز بين الأشياء؛ فيتخبط في قوله وفعله، وهي صفة فطرية تظهر على الخائفين دو شعور كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ الأحزاب:١٨. وعلامة الخوف في المقتصدين طلب الراحة المؤدي لتمام الواجب، وفي السابقين الخوف المؤدي لتمام الواجب والمستحب، وقد صح أن النبي ﷺ قال: (يا بلال أَقِمْ الصّلاة، أَرِحْنا بِها)[١].

٣- ومن علامات الخوف الفرار والتولي مما يخاف وعدم الالتفات إليه، كما

(١) انظر مشكاة المصابيح (١٢٥٣).

قال تعالى: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ النمل:١٠. ومن حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (والذي نفْسُ مُحمّدٍ بيده لو رأيْتُمْ ما رأيت، لضحِكْتُمْ قليلا ولبكيْتُمْ كثيرًا قالوا: وما رأيْت يا رسُول الله؟ قال: رأيت الجنة والنار)[1].

٤- ومن علامات الخوف الطاعة والخضوع له، والخوف المحمود الصادق هو ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ الأنعام:١٥/ ١٦.

٥- ومن علامات الخوف، قلة النوم، وعدم الغفلة، ودوام الفكرة، قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ السجدة:١٦.

٦- ومن علامات الخوف الغشية، وانقباض القلب والصدر، وذهاب العقل عن لازم القول والفعل، روى البخاري من حديث حذيفة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (كان رجُل مِمّنْ كان قبْلكُمْ يُسِيءُ الظّنّ بعملِهِ، فقال لأهْلِهِ: إذا أنا مُتُّ، فخُذوني فذرُّونِي فِي البحْرِ فِي يوْم صائِفٍ، ففعلوا بِهِ، فجمعهُ الله ثمّ قال: ما حملك على الذي صنعْت؟ قال: ما حملنِي إلا مخافتُك فغفر لهُ)[2].

• ما حقيقة الرجاء وما وجه الرد منع الرجاء في الجنة؟

الرجاء رغبة في القلب لحصول ما فيه مسرة ونعمة، أو دفع مضرة ونقمة، وهو

---

(١) مسلم في الصلاة، باب النهى عن سبق الإمام ١/ ٣٢٠ (٤٢٦).

(٢) البخاري في كتاب الرقاق، باب الخوف من الله ٥/ ٢٣٧٧ (٦١١٥).

يضاد الخوف ويلازمه كقوله: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ الإسراء:٥٧. فابتغاء الوسيلة إليه طلب القرب منه بالعبودية والمحبة، فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه الحب والخوف والرجاء، والرجاء دافع يدفع القلوب إلى العمل في ابتغاء الدار الآخرة، فلا يصح الرجاء إلا مع العمل، وعلامة صحة الرجاء حسن الطاعة.

والرجاء في الكتاب والسنة يدور حول معني الرغبة والتمني والطلب وكثرة الإلحاح في الدعاء؛ وقد ذكر ابن القيم أن الرجاء ثلاثة أنواع، نوعان محمودان، ونوع مذموم، فالأولان رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راج لثوابه، ورجل أذنب ذنوبا تاب منها فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه، والثالث رجل متماد في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب[1].

وقد زعم الصوفية عدم رجائهم الجنة، وزعموا أن رجاء الجنة هو رجاء من الله للأجر، وأن هذا نقص في حق المريدين والعارفين، مثل الصبي الذي يرغب في أداء الواجب وتنفيذ الأمر رغبة الحلوى التي وعده والده بها، والرد عليهم أن ذلك معارضة صريحة للكتاب والسنة، فرجاء النبي ﷺ هو أكمل الرجاء.

وعند البخاري من حديث أنس ﷺ أنه قال: (كان أَكْثَرُ دُعاءِ النَّبِيِّ ﷺ: اللهُمّ ربّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حسنةً، وفِي الآخِرةِ حسنةً، وقِنا عذاب النّارِ)[2].

وقال النبي ﷺ لأحد الصحابة: (كيف تقول في الصّلاة؟ قال: أتشهّدُ

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٢/ ٣٦.

(٢) البخاري في الدعوات، باب قوله ﷺ ربنا آتنا في الدنيا حسنة ٥/ ٢٣٤٧ (٦٠٢٦).

وأقول: اللهُم إِني أسْألك الجنة وأعُوذ بِك من النار، أما إِني لا أحْسِن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال النبِي ﷺ: حوْلها ندندِن)[1].

كما أن الرجاء ضروري لكل عابد موحد، ولو فارقه لحظة لتلف أو كاد أن يتلف، فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها ودوامها، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها، ولا ينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها.

والله سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يرجوه، ولذلك كان عند رجاء العبد وظنه به، والرجاء من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه، بل من أقوى الأسباب دعاء العبد لربه وسؤاله أن يهديه ويوفقه، ويسدده ويعينه على طاعته، ويجنبه معصيته، ويغفر ذنوبه، ويدخله الجنة وينجيه من النار.

- **ما حقيقة الصبر؟ وما منزلته في عبوديات القلب؟**

الصبر من أعمال القلوب الواجبة، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها، وهو خلق فاضل من أخلاقها، يمنع من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وقد ورد في القرآن في أكثر من تسعين موضعا، وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

والصبر على المصائب واجب باتفاق أئمة الدين، وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله، فالأولان صبر على ما يتعلق بالكسب، والثالث صبر على ما لا كسب للعبد فيه.

وقد يصنف الصبر إلى ثلاثة أنواع باعتبار آخر، وهي صبر بالله، وصبر لله،

(١) رواه أحمد ٣/ ٤٧٤ (١٥٩٣٩)، وصححه الألباني في صفة صلاة النبي ﷺ ص١٨٥.

وصبر مع الله، فالصبر بالله هو أول الاستعانة به، فيرى الصابر أن الله هو الذي يصبره، وأن صبره قائم بربه لا بنفسه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ النحل:١٢٧. يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

وأما الصبر لله فهو أن يكون الباعث له على الصبر الإخلاص لله ومحبته، وإرادة وجهه والتقرب إليه، لا لإظهار قوة النفس، وطلب الثناء من الخلق، وغير ذلك من أعراض الدنيا. وأما الصبر مع الله فهو ملازمة العبد لشرع الله وفعل كل ما يحبه ويرضاه في أي زمان أو مكان، لا يفارق شريعة الله وأوامرها، فهذا معنى كونه صابرا مع الله، أي قد جعل نفسه وقفا على أوامره، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها، وهو صبر الصديقين.

ولما كان الصبر من أعمال القلوب الواجبة، وهي عبودية يجب صرفها لله وحده، فإنه قد وردت الدعوة إليه في القرآن بأنواع متعددة وأساليب مختلفة، كالأمر به والنهي عن ضده، والثناء على أهله، واستحقاق الصابرين محبة الله لهم، ومعيته لهم، وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم، ومجازاتهم في الجنة بغير حساب، وبأحسن أعمالهم، ووعد الله الصابرين بأن الصبر يورثهم درجة الإمامة؛ فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، ومن مكانة الصبر أن الله قرنه باليقين، وبالإيمان، وبالتقوى، وبالتوكل، وبالشكر، وبالعمل الصالح والرحمة؛ ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له.

وقد أمر النبي ﷺ الأنصار ﷺ بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده حتى يلقوه على الحوض، وأمر بالصبر عند ملاقاة العدو، وأمر بالصبر عند المصيبة،

وأخبر النبي ﷺ أن الصبر إنما يكون عند الصدمة الأولى، وأمر المصاب بالصبر بالاحتساب، وأن ذلك يخفف مصيبته ويوفر أجره، وأخبر أن الصبر خير كله.

- بين كيف أن التوكل واجب على المقتصدين والسابقين؟

التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة، ومنزلة التوكل منزلة واسعة لكثرة حوائج العالمين، وأولياء الله وخاصته يتوكلون عليه في حصول الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وتنفيذ أوامره. والتوكل عمل قلبي، ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات، بل التوكل حال مركب من عدة أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها:

الأمر الأول: معرفة العبد بربه وأسمائه وصفاته وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته، وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل، فكل من كان بالله أعلم وأعرف كان توكله أصح وأقوى.

الأمر الثاني: هو الأخذ بالأسباب، فإن من نفاها وزعم أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل وأن نفيها هو تمام التوكل، فتوكله باطل أو منقوص، لا يستقيم لهم توكل البتة، لأن التوكل كالدعاء الذي جعله الله سببا في حصول المدعو به، ولم يزل المسلمون من عهد نبيهم وإلى الآن يدعون به في مقامات الدعاء، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها، فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه، والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره.

الأمر الثالث: هو الرضا بالنتائج، فإنه إذا توكل حق التوكل، رضي بما قسمه

وكيله، فالمقدور من الرزق والعطاء يحيطه أمران: التوكل قبله، والرضا بعده، فمن توكل على الله قبل الفعل، ورضي بالمقضي له بعد الفعل، فقد قام بالعبودية، وهذا معنى دعاء الاستخارة، فيما صح عن جابر ﷺ مرفوعا: (واقدُرْ لي الخير حيث كان، ثم رضِّني به)[1].

- **ما هي حقيقة الرضا وما منزلته من عبوديات القلب؟**

أجمع العلماء على أن الرضا بالقضاء مستحب، ولا بد أن نفرق بين الرضا بالقضاء والقدر، أو الرضا بأفعال الله من جهة، والرضا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا من جهة أخرى، فهذا لا يسع أحد عدم الرضا به، ولازمه القبول به والانقياد له. ومن حديث العباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: (ذاق طعْم الإِيمانِ منْ رضِي بِالله ربًّا، وبِالإِسْلامِ دِينًا، وبِمُحمّدٍ رسُولا)[2].

وقد تضمن الحديث الرضا بربوبيته سبحانه وإلوهيته، فالرضا بإلهيته هو الرضا بمقتضى شرعه وحكمته، وهو يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه ورجائه، والإنابة إليه، والتبتل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه، وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته هو الرضا بقضائه وقدره ومقتضى قدرته، وهو يتضمن الرضا بتدبيره الكوني لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيا بكل ما يفعل به، فالأول يتضمن رضاه بشرعه وما يؤمر به، والثاني يتضمن رضاه بما يُقدِّره عليه.

---

(١) البخاري في التطوع، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى ١/ ٣٩١ (١١٠٩).

(٢) مسلم في الإيمان، باب من رضي بالله رباً ١/ ٦٢ (٣٤).

وأما الرضا بنبيه رسولا، فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يرضى بحكم غيره البتة، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه، لا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه سبحانه، فإن عجز عنه، كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يقيته إلا من الميتة والدم، وأحسن أحواله أن يكون من باب التراب الذي يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور.

وأما الرضا بدينه فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى، رضي كل الرضا، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلم له تسليما، ولو كان مخالفا لمراد نفسه، أو هواها، أو قول مقلده وشيخه وطائفته، ومن أعظم أسباب حصول الرضا أن يلزم الراضي ما جعل الله رضاه فيه.

- **ما هي أول العبوديات التكليفية المتعلقة باللسان؟**

اللسان تتعلق به أحكام التكليف التي يشملها توحيد العبادة، منها أحكام لا يسع أحد من المسلمين تركها، ولا بد من إظهارها بقول اللسان، أو ما يقوم مقامه من بدائل في الإنسان، ومنها ما هو مندوب مستحب وفق التنوع في أحكام العبودية اللازمة للمقتصدين والسابقين.

وأول العبوديات المتعلقة باللسان ضرورة النطق بالشهادتين، شهادة ألا إله إلا الله، وشهادة أن محمدا رسول الله، فالشهادتان من قول اللسان ولا بد من إقراره كشرط للإسلام، ومعلوم أن الإسلام مبنى على خمسة أركان تمثل

الشهادتان أساس البناء فيه، فإن امتنع اللسان عن النطق بالشهادتين فليس بمسلم، وإن نطق بها فقد عصم ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله ﷻ. روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النّاس حتّى يقُولوا لا إِله إِلا اللهُ، فمنْ قال لا إِله إِلا اللهُ، فقدْ عصم مِنِّي نفْسهُ ومالهُ إِلا بِحقِّهِ، وحِسابُهُ على الله)(١).

- **ما هي أحكام العبودية والأوامر التكليفية المتعلقة باللسان؟**

١- **الدعاء** والنداء والاستغاثة من العبوديات المتعلقة باللسان، وأصل الدعاء أو النداء يكون بقول اللسان، ومعنى الدعاء استدعاء العبدِ ربّه ﷻ العناية، واستمدادُه منه المعونة، وحقيقته إظهار الافتقار إلى الله تعالى والتبرّؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية واستشعارُ الذلة البشريّة. وكلما أكثر العبد من الدعاء وطوله وأعاده وأبداه كان ذلك أبلغ في عبوديته وإظهار فقره وتذلله وحاجته، وهذا بخلاف المخلوق؛ فإنك كلما كثرت سؤاله وكررت حوائجك إليه أبرمته وأثقلت عليه وهان أمرك بين يديه، وكلما تركت سؤاله كان أعظم عنده وأحب إليه. وإذا اقترن دعاء المسألة بالآداب الشرعية كان من أعظم الأسباب الإيمانية وأقواها في تحصيل المنافع الدنيوية والدرجات العلية في الآخرة بل يكون الداعي في توسله من حيث نوع التوسل ورفعته وحقيقته وكيفيته في أعلى درجات القرب من الله ﷻ.

ويظهر الكمال في الدعاء لو اجتمع قول اللسان مع استحضار القلب بالخشوع والرغبة في الثواب، والخشية والرهبة والخوف من العقاب، يضاف إلى

(١) البخاري في الجهاد والسير، باب دعاء النبي إلى الإسلام ٣/ ١٠٧٧ (٢٧٨٦).

ذلك قوة العزم والجزم في الدعاء، ولا يعلقه بالمشيئة، وإذا كان الدعاء مطلوبا في كل زمان ومكان إلا أنه في بعض المواطن التي تضيق فيها الأسباب بالإنسان يكون أقوى وأسرع استجابة، فالله ﷻ يحب العبد الملح في الدعاء، والإلحاح فيه يزداد مع الاضطرار وصدق الالتجاء، فإذا ضاقت بالعبد السبل، وانقطعت بالمكروب الحيل، فأول ما يفعله أن يستغيث بربه، ويلجأ إلى الله بما يناسب حاله من الأسماء ويضرع إليه ويبتهل في الدعاء.

٢- من أحكام العبودية المتعلقة باللسان عمل اللسان وهو ما لا يؤدى إلا به، كتلاوة القرآن وسائر الأذكار من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدعاء والاستغفار وغير ذلك، واللسان في هذه الحالة شأنه شأن أي جارحة من جوارح البدن، فعبادة الله بقراءة القرآن من المهام المتعلقة بعمل اللسان، وهي مهمة تختلف عن مهمته في إخراج ما في القلب للآخرين، وإن كانت مستلزمة لاستحضار القلب وصدق النية، ولعل ما أثر عن رسول الله ﷺ من أذكار يومية، يوضح عمل اللسان ودوره الفعال في اكتساب الحسنات.

وهذه الأذكار وغيرها مما صح عن رسول الله ﷺ يقوم بها اللسان، ويسهم بذلك مع بقية الأعضاء في توحيد العبودية، كما أن عمل الإنسان يتنوع بتنوع الزمان والمكان، فقد وضع رسول الله ﷺ منهجاً يؤدب اللسان في جميع الأوقات والأمكنة، ومن ثم ينعكس الأدب على الإنسان بكامله، فإذا ما استيقظ الإنسان من نومه، أو آوى إلى فراشه؛ فإن للسان دوراً وعملا يقوم به، وكذلك له قول معين عند لبس الثوب وخلعه، وعند طعامه وشرابه، وعند دخوله الخلاء وخروجه منه، وعند دخول المسجد أو خروجه منه، وعند دخول المنزل أو خروجه منه إلى غير ذلك مما ثبت عن رسول الله ﷺ.

٣- من أحكام العبودية المتعلقة باللسان تعلم العلم وتعليمه بالإضافة إلى مشاركة القلب في ذلك، لأن اللسان يمثل الأساس في وسيلة النقل الشفوي والعلمي للآخرين، وقد أمرنا الله بطلب العلم وحثنا عليه، وفضّل أهل العلم من المؤمنين درجات على غيرهم، لأن البلاغ وسيلته الأولى قول اللسان، وكذلك تلقى العلم فإنه يكون بالسماع والحفظ وتكرار الكلام على اللسان ليتعود عليه ويسهل إخراجه. وعند البخاري من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ أنه كان إذا تكلم بِكلمةٍ أعادها ثلاثا حتّى تُفْهم عنْهُ، وإِذا أتى على قوْمٍ فسلم عليْهِمْ، سلم عليْهِمْ ثلاثا[1].

٤- من أحكام العبودية المتعلقة باللسان تمييز ما لا بد لمعرفته من أنواع المطعومات والمشروبات، فاللسان وسيلة لتذوق الطعام، وتلك الوظيفة التي يقوم بها خاضعة لأحكام العبودية على تنوع الأحكام التكليفية.

- **ما هي أحكام العبودية والأوامر التكليفية المتعلقة بالجوارح؟**

ذكر ابن القيم رحمه الله أن عبوديات الجوارح على خمس وعشرين مرتبة، ذلك لأن الحواس خمسة، وعلى كل حاسة خمس عبوديات أو أحكام تكليفية، وهي الواجب والمستحب والمباح والمكروه والمحرم، فعلى السمع وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما. وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة في أصح قولي العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة

---

(١) البخاري في العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه ١/ ٤٨ (٩٥).

من رده، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره، ولا يحب أن يطلعك عليه ما لم يكن متضمنا لحق لله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعين نصحه وتحذيره منه، وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تحدث الفتنة بأصواتهن إذا لم تدع إليه حاجة من شهادة، أو معاملة أو استفتاء، أو محاكمة أو مداواة ونحوها، وكذلك استماع المعازف وآلات الطرب واللهو، ولا يجب عليه سد أذنه إذا سمع الصوت وهو لا يريد استماعه إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات، فحينئذ يجب لتجنب سماعها ووجوب سد الذرائع. ونظير هذا المحرم نظرة الفجاءة لا تحرم على الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها. وأما السمع المستحب فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله وليس بفرض، والمكروه عكسه، وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه، والمباح ظاهر.

أما أحكام العبودية المتعلقة بحاسة البصر من الجوارح، فمنها الواجب كالنظر في المصحف وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها، أو ينفقها، أو يستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها ونحو ذلك. والنظر الحرام النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقا وبغيرها إلا لحاجة، كنظر الخاطب والشاهد والحاكم والطبيب وذي المحرم.

والمستحب النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانا وعلما، والنظر في المصحف، ووجوه العلماء الصالحين، والوالدين، والنظر في آيات الله المشهودة ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته، والمكروه فضول النظر

الذي لا مصلحة فيه، فإن له فضولا كما للسان فضولا، وكم قاد فضولها إلى فضول عز التلخص منها. والمباح النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة، ومن النظر الحرام النظر إلى العورات، وهي قسمان عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب، ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ففقأ عينه لم يكن عليه شيء، وذهبت هدرا.

وأما أحكام العبودية المتعلقة بحاسة التذوق، فالتذوق الواجب تناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه وخوف الموت، فإن تركه حتى مات، مات عاصيا قاتلا لنفسه، ومن هذا تناول الدواء إذا تيقن النجاة له من الهلاك على أصح القولين. والتذوق الحرام كذوق الخمر والسموم القاتلة، والذوق الممنوع منه للصوم الواجب، وأما المكروه فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق الطعام الفجاءة، وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها، وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس، والذوق المستحب أكل ما يعينك على طاعة الله ﷻ مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل فينال منه غرضه، والذوق المباح ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما أحكام العبودية المتعلقة بحاسة الشم، فالشم الواجب كل شم تعين طريقا للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي تعلم به الأشياء هل هي خبيثة أو طيبة، وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيها، أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك من أنواع الروائح وغيرها. وأما الشم الحرام فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشية الافتتان بما وراءه. وأما الشم المستحب فشم ما يعينك

على طاعة الله، ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل، ومن هذا هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك، والمكروه كشم طيب الظلمة وأصحاب الشبهات ونحو ذلك، والمباح ما لا منع فيه من الله ولا تعلق له بالشرع.

وأما أحكام العبودية المتعلقة بحاسة اللمس، فاللمس الواجب كلمس الزوجة حين يجب جماعها، والأمة الواجب إعفافها، والحرام لمس ما لا يحل من الأجنبيات، والمستحب إذا كان فيه غض بصره، وكف نفسه عن الحرام، وإعفاف أهله، والمكروه لمس الزوجة في الإحرام للذة، وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه. والمباح ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية، وهذه المراتب أيضا مرتبة على البطش باليد، والمشي بالرجل، وأمثلتها لا تخفى، فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله واجب، وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف، والصحيح وجوبه ليمكنه من أداء دينه، ولا يجب لإخراج الزكاة، وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر، والأقوى في الدليل وجوبه لدخوله في الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء النسك والمشهور عدم وجوبه. ومن عبوديات الجوارح الواجبة إعانة المضطر، ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمم، والحرام كقتل النفس التي حرم الله قتلها ونهب المال المعصوم، وضرب من لا يحل ضربه ونحو ذلك، وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنرد، ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفا أو نسخا إلا مقرونا بردها ونقضها، وكتابة الزور والظلم والحكم الجائر والقذف، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم، ولاسيما أن كسبت عليه مالا، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون، وكذلك كتابة المفتى على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله إلا أن يكون مجتهدا مخطئا، فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه فكالعبث، واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة ما لا فائدة في كتابته، ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة، والمستحب كتابة كل ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده بأن يعين صانعا، أو يصنع لأخرق، أو يفرغ من دلوه في دلو المستقى، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج له ونحو ذلك، ومنه لمس الركن بيده في الطواف، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان، والمباح ما لا مضرة فيه ولا ثواب.

- **ما تعريف الكبيرة وما ضوابطها التي وردت في النقل الصحيح؟**

الكبيرة مخالفة الأمر الذي أوجبه الله ﷻ وفرضه على عباده، أو فعل ما نهى الله عنه نهي تحريم، مما ترتب عليه حد في الدنيا كالقتل والزنا والسرقة، أو جاء فيه وعيد في الآخرة من عذاب، أو غضب، أو تهديد، أو لعن فاعله في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ؛ فإنه كبيرة من الكبائر.

وقد تتفاوت الكبائر فيكون بعضها أشد من بعض وفق ما تقرر من العقوبة شدة أو ضعفا، وقد وردت نصوص نبوية متعددة في بيان معنى الكبائر وماهيتها، وما هي أكبر الكبائر التي يجب على المسلمين تجنبها؟ وكلها نصوص تتكامل في مجموعها مع نصوص القرآن، لتظهر ما حذرنا الله ﷻ منه، ونهى عنه نهيا تكليفيا على سبيل الحتم والإلزام، كما ورد عند البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النّبي ﷺ قال: (الكبائِرُ الإشْراك بالله، وعُقوق الوالدْيْنِ، وقتْل النّفْس، واليمِينُ الغمُوسُ)[1].

ومذهب أهل السنة والجماعة أنهم لا يكفرون أحدا بالكبائر التي دون الشرك الأكبر، ولكن لا يمنحون صاحبها اسم الإيمان المطلق، فيقال: هذا مؤمن،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب اليمين الغموس ٦/ ٢٤٥٧ (٦٢٩٨).

ولكن يمنحونه اسما دالا على إيمان مقيد؛ فيقال مؤمن فاسق بكبيرته. ولا يقال هو مؤمن كامل الإيمان كما تقوله المرجئة، ولا يقال هو خارج من الإسلام كما تقوله الخوارج، أو هو في منزلة بين المنزلتين كما تقول المعتزلة، بل القول الحق الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة أن صاحب الكبيرة دون الشرك الأكبر مسلم وليس بكافر، لكنه ناقص الإيمان، وإذا لقي الله ولم يتب من هذه الكبائر فإنه تحت المشيئة، إن شاء عذبهم بذنبه، ثم يخرجه من النار ويدخله الجنة بتوحيده وإيمانه، لكنه لا يخلد في النار، بخلاف الخوارج الذين يقولون بأنه في النار خالدا فيها، ومن دخل النار عندهم فإنه لا يخرج منها، وبخلاف المرجئة القائلين بأنه لا يمر على النار أبدا، بل هو من أهل الجنة ابتداء، وكلاهما مذهب ضلالة. والحق أنه تحت المشيئة، إن شاء عفا عنه بفضله، وإن شاء عذبه بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته سبحانه أو شفاعة الشافعين من أهل طاعته كما صحت بذلك الروايات، ثم يخرجون من النار كالفحم محترقين، ثم يلقون في نهر يسمى نهر الحياة فتنبت أجسامهم ولحومهم، ثم إذا هُذبوا أذن الله لهم في دخول الجنة.

- **ما هي الكبائر المتعلقة بمنطقة الكسب في القلب؟**

الكبائر المتعلقة بمنطقة الكسب في القلب كثيرة منها الكبر، وهو وصف مذموم محرم يبغضه الله ولا يحبه، يدفع إلى عدم قبول الحق، فقد يكون كفرا وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب.

ومنها العجب والبغي والحسد وحبّ المدح والاغترار بالنفس، ومنها الرياء والسمعة واليأس من روح الله والأمن من مكر الله، وسوء الظن بالله وهو من أعظم الكبائر، وإرادة العلو والفساد، وهي صفة من صفات إبليس، ومن الكبائر محبة إشاعة الفحشاء في الذين آمنوا، وهي من أكبر الكبائر،

وكذلك مودة أعداء الله، وبغض الصالحين لاسيما الصحابة والتابعين ومن سلك سبيلهم من علماء السلف الصالح، فمن أكبر الكبائر بغض من رضي الله عنهم ورضوا عنه بنص القرآن، كما يفعل عامة الشيعة ومن شايعهم ممن ينتسب إلى أهل السنة، وكذلك الحسد كبيرة من الكبائر المتعلقة بالقلب، وهُو تمني زوال النعمة عن صاحبها، سواءٌ كانتْ نعمة دينٍ أوْ دنيا، وسواء آلت إلى الحاسد أم لا، والحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله، فإن الحاسد يكره نعمة الله على عبده، ويعترض على قضائه وقدره، وحكمته في نزول الرزق إلى خلقه، ولذلك طرد إبليس من رحمة الله بسبب حسده وحقده.

- **ما هي الكبائر المتعلقة بقول اللسان؟**

يعتبر اللسان عاملا مؤثرا في نجاة الإنسان أو هلاكه، ومن الكبائر التي تتعلق به مما يقع فيها الظالمون لأنفسهم من المسلمين الكذب، وإخلاف الوعد، وشهادة الزور، وقد قرنها الله بالرجس من الأوثان؛ لأنها عظيمة الخطر بالغة الضرر؛ ولأنها تضليل وإضلال عن الحق، وظلم للخلق، فهي سبب محقق لوقوع المظالم، ولذلك كانت من أكبر الكبائر. ومن الكبائر قذف المحصنات، والنميمة، وهي محرمة بإجماع المسلمين، وهي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد، فتتولد العداوة والبغضاء بينهم، ومنها لعن المسلم لأخيه والمجاهرة بالمعصية، وإفشاء السر، وهو كبيرة من الكبائر، وقد يكون خيانة تؤدي إلى إهلاك أمة، ووقوع الضرر الماحق والحلف بغير الله كالحلف بالأمانة، أو الكعبة، أو بالنبي، أو بالولي، أو بالوالدين والأبناء، فإنه شرك أصغر، وهو كبيرة من الكبائر، وكذلك المن بالعطاء.

- **ما هي الكبائر المتعلقة بعمل الجوارح؟**

الكبائر التي تتعلق بالجوارح صادرة عن عصيان القلب ولا بد، وقد تكون مرتبطة بعصيان اللسان، لكن الجوارح عوامل مؤثرة في وقوعها، بل لا يتم فعل العصيان إلا بها، وكما أن عمل الجوارح ركن من أركان الإيمان باعتبار تنفيذ الأمر، فكذلك هو ركن من أركان العصيان ومخالفة الأمر.

ومن الكبائر التي تتعلق بالجوارح قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وعقوق الوالدين، والزنا، واللواط، والسحاق أو ما يطلق عليه الآن معاشرة الشواذ والمخنثين ونكاح المثليين، والربا وأكل مال اليتيم وظلمه، وشرب الخمر وتعاطي المخدرات، وهي من الكبائر لأن المخدرات رجس من عمل الشيطان، وتوقع العداوة والبغضاء بين الناس، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وتدعو إلى الزنا، وربما دعت إلى الوقوع على البنت والأخت وذوات المحارم، وتذهب الغيرة، وتورث الخزي والندامة والفضيحة، وتلحق شاربها بأنقص نوع من الإنسانية وهم المجانين، وتسلبه أحسن الأسماء والسمات، وتكسوه أقبح الأسماء والصفات، وتسهل قتل النفس، وإفشاء السر الذي في إفشائه مضرته أو هلاكه، ومؤاخاة الشياطين في تبذير المال الذي جعله الله قياما له، وتهتك الأستار، وتظهر الأسرار، وتدل على العورات، وتهون ارتكاب القبائح والمآثم، وتخرج من القلب تعظيم المحارم.

وكم أفقرت الخمر من غنى، وأذلت من عزيز، ووضعت من شريف، وسلبت من نعمة، وجلبت من نقمة، وكم فرقت بين رجل وزوجته، فذهبت بقلبه، وراحت بلبه، وكم أورثت من حسرة، وأجرت من عبْرة، وكم أغلقت في وجه شاربها بابا من الخير، وفتحت له بابا من الشر، وكم أوقعت في بلية،

وعجلت من منيته، فالخمر جماع الإثم ومفتاح الشر، وهي سلابة النعم، وجلابة النقم.

ومن الكبائر السرقة التي أوجب الشرع فيها الحد، ومن الكبائر تشبه النساء بالرجال، وتشبه الرجال بالنساء، وقد انتشر ذلك في زماننا هذا المنكر حتى لا يكاد المرء يميز بين رجل وامرأة.

ومن الكبائر الرشوة، وهي منتشرة في عصرنا حتى لا تكاد تقضى أغلب مصالح العباد إلا بها، وهي سحت وقد حرم الله أركانها الثلاثة، وهم الراشي والمرتشي والرائش الوسيط بينهما.

الفصل الثالث

أنواع الشرك بالله وأسبابه

• ما هو معنى الشرك ومدلولاته اللغوية في القرآن والسنة؟

جميع المعاني والمدلولات اللغوية لمشتقات كلمة الشرك في النصوص القرآنية والنبوية ترجع إلى الشراكة والمشاركة، أو المشابهة والمثلية، وهي اشتراك اثنين أو أكثر، إما في صفة ذاتية أو فعلية، وإما في حق الملك أو الملكية، وإما في الأمر والحاكمية، والتوحيد ينفي عن سائر الخلائق جميع أنواع المشاركة السابقة لله رب العالمين، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ الإسراء:١١١.

ومن المشاركة بنصيب معين في الصفات الذاتية والفعلية التي نفاها الله عمن سواه ما ورد في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ يونس:٣٤/ ٣٥. وقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ الشورى:١١. وقوله تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ مريم:٦٥. وقوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ الروم:٤٠.

ومن أخطر الأمور المهلكة، والكبائر الموبقة أن يجعل الإنسان شريكا لربه في

ربوبيته وعبوديته وأسمائه وصفاته، كما روى البخاري من حديث ابن مسعود ﷺ أنه قال: (سألتُ رسُول الله ﷺ: أيُّ الذنبِ عِند الله أكْبرُ؟ قال: أن تجْعل لله ندّا وهُو خلقك .. الحديث) (١). وروى مسلم من حديث أبِي ذر ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال: (يقُولُ الله ﷻ: ومن لقِيني بِقُرابِ الأرْضِ خطِيئة، لا يُشْرِكُ بِي شيْئا، لقِيتُهُ بِمِثلِها مغْفِرة) (٢).

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ البينة:٥. وقال: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ﴾ الحج:٣١.

• لماذا كان الشرك تعطيلا للواحدية والأحدية والوترية؟

الواحدية صفة الواحد، وهو اسم لله سبحانه ينفي التعدد والمثلية، فالله ﷻ واحد لا شريك يماثله، ولا هو ثالث ثلاثة كما زعم النصارى، بل هو واحد قائم بنفسه لا يفتقر إلى غيره أزلا وأبدا، وهو الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو سبحانه وحده الذي خلق الخلق بلا معين ولا ظهير، ولا وزير ولا مشير، ومن ثم فإنه وحده المنفرد بالملك، وليس لأحد في ملكه شرك، ومن سوى بين الله وبين أحد من خلقه وجعله شريكا له في صفته أو فعله فقد عطل وصف الواحدية التي انفرد بها رب العزة والجلال.

ومعلوم أن الذي علا بذاته وارتفع ارتفاعا مطلقا فوق الكل ينفرد

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة الفرقان ٤/ ١٧٨٤ (٤٤٨٣).

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر ، باب فضل الذكر ٤/ ٢٠٦٨ (٢٦٨٧).

بالوحدانية والعلو والعظمة والمجد والرفعة بدلالة اللزوم، والله ﷻ واحد في علوه، مستو على عرشه، بائن من خلقه، لا شيء من ذاته في خلقه، ولا خلقه في شيء من ذاته، يعلم أعمالهم، ويسمع أقوالهم، ويرى أفعالهم، ولا تخفى عليه منهم خافية.

أما الأحدية فهي وصف الأحد، وهو اسم لله سبحانه ينفي الشبيه بالكلية، قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ الإخلاص:١/ ٤. والأحدية هي الانفراد ونفي الشبيه بالكلية وتعني انفراده سبحانه بذاته وصفاته وأفعاله عن الأقيسة والقواعد والقوانين التي تحكم ذوات المخلوقين وصفاتهم وأفعالهم، وانفراده سبحانه بجميع ما ثبت له من أوصاف الكمال، فالأحد هو المنفرد الذي لا شبيه له فنحكم على كيفية أوصافه من خلاله، ولا يستوي مع سائر الخلق فيسري عليه قانون أو قياس أو قواعد تحكمه كما تحكمهم، لأنه المتصف بالتوحيد المنفرد عن أحكام العبيد، فلا شبيه يدانيه ولا نظير يساويه، وهو منفرد بكل معاني الكمال، متوحد منزه عن النقائص والعيوب التي تنافي معاني الإلوهية والربوبية.

وأما الوترية وصف الوتر وهو اسم لله سبحانه ينفي الشفعية والزوجية فالله تعالى وتر انفرد عن خلقه بالوترية فجعلهم على معنى الشفعية والزوجية، بحيث لا تعتدل المخلوقات ولا تستقر إلا بالزوجية، قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١ ﴾ الذاريات:٤٩/ ٥١.

وقد جعلهم على الزوجية ليفروا إليه وحده دون أحد من خلقه، وألا يجعلوا معه إلها آخر، ومن هنا كانت الزوجية مقابلة للوترية، وتلك بناية الخلق بتقدير الحق بنيت على الزوجية والشفعية، أما ربنا ﷻ فذاته صمدية، وصفاته فردية، فهو المنفرد بالواحدية والأحدية والوترية.

• ما العلة في كون الشرك بجميع أنواعه هو الظلم العظيم؟

خلق الله الإنسان لعبادته وذلك باستخلافه في أرضه على وجه الابتلاء والامتحان، فاستأمنه وابتلاه وخوله واسترعاه، ومن ثم فإن دور الإنسان في الحياة مقصور على تنفيذ أوامره الشرعية فيما خوله الله واسترعاه، ولا يعني استخلافه في الأرض على وجه الابتلاء استحقاقه هو أو غيره لشيء من معاني الربوبية والملكية الحقيقية الأصلية التي انفرد بها، فهذا حق لله وحده لا يصح المساس به على الإطلاق، بل المساس به شرك بالله وظلم لا يغفر إلا بالتوبة، وقد بين الله للعباد في غير موضع من كتابه أن استخلافهم في الأرض ليحققوا توحيد العبودية، وليس لمشاركة الله في أوصاف في الربوبية.

ومن ثم فإن الله ﷻ لن يقبل منهم أن يتخذوا شريكا له في ملكه، أو منازعا له في تدبير شئون خلقه، ولن يقبل منهم عملا فيه نصيب لغيره، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ النساء:٤٨. فالشرك لكونه ظلما عظيما أخذ الله العهد والميثاق على الإنسانية قبل نزولهم إلى الأرض، فإن ادعى أحد بعد تذكير الله له بذلك عن طريق أنبيائه ورسله أن الله ﷻ له شريك في الملك، أو له معين في تدبيره السماوات والأرض، فقد وقع في الظلم العظيم، وعطل دور الإنسان،

ولم يوفق في الابتلاء والامتحان، وفشل فشلا ذريعا في أداء الأمانة التي خلق من أجلها، حتى لو قدم كل ما استطاع من الجهد في خدمة البشرية ونفعها. قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الفرقان:٢٣.

والواجب على المسلم أن يراعي في قوله وعمله الخوف من الله وحده لأنه صاحب الأمانة وخالقها، وولي النعمة ومالكها، وما سواه لا يملك شيئا، بل هو مجرد أمين مستخلف في الحياة، فقد ظلم نفسه وتعدى وصفه من قال بعد ذلك بقول الطاغوت فرعون: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ القصص:٣٨/ ٣٩.

ومن أعظم الظلم أن الإنسان الذي كرمه الله ﷻ في ملكه، واستخلفه في أرضه، ووكل ملائكته بحفظه، والقيام على تدبير أمره، أن يسوى بين الله ﷻ الذي ليس كمثله شيء، والمخلوق العاجز الفقير الذي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، يسوى بينه وبين الله ﷻ في المحبة والخوف والرجاء، والخضوع التعظيم والدعاء.

• ما هي أسباب الشرك بالله؟ وما هي أنواعه المترتبة عليها؟

لما كان معنى الشرك يرجع إلى الشراكة والمشابهة بين اثنين أو أكثر في وصف من الأوصاف، فإن الشرك بالله يرجع في حقيقته إلى ثلاثة أصناف أو أنواع هي أسباب الشرك الحقيقية:

السبب الأول: التشبه بالخالق، وهو السبب في شرك الربوبية، ومبناه على طلب العلو الذاتي والاستكبار، وعدم الافتقار إلى رب العزة والجلال، والتشبه

بالله في العلو والكبرياء، وتأليه النفس بالاستعلاء، ودعوة الناس إلى الخضوع له والذكر لاسمه ووصفه بالمدح والثناء والتعظيم والإطراء. وهذا الشرك في الربوبية هو الذي نفاه الله عن عيسى عليه السلام وبرأه منه وبين أنه عبد لله لا يستنكف عن توحيد العبودية، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ المائدة:١١٦/١١٨

السبب الثاني: تشبيه المخلوق بالخالق، وهو السبب في شرك العبادة ومبناه على الغلو في تعظيم المخلوق وإعطاؤه منزلة فوق منزلته، حتى جعلوا فيه حظا من الإلهية، وشبهوه بالله سبحانه، وهذا هو التشبيه الواقع في سائر الأمم، وهو الذي أبطله الله سبحانه وحذر العباد منه، وبعث رسله وأنزل كتبه بإنكاره والرد على أهله، فهو سبحانه نهى عن تشبيه غيره به، وحرم على العباد أن يجعلوا غيره مثيلا له، وندا له، وشبيها نظيرا. قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ (١٦٥) ﴾ البقرة:١٦٥.

السبب الثالث: تشبيه الخالق بالمخلوق، وهو السبب في شرك الأسماء والصفات، وهو الذي وقع فيه المتكلمون من أتباع الجهمية، وخالفوا فيه الفطرة النقية، وظنوا أن نصوص القرآن والسنة تدل عليه، وأنها نصوص توهم التشبيه والجسمية، فبالغوا في نفي ما توهموه من التشبيه بالتأويل الباطل، وتحريف الكلم عن مواضعه، وصرفه عن حقائقه بالمجازات والمجازفات وغرائب اللغات. قال

ابن القيم رحمه الله: (ليس في الأمم المعروفة أمة جعلته سبحانه مثلا لشيء من مخلوقاته، فجعلت المخلوق أصلا وشبهت به الخالق، فهذا لا يعرف في طائفة من طوائف بني آدم، وإنما تشبيه المخلوق بالخالق هو المعروف في طوائف أهل الشرك، غلوا فيمن يعظمونه ويحبونه حتى شبهوه بالخالق، وأعطوه خصائص الإلهية، بل صرحوا أنه إله وأنكروا جعل الآلهة إلها واحدا) [(١)].

• **ما هي حقيقة الشرك الذي ينافي توحيد الربوبية؟**

شرك الربوبية سببه التشبه بالخالق، فكل مخلوق سوى الله إنما هو عبد من عباده، إما باضطرار أو باختيار، فالعبودية صفة لازمة لسائر المخلوقات، وهي عبودية حاجة وافتقار تقابل وصف الغنى والكمال، ولذلك فإن توحيد الربوبية قائم على أن وصف الغنى والكمال وصف ذاتي انفرد به رب العزة والجلال، وأن وصف الحاجة والافتقار، وصف ذاتي لكل مخلوق على وجه الاضطرار، ومعلوم أن فقر الخلائق إلى الله أمر ذاتي لهم، لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنيا حميدا، وكونه محمودا على عطائه الدائم وصف ذاتي له، فغناه وحمده ثابتان له لذاته بحكم معاني الربوبية، وفقر من سواه إليه فقر ذاتي ثابت لذاته بحكم معاني العبودية، فحاجة العبد إلى ربه أمر ذاتي يمثل حقيقة الفطرة.

ومن ثم فإن العبد إذا تعاظم وأراد أن يخرج عن وصف الحاجة والافتقار، فإنه لا محالة يطلب لذاته الاستغناء والعلو والاستكبار، فيتشبه برب العزة والجلال في وصف من أوصاف الكمال التي انفرد بها، فيقع في الطغيان ويظلم الآخرين. وحقيقة الطاغوت تجاوز الحد في الخروج من الفقر الذاتي إلى الغنى

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم ٢/ ٢٢٦.

الذاتي باستعلاء الإنسان، والاستكبار والظلم والطغيان، ولذلك كان الطاغوت هو الشيطان وكل ما عبد من دون الله ﷻ. وقد أصبح الشيطان رأس الطواغيت والقائد الأعلى للمشركين في الربوبية، ومؤسس سبل الطغيان لكل ملك ظالم من بني الإنسان، وشرك الربوبية الذي وقع فيه فرعون هو الطغيان الذي يخرج العبد عن وصفه الذاتي وهو وصف العبودية، والطغيان مبني على الاستكبار وطلب العلو الذي ليس إلا لله وحده فهو شرك في الربوبية وهو آفة الآفات التي تنزل بالأقوام والشعوب فتدمر كيانها، وتهلك أهلها، وتأتي على الأخضر واليابس فيها، وحين يزداد الطغيان بين الناس ويستشري الظلم، ثم يركن الناس إلى الطغاة ويستمرئون الخضوع والاستكانة لمظالمهم وطغيانهم يعمّهم الله بعذاب من عنده، ويحاسبهم على ذلك محاسبته للطغاة أنفسهم.

ولقد كان فرعون مثلا للطاغية المتجبر، وكان قومه صورة للأقوام التي خضعت لعبوديته، ووصل الأمر بفرعون إلى ادعاء الإلوهية والحاكمية المطلقة في ملكه، والاستخفاف بعقول الناس والإعراض عن كل الآيات التي جاءته من الله حتى أهلكه الله وقومه، وفرعون مثلٌ أعلى لكلّ طاغية يتجاوز الحدّ في الظلم والتجبّر والاستبداد والمعصية والاستخفاف بعقول الناس، وإرادتهم ومصالحهم، وكلما أنس منهم السكوت على ظلمه والخضوع لبغيه وعدوانه، ازداد صلفا وتجبرا، وتمردا حتى يصل إلى التألّه، وادعاء الإرادة المطلقة في مصائر الناس من حوله، وطغيان فرعون ظلم عظيم لا يعبر فقط عن قصة ماضية، ولكنه حقيقة باقية في كل ظالم مهما اختلفت الألوان وتغيرت العناوين والشعارات؛ وذلك لأن الله ﷻ لم يقصص قصص الطغاة على عباده المؤمنين إلا ليتعظوا ويعتبروا ويتدبّروا أمرهم؛ فلا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم.

وكل طاغية وقع في شرك الربوبية تجده يحكم بما يراه ويزعم كما زعم فرعون أنه لا يري قومه إلا ما يرى، ولا يهديهم إلا سبيل الرشاد، بل يجعلُ من نفسه معبودا من دون الله ﷻ يتحكم في الناس تحكما بالغا، ويأمرهم أن يطيعوه على أي وجه، ويشرع لهم ما يراه متّفقا مع أهوائه ومصلحته، ويدعي أنه أراد الخير لهم والبركة عليهم، وأنه يريد لهم الإصلاح وغيره يريد الفساد. قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ غافر:٢٩.

هذا الطاغية الذي وقع في شرك الربوبية صور نفسه لقومه في صورة الناصح المشفق عليهم من تبديل دينهم وإظهار الفساد بينهم، لأنه غني بذاته عنهم وهو فقط حريص عليهم لا يحتاج إليهم في شيء، وهنا شرك الربوبية في خروجه عن وصف العبودية وادعاء أوصاف الغنى الذاتية ولذلك قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ الزخرف:٥١.

والفساد عند هؤلاء الطواغيت هو التوحيد، وشرك الربوبية عندهم هو الصلاح والفلاح، ولذلك كان باعث الصلاح عند الطغاة هو محاربة أولياء الله وعباده الموحدين، فرغب فرعون في قتل المؤمنين والمرسلين، فأراد أن يقتل موسى عليه السلام وأن يقتل أبناء الذين آمنوا معه ويستحيي نساءهم. قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ غافر:٢٦/ ٢٧.

وتلك الطريقة الفرعونية في شرك الربوبية هي التي زينها إبليس لكل من

سار على دربه من تلاميذ مدرسته من بعده ، حيث يزعمون أنهم يريدون أن يحرروا الناس من ظلم التخلف والرجعية الواقع في الشرائع السماوية، وأن يخرجوهم إلى عالم من الحرية لم يكونوا يحلمون به.

من أمثلة الشرك في الربوبية المبني على التشبه بالخالق شرك الغلاة من أئمة الصوفية وهم القائلون بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود كالحلاج وابن الفارض وتلاميذ مدرسته وابن عربي وأتباعه، جميعهم زعم أن الذات البشرية أخذت خصائص الذات الإلهية حين الاتحاد أو التجلي والتعيين، قال ابن الفارض : فوصفي إذا لم تدع باثنين وصفها. وهيئتها إذ واحد نحن هيئتي.. فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن.. منادي أجابت من دعاني ولبت(١).

زعم ابن الفارض أن وصفه هو وصف ربه، لأنه بذاته هو الرب، فلا فرق ولا سوى، بل اتحدت كل ذات في الأخرى، فإن دُعي الرب أجاب ابن الفارض لأنه هو الرب، وإن دُعي ابن الفارض أجاب الرب الذي هو ابن الفارض! بل تجد التكبّر على الرب حتى في الاتحاد في قوله: أجابت من دعاني ولبت، ويريد بزندقته وشركه أن يقول: إن الرب حين يُدعى يُجيب عنه ابن الفارض، أمّا إن دُعي ابن الفارض أجاب الرب ولبّى، فتشعر أن ابن الفارض هو الأصل، وأن ربه هو الفرع؟

ومن وقعوا في شرك الربوبية والتشبه بالخالق في زعمه التلبس بأوصاف الإلوهية بناء على فكره في وحدة الوجود عبد الكريم الجيلي صاحب كتاب الإنسان الكامل، فقد زعم أنه لم يعد بينه وبين الله أي فارق، ولا بينه وبين كل

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ٣٦٥، ومصرع التصوف ص٦٤.

المخلوقات فقال فيما أورده في كتابه الإنسان الكامل: لي الملك في الدارين لم أر فيهما سواي فأرجو فضله أو فأخشاه.. وقد حزت أنواع الكمال جمال جلال الكل ما أنا إلا هو.. فإني ذاك الكل والكل مشهدي أنا المتجلي في حقيقته لا هو.. وإني رب للأنام وسيد جميع الورى اسم وذاتي مسماه[1].

ومن الشرك في الربوبية ما زعمه الميرزا حسين علي الملقب بالبهاء مؤسس فرقة البهائية المارقة، حيث ادعى النبوة، ولم يكتف بها بل تجاوزها إلى ادعاء الإلوهية، وأنه القيوم الذي سيبقى ويخلد، وأنه روح الله، وأنه هو من بعث الأنبياء والرسل، وأوحى بالأديان كلها. وأقواله في تقرير إلوهيته كثيرة جدا ملأ بها كتابه الذي سماه الأقدس كقوله: (قل: لا يرى في هيكلي إلا هيكل الله، ولا في جمالي إلا جماله، ولا في كينونتي إلا كينونته، ولا في ذاتي إلا ذاته، قل: لم يكن في نفسي إلا الحق ولا يرى في ذاتي إلا الله)[2].

• ما هي حقيقة الشرك الذي ينافي توحيد العبادة؟

من خصائص الإله المعبود بحق أن يكون له الكمال المطلق في الأسماء والصفات والأفعال من جميع الوجوه، كمالا لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة أن يكون له وحده، ويمنع عقلا وشرعا وفطرة أن يكون لغيره، فمن جعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر

---

(١) الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي ١/ ٢٢.

(٢) كتاب الأقدس ضمن خفايا الطائفة البهائية ص ١٢٦ .

سبحانه عباده أنه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة.

ومن خصائص الإلهية أو العبودية قيامها على ركنين أساسيين، وهما غاية الحب مع غاية الذل، وهذا تمام العبودية، وتتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه به في خالص حقه، وهذا من المحال أن تأتي به شريعة من الشرائع، بل قبحه مستقر في كل فطرة وعقل، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم، وأفسدتها عليهم، واجتالتهم عنها، فأرسل الله إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرتهم وعقولهم.

إن العابد معظم لمعبوده متأله خاضع ذليل له، والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والجلال والتأله والتذلل والخضوع، وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره، أو يشرك بينه وبين غيره فيه، ولاسيما الذي جعل شريكه في حقه، هو عبده ومملوكه، فإذا كان السيد يأنف أن يكون مملوكه وخادمه شريكا له في رزقه، فكيف يجعلون لله من عبيده شركاء فيما انفرد به من الإلهية التي لا تنبغي لغيره، ولا تصح لسواه، فمن زعم ذلك فما قدر الله حق قدره كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾ الحج: ٧٣/ ٧٤.

ومن المعلوم عقلا ونقلا أن الاستعانة بالغير، أو الاستغاثة به، أو دعاءه وسؤاله يرتبط باعتقاد في القلب قائم على أن من استعنت به قادر على تحقيق

مطلبك وتلبية رغبتك، وإلا كان سؤاله عبثا، والطلب يعد لغوا ولهوا، ولذلك فإن من توجه بالسؤال والنداء والطلب والدعاء إلى الله ﷻ يعلم أنه متصف بالكمال في الذات والصفات والأفعال، لأن التوجه إلى الله ﷻ الغني بذاته هو التوحيد الذي يناسب العقل والفطرة، وفي المقابل فإن الطلب من غير الله فيما يقدر على القيام به، وفيما أجراه الله ﷻ على يديه من أسباب لا يعد مخالفا للعقل أو الكتاب والسنة، وإنما الطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه كالطلب من الأموات والأضرحة والقباب، فهو الشرك بالله حقا، وهو الظلم العظيم، لأنه يستلزم تشبيه المخلوق بالخالق.

ومن ثم فإن دعاء الأموات، أو طلب المدد منهم ينافي التوحيد والإخلاص، ويثبت للميت بدعائه وصف الغنى والكمال من جهة، ويثبت في المقابل للداعي أوصاف العبودية والافتقار، والحاجة والاضطرار، وغير ذلك من معاني الخضوع والعبودية والإذلال، فالذي يطلب المدد من الميت المقبور يثبت له صفة الحياة ؛ لأنه لو اعتقد في قلبه أنه ميت ما توجه إليه بالنداء ودعاه، وكذلك يثبت صفة السمع والبصر، والعلم والإرادة، والقدرة والغنى، فالفقير لا يدعى ولا يقصد، لقد نفى الله تعالى جميع الصفات اللازمة لإجابة الدعاء عمن توجهوا إليهم، وأثبت في المقابل فقرهم وضعفهم وعجزهم، فإذا توجه عاقل بعد ذلك إلى ميت مقبور واستغاث به أو دعاه بما يدل لازمه على الكمال الذاتي للمدعو في غناه، دل ذلك على وجود الشرك في قلبه، ورسوخه في نفسه، قبل أن ينطق به على لسانه، فانظر مثلا إلى قول القائل في دعاء قبر البدوي، أو ابن الرفاعي:

يا من هو البحر الخضم إذا جرى : جاءت لك الزوار من أقصى القرى

كل ينـادي يستغـيث لمـا جرى : فلقد حويت الفضل يا غوث الورى

هل يوجد مسلم عاقل يزعم أن البدوي أو ابن الرفاعي هو غوث الورى، يأتيه الملهوف من أقصى القرى؟ إن كان هؤلاء هم غوث الورى، فماذا تركوا لرب العزة والجلال؟

قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ النمل: ٦٢.

هذا الشِّرْك أعظم عند الله من قتل النفس التي حرم الله، وأعظم من الزنا، وشُرب الخمر؛ لأن لازمه وصف الله ﷻ بالنقص، ومساواته سبحانه بمن اتصف بالفقر والعجز.

وقد ذكر ابن القيم أن الذي أوقع عباد القبور في الافتتان بها مع العلم بأن ساكنيها أموات، لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياتا ولا نشورا، الاعتقادات الشركية المبنية على حكايات حكيت لهم عن تلك القبور، أن فلانا استغاث بالقبر الفلاني في شدة فخلص منها، وفلانا دعاه أو دعا به في حاجة فقضيت له، وفلانا نزل به ضر فاسترجى صاحب ذلك القبر فكشف ضره، وعند السدنة والمشرفين على هذه القبور من ذلك شيء كثير يطول ذكره، وهم من أكذب خلق الله تعالى على الأحياء والأموات[1].

• ما هي حقيقة الشرك الذي ينافي توحيد الأسماء والصفات؟

تشبيه الخالق بالمخلوق هو شرك الأسماء والصفات، وهو شرك يهدم

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ١/ ٢١٥.

التوحيد وينافيه، والتوحيد في باب الصفات يقصد به إفراد الله بذاته وصفاته وأفعاله عن الأقيسة والقواعد والقوانين التي تحكم ذوات المخلوقين وصفاتهم وأفعالهم، والشرك في باب الصفات قياس الخالق بالمخلوق، إما بقياس تمثيلي أو قياس شمولي، وقد وقع فيهما أهل الضلال من الممثلة والمشبهة الذين جسدوا لربهم في أذهانهم صورا مما يرونه في المخلوقات، وزعموا أن أوصاف الله التي وردت بها النصوص في الكتاب والسنة على هذه الكيفية، وقد استخدم الممثل النوع الأول من القياس، والنوع الثاني استخدمه المشبه وأحيانا يطلق عليه المكيف، وقد حرمهما الله على من استخدمهما في حقه، وقد تقدم الحديث عنهما بالتفصيل الذي يغني عن إعادته.

- **اذكر أمثلة لأنواع الشرك الأكبر المتعلقة بالقلب؟**

أصل العقائد الشركية تقوم على تعلق القلب بغير الله تعظيما له وحبا، وانقيادا وولاءً وقربا، وهذا التعلق من المشرك مبني على اعتقاده في وصف المخلوق بأوصاف الخالق، وذلك من خلال المبالغة والغلو فيه وادعائه ما للخالق من ملكية النفع والضرر والتأثير في الغير، والزعم بأن ذلك مما خصه الله من صلاحيات قطبية ربانية، أو خلافة غوثية في باب الربوبية، يخرق بها السنن والعادات، ويزعمون له عجائب المعجزات، وأصنافا من ألوان الكرامات، فعقيدة الشرك فرع عن تصور القلب لما استقر فيه من خرافات ومبالغات، وغلو في وصف المخلوق بصفات الخالق، ثم اعتقاد صحتها وتصديقها، ولذلك زين الشيطان للصوفية والشيعة أن يضعوا مشايخهم وأولياءهم وأئمتهم في مكانة لا تليق إلا بالله ﷻ، وأذاعوا الخرافات التي جعلوا لهم فيها من أوصاف العلم والقدرة والتصريف والمشيئة في الكون ما لا ينبغي إلا الله ﷻ. ومن أمثلة الشرك

الأكبر المتعلق بالقلب والذي يهدم حقيقة التوحيد:

١ – الشرك في المحبة فالعبادة اسم من أسماء المحبة، يقال: قلب معبد أي ذلله الحب لمعبوده، ولما كانت المحبة قائمة بالقلب، فإن الشرك فيها هو أعظم أنواع الشرك وهو أصل الشرك في الإلهية، وهو أن يجعل لله ندا أو مثيلا في عبادته أو محبته، وما يتبعها من لوازمها كخوفه أو رجائه أو إنابته، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه. قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ البقرة:١٦٥.

ومن المحبة الشركية الإبليسية محبة الصوفية الحلولية الاتحادية وأصحاب وحدة الوجود، إذ أنها ترفع شأن المخلوق وتجمع بينه وبين الخالق في وصف واحد، وتتعلق القلوب به محبة ورجاء، والتوحيد مبني على إثبات الفرق بين الخالق والمخلوق ونفي الند والمماثلة، وهم جعلوا محبتهم مبنية على محبة الكل، والجمع بين الخالق والمخلوق في كينونة الذات الإلهية، فلا فرق عندهم بين دين ودين، أو كافر ومؤمن، أو موحد ومشرك، أو آدم وإبليس، الكل محبوب لهم، والكل عندهم هو ذات رب العزة والجلال، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

٢- خوف السر وهو الخوف الشركي المتعلق بالقلب لأن العبد إذا اكتمل خوفه من ربه لم يخف شيئا سواه، وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون مقدار الخوف في القلب، وهو عبادة لا يجوز صرفها لغير الله تعالى، فليس هناك أحد يملك نفعا أو ضرا إلا بإذن الله ﷻ، فهو الذي يصيب برحمته من يشاء، ويصرفها عمن يشاء، فمن اعتقد أن نبيا أو وليا

أو ضريحا أو مقبورا أو وثنا أو صنما أو شجرا أو حجرا يملك له نفعا أو ضررا بغير مشيئة الله وخاف بطشه وأذاه؛ فقد وقع في الخوف الشركي الذي لا يصرف إلا لله ﷻ. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٧٥.

وقال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ ﴾ الأنعام: ٨٠/ ٨١.

٣- الشرك في الرجاء والرجاء عبادة لا تصرف إلا لله، ولم يمنع الشرع أن يرجوا المسلم مخلوقا فيما يقدر عليه مما أجراه الله ﷻ على أيديهم من الأسباب، أما الرجاء الذي يتعلق بقلب العبد في سره، والذي يرجو به مخلوقا لا يقدر على تحقيق طلبه، فيتصرف برجائه على نحو لا يقبله شرع ولا عقل فهو رجاء العبادة، كمن اعتراه حاجة من حاجات الدنيا كالحاجة إلى الصحة أو المال أو الولد أو النجاة من عدو، أو خطر داهم، فيتوجه بشيء من ذلك إلى بعض الصحابة في قبورهم أو آل البيت كعلي والعباس والحسين وزينب ونفيسة ﭫ، أو بعض الأئمة كأبي حنيفة ومالك والشافعي، وكرجائهم بعض الأولياء إن صحت ولايتهم كابن الرفاعي والبدوي والدسوقي والمرسي والغريب وابن تميم والشاذلي وغيرهم، فهو رجاء شركي من أنواع الشرك الأكبر.

٤- الشرك في التوبة، فالتوبة للمقبور شرك عظيم، وقد توسع الصوفية في نشر حكايات مختلقة حول عدم الإنكار على شركياتهم وابتداعاتهم، وأن كثيرا ممن أنكروا عليهم حدثت لهم من المصائب والمحن والبلايا ما جعلهم يعودون مقرين تائبين مسلمين لهذا المنكر الذي يقيمون عليه.

- **اذكر أمثلة لأنواع الشرك الأصغر المتعلقة بالقلب؟**

الشرك الأصغر هو الشرك الذي لا يخرج عن الملة، وهو من مقدمات الشرك الأكبر ومن المحرمات التي لها حكم الكبائر، وعقوبته مرتبة على مقدار قوته في القلب، وربما يقوى فيكون شركا أكبر حسب قوة الاعتقاد في غير الله والتوجه إليه، ومثاله الشرك الأصغر المتعلق بالقلب يسير الرياء وإرادة الإنسان غير وجه الله من قوله المشروع أو عمله، وكالتطير والتشاؤم بوقت أو شخص أو دار أو غير ذلك، فالتشاؤم من الاعتقادات الجاهلية التي انتشرت بين كثير من عوام المسلمين نتيجة الجهل بالدين وضعف العقيدة واليقين، وعدم انتشار الوعي الصحيح فيهم، ومخالطة أهل البدع والضلال، وقلة من يرشدهم ويبين لهم الطريق المستقيم، وكثير من الناس يتشاءمون لقراءتهم ما كتب لهم زورا من حظوظ أبراجهم الفلكية في بعض الصحف، فيقررون تغيير عزمهم وقصدهم على الفعل بسبب اعتقادهم وتشاؤمهم.

وكذلك الاعتقاد في نفع التمائم والخرز والعظم والخيط واليد والناب وعين الذئاب والودع والحجاب وما يصنعه الدجالون من أشياء يعتقدون فيها دفع الضرر والعين والبلاء، وكذلك من الشرك الأصغر المبالغة في تعظيم المخلوق وتقديمه على ما أمر الله بتعظيمه كتعظيم شيخ الطريقة وأوامر المرشد العام وأمير الجماعة مع علمه بعدم مشروعيتها.

- **اذكر أمثلة لأنواع الشرك الأكبر المتعلقة باللسان؟**

١- شرك الدعاء، فدعاء الأنداد وندائهم فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى من الشرك المتعلق من الشرك الأكبر المتعلق باللسان، وهو طلب ما ينفع

الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، فالمعبود لا بد أن يكون ربا مالكا للنفع والضر، ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرا ولا نفعا كما قال تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾ الرعد:١٤.

وكل شرك في الدعاء متعلق بالقلب واللسان معا، ومثاله أن يقال للميت من الأنبياء أو الصالحين: ادع الله لي، أو سله، أو سقتك على فلان، وسقت فلانا على الله في كذا كذا، وكل هذا مما لا يشك عالم بشريعتنا المطهرة أنه قطعا من الشرك الذي لا يشهد له كتاب ولا سنة، وهو يجر صاحبه شيئا فشيئا إلى نداء ودعاء صاحب القبر نفسه فيخرج عن التوحيد، وكذلك النداء كأن يقول: يا سيدي فلانا أدركني، انصرني على عدوي، أو على من ظلمني، مدد يا سيدي، شيء لله يا أهل الله، نظرة إلينا بعين الرضا، فهذا كله من الشرك. قال رسول الله ﷺ ابن عباس رضي الله عنه أنه: (إذا سألت، فاسْأل الله، وإذا اسْتعنت فاسْتعِن بِالله)[1].

وهل يليق بمسلم يؤمن بتوجيه النبي ﷺ ووصيته لابن عباس رضي الله عنه ألا يسأل إلا الله ثم يقول: يا رسول الله أدركني أو يا سيدنا الحسين، أو يا شيخ العرب؟ أو يا أم العواجز، يا حامي طنطا يا سيد، يا حامي القنديل يا أبا العلا، يا سيدي فلانا ويا سيدتي فلانة؟ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ يونس:١٠٦ . فإذا كان دعاء الله والطلب منه عبادة، فصرف هذا الدعاء لغيره شرك وظلم .

٢- شرك الاستعانة والاستغاثة بالأنداد ، والاستغاثة طلب الغوث، وهو

(١) انظر مشكاة المصابيح (٥٣٠٢)، وظلال الجنة (٣١٥)، وصحيح الجامع (٧٩٥٧).

إزالة الشدة كالاستنصار طلب النصر، والاستعانة طلب العون، والفرق بين الاستغاثة والدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب، فلا يجوز للمسلم أن يطلب الغوث إذا نزلت به الشدة، أو ابتلي بالمصائب إلا من الله ﷻ، ومثال الاستغاثة بالمخلوق التي هي من الشرك الأكبر استغاثة العامة بمن يسمونهم الولي الغوث، أو الأوتاد الأربعة، أو الأقطاب السبعة، أو الأبدال الأربعين، أو النجباء الثلاثمائة، أو غير ذلك مما انتشر من الاعتقادات الشركية. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الإسراء:٧.

٣- شرك التوسل، وهو متردد بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر، فالأكبر كقولهم: يا نبي الله سقتك على ربك، ويا بدوي، أو يا مرسي، سقتك على جدك، وسقت جدك على ربك، يا آل بيت النبي، يا آل طه عليكم حملتي، يا رجال الله نحن في حسبكم نحن في جيرتكم، راعونا يا أسيادي.

وذلك مثل قول النصارى: يا أمنا الحنون، يا أمنا العذراء يا عيسى. ومن التوسل الذي هو من قبيل الشرك الأصغر ما اعتاد عليه عامة المسلمين منذ قرون طويلة أن يقولوا في دعائهم: اللهم بحق نبيك، أو بجاهه، أو بقدْره عندك، عافني واعف عني، واللهم إني أسألك بحق البيت الحرام، أن تغفر لي، واللهم بجاه الأولياء والصالحين، أو بجاه فلان وفلان، أو اللهم بكرامة رجال الله عندك، وبجاه من نحن في حضرته، أو اللهم إنا قد بسطنا إليك أكف الضراعة متوسلين إليك بصاحب الوسيلة والشفاعة أن تنصر الإسلام والمسلمين، ويسمون هذا توسلا، ويدّعون أنه سائغ ومشروع، وأنه قد ورد فيه بعض الآيات والأحاديث التي تقره وتشرعه، بل تأمر به وتحض عليه .

• ما هي أنواع التوسل المشروع التي نص عليها الكتاب والسنة؟

شرع الله لنا أنواعا من التوسلات التي تكفل الله بإجابة الداعي بها، إذا توفرت شروط الدعاء الأخرى، وقد دلت النصوص النقلية أن هناك ثلاثة أنواع للتوسل، شرعها الله تعالى وحث عليها، ورد بعضها في القرآن، واستعملها الرسول ﷺ وحض عليها، وليس في هذه الأنواع التوسل بالذوات، أو الجاهات، أو الحقوق، أو المقامات، فدل ذلك على عدم مشروعيته، أما الأنواع المشار إليها من التوسل المشروع فهي:

النوع الأول: هو التوسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه الحسنى، أو صفة من صفاته العليا: كأن يقول المسلم في دعائه: اللهم إني أسألك بأنك أنت الرحمن الرحيم اللطيف الخبير أن تعافيني، وهذا دعاء المسألة، أو يقول: أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحمني وتغفر لي، ومثله قول القائل: اللهم إني أسألك بحبك لمحمد ﷺ، فإن الحب من صفاته تعالى، ودليل مشروعية هذا التوسل قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف:١٨٠. والمعنى ادعوا الله تعالى متوسلين إليه بأسمائه الحسنى، ولا شك أن الصفات داخلة في هذا الطلب، لأن أسماءه الحسنى تدل عليها بالتضمن واللزوم.

النوع الثاني: التوسل إلى الله تعالى بعمل صالح قام به الداعي، كأن يقول المسلم: اللهم بإيماني بك، ومحبتي لك، واتباعي لرسولك اغفر لي، أو يقول: اللهم إني أسألك بحبي لمحمد ﷺ، وإيماني به أن تفرج عني، ومنه أن يذكر الداعي عملا صالحا ذا بال فيه خوفه من الله سبحانه، وتقواه إياه، وإيثاره رضاه على كل شيء، وطاعته له جل شأنه، ثم يتوسل به إلى ربه في دعائه، ليكون أرجى لقبوله وإجابته، وهذا توسل جيد وجميل قد شرعه الله تعالى وارتضاه. ويدل على

مشروعيته قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ آل عمران:١٦.

وكذلك يدل على مشروعية هذا النوع من التوسل ما تضمنته قصة أصحاب الغار حينما اشتد بهم الكرب، وضاق بهم الأمر، ويئسوا من أن يأتيهم الفرج من كل طريق إلا طريق الله تبارك وتعالى وحده، فلجئوا إليه، ودعوه بإخلاص، واستذكروا أعمالا لهم صالحة كانوا تعرفوا فيها إلى الله في أوقات الرخاء، راجين أن يتعرف إليهم في أوقات الشدة، فتوسلوا إليه سبحانه بتلك الأعمال.

النوع الثالث: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح كأن يكون المسلم في ضيق شديد، أو تحل به مصيبة كبيرة، ويعلم من نفسه التفريط في جنب الله تبارك وتعالى، فيجب أن يأخذ بسبب قوي إلى الله، فيذهب إلى رجل يعتقد فيه الصلاح والتقوى، أو الفضل والعلم بالكتاب والسنة، فيطلب منه أن يدعوا له ربه، ليفرج عنه كربه، ويزيل عنه همه، فهذا نوع آخر من التوسل المشروع الذي دلت عليه السنة المطهرة وأرشدت إليه.كما صح عن أنس ﷺ أن عمر بْن الخطّابِ كان إِذا قحطُوا اسْتسْقى بِالعبّاسِ فقال: اللهمّ إِنا كُنا نتوسّل إِليْك بِنبِيِّنا فتسْقِينا، وإِنا نتوسّل إِليْك بِعمِّ نبِيِّنا فاسْقِنا، قال: فيُسْقوْن[1].

• اذكر أمثلة لأنواع الشرك الأصغر المتعلقة باللسان؟

الشرك الأصغر المتعلق بقول اللسان هو كالحلف بغير الله، لأن فيه تشبيه للمخلوق بالخالق في التعظيم. قال رسول الله ﷺ يقول: (من حلف بِغيرِ الله،

(١) البخاري في فضائل الصحابة، باب ذكر العباس ﷺ ٣/ ١٣٦٠ (٣٥٠٧).

فقد كفر أَوْ أَشْرك) [١]. واحترازا من الوقوع في الشرك بالله فقد شدد النبي ﷺ في نهيه عن الحلف بغير الله، أو تعاطي اللسان لغير ذلك من الشرك في الألفاظ، وإن لم يقصد المتكلم بها معنى لا يجوز، بل ربما تجري على لسانه من غير قصد، وقد كان السلف الصالح يحتجون بما نزل في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر؛ لأن الكل شرك، وأجمع العلماء على أن اليمين لا تكون إلا بالله أو بصفاته، وأجمعوا على المنع من الحلف بغيره. واختار ابن مسعود ﷺ أن يحلف بالله كاذبا ولا يحلف بغيره صادقا، فهذا يدل على أن الحلف بغير الله أكبر من الكذب، مع أن الكذب من المحرمات في جميع الملل، فدل ذلك على أن الحلف بغير الله من أكبر المحرمات. والجمهور على أن قوله ﷺ في الحالف بغير الله، فقد كفر أو أشرك، أنه لا يكفر كفرا ينقله عن الملة لكنه من الشرك الأصغر.

ومن الشرك الأصفر الاستسقاء بالأنواء، وهي منازل القمر التي يظهر على أثرها حركة المد والجذر، وحركات الأمواج في البحار وما يتبعها من الرياح، وكانت العرب تزعم أن مع حدوث منزلة من منازل القمر يكون مطرا وينسبون نزوله إليها، فيقولون مطرنا بنوء كذا، فأبطل النبي ﷺ ذلك بأن المطر إنما يقع بإذن الله لا بفعل الكواكب، وإن كانت العادة جرت بوقوع المطر في ذلك الوقت، لكن بإرادة الله تعالى وتقديره، لا صنع للكواكب في ذلك.

ومن الشرك الأصفر شرك الألفاظ الذي يتناقله عامة المسلمين بسبب الجهل كقولهم: ما شاء الله وشئت، أنا تبت لله ولفلان، أنا متوكل على الله وعليك، أرجو الله وفلانا، أنا في حسب الله وحسبك، لولاك لضعنا، لولا الكلب في الدار لسرقنا، هذا من الله ومنك، ما لي إلا الله وأنت، الله لي في السماء وأنت لي في

(١) انظر السلسلة الصحيحة (٢٠٤٢).

الأرض، وغير ذلك من الألفاظ الشركية. وكذلك من الشرك الأصغر سب الدهر كقولهم: يا خيبة الدهر، فعل بنا كذا وكذا، فيسندون أفعال الله وتعالى إلى الدهر ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله ﷻ. وكانت العرب من شأنها أن تذم الدهر وتسبه عند المصائب التي تنزل بهم من موت، أو هرم أو تلف أو غير ذلك، فيقولون: إنما يهلكنا الدهر وهو الليل والنهار، ويقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، فيجعلون الليل والنهار يفعلان الأشياء، فيذمون الدهر بأنه الذي يفنيهم ويفعل بهم، وهذا شرك أصغر.

- **اذكر أمثلة لأنواع الشرك الأكبر المتعلق بالجوارح؟**

لما كان أصل الإيمان والتوحيد كائنا في القلب، وهو مركب من علم القلب واعتقاده، واستعداده للعمل بإخلاص لله وحده، فلا بد أن يظهر موجبه وأثره على الجوارح، فكذلك الشرك أصله اعتقاد في القلب، ولا بد أن يظهر موجبه وأثره على الجوارح في الأعمال الظاهرة، لأن القلب في علاقته بالجوارح كعلاقة الملك بجنوده. وعلى ذلك فإن الغلو في الصالحين ورفعهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله إياها بشرف الافتقار إلى الله بالعبودية إلى ما لا يجوز إلا لله وحده من معاني الربوبية؛ ظهر أثره بالضرورة على اللسان والجوارح، وبدا واضحا فيما اعتاده العامة من الاستغاثة بهم في الشدائد، والطواف بقبورهم، والتبرك بتربتهم، وذبح القرابين لأضرحتهم، وطلب المدد منهم، وقد أدخل الشيطان شبهات الشرك على قوم نوح من باب الغلو في الصالحين.

١ - النذر لغير الله من الشرك الأكبر المتعلق بالجوارح، فالنذر عبادة وقربة إلى الله، ولهذا مدح الله الموفين به، فإن نذر لمخلوق تقربا إليه ليشفع له عند الله ويكشف ضره ونحو ذلك فقد أشرك في عبادة الله تعالى غيره ضرورة، كما أن

من صلى لله وصلى لغيره فقد أشرك، كذلك النذر للموتى من الأنبياء والمشايخ وغيرهم، أو النذر لقبورهم، أو المقيمين عند قبورهم فهو نذر من قبيل الشرك والمعصية لله تعالى، سواء كان النذر نفقة أو ذهبا أو غير ذلك وقد ينذرون أولادهم للمقبور ويسيبون له السوائب من البقر والغنم وغيرها كما كان المشركون يسيبون السوائب لطواغيتهم، وهو شبيه بمن ينذر للكنائس والرهبان وبيوت الأصنام، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه[1].

٢- السجود لغير الله كقبور الموتى وأضرحتهم من الشرك الأكبر، فالسجود أشرف أنواع العبادات وأعلاها درجة، وهي عبادة الملائكة والسماوات والأرض وجميع المخلوقات، وقد أجمعت الأمة على أن السجود لا يكون إلا لله، وأن من سجد لغيره فقد أشرك بالله، لأن حقيقة الشرك هي صرف شيء مما لا تجوز إلا لله لغيره، فمن صرف شيئا من العبادة صلاة أو صياما أو نذرا أو طوافا أو غير ذلك من شؤون العبادات والقربات لغير الله فقد كفر وأشرك شركاً أكبر ينقله عن ملة الإسلام. وكان رسول الله ﷺ يحذر أصحابه وسائر أمته من سوء صنيع الأمم قبله، الذين صلوا إلى قبور أنبيائهم واتخذوها قبلة ومسجداً، كما صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون إليها ويعظمونها، وذلك الشرك الأكبر، فكان النبي ﷺ يخبرهم بما في ذلك من سخط الله وغضبه، وأنه مما لا يرضاه خشية عليهم امتثال طرقهم.

٣- الطواف بقبور الموتى وأضرحتهم من الشرك الأكبر، فقد أمر الله خليله إمام الحنفاء الذي أمره ببناء البيت ودعا الناس إلى حجه أن يطهر بيته

(١) البخاري في الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة ٦/ ٢٤٦٣ (٦٣١٨).

للطائفتين والعاكفين والقائمين والركع السجود. فذكر ثلاثة أنواع، الطواف والعكوف والركوع، وقدم الأخص فالأخص، فان الطواف لا يشرع إلا بالبيت العتيق باتفاق المسلمين، ولهذا اتفقوا على ضلال من يطوف بغير ذلك مثل من يطوف بالصخرة، أو بحجرة النبي ﷺ، أو بالمساجد المبنية بعرفة، أو منى، أو غير ذلك، أو بقبر بعض المشايخ، أو بعض أهل البيت كما يفعله كثير من عامة المسلمين؛ فان الطواف بغير البيت العتيق لا يجوز باتفاق المسلمين، بل من اعتقد ذلك دينا وقربة عُرِّف أن ذلك ليس بدين باتفاق المسلمين، وأن ذلك معلوم بالضرورة من دين الإسلام؛ فإن أصر على اتخاذه دينا قتل.

والطواف بالقبور شرك ومحادة لأمر الله وأمر رسوله، لأن الله أمر بالطواف ببيته فقط أما الطواف بقبر فليس من شعائر الله بل فيه تشريع ما لم يأذن به الله، وتعظيم غيره بها لم يُشرع إلا لتعظيمه وهو الطواف.

٤- الذبح لغير الله من الشرك الأكبر المتعلق بالجوارح، روى مسلم من حديث علي أن النبي ﷺ قال: (ولعن الله من ذبح لغيْرِ الله) [١]. والذبح يشمل كل ما يمكن ذبحه من صغير وكبير من بهيمة الأنعام وغيرها، وقوله ﷺ لغير الله يشمل كل من سوى الله حتى لو ذبح لنبي أو ولي أو ملك أو جني أو غيرهم، لأنه مما أهل لغير الله به.

ومن صور الشرك أن يأخذ الذبيحة حية ويذبحها عند النصب المبنية على قبور الصالحين في الموالد وغيرها ولحمها محرم، لأنها مما أهل لغير الله به، وكذلك من ذبحها في بيته ونيته معقودة للضريح كما يفعل الجهال من الناس بأن

(١) مسلم في الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ٣/ ١٥٦٧ (١٩٧٨).

يقيم ليلة لأهل الله من الأقطاب والأوتاد والأبدال حسب زعمهم، وأيضا من ذبح في بيته ثم أخذ الطعام ليأكل عند ضريح الميت كمن يذهب في آخر جمعة من رمضان والتي يطلقون عليها اسم الجمعة اليتيمة، ثم يرقصون عندها بعد المغرب، وينشدون قصائد الشرك المنمق، فهذا كله مما أهل لغير الله به.

• اذكر أمثلة لأنواع الشرك الأصغر المتعلق بالجوارح؟

الشرك الأصغر في أعمال الجوارح هو كل وسيلة توقع في الشرك الأكبر، وهو قائم على قوة اعتقاد القلب في غير الله، وصرف النية والقصد لمن سواه، والناس يتفاوتون في مدارك الشرك بحسب قوة الاعتقاد في غير الله، وما يتبع ذلك من أعمال الجوارح، فقد يكون فعل الجوارح شركا أكبر ينافي أصل التوحيد ويخرج من الملة، وقد يكون شركا أصغر ينافي كمال التوحيد ولا يخرج عن الملة، بل حكمه حكم الكبائر.

وهناك أشياء مترددة بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر بحسب ما يقوم بقلب فاعلها، وما يصدر عنه من الأفعال والأقوال، ويقع فيها بعض الناس، قد تتنافى مع العقيدة أو تعكر صفوها، وهي منتشرة بين عامة المسلمين، ومن هذه الأمور الرقى الشركية والتمائم التي تعلق على الأشخاص كالخرز والعظام والودع، ولبس الحلقة، والخيط والنعال والمسامير، وأسماء الشياطين والجن والطلاسم، فهذا محرم قطعا وهو من الشرك، والواجب على المسلم المحافظة على عقيدته مما يفسدها أو يخل بها، فلا يتعاطى إلا الأسباب الصحيحة المشرعة، لا الأسباب المبتدعة من الكهنة والعرافين والمنحرفين التي تمرض القلب، وتهدم عقيدة التوحيد، ويظل الخوف في قلبه قائما يخاف من العين والحسد، أو يعلق تميمة على سيارته، أو دابته، أو باب بيته، أو دكانه، وهذا كله

من ضعف العقيدة، وهو المرض الحقيقي الذي يجب علاجه بمعرفة التوحيد.

ومن الشرك الكهانة والتنجيم، وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية؛ كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار، أو حدوث الأمراض والوفيات والسعادة والنحس، وهذا ما يسمى بعلم التأثير .

• هل يمكن أن يتجسد الشيطان للإنسان وعبّاد الأوثان؟

من الأمور التي لابد من التنبيه عليها؛ أنه في كثير من الأحيان يتصور الشيطان بصورة المدعو المنادى المستغاث به إذا كان ميتا، وكذلك قد يكون حيا ولا يشعر بالذي ناداه، بل يتصور الشيطان بصورته؛ فيظن المشرك الضال المستغيث بذلك الشخص أن الشخص نفسه أجابه، وإنما هو الشيطان، وهذا يقع للكفار المستغيثين بمن يحسنون به الظن من الأموات والأحياء كالنصارى المستغيثين بجرجس والعذراء، ويقع لأهل الشرك والضلال من المنتسبين إلى الإسلام الذين يستغيثون بالموتى والغائبين، فقد يتصور لهم الشيطان في صورة ذلك المستغاث به وهو لا يشعر[١].

وربما يستخدم الإنسان الجن والشيطان في إحضار بعض ما يطلبونه من مال وطعام وثياب ونفقة، فقد يأتون ببعض ذلك وقد يدلونه على كنز وغيره، وهذا من استمتاع الجن بالإنس واستعمالهم فيما يريده الشيطان من كفر وفسوق ومعصية. قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٩/ ٤٧ بتصرف.

ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾ الأنعام:١٢٨/ ١٣٠.

وكثير من الناس رأى من قال إني أنا الخضر، وإنما كان شيطانا جنيا، ثم صار من الناس من يكذب بهذه الحكايات إنكارا لموت الخضر، والذين قد عرفوا صدقها يقطعون بحياة الخضر وكل من الطائفتين مخطئ؛ فإن الذين رأوا من قال إني أنا الخضر هم كثيرون صادقون والحكايات متواترة لكن أخطئوا في ظنهم أنه الخضر، وإنما كان جنيا، ومثل هذا يجري لليهود والنصارى؛ فكثيرا ما يأتيهم في كنائسهم من يقول أنه الخضر، وكذلك اليهود يأتيهم من يقول أنه الخضر، وقد يقول أنا المسيح أو موسى أو محمد أو أبو بكر أو عمر أو الشيخ فلان، فكل هذا قد وقع.

والأدلة على أن الشيطان قد يتشكل في أجسام مرئية ما حدث من وقائع كثيرة على عهد النبوة ورد ذكرها في الروايات الصحيحة، منها حديث أبي السائب وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما في تجسد الشيطان في صورة حية، وحديث أبي هريرة ﷺ لما وكله النبي ﷺ بحفظ زكاة رمضان، وتجسد له الشيطان في صورة إنسان، وكذلك تجسد العفريت الذي أراد النبي ﷺ أن يربطه في سارية المسجد النبوي لما قطع عليه صلاته.

• ما حكم اتخاذ القبور مساجد وهل تصح الصلاة فيها؟

من أعظم مكايد الشيطان ما أوحاه إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور حتى عبدت من دون الله، واتخذت أوثانا، وبنيت عليها الهياكل والمساجد، وصورت فيها صور أربابها، ثم جعلت تلك الصور أجسادا لها ظل، ثم جعلت أصناما وعبدت مع الله تعالى. روى البخاري من حديث عائشة أن أم سلمة ذكرت

لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور فقال رسول الله ﷺ: أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى(١).

وهذه العلة التي لأجلها نهى الشرع عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيرا من الأمم، إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، فنجد أهل الشرك كثيرا ما يتضرعون عندها، ويخشعون ويخضعون، ويعبدونهم بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقا سدا للذريعة، كما أن الرجل إذا قصد الصلاة عند القبور متبركا بها في تلك البقعة، فهذا عين المحادة لله ولرسوله، والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن به الله تعالى، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله ﷺ أن الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه لعن من اتخذها مساجد، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها، واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها، وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك، والتغليظ فيه(٢).

روى مسلم من حديث جندب بن عبد الله ﷺ أنه قال: (سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذا من أمتي

(١) رواه البخاري في أبواب المساجد، باب الصلاة في البيعة ١/ ١٦٧ (٤٢٤).

(٢) السابق ص١٨٥ بتصرف.

خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) »[١].

• ما حكم إقامة الموالد والأعياد عند قبور الصالحين؟

تحرم إقامة الموالد والأعياد عند قبور الصالحين، فقد أوقع الشيطان كثيرا من الناس في تعظيم غير الله وتقديسه باتخاذ قبره عيدا، والعيد ما يعتاد مجيئه وقصده من مكان وزمان، وعند أبي داود وصححه الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تَجْعلوا بُيُوتكُمْ قُبُورًا ولا تجْعلوا قبْرِي عِيدًا وصلوا عليّ فإِن صلاتكُمْ تبْلغُني حيْثُ كُنتمْ) »[٢].

والعيد مأخوذ من المعاودة والاعتياد فإذا كان اسما للمكان فهو المكان الذي يقصد الاجتماع فيه وانتيابه للعبادة أو لغيرها كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله تعالى عيدا للحنفاء ومثابة كما جعل أيام التعبد فيها عيدا.قال رسول الله ﷺ: (يوم عرفة ويوم النحر وأيام منى عيدنا أهل الإسلام) »[٣].

وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة البيت الحرام وعرفة ومنى والمشاعر، فاتخاذ القبور عيدا هو من أعياد المشركين التي كانوا عليها قبل الإسلام، وقد نهى رسول الله ﷺ أن يتخذ قبره عيدا وهو سيد القبور، فقبر غيره أولى بالنهي كائنا من كان، ثم إن في اتخاذ

---

(١) مسلم في المساجد، باب النهى عن بناء المساجد على ١/ ٣٧٧ (٥٣٢).
(٢) أبو داود في المناسك، زيارة القبور ٢/ ٢١٨ (٢٠٤٢)، صحيح الجامع (٧٢٢٦).
(٣) انظر إرواء الغليل ٤/ ١٣٠ .

القبور أعيادا من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله تعالى ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار لله تعالى وغيرة على التوحيد، فمن مفاسد اتخاذها أعيادا والصلاة إليها، والطواف بها، وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود على ترابها، وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم وسؤالهم النصر والرزق والعافية، وقضاء الديون وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم.

- **كيف يمكن التمييز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؟**

الولاية ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد، وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين هم أولو العزم. قال الله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ ﴾ الشورى:١٣.

وأفضل أولي العزم محمد ﷺ خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء الذي بعثه الله بأفضل كتبه، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وقد جعل الله صراطه المستقيم فارقا بين أوليائه وأعدائه، فلا يكون وليا لله إلا من آمن به وبمنهجه في الحياة، واتبعه ظاهرا وباطنا عن محبة وإخلاص لله، ومن ادعى محبة الله وولايته ولم يتابع نبيه ورسالته ﷺ فليس من أولياء الله؛ بل من خالفه كان من أعداء الرحمن وأولياء الشيطان. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران:٣١/ ٣٢.

وكثير من الناس يظنون في أنفسهم، أو يظنون في غيرهم أنهم أولياء الله، ودعواهم باطلة، على شاكلة اليهود والنصارى الذين يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه، وكان المشركون من العرب يدعون أنهم أهل الله لسكناهم مكة ومجاورتهم البيت الحرام، وكانوا يستكبرون به استعلاء على غيرهم.

قال الله تعالى في شأنهم: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤)﴾ الأنفال:٣٣/ ٣٤. فبين سبحانه أن المشركين ليسوا أولياءه، ولا أولياء بيته، إنما أولياؤه هم المتقون.

وكم احتج سدنة القبور عند البدوي، والدسوقي، وأبي العباس المرسي، وابن تميم المِنْزلاوي، وأبي الحسن الشاذلي، والغريب السويسي، وابن الرفاعي والعيدروسي، والعدوي، والبرهاني، والبسطويسي، وغيرهم الكثير والكثير، كم احتج الصوفية على المنكرين لأفعالهم وأقوالهم الشركية في تقديس هؤلاء، وتعظيمهم كتعظيم من في السماء بقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ يونس:٦٢.

وقد بين الله تعالى أن لله أولياء من الناس، وللشيطان أولياء، ففرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان. فقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يونس:٦٢/ ٦٤.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

ﭐلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة:٢٥٧. وذكر الله أولياء الشيطان فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ النساء:٧٦.

ولما كان في الناس أولياء للرحمن وأولياء للشيطان، فيجب على كل مسلم أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء، كما فرق الله ورسوله بينهما، فأولياء الله كما جاء في القرآن هم المؤمنون المتقون، وأولياء الشيطان هم المشركون الكافرون، والفاصل بينهما هو اتباع الصراط المستقيم، وطريقة سيد الأنبياء والمرسلين.

الفصل الرابع
أركان الإيمان وأنواع الكفر

• بين كيف أن الإيمان بالله لا يصح إلا بنفي ضده من الكفر؟

قال الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦ ﴾ البقرة:٢٥٦. من شروط لا إله إلا الله التي لا يصح إيمان الإنسان إلا به، الكفر بما يعبد من دون الله، فالتوحيد لا يتحقق إلا بنفي وإثبات، والمقصود نفي صفات الإلوهية عما سوى الله، وإثبات العبادة لله وحده، فلا يتم التوحيد حتى يشهد أنه لا إله إلا الله، وأنه لا معبود بحق سواه، والعروة الوثقى هي عروة الإسلام وكلمة التوحيد، والمسلم بقوله لا إله إلا الله قد عهد عهدا على نفسه، وعقد في قلبه عقدا أنه سيسلم نفسه لربه، ولن يطيع أحدا في معصيته، ولن يتحاكم إلا إلى شرعه وما أمر الله به في كتابه وصح في سنة نبيه ﷺ.

وقد بين رسول الله ﷺ أن الكفر بما يعبد من دون الله، شرط لازم من شروط لا إله إلا الله أو شرط لتحريم ماله ودمه، فقد روى الإمام مسلم من حديث أبي مالك الأشْجعي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (من قال لا إِله إِلا الله، وكفر بِما يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله حرُم مالهُ ودمُهُ وحِسابُهُ على الله) [1].

---

(١) مسلم في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ١/ ٥٣ (٢٣).

والكفر بما يعبد من دون الله يقتضي البراءة من الكفر، وعدم موالاة أعداء الله وأعداء المؤمنين الذين يبغضون الإسلام والمسلمين، ويسارعون في إيذائهم ومعاونة أعدائهم من أتباع ملل الكفر المختلفة كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ آل عمران: ٢٨.

لقد كان المشركون في الجاهلية يعلمون أن شرط الإيمان بدعوة محمد ﷺ إلى لا إله إلا الله، وتوحيد العبادة لله، تستلزم الكفر بما يعبد من دون الله، وأن الإقرار بها يحتم كامل الموالاة لله ورسوله ﷺ، ولذلك لما طلب رسول الله ﷺ من عمه أبي طالب أن ينطق بكلمة التوحيد وهو يحتضر، لم يطاوعه لسانه أن ينطق بلا إله إلا الله لعلمه بلوازمها، وفي المقابل انتصر لدين الآباء المشركين، وأبى أن يكفر باللات والعزى، فهم كانوا يعلمون أن شرط التوحيد والإيمان هو البراءة من الشرك، والكفر بما يعبد من دون الله.

• بين كيف أن شرط القبول والانقياد ينفي كفر الإعراض؟

القبول الذي هو شرط الإيمان وتوحيد العبادة لله ﷻ هو ما ينافي الإعراض والرد، وهو القبول الذي يحرك القلب واللسان والجوارح في الإنسان ليأخذ بمقتضى هذا الإيمان، فيرضاه لنفسه وأهله، ويحبه ويدافع عنه، فيصدق الخبر ويتبع الأمر، ويلزم أحكام العبودية التي جاء بها الشرع، فالقبول الذي ينافي الرد هو في حقيقته الرضا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، فلا يكذّب خبر ربه، ولا يتواني في تنفيذ أمره، ولا يعترض على حكمته وحكمه، ولا يخالف سنة نبيه ﷺ، ويتخذ منهج الإسلام منهجا له في الحياة.

وأصول الإيمان جميعها تقوم على القبول والانقياد، وأصول الكفر التي تقابلها تقوم على التولي والإعراض، وأساس ذلك كله إيمان القلب وقبوله للحق وانقياده له، أو كفره وتوليه وإعراضه عنه، فإرادة القلب محركة للبدن ولا بد، وهي مصدر أفعال الإنسان، وأساس النيات، وعلة الرغبات، وباعث القصود والاختيارات، وسائر ما يقع في الجوارح من الحركات والسكنات، سواء كانت تلك الحركات والسكنات داخلية في ذات الإنسان، أو خارجية في حركة الأبدان، فالقلب كما ورد في النص النبوي مضغة في الجسد، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ومن ثم فإن القلب بدوره الفعال، إليه مرجع اكتساب الخير والشر من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، ولا بد لكل مسلم من إدراك هذه المقدمة.

ولما كان القبول القائم بالقلب هو أساس الإيمان، وهو العلة في صلاح الإنسان، فإن الكفر أو التولي والإعراض القائم بالقلب هو أساس الكفر بجميع أنواعه، ومن ثم فإن جميع أنواع الكفر يصدق عليها أن تسمى كفر التولي والإعراض، وعليه فإن كفر الإعراض ليس نوعا مستقلا في مقابل أنواع الكفر الأخرى كما ذكر البعض في تقسيماته للكفر، وإنما هو وصف قائم ونعت ملازم لجميع أنواع الكفر، لأن الكفر في حقيقته هو التولي والإعراض.

ولما كانت أصول الإيمان ترجع إلى بابين أساسيين هما تصديق الخبر، وتنفيذ الطلب، لأنهما بابان كبيران يتعلقان بلغة التخاطب ونوعي الكلام في بني الإنسان، بل هما أساس جميع اللغات، ومنها لغة الوحي والقرآن، فإن أصول الكفر ترجع أيضا إلى بابين أساسيين أو أصلين جامعين:

الأصل الأول: هو التكذيب بالخبر أو الشك فيه، أو بعبارة أخرى هو

الإعراض عن تصديقه على وجه اليقين وذلك بوجود التكذيب أو الشك فيه، وقد علمنا أن الخبر هو ما يحتمل التصديق أو التكذيب، وخبر الله يتطلب التصديق الذي يبلغ حد اليقين حتما، لأن اليقين شرط دخول الإنسان في الإسلام، ولا بد أن ينفي التكذيب والشك، فمراتب التصديق بخبر الله ورسوله ﷺ على ستة أنواع، ثلاثة منها لغير المسلمين، وثلاثة للمسلمين على تنوع أهل اليقين، فأما الثلاثة التي لغير المسلمين فهي مرتبة الوهم، ثم مرتبة الشك، ثم مرتبة الظن، ودائما ما يذكر الشك نيابة عن ذكر هذه الثلاثة. وأما الثلاثة التي للمسلمين فلا بد فيها من اليقين كشرط لازم من شروط لا إله إلا الله، وهي مرتبة علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، والمسلم لا يكون مسلما إلا بعلم اليقين، ولا يخرج عن اليقين، ولا يمكن أن ينزل إلى درجة الظن، أو الشك، أو الوهم.

الأصل الثاني: الذي ترجع إليه أصول الكفر هو التولي والامتناع عن تنفيذ الطلب، أو بعبارة أخرى هو الإعراض عن الخضوع والانقياد، وقد علمنا أيضا أن الأمر هو ما لا يحتمل الصدق أو الكذب، وإنما يتطلب التنفيذ ويوجب الامتثال، وأمر الله ﷻ يتطلب التنفيذ والطاعة والخضوع والانقياد بالقلب واللسان والجوارح، تنفيذا ينافي في المقابل التولي والإعراض والطغيان، أو بعبارة أخرى ينافي الكفر والفسوق والعصيان الواقع من القلب واللسان والجوارح.

وقد علمنا أن الإيمان في باب الأخبار له ستة أركان وردت في حديث عمر ين الخطاب رضي الله عنه حيث قال رسول الله ﷺ في جوابه لما سأله جبريل عليه السلام فقال: فأَخْبِرْنِي عنِ الإيمان؟ قال: أَنْ تؤْمِن باللهِ وملائِكتهِ وكُتُبهِ ورُسُلهِ واليوْمِ الآخِرِ

وتؤْمِن بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ، وقد صدقه جبريل عليه السلام على هذه الأركان الستة.

وجميع هذه الأركان الستة للإيمان تتعلق بتصديق الأخبار، وما جاء في القرآن والسنة عن عالم الغيب، والإيمان بهذه الأركان الستة يمثل عند السلف والمتبعين لنهجهم من أهل السنة توحيد العلم والخبر، أو توحيد المعرفة والإثبات، أو توحيد الوسيلة في الإيمان بالربوبية والأسماء والصفات وسائر الغيبيات. وقد أخبرنا الله في كثير من النصوص عن الأسماء والصفات التي عرفنا فيها بنفسه، وأبان لنا عن وصفه، وكل ذلك من الغيبيات التي تتطلب التصديق بشرط اليقين، وأخبرنا عن ملائكته وخلقتهم ووصفهم وفعلهم ودورهم الذي يتعلق بالإنسان، وذلك يتطلب منا الإيمان بهم والتصديق بوجودهم وعظمة دورهم، وكذلك أخبرنا عن كتبه ورسله، ما علمنا منهم وما لم نعلم، وليس لنا إلا الإيمان بهم والتصديق بوجودهم، وعقد القلب على اتباعهم، وأخبرنا عن اليوم الآخر وما فيه من أحوال وأهوال، وتلك الأخبار تتطلب التصديق أيضا، وأخبرنا عن القدر خيره وشره، وحلوه ومره، وأنه فعل الله عز وجل للابتلاء في الدنيا، وترتيب الجزاء في الآخرة ليقع المقدور في النهاية وفق سابق التقدير عند البداية.

وكما أن الإيمان له في باب الأخبار ستة أركان، كذلك فإنه له ثلاثة أركان في باب الأوامر، وهي اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان وجميعها يتعلق بتنفيذ الأمر وتحقيق المطلوب، والسعي في الطاعة طمعا في رضا المحبوب، وهذا يمثل عند السلف الصالح والمتبعين لنهجهم من أهل السنة والجماعة حقيقة الإسلام بأركانه الخمسة، وتوحيد العبودية لله عز وجل، أو توحيد القصد والطلب، أو توحيد الغاية، أو توحيد الشرع والإرادة، أو توحيد

الإلوهية.

• ما هي أصول الكفر وأنواعه وتقسيماته المتعلقة بالخبر والطلب؟

إذا دققنا النظر وحققنا الأمر في أصول الإيمان المتعلقة بباب الخبر، وكذلك أصول الإيمان المتعلقة بباب الأمر، وجدنا أن أركان الكفر المتعلقة بالإعراض عن تصديق الخبر تنحصر في نوعين اثنين كل منهما متردد بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر، وهما كفر التكذيب بخبر الله ورسوله، فقد يكون كفرا أكبر إذ خلا القلب من اليقين، وقد يكون كفرا أصغر إذا اقترن بشبهة الرد والتعطيل. والثاني: كفر الشك وقد يكون أيضا كفرا أكبر إذ خلا القلب من اليقين، وقد يكون كفرا أصغر إذا اقترن بشبهة كالتأويل بغير دليل على اختلاف درجاته، قلّت أو كثرت.

وكذلك فإن أركان الكفر المتعلقة بالإعراض والتولي عن تنفيذ الأمر تنحصر في أربعة أنواع متردد بين الأكبر والأصغر، وهي كفر الجهل المبني على الإعراض عن تنفيذ الأمر بطلب العلم وانتفاء علم القلب، وكفر النفاق المبني على الإعراض عن تنفيذ الأمر بالإخلاص لله والحب وانتفاء عمل القلب، وكفر الجحود المبني على الإعراض عن تنفيذ الأمر بشهادة التوحيد والنطق بالحق وانتفاء قول اللسان، وكفر العناد والاستكبار المبني على الإعراض عن تنفيذ الأمر بالخضوع والطاعة وانتفاء عمل الجوارح، وبهذا تكون جميع أنواع الكفر التي يمكن أن تقع من الإنسان مقابلة لجميع أصول الإيمان، وأركانه المتعلقة بتصديق الخبر، وتنفيذ الطلب.

وهذا التقسيم المتعلق بتنفيذ الطلب يتوافق مع اعتقاد السلف القائم على

أن الإيمان قول وعمل في الظاهر والباطن، وأن الإيمان الباطن هو ما يقوم به القلب من دور في الإنسان هو القول والعمل، أو ما يسمى بعلم القلب وعمل القلب، والذي عبر عن مجموعهما عند السلف بمصطلح تصديق القلب، أو مصطلح اعتقاد بالجنان، أو مصطلح اليقين وأساس الإيمان، كما أن الإيمان الظاهر هو قول اللسان وعمل الجوارح، فلما كانت أصول الإيمان باعتبار تنفيذ الأمر لا تخرج عن هذه الأركان الأربعة، فإن أصول الكفر كذلك لا تخرج عن أربعة أركان تقابلها، وهي كفر الإعراض عن العلم ويسمى كفر الجهل، وكفر الإعراض عن الإخلاص والحب ويسمى كفر النفاق، وكفر الإعراض عن شهادة الحق ويسمى كفر الجحود، وكفر الإعراض عن الانقياد والطاعة والخضوع ويسمى كفر العناد والاستكبار، وهذه الأربعة أيضا على نوعين، إما كفر أكبر ينفي أصل الإيمان، أو كفر أصغر ينفي كماله كما تقدم.

- **ما المقصود بقول القلب كأول ركن للإيمان في باب الأمر؟**

المقصود بقول القلب عند السلف هو ما قام به من مقومات الاختيار في منطقة حديث النفس، وما فيها من غريزة العقل التي توجه الإنسان إلى منهج الخير أو الشر في اكتساب العلم أو عدمه، فالقلب كما علمنا سلفا فيه منطقتان: منطقة حديث النفس، وقد جعلها الله ﷻ محلا للخواطر والأفكار، وتحتوي علي ركنين نفسيين، ونازعين ذاتيين متقابلين ومتضادين، أحدهما يدعوا إلى التقوى والإيمان، والآخر يدعو إلى الفجور والعصيان، وقد جعل الله ﷻ أيضا ركنين خارجيين من خلال هاتفين قرينين متقابلين ومتضادين، ليس لأحدهما جبر أو غلبة على إرادة الإنسان، الأول هو الملك، والآخر الشيطان، والهاتفان

والنازعان يسهمان في تشكيل القول أو الخواطر في قلب الإنسان خيرها وشرها، وبين النازعين والهاتفين أوجد الله ﷻ عقلا يمثل صمام الأمان، يضبط الأفكار والخواطر في قلب الإنسان، ويميز بين الصدق والكذب في باب الخبر، وبين ما ينفع وما يضر في باب الأمر، ويقيس القلب من خلاله معاني الخير والشر التي يحددها الشرع.

وطلب العلم بأحكام العبودية أو إرادة الله الشرعية التكليفية من وظائف الإرادة، وهي مسئولة عن أجهزة الإدراك البشرية، فجهاز الإدراك في الإنسان يمد القلب بالعلم وما ورد من أدلة الحكم وفق رغبة الإرادة، أو توليها وإعراضها عن الطلب، والقلب هو محل العقل والإرادة معا، فالقلب هو المسئول عن تحصيل العلم وحصوله فيه.

وبيان ذلك أن القلب أساس المعرفة والتمييز لوجود العقل فيه، والعقل يقوم بإدراك نوعين من العلوم، وهما العلم بالأسماء وحدود الأشياء، وثانيهما العلم بمنهج الرسل والأنبياء، فالله ﷻ قد شاء أن يخرج الإنسان من بطن أمه صفحة بيضاء لا يعلم شيئا من الحدود والأسماء، ثم يتعلم حدود الأشياء على فترات، ويكتسب المعرفة على مدار الأوقات كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ النحل:٧٨.

وبعد تحصيل القلب للعلم، وإدراكه للمعرفة والفهم، كلف الله الإنسان بالأحكام الشرعية والتزام منهج العبودية الذي يعود عليه بالصلاح في دنياه والفلاح في أخراه، فقال تعالى:

﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾طه:١٢٣/ ١٢٧ .

والعقل في القلب يقوم بتوجيه من الإرادة على تحصيل المعلومات وجمعها من حواس الإنسان، ثم يحللها ويصنف الحدث المرافق لها ويضيف أحكامه إليها، ثم يخزنها في ذاكرة الإنسان الذي بدوره يقوم باستدعائها حسبما يشاء، والإرادة في القلب محل الكسب في الإنسان، وهي مسئولة مسئولية كاملة عن شحن العقل بالمعلومات، أو تركه خاليا جاهلا أجوفا فارغا.

وإذا كان القبول بلا إله إلا الله يقتضي أن المسلم سيخضع لله عن حب وتعظيم، وطاعة وتسليم، فإنه الله ﷻ إذا أرسل رسالة لعبيده الصادقين في عبادته بين فيها أحكام شريعته وماذا يفعل العباد في أمانته التي خولهم فيها واستخلفهم عليها على وجه الابتلاء؟ فإن كان العبد صادقا في شهادته أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإنه سيبذل ما في وسعه وطاقته لكي يطلع على هذه الرسالة، ويتمكن من قراءتها، ويدقق في مادتها، طالما فيها صلاحه في هذه الحياة، وفيها النجاة من غضب الله، وفيها القرب من حبه ورضاه.

وإذا كان كل عقد بين البشر له قواعد وأحكام، وكان كل إنسان قبل أن يوقع على أي عقد يقرأ شروطه بدقة وإمعان وتحقيق وإتقان، فحري بالمسلم الصادق في إسلامه أن يعرف مضمون عقد التوحيد وشروطه عند دخوله في الإسلام عندما يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ولذلك أوجب الله

علينا سؤال أهل العلم عن جهلنا بالحكم فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ النحل:٤٣.

• ما هي عقيدة أهل السنة والجماعة في العذر بالجهل؟

عقيدة أهل السنة والجماعة في العذر بالجهل أن الجاهل معذور بجهله إن لم يكن الجهل من كسبه وسعيه، فالسبب الذي يؤدي للعذر بالجهل وإسقاطِ المُؤاخذةِ على الوزر ألا يكون الجهل من كسب الإنسان وسعيه، وألا ينعدم العلم في قلبه بسبب تقصيره في طلبه، وعدم تحري السؤال عنه، لأن الله أوجب على جميع المسلمين ذلك فقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ محمد:١٩. وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ الأنبياء:٧.

ومن ثم فإن الإنسان إذا أعرض عن العلم بالرسالة، ولم يرغب في العلم بما يخرجه وينقله من الضلالة إلى الهداية، إما بسبب إعراضه وكبره، أو توليه عن الحق وإيثارا للبقاء على جهله، فإن كفره يسمى كفر جهل وتكذيب كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ النمل:٨٣/ ٨٥. وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ يونس:٣٩.

والجاهل من المسلمين بعد الطلب والسؤال إن لم يصل إلى العلم بالحكم في مسألة ما فهو معذور بجهله في تلك المسألة وحدها، وإن كان محاسبا على غيرها مما ألم بحكمها، فالمسلم قد يجتمع فيه علم وجهل.

• ما حكم من لم تبلغه الدعوة ولم يسمع برسالة الإسلام؟

من لم تبلغه دعوة الإسلام إن وجد، كمن يعيشون في أماكن منعزلة عن الاتصال بوسائل الإعلام، أو من يعيشون في بعض قرى الأدغال أو القارة القطبية، أو سكان الكهوف والجزر النائية الذين لا يفقهون ما يقال لهم من غيرهم، وكذلك من نشأ في مجتمع كافر، ولم تبلغه الدعوة الإسلامية، ولم يسمع أصلا عن شيء اسمه الإسلام، فهؤلاء معذورون بجهلهم.

ويدخل في حكمهم أيضا ممن يعذرون بجهلهم الذين بلغتهم دعوة الإسلام مشوهة، فتعلموا من ذويهم منذ الصبا أن محمدا ﷺ رجلا مدعيا للنبوة، وأنه ليس بنبي ﷺ، ونشئوهم على ذلك، ثم بحثوا عن حقيقة الأمر في شأن الرسول ﷺ وصدقه، وسألوا عن الرسالة ما استطاعوا من جهدهم ووسعهم فلم يصلوا إلى شيء لانقطاع الأسباب عنهم، فهؤلاء معذورون بجهلهم باتفاق.

روى أحمد وصححه الشيخ الألباني من حديث الأسود بن سريع رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: (أربعة يوم القيامة، رجل أصم لا يسمع شيئا، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئا، وأما الأحمق فيقول: رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئا، وأما الذي مات في الفترة، فيقول: رب ما أتاني لك رسول فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما)[1].

---

(١) رواه أحمد ٤/ ٢٤ (١٦٣٤٤)، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (١٤٣٤).

• هل يصح تقسيم الدين إلى أصول وفروع من جهة العذر بالجهل؟

تقسيم الدين إلى أصول لا يعذر بالجهل فيها وفروع يعذر بالجهل فيها تقسيم مبتدع لا دليل عليه، ولا يعرف عن السلف، ولم يذكر أحد ممن قال بذلك حدا منضبطا يمكن به التفريق بين الأصول والفروع، كما أن العذر بالخطأ من جنس العذر بالجهل، لذلك بين أئمة السلف أنه لا يأثم المجتهد المخطئ لا في الأصول ولا في الفروع. ومن ثم فإن ما يتردد بين الراغبين في التمسك بالسنة مما يقال بأن هذه من مسائل العقيدة التي لا يعذر من يجهلها، أو من مسائل الأصول، أو هذه مسألة قطعية لا عذر فيها ونحو ذلك، فإن تعبير غير دقيق وغير منضبط، وإنما هو من أقوال أهل البدع من الأشعرية والماتريدية ومن سبقهم من المعتزلة والجهمية ومن سلك سبيلهم من الفرق الإسلامية.

وهم يعنون بالأصول في أغلب كلامهم أصولهم العقلية التي ابتدعوها ويعنون بالفروع ما ورد في باب الوحي من الأخبار عن الغيبيات وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات والتي يسمونها السمعيات، فالمتكلمون ابتدعوا أصولا وفروعا على أهوائهم ثم سحبوها على كتاب ربهم وسنة نبيه، فالتفريق في العذر بالجهل بين مسائل الأصول والفروع بدعة محدثة في الإسلام، لم يدل عليها كتاب ولا سنة ولا إجماع، بل ولا قالها أحد من السلف والأئمة، فهي باطلة عقلا وشرعا.

• ما هي حالة الكفر الناشئ عن الجهل وانتفاء علم القلب؟

من سمع عن النبي ﷺ وأعرض عنه، ولم يؤمن بالذي أرسل به، فله حالتان، الأولى أن يعرض عنه وعن الإيمان به، وعن طلب العلم برسالته تجاهلا وانشغالا بدنياه، واستحسانا لما هو عليه من أمور الحياة، فلا يعنيه وجود

الرسول ﷺ أو عدم وجوده، لا يصدقه ولا يكذبه، أو يعرض عنه متجاهلا له ولرسالته إيثارا لما ألفه من دين اليهود والنصارى والمجوس والبوذيين وغيرهم من أديان المشركين، وهذا حال أغلب الخلق من الغرب إلى الشرق، ومن شمال الأرض إلى جنوبها، فهؤلاء كفرهم كفر جهل وإعراض عن العلم برسالة الإسلام، وعدم الرغبة في معرفة الحق، وهو كفر أكبر ويصدق عليهم ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ النجم:٢٨/ ٣٠.

وكما أن الإعراض عن العلم بمجمل الرسالة يكون كفرا أكبر مخرجا من الملة، كذلك الإعراض عن العلم ببعضها قد يكون كفرا دون كفر، أو كفرا أكبر بحسب حال المعرض وحكم ما أعرض عنه، كما يقع لكثير من المسلمين في إعراضهم عن العلم بأحكام الدين، وعدم الرغبة في تعلمها، وإيثارا منهم للبقاء على ما هم عليه من الجهل، أو استحسانا للمألوف عن الآباء والأجداد في العادة، أو تفضيلا لطريقة الغرب في نظامهم وسلوكهم ومنهج حياتهم.

وأما الحالة الثانية لمن سمع عن النبي ﷺ وأعرض عنه، ولم يؤمن بالذي أرسل به، أن يعرض عنه تكذيبا له وتكذيبا برسالته، وهذا النوع يشترك مع كفر الجهل في النتيجة، ولذلك يذكران سويا كنوع واحد فيقال كفر الجهل والتكذيب، أما باعتبار السبب في الكفر فكفر الجهل هو أن يسمع بالرسول ورسالته ويعرض عنها، لا يصدقها ولا يكذبها، مستغنيا بما هو عليه مما يدين به، فلا يحرك السماع فيهم ساكنا أو يوقف متحركا.

أما كفر التكذيب فهو أن يسمع بالرسول ﷺ ورسالته ويعرض عنها تكذيبا

لها، أو شكا فيها وفي صدق نبيها، دون العلم بما فيها جملة وتفصيلا، كحال من يحاربون الإسلام في الغرب والشرق ويستهزئون بالنبي ﷺ وأصحابه ﭬ وسائر أتباعه، بل هم منقادون دون سؤال أو تحقيق أو استفسار لتأييد الصورة المشوهة التي صوروا بها نبي الإسلام وتعمدوا نشرها في مجتمعاتهم مستهزئين به وبرسالته ليصدوا عن سبيل الله، فهؤلاء كفار لا يعذرون بجهلهم، وكفرهم كفر جهل وتكذيب، فالجهل هنا من كسبهم وسعيهم ورغبتهم في بقائهم على ملة الكفر والضلال، وقد كان كفر أغلب الأمم السابقة التي حاربت دين الإسلام والتوحيد والفطرة كان كفرهم كفر جهل وتكذيب، وكما كان يفعل كفار قريش في التكذيب بالنبي ﷺ وعدم الرغبة في سماعه، وتنفير الناس من محاولة اتباعه.

- **ما هي حالة أركان الإيمان عند وقوع كفر الجهل والتكذيب؟**

الإيمان عند السلف الصالح أهل السنة والجماعة يدل بالمطابقة على أربعة أركان، وهي علم القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح، وحالة هذه الأركان عند وقوع كفر الجهل والتكذيب أو حالة من سمع عن الحق الذي بعث به النبي ﷺ وأعرض عنه تجاهلا وانشغالا بدنياه، أو تكذيبا له فكان كفره كفر جهل وتكذيب بسبب انتفاء علم القلب بالحق بسبب إعراضه، فإنه ينتفي عمل القلب والإيمان الباطن ضرورة، فلن تجد فيه اعتقادا حقا، ولا إخلاصا لله وصدقا، ولا خوفا من الله، ولا رجاء له ولا حبا، لأن صلاح القلب لا بد فيه من معرفة الحق أولا ثم اتباعه ثانيا، أو اجتماع علم القلب وعمل القلب.

قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ الزمر:١٧/ ١٨.

ومن ثم فإن كفر الجهل والتكذيب ينتج عنه بالضرورة انتفاء عمل القلب واستقامته على الإيمان، وكذلك انتفاء شهادة التوحيد بقول اللسان، وانتفاء عمل الجوارح في طاعة الله بانقياد الأبدان، ومن انتفى عنه علم القلب إعراضا عن طلب الحق كان كفره كفر جهل وتكذيب، وكان كفر الجهل والتكذيب مقدما في الوصف على بقية أنواع الكفر، فهي كفر النفاق، وكفر الجحود، وكفر العناد والاستكبار. وتسمى حالة الكافر بالجهل والتكذيب جهالة وجاهلية.

وكفر الجهل والتكذيب هو أول أنواع الكفر بالله، ومثاله ما فعله كسرى ملك الفرس حين مزق رسالة النبي ﷺ إليه دون تفكر أو استدلال، أو نظر أو سؤال واستفصال. روي البخاري من حديث عبد الله عبّاسٍ ﷺ أنه قال: (بعث رسُول الله ﷺ بِكِتابِهِ إلى كِسْرى مع عبْد الله بْنِ حُذافة السّهْمِيِّ، فأمرهُ أنْ يدْفعهُ إلى عظِيمِ البحْريْنِ، فدفعهُ عظِيمُ البحْريْنِ إلى كِسْرى، فلمّا قرأهُ مزّقهُ، فدعا عليْهِمْ رسُول الله ﷺ أنْ يُمزّقُوا كُل مُمزّقٍ) [1].

وكفر الجهل والتكذيب قد يتردد بين الكفر الأكبر والأصغر، فقد يقع ممن يعرض عما يجب معرفته من الأحكام، التي لو تركها فاعلها كان له حكم أصحاب الكبائر دون الخروج من الملة، فكثير من عامة المسلمين آثروا حياة الغرب على منهج الإسلام والالتزام بأحكام القرآن والسنة والحكم فيهم يتنوع تبعا لحالة كل فرد ومنشأه وفهمه وإدراكه ووعيه، فربما نشأ على الجاهلية في الأوساط التي تقلد الحياة الغربية دون أن يخاطبه أحد من المسلمين بحجة، أو تقوم عليه المحجة وهو يعيش في بلاد الإسلام، فكفر الجهل والتكذيب قد يكون كفرا أكبر أو أصغر حسب حال كل فرد، وتحقيق أمره يظهر عند بيان الحجة بين

(١) البخاري في المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر ٤/ ١٦١٠ (٤١٦٢).

يدي القاضي عند تطبيق الحد في أحكام المرتد.

ومثال ذلك الكفر الأصغر الذي هو من باب الجهل والتكذيب ما يقع فيه المعطلة من أتباع الجهمية كالمعتزلة والمتكلمين الأشعرية الذين يردون نصوص القرآن والسنة الصريحة بسبب جهلهم المركب وتكذيبهم لمدلولها الحقيقي الذي توهموا فيه أنه تشبيه وتجسيم وظاهره باطل لا يليق بالله، مما دفعهم إلى تأويلات وتحريفات تدل في حقيقتها على كفر الجهل والتكذيب، ولذلك أطلق عليهم علماء أهل السنة المعطلة لما عندهم من حسن النية إخراجا لهم عمن كذب بآيات الله وكلماته معرضا عنها وعن معرفتها بسوء النية.

- **ما هو الركن الثاني من أركان الإيمان باعتبار تنفيذ الطلب؟**

الركن الثاني من أركان الإيمان باعتبار تنفيذ الطلب عمل القلب، وهو من أدلة الاختيار ومقوماته في الإنسان، والمقصود به أعمال القلوب وكل اختيارات الإنسان في منطقة الكسب كالإرادة والنية والمحبة والإخلاص والخوف والرجاء والعزم وغير ذلك، فالقلب مصدر أصيل للنيات والإرادات، والباعث للحركات والسكنات في الإنسان، وعلى النية تقع المساءلة عن إرادته للكفر أو الإيمان، وكل ما يكتسبه في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ البقرة:٢٢٥.

ومن ثم فإن محور الإيمان أو عدمه في توجه الإنسان هو الركن الثاني من أركان الإيمان وهو عمل القلب والاستعداد التام للخضوع والطاعة والانقياد، وليس على مجرد علم القلب وحكم العقل اليقيني على الشيء بالصلاح أو الفساد، أو الصدق أو الكذب، دون عمل القلب وإرادته للصلاح ومحبته له،

فصلاح الإنسان مبني على صلاح القلب، وصلاح القلب مبني على إدراك العلم وتحصيله، ثم عقد النية واستجابة الإرادة للعمل بمقتضاه، ثم ظهور أثره على الجسد كله، وهذا حقيقة الاعتقاد الحق وتصديق الحق وقبوله.

وطلب العلم بأحكام العبودية، أو إرادة الله الشرعية التكليفية من وظائف الإرادة وصدق النية، والإرادة في القلب مسئولة عن أجهزة الإدراك البشرية، فجهاز الإدراك في الإنسان يصب في العقل، والعقل يمد القلب بالعلم وما ورد من أدلة الحكم وفق رغبة الإرادة في تحقيق الهداية واتباع سبيل النجاة أو رغبة الإرادة في توليها وإعراضها عن منهج الله، والقلب هو محل العقل والإرادة معا، أو هو محل العلم والعمل معا، أو هو محل القول والعمل في باطن الإنسان، كما أن البدن هو محل القول والعمل في ظاهره، فالقلب هو المسئول الأول عن تحصيل العلم وحصوله فيه، وهو المسئول الأول عن الإيمان بمقتضاه واستعداده للعمل بموجبه، وهو المسئول الأول عن قول اللسان وتوجيهه إلى النطق بشهادة الحق، وهو المسئول الأول عن عمل الجوارح وقيادتها إلى النجاة من عذاب الله في الدنيا والآخرة.

- **ما هي أركان كفر النفاق وما تأثير انتفاء عمل القلب في وجوده؟**

كفر النفاق ينشأ عن الإقرار باللسان، أو انقياد عمل الجوارح في الظاهر على منهج الإيمان، وقد يجتمعان أو يفترقان، أعني الإقرار باللسان وعمل الجوارح والأركان، ينضم إلى ذلك انتفاء أهم أركان الإيمان وهو عمل القلب في الجنان، وعلى رحى هذا الركن مدار النفاق أو الإيمان، أما علم القلب فقد يتحقق وجوده فيكون المنافق عالما بالحق مصدقا به وقد يكون جاهلا به أو مكذبا له أو شاكا فيه، تلك هي أركان النفاق التي دلت عليها نصوص القرآن، فالإقرار

باللسان مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ البقرة:٨/ ٩. يقولون باللسان آمنا دون إيمان القلب، فتحقق في النفاق الإقرار باللسان.

وأما انقياد الجوارح فهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ النساء:١٤٢. فنص على أنهم يقومون بأعمال الجوارح كالصلاة وغيرها، فتحقق في النفاق العمل بالأركان، وأما وجود علم القلب وتصديقه أو عدم وجوده، فقول القلب قد يوجد أو لا يوجد، وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ المنافقون:٣. فوصفهم المولى ﷻ بالإيمان قبل الكفر، ولازم الإيمان تحقق علم القلب ووجوده، وربما يوجد في القلب الشك والريبة وعدم التصديق بالحق كما قال تعالى في وصفهم: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ التوبة:٤٥.

وانتفاء عمل القلب وهو الركيزة الأساسية في كفر النفاق، لأنه لو وجد عمل القلب لاكتمل بناء الإيمان، ولذلك فإن المنافق يخدع نفسه، ويضيع جهده من حيث لا يشعر؛ فقد أقر باللسان وانقاد بالجوارح، ولكن كفره بسبب سوء نيته التي كان في إمكانه أن يغيرها، وقد عبر القرآن عن انتفاء عمل القلب بمصطلح مرض القلب الذي يؤدي إلى مصادقة الشيطان وموالاته، وتكرر ورود ذلك في النصوص كقول الله تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ البقرة:١٠.

الإيمان في اعتقاد أهل السنة والجماعة عند الإطلاق يدل بالمطابقة على علم القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح، وكل أركان الإيمان قد تتحقق في المنافق وتقع منه إلا عمل القلب من الإخلاص والحب، وهذا أمر يتوقف على تحول النية من التوحيد إلى الشرك، ومن الإيمان إلى الكفر، غير أن عمل الجوارح في مباشرة الأسباب الشرعية والأوامر التكليفية التي ينقاد لها المؤمن والمنافق واحدة، ولذلك فإن المنافقين هم أشقى الأشقياء، ولهذا يُستهزأ بهم في الآخرة وتعطى طبقة المنافقين نورا يتوسطون به على الصراط، ثم يُطفئ الله نورهم، ويقال لهم: ﴿ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣ ﴾ الحديد:١٣/ ١٤. وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء، أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح حتى إذا ظن أنه ناج، ورأى منازل السعداء، اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه.

- من هم المرجئة وما عقيدتهم وهل لهم وجود في عصرنا الحاضر؟

المرجئة فرقة من الفرق الضالة التي خالفت أهل السنة والجماعة، وهي فرقة تفترض صحة الإيمان بلا عمل، ولا طاعة لله ورسوله ﷺ، فقالت: لا يضر مع الإيمان ذنب، فمن فعل ما يشاء من الذنوب فهو مؤمن كامل الإيمان. وكلام المرجئة منتشر على ألسنة العامة في كل زمان ومكان، فتجد الرجل منهم يفعل المنكر ويجاهر بالفسوق والعصيان، ولو أمره مسلم بالمعروف ونهاه عن المنكر فإما أن يقول: أنا مؤمن أعرف الله معرفة جيدة، أو يقول: أنا أقول لا إله إلا الله والإيمان في القلب، فالقول الأول عند أهل السنة والجماعة هو قول مرجئة الجهمية، والقول الثاني هو قول مرجئة الفقهاء، جميعهم ظنوا أن الإيمان هو

معرفة الله والتصديق بوجوده، أو معرفة الله مع النطق باللسان لا إله إلا الله، ولا يلزم العمل والطاعة والانقياد لأمر الله ورسوله ﷺ، وأن الإنسان حر في فعل المعاصي كما يحلو له في حياته، ومن هنا كان أغلب العلمانيين والليبراليين والحداثيين المنتسبين للإسلام وكل الذين ينادون بفصل الدين عن الحياة من فرقة المرجئة.

- **ما دلالة مصطلح تصديق القلب عند السلف والمرجئة؟**

جعل الله ﷻ بين النازعين والهاتفين في منطقة حديث النفس عقلا يمثل صمام الأمان للإنسان، بحيث يتمكن الإنسان من ضبط كل أنواع القول، فيمكن للعقل أن يقرر الحكم على كل قول ومدى صدقه أو كذبه إن كان خبرا، أو نفعه وضرره إن كان أمرا، فالعقل يقلب الأمور ويفكر ويتصور ويقرر الحكم في كل كلام يصدر في نفس الإنسان من الأفكار والخواطر والدواعي والابتلاءات التي تتوالى على القلب، والتي يميز العقل فيها بين ما ينفعه وما يضره، وفق منهج يقيس من خلاله معاني الخير والشر، سواء كان المنهج منهجا يحدده الشرع والنقل فيحكم بما أنزل الله، أو كان منهجا يحدده العرف والعقل، ويكون الحكم بغير ما أنزل الله.

وحقيقة قول القلب هو الكلام الذي يحدث به الإنسان نفسه مما يُلقى في خاطره، إما من نازع الخير الذي يقلبه الرحمن، أو خواطر هوى النفس في الإنسان، أو لمة الملك الموكل بمقارنة الجنان، أو وسواس العدو وهتاف الشيطان، أو ما يجتمع من الخواطر الناتجة عن مؤثرات الحواس في الإنسان، وكل ما يحدث له في الخارج مما يقع لبدن الإنسان مما يبتلى به في كل زمان ومكان، كل هذا يسمى قولا للقلب لأنه معبر عن الحقيقة في واقعها، وهو المشار إليه

برفع المؤاخذة عليه، وعدم المساءلة عما يدور في النفس، كما صح الخبر عند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفُسها ما لمْ يتكلمُوا، أو يعملوا به)[1].

وقد علمنا أيضا أن العقل في القلب كالحجاب الفاصل بين منطقة حديث النفس ومنطقة الكسب، وهو يقوم بتحصيل المعلومات وجمعها من حواس الإنسان، أو منطقة حديث النفس في الجنان، ثم يحللها ويصنف الحدث المرافق لها، ويضيف أحكامه إليها، كالحكم بتصديق الخبر وتكذيبه، أو الحكم بالمصلحة أو المفسدة في تنفيذ الأمر أو عصيانه، ثم يخزنها العقل في ذاكرة الإنسان، الذي بدوره يقوم باستدعائها بتوجيه من الإرادة ومنطقة الكسب، فالإرادة الكائنة في القلب في منطقة الكسب هي المسئولة عن ملء العقل بالمعلومات، أو تركه خاليا جاهلا فارغا.

وبعد معرفة ما في القلب من الأركان سواء في منطقة حديث النفس أو منطقة الكسب نحاول تحديد المراد بمصطلح قول القلب الذي يستخدم كثيرا في الحديث عن الإيمان بين السلف والمرجئة، فربما يطلق البعض مصطلح قول القلب ويراد به علم القلب أو بتعبير آخر العلم الذي حصله العقل واستخلصه من مجموعة الخواطر والكلام الداخلي في منطقة حديث النفس، أو بتعبير آخر العلم الذي حصله العقل من مجموع كلمات القول الباطني الذي تصب فيه سائر المعلومات من النازعين والهاتفين والحواس الخارجية.

وربما يطلق البعض قول القلب ويراد به حكم العقل على مجموع المعلومات التي تحصلت فيه وتجمعت عنده، فيحكم عليها بالصدق أو الكذب لما هو خبر،

---

(١) رواه البخاري في الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق ٥/ ٢٠٢٠ (٤٩٦٨).

أو النفع أو الضرر لما هو أمر تكليفي قد تلتزمه الإرادة أو لا تلزمه، وكذلك التزام جميع أعمال القلوب به أو عدم التزامها، وهنا ربما يطلق على قول القلب مصطلح تصديق القلب ويقينه، أو تكذيب القلب وشكه وظنه، وهذا هو الذي اكتفت به مرجئة الجهمية في حدهم لمسمى الإيمان وضابطه عندهم لما قالوا الإيمان يدل بالمطابقة على المعرفة بالقلب أو تصديق القلب فقط.

وربما يطلق قول القلب ويراد به إقرار الإرادة واستعدادها لحث البدن على العمل بمقتضى العلم وأحكامه، وكذلك استعداد جميع أعمال القلب التي في منطقة الكسب واستجابتها للعمل بمقتضى صحة الحكم الذي أصدره العقل على مجموع المعلومات التي تحصلت فيه وتجمعت عنده، فيحكم عليها بالصدق أو الكذب لما هو خبر، أو النفع أو الضرر لما هو أمر وطلب، وهذا هو المسمى بالاعتقاد الموجب للعمل، أو التصديق الباعث على الفعل، والمحرك لأعمال القلوب، أو اليقين النافع للإنسان، أو بتعبير أدق الإيمان الكائن في الجنان، وهو ما يعنيه السلف الصالح إذا قالوا الإيمان تصديق بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، فإنهم لا يعنون بالتصديق مجرد العلم والمعرفة، أو الحكم بصدق القائل أو كذبه فقط، فهذا اعتقاد الجهمية والمرجئة، وإنما يقصدون الحكم بالتصديق الذي يصدره العقل والمتحقق في علم القلب من جهة، ثم استجابة الإرادة والمحبة وجميع أعمال القلب لمقتضى هذا الحكم من جهة أخرى، ليتشكل منهما الاعتقاد الإيماني الراسخ في قلب المؤمن.

وهذا الاعتقاد الإيماني أو الإيمان القلبي الباطن يستحيل وجوده في القلب مع انتفاء القول والعمل في ظاهر البدن، وهذا هو الإيمان الموافق للفطرة، والذي إن وجد في القلب ظهر أثره على الجسد كله، وإذا انعدم في القلب انعدم أثره في

الجسد كله ما عدا النفاق.

وهذا بتمامه هو ما عبر عنه النبي ﷺ فيما ورد عند البخاري من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه حيث قال: (ألا وإن في الجسد مُضْغة، إذا صلحت صلح الجسد كُلهُ، وإذا فسدت فسد الجسد كُلهُ، ألا وهي القلبُ) [١].

- بين كيف أن إيمان القلب مستلزم للعمل الظاهر لا محالة؟

لقد ظهر غلط المرجئة في ظنهم أن ما في القلب من الإيمان ليس إلا حكم العقل بتصديق الخبر فقط، دون قيام أعمال القلوب واستجابتها، أو ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تاما بدون شيء من أعمال الجوارح، والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر لا محالة، ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر، ولهذا صاروا يتصورون ويقررون مسائل يمتنع وقوعها أو يمتنع تصور وجودها في الواقع لعدم تحقق الارتباط الذي بين البدن والقلب، مثل ادعائهم أن الرجل يمكن أن يكون في قلبه من الإيمان مثل ما في قلب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وهو لا يسجد لله سجدة، ولا يصوم رمضان، ويزنى بأمه وأخته، ويشرب الخمر نهار رمضان، يقولون هذا مؤمن تام الإيمان، ومن ثم أنكر عليهم ذلك سائر المؤمنين غاية الإنكار، لمخالفتهم دين رب العزة والجلال ولأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ البينة:٥.

وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/ ٢٨ (٥٢).

مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾النور:٤٧/ ٥٢. فنفى الله الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول ﷺ، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا، فبين أن هذا من لوازم الإيمان.

- **هل يصح تقسيم النفاق إلى نفاق اعتقادي ونفاق عملي؟**

قسم بعض أهل العلم النفاق إلى نفاق اعتقادي ونفاق عملي، وهذا التقسيم تقسيم ملبس فيه نظر، والأسلم هو مذهب أهل السنة والجماعة في تقسيم النفاق إلى نفاق أكبر ونفاق أصغر، والذين قسموا النفاق إلى نفاق اعتقادي ونفاق عملي يقصدون بالنفاق الاعتقادي النفاق الأكبر المخرج عن الملة، وأطلقوا عليه نفاق اعتقادي لأنه متعلق بالقلب، وأرادوا بالنفاق العملي ما لا يكون مخرجا من الملة وهو في حكم الكبائر.

والتحقيق أن النفاق له أركان محددة، وهي انتفاء عمل القلب مع وجود قول اللسان وعمل الجوارح، وقد يكون نفاقا أكبر أو أصغر حسب درجة النفاق في القلب، فالمنافق قد يكون عارفا موقنا بصدق الرسول معتقدا بأنه صادق فيما بلغ عن ربه، ولكن يكفر به في قلبه حسدا وحقدا لفقد منصبه أو ماله أو جاهه ويتظاهر باتباعه خوفا على نفسه ونفاقا للمسلمين، فمن النفاق ما هو أكبر يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار كنفاق عبد الله بن أبي بن سلول وغيره ممن هو موجود في زمن رسول الله ﷺ ومن جاء بعده، بل هو بعده أكثر منه على عهده ﷺ، وفي المنتسبين إلى الإسلام من عامة الطوائف منافقون كثيرون من الخاصة والعامة ويسمون الزنادقة، يظهرون الإسلام ويبطنون خلافه.

وأما النفاق الأصغر فمثل أن يكذب في حديثه، ويخلف في وعده، كما ورد

عند البخاري من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: (أربع من كن فيه، كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) [1].

• **هل الإيمان الذي فرضه الله على عباده متماثل في حقهم جميعا؟**

أول وجوه الباطل وأسباب الخطأ الذي وقعت فيه المرجئة بأنواعهم المختلفة ظنهم أن الإيمان الذي فرضه الله على العباد متماثل في حقهم جميعا، وأنهم جميعا يعرفون وجود الله، ويقولون: لا إله إلا الله. فهم جميعا في الإيمان سواء، وليس الأمر كذلك، بل هناك اختلاف وتنوع بين الناس، فإن أتباع الأنبياء المتقدمين أوجب الله عليهم من الإيمان ما لم يوجبه على أمة محمد ﷺ، وأوجب على أمة محمد ﷺ من الإيمان ما لم يوجبه على غيرهم، والإيمان الذي كان يجب قبل نزول جميع القرآن ليس هو مثل الإيمان الذي يجب بعد نزول القرآن.

وكذلك الإيمان الذي يجب على من عرف ما أخبر به الرسول ﷺ مفصلا ليس مثل الإيمان الذي يجب على من عرف ما أخبر به مجملا، فإنه لابد في الإيمان من تصديق الرسول ﷺ في كل ما أخبر، لكن من صدق الرسول ﷺ في أول مبعثه، ومات عقب ذلك، لم يجب عليه من الإيمان غير ذلك، وأما من بلغه القرآن والأحاديث وما فيهما من الأخبار والأوامر المفصلة، فيجب عليه من التصديق المفصل بخبر خبر، وأمر أمر، ما لا يجب على صاحب الإيمان المجمل الذي مات قبل أن يبلغه شيء آخر.

(١) الموضع السابق ١/ ٧٨ (٥٨).

وأيضا لو قدر أنه عاش فلا يجب على كل واحد من العامة أن يعرف كل ما أمر به الرسول ﷺ، وكل ما نهى عنه، وكل ما أخبر به، بل إنما عليه أن يعرف ما يجب عليه هو، وما يحرم عليه هو، فمن لا مال له لا يجب عليه أن يعرف أمره المفصل في الزكاة، ومن لا استطاعة له على الحج ليس عليه أن يعرف أمره المفصل بالمناسك، ومن لم يتزوج ليس عليه أن يعرف ما وجب للزوجة، فصار يجب من الإيمان تصديقا وعملا على أشخاص ما لا يجب على آخرين.

وأهل السنة والجماعة يقولون بأن جميع أعمال الشرع واجبها ومستحبها من الإيمان، أي من الإيمان الكامل عند فعل المستحبات وبلوغ درجة المقربين السابقين بالخيرات، وليست جميع الأعمال تأخُذ في حكمها التكليفي درجة المستحبات، كما يقول الفقهاء بأن الغسل ينقسم إلى مجزئ وكامل، فالمجزئ ما أتى فيه بالواجبات فقط، والكامل ما أتى فيه بالمستحبات، ولفظ الكمال قد يراد به الكمال الواجب، وقد يراد به الكمال المستحب.

- بين كيف أن قول اللسان ركن من أركان الإيمان؟

شهادة التوحيد إعلام وحكم من قائلها بأنه دخل في الإسلام واستسلم وخضع لله ﷻ، وأنه يدين بتوحيد العبادة له، فتوحيد العبادة هو تحقيق العبد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن يقصد الله بالعبادة ويريده بذلك دون ما سواه، وهذا هو الإسلام، فإن الإسلام يتضمن أصلين، أحدهما: الاستسلام لله، والثاني: أن يكون ذلك له سالما، فلا يشاركه أحد في الإسلام له، وهذا هو الاستسلام لله دون ما سواه.

وقد كان أصحاب النبي ﷺ يعلمون أن مصطلح الإسلام هو في حقيقته توحيد العبادة لله وإفراده تعالى بها، فالإسلام بمعنى الخضوع والاستسلام

للمعبود على وجه المحبة والتعظيم، وهذا تعريف العبادة، أما توحيد العبادة لله فظاهر من الشهادة التي هي أول ركن من أركان الإسلام، فكلهم يعلمون أن الإسلام لا يصح إلا بالتوحيد، وأن توحيد العبادة لله هو الإسلام، وأن هذا حق الله على سائر العباد وهو شرط دخولهم الجنة.

روى البخاري من حديث معاذ ﷺ أن النبي ﷺ قال له: (هل تدْرِى ما حقُّ الله على عِبادِهِ؟ قُلتُ: الله ورسُولهُ أعْلمُ، قال: حقُّ الله على عِبادِهِ أن يعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكُوا بِهِ شيْئا، ثمّ سار ساعة ثمّ قال: يا مُعاذ بْن جبل، قُلتُ: لبّيْك رسُول الله وسعْديْك، فقال: هل تدْرِى ما حقُّ العِبادِ على الله إِذا فعلوهُ؟ قُلتُ: الله ورسُولهُ أعْلمُ، قال: حقُّ العِبادِ على الله أن لا يُعذبهُمْ)[1].

ومن ثم فإن قول اللسان الذي يتضمنه مصطلح الإيمان عند الإطلاق هو النطق بالشهادتين، والإقرار بلوازمها، وهو أمر لابد منه، بل هو الأصل في ثبوت الإيمان الظاهر. فلو قيل إن رجلا يشهد أن محمدا رسول الله باطنا وظاهرا، وقد طلب منه ذلك، وليس هناك رهبةٌ ولا رغبةٌ يمتنع لأجلها، فامتنع منها حتى قتل، فهذا يمتنع أن يكون في الباطن يشهد أن محمدا رسول الله؛ ولهذا كان القول الظاهر من الإيمان الذي لا نجاة للعبد إلا به عند عامة السلف والخلف من الأولين والآخرين إلا الجهمية، فإنه إذا قدر أنه معذورٌ لكونه أخرس أو لكونه خائفا من قومٍ إن أظهر الإسلام آذوه ونحو ذلك، فهذا يمكن أن لا يتكلم مع إيمان في قلبه، كالكره على كلمة الكفر الذي استثناه الله فقال: إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.

---

(١) البخاري في كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل ٥/ ٢٢٢٤ (٥٦٢٢).

• **بين كيف أن شهادة التوحيد قول باللسان مرتبط بأركان الإيمان؟**

مما يزيل اللبس الحاصل عند كثيرين في فهم قضية الإيمان، وفهم أركانه ومسماه، ضرورة التفريق بين مجرد النطق وقول الإنسان باللسان لا إله إلا الله، وشهادة الإنسان ألا إله إلا الله، فلفظ الشهادة الذي نص على ذكره الوحي في النصوص القرآنية والنبوية، لا يعني مجرد القول المنفصل عن الاعتقاد القلبي والعمل الإرادي الكسبي، كما هو حال المنافق إذا قالها، أو الأعجمي الذي نطق بها ولا يعرف معناها ولا مقتضاها، أو قالها عن غير نية يدخل بها الإسلام، بل الشهادة بأنه لا إله إلا الله لها معان مرتبطة بقول اللسان لا تنفك عنه، ولذلك فإن قول لا إله إلا الله لا ينفع قائله إلا بشروط تدل في مجموعها على تحقيق العزم للاستجابة والانقياد لما جاء في رسالة الإسلام التي نزلت من عند الله، والمتمثلة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإعلان قائلها أنه يشهد بتوحيد العبادة لله وأنه لا معبود بحق سواه.

أما مجرد قول لا إله إلا الله كنطق الأعجمي بها بلا فهم أو إدراك لمعناها، أو النطق بها على مفهوم محدث مبتدع، يبتدعه قائلها ويعتقده ويدعو الناس إليه، فيجعلها منطبقة مثلا على معنى أنه لا موجود إلا الله كما هو حال غلاة الصوفية من أصحاب وحدة الوجود، أو حال المتكلمين حين قصروا لفظها بالمطابقة على أنه لا خالق إلا الله، وأن شهادة التوحيد إنما تدور فقط على مجرد إثبات وجود الله أو عدمه، وأخرجوا من مدلولها في كلامهم عنها توحيد العبادة لله ونفي الشرك، فهذا كله مجرد قول منفصل عن المعنى الحق لشهادة ألا إله إلا الله وتوحيد العبادة لله، ذلك المعنى الذي دعا إليه رسول الله ﷺ قومه من قريش وسائر العرب والعجم وحاربهم من أجله.

ومن نظر إلى الأحاديث التي ثبتت في ذكر قول اللسان كركن أساسي من أركان الإيمان، دل عليه مصطلح الإيمان بالتضمن وجدها تنص على ذكر مصطلح الشهادة، لما له من معان مرتبطة بقول اللسان لا تنفك عنه، كما ورد عند البخاري من حديث عبد الله بن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ ﷺ حين بعثه إلى أهل الكتاب في اليمن: (ادْعُهُمْ إِلَى شهادةِ أن لا إِله إِلا الله وأني رسُول الله)[1]. فهذا الحديث نص على لفظ الشهادة دون لفظ القول وأغلب ما ورد في الأحاديث كذلك.

وربما يذكر بديلا عن مصطلح الشهادة مصطلح العبادة، أو مصطلح التوحيد، أو مصطلح القول مقترنا بأحد الشروط اللازمة لكلمة التوحيد لا إله إلا الله، كالإخلاص الكائن في القلب، أو اليقين المنافي للشك، أو العلم المنافي للجهل، أو الكفر بما يعبد من دون الله، أو غير ذلك مما يدل على أن المراد بقول اللسان في قضية مسمى الإيمان، أو قول اللسان الذي دل عليه مصطلح الإيمان بدلالة التضمن هو القول المقتضي لشروطه ولوازمه، وليس مجرد النطق بالكلمة مجردة منفصلة عن بقية الأركان.

- **لماذا كانت الشهادة بقول اللسان عِلْم وحكْم وإعلام وإلزام؟**

لو فرضنا بقياس الأولى ولله المثل الأعلى طلابا وأساتذة ومقررا وامتحانا، وجدا واجتهادا، ثم ابتلاءا واختبارا، ثم نجاحا وفرحا واستبشارا، أو فشلا وخيبة وخسارا، وحدث بعد الاختبار اختلاف بين بعض المجتهدين المتفوقين من الطلاب مع الكثرة الغالبة من المقصرين المعروفين بالعبث وكثرة الغياب، اختلفوا وتنازعوا في صحة ما أجابوا به في الاختبار، فزعم المقصرون أنهم على

---

(١) البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة ٢/ ٥٠٥ (١٣٣١).

صواب لأنهم يمثلون الكثرة الغالبة من الطلاب وزعموا أن إجابتهم توافق المقرر كما درسوه في الكتاب، وأن القلة من المجتهدين هم المخطئون في إجابتهم، ثم بالغوا في إثبات حجتهم، وبالغوا في ظنهم أن ما هم عليه هو الصواب، وأنه هو الأفضل لمن أراد النجاح والفلاح في أي امتحان.

طالب الجميع بشهادة أستاذهم، فشهد للكثرة بخطئهم وصحة جواب المتفوقين من المجتهدين، فكذب الكثرة أستاذهم وطلبوا شهادة الأعلى من الموجهين المتخصصين وأهل العلم الراسخين، فشهدوا المتخصصون لصحة جواب أستاذهم وصحة جواب المجتهدين، فكذبوهم وطلبوا شهادة من وضع الاختبار، ومن يرجع إليه القرار، وأقروا على أنفسهم أن شهادته ملزمة لهم، وأنها فصل المقال، وأنها إعلام وإخبار، وقضاء وحكم وإنذار، فشهد من وضع الاختبار بصحة جواب الأساتذة المتخصصين، وصدق شهادتهم للطلاب المجتهدين، فكانت شهادته للجميع إخبارا وتصديقا وتحقيقا وقولا فصلا، وإعلاما وحُكما وعدلا، لا مجال لرده ولا معقب لحكمه.

إذا علم ذلك فالله ﷻ وله المثل الأعلى خلق السماوات والأرض بالحق، فجعل قضية الخلق كائنة في شهادة ألا إله إلا الله، وأنه لا معبود بحق سواه، فخلق الإنسان وجعله في دار ابتلاء وامتحان، وخوله في أرضه، واستخلفه في ملكه، واستأمنه واسترعاه، لا يفعل شيئا فيما خوله إلا بتكليف من الله، ينزله إليهم في رسالة من عنده، تلك الرسالة جعل فيها أحكام العبودية أو الأحكام الدينية الشرعية التي يقوم عليها منهج الحياة وتوحيد العبادة لله، وكان هذا هو المنهج المقرر على طلاب السعادة الراغبين في الخير والأجر والجنة والزيادة كما قال تعالى لآدم وحواء بعد أن نزلا من السماء: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن

ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ طه:١٢٣/ ١٢٤.

ومن ثم فإن أهل الابتلاء إذا طلبوا النجاة والعيش والبقاء بغير منهج الهداية المقررة من قبل رسالة الأنبياء، وجعلوا سعادتهم في عبودية الشهوات واتباع الشبهات، وتناسوا أنهم في مرحلة الابتلاء والكفاح والرغبة في النجاح والفلاح، وأعرضوا بضلالهم عن أنبيائهم ورسلهم، وأصروا على مخالفتهم، ثم أعلنوا زورا وبهتانا أنهم كانوا على الصواب، وأنهم الكثرة الغالبة عند الحساب، وأنهم أجابوا في امتحان الحياة وفق ما رأوه صوابا في الكتاب، وأنهم إنما كانوا يحسنون صنعا، وما أرادوا إلا إحسانا وتوفيقا، فهؤلاء كذبوا على أنفسهم كما ذكر الله تعالى في شأنهم فقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الأنعام:٢١.

وهنا شهد أولو العلم وشهدت الملائكة بضلال المشركين، وصحة ما جاء عن رسلهم، وشهد الله ﷻ بصدق المرسلين وخسران المشركين تصديقا للموحدين، وإنصافا لمذهبهم، وتكذيبا لأعدائهم، وتصديقا للملائكة وأولي العلم، فهو سبحانه شهد أنه لا إله إلا هو، وأن هذه الكلمة هي كلمة الحق وحقيقة التوحيد، وأن شهادة الإنسان بها رد منه على جميع من ضل من العبيد. قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٨/ ١٩.

ومن ثم تضمنت كلمة التوحيد أجل شهادة وأعظمها، وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد، بأجل مشهود به، ولذلك تضمنت شهادة الله سبحانه لنفسه

بالوحدانية والقيام بالقسط عند السلف أربع مراتب: علمه سبحانه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره لخلقه، وأمرهم وإلزامهم به، وجميع عبارات السلف في الشهادة تدور على الحكم والقضاء والإعلام والبيان والإخبار، وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها، فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه.

- **ما هي أركان كفر الجحود الأكبر وما أمثلته بالدليل؟**

إذا امتنع اللسان عن النطق بالشهادتين بعد علم القلب بصدقها، أو كتم الحق بعد علمه به نشأ عن ذلك كفر الجحود، فالجحود هو كتمان الحق مع العلم به، فيتحقق علم القلب وينتفي قول اللسان، أما الحال في بقية الأركان، فهو انتفاء عمل القلب بوجود الجحود، وله أسباب شتى؛ فقد يكون الاستكبار، أو الحسد، أو المعاندة، أو الخوف على الملك والرئاسة والجاه، أو غير ذلك من الموانع، وكذلك انتفاء عمل الجوارح بالالتزام لأنه تابع لعمل القلب صلاحا أو فسادا. ومن أمثلة كفر الجحود الأكبر المخرج من الملة كفر اليهود لأنهم علموا الحق بقلوبهم وأيقنوا أن محمدا رسول من عند ربهم وبالرغم من ذلك كتموه وجحدوه ولم يشهدوا أنه رسول الله، فتكاملت فيهم أركان كفر الجحود وهي انتفاء قول اللسان وشهادة الإيمان ووجود علم القلب، وأما بقية الأركان فسينتفي عمل القلب بوجود الكبر والحسد، ومن ثم ينتفي عمل الجوارح لأنه تابع لعمل القلب. وأهل الكتاب من اليهود والنصارى حتى يومنا هذا يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ البقرة:١٤٦ .

وقد بينت في كتابي ثم شتان، وأسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب المقدس

عند النصارى الآن، بينت الدليل الواضح على أن اليهود والنصارى حتى يومنا هذا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وأنهم يعلمون صدق محمد ﷺ بما ورد من كلام الله في القرآن، ومن كلام النبي ﷺ في السنة، والذي يوجد أكثره عندهم بمعناه وأكثر ألفاظه التي لا ينكرها إلا الجاحدون.

ومثال كفر الجحود أيضا كفر فرعون، فقد جحد الحق بعد علمه به، فكان كفره كفر جحود، وسببه الاستكبار والاستعلاء، قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ النمل:١٢/ ١٤. وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ الإسراء:١٠١/ ١٠٢ . وقال: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ القصص:٤.

ومن كفر الجحود كفر أغلب الكفار من قريش الذين يعرفون أن النبي ﷺ حق، ولكنهم جحدوا الرسالة، وأنكروا كونه رسولا من عند الله حسدا واستكبارا عن طاعة من يرونه أقل شأنا منهم، قال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأنعام:٣٣.

ومن كفر الجحود كفر أبى طالب عم النبي ﷺ من جنس هذا الكفر، لأنه جحد الحق بعد علمه به حيث قال:

ولقد علمت بأن دين محمـــدٍ : من خير أديان البرية دينـــا
لو لا الملامةُ أو حذار مسبـــةٍ : لوجدتني سمحـا بذلك مبينا

وعلى الرغم من ذلك امتنع عن النطق بلا إله إلا الله وجحدها، ومن ثم فإن انتفاء قول اللسان كان سببا في هلاك أبى طالب بامتناعه عن شهادة ألا إله إلا

الله، ولم ينفعه النبي ﷺ في إخراجه من النار وإن نفعه في تخفيف العذاب منه.

وكفر الجحود أسبق في وصف صاحبه من كفر العناد والاستكبار وهذه من دقائق المسائل، فإن قال قائل: هل كفر فرعون وهرقل ملك الروم وأبي طالب وكثير من قريش كفر جحود أو كفر عناد واستكبار؟ قيل كفر الجحود أسبق في الوصف من كفر العناد، لأنه ناشئ عن انتفاء قول اللسان مع وجود علم القلب وتصديقه ويقينه، وكفر العناد والاستكبار ناشئ عن انتفاء عمل الجوارح مع وجود قول اللسان، وكذلك وجود علم القلب وتصديقه واستيقانه، فكلاهما يجتمعان في وجود العلم والتصديق والاستيقان، أما كفر الجحود فمبني بعد العلم على انتفاء قول اللسان، ومن ثم ينتفي عمل الجوارح، بخلاف كفر العناد المبني على امتناع عمل الجوارح أصلا، فيكون كفر الجحود أسبق.

- بين كيف أن كفر الجحود يتردد بين الكفر الأكبر والأصغر؟

ذكر ابن القيم أن كفر الجحود نوعان، كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص، فالمطلق أن يجحد جملة ما أنزله الله وما أرسل به رسوله ﷺ، والخاص المقيد أن يجحد فرضا من فروض الإسلام، أو يجحد تحريم محرم من محرماته، أو صفة وصف الله بها نفسه، أو خبرا أخبر الله به عمدا، أو تقديما لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض، وأما جحد ذلك جهلا أو تأويلا يعذر فيه صاحبه فلا يكفر صاحبه به، كحديث الذي جحد قدرة الله عليه وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح، ومع هذا فقد غفر الله له ورحمه لجهله، إذ كان ذلك الذي فعله مبلغ علمه، ولم يجحد قدرة الله على إعادته عنادا أو تكذيبا.

وذكر أيضا أنه لا يستقر للعبد قدم في المعرفة، بل ولا في الإيمان حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله، ويعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه، فالإيمان

بالصفات والتعرف عليها هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام والإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فضلا عن أن يكون من أهل العرفان"[1].

وتعطيل أوصاف الله الذي يتبناه أغلب المعطلة من المتكلمين قديما وحديثا يتردد بين جحود الصفة الحقيقية التي دلت عليها النصوص، وبين جحود النص ومحاولة محوه من القرآن صراحة أو إزالته، فالتعطيل قد يؤدي بالمعطل إلى بغض النص، وما دل عليه مما يخالف مذهبه. ومن ذلك ما ورد عن الجهم بن صفوان حين قال عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ طه:٥. قال: لو وجدت السبيل إلى أن أحكها من المصحف لفعلت"[2].

ومن كفر الجحود ما يقع فيه بعض المعاصرين برفضهم وتعطيلهم للنصوص القرآنية والنبوية التي أمر الله ﷻ فيها بأن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين، وأن يكون نصيب المرأة كما حدده الله ﷻ لها بعلمه وحكمته أو جحودهم وتعطيلهم لقوامة الرجل على المرأة، أو النصوص الدالة على احتجاب المرأة، وعدم تبرجها وسفورها، وضرورة التزامها ببيتها، وطاعتها لزوجها، وأمثلة ذلك كثيرة، وهي منتشرة لدى كثير من العلمانيين والحداثيين الذين يجحدون تلك النصوص ويصرحون بردها أو بتعطيلها، بل يصرح بعضهم أنه يشعر بالخزي والتخلف والرجعية عند ذكرها، ولا تأتيه الجرأة لتلاوتها إقرارا بها، فهذا قد يكون كفرا أكبر يخرج عن الملة، وقد يكون كفرا أصغر له حكم الكبائر حسب حال صاحبه ومدى تعطيله وتأويله.

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٣٨.

(٢) انظر كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل ١/ ١٦٧ (١٩٠).

ويشبه هذا الصنيع الباطل تعطيل كلام الله ﷻ الدال على أوصافه وجحود المعاني التي دلت عليه، وهي وإن لم تكن كفرا أكبر بسبب التأويل والظن السيئ إلا أنها في حكم الكبائر، كما في قول المعتزلة والأشعرية عند إصرارهم على أن الاستواء معناه الاستيلاء والقهر، بل يزعمون أن ظواهر النصوص جاءت بالتشبيه والجسمية والمعاني الباطلة، وأن النصوص الخبرية لا تفيد علما ولا هداية إلا إذا فهمت على طريقتهم في الجحود والتعطيل .

- هل يصح القول بأن العبد لا يخرج من الإيمان إلا بالجحود؟

لا يصح كلام الإمام الطحاوي على إطلاقه بأن العبد لا يخرج من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه، بل الصواب أن يقال: يخرج العبد من الإيمان بكفر الجحود وغيره من أنواع الكفر، أما حصر الكفر في كفر الجحود فقط فمناقض للأصول القرآنية والنبوية، لأن معنى أن الإنسان لا يكفر إلا بالجحود، ولا يخرج من الإسلام إلا بجحود ما أدخله فيه، إنما هو نفي واضح لتأثير انتفاء بقية أركان الإيمان، وهي كفر الجهل والتكذيب الناشئ عن انتفاء علم القلب بالإعراض عن العلم وإيثار الجهل، وانتفاء كفر النفاق الناشئ عن انتفاء عمل القلب بالإعراض عن الإخلاص والحب، وانتفاء كفر العناد والاستكبار الناشئ عن انتفاء عمل الجوارح بالإعراض عن الخضوع لله والطاعة والانقياد.

وقد ربط الإمام الطحاوي كلامه في كفر الجحود بمعتقده في مسمى الإيمان، وهو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، وجعل عمل الجوارح خارجا عن مسمى الإيمان، فمن ترك عمل الجوارح كله بإرادة وإصرار على الترك فلا يكون كافرا عند الإمام الطحاوي، وحقيقة الجحود هو انتفاء قول

اللسان مع وجود علم القلب أو مع تصديقه المنفصل عن مقتضاه وهو عمل القلب، وقد أتى الإمام الطحاوي بصيغة الحصر، فقال: لا يخرج من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه، فلا يكون الكفر عنده إلا بانتفاء قول اللسان مع وجود العلم والتصديق، وهذا خطأ مخالف لقول أهل السنة والجماعة، فالإيمان لا يدل بالمطابقة عند أهل السنة على علم القلب فقط، أو على تصديق القلب على اعتبار حكم العقل على مقتضى العلم، فلا بد فيه من بقية الأركان التي تدخل الإنسان في مسمى الإيمان وهي عمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح والأبدان، فجميعها أركان ينتفي الإيمان بانتفاء أحدها انتفاء كاملا كما تقدم، فقد يكون الكفر الناقل عن الملة كفر جهل وتكذيب، وقد يكون كفر نفاق، وقد يكون كفر جحود، وقد يكون كفر عناد واستكبار، وجميعها يصح فيها المعنى العام للكفر، وهو كفر التولي والإعراض. وكل ذلك كما تقدم قد يكون مترددا بين الكفر الأكبر الناقل عن الملة والكفر الأصغر.

وقد بوب علماء المذاهب كالحنابلة والمالكية والشافعية والأحناف في كتب الفقه باب يسمونه باب حكم المرتد تناولوا فيه من كفر بعد إسلامه، وذكروا أن المرء يكفر بعد إسلامه قولا أو فعلا، ظاهرا أو باطنا فالكفر إذا ليس محصورا في جحود الشهادتين وإن كان مصدقا بها في قلبه، فلو سجد للصنم أو الوثن أو الضريح كفر بهذا السجود، أو داس مصحفا بقدميه، أو لطخه بالنجاسة يكفر بهذا العمل، ولو لم يجحد بلسانه، كما أنه أيضا قد يكفر كفرا أكبر إذا دعا غير الله ﷻ، أو ذبح لغير الله، أو نذر لغير الله، أو دعا الأموات أو طلب منهم العون والمدد.

كذلك أيضا يكون الكفر بانتفاء التصديق وقيام التكذيب والشك، كما لو شك في ربوبية الله ﷻ، أو شك في إثبات اسم من أسماء الله التي أثبتها الله لنفسه، أو في صفة من صفاته، أو شك في وجود الملائكة، أو شك في وجود الكتب المنزلة، أو شك في وجود الرسل، أو شك في وجود الجنة النار والبعث والصراط، كذلك أيضا يكون الكفر بالترك والإعراض، كما لو أعرض عن دين الله، لا يتعلمه ولا يتعبد الله به.

- **ما الدليل على أن الإيمان يدل على عمل الجوارح بالتضمن؟**

ذكر ابن تيمية أن القلب إذا كان صالحا بما فيه من الإيمان علما وعملا قلبيا، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق، كما قال أئمة أهل الحديث: الإيمان قول وعمل، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له، متى صلح الباطن صلح الظاهر وإذا فسد فسد؛ ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلي العابث: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه[(١)]. ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه، حيث ظنوا أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه، لم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان، وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمنا كامل الإيمان بقلبه، وهو مع هذا يسب الله ورسوله، ويعادي الله ورسوله، ويعادي أولياء الله، ويوالي أعداء الله، ويقتل الأنبياء، ويهدم المساجد، ويهين المصاحف، ويكرم الكفار غاية الكرامة، ويهين المؤمنين غاية الإهانة [(٢)].

وقد بينت أدلة الكتاب والسنة أن العمل من الإيمان، وداخل في مسماه، وهو

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٢/ ٨٦ (٦٧٨٧) وإرواء الغليل ٢/ ٩٢ (٣٧٣).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/ ١٨٨.

جزء منه، يدل عليه الإيمان بالتضمن، ويدل الإيمان بالمطابقة على علم القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح، وجميع الشعب أعلاها إلى أدناها من الإيمان، وقد بين النبي ﷺ أن الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة ألا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق[1].

ومن أدلة القرآن على أن العمل من الإيمان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ الأنفال:٢/ ٤. بين الله تعالى أن المؤمنين حقا هم الذين حققوا أعمال الإيمان بتصديق خبره وتنفيذ أمره، فوجلت قلوبهم خشية لربهم عند ذكره، وازدادوا إيمانا عند سماعهم لقوله، ونفذوا أمره بالقلب وقول اللسان وعمل الجوارح فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وهم على تنفيذ ما أمر به الله ﷻ، فالأعمال دل عليها اسم الإيمان بالتضمن وهي داخلة في مسماه.

وكذلك قوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ الحجرات:١٥. فأخبر أن الصادق في إيمانه، هو الذي آمن بالله ورسوله ﷺ دون شك أو ريب ينفي تصديق القلب بخبر الرب، ونفذ الأمر بعمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح تنفيذا يقدم ماله ونفسه جهادا في سبيل الله وطلبا لرضاه، فمن أتى بتصديق القلب بخبر الرب ونفذ الأمر بالعمل الظاهر والإخلاص الباطن تنفيذا كاملا فهو الصادق في إيمانه من درجة

(١) مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان ١/ ٦٣ (٣٥).

المقتصدين أو المقربين السابقين، ومن أخرج العمل وقال أصدق خبرك يا رب بلا شك ولا ريب، ولن أنفذ أمرك أيا كان، مهما وضعت من عقاب في الدنيا أو عذاب في النيران، فهذا كاذب في دعواه أنه آمن بالله، ولا يكون مؤمنا أبدا. لكن لو قال أنت معبودي بحق أصدق خبرك بلا ريب ولا شك وأنفذ أمرك تنفيذا كاملا، ثم قصر مرة في تنفيذ الأمر وأداء الواجب والفرض، وعاد لأدائه مرة أخرى مقرا بذنبه وتقصيره، فهذا صادق في إيمانه، وصدقه على قدر طاعته لربه، وكفره على قدر عصيانه وذنبه، ولا يخرجه ذلك من الإيمان، فهو من درجة الظالمين لأنفسهم ممن أورثوا الكتاب.

- **ما موقف المخالفين لأهل السنة من دخول العمل في مسمى الإيمان؟**

أهل السنة والجماعة يقولون إن الإيمان اعتقاد القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح، لا يجزئ أحدها عن الآخر، أو قول القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح، فالأعمال كلها من الإيمان، وركن فيه، وكل ركن من هذه الأركان يزيد وينقص، فإن زال ركن بكامله زال الإيمان كله، وإن زال بعضه فعلى قدره وحسبه يكون الحكم في كفره، فقد يكون كفرا أكبر، وقد يكون كفرا أصغر، وقد خالف كثير من أهل البدع في قضية العمل ودخوله في مسمى الإيمان، وتردد كل ركن من أركان الإيمان بين الزيادة والنقصان، وأبرز تلك الطوائف التي عرفت في هذا الباب:

١- الخوارج والمعتزلة، والإيمان عندهم كما هو عند أهل السنة والجماعة قول وعمل واعتقاد، إلا إنهم خالفوهم بزعمهم أن مرتكب الكبيرة الذي ترك بعض العمل ليس في قلبه شيء من الإيمان مطلقا، وهو مخلد في الآخرة في النار أبدا، واختلفوا في حكمه في الدنيا، فقالت الخوارج هو كافر، وقالت المعتزلة هو

بمنزلة بين منزلتين.

٢- الجهمية، والإيمان عندهم يدل بالمطابقة على المعرفة فقط دون عمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح، فلو لم يصدق بقلبه وينطق بلسانه ويعمل بجوارحه فهو مؤمن، فهذه الثلاثة غير داخلة في الإيمان، ولازم ذلك عندهم أن إبليس وفرعون وأبا جهل مؤمنون مسلمون جميعا لأنهم عرفوا ربهم.

٣- الكرامية أتباع محمد بن كرام السجستاني زعم أن المسلم هو من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، فالإيمان عندهم قول باللسان دون تصديق القلب أو عمل الجوارح، فمن تكلم بالشهادتين وسجد لصنم فهو مؤمن كامل الإيمان، والمنافق عندهم مؤمن أيضا كامل الإيمان، وهذا من أعظم الفساد.

٤- الأشاعرة، والإيمان عندهم مجرد تصديق القلب، دون عمل القلب ودون عمل الجوارح ودون قول اللسان، لأن الإيمان في اللغة هو التصديق، وهو باق على معناه اللغوي.

٥- مرجئة الفقهاء، والإيمان عندهم قول باللسان واعتقاد بالقلب دون عمل الجوارح، والإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص وهو التصديق، وإيمان أهل الأرض وأهل السماء على درجة واحدة؛ ولازم كلامهم أن الفاسق مؤمن كامل الإيمان، وبعضهم يزعم أن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل، وكإيمان أبي بكر وعمر، لأن الأعمال ليست داخلة في مسمى الإيمان فهو مصدِّق وأبو بكر مصدِّق، وجبريل مصدِّق، وهذا لا شك في بطلانه.

- **ما هو موطن الخلل في تقسيم العمل إلى شرط صحة وشرط كمال؟**

هل العمل شرط صحة في الإيمان أو شرط كمال؟ مصطلح شرط صحة أو

شرط كمال في منزلة العمل من الإيمان من المصطلحات المحدثة كمصطلح الحيز والجهة التي يلبس بها في نفي الإيمان بالاستواء وعلو الفوقية وتنزيه الله عن الحلول بذاته في كل مكان، فمنزلة العمل من الإيمان لا يقال فيها شرط صحة ولا شرط كمال، لأن ما يكون شرطا للشيء فهو منفصل عنه مباين له، كالوضوء مع الصلاة فليس الوضوء هو الصلاة، ولا هو ركن فيها، ولا هو جزء منها، ولا يدل مصطلح الصلاة على الوضوء دلالة مطابقة أو تضمن، ومثل هذه الاصطلاحات لابد من ردها إلى مصطلحات الشرع وألفاظ القرآن والسنة، فالعمل من الإيمان، وهو ركن فيه، وجزء منه، والإيمان قائم عليه كأساس متين كما تقدم، فما من مسلم يشهد ألا إله إلا الله إلا ويلزمه تصديق خبر الله وتنفيذ أمره معا، أما من يلزمه تصديق خبره وإهمال أمره، وتنفيذ أمر غيره في معصيته من أنواع الطواغيت المختلفة فليس بمؤمن.

أما مصطلح الصحة الذي يطلقه من قال العمل شرط صحة فهو مصطلح موهم، فإن الصحة لا تقابل الموت والانعدام التام، وإنما تقابل المرض على اختلاف درجات العليل، فانعدام الصحة في الإيمان لا يعنى الكفر والخروج من الملة، بل إن الكفر المخرج من الملة والذي انعدم فيه العمل كشرط الصحة كما يزعمون، لا يدل على انعدام الإيمان في قلب الكافر بانعدام العمل، فهذا نوع من تلبيس المتكلمين وتدليس المرجئة، فلا يقال ميت لمن ليس صحيحا، وإنما هو حي عليل، فكأن انعدام العمل لا يؤثر في انعدام الإيمان عندهم، لا وهو في حال شرط الصحة، ولا وهو في حال شرط الكمال، ويعود قول القائل بأن الإيمان شرط صحة إلى قول المرجئة الذين قالوا: الإيمان قول بلا عمل، ولو أمكن تخلف العمل كله عن الإيمان عند السلف لما قامت كل هذه الملاحم الاعتقادية.

كما أن مصطلح الكمال الذي يطلقه من قال شرط كمال من المفترض أن يقال لما زاد على الواجب من أفعال المستحبات والمندوبات، فهذا هو الكمال المعروف في الألفاظ الشرعية، وهو يساوي مصطلح النوافل التي يتقرب بها العبد إلى ربه بعد الفرائض والواجبات، والقائلون بأن العمل شرط كمال، وإن كان يقصدون أن ترك الواجب وفعل المحرم منافي للكمال الواجب الذي يجعل تاركه عاصيا مرتكبا للكبيرة، إلا أن التعبير بمصطلح شرط الكمال لا يدل على مرادهم الإرجائي، فقد جعلوا واجبات الدين وفرائضه وترك محرماته وكبائره داخلة في مسمى نفي الكمال، وليس في مسمى الكفر الأكبر أو الكفر الأصغر، وهذا نوع من التدليس الذي ينبغي تجنبه، فلا هم قالوا بقول السلف بأن العمل داخل في مسمى الإيمان، ولا التزموا بالألفاظ التي لا تحدث لبسا أو تداخلا في المعان.

- **هل الخلاف بين السلف ومرجئة الفقهاء خلاف صوري لفظي؟**

الخلاف بين السلف في اعتبارهم العمل ركنا ومرجئة الفقهاء في اعتبارهم العمل شرطا، ليس خلافا صوريا لفظيا فقط لأن الإيمان عند الإطلاق يدل بالمطابقة على أربعة أركان، قول القلب وعمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح، فالعمل ركن من أركان الإيمان وجزء من مسماه، فمن أخرجه من الإيمان وجعله شرطا في صحته أو شرطا في كماله فقد زعم أن الإيمان يدل بالمطابقة على ركنين فقط، وزعم أن انتفاء العمل بالكلية الذي هو ركن في الإيمان يكون معه الإنسان مؤمنا عليلا فاقدا للصحة، أو مؤمنا سليما فاقدا للكمال، وحال هؤلاء كحال من يقول لربه عند نطقه بالتوحيد وقت أن قال لا إله إلا الله: يا رب أنت معبودي بحق سأصدق خبرك ولن أطيع أمرك، فإن أخبرتني صدقتك وإن أمرتني عصيتك، فلا طاعة لك علي، بل الطاعة للشيطان

وهوى النفس في الإنسان. هذا شأن من يخرج العمل من الإيمان، وهو لازم لا يفارقه مهما حاول أن يهون أو يزين أو يتجمل أو يتستر على كلام من قال به.

ومن ثم فإن الخلاف بين السلف ومن جعل الإيمان لا يدل على العمل بالتضمن ليس خلافا صوريا كما زعم كثيرون حتى ولو كان شأنه ما كان، مع اعتقادنا أن قد يكون مجتهدا مخطأ مأجورا، لكن كلامه لا يمكن أن ننظر إليه على أنه مطابق للقرآن والسنة، بل الكل يأخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم .

وكلام الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرحه للعقيدة الطحاوية والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة ومحاولة تقرير الأمر على أنه اختلاف صوري فيه نظر، فإن قولهم بأن أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب، ربما يلتزم بها الإنسان أو لا يلتزم، أما لو قلنا بأن أعمال الجوارح جزء من الإيمان، فلا بد أن يلتزم بها لا محالة ولابد أن يحقق العمل ضرورة لكي يقوم به وصف الإيمان.

- **ما هي أركان كفر العناد والاستكبار المخرج عن الملة؟**

إذا امتنعت الجوارح عن الطاعة وتنفيذ الأمر مع سلامتها من الموانع وتحقق علم القلب والتصديق بالحق، ووجد أيضا الإقرار ونطق اللسان بالشهادتين نشأ عن ذلك كفر العناد والاستكبار، وانتفى بالضرورة عمل القلب، لأن انتفاء عمل الجوارح دليل على خلو القلب من العمل والإيمان، ومثاله كفر إبليس، وكفر المصر على ترك الصلاة، لا يصلي طول الحياة، وكفر الحاكم الممتنع عن تنفيذ شرع الله وأحكامه.

وقد يكون العناد والاستكبار وصف الجاحدين أيضا لأن كلا منهما علة من

علل الجحود، لكن الفارق بين النوعين أن كفر الجحود انتفى فيه الإقرار باللسان، ولم ينطق المرء بالشهادتين، فكتمهما جحودا مع التصديق بهما، أما كفر العناد والاستكبار فقد نطق المرء باللسان وصدق بالجنان فانتفى عنه كفر الجحود، وبقي امتناعه عن تنفيذ أمر الله بالجوارح فظهر العناد والاستكبار وصفا مميزا لمن انتفي عنه عمل الجوارح كركن من أركان الإيمان، وهذا ناشئ بالضرورة عن انتفاء عمل القلب في الإنسان.

- **ما هو التكاسل؟ وما الفرق بين ترك الصلاة عمدا وتكاسلا ؟**

قبل الحديث عن كفر تارك الصلاة، لا بد من بيان الفرق بين ترك الصلاة عمدا وتكاسلا من جهة، ثم تحقيق مصطلح التكاسل من جهة أخرى، فتارك الصلاة الذي يقول لا إله إلا الله، ويعلم حكمها، ويقر بوجوبها، ثم يعرض عن أدائها، ولا يقوم لله ﷻ بأداء فرض واحد منها، ويصر على الترك مهما وجه إليه النصح، فهذا يسمى تاركا للصلاة بالكلية عامدا متعمدا وهو كافر بالله العظيم، وعليه يدور اتفاق من تكلموا في الحكم عليه بالكفر في عصر السلف الصالح وبلا نزاع. وقد ذكر ابن القيم أنه من العجب أن يقع الشك في كفر من أصر على تركها، ودعي إلى فعلها على رؤوس الملأ، وهو يرى السيف على رأسه، ويشد للقتل، وعصبت عيناه، وقيل له تصلي وإلا قتلناك، فيقول: اقتلوني ولا أصلي أبدا، ثم يأتي من لا يكفر تارك الصلاة ويقول للناس: هذا مؤمن مسلم، يغتسل ويصلي عليه ويدفن في مقابر المسلمين. وبعضهم يقول: إنه مؤمن كامل الإيمان إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل، أفلا يستحي من هذا قوله من إنكاره تكفير من شهد بكفره الكتاب والسنة واتفاق الصحابة [1].

(١) كتاب الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص٨٢ بتصرف.

ومن ثم فإن تارك الصلاة مصرا على تركها حتى يقتل كافر بالله العظيم اتفاقا، وقد انتفى في حقه عمل الجوارح، وانهدم ركن من أركان الإيمان، وينهدم معه عمل القلب بدلالة اللزوم، فلو أقيم السيف على رقبته ففضل الموت على الصلاة فلا ينفعه تصديق القلب، ولا قول اللسان، وإن كان هذا ممتنعا في الواقع، لأن من وضع السيف على رقبته صلى نفاقا واختيارا لأخف الضررين بحساباته الدنيوية.

قال ابن تيمية: (هذه الفروع لم تنقل عن الصحابة ، وهي فروع فاسدة، فإن كان مقرا بالصلاة في الباطن، معتقدا لوجوبها، يمتنع أن يصر على تركها حتى يقتل وهو لا يصلي، هذا لا يعرف من بني آدم وعادتهم؛ ولهذا لم يقع هذا قط في الإسلام، ولا يعرف أن أحدا يعتقد وجوبها، ويقال له إن لم تصل وإلا قتلناك، وهو يصر على تركها مع إقراره بالوجوب، فهذا لم يقع قط في الإسلام، ومتى امتنع الرجل من الصلاة حتى يقتل لم يكن في الباطن مقرا بوجوبها، ولا ملتزما بفعلها، وهذا كافر باتفاق المسلمين، كما استفاضت الآثار عن الصحابة بكفر هذا، ودلت عليه النصوص الصحيحة)[1].

وبهذا يتبين أن المصر على ترك الصلاة بالكلية طول دهره أو مدة لبثه في الحياة، هو المعنيُّ بالتكفير بإجماع الصحابة والتابعين.

أما ترك الصلاة تكاسلا فقد اختلط مع المعنى السابق للتارك عامدا، وظن كثيرون أن الترك بالكلية ينقسم إلى نوعين فقد يكون عمدا أو تكاسلا، وليس هذا ما يدل عليه مصطلح التكاسل، فالتكاسل حال في الإنسان لا يدوم وغير مستمر، فلا بد أن يعقبه نشاط وفعل، لأن المتكاسل في حقيقته مؤد للعمل

(١) مجموع الفتاوى ٢٢/٤٨.

بصورة ضعيفة أو ضعيفة جدا، ولو انعدمت أصبح تاركا لا متكاسلا، فحقيقة أمره أنه فاعل مرة متكاسل مرة أخرى، أما دوام التكاسل بمعنى الترك الكلي طول دهره فيمتنع وقوعه عقلا، فإن المتكاسل لا محالة ينشط في وقت دون وقت، ولا يمكن وقوع التكاسل المستمر في جميع أعماله، بدليل أنه نشيط في غير أداء الفرائض من أموره الدنيوية.

ومن ثم فلا يتصور التكاسل مع استمرار الترك وخلو الموانع على مدار الدهر الذي يحياه التارك، وإنما التكاسل هو تقصير صغير أو كبير في أداء بعض الفروض دون بعض، فربما يصلي فرضا في اليوم ويترك الباقي، أو يصلي بعض الفروض في الأسبوع أو الشهر، أو لا يصلي إلا الجمع والأعياد، أو لا يصلي إلا في رمضان، فهذا هو المتكاسل عن الصلاة إذا ذكر، لا أن يترك الصلاة بالكلية ثم نقول عن تركه لها إنه تركها تكاسلا وليس عامدا، فهذا من الفرض الممتنع وجوده في الواقع، فلا يتصور أن يبقى طول دهره بعد علمه بالصلاة وقدرها، وعلمه بالعقوبة المشددة التي وردت في تركها، وإطلاق النبي ﷺ للكفر على من تركها، ثم يقول القائل: إنما تركها طول عمره متكاسلا، ولهذا فإن تحقيق مصطلح التكاسل على ما ذكرنا سوف ينحل به النزاع في كفر تارك الصلاة بتوفيق الله ﷻ وهدايته.

وإذا انضم لذلك الفهم مراعاة صعوبة الحكم على شخص معين بالكفر في مثل هذه الأيام التي خلت من نظام الحسبة في الإسلام، ومحاسبة تارك الصلاة أمام القضاء بأمر السلطان، كما كان حال العمل بأحكام الشرع في دولة الإسلام، وإلزام ولي الأمر أو القاضي بتحقيق أمر تارك الصلاة، ومحاكمته حتى يتم العلم بحاله والاستبيان، هل هو مصر على الترك والعصيان؟ أو معتذر بأنه إنما ترك

الصلاة كسلان، وسوف يصلي الصلاة لوقتها بعد كل أذان، إذا انضم ذلك لمسألة تارك الصلاة زال الخلاف حولها، وعُلمت أحوال التارك وأحكامها. أما مع تعطيل الأحكام فليس للمسلم إلا أن يبين حكم التارك على الوضع العام في دلالة النصوص على كفر تارك الصلاة عامدا كفرا أكبر مخرجا من الملة، وبيان حرصه على أن يأخذ بيده إلى طريق الإيمان، والدعاء له بالهداية إلى تحقيق أركان الإسلام والإيمان.

- **ما المراد بالأحاديث الصحيحة في شأن من لم يعمل خيرا قط؟**

لا بد من بيان معاني الأحاديث التي يحاول البعض أن يجعلها دالة أن ترك جميع الأعمال عامدا لا يدل على انتفاء الإيمان وإنما يدل على نقصانه، كحديث لم يعملوا خيرا قط، وحديث البطاقة، وغيرها من الأحاديث؛ فليس فيها حجة لهؤلاء، فمن ترك جميع الأعمال بالكلية وزعم أنه يكتفي بما في قلبه من التصديق فإنه لا يقع إيمانه ولا يتحقق، ومن شهد بالتوحيد مخلصا فلا يمكن أبدا أن يدع الفرائض والعمل؛ لأن إخلاصه يحمله على أن يفعل.

وأما وجوه حمل الأحاديث المطلقة في الشهادتين فيمن لم يعمل خيرا قط، فإما أن ذلك قبل أن تنزل الفرائض. أو أنها مطلقة عامة، وأحاديث الصلاة مقيدة خاصة، فيحمل المطلق على المقيد. أو أن النبي ﷺ قصد بيان الأمر الذي لا بد منه في جميع الأشياء، وهو الشهادتان، فإن الصلاة قد لا تجب على الإنسان إذا أسلم ومات قبل الوقت، وربما أخرها ينوي قضاءها ومات قبل ذلك. وقد أمر النبي ﷺ بالكف عن قتال الأئمة ما صلوا، فعلم أنهم لو تركوا الصلاة لقوتلوا، والإمام لا يجوز قتاله حتى يكفر. فالأحاديث المطلقة في الشهادتين تحمل على مثل هذه الوجوه، فأما من لا يصلي قط طول عمره، ولا يعزم على الصلاة،

ومات على غير توبة، أو ختم له بذلك، فهذا كافر قطعا؛ لأن الإيمان عند أهل السنة والجماعة قول وعمل كما دل عليه الكتاب والسنة وأجمع عليه السلف.

وقد احتج الإمام أحمد أن إبليس بامتناعه عن السجود لآدم قد لزمه الكفر واللعنة، فكيف من يمتنع عن السجود لله تعالى، وهذا لأن الكفر لو كان مجرد جحود اللسان لما كان إبليس كافرا، وهذا خلاف نص القرآن. كما أن حقيقة الدين هو الطاعة والانقياد، وذلك إنما يتم بالفعل لا بالقول فقط، فمن لم ينفذ لله أمرا فما دان لله دينا، ومن لا دين له فهو كافر.

وقد سئل ابن تيمية عن قوم يزعمون الإيمان بقلوبهم من غير شك، ويقرون بألسنتهم بالشهادتين، إلا أنهم يقولون لا نطيع في شيء من فعل الأوامر وترك النواهي؟ فقال: كل مسلم يعلم بالاضطرار أن هؤلاء أكفر الناس بما جاء به النبي ﷺ، وسيضرب رقابهم إن لم يتوبوا من ذلك[1].

- **ما هو نوع الكفر الذي يلحق من لم يحكم بما أنزل الله؟**

الحكم بغير ما أنزل الله كفر مبني على امتناع الركن الرابع من أركان الإيمان وهو عمل الجوارح وهو متردد بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر وفق حال التارك للعمل بأحكام الله، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ المائدة:٤٤. فإن عطل المسلم أحكام الله ﷻ وألغى تطبيقها على نفسه وعلى ما استرعاه الله ﷻ وخوله في أرضه، وحكم فيهم بما يخالف شرع الله، سواء كان معتقدا أن ذلك أفضل من حكم الله ﷻ وأنفع لعباد الله، أو معتقدا أنه مماثل لحكم الله، أو معتقد أنه يجوز له الحكم بغير ما أنزل الله ﷻ فهذا

(٢) مجموع الفتاوى ٧/ ٢٨٧ بتصرف.

كفر يخرج من الملة، لأنه لم يرض بحكم الله ﷻ ولم يجعل الله حكما بين عباده، فلا جدال في كفره كفرا أكبر.

أما إن كان يحكم بغير ما أنزل الله معتقدا أن حكم الله تعالى هو الأفضل والأنفع لعباده لكنه خرج عنه، وهو يشعر بأنه عاص لله ﷻ، وأنه قد حكم لهوى في نفسه، أو سلب لحق لغيره، لما بينه وبينه من صراع أو عداوة، فهو يحكم بغير ما أنزل الله ﷻ لا كراهة لحكم الله ولا استبدلا به، ولا اعتقادا بأنه أفضل من حكم الله أو مساو له، أو أنه يجوز الحكم به، لكن من أجل الإضرار بالمحكوم عليه حكم بغير ما أنزل الله، فكفره كفر أصغر[1].

- **هل يجب على الإمام أن يقاتل الطائفة الممتنعة عن تنفيذ أمر الله؟**

ذكر ابن تيمية رحمه الله أنه يجب على الإمام أن يقاتل الطائفة الممتنعة عن أعمال الجوارح وتنفيذ أمر الله، فكل طائفة ممتنعة عن تنفيذ شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المعلومة يجب قتالها، ولو نطقوا بالشهادتين مثل أن لا يصلوا، أو لا يزكوا، أو لا يصوموا، أو لا يحجوا البيت، أو قالوا نفعل هذا، ولا ندع الخمر، ولا الزنا أو الربا، أو الفواحش، أو لا نجاهد، أو لا نضرب الجزية على أهل الذمة، أو نحو ذلك قوتلوا حتى يكون الدين كله لله[2].

وقد بوب الإمام البخاري بابا في قتل من أبى قبول الفرائض، وما نسبوا إلى الردة، ثم ساق قصة أبي بكر ﷺ مع أهل الردة ومانعي الزكاة، فروى من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: (لما توفي النبي ﷺ واستخلف أبو بكر، وكفر

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤٧٠ بتصرف.

(٢) مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية ١/ ١٦٩.

من كفر من العرب قال عمر: يا أبا بكر كيف نقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله، قال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق)[1].

- **لماذا كان اصطلاح تارك جنس العمل اصطلاحا بدعيا ملبسا؟**

مصطلح تارك جنس العمل، هل هو كافر معدوم الإيمان؟ أم هو مؤمن ناقص الإيمان؟ هذه المسألة من المسائل التي كثر فيها الكلام وأحدثت فرقة كبيرة بين عامة المسلمين الراغبين في التمسك بنهج السلف واتباع السنة، ومن المعلوم أن المسلم لا يكون مسلما إلا إذا آمن بكلام الله ورسوله ﷺ، ولا يكون الإيمان بكلام الله ورسوله إلا إذا صدق الخبر ونفذ الأمر فقام بالعمل، فأتى بالقول والعمل معا، فالعمل ركن أساسي في الإيمان، وفاقده فاقد للإيمان، فلا يتصور من مسلم كما تقدم أن يشهد ألا إله إلا الله، وقد بيّت النية وقت شهادته على أنه سوف يصدق الله ﷻ في خبره، وسوف لا يطيعه في أمره أبدا، بل سيفعل ما يحلوا له من كل أنواع الشرك والمنكر، وما يوجب لعنة الله وغضبه، وما يوجب رضا الشيطان وحزبه.

ومن ثم فإن تارك العمل الذي يصدق الخبر، ولا ينفذ لله ﷻ أمرا معدوم الإيمان، فاقد لعمل القلب والجوارح معا، هذا هو الكلام الذي يتوافق مع النقل

---

(١) البخاري في الديات، باب قتل من أبى قبول الفرائض ٦/ ٢٥٣٨ (٦٥٢٦).

والعقل ويقع على القلب، أما الحديث عن جنس العمل وعدم دخوله في مسمى الإيمان، وأن الإنسان إذا لم يعمل شيئا بالكلية فهو ناقص الإيمان، فهذا كلام باطل مخالف لما دلت عليه الأصول القرآنية والنبوية، فإن من قال بلسانه أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، وصدق الله ﷻ في خبره، وامتنع بإصرار من وقت شهادته عن طاعة الله وتنفيذ أمره طول عمره، لا يقال لمثل هذا مؤمن إلا عند الجهمية والمرجئة والمتكلمين الأشاعرة.

كما أن استخدام مصطلح تارك جنس العمل فيه نوع من الخلط والغموض وعدم الوضوح، لأن تارك جنس العمل قد يذكر ويراد به تارك العمل بأسره، وقد يذكر من قائله ويريد به تارك بعضه دون بعضه، فإن حملت كلامه على تارك الكل، ربما راوغك بأنه كان يقصد تارك البعض، وإن حملت كلامه على تارك البعض ربما راوغك بأنه كان يقصد تارك الكل، وإن حملت كلامه على انتفاء جميع أعمال الجوارح كلها، زعم أنه كان يقصد انتفاء أعمال القلوب أو بعض أعمال الجوارح، وإن حملت كلامه على انتفاء أعمال القلوب زعم أنه كان يقصد انتفاء أعمال الجوارح أو بعضها، ومثل هذا لا بد أن يحدث خلافا بين المسلمين وفرقة لا محالة.

ومن زعم مقصده بتارك جنس أن تارك عمل الجوارح بأسره ناقص الإيمان، ويكفي لإيمانه تصديق الجنان وقول اللسان، فهذا مخالف لاعتقاد السلف متقول عليهم بغير علم، فليس في كلام السلف شيء يدل على أن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان، بل كلامهم واضح جلي في أن العمل من الإيمان، وأن الإيمان يدل على العمل بدلالة التضمن، ويدل على قول القلب وعمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح بالمطابقة، وقول من يقول إن تخلف عمل الجوارح كله أو جنس

العمل لا يؤثر في زوال الإيمان قول محدث تكذبه الأدلة من الكتاب والسنة، ويكذبه ما نقل عن سلف الأمة.

• ما هي عقيدة أهل السنة في تلازم انتفاء عمل الجوارح والقلب؟

يقوم اعتقاد أهل السنة على أن انتفاء عمل الجوارح متلازم مع انتفاء عمل القلب كلا وجزءا، فلا بد من فهم التلازم الداخلي بين أركان الإيمان التي دل عليها اسم الإيمان بالمطابقة، فعمل القلب يدل بالالتزام على عمل الجوارح، وعمل الجوارح يدل باللزوم على عمل القلب إن لم يكن منافقا، فإذا انتفى عمل الجوارح انتفاء كاملا، دل يقينا على انتفاء عمل القلب انتفاء كاملا، بشرط سلامة القدرة، وانتفاء الموانع الأخرى، كأن يكون معذورا بجهله، وكذلك إذا انتفى بعض عمل الجوارح دل على انتفاء بعض أعمال القلب، كلٌ حسب درجته زيادة أو نقصا، إيمانا أو كفرا، فقد يجتمع في الرجل كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، ولو كان جميع الناس على الإيمان المحض لكانوا ملائكة، ولو كانوا على الكفر المحض لكونا شياطين، ولكن الإنسان مبتلى بين كفر وإيمان يزيد أحدهما فينقص الآخر، وينقص أحدهما فيزيد الآخر، وكل ذلك ليعمل الناس بما شرع الله ﷻ لهم، ويتوكلوا في قولهم وفعلهم على ربهم، ولذلك خلقهم.

وهذا التلازم بين أركان الإيمان لا بد أن يفهم في إطار دلالة اسم الإيمان على أركانه، فالتلازم كائن بين أركان الإيمان الذي دل عليه لفظ الإيمان بالمطابقة، فعمل القلب ركن من الإيمان وجزء من مسماه، وعمل الجوارح أيضا ركن من الإيمان وجزء من مسماه، لكن انتفاء عمل الجوارح متلازم مع انتفاء عمل القلب، ووجود عمل القلب لا بد أن يظهر أثره على الجوارح إذا كانت سليمة،

وعدم استيعاب هذه الحقائق أدى بكثير من الناس إلى إخراج أعمال الجوارح من الإيمان، وتصور وجود عمل القلب وقول اللسان مع انتفاء العمل بالجوارح والأركان، فيتشابه كلامه بتمامه مع كلام المرجئة، وربما لم يقصد ذلك، ولا خطر على باله أن يترك شيئا من الأعمال، بل تجده ملتزما بالسنة هو وأهل بيته، وتجد امرأته ساترة وجهها، مطيعة لربها، فمثل هذا سليم النية وإنما أُتِي من قِبَل فهمه وجانبه الصواب وعدم التوافق في لوازم قوله.

ولذلك ينبغي عدم المسارعة في ضم كثير من علماء السنة إلى المرجئة؛ لأن هؤلاء نحسن الظن بهم ونحسبهم مخلصين في إيمانهم محبين لدينهم، موحدين لربهم، متبعين سنة نبيهم، وما أخطئوا فيه يرد عليهم، وكل يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم، وشتان بين هؤلاء في ضمهم إلى ظاهرة الإرجاء وبين كثير من المحسوبين على العلماء، وهم جلوس يشربون الشيشة والدخان، ويحلقون لحاهم تشبها بالنسوان، ويحلون ما حرم الله ﷻ في نص القرآن، بالتأويل الباطل وشبهات الشيطان، فمثل هؤلاء هم المرجئة حقا، وإن كان معيار الحق والباطل هو التحاكم إلى النص والدليل دون النظر إلى الكلام العليل، وإنما القصد ألا نحمل الأمور أكثر مما تحتمل.

الفصل الخامس
الإيمان بين الزيادة والنقصان

* بين كيف أن الزيادة والنقصان في الإيمان عقيدة السلف؟

الزيادة والنقصان في أركان الإيمان هي أساس الفهم الصحيح لقضية الإيمان، وعلة انضباط المنهج السلفي في النظر للنصوص بوسطية وشمولية واعتدال، فكل ركن من أركان الإيمان قد يزيد حتى يصل إلى الكمال، وقد ينقص الإيمان فيه حتى يصل إلى التلاشي والزوال، فإن وصل الإيمان أعلاه وأصبح المؤمن في أعلى درجاته التي قد يصل إليها الإنسان، ففيه شبه من الملائكة، وإن وصل الإيمان أدناه وأصبح الإنسان في أدنى درجاته التي قد يصل إليها الإنسان ففيه شبه من الشيطان والحيوان، وإن كان مترددا بينهما فهذا شأن بني الإنسان يترددون بين الطاعة والعصيان، وبين الكفر والإيمان، فقد يجتمع في الشخص الواحد كفر وإيمان، فإن زاد كفره قل إيمانه حتى ينعدم، وإن زاد إيمانه قل كفره حتى ينعدم، وهكذا يجتمع فيه نفاق وإخلاص، وشرك وتوحيد.

ومن ثم فهما ضدان متقابلان يتردد بينهما الإنسان، وكذلك جميع أركان الإيمان، فهما نجدان معروضان، وسبيلان مطروحان، إذا ضعف أحدهما قوي الآخر، وإذا قوي أحدهما ضعف الآخر، فسبحان الملك الذي هدى الإنسان إلى النجدين، وجعل إرادته بين طريقين متقابلين معروضين ومطروحين كما

قال سبحانه: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ البلد:١٠.

والله تعالى يمكن أن يجعل الإنسانية على أتقى قلب رجل واحد، فتصبح كالملائكة أمة واحدة، ويمكن أن يجعلها على أفجر قلب رجل واحد فتصبح أمة إبليسية كافرة، ولكنه سبحانه شاء أن يكون الإنسان في دار ابتلاء، وأن ينتقل بعدها إلى دار للجزاء، لتظهر حكمته في الإنسان كما ظهرت في سائر الأشياء، وتظهر آثار أسمائه وصفاته ودلالاتها، ونرى أثار أفعاله في تعلقها بمفعولاتها، فيُذْكر بينهم اسمه، ويظهر فيهم أمره، ويُعلْم قضاؤه وقدره، وفضله وعدله في قيام الخلق على الحق والميزان، والالتزام بتوحيد العبادة الذي أوجبه الله ﷻ على الإنسان، وهو قادر إن لم يؤد حقيقة التوحيد والإيمان أن يذهبهم ويأت بخلق جديد، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ إبراهيم:١٩/ ٢٠.

ومن ثم فإن النقل والعقل والفطرة وجميع الأدلة اقتضت أن يكون الإنسان مترددا بين الكفر والإيمان، وبين الزيادة أو النقصان، فالقول بزيادة الإيمان ونقصانه هو القول الحق، وما سواه إما يؤدي إلى مذهب الإرجاء حتى يحكم على الكافر بالإيمان، وإما يؤدي إلى مذهب الخوارج حتى يحكم على المؤمن بالكفر والخلود في النيران، لأن كل مذهب منهما انحرف إلى أحد الطرفين، وعطل حكمة الله ﷻ في تردد الإنسان بين نجدين، وسبيلين مطروحين، فالمرجئة والخوارج مكذبون لكلام الله ﷻ مناقضون للعقل والفطرة.

• هل كل ركن من أركان الإيمان يقبل الزيادة والنقصان؟

دلت الأصول القرآنية والنبوية على أن كل ركن من أركان الإيمان يقبل الزيادة والنقصان بتكامل النسب، ونعني بذلك أن القلب في ركنه الأول وهو قول القلب، صالح لتلقي العلم بالرسالة أو البقاء على الجهل، وبقدر نسبة العلم بها فيه تكون النسبة المقابلة من الجهل، وعليه أيضا تزيد نسبة حكم العقل على ما أدركه من العلم، فيزداد تصديقه بالخبر على قدر علمه ومعرفته به، ويزداد تمييزه وحكمه على الأمر بالنفع والضرر على قدر علمه ومعرفته به، فالعلم بالرسالة مقابل للجهل، وكلاهما يوجدان في القلب، فيكون عالما بأشياء وجاهلا بأشياء، وكلاهما يتجاذبا، فكلما ازداد علما ومعرفة كلما نقص الجهل وتلاشى بحسبه، فالركن الأول من الإيمان قابل للزيادة والنقصان بتكامل النسب.

وكذلك الركن الثاني وهو عمل القلب، يزيد وينقص، فإن كانت قوة العزم وإرادة الحق والاستعداد لتنفيذ الأمر قوة كبيرة، كان مقدار العزم في إرادته للباطل ضعيفا حتى يتلاشى، وكذلك الحال في تجاذب كل عمل من أعمال القلوب من المحبة والنية والإخلاص والخوف والرجاء والتوكل والالتجاء، وغير ذلك من الأعمال الباطنة، تتنازعها قوتان متقابلتان، إما قوة العزم في تحقيق الإيمان، أو قوة العزم على العصيان والكفر والطغيان، ومن ثم كان القول بزيادة الإيمان أو نقصانه أمرا حتميا في كل إنسان، لأنه جعل بين كفر وإيمان فهما نجدان متقابلان في لحظة تمر عليه، وكل ابتلاء يصير إليه .

وكذلك الركن الثالث وهو قول اللسان يزيد وينقص، فلا يمكن أن يكون الإنسان صامتا طول حياته إلا لآفة، وقد خلقه الله ﷻ متكلما وجعل له لسانا وشفتين وهداه النجدين، فإما أن يتكلم بالحق أو يتكلم بضده من الباطل، فإن لم

يشهد ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله شهد بضد ذلك من أنواع الشرك، كأن يشهد زورا بأن الله ﷻ ثالث ثلاثة، أو أنه هو المسيح عيسى بن مريم، أو أنه عزير، أو اللات والعزى، أو بوذا أو كريشنا، أو الغوث أو الخليفة أو القطب الأعلى، فإن لم يشهد بالحق شهد في المقابل بالزور والإفك، هذا بالإضافة إلى أن صدقه وكذبه في شهادته على مقدار تصديقه وتكذيبه في قلبه، أو مقدار علمه ويقينه في نفسه، فيكون قوله بلسانه إما مطابقا لما في قلبه، أو جاحدا مخالفا، أو منافقا خالصا، كل بحسب كتمانه وجحوده أو مقدار إدعائه ونفاقه.

وكذلك الركن الرابع وهو عمل الجوارح، يزيد وينقص، فلا يمكن أن تكون الجوارح معطلة إلا لآفة كالمشلول، فإما أن يكون متحركا في الطاعة وأعمال الإيمان، أو متحركا في المعصية وأعمال الكفر، يتجاذبه الطرفان زيادة ونقصان، هذا بالإضافة إلى أن أعمال الجوارح مرتبطة بأعمال القلب في الإنسان وجودا وعدما، وقوة وضعفا، ومن ثم فإن جميع أركان الإيمان قابلة للزيادة والنقصان، وهذا ما دل عليه القرآن.

قال تعالى عن إمكانية زيادة الإيمان في قلوب المؤمنين: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ الفتح:٤ . وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ محمد:١٧ .

- **ما هي أوجه زيادة الإيمان الذي أمر الله به عباده؟**

ذكر ابن تيمية رحمه الله أن زيادة الإيمان الذي أمر الله ﷻ عباده المؤمنين وتفاضلهم فيه من شخص إلى آخر يعرف من عدة وجوه:

أحدها: الإجمال والتفصيل فيما أمرهم الله به، فإنه وإن وجب على جميع

الخلق الإيمان بالله ورسوله ﷺ، ووجب على كل أمة التزام ما يأمر به رسولهم مجملا، فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل عبد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ﷺ ما يجب على من بلغه غيره، فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها لزمه من الإيمان المفصل بذلك ما لا يلزم غيره، ولو آمن الرجل بالله ﷻ وبالرسول ﷺ باطنا وظاهرا ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين مات مؤمنا بما وجب عليه من الإيمان(١).

الثاني: الإجمال والتفصيل فيما وقع منهم، فمن آمن بما جاء به الرسول ﷺ مطلقا، فلم يكذبه قط لكن أعرض عن معرفة أمره ونهيه وخبره، وطلب العلم الواجب عليه، فلم يعلم الواجب عليه ولم يعمله، بل اتبع هواه، وآخر طلب علم ما أمر به فعمل به، وآخر طلب علمه فعلمه وآمن به ولم يعمل به، وإن اشتركوا في الوجوب لكن من طلب علم التفصيل وعمل به فإيمانه أكمل، وكلما علم القلب ما أخبر به الرسول ﷺ فصدقه، وما أمر به فالتزمه كان ذلك زيادة في إيمانه على من لم يحصل له ذلك، وإن كان معه التزام عام وإقرار عام.

الثالث: أن العلم والتصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض، وأثبت وأبعد عن الشك والريب، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه كما أن الحس الظاهر بالشيء الواحد، مثل رؤية الناس للهلال، وإن اشتركوا فيها فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض، وكذلك سماع الصوت الواحد، وشم الرائحة الواحدة، وذوق النوع الواحد من الطعام، فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة.

الرابع: أن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٢٣٢ بتصرف.

يستلزم عمله، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، وإذا كان شخصان يعلمان أن الله ﷻ حق، وأن رسوله ﷺ حق، والجنة حق، والنار حق، وهذا علمه أوجب له محبة الله وخشيته، والرغبة في الجنة، والهرب من النار، والآخر علمه لم يوجب ذلك، فعلم الأول أكمل.

الخامس: ذكر الإنسان بقلبه ما أمره الله به، واستحضاره لذلك بحيث لا يكون غافلا عنه أكمل ممن صدق به وغفل عنه، فإن الغفلة تضاد كمال العلم، والتصديق والذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين، فإذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادة الإيمان، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا، فتلك نقصانه. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ الأنفال: ٢.

السادس: أن الإنسان قد يكون مكذبا ومنكرا لأمور لا يعلم أن الرسول ﷺ أخبر بها وأمر بها، ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر، بل قلبه جازم بأنه لا يخبر إلا بصدق، ولا يأمر إلا بحق، ثم يسمع الآية أو الحديث أو يتدبر ذلك أو يفسر له معناه، أو يظهر له ذلك بوجه من الوجوه، فيصدق بما كان مكذبا به، ويعرف ما كان منكرا، وهذا تصديق جديد وإيمان جديد ازداد به إيمانه، ولم يكن قبل ذلك كافرا بل جاهلا[1].

• هل يلزم من نفي الإيمان المطلق عن الإنسان خروجه عن الملة؟

لا يلزم من نفي الإيمان المطلق عن الإنسان خروجه عن الملة، لأن الإيمان المطلق هو الإيمان الدال بالمطابقة على التزام كل ما ورد في الكتاب والسنة من

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٢٣٧ بتصرف.

أخبار تتطلب التصديق على التفصيل، وأوامر شرعية تكليفية تتطلب التنفيذ على اختلاف درجات أحكام العبودية، وهو الإيمان الذي يشمل الدلالة على الإتيان بجميع شعب الإيمان، فهذا يسمى الإيمان المطلق، وهو الإيمان الذي يتضمن حقيقة الإسلام.

أما الإيمان المقيد فهو ما يسمى بمطلق الإيمان أي الإيمان الناقص الذي جاء به صاحبه على الإجمال، وأعلن أنه على استعداد لتصديق الخبر وتنفيذ الأمر وإن لم يقم بكامل ما وجب عليه من الأقوال والأفعال بعد، أو أتى ببعض الأفعال الظاهرة التي تجعله مندرجا في وصف المسلمين، وهذا يطلق عليه مصطلح الإسلام، لاسيما إذا اجتمع مع مصطلح الإيمان في نص واحد، وقد أثبت الله في القرآن إسلاما بلا إيمان في قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ الحجرات:١٤.

ومثل هؤلاء يقال في حق الواحد إنه مسلم عاص، أو مؤمنٌ ناقص الإيمان، أو مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بكبيرته، ولا يعطى اسم الإيمان المطلق الذي يتناول جميع شعب الإيمان.

وأما الخوارج والمعتزلة فيخرجونهم من اسم الإيمان والإسلام؛ فإن الإيمان والإسلام عندهم واحدٌ ولا فرق بينهما؛ إذا خرجوا من الإيمان خرجوا من الإسلام؛ لكن الخوارج تقول هم كفارٌ؛ والمعتزلة تقول لا مسلمون ولا كفار؛ هم في منزلة بين المنزلتين(١).

(١) السابق ٧/ ٢٤٢ بتصرف.

وأصل نزاع الفرق من الخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية وغيرهم في الإيمان أنهم جعلوا الإيمان الذي هو تصديق الأخبار وتنفيذ الأوامر التكليفية شيئا واحدا، إذا زال بعضه زال جميعه، وإذا ثبت بعضه ثبت جميعه، فلم يقولوا بذهاب بعضه وبقاء بعضه، كما قال النبي ﷺ: يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من الإيمان.

وهؤلاء المبتدعة يفترضون صورة في أذهانهم لا حقيقة لها في الواقع فيتصورون في خيالهم أن كل إنسان لابد أن يكون إما ملَكا محضا، وإما شيطانا محضا، يتنقل بينهما في لحظة بجميع ما فيه من أركان الإيمان، ففي لحظة يكون ملَكا تنتقل فيه جميع الأركان إلى أعلى درجة في الإيمان، وأي خطأ منه مهما كان، ينقلب بسببه إلى شيطان وتزول فيه جميع أركان الإيمان، وكذلك الإنسان الذي يشبه الشيطان فإنه بمجرد قول اللسان لا إله إلا الله، يصبح ملكا كامل الإيمان مستوفيا لجميع الأركان، وهذه صورة لا تكون إلا في الخيال والأذهان، ولكنها لا محل لها في الواقع، وبعيدة كل البعد عن الحقيقة.

والسبب في ذلك أن الله ﷻ ابتلى الإنسان في الحياة، وهداه بين طريقين معروضين، إذا مال إلى أحدهما بدرجات متفاوتة يميل إلى الآخر بالنسب المقابلة التي تساويها في الدرجة، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ المجادلة:١١. وقال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ آل عمران:١٦٣. وقال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ الأنعام:١٣٢.

ولا يمكن أن يتنقل الإنسان في جميع الأركان القابلة للكفر أو الإيمان من

كفر كامل محض إلى إيمان كامل محض في لحظة من اللحظات دون أن يمر بدرجات ومواقف وابتلاءات تزداد شيئا فشيئا إلى أن تصل إلى الكمال في كل ركن من أركان الإيمان، وقد ينقص الإيمان شيئا فشيئا حتى يصل إلى التلاشي والزوال، فإن وصل الإيمان أعلاه وأصبح المؤمن في أعلى درجاته التي قد يصل إليها الإنسان ففيه شبه من الملائكة، وتحقق فيه الإيمان المطلق والرسوخ فيه، وإن وصل الإيمان أدناه وأصبح الإنسان في أدنى درجاته التي قد يصل إليها الإنسان ففيه شبه من الشيطان والحيوان، وإن كان مترددا بينهما، فهذا شأن غالب بني الإنسان يترددون بين الطاعة والعصيان، وبين الكفر والإيمان، فقد يجتمع في الشخص الواحد كفر وإيمان، وطاعة وعصيان، والأكرم عند الله ﷻ هو الأتقى دون النظر إلى الحسابات الأخرى أو اعتبار النظر إلى الأفقر أو الأغنى، أو الذكر أو الأنثى، وهذا موضع الابتلاء في خلق الإنسان من أجل استخلافه في الأرض.

- **ما هي عقيدة أهل السنة والجماعة في جواز الاستثناء في الإيمان؟**

حقيقة الاستثناء في الإيمان هي تعليق وقوع الإيمان من الإنسان على مشيئة الله، وهو قول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، ولما كانت مشيئة الله لا تكون إلا كونية، ولا يعلم أحد عن مشيئة الله إلا بعد وقوعها، فلابد أن نميز بين ما وقع، وما سوف يقع من أمور الإيمان، أو نميز بين ما وقع من أقوال الإنسان وأفعاله الموافقة للشرائع والأحكام، فالإيمان هو موافقة الإنسان للإرادة الشرعية الدينية التكليفية، أو موافقة الإنسان لأحكام العبودية، فإن وافقها فقد اتفقت الإرادة الشرعية مع الإرادة الكونية، أو اتفقت الإرادة الشرعية أو المحبة الإلهية مع المشيئة التي لا تكون إلا كونية.

ومعلوم أن التوحيد الحق أن يراعي العبد في أفعاله وأقواله ارتباطها بمشيئة الله ﷻ في جميع الأوقات، سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، فيؤمن بأن كل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن، فالمؤمن يقول فيما وقع من الأحداث ومضى وانتهى: قدر الله وما شاء فعل، ولا يقول: لو كان كذا وكذا، لكان كذا وكذا، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، لاسيما بعد نفاذ أمره ووقوعه.

والمؤمن يقول فيما وقع من أقواله وأفعاله مطابقا لشرع الله وأحكامه الحمد لله الذي وفقني وهداني فيرد الفضل في فعله إلى توفيق ربه فالطاعة ينسب الفضل فيها إلى الله ﷻ إذ أعان المؤمن بمشيئته ووفقه بقدرته، فالفضل لله في طاعة عبده، ويجب على المؤمن أن ينسب الفضل إلى ربه، فهو الذي حبب إليه الإيمان وزينه في قلبه. والمؤمن يجب عليه أن يتوب إلى ربه، ويندم على قوله وفعله إذا وقع الفعل مخالفا لشرع الله وحكمه، ويجب عليه أيضا أن ينسب الذنب والتقصير إلى نفسه أو إلى شيطانه، وإن كان فعله قد وقع بمشيئة الله وقضائه وقدره، ويجب عليه أيضا أن يعزم في قلبه على عدم العودة إلى المعصية والالتزام بالشرائع والأحكام.

هذا فيما مضى ووقع من الإيمان في أقوال الإنسان وأفعاله إذا وافقت أحكام التكليف والعبودية أو خالفتها، وكذلك حكم تعلقها بمشيئة الله وقدرته ونسبة الفعل إلى العبد أو إلى خالقه، وهو الموافق للأصول النقلية والعقلية والفطرة النقية، فلا يصح فيما مضى ووقع من الطاعة أن يقول صليت إن شاء الله، وتصدقت وصدقت إن شاء الله، والصواب أن يقول: صليت بفضل الله وتصدقت وصدقت بمنة الله وفضله، وأسأل الله أن يتقبل مني صلاتي وزكاتي

وصومي، وأن يعفو عني إن قصرت فيها، وأن يرزقني طاعته وتقواه.

أما رد أمور الإيمان إلى مشيئة الله في الحاضر وأثناء الفعل فهو كما في قوله تعالى: ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ الكهف:٣٩. فالعبد الصادق الموحد مؤمن بأن الله ﷻ انفرد بالمشيئة والتقدير وإليه يرجع الأمر والتدبير، فلا يطمع في سواه، ولا يرجو إلا إياه، ولا يشهد في العطاء إلا مشيئته، ولا يرى في المنع إلا حكمته، ولا يعاين في القبض والبسط إلا قدرته، ويقول عندما يرى نعم الله عليه كما قال تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ هود:٨٨ .

أما رد أمور الإيمان من الأقوال والأفعال إلى مشيئة الله في المستقبل وهي مسألة الاستثناء في الإيمان فهي كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ الكهف:٢٣/ ٢٤. وهنا يجوز الاستثناء في الإيمان على اعتبار أن أفعال الإنسان في المستقبل لا تقع إلا بمشيئة الله، وإن كان المؤمن عازما على الفعل قد بيت النية على تصديق خبر الله ﷻ إن علمه، وتنفيذ أمره إن بلغه، فهو على هذا مؤمن إن شاء الله أن يقع منه الفعل أو لم يقع. قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ الإنسان:٣٠. وقال: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ التكوير:٢٩.

وكل من قال من السلف بالاستثناء في الإيمان فعلى اعتبار أن وقوع تصديقه بما سيتعلمه من أحكام، ووقوع أفعاله وأقواله مطابقة لأحكام الإسلام متوقف على إرادة الله الكونية أو مشيئة الله وقضائه وقدره في توفيق عبده إلى تحقيق مراده، أما تمسك العبد بإرادة الله الشرعية والنية الصادقة في فعل ما يحبه الله

ويرضاه فهذا لا شك فيه كأساس للنجاة في الدنيا والآخرة، فهم يوقنون بأن الأعمال بالنيات، وأن الاعتصام بحبل الله ﷻ وطلب العصمة والنجاة فيه الثبات في الدنيا والآخرة.

• لماذا منع المبتدعون من المرجئة الاستثناء في الإيمان؟

المبتدعون من المرجئة والجهمية يحرمون الاستثناء في الإيمان، ويمنعون أن يقول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، لأنهم أخرجوا العمل من الإيمان، فالعمل لا يدخل عندهم في مسمى الإيمان، ويجعلون الإيمان مجرد العلم أو التصديق، كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما في قلبه؛ فيقول أحدهم: أنا أعلم أني مؤمن، كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين، فكما أنه لا يجوز أن يقال: أنا قرأت الفاتحة إن شاء الله، كذلك لا يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، قالوا فمن استثنى في إيمانه فقد شك فيه، وسموا السلف الصالح وكل من استثنى في إيمانه بالشكاكة[1].

وهؤلاء المرجئة أخطئوا من جهة أنهم جعلوا الإيمان مجرد العلم بما وقع من العبد من النطق بالشهادتين، وأخرجوا العمل منه، فالعمل لا يدخل عندهم في مسمى الإيمان، ولما كان العمل يتطلب الاستعانة بالله ﷻ في وقوع النتائج على أسبابها التي يؤخذ العبد بها، ووقوع المعلولات على عللها، كان لا بد من التفريق بين اعتبارين في مسألة الاستثناء، فيصح أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله على اعتبار أنه سيفعل أفعال الإيمان حين حلول وقت الأمر التكليفي، ووقوع الفعل وقتها متوقف على ما يشاء الله، لكنه مؤمن على اعتبار صدق نيته واستجابة الأعمال في قلبه، واستعداده الدائم للعمل إن مات قبل الفعل.

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٤٢٩ بتصرف.

وذكر ابن تيمية أن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله ﷻ به عبده كله؛ وترك المحرمات كلها؛ فإذا قال الرجل أنا مؤمن بهذا الاعتبار، فقد شهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين القائمين بفعل جميع ما أمروا به؛ وترك كل ما نهوا عنه فيكون من أولياء الله؛ وهذا من تزكية الإنسان لنفسه وشهادته لنفسه بما لا يعلم، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي له أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحالة، ولا أحد يشهد لنفسه بالجنة؛ فشهادته لنفسه بالإيمان كشهادته لنفسه بالجنة إذا مات على هذه الحالة؛ وهذا ما كان يخشاه عامة السلف الذين كانوا يستثنون[1].

قال رجل لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: قيل لي أمؤمن أنت؟ قلت: نعم؛ هل علي في ذلك شيء؟ هل الناس إلا مؤمن وكافر؟ فغضب أحمد وقال: هذا كلام الإرجاء؛ قال الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ التوبة:١٠٦. من هؤلاء؟ ثم قال أحمد: أليس الإيمان قولا وعملا؟ قال له الرجل: بلى. قال: فهل جئنا بالقول؟ قال: نعم. قال: فهل جئنا بالعمل؟ قال: لا. قال: فكيف تعيب أن يقول إن شاء الله ويستثني[2].

ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال أنا مؤمن بلا استثناء، إذا أراد ذلك لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين أنه لم يرد الإيمان المطلق الكامل، ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استثناء يقدمه.

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٤٤٦ بتصرف.

(٢) السابق ٧/ ٤٤٧ بتصرف.

• كيف ترد على من قسم الكفر إلى اعتقادي أكبر وعملي أصغر؟

لا بد لكل من تناول موضوعات الكفر والإيمان من تحري وضوح الألفاظ والتحقيق فيها والاستبيان، وعدم استخدام اصطلاحات يمكن للشخص الواحد أن يحملها على عدة معان، فلا بد من بيان مراد المتكلم وفهم دلالة ألفاظه على معانيها مطابقة وتضمنا والتزاما، ورد كلامه إلى أصول الإيمان وضوابط الكفر وأنواعه.

ومما أحدث جدلا كبيرا ما تبناه كثيرون من تقسيم الكفر إلى كفر أكبر محصور في الكفر الاعتقادي فقط، وكفر أصغر محصور في الكفر العملي فقط، ولا شك أن تبني مثل هذا التقسيم أحدث خللا وجدلا كبيرا بين كثير من طلاب العلم فضلا عن الدعاة، وهذا تقسيم موهم باطل لأن الكفر العملي المبني على انتفاء عمل الجوارح ويلازمه بالضرورة انتفاء عمل القلب، قد يكون كفرا أكبر، وقد يكون كفرا أصغر، بل انتفاء كل ركن من أركان الإيمان يوجب الركن المقابل من أركان الكفر وبنفس النسبة والمقدار المعاكس.

ولما كان الإيمان عند السلف الصالح له عدة أركان هي القول والعمل في الظاهر والباطن، أو بعبارة أخرى لما كانت أركان الإيمان عند السلف الصالح هي قول القلب وعمل القلب، وقول اللسان وعمل الجوارح، فإن أصول الكفر كما تقدم تتعلق بكل ركن من هذه الأركان التي تقابلها، وهي كفر الإعراض عن العلم ويسمى كفر الجهل والتكذيب، وكفر الإعراض عن إخلاص القلب والحب عند وجود القول الظاهر أو العمل الظاهر ويسمى كفر النفاق، وكفر الإعراض عن شهادة الحق بعد وجود علم القلب ويسمى كفر الجحود والكتمان، وكفر الإعراض عن الانقياد والطاعة والخضوع عند وجود قول

اللسان، ويسمى كفر العناد والاستكبار، وهذه الأربعة أيضا على نوعين، إما كفر أكبر ينفي الإيمان بكليته، أو كفر أصغر ينفي بعضه ولا يزول كله، وله حكم الكبائر.

ومن ثم فإن قول القائل بحصر الكفر الأكبر في الكفر الاعتقادي فقط والكفر الأصغر في الكفر العملي فقط لا بد أن يحدث لبسا وجدلا، فهل الاعتقاد الذي يؤدي انتفاءه إلى وجود الكفر الاعتقادي الذي لا يكون إلا كفرا أكبر، هل هذا الاعتقاد هو مجرد قول القلب؟ أو علم القلب؟ أو عمل القلب؟ أو تصديق العقل الذي في القلب لمقتضى العلم الذي حصله؟ أو استيقان القلب بصدق الخبر والحكم بعدم الضرر في الأمر التكليفي الوضعي أو الشرعي؟ أو هو مركب من علم القلب وتصديقه واستعداد القلب للعمل والانقياد والحب؟

وإذا تحققنا من إجابة مقنعة لمعنى الاعتقاد الذي يؤدي انتفاؤه إلى الكفر الاعتقادي والذي لا يكون إلا كفرا أكبر عند هؤلاء، فهل كل ما تعلق بانتفاء الاعتقاد الحق يكون كفرا أكبر فقط ولا يكون كفرا أصغر بحال من الأحوال؟ فهل من اعتقد أن المطر ينزل بنوء كذا وكذا أو اعتقد أنه لو علق خرزة أو كفا ليسلم من العين والحسد، أو ما شابه ذلك الاعتقادات الشركية يكون خارجا من الملة؟

ثم ما المقصود بالكفر العملي الذي لا يكون إلا كفرا أصغر، هل المقصود انتفاء عمل الجوارح كله مع وجود عمل القلب؟ لو كان المراد هذا فإنه باطل؛ لأنه لا واقع له إلا في خيال المرجئة، الذين يقولون الإيمان قول القلب وقول اللسان دون عمل الجوارح، فمن المقرر في مذهب السلف أنه إذا انتفى عمل الجوارح كله انتفى معه عمل القلب كله، وقد تقدم أنه يمتنع انتفاء عمل

الجوارح بالكلية مع وجود شيء من عمل القلب، فإن هذا لا يكون في الواقع مع سلامة القدرة وخلو الموانع، وإنما يتصور الذهن أشياء لا وجود لها.

ومن ثم فإن الذي يجعل الكفر العملي كفرا أصغر فقط، أو يجعل انتفاء عمل الجوارح بالكلية لا يخرج من الملة، ويزعم أنه يكفي قول اللسان دون العمل بالجوارح والأركان، فكلامه باطل مخالف لما عليه السلف الصالح وأدلة المنقول والمعقول، فمن المعلوم أن السجود للصنم أو الوثن والذبح له والطواف به من أعمال الجوارح، وهي أعمال كفر مخرجة من الملة عند أهل السنة والجماعة بإجماعهم، ولم يرد عن أحد منهم أن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان، بحيث لو انتفى العمل كله يصبح كفره كفرا أصغر، بل جميعهم صرح بأن الإنسان إذا أصر على ترك العمل جميعه ولم ينفذ لله أمرا بعد العلم بأوامره من غير مانع أو جهل، فهو كافر كفرا أكبر، وليس كفرا أصغر.

وقد زعم بعضهم أنه لا يكفر إلا من اعتقد الكفر، أما من تلفظ به أو عمل ما هو كفر صراحة فلا يكفر؛ إذ الكفر هو الاعتقاد فقط، وهذا هو مذهب المرجئة المذموم، وقد استدل هؤلاء بتقسيم بعض العلماء الكفر إلى كفر عملي وكفر اعتقادي، وأن الأول كفر أصغر والثاني كفر أكبر، دون تفريق بين الكفر العملي الذي يعنيه العلماء والكفر بالعمل أو الأعمال المكفرة.

ومن هنا نشأت عندهم شبهة أخرى وهي أن المرء لو عمل عملا كفريا، كالسجود لصنم أو صليب، أو قال قولا كفريا، كسب الله ورسوله، أو استهزأ بآيات الله لشهوة أو غرض دنيوي فإنه لا يكفر ما لم يعتقد؛ فعدوا ذلك مانعا من موانع التكفير، والذي عليه علماء أهل السنة والجماعة أن موانع التكفير أربعة: الجهل، والخطأ، والتأويل أو الشبهة، والإكراه، فمن وقع في كفر عملا

أو قولا ثم أقيمت عليه الحجة ،وبين له أن هذا كفر يخرج من الملة فأصر على فعله طائعا غير مكره، متعمدا غير مخطيء ولا متأول فإنه يكفر، ولو كان الدافع لذلك الشهوة أو أي غرض دنيوي، وهذا ما عليه أهل الحق وعليه ظاهرين إلى قيام الساعة إن شاء الله.

- **لماذا كان أهل السنة والجماعة لا يكفرون المعين ممن خالفهم؟**

ذكر ابن تيمية أن أهل السنة والجماعة لا يكفرون من خالفهم، وإن كان المخالف يكفرهم؛ لأن الكفر حكم شرعي، فليس للإنسان أن يتجاوزه، فمن كذب عليك، ليس لك أن تكذب عليه؛ لأن الكذب تجاوز حق الله تعالى، وكذلك التكفير تجاوز حق لله، فلا يكفر إلا من كفره الله ورسوله ﷺ، وأيضا فإن تكفير الشخص المعين وجواز قتله موقوف على أن تبلغه الحجة النبوية التي يكفر من خالفها، وليس كل من جهل شيئا من الدين يكفر.

ثم قال ابن تيمية: (ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن الله تعالى فوق العرش لما وقعت محنتهم: أنا لو وافقتكم كنت كافرا، لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال، وكان هذا خطابا لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم، وأصل جهلهم شبهات عقلية حصلت لرؤوسهم في قصور من معرفة المنقول الصحيح والمعقول الصريح الموافق له، وكان هذا خطابنا)[(١)].

وذكر ابن تيمية أن من أخطأ في بعض مسائل الاعتقاد من أهل الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر والعمل الصالح لم يكن أسوأ حالا من الرجل الذي أمر

(١) الرد على البكري ٢/ ٤٩٥.

أهله بحرقه بعد موته، فيغفر الله ﷻ خطأه، أو يعذبه إن كان منه تفريط في اتباع الحق على قدر دينه، وأما تكفير شخص عُلم إيمانه بمجرد الغلط في ذلك فخطر عظيم[1].

كما أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه تكفير من عطل كلام الله ورسوله ﷺ لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه، فإن الإمام أحمد مثلا قد باشر الجهمية الذين دعوه إلى خلق القرآن ونفي الصفات، وامتحنوه وسائر علماء وقته، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التجهم بالضرب والحبس والقتل والعزل عن الولايات، وقطع الأرزاق ورد الشهادة وترك تخليصهم من أيدي العدو، بحيث كان كثير من أولي الأمر إذ ذاك من الجهمية من الولاة والقضاة وغيرهم يكفرون كل من لم يكن جهميا موافقا لهم على نفي الصفات، مثل القول بخلق القرآن، ويحكمون فيه بحكمهم في الكافر، فلا يولونه ولاية، ولا يفتكونه من عدو، ولا يعطونه شيئا من بيت المال، ولا يقبلون له شهادة، ولا فتيا ولا رواية، ويمتحنون الناس عند الولاية والشهادة والافتكاك من الأسر وغير ذلك، فمن أقر بخلق القرآن حكموا له بالإيمان، ومن لم يقر به لم يحكموا له بحكم أهل الإيمان، ومن كان داعيا إلى غير التجهم قتلوه أو ضربوه وحبسوه[2].

ومعلوم أن هذا من أغلظ التجهم، فإن الدعاء إلى المقالة أعظم من قولها، وإثابة قائلها وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها، والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب، ثم إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره ممن ضربه

---

(١) الاستقامة ١/ ١٦٧.

(٢) مجموع الفتاوى ١٢/ ٤٨٩ بتصرف.

وحبسه، واستغفر لهم، وحللهم مما فعلوه به من الظلم، والدعاء إلى القول الذي هو كفر، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لم يجز الاستغفار لهم؛ فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع.

- **ما هي نواقض الإسلام والحدود الفاصلة بينه وبين الكفر؟**

الفروق والحدود الفاصلة بين الإسلام والكفر بينها الفقهاء في أحكام المرتد بصورة دقيقة، فالردة هي الكفر بعد الإسلام، وتكون بالقول والفعل، ظاهرا وباطنا، ولذلك فإن الأصول النقلية التي ترد إليها نواقض الإسلام القولية والعملية تتمثل في انتفاء أصول التوحيد والإيمان في الإنسان، ومردها إما إلى انتفاء التوحيد بالشرك، أو انتفاء الإيمان بالكفر.

والمشركون والكافرون هم الذين يكرهون دين الإسلام ونور الإيمان، ويصدق عليهم بعد ذلك جميع المعان، فهم مجرمون وفاسقون وظالمون أو منافقون، لكن جماع الوصف الذي إليه يُردّون هو الكفر أو الشرك.

ولذلك جمع الله ﷻ هذه الوصفين الجامعين لمن يكره الإسلام ويأبى الإيمان في موضعين من كتابه:

الأول: قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة:٣٢/ ٣٣.

والثاني: قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ الصف:٨/ ٩.

وأما النواقض القولية والفعلية التي دلت عليها النصوص القرآنية والنبوية،

فبيانها على النحو التالي:

١- الناقض الأول: هو الشرك الأكبر المبني على التشبه بالخالق والشرك في الربوبية، كشرك فرعون والنمرود بن كنعان، وهذا الشرك يكون بالقلب واللسان والجوارح، فالقلب يقوم به منازعة الله في العظمة والكبرياء، ويكون بانعدام الخضوع وقيام الإباء والاستكبار والاستعلاء، واللسان يقوم به القول والادعاء كقول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ النازعات:٢٤. وقول القائل: الأمر لي وليس لربكم، وأنا أقدر أن أفعل بكم ما أشاء، وربكم عاجز عن ذلك، إلى غير ذلك من العبارات التي تصدر ممن ينتسب إلى الإسلام، ويكون بالجوارح في بسط القدرة بالظلم والقهر والطغيان، ومحاربة أولياء الله وقتلهم وتعذيبهم وجبرهم على الكفر والعصيان، وكل من أشرك في الربوبية شركا أكبر فقد خرج من الإسلام.

٢- الناقض الثاني: هو تشبيه المخلوق بالخالق المؤدي للشرك الأكبر في العبادة، وهو كثير في المنتسبين للإسلام، ويكون بالقلب واللسان والجوارح، فشرك القلب كالشرك الأكبر في المحبة والخوف والرجاء والإرادة والنية وغير ذلك، وشرك اللسان كالاستغاثة والدعاء والاستعانة والتوسل والنداء، وطلب المدد من القباب والموتى من الأولياء، وغير ذلك مما يكون شركا أكبر، وشرك الجوارح كالركوع لهم والسجود والطواف والذبح لهم وغير ذلك.

٣- الناقض الثالث: تشبيه الخالق بالمخلوق، وهو الشرك الأكبر المتعلق بالتشبيه والتعطيل، ويكون أيضا بالقلب واللسان والجوارح كاعتقاد تمثيل الصفات الإلهية بصفات الخالق كمن اتخذ للرحمن ولدا، ممثلا الخالق بالمخلوق في كونه يلد أو يولد، وكمن دعا إلى ذلك بالقول أو الكتابة والفعل، وكذلك

الشرك في الأسماء والصفات، وهو شرك يهدم التوحيد وينافيه، فمن مثل الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله نفسه به فقد كفر.

٤- الناقض الرابع: التكذيب بالحق أو الشك فيه وعدم التصديق اليقيني بخبر الله ورسوله ﷺ، وقد علمنا أن الخبر هو ما يحتمل التصديق أو التكذيب، وخبر الله يتطلب التصديق الذي يبلغ حد اليقين، واليقين شرط دخول الإنسان في الإسلام، كما أن التكذيب والشك ناقض للإسلام، فمن كان في قلبه ظن أو شك أو وهم فيما أخبر به ربه عن نفسه أو مَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليوْمِ الآخِرِ وَتؤْمِنَ بالقَدرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ فقد انتفى إسلامه وخرج من الملة.

٥- الناقض الخامس: هو التولي والإعراض عن العلم برسالة الإسلام لا يرغب في العلم، ويؤثر البقاء على الإعراض والجهل، فيغلق قلبه وعقله، ويعطل نظره وفكره، كما فعل كسرى ملك الفرس حين مزق رسالة النبي ﷺ إليه دون تفكر أو استدلال، أو نظر أو سؤال واستفسار، فكفره كفر الجهل وإعراض ينقض دين الإسلام.

٦- الناقض السادس: هو النفاق الأكبر وهو تظاهر الإنسان بالإيمان والصدق في قول اللسان وفعل الجوارح، فلا يعمل بقلبه ويعقد النية على كره الإسلام وبغضه، فكفر النفاق ينشأ عن انتفاء عمل القلب مع الإقرار باللسان وانقياد الجوارح في ظاهر الإنسان.

٧- الناقض السابع: جحود الحق والتوحيد وتفضيل الشرك، وجحود الرسالة، أو بعض ما جاء فيها، وتقديم الباطل على الحق والدفاع عنه بالباطل عن علم فهو ناقض للإسلام؛ وفيه شبه من كفر فرعون فإنه استيقن في الجنان

بصدق بموسى وهارون عليهما السلام، وجحد باللسان أن يوافقهم فيما يقولون. وكذلك من سب دين الله أو استهزأ بشيء منه، أو استهزأ بشيء من ثوابه أو عقابه كفر.

٨- الناقض الثامن: الإعراض بالجوارح عن الطاعة لله ورسوله واستكباره وإصراره على عدم تنفيذ أوامر الله وأحكامه، وهو كفر العناد والاستكبار، وهو مبني على علم القلب بالحق وإقرار اللسان وشهادته ظاهرا ألا إله إلا الله، وأنه لا معبود بحق سواه، وامتناع الجوارح من الطاعة والاستسلام وعدم الالتزام بما جاء عن الله من أحكام، ولازم ذلك خلو القلب من الإيمان وهذا الكفر متردد بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر، فالكفر الأكبر ناقض من نواقض الإسلام، وصاحبه فيه شبه من كفرُ إبليس لعنه الله. ويدخل في ذلك من لم يحكم بما أنزل الله وكان كفره كفرا أكبر كما تقدم وهو الذي لم يقبل الخضوع للشرع وتنفيذ الأحكام مع علمه وقدرته ووجود استطاعته.

٩- الناقض التاسع: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين في استباحة حرماتهم وكشف عوراتهم موالاة للكافرين، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المائدة:٥١. وكذلك من لم يكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم كفر إجماعا.

١٠- الناقض العاشر: من اعتقد أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام وأنه يصل مع الله إلى حال تسقط عنه التكاليف الشرعية، أو اعتقد أن غير هدى النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، فهو كافر بالله العظيم وخارج عن الملة.

- **هل يتوقف تكفير أصحاب الذنوب على الاستحلال لها فقط؟**

استدل البعض بقول الإمام الطحاوي: (ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله). استدلوا بذلك على اشتراط الاستحلال للكفر حتى يكفر، وكل ما وقع من قبيل الكفر يؤول عندهم إلى الكفر العملي الذي هو من قبيل المعاصي والكفر الأصغر، والصواب أن يقال: ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بكل ذنب كما تفعله الخوارج.

ومعلوم أن تقسيم بعض العلماء الكفر إلى عملي أصغر واعتقادي أكبر كلام فيه نظر، لأن علماء السلف اتفقوا على أن الكفر قد يكون بالقول وقد يكون بالعمل، والأصوب الالتزام بتقسيم الكفر إلى ما هو أكبر وما هو أصغر، أو إلى كفر مخرج من الملة، وإلى كفر لا يخرج من الملة، ونحو ذلك من العبارات التي لا توهم لبسا، والتي تتضمن الدلالة على أن الكفر قد يكون بالقول أو بالعمل.

وكلام الإمام الطحاوي كلام مجمل يحتمل وجوها لا بد من الاستفصال فيها، فيمكن أن يفسر كلامه تفسيرا صحيحا على اعتبار صحة الجزء الأول منها وهو قوله: ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب. وعلى أن يكون الذنب هو ما دون الكفر الأكبر، لأن أهل السنة والجماعة لا يكفرون بالذنب الذي هو في درجة الكبائر من فعل المحرمات وترك الفرائض والواجبات.

أما عبارة الطحاوي وقوله: ما لم يستحله. كشرط علق عليه عدم الحكم بالكفر الأكبر، فهي عبارة موهمه وغير محكمة، فإن العبد قد يكفر بفعل الذنب وهو غير مستحل له، ولهذا ورد عند البخاري من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: (قلت: يا رسول الله! أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: أن تدعو لله

ندا وهو خلقك)[1]. فسماه ذنبا، فهذا القيد الذي ذكره الإمام الطحاوي قد يحدث لبسا عند الإطلاق.

والمقصود بالاستحلال استحلال القلب للمحرمات وترك الواجبات، اعتقادا منه أنه لا ينبغي أن يكون ذلك الأمر حراما، كمن يزعم من المعاصرين اللبراليين والعلمانيين والحداثيين في بعض المحرمات الشرعية المجمع على تحريمها أنها حلال وحرية، وأن اعتبارها محرما هو من باب التخلف والرجعية، كظهور المرأة شبه عارية في الألعاب الرياضية وبعض البرامج التلفزيونية، واستحلال الرقص والفحش وشرب الخمر والخلاعة النسائية وجعله ذلك ابداعا وفنا ومهنة شريفة وحلال مباحا، ومثله أيضا اعتبار توريث المرأة لنصف الرجل والزواج من مثنى وثلاث ورباع أمورا لا تليق بهذا العصر وتنتقص من حقوق الإنسان.

ومن ثم فإن الاستحلال الذي ورد معناه في القرآن والسنة هو عدم تحريم ما حرم الله ورسوله، فلا يعتقده حراما مستوجبا العقوبة أو اللعن أو الكفارة، فإذا أقام شخص على ذنب أو كبيرة من الكبائر فلا يصح أن يقال إنه مستحيل، إلا إذا أظهر أنه لا ينبغي أن تكون حراما وأنه لا يرى عدم التحريم.

- **ما هي عقيدة أهل السنة والجماعة في الولاء والبراء؟**

الولاء والبراء عقيدة بالقلب تظهر آثارها بالضرورة على قول اللسان وعمل الجوارح في الإنسان، دلت عليها النصوص النقلية والدلالات العقلية والفطرية، وهذه العقيدة ترجع إلى معنى الحب والنصرة في الولاء، والبغض

(١) البخاري في كتاب التوحيد، باب يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك ٦/ ٢٧٣٩ (٧٠٩٤).

والعداء في البراء. والولاء شرعا هو الحب والنصرة لله تعالى ولرسوله ﷺ ولدين الإسلام والمسلمين في كل مكان وزمان، والبراء هو ما يقابل الولاء وهو بغض الطواغيت، وكل ما عبد من دون الله، وبغض الشرك وجميع أنواع المشركين، وبغض الكفر بجميع أنواعه، وبغض جميع الكافرين، والمعاداة لكل من خالف الدين الحق.

هذا معنى الولاء والبراء في الكتاب والسنة وهو اعتقاد بالجنان لابد من ظهور أثره على الجوارح والأركان كباقي العقائد التي لا يصح تصور استقرارها في القلب دون أن تظهر أثرها على جوارح معتقدها، وعلى قدر قوة استقرارها في القلب وثبوتها تزداد دلائل ذلك في أفعال العبد الظاهرة، وعلى قدر ضعف استقرارها تنقص دلائلها في أفعال العبد الظاهرة، فإذا زال الولاء في ركن من أركان الإيمان بالكلية كالقلب قام البراء فيه على قدره المقابل، وزال معه الإيمان كله، ولم يبق للإيمان أثر على الجوارح؛ إلا في المنافق الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر.

وقد أوجب الله الموالاة بين المؤمنين، وبين أن ذلك من لوازم الإيمان ونهى عن موالاة الكفار، وبين أن ذلك منتفٍ في حق المؤمنين، وبين حال المنافقين في موالاة الكافرين، فالمؤمنون أولياء الله، وبعضهم أولياء بعض؛ والكفار أعداء الله وأعداء المؤمنين، والأدلة على موالاة المؤمنين كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ المائدة: ٥٥/ ٥٦.

ومن جنس موالاة الكفار التي ذم الله ﷻ بها أهل الكتاب والمنافقين الإيمان

بعض ما هم عليه من الكفر، أو التحاكم إليهم دون كتاب الله كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ النساء:٥١.

• ما هي عقيدة أهل السنة والجماعة في الواجب تجاه ولاة الأمر؟

عقيدة أهل السنة والجماعة السمع والطاعة لولاة الأمر في غير معصية الله، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وكما ذكر الإمام الطحاوي أننا لا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يدا من طاعتهم، ونرى طاعتهم في طاعة الله ﷻ فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة[(١)].

وذلك لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ النساء:٥٩. فتأمل كيف قال: وأطيعوا الرسول، ولم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم؟ لأن أولي الأمر لا يفردون بالطاعة، بل يطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله ﷺ. وأعاد الفعل مع الرسول ﷺ للدلالة على أن من أطاع الرسول فقد أطاع الله، فإن الرسول ﷺ لا يأمر بغير طاعة الله، بل هو معصوم في ذلك، وأما ولي الأمر فقد يأمر بغير طاعة الله، فلا يطاع إلا فيما هو طاعة لله ورسوله ﷺ.

وأما لزوم طاعتهم في طاعة الله وإن جاروا؛ فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في الصبر على جورهم

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٥١.

تكفير السيئات ومضاعفة الأجور، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد بالاستغفار والتوبة وإصلاح العمل. وعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني)[1].

وروى مسلم من حديث أبي ذر ﷺ أنه قال: (إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبدا حبشيا مجدع الأطراف)[2]. وعند البخاري أيضا: (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)[3].

• ما هي عقيدة أهل السنة في وقوع الاختلاف بين أفراد الأمة؟

إن الاختلاف بين العباد فضلا عن الاختلاف بين المسلمين المنتسبين لدين خاتم الأنبياء والمرسلين واقع لا محالة بالمشيئة أو بالإرادة الكونية القدرية الحتمية التي لا تتغير ولا تتبدل، لكنه محرم عليهم بالإرادة الشرعية التكليفية الدينية التي يتحمل المخالف فيها كامل المسئولية، فمن باب النظر إلى القدرة وأفعال الربوبية حدث الاختلاف بين البشرية، ومن باب النظر إلى الحكمة وتوحيد العبودية ووقوع الابتلاء وتحمل الجزاء والمسئولية التي تتعلق بالاختيارات البشرية كان النهي عن التفرق والاختلاف والأمر بالاعتصام والوحدة والائتلاف.

وتلك مشيئة الله في خلقه، وما قضاه وقدره في ملكه، فالله ﷻ على عرشه في

(١) البخاري في الأحكام ٨/ ١٠٤، ومسلم في كتاب الإمارة ٣/ ١٤٦٥.

(٢) مسلم في الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ١/ ٤٤٨.

(٣) البخاري في الجهاد ٦/ ١١٥ (٢٩٥٥).

السماء يفعل ما يشاء، وبيده أحكام التدبير والقضاء، قضى بعدله أن تقوم الخلائق على حقيقة الابتلاء، ثم يتحول العالم بعد ذلك إلى دار الجزاء، يخلق الله ما يشاء، ولكن حكمته لا بد من وقوعها كما شاء، ولذلك يذكرنا الله ﷻ في كثير من المواطن بتلك الحقيقة، وأنه سبحانه وتعالى قادر على أن يفعل ما يشاء، لولا ما دون في أم الكتاب من أحكام القضاء فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ يونس:١٩. والمعنى لولا كلمة سبقت من ربك بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم لقضي بينهم بأن ننجي المؤمنين، ونهلك الكافرين المكذبين على الفور، وصار هذا فارقا بينهم فيما فيه يختلفون، ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض تحقيقا لحكمته في تمييز الخبيث من الطيب والصادق من الكاذب.

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ هود:١١٨/ ١١٩. فالله سبحانه وتعالى يخبر أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على قلب رجل واحد في الالتزام بمنهج الإسلام، فإن مشيئته مطلقة وغير مقيدة ولا قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكن اقتضت قدرته أن لا يزالون مختلفين لتتم حكمته في المخالفين لصراط الله الذي أنزله للمؤمنين الموحدين، وليتميز به أهل الجنة الموقنين عن الكافرين والمشركين أصحاب الجحيم، فالمؤمنون أهل الحق هم المعنيون المختصون بالرحمة فيما استثنى.

وهكذا اقتضت حكمته ﷻ أنه خلقهم ليكون منهم السعداء والأشقياء،

والفريق الذين هدى الله، والفريق الذين حقت عليهم الضلالة، ليتبين للعباد عدله وحكمته في مقابل مشيئته وقدرته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، وليقوم سوق الاجتهاد والجهاد والمجاهدة في العبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء.

ومن ثم فنحن نؤمن أن الله سبحانه أنه قادر على أن يكون الناس أمة واحدة كأمة الملائكة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولكنه سبحانه جعل لهم الحرية في الاتباع، وجعل لهم الاستطاعة والقدرة على الامتناع، فلا إكراه في الدين، وسوف يحاسبهم أجمعين كما قال رب العالمين: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ السجدة:١٣. فما خلقهم الله إلا ليعبدونه باستخلافهم في ملكه، وابتلائهم بأمره وشرعه، ثم يحاسبهم بعدله وفضله.

ولذلك وجب على أهل الإيمان أن يسألوا ربهم الاعتصام بشرعه الذي أنزله طريقا للهدى، وأن يوفقهم إليه، وأن يعينهم عليه، ولا بد لأهل التوحيد عند دعوة المخالفين، أو الحوار معهم أن يضعوا في أذهانهم هذه الحقيقة الإيمانية في فهم العلاقة بين معاني القدرة الإلهية ومعاني الحكمة الإلهية، أو العلاقة بين معاني توحيد الربوبية ومعاني توحيد العبودية، فلن يستجيب إلى الحق إلا من رغب بصدق في اتباع الرسول ﷺ وعمل بأدلة المنقول، وطلب من ربه الهداية الاعتصام بحبله طلبا ينم عن حبه وصدقه، فاللهم وفقنا إلى ما تحب وترضى.

• ما هي القواعد الشرعية ومنهج الوسطية في تقويم الرجال؟

القاعدة الأولى: الكلام في الناس يجب أن يكون بعلم وعدل لا بجهل وظلم،

والأصل في هذه القاعدة الشرعية قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ ﴾ المائدة:٨.
وهذه الآية الكريمة ترسم منهجا عظيما يجعل العدل من لوازم الإيمان ومقتضياته، وترسم منهاجا دقيقا يمثل جمع صور العدل مع القريب والبعيد، وينهي عن جميع صور الظلم مع كل أحد، والعدل به قامت السماوات والأرض، وهو نظام كل شيء، وأساس قيام المجتمعات الإنسانية،فإن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة.

وفي هذا العصر الذي ندر فيه وجود الإنصاف والعدل، يحتاج المسلم إلى الرجوع دائما إلى منهج أهل السنة والجماعة، الذي هو امتداد لم كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ علما وعملا، ليزن الأمور كلها بميزان قويم لا يتأرجح، حيث أصبحت الأهواء الشخصية، والخلفيات الحزبية هي التي تتحكم بالآراء وتقييم الناس في كثير من الأحيان، فتجد الإنسان يغض الطرف عن أخطاء من يحبه، وإن كانت كبيرة لا يمكن السكوت عليها، وفي المقابل تجده إذا أبغض أحدا لهوى نفسه جرده من جميع الفضائل، ولم يُظهر إلا سيئاته، وينسى فضائله وخدمته للإسلام، مهما كانت بينه وواضحة.

القاعدة الثانية: التجرد عن الهوى، لأنه من أعظم دواعي الهلاك المذموم، وسمي الهوى لأنه يهوي بالإنسان إلى الهاوية. وأضل ضلال ابن آدم هو إتباع الظن والهوى، ولقد حذر السلف ﷺ من مجالسة أهل الأهواء والبدع، وأمروا بهجرهم، وعدم الرواية عنه؛ لأنهم ينقلون العدوى لمن اقترب منهم، ومن جالسهم لا يسلم من الشر، فإما أن يتابعه على هواه، أو يدخل الشبهة في

دينه، وصاحب الهوى يعميه الهوى فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا يطلبه ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه ويهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه.

القاعدة الثالثة: الحق لا يعرف بالرجال، ولكن يعرف الرجال بالحق، والعاقل ينظر دائما إلى الحق والدليل أولا، ثم ينظر بعد ذلك إلى أقوال الناس، فإن كان فيها حق قبله ورضيه لنفسه، ويحرص على انتزاع الحق ولو ممن خالفه، فإن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها من كل أحد، فإن وجدها فهو أحق بها [(١)].

قال ابن القيم: (اتخاذ أحوال رجل بعينه بمنزلة نصوص الشارع، ولا يلتفت إلى قول من سواه، بل ولا إلى نصوص الشرع إلا إذا وافقت نصوص قوله، فهذا والله هو الذي اجتمعت الأمة على أنه محرم في دين الله، ولم يظهر في الأمة إلا بعد انقراض القرون الفاضلة)[(٢)]. قال ابن تيمية: (والله قد أمرنا ألا نقول إلا الحق، وألا نقول عليه إلا بعلم، وأمرنا بالعدل والقسط، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني فضلا عن الروافض قولا فيه حق أن نتركه)[(٣)].

القاعدة الرابعة: كل بن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، ولو نجا من أحد الخطأ لنجا منها أصحاب رسول الله ﷺ الكرام، وهم خير القرون على وجه الأرض، ومع ذلك لم يسلم أحد منهم من الخطأ والوقوع فيه. قال ابن تيمية: (فأما الصديقون والشهداء والصالحون، فليسوا بمعصومين وهذا في الذنوب المحققة، وأما ما اجتهدوا فيه فتارة يصيبون وتارة يخطئون، فإذا اجتهدوا

---

(١) السابق ص١٦ بتصرف.

(٢) إعلام الموقعين ٢/ ٢٣٦ .

(٣) منهاج السنة النبوية ٢/ ١٩٩ .

وأصابوا فلهم أجران، وإذا اجتهدوا وأخطئوا فلهم أجر على اجتهادهم وخطؤهم مغفور لهم)[١].

• ما هي شعب الإيمان التي تتعلق بالقلب واللسان والجوارح؟

روى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[٢].

لما كان الإيمان على الإطلاق يدل بالمطابقة جميع شعب الإيمان المتعلقة باعتقاد الجنان وقول اللسان وعمل الجوارح والأركان فإنه من الجدير بالذكر تفصيل تلك الشعب مرتبة على أركان الإيمان عند السلف الصالح:

أولا: شعب الإيمان المتعلقة بالقلب، وتشمل الشعب القولية والعملية الباطنة في قلب الإنسان، فقد تتعلق بعلم القلب وقوله واعتقاده وأحكام العقل على ما يدركه من العلم، وقد تتعلق بنيته وعزمه ومنطقة كسبه التي تتضمن أعماله القلبية، وبيانها كالتالي:

١- الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله.

٢- الإيمان بالملائكة والجن.

٣- الإيمان برسل الله وخاتمهم محمد ﷺ.

٤- الإيمان بالقرآن وجميع الكتب المنزلة قبله.

٥- الإيمان باليوم الآخر والبعث بعد الموت والحساب وتوابعه.

---

(١) الفتاوى الكبرى ٣/ ٤٥٣ .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان ١/ ٦٣ (٣٥).

٦- الإيمان بالجنة ودار الكافرين ومأواهم النار.
٧- الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى.
٨- محبة الله ورسوله ﷺ ومحبة دينه والمحبة لله وفي الله.
٩- الخوف من الله تعالى والخشية منه.
١٠- الرجاء في الله.
١١- التوكل على الله قبل الأخذ بالأسباب.
١٢- الرضا بقضاء الله وقدره بعد الأخذ بالأسباب.
١٣- تعظيم النبي ﷺ وتوقيره.
١٤- تعظيم القرآن والسنة.
١٥- الوفاء بالعقود للمسلمين وغيرهم.
١٦- الشكر على نعم الله.
١٧- اعتصام المسلم بحبل الله وقبضه على دينه.
١٨- التورع عن الشبهات.
١٩- ترك الغل والحسد والحقد ونحوها.
٢٠- إخلاص العمل لله وترك الرياء.
٢١- الإنابة إلى الله والمحاسبة.
٢٢- التوبة والاستغفار من الذنب.
٢٣- الحياء شعبة من شعب الإيمان.
٢٤- الصبر على المصائب والبلايا.
٢٥- الصبر على الطاعة ومقاومة الشهوة.

٢٦- الزهد وقصر الأمل.

٢٧- ترك الكبر والتكبر والعجب.

٢٨- الحلم وترك الغضب.

٢٩- مودة أهل الإيمان ومقاربتهم.

٣٠- الغيرة على دين الله وأن تنتهك حرماته.

ثانيا: شعب الإيمان المتعلقة باللسان، وتشمل الشعب القولية الظاهرة على اللسان، وهي مرتبطة بالنية الكائنة بقلب الإنسان، لكن اللسان هو الركن الأساسي فيها، وبيانها كالتالي:

٣١- شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

٣٢- طلب العلم وتعليمه ونشر العلم وعدم كتمانه.

٣٣- الاستعاذة بالله من شياطين الإنس والجن.

٣٤- الاستغاثة بالله والنداء والدعاء.

٣٥- الدعوة إلى الله على كتاب وسنة بفهم سلف الأمة.

٣٦- كثرة ذكر الله تعالى.

٣٧- حفظ اللسان عن الغيبة والنميمة وتحريم الوقيعة في الأعراض.

٣٨- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣٩- الإعراض عن اللغو وما لا فائدة فيه.

٤٠- الإعراض عن الشبهات المفضية لزلات اللسان.

٤١- إفشاء السلام بين المسلمين ورده.

٤٢- تشميت العاطس.

٤٣- الستر على التائبين من أصحاب الذنوب.

٤٤- الصدق في الحديث وترك الكذب.

ثالثا: شعب الإيمان المتعلقة بالجوارح، وتشمل الشعب الفعلية الظاهرة على الجوارح، وهي مرتبطة بالنية الكائنة بقلب الإنسان، وكذلك قد يشارك فيها اللسان، غير أن الركن الأساسي فيها هو عمل الجوارح، وبيانها كالتالي:

٤٥- الطهارة والوضوء.

٤٦- الصلوات الخمس فرضها ونفلها.

٤٧- الزكاة والصدقات.

٤٨- صيام رمضان وصيام النوافل.

٤٩- الاعتكاف في المساجد على السنة.

٥٠- الحج والعمرة وما فيهما من شعائر الله.

٥١- الجهاد في سبيل الله.

٥٢- المرابطة والحراسة في سبيل الله.

٥٣- الثبات للعدو وعدم الفرار من الزحف

٥٤- أداء الخمس من المغنم.

٥٥- العتق بنية التقرب إلى الله.

٥٦- الكفارات الواجبة بالجنايات.

٥٧- أداء الأمان إلى أهلها.

٥٨- تحريم قتل النفوس.

٥٩- تحريم الفروج وما يجب فيها من التعفف.

٦٠- قبض اليد عن المال الحرام.

٦١- الأضحية في غير الحج.

٦٢- العقيقة للمولود.

٦٣- طاعة أولي الأمر في غير معصية الله.

٦٤- الحكم بين الناس بالعدل.

٦٥- التعاون على البر والتقوى.

٦٦- بر الوالدين والإحسان إليهما.

٦٧- صلة الأرحام وعدم الفجور في الخصام.

٦٨- حسن الخلق والتعامل بسمت الإسلام وآدابه.

٦٩- الإحسان إلى المملوك والخادم والعمال.

٧٠- حق السادة على المماليك.

٧١- حقوق الزوجة والأولاد.

٧٢- عيادة المريض.

٧٣- الصلاة على الميت واتباع الجنازة.

٧٤- مراعاة حقوق الجار من المسلمين وغيرهم.

٧٥- إكرام الضيف.

٧٦- الجود والسخاء وترك البخل.

٧٧- توقير الكبير ورحمة الصغير.

٧٨- إصلاح ذات البين والإصلاح بين الناس.

٧٩- إماطة الأذى عن الطريق.

ويلخص لنا شيخ الإسلام ابن تيمية قضية الإيمان وشعبه فيقول: (اسم الإيمان يستعمل مطلقا ويستعمل مقيدا، وإذا استعمل مطلقا فجميع ما يحبه الله ورسوله من أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة يدخل في مسمى الإيمان عند عامة السلف والأئمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين يجعلون الإيمان قولا وعملا، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويدخلون جميع الطاعات فرضها ونفلها في مسماه)[1].

• ما هي خلاصة اعتقاد السلف في ماهية الإيمان وحقيقته؟

خلاصة اعتقاد السلف الصالح في ماهية الإيمان وحقيقته عند الإطلاق أنه يدل بالمطابقة على القول والعمل على الإجمال، ويدل بالمطابقة عند التفصيل على قول القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح، وكذلك لابد من فهم التلازم الداخلي بين هذه الأركان التي دل عليها اسم الإيمان بالمطابقة، فعمل القلب يدل بالالتزام على عمل الجوارح، وعمل الجوارح يدل باللزوم على عمل القلب إن لم يكن منافقا، فإذا انتفى عمل الجوارح انتفاء كاملا دل يقينا على انتفاء عمل القلب انتفاء كاملا، بشرط سلامة القدرة، وانتفاء الموانع الأخرى، كأن يكون معذورا بجهله.

وكذلك إذا انتفى بعض عمل الجوارح دل على انتفاء بعض أعمال القلب، كل بحسب درجته، زيادة أو نقصا، إيمانا أو كفرا، فقد يجتمع في الرجل كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، والإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولو كان جميع الناس على الإيمان المحض لكانوا ملائكة، ولو كانوا

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٦٤٣.

على الكفر المحض لكانوا شياطين، ولكن الإنسان مبتلى بين كفر وإيمان، يزيد أحدهما فينقص الآخر، وينقص أحدهما فيزيد الآخر، وكل ذلك حكمة من الله ومنة على عباده، ليعمل الناس بما شرع الله لهم، فيوحدونه في العبادة بإياك نعبد، ويوحدونه في الاستعانة بإياك نستعين، والحمد لله رب العالمين .

الباب الرابع

عقيدة أهل السنة في بيان فرق المسلمين وملل المخالفين ومذاهب المعاصرين

الفصل الأول

دواعي الفتن وظهور الشيعة والخوارج.

الفصل الثاني

المعطلة والصوفية وفرق الباطنية.

الفصل الثالث

ظهور اليهودية والصهيونية.

الفصل الرابع

النصرانية والأديان الوثنية.

الفصل الخامس

المذاهب الفكرية المعاصرة.

الفصل الأول

دواعي الفتن وظهور الشيعة والخوارج

• كيف ظهرت الفرق الإسلامية بأنواعها المختلفة؟

ظهرت الفرق الإسلامية بأنواعها المختلفة بسبب الانحراف عن دعوة خاتم الأنبياء محمد ﷺ، فقد روى أحمد وصححه الألباني من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (خطّ لنا رسُول الله ﷺ خطّا، ثمّ قال: هذا سبِيل الله، ثمّ خطّ خُطُوطا عن يمِينِهِ وعن شِمالِهِ، ثمّ قال: هذهِ سُبُل، على كُل سبِيل مِنها شيطانٌ يدعُو إِليهِ، ثمّ قرأ: إِنّ هذا صِراطِي مُستقِيما فاتّبِعُوهُ ولا تتّبِعُوا السُّبُل، فتفرّق بِكُم عن سبِيلِهِ)[1].

ودعوة خاتم الأنبياء ﷺ هي دعوة الإسلام التي وردت في الكتاب والسنة، أو هي سبيل الله وصراطه المستقيم، ويسمى منهج الوسطية والشمولية، أو منهج أهل السنة والجماعة، أو منهج السلف الصالح، أو منهج الفرقة الناجية. وإذا كانت دعوة النبي ﷺ تحض على اتباع منهج الوسطية، والتزام الصراط المستقيم الذي قام على الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، فإن الاعتصام بهذا المنهج لا يستقيم إلا بمعرفة السبل التي حذرنا النبي ﷺ من اتباعها. قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ الأنعام:١٥٣.

---

(١) رواه أحمد ١/ ٣٥٤ (٤١٤٢)، وانظر تخريج شرح العقيدة الطحاوية ص٥٨٧.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ الأنعام:١٥٩.

وقد روى الترمذي وصححه الألباني من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه أنه قال: (وعظنا رسولُ الله ﷺ موعظة بليغة وجِلتْ مِنها القُلُوبُ، وذرفتْ مِنْها العُيُونُ، فقُلْنا يا رسول الله: كأنّها موْعِظةُ مُودّعٍ فأوْصِنا، قال: أُوصِيكُمْ بِتقْوى الله، والسّمْعِ والطّاعةِ وإنْ تأمّر عليْكُمْ عبْدٌ حبشِيٌّ، وإِنّهُ منْ يعِشْ مِنْكُمْ فسيرى اخْتِلافا كثيرا، فعليْكُمْ بسُنّتِي وسُنّةِ الْخُلفاءِ الرّاشِدِين المهْدِيِّين عضُّوا عليْها بالنّواجِذِ، وإِيّاكُمْ ومُحْدثاتِ الأُمُورِ؛ فإِنّ كلّ بدعة ضلالة)[(١)].

وقد ثبت من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (افترقتِ اليهُودُ على إِحدى أو ثنتينِ وسبعِين فِرقة، وتفرّقتِ النّصارى على إِحدى أو ثنتينِ وسبعِين فِرقة، وتفترِقُ أُمّتِي على ثلاث وسبعِين فِرقة)[(٢)].

• ما أهمية دراسة الفرق المنحرفة عن منهج التوحيد والوسطية؟

والقصد من دراسة الفرق هو التعرف على مواقع الخلل والضلال للابتعاد عما وقع فيه أصحاب الأهواء ممن انتسب لهذه الأمة، لأن الرجوع إلى الحق أولى من التمادي في الباطل، وكل ذلك لتبقى معالم الطريق واضحة جلية لأصحاب الفرقة الناجية، بعيدة عن تلك الشوائب الطارئة على العقيدة الصحيحة. وهذه الفرق وإن كانت قديمة، فليست العبرة بأشخاص مؤسسي تلك الفرق ولا بزمانهم، ولكن العبرة بوجود أفكار تلك الفرق

---

(١) الترمذي في العلم باب الأخذ بالسنن ٥/ ٤٤ (٢٦٧٦)، السلسلة الصحيحة (٩٣٧).

(٢) أبو داود في السنة، باب شرح السنة ٤/ ١٩٧ (٤٥٩٦)، السلسلة الصحيحة (٢٠٣).

وانتشارها في وقتنا الحاضر، فتلك الفرق الماضية لها امتداد يسري في الأمة سريان الوباء، وأقرب مثال لذلك فرقة المعتزلة والأشعرية والشيعة والصوفية، فأفكارهم جميعا لا زالت حية قوية تدرس في كثير من الجامعات والمعاهد الإسلامية، ويتشدق بها بعض المغرضين الذين استهوتهم الحضارة الغربية أو الشرقية، فأتباع المعتزلة يمجدون العقل ويقدسونه ويحاولون من خلاله هدم التكاليف الشرعية والنصوص القرآنية والنبوية، بل من خالفهم وصفوه بالتخلف والرجعية والظلامية.

كما أن كل الأفكار والآراء التي سبقت لها أتباع ينادون بها، فنزعة الخروج على الحكام أو التنطع في الدين، أو استحلال دماء المسلمين لأقل شبهة، وتكفيرهم لأدنى ذنب، وغير ذلك من الأفكار البدعية نجدها قائمة الآن على أشدها في كثير من المجتمعات الإسلامية. وكذلك نرى الصوفية ينادون بالجهل والخرافات، واتباع الأحلام والمنامات، وادعائهم معرفة المغيبات، وتعظيم الأضرحة والمشاهد والمقامات، وشد الرحال والنذور للموتى وكثرة الزيارات، وغير ذلك من الأمور البدعية التي تبثها الصوفية، فدراسة الفرق تكشف جذور البلاء الذي شتت قوى المسلمين وفرقهم شيعا وأحزابا، وجعل بأسهم بينهم شديدا، في واقع مرير لا يخدم إلا أعداء الإسلام.

روى مسلم من حديث ثوبان ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تزال طائِفةٌ مِنْ أُمّتِي ظاهِرِين على الحقِّ، لا يضُرُّهُمْ منْ خذلهُمْ حتّى يأْتِي أمْرُ الله وهُمْ كذلك)[1].

---

(١) مسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ١/ ٥٢ (٥٠٥٩).

• هل الدعوة إلى وحدة الأمة مبرر للتوافق مع الفرق الضالة؟

شعار الدعوة إلى وحدة الأمة، وعدم تفرق الكلمة، ليس مبررا لموافقة أصحاب الفرق الضالة والمارقة عن منهج الله، أو الرضا بمناهجهم الباطلة، أو التهاون في قبول مناهج الطرق الداعية إلى الشرك والمعتقدات الفاسدة والتي تهدم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ومعلوم أن إرشاد النبي ﷺ لأصحابه ﵃ ودعوتهم إلى الائتلاف وعدم الاختلاف كان يهدف في الأساس إلى ترسيخ عقيدة التوحيد المبنية على التسليم لله وحده لا شريك لله، والإيمان بخبره دون نزاع، وأن صلاح المسلمين يكمن في التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ومن ثم فإن الوحدة قائمة على الكتاب والسنة، وأصل الاستقامة هو الاعتدال على الطريق الذي رسمه النبي ﷺ لأصحابه في خط مستقيم، وعدم الانحراف عنه، ولا يكون الاعتدال إلا بشمولية الإيمان بكل ما ورد عن الله ورسوله ﷺ من أخبار، والتسليم لكل ما جاء عنهما من تشريعات وأوامر؛ فإن التقصير في جانب سيؤدي إلى المبالغة أو الانحراف في جانب آخر. ولذلك كانوا هم وأتباعهم من بعدهم، وكل من سار على نهجهم واستن بسنتهم، كانوا هم الفرقة الناجية، وهم أهل السنة والجماعة، وهم الطائفة المنصورة، وهم الظاهرون على الحق، الذين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة، وهم الذين أخبر النبي ﷺ عنهم بأنهم يسيرون على طريقته دون انحراف؛ فهم أهل الإسلام المتبعون للكتاب والسنة، المجانبون لطرق الضلال والبدعة.

• ما هي أبرز أسباب المحن التي حدثت في عصر الخلافة الرشيدة؟

كان من أبرز أسباب المحن التي حدثت في عصر الخلافة الرشيدة، وأشعلت الفتن حتى قتل عمر وعثمان وعلى وولده الحسين وكثير من

الصحابة ﷺ حقد المنافقين والأعراب أصحاب النعرة الجاهلية مع حقد كثير من اليهود الذين أخرجهم النبي ﷺ من الجزيرة العربية، وحقد كثير من النصارى بعد إخضاع قلب الدولة الرومانية، وكذلك الحقد الدفين من الفرس والدولة المجوسية بعد إخضاعها في الفتوحات الإسلامية، كان لاجتماع هذا الحقد والحسد على قوة الإسلام وتوفيق الله للمسلمين العرب الذين آمنوا بالله ورسوله بعد أن كانوا في الجاهلية أعرابا متنازعين لا حول لهم ولا قوة، فأصبحوا في وقت قصير أعظم أمة بدين الإسلام، يهابها الناس في الشرق والغرب، فبدأت حيل أولياء الشيطان تتوالى من هؤلاء الحاقدين منذ وفاة النبي ﷺ إلى أن قتلوا الخلفاء الراشدين، وأحدثوا مقتلة عظيمة بالوقيعة بين الصحابة ﷺ في واقعة الجمل وصفين.

قالت أم المؤمنين عائشة ﷺ: لما توفي رسول الله ﷺ نجم النفاق، وارتدت العرب، واشرأبت اليهودية والنصرانية، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ، حتى جمعهم الله على أبي بكر، فلقد نزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها[1].

وقد كان من أبرز الأسباب الداعية للفتن والوقيعة بين الصحابة ﷺ كثرة الرسائل الملفقة والكتب المزورة على ألسنتهم للقدح في عثمان بن عفان ﷺ والدعوة لعزله والخروج عليه، والتي كان يكتبها اليهودي عبد الله بن سبأ وأتباعه من الحاقدين، وكان لهم أتباع كثر في شتى الولايات، فكانوا يرسلون إليهم رسائل ملفقة لإحداث الفتنة، وصار المنافقون والأعراب الذين لا يفقهون من دين الله إلا الشيء اليسير يتأثرون بهذه الأمور، ويرسل بعضهم

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ١/ ٩٨ برقم ٦٨.

إلى بعض أن فعل بنا الوالي كذا بأمر عثمان، وجاءتنا رسالة من الزبير بن العوام ﷺ ينكر على عثمان، وجاءنا خطاب من علي بن أبي طالب ﷺ يدعو إلى الخروج على عثمان، وجاءنا كتاب من أم المؤمنين عائشة يدعو إلى الخروج على عثمان. وجاءنا كذا وكذا.

وانتشرت هذه الرسائل الملفقة حتى عزم الحاقدون ومن معهم على التخلص من عثمان ﷺ وقتله، ثم قتلوا علي بن أبي طالب وولده الحسين، وسعوا إلى إحداث الفرقة بين الأمة فظهرت على أعقاب هذه الفتن فرقتين من أبرز فرق الضلال وهي فرقة الشيعة والخوارج.

- **بين كيف أن الشيعة في عصرنا من صنع اليهود والمجوس؟**

إن الشيعة فرقة ضالة وشجرة خبيثة من غرس الشيطان وحقد اليهود والمجوس، سقتها يد الغدر المجوسي بدماء أمير المؤمنين علي وولده الحسين في النجف وكربلاء، وما زال المجوس يغذون هذه الأحقاد في الكيد لدين الإسلام وتشويه صورة النبي وأصحابه، فشاع التشيع في زماننا وذاع، وتطاول على المسلمين في خير البقاع، متخذا من الخداع ودعوى الانتساب لأهل البيت أسوأ قناع، فتعلق به من تعلق حبا في آل البيت متأثرين بسحر وسائل الإعلام المجوسية الإيرانية، وهيأت لهم بعض القوى العالمية مقاليد الحكم في بعض الدول الإسلامية، واجتمع لهم ما لم يجتمع من الأسباب المادية والمعنوية، فتجرؤوا على نشر مذهبهم في أوساط المسلمين، وجاهروا بما كان مخفيا عبر الزمن بعقيدة الحقد الدفين، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وشوشوا على المسلمين في دينهم، وشككوهم في كتاب ربهم وسنة نبيهم وخيرة قرن من قرونهم.

لقد توحدت كلمة الأمة واجتمع أمرها، وانطفأت الفتنة بمبايعة الحسن لمعاوية ﷺ، وسمي ذلك العام بعام الجماعة، وبقي اسم الشيعة ملازما لأولئك الزمرة التي ناصرت عليّ بن أبي طالب ﷺ وجاهدت معه، وكان أغلبهم من أهل العراق، وإن كانوا قد خذلوه وعصوه ولم يقوموا بواجبهم حق قيام حتى تذمر منهم، واشتهرت عنه أقوال كثيرة في ذمهم، والتشكي من خذلانهم، وبعد ذلك بدأت تظهر منهم آثار الغلو في عليّ ﷺ وظهر القول بوصايته لمحمد ﷺ كوصاية موسى ﷺ ليوشع بن نون، وظهر الطعن في صحابة رسول الله ﷺ، وأنهم خانوا الأمانة حين لم يولوا الخلافة لعلي ﷺ، وظهر الانتقاص من قدر الشيخين أبي بكر وعمر.

وغلب اسم الشيعة على كل من سعى لهدم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بحجة مشايعة عليّ بن أبي طالب وآل بيت النبي ﷺ، فزعم النص على إمامة عليّ ﷺ، أو قصر الإمامة على آل بيته، أو قال بعصمة الأئمة من الكبائر والصغائر والخطأ، أو قال بأنه لا ولاء لعلي إلا بالبراء من غيره من الخلفاء الذين في عصره قولا وفعلا وعقيدة إلا في حال التقية.

ومن هنا بدأ التشيع يأخذ اتجاها جديدا، فلم يعد التشيع مجرد اختلاف حول أحقية عليّ ﷺ في الخلافة، أو تفضيله على عثمان ﷺ، بل أصبح يحمل في طياته عقائد باطلة، كان لليهود يد مباشرة في إقحامها في العقيدة الإسلامية، كما هي وظيفتهم عبر التاريخ في تحريم الكلم عن مواضعه، وكان للمجوس الدور الأكبر في اتخاذ التشيع وتأليه علي والأئمة المزعومين من آل بيته وسيلة للسيطرة على جزيرة العرب وسائر الدول العربية التي تتبنى عقيدة أهل السنة والجماعة، انتقاما لزوال دولتهم على يد أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ .

• ما هي أبرز الفرق الشيعة التي ظهرت في التاريخ الإسلامي؟

أبرز الفرق الشيعة التي ظهرت في التاريخ الإسلامي خمسة فرق رئيسية وهي فرقة الزيدية، والكيسانية، والغلاة، والإمامية، والإسماعيلية، وبيانها باختصار على النحو التالي:

١- الزيدية من الشيعة هم أتباع زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وكان يرى أن الإمامة تنعقد للمفضول مع وجود الفاضل للمصلحة في ذلك، ومن أجل هذا رأى انعقاد الخلافة لأبي بكر وعمر مع أن عليا عنده أفضل منهما عقيدة، وكان لا يتبرأ منهما، ولما بلغ شيعة الكوفة عنه أنه لا يتبرأ منهما رفضوه، فسموا رافضة، وكان من مذهبه أن الإمامة تكون في أولاد فاطمة الحسن والحسين وأولادهما، وقد عاب عليه أخوه محمد بن علي بن الحسين المعروف بمحمد الباقر، أخذه العلم عن واصل بن عطاء الغزال المعتزلي لأنه كان يجوز على جدهما عليّ الخطأ في قتال الخارجين عليه، وكان زيد بن عليّ بن الحسين ينكر القدر كما ادعت المعتزلة، وبذلك يظهر السر في أن الزيدية كلهم معتزلة. وقد خرج زيد بن عليّ بن الحسين على حكم هشام بن عبد الملك أيام خلافته، وأعلن عصيان الخليفة وقتاله، وبويع له بالخلافة، فقبض عليه هشام بن عبد الملك، وقتل وصلب بالكوفة عام ١٢١هـ. ثم انحرفت الزيدية بعد ذلك وطعنوا في الصحابة ﵃ جميعهم، ووافقوا مذهب الخوارج والمعتزلة في تكفير مرتكب الكبيرة، وقد افترقوا بعد ذلك ثلاث فرق، وهم الجارودية، والسليمانية، والبترية.

٢- الكيسانية من فرق الشيعة الرئيسية، فهم أتباع كيسان مولى عليّ بن أبي طالب ﵁، ويقال إنه تتلمذ على يد محمد بن الحنفية بن عليّ ﵁، وقد زعم

أتباعه أنه جمع العلوم كلها، وجمع أسرار علوم عليّ وابنه محمد بن الحنفية، ويجمعهم القول بأن الدين كله في طاعة زعيمهم كيسان، ومن أجل ذلك ضل منهم الكثير، وجاءوا بالكفر كإنكار أركان الإسلام، والشك في البعث والقول بالتناسخ والحلول والرجعة بعد الموت.وقد انقسموا بعد ذلك فرقا كثيرة منها المختارية الهاشمية.

٣- الشيعة الغلاة فهم الذين غلوا في أئمتهم حتى ألهوهم، ويجمعهم القول بتشبيه الأئمة بالله كاعتقاد النصارى في عيسى وغيره، أو تشبيه الله بالأئمة كاليهود، والقول بالبداء والرجعة والحلول وتناسخ الأرواح، وغير ذلك من عقائد المجوس وعقائد اليهود والنصارى، وهناك من الشيعة الغلاة فرق متعددة منها أقدم فرق الشيعة وهي السبئية أتباع عبد الله بن سبأ الحميري اليهودي، أظهر الإسلام وأثار الفتن الدينية والسياسية، فوضع قاعدة حلول الله في علي ورجعته في آخر الزمان، ومن الغلاة فرق أخرى وهي الكاملية، والعليائية، والمغيرية، والمنصورية، والخطابية، والبزيغية، والعجلية، والكيالية، والهشامية، واليونسية، والنصيرية، والإسحاقية.، وللشيعة الغلاة في كل بلد لقب، فهم يلقبون في أصفهان بالخرمية، والكردية، وفي الري بالمزدكية والسندبادية، وفي أذربيجان بالذقولية وفي موضع بالمحمرة، وفيما وراء النهر بالمبيضة.

٤- الإمامية من فرق الشيعة فهي أخطر الفرق حتى عصرنا وهم الذين قالوا بالنص الصريح على إمامة عليّ، وقالوا بأن الإمامة ركن الدين وليس في الإسلام شيء أهم منه، ولا يجوز أن يتركه الرسول ﷺ لاختيار الأمة، بل يجب أن يعين له شخصا، وقد عين له عليّ بن أبي طالب بالنص عليه

والإشارة إليه. وقالوا بتكفير أكثر الصحابة ﷺ، ونصوا على إمامة اثني عشر إماما من أولاد علي إلى محمد بن الحسن العسكري وهو الإمام المخفي ويعتقدون أنه حي يرزق منذ أكثر من ألف سنة وأنه المهدي المنتظر.وقد تفرقوا فرقا كثيرة منها فرقة الجعفرية أو النواسية، والشميطية، والأفطحية أو العمارية، والموسوية، والواقفية وغيرها من فرق الضلال وكل فرقة لها اعتقادات وثنية تخصها في تأليه آل البيت.

٥- الإسماعيلية الباطنية وهي فرقة شيعية ساقت الإمامة بعد محمد بن إسماعيل بن جعفر في أئمة مستورين ثم ظاهرين وهم الباطنية، وهي الفرقة المشهورة في الفرق بهذا الاسم، ومن مقالتهم أن الأرض لا تخلو من إمام حي، إما ظاهر مكشوف وإما باطن مستور، وأن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية! ومن مات وليس في عنقه بيعة لإمام مات ميتة جاهلية! وسموا باطنية لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا، ولهم ألقاب أخرى، فيسمون بالعراق أيضا القرامطة أو المزدكية، وبخراسان التعليمية والملاحدة، وهم يسمون أنفسهم الإسماعيلية لامتيازهم عن الموسوية الاثنا عشرية بالقول بإمامة إسماعيل بن جعفر دون أخيه موسى الكاظم.

لقد تفرق الشيعة فرقا شتى، ولم يبق من هذه الفرق اليوم إلا الإسماعيلية والزيدية والاثنا عشرية، وأخطرها على الإسلام والمسلمين الشيعة الاثنا عشرية، فهم أشهر هذه الفرق وأخطرها، وهم المعروفون باسم الشيعة اليوم، وشخصياتهم مشهورة في العالم كالخميني والسستاني وحسن نصر الله وغيرهم، كما أنهم أكثر هذه الفرق عددا، ومنتشرون في كثير من البلدان،

ويسعون لتشييع أهل السنة، ويسخّرون في ذلك عشرات القنوات الإذاعية كالمنار والفرات والزهراء والغدير والأنوار وكربلاء غيرها. ولذلك فإن دراسة الشيعة تكاد تنصب على هذه الفرقة من فرقهم، وقد سموا باسم الشيعة الاثنا عشرية لاعتقادهم بإمامة اثني عشر إماما بعد رسول الله ﷺ، ويسمون أيضا بالشيعة الإمامية والجعفرية، ويسميهم أهل السنة بالروافض أو الرافضة، لأنهم رفضوا خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويتواجدون بشكل أساسي في إيران، ولهم تواجد كبير في العراق ولبنان والبحرين وباكستان وأفغانستان، ويشكلون أقلية في بعض البلدان كالسعودية والكويت، ودعوتهم نشطة في أوربا وأمريكا وبعض بلدان المغرب العربي.

- **ما هي عقيدة الشيعة الإمامية الإثنا عشرية في أئمتهم؟**

الشيعة الإمامية المنتشرة في العالم اليوم جعلوا شغلهم الشاغل منصبا على الاعتقاد في إمام قائم معين من قبل الله في كل زمان ومكان، فوظيفة الإمام عند الشيعة ليست فقط الوظيفة السياسية والقيادة الدنيوية كما ينظر أهل السنة، بل هي استمرار للوحي والنبوة، ووظيفة الإمام عندهم كوظيفة النبي ﷺ وصفاته كصفاته، وتعيين الإمام كتعيين النبي ﷺ لا يتم إلا باختيار إلهي، لذلك أوردوا روايات تصف أئمتهم بكل صفات الكمال، فلا فرق عندهم بين الإمام والنبي.

لقد تجرأ الشيعة على أن كفروا أصحاب رسول الله ﷺ، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر، وحكموا بردتهم، لا لشيء إلا أنهم لم يعترفوا بهذا الركن الذي يعتقد فيه الشيعة بأن النبي ﷺ لم يمت حتى أوصى بالأمر إلى عليّ بن أبي طالب ﷺ، وعلي لم يمت حتى أوصى إلى ابنه من بعده، وهكذا كل إمام لا

يموت حتى يوصي إلى واحد من أبناءه من بعده، وينص عليه ويعينه، فالأمر عندهم بالوراثة، واختلقت الشيعة في كتبها نصوصا مزورة نسبوها إلى الرسول ﷺ ينص فيها على إمامة كل إمام باسمه ووصفه ومن يليه، وهؤلاء الأئمة حسب تسلسلهم هم:

١. عليّ بن أبي طالب المرتضى ٤٠هـ.
٢. الحسن بن عليّ الزكي ٤٩هـ.
٣. الحسين بن عليّ الشهيد ٦١هـ.
٤. عليّ بن الحسين زين العابدين ١١٠هـ.
٥. محمد بن عليّ أبو جعفر الباقر ١١٩هـ.
٦. جعفر بن محمد الصادق ١٤٨هـ.
٧. موسى بن جعفر الكاظم ١٦٤هـ.
٨. عليّ بن موسى الرضا ٢٠٣هـ.
٩. محمد بن عليّ الجواد ٢٢٠هـ.
١٠. عليّ بن محمد الهادي ٢٥٤هـ.
١١. الحسن بن عليّ العسكري الزكي ٢٦٠هـ.
١٢. محمد بن الحسن المهدي وهو ما زال على قيد الحياة في زعمهم وعمره الآن ١١٧١سنة، فيكون أطول عمرا من نوح عليه السلام.

وقد حصل إشكال في هذه الشجرة ثلاث مرات، حيث كان إمامهم السادس جعفر الصادق قد عيّن ولده إسماعيل إماما من بعده، وأكد أن رسول الله ﷺ قد عينه وأوصى به، ويأبى الله إلا أن يفضح الكذابين، فمات إسماعيل في حياة أبيه وكانت الفضيحة، واضطربت الأمور وكثر الاستنكار،

ورجع كثير منهم إلى مذهب أهل السنة، وأنكر فرقة من الشيعة موته، وادعوا بأنه غاب ولم يمت، وبأنه المهدي المنتظر، وانشقوا بمذهب جديد، وتسموا بالشيعة الإسماعيلية، لكن إمامهم أبا جعفر عين ولده موسى إماما جديدا من بعده بحجة اعتقادهم البداءة على الله، وأن الله بدا له أن يرجع في كلامه، وعين موسى بدلا من إسماعيل تعالى الله عن قولهم.

ثم حصل نفس الإشكال مرة ثانية في عصر إمامهم عليّ بن محمد التقي، وفي المرة الثالثة مات الحسن العسكري إمامهم الحادي عشر، قبل أن يولد له ولد، لتتلاشى عند ذلك الوصاية المزعومة، وتتلاشى معها الإمامة، ويختلقوا عقيدة جديدة زعموا فيها أن للحسن العسكري ولدا اسمه محمد خبأه في سرداب، وسيرجع لشيعته في آخر الزمان، ومن العجيب أنه بعد علي والحسن رضي الله عنهما لم ينصب أحد منهم على عرش الخلافة، أو يباشر الإمارة، ولم يمكّن لأحد من الأئمة الذين قدسوهم ووصفهم بالعصمة والطهارة وغير ذلك من الصفات التي ألهوهم بها.

وقد ادعى الشيعة لأئمتهم أنهم يعلمون الغيب وبالغت في ذلك أشد ما يكون من المبالغة، ووضعت في ذلك من الأحاديث المكذوبة ما لا يحصى عدده، وأن الأئمة يعلمون متى يموتون، وأنهم لا يموتون إلا باختيار منهم، بل يزعمون أنهم يطلعون على اللوح المحفوظ، وأن اللوح كتاب مفتوح بين أيديهم، كما ادعى الشيعة لأئمتهم وقوع المعجزات وأن معجزاتهم كثيرة لا تعد ولا تحصى.

• ما هي عقيدة الشيعة الإمامية في المهدي والرجعة؟

يعتقد الشيعة إن إمامهم الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري هو المهدي

المنتظر وهو مخفي في سرداب بسامراء منذ سنة ٢٦٠هـ حتى الآن، وسوف يخرج في آخر الزمان لينتقم من أعداء الشيعة قديما وحديثا، بدءا بصحابة رسول الله ﷺ ثم الخلفاء الراشدين ﷺ فمن بعدهم، وأنهم جميعا سوف يخرجون من قبورهم ليقيم الحد عليهم ويقتص للشيعة منهم، فكانت عقيدة الرجعة موعدهم المنتظر، حيث يوم النصر والثأر من كل أعدائهم، فيقولون في الرجعة: (لترجعن نفوس ذهبت، فمن عُذب يقتص بعذابه، ومن أُغيظ أغاظ بغيظه، ومن قُتل اقتص بقتله، ويُرد لهم أعداؤهم معهم حتى يأخذوا بثأرهم، ثم يعمرون بعدهم ثلاثين شهرا، ثم يموتون في ليلة واحدة قد أدركوا ثأرهم، وشفوا أنفسهم، ويصير عدوهم إلى أشد النار عذابا، ثم يوقفون بين يدي الجبار ﷻ فيؤخذ لهم بحقوقهم) [(١)].

ومن ثم فإن الرجعة في العقيدة الشيعية هي رجوع شخصيات بعينها انتقاما منهم فيعودون إلى هذه الحياة الدنيا، فيرجع الشيعة المنتقمون ويرجع المنتقم منهم، وهم أهل السنة. ومجموع الروايات الواردة في كتبهم تنص على رجعة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين علي عليه السلام، والإمام الحسين عليه السلام، وكذلك باقي الأئمة والأنبياء عليهم السلام، وتنص كذلك على رجعة عدد من أنصار الإمام المهدي عليه السلام ووزرائه وبعض أصحاب الأئمة وشيعتهم، ورجعة الشهداء والمؤمنين، ومن جانب آخر تنص على رجعة الظالمين وأعداء الله ورسوله وأول عدو للشيعة كما يزعمون هو أول ظالمٍ ظلم حق محمد ﷺ أبو بكر والثاني عمر والثالث عثمان ﷺ، وهم عندهم أشد من بلغ الغاية في الظلم والفساد، فهم أول الراجعين لينتقم المهدي منهم، وكذلك يقولون برجعة أم

(١) انظر بحار الأنوار للمجلسي ٥٣/ ٤٤.

المؤمنين عائشة رضي الله عنها ليقم المهدي الحد عليها ويرجمها.

- **ما هي عقيدة التقية عند الشيعة الإمامية الاثنا عشرية؟**

عقيدة التقية عند الشيعة هي الكذب والنفاق والغش والخداع، لقد عرف الفكر الإسلامي عبر التاريخ الكثير من التيارات الفكرية، والمذاهب العقدية المختلفة والمتباينة، لكن أكثرها كذبا ونفاقا وتلونا، وأقدرها على التغلغل بخفاء في المجتمعات هو المذهب الشيعي، فقد استفاد الشيعة من الخبرة اليهودية المتقنة لعناصر التخفي والبقاء، وأتقن متابعوه سلاح التقية، وتلقوه عقيدة ودينا، وتربوا عليه منذ نعومة أظافرهم، فعاش هذا المذهب متخفيا عبر الزمن، يخفي عقائده، ولم تُعرف الكثير من كتب المذهب الشيعي إلا بعد قيام الدولة المجوسية في إيران وانتصار ثورة الخميني، حيث طبعت كتبهم واطلع العالم على هذا المذهب الخبيث، وكان كثير من عقائده في طي الكتمان.

وقد جعلوا التقية من أهم ركائز الفكر الشيعي وأركانه، بل جعلوها تسعة أعشار الدين، ولا دين لمن لا تقية له، ولا إيمان لمن لا تقية له، ومن أمثلة استدلالهم بالتقية أنه عندما استدل عليهم مخالفوهم ببطلان ما ادعوا من أن الرسول ﷺ قد أوصى بالخلافة لعلي، وأن الصحابة ظلموه حقه، واغتصبوا منصبه، بأنه لو كان الأمر كما زعموا، لما زوج عليّ ابنته لعمر بن الخطاب رضي الله عنه خليفة المسلمين، فهذا دليل على الأخوة التي كانت تربطهم، والمودة التي كانت تسري في قلوبهم، مع رابطة الدين المتينة، فيجيبون بأن ذلك كان من عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه تقية.

وبسبب التقية أيضا تتضارب الروايات عن الإمام المعصوم على زعمهم حتى في تفسير كلام الله تعالى، فعن موسى بن أشيم قال: كنت عند أبي عبد

الله عليه السلام فسأله رجل عن آية من كتاب الله عز وجل فأخبره بها، ثم دخل عليه داخل فسأله عن تلك الآية فأخبره بخلاف ما أخبر به الأول، فدخلني من ذلك ما شاء الله حتى كأن قلبي يُشرّح بالسكاكين فقلت في نفسي: تركت أبا قتادة بالشام لا يخطئ في الواو، وجئت إلى هذا يخطئ هذا الخطاء كله، فبينا أنا كذلك إذ دخل عليه آخر فسأله عن تلك الآية فأخبره بخلاف ما أخبرني وأخبر صاحبي، فسكنت نفسي، فعلمت أن ذلك منه تقية، قال: ثم التفت إلي فقال لي: يا ابن أشيم إن الله عز وجل فوض إلى سليمان بن داود فقال: هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب»[1].

هكذا يتربى الشيعة على التقية، وعندما تلتقي شيعيا وتسأله عن بعض عقائد مذهبه كتكفير الصحابة مثلا، فإنك ستجده ينكر ويقسم ويتهرب، ويستخدم أغلظ الأيمان، ويدعوا ثبورا، ويلعن من قال ذلك، وكل هذا مباح في شرعه، بل هو مثاب على كذبه ونفاقه، بل لو ترك التقية قبل خروج المهدي لخرج من دين الإسلام على زعمهم.

- **ما هي عقيدة الشيعة الإمامية في القرآن الكريم؟**

كل فرقة تنتمي إلى الإسلام وتنتسب إلى القبلة، تحتاج في تأصيل مذهبها وبناء منهجها إلى الاستدلال بالقرآن الكريم كأول ركن في إقامة الحجة على الآخرين، ولا يمكن لأي فرقة من هذه الفرق أن تبني فكرا مقبولا في الأوساط المسلمة إلا إذا أوجدت لنفسها ولو بافتعال نصيبا من آيات القرآن وتبني من خلاله آراءها ومذهبها وتسوق به أتباعها.

ولقد واجه الشيعة سؤال منذ نشأتها، ومنذ أن أصلت لنفسها عقيدة

---

(١) الكافي للشيخ الكليني ١/ ٢٦٥.

الإمامة، لماذا لم يذكر القرآن مسألة الإمامة التي تتوقف عليها النجاة أو الهلاك كما يزعمون؟ وإن كان قد ذكرها على زعم الشيعة فلماذا اكتفى بالإشارة والتلميح بدل التصريح كما هي عادة القرآن في مثل هذه القضايا التي تتوقف عليها سعادة البشر أو شقاوتهم؟ بل لو تتبعنا أمورا أقل خطرا من الإمامة لوجدنا القرآن قد سلك فيها مسلك التبيين والتفصيل، ولم يكتف بذكرها والتصريح بها فحسب، بل كرر ذكرها وأعاده، وفصل الكلام فيها وأحكمه، ورتب على فعلها الثواب، وعلى تركها العقاب، وهذا واضح لمن تأمل آيات القرآن وتتبع طريقته في تأصيل أحكامه.

لقد حاول الشيعة للإجابة عن هذا الإشكال أن يبحثوا في آيات القرآن الكريم عن أي نص يستدلون به ولو بتعسف ليكون شواهد للإمامة، وقاعدة ينطلقون منها فلم يجدوا إلا آيات الولاية العامة لجميع المؤمنين فحملوها على الولاية الخاصة في أمير المؤمنين على كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ المائدة:٥٥.

غير أنهم في نهاية المطاف أراحوا أنفسهم من هذا العناء، واتهموا الصحابة بأنهم حرفوا القرآن وحذفوا منه أسماء الأئمة، وزعموا في رواياتهم المختلقة أنه لو قرئ القرآن كما أنزل لوجدت الأئمة فيه مذكورين بأسمائهم، وقد أجمعت كتب الشيعة على القول بتحريف القرآن، بل تجرؤا على تأليف نصوص تؤيد ما يشتهون من توثيق المذهب المجوسي الحاقد فاخترعوا ما يسمى بسورة النورين وأنها حذفت من القرآن ومما جاء فيها قولهم:

﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتي ويحذرانكم عذاب يوم الدين * نوران بعضهما من بعض وأنا السميع العليم* إن الذين يوفون بعهد الله ورسوله في آيات لهم جنات

النعيم * والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدهم الرسول عليه يقذفون في الجحيم، ظلموا أنفسهم وعصوا الوصي الرسول أولئك يسقون من حميم .. وإن عليا من المتقين * وإنا لنوفيه حقه يوم الدين * ما نحن عن ظلمه بغافلين * وكرمناه على أهلك أجمعين * فإنه وذريته لصابرون * وإن عدوهم إمام المجرمين * قل للذين كفروا بعد ما آمنوا طلبتم زينة الحياة الدنيا واستعجلتم بها ونسيتم ما وعدكم الله ورسوله ونقضتم العهود من بعد توكيدها وقد ضربنا لكم الأمثال لعلكم تهتدون * يا أيها الرسول قد أنزلنا إليك آيات بينات فيها من يتوفاه مؤمنا ومن يتولاه من بعدك يظهرون * فأعرض عنهم إنهم معرضون * ... إلى آخر تراهاتهم﴾.

• ما هي كتب الشيعة التي يزعمون أن النبي اختص بها عليّا؟

يدعي المعممون الشيعة أن كتبا سماوية نزلت على النبي ﷺ، واختص بها أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وأبرز هذه الكتب هي:

١- الجامعة: وهي كما يزعمون صحيفة طولها سبعون ذارعا بذراع رسول الله ﷺ وإملائه وخط علي عليه السلام فيها كل حلال وحرام، وكل شيء يحتاج الناس إليه.

٢- صحيفة الناموس: وهي كما يزعمون صحيفة فيها أسماء شيعتهم إلى يوم القيامة، وفيها أسماء أعدائهم إلى يوم القيامة.

٣- صحيفة العبيطة: وهي كما يزعمون صحيفة ما ورد على العرب أشد منها، فيها ستون قبيلة من العرب بهرجة، مالها في دين الله من نصيب.

٤- صحيفة ذؤابة السيف: وهي كما يزعمون صحيفة صغيرة كانت في ذؤابة سيف رسول الله ﷺ فيها الأحرف التي يفتح كل حرف منها ألف حرف من العلم، ولم يخرج منها غير حرفين حتى وقتنا هذا.

٥- الجِفْر وهو نوعان: الجفر الأبيض والجفر الأحمر، فالجفر الأبيض فيه

كما يزعمون زبور داود، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وصحف إبراهيم، والحلال والحرام. وأما الجفر الأحمر ففيه أعمال الانتقام وأحكام سفك الدماء التي سيفعلها المهدي في أهل السنة عندما يرجع، وأنه سيجعل دماءهم تجري كدجلة والفرات، وينتقم من صنمي قريش يقصدون أبا بكر وعمر وابنتيهما يقصدون عائشة وحفصة، ومن نعثل يقصدون عثمان، ومن بني أمية والعباس، فينبش قبورهم نبشا.

٦- مصحف فاطمة: وهو كما يزعمون ليس فيه آية وحدة من القرآن وأنه إملاء من رسول الله ﷺ بخط علي عليه السلام الذي كتبه بيده.

٧- التوراة والإنجيل والزبور: وهي كما يزعمون عند جميع الأئمة ومكتوبة بالسيريانية، ويعرفونها كلها على اختلاف ألسنتها.

٨- القرآن: وهو كما يزعمون الكتاب الوحيد الذي أصابه التحريف من بين كل تلك الكتب، وقد جمع محدثهم النوري الطبرسي في إثبات تحريفه كتابا ضخم الحجم سماه: فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب. جمع فيه أكثر من ألف رواية تنص على تحريف القرآن الموجود بين أيدي المسلمين الآن، ويزعمون إن القرآن الذي جاء به جبرائيل عليه السلام إلى محمد ﷺ سبعة عشر ألف آية، والمعروف أن القرآن ستة آلاف ومائتان وثلاث وستون آية، ومعنى ذلك أن ثلثي القرآن راح على أدراج الرياح، والموجود بين أهل السنة هو الثلث فقط. هذه هي عقيدة الشيعة في إيران والعراق ولبنان وأغلب البلدان في القرآن الذي تكفل الله بحفظه إلى قيام الساعة.

- **ما هي أبرز الانحرافات السلوكية والاجتماعية عند الشيعة؟**

أبرز الانحرافات السلوكية عند الشيعة مظاهر الوثنية التي تصرف شتى

أنواع العبادة كالدعاء والطواف والذبح والنذر والخضوع والتذلل لأئمتهم الذين أعطاهم الله هذا الحق على زعمهم، وأعطاهم هذه القدرة في التصرف وإجابة السائلين، وتلبية طلباتهم، وقضاء حوائجهم، وتعتبر الالتجاء إليهم توحيدا، والاستعاذة بهم واجبة عندهم، فمن شرائعهم وفرائضهم التي ألزموا بها أتباعهم، وجوب زيارة القبور وشد الرحال إليها، بل ليس للشيعي رخصة في أن يترك هذه الفريضة المؤكدة، بل تشاهد في مدينة قم مئات من العوائل الإيرانية، قد حطت رحالها في الساحة الخارجية للضريح، وافترشوا بسطا على الأرض، على الرغم من كونها ترتعد من البرد.

وقد بالغوا كثيرا جدا في وصف ثواب الزائر لهذه المشاهد، ووحدة القياس في هذا المقام هي الحج، ففي كل زيارة يكتب لك عدد من الحجات، وأحيانا تحتسب لك مع الرسول ﷺ. فمثلا من زار الرضا عليه السلام أو واحدا من الأئمة فصلى عنده صلاة، فإنه يكتب له بكل ركعة ثواب من حج ألف حجة، واعتمر ألف عمرة، وأعتق ألف رقبة، ووقف ألف وقفة في سبيل الله مع نبي مرسل، وله بكل خطوة ثواب مائة حجة، ومائة عمرة، وعتق مائة رقبة في سبيل الله، وكتب له مائة حسنة، وحط منه مائة سيئة[1].

وما ينفقه الزائر من المال في زيارته عند الشيعة أكثر ثوابا مما ينفقه في حجه وعمرته، ويرى الزائر الأوراق النقدية تملأ حجرة الضريح، وترتفع إلى ما يقارب المتر، بحيث لو سقط إنسان فيها لغاب بين هذه الأوراق النقدية من جميع الفئات، ومن مختلف الجنسيات، فترى الدينار والريال والدراهم والدولار بالإضافة طبعا إلى التومان الإيراني.

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي ٩٧/ ١٣٧.

والزائر لأئمتهم يأتي مخبتا خاشعا راجيا مؤملا، ترافقه همومه وآماله، وأحلامه وأمنياته، فها هو المشهد أمامه، ولم تبق إلا خطوات وتغفر خطاياه، وترفع درجاته وتمحى سيئاته، ويعود كيوم ولدته أمه، وتكتب له آلاف الحجات، ويختم زيارته بأن يأخذ معه من تربة الحسين فيأكل ما شاء الله له أن يأكل، وإذا أكله أمروه أن يقول: بسم الله وبالله، اللهم اجعله رزقا واسعا، وعلما نافعا، وشفاء من كل داء، إنك على كل شيء قدير[1]. فانظر كيف وصل استخفافهم بأتباعهم حتى أطعموهم التراب، فهل هذا هو الإسلام دين الفطرة والاعتدال؟

أما الانحرافات الاجتماعية فتتمثل في إباحة الزنا واللواط تحت ما يسمى عندهم بجواز المتعة، وصورته أن يلتقي رجل بامرأة فيعرض عليها التمتع بها، ويذكر الصيغة لها فيقول: أريد التمتع بك، وتقول متعتك بنفسي أو نحوها، ويتفقان على المهر، ويحددان المدة ولو يوما واحدا، وهذه بعينها صورة التصريح الذي يمنح للمومسات العاهرات لممارسة الزنا الصريح في بعض الدول العربية، فهي دعوة شيعية مجوسية مباشرة إلى الفحشاء والانحراف، بل نص علمائهم ومنهم الخميني في كتابه تحرير الوسيلة على جواز التمتع حتى بالزانية العاهرة المحترفة للزنا [2].

وقد أجازوا التمتع بالطفلة والبكر دون إذن أبيها، وأباحوا لهم في المقابل إتيان النساء في أدبارهن، وقد نقلوا زورا أن أحدهم سأل جعفر الصادق

(١) كامل الزيارات ص٤٧٦، وبحار الأنوار للمجلسي ١/ ١٢٨.

(٢) تحرير الوسيلة للخميني ٢/ ٢٩٢.

رحمه الله عن إتيان النساء في أدبارهن، فقال: هي لعبتك لا تؤذها [١]. وهذا دينهم كما قال إمامهم الصدوق: المتعة ديني ودين آبائي، من عمل بها عمل بديننا، ومن أنكرها أنكر ديننا، واعتقد بغير عقيدتنا [٢].وقد كان يكفي في الدعوة إلى هذه الفاحشة إباحتها، لكنهم رتبوا عليها الثواب العظيم، والمغفرة في الدنيا والآخرة، رغبة في أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، ولكي يسهلوا على هذه الفتاة المؤمنة زوال ما ينتابها من الخوف عندما تفكر في تمكين رجل من نفسها، وأخذ مقابل لما تبيعه لهذا المتمتع من جسدها.

إن الهوس الجنسي المقدس عند الشيعة لم يستثني حتى الرضيعة فقد أجمع علماء الرافضة على جواز تفخيذ الرضيعة، أي يضع ذكرهُ بين فخذيها، ويروي العالم الشيعي التائب حسين الموسوي في كتابه، لله ثم للتاريخ، قصة تفخيذ الخميني للطفلة البريئة المسكينة، وهو يتمتع بها ويتلذذ وهي تصرخ وتبكي وتستغيث، ولا مجيب لصراخها، فالمغتصب الذي يغتصبها هو مشرع هذا الفعلة الجنسية البشعة، وكان الخميني يرى جواز التمتع حتى بالرضيعة؟ فقال: لا بأس بالتمتع بالرضيعة ضما وتفخيذا وتقبيلا [٣].

• ما هو موقف الشيعة الإمامية من أهل السنة والجماعة؟

الشيعة تحكم على أهل السنة بالكفر والخلود في النار، وتروي روايات عن أئمتها المعصومين في كتبها المعتبرة، تبيح قتل السني وأخذ ماله ونسائه، وتحكم عليه بأنه شر من اليهود والنصارى، وقد أطلقت الشيعة كلمة

---

(١) الكافي الشيخ الكليني ٥/ ٥٤٠.

(٢) من لا يحضره الفقيه لأبي جعفر الصدوق القمي ٣/ ٣٦٦.

(٣) انظر تحرير الوسيلة للخميني ٢/ ٢٤١.

النواصب على مخالفيهم، وهذه الكلمة تعني ناصب العداوة لآل البيت، لكن الشيعة تجعلها في كل مخالفيها، سواء نصب لأهل البيت العداوة، أم أحبهم ووالاهم كأهل السنة الذين يحبون عليا وآل بيته طالما لم يتبرأ من أبي بكر وعمر، فليس لهم عند الشيعة في الإسلام ولا في أحكامه حظ ولا نصيب»(١).

ومنهم النواصب عند الشيعة عمر بن الخطاب وأبو بكر وعثمان وعائشة وأنس بن مالك وحسان بن ثابت والزبير بن العوام وسعيد بن المسيب وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والإمام الأوزاعي والإمام مالك والأشعري وعروة بن الزبير وابن حزم وابن تيمية والإمام الذهبي والبخاري والزهري والمغيرة بن شعبة والباقلاني وغيرهم كثير، فالنواصب عند الشيعة هم أهل السنة على اختلاف طرقهم.

وقد بلغ من حقد الشيعة المجوس أن يتخذوا عيدا لمن قتل عمر بن الخطاب، وسموا قاتله: بابا شجاع الدين، ويزورون مرقده حتى اليوم في إيران، وقد شيدوا قبره وزخرفوه وتلقى فيه الأموال والتبرعات،

والشيعة لا يجيزون مناكحة أهل السنة ولا مساكنتهم ولا أكل ذبيحتهم ولا الصلاة خلفهم، ولا خلف من يتولى على أمير المؤمنين إذا لم يتبرأ من عدوه إلا في حال التقية. وأما الصلاة عليهم فلا بد من الدعاء عليهم فيقول الواحد منهم بعد التكبيرة الرابعة: (اللهم إن فلانا لا نعلم منه إلا أنه عدو لك ولرسولك، اللهم فاحش قبره نارا واحش جوفه نارا، وعجل به إلى النار، فإنه كان يتولى أعداءك، ويعادي أولياءك، ويبغض أهل بيت نبيك،

(١) الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة للمحقق يوسف البحراني ١٤/ ١٥٩.

اللهم ضيق عليه قبره، فإذا رفع فقل: اللهم لا ترفعه ولا تزكه)[١].

ويكفي ما فعله الشيعة من تعاون ظاهر مع قوات التحالف الصليبية الغازية ضد إخوانهم من المسلمين في العراق وفي أفغانستان، ومن قبلها ما فعله ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي وحسن نصر الله في لبنان ومن كان على شاكلتهم في النظام السوري.

- **من هم الخوارج وكيف ظهروا في التاريخ الإسلامي؟**

الخوارج هم الذين فارقوا طريق الجماعة عند اجتماع المسلمين على طاعة إمام حق، فالخروج على الإمام الحق الذي اجتمعت عليّه الأمة، فمن خرج عليّه فيطلق عليّه: خارج، والفئة التي خرجت يطلق عليّها خارجة، وتجمع على خوارج. والخوارج في الأصل هم الذين خرجوا زمن عليّ ﷺ بعد حادثة التحكيم يوم واقعة صفين، وقالوا: حكّم عليّ الرجال في دين الله، والحكم لله فهو إذا كافر؛ فكفروا عليّا ﷺ، وخرجوا عليه وفارقوا الجماعة.وهؤلاء كانوا شبابا أحداث السن، مشغوفون بالعبادة والزهد والتطلع إلى الآخرة، ولكن كان لديهم من ضيق الأفق والنظرة السطحية، ومن الاندفاع الأعمى ما لم يكن في الصحابة ﷺ، بل هي بعيدة عنهم وعن منهج النبي ﷺ، ذلك المنهج الرحب الذي يقبل الشورى وتعدد الرأي ووجهات النظر في حدود ما قرره الشرع، أما هؤلاء فلا يعرفون إلا أمرا واحدا ورأيا واحدا[٢].

وقد وصف النبي ﷺ هذه الفرقة ودل عليها وذكر صفاتها، حتى كأن

---

(١) الكافي للكليني ٣/ ١٨٩، وبحار الأنوار ٤٤/ ٢٠٢ ، ووسائل الشيعة ٣/ ٧٠.

(١) انظر التكفير وضوابطه للشيخ سفر الحوالي ص٥ بتصرف.

الإنسان يراها، ولهذا بعد قتلهم في معركة النهروان قال عليّ ﷺ: ابحثوا عن صاحب الثُديّة، فبحثوا عنه فلم يجدوه، فقال لهم: والله ما كذبت ولا كُذبت ، أي ما كذبت على رسول الله ﷺ، وما كذب علي رسول الله ﷺ فابحثوا عنه، فبحثوا عنه فوجدوه تحت القتلى، فاستخرجوه وفي عضده قطعة لحم مثل ثدي المرأة، فوقع ما أخبر به النبي ﷺ عليًا [1].

ومن جملة ما وصفهم به النبي ﷺ كما جاء في الحديث أنهم يخرجون من الدين، وفي رواية يمرقون، ولهذا سُمُّوا خوارج، وهو اسم مشتق من لفظ الحديث، ويُسمون أيضا المارقة، وكانوا يُسمّون القُراء لكثرة اجتهادهم في قراءة القرآن في الصلاة ، وهم سموا أنفسهم الشراة، لأنهم كما يزعمون شروا أنفسهم لله؛ يعني باعوها في سبيل الله ﷻ، ولا يرضون باسم الخوارج ولا المارقة، وللخوارج ألقاب أخرى منها الحرورية نزولهم ببلدة حروراء في أول أمرهم، ومنها المحكمة لإنكارهم الحكمين وقولهم: لا حكم إلا لله.

وقد اجتمع وصفان في الخوارج الأوائل، الأول أنهم خرجوا على السنة وهي المنهج القويم والصراط المستقيم، والثاني أنهم خرجوا عن الإمام الحق، ولما طال بهم الزمن أصبحوا فرقة من الفرق المشهورة التي لها منهج معلوم، تطور على امتداد تاريخ المسلمين، فأصبح يطلق اسم الخوارج على من يخرجون عن السنة والدين وإمام المسلمين، ويكفرون المسلمين بالذنوب والمعاصي، فلم يعد الخروج عن الإمام السمة البارزة لهم فقط، ولكن اصطلاح الخوارج أصبح علما على فرقة ذات أصول بدعية، فلا يجوز أن يسمى خارجيا إلا من كان على هذا الوصف المتفق مع أصولهم، وأما من

---

(١) سنن النسائي الكبرى، كتاب الخصائص ٥/ ١٦٣ (٨٥٦٩).

خرج على الإمام فقد اصطلح على تسميته بالباغي وجمعه البغاة، والباغي قد يكون من أهل السنة.

وقد كان أهل الشام خارجين عن طاعة الإمام عليّ ﷺ، ومع ذلك لم يُسمِّهم خوارج، وإنما كان يعتبرهم بغاة، إذا لو كان الخارجي هو كل من خرج على الإمام، لكان كل من خرج على عليّ ﷺ من أهل الجمل وأهل الشام خوارج، لكن مصطلح الخوارج إذا أطلق فالمراد به من يعتقد عقيدتهم ويسلك مسلكهم، فالخارج على الإمام إن خرج عليه معتقدا اعتقاد الخوارج فهو خارجي؛ وإن خرج على تأويل آخر أو طمعا في الدنيا أو ما أشبه ذلك فيسمى باغيا، وأوضح وصف للخوارج أنهم يكفرون المسلمين بمجرد المعاصي والذنوب التي هي دون الكفر أو الشرك.

• ما هي طبقات فرق الخوارج ودرجاتهم في الغلو؟

الخوارج طبقات ودرجات وفرق وإن كان أصلها واحدا، فالبدعة مدعاة للفرقة، فما ابتدع قوم بدعة قط إلا وتفرقوا فيها، والناس لا يجمعهم إلا منهج أهل السنة والجماعة الذي هو المنهج الحق، فالخوارج أول ما خرجوا كانوا فرقة واحدة، وكانوا رأيا واحدا، كل همهم تكفير عليّ ﷺ، ثم كفروا أيضا عثمان ﷺ، وكفروا بطبيعة الحال معاوية وعمرو بن العاص ﷺ، وهكذا أخذوا يكفرون من لم ينهج منهجهم حتى إنه لم يسلم من تكفيرهم من الأمراء المؤمنين أو الخلفاء إلا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، والخوارج بحسب غلوهم ثلاثة أصناف رئيسية:

١ - الأزارقة وهم أعظم الخوارج غلوا، وأبعدهم عن السنة، وهم أتباع نافع بن الأزرق (ت:٦٥هـ)، وهو مشهور في كتب التفسير كما في الدر المنثور

في التفسير بالمأثور وتفسير الطبري، وهو الذي عرف بأسئلته لابن عباس عندما كان يسأله ويجيبه ابن عباس فلا يقبل منه ويجادله. وكان نافع بن الأزرق يعتقد أن المسلمين جميعا كفار، وأن الأمة بأجمعها كافرة إلا نافعا وحده، وأوجب على من كان معه أن يهاجر إليه، وينضم معه على الخروج والهجرة، ومن كان على عقيدتهم ولم يهاجر إلى الأزارقة وينضم إليهم فهو عندهم كافر، ولو أن إنسانا محبوسا لا يستطيع أن يتخلص من ظلم الحجاج بن يوسف الثقفي أو من سيطرته مثلا، فلم يخرج ولم يهاجر إلى نافع ويلتحق بجيشه فهذا عندهم كافر، بل يسمونه وأمثاله القعدة أو القاعدين من أولي الضرر، فكان نافع يكفر القعدة، ويرى أن دارهم كلها دار كفر، فكل الأمة الإسلامية دار كفر إلا معسكره فقط، وهو فكر جماعة التكفير والهجرة في عصرنا ولهم أفكار أخرى باطلة ومعتقدات كثيرة فاسدة.

٢- النجدات وهي فرقة من الخوارج خففوا من غلو الأزارقة في التكفير ولزوم الهجرة، وتنسب إلى رجل من أتباع نافع بن الأزرق يدعى نجدة بن عامر الحنفي (ت:٦٩هـ)، فخفف الغلو فقط، وقال: من كان على مذهبنا، ولم يستطع أن يهاجر إلينا لا يكفر، ومن أقمنا عليه الحد لا يكفر. وكلاهما متفقان على أن عليّا ﷺ وعثمان ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة وغيرهم كفار، لكن اختلفوا في مسائل تتعلق بالتكفير، فالطائفة الأشد غلوا هم الأزارقة إذ يرون التكفير العام المطلق، وأقل منهم غلوا أو الوسط في مذهب الخوارج النجدات أتباع نجدة بن عامر الذي خفف قليلا من غلو الأزارقة، وبقيت مصائب أخرى لم يخففها، وخرج من الأزارقة ومن النجدات أيضا فرق وطوائف ومقالات باطلة، لكنهم اجتمعوا على تكفير عثمان ﷺ.

٣- الإباضية وهي فرقة من الخوارج لا يزال لها أتباع وأنصار في أماكن كثيرة من العالم، وهي تنسب حسب زعم الخوارج إلى جابر بن زيد الأزدي الذي يقدمونه على غيره ويروون عنه مذهبهم، وهو من تلاميذ ابن عباس رضي الله عنه، وقد ذكر ابن حجر أن جابر بن زيد تبرأ من الإباضية، وأنه لما قيل له: إن هؤلاء القوم ينتسبون إليك فقال: أبرأ إلى الله من ذلك. وقد نُسِبوا إلى عبد الله بن يحيى بن إباض لشهرة مواقفه مع الحكام، عاصر معاوية وابن الزبير، وكانت له آراء واجه بها الحكام، وقد قامت للإباضية دولتان، إحداهما في المغرب والأخرى في المشرق، فعُمان يتمتع المذهب الإباضي فيهما بالنفوذ والقوة، وقد ساعد انتشار المذهب الإباضي في عُمان بعْدُها عن مقر الخلافة، ثم مسالكها الوعرة، ويرجع دخول المذهب الإباضي عُمان إلى فرار بعض الخوارج بعد معركة النهروان إلى هذا البلد.

وموقف الإباضية من المخالفين لهم تتسم باللين والمسامحة وجوزوا تزويج المسلمات من مخالفيهم، والإباضية تعتبر المخالفين لهم من أهل القبلة كفارُ نعمةٍ غير كاملي الإيمان، ولا يحكمون بخروجهم من الملة، ومن الإباضية من يرون أن مخالفيهم محاربون لله ورسوله، وللإباضية أفكار عقدية وافقوا فيها مذهب المعتزلة والأشعرية في صفات الله.

والخوارج لهم فرق أخرى بعدد كل البدع التي استحدثوها، فهي فرق لا تكاد تحصى تنوعوا في الضلال والكفر وذهب الشيطان بهم كل مذهب، وقد روي عن الإمام الشعبي أنه ضرب للخوارج مثلا فقال: شأن هؤلاء كرجل مات وترك ثلاثة أبناء، كبير وأوسط وصغير، فجاء الكبير فاستأثر بالمال كله، ولم يترك للاثنين شيئا، فجاء الأوسط للأصغر، وقال له: أعني على قتال

الكبير، فقال الأصغر لا أستطيع أن أقاتله، ولكن اصبر واحتسب، فعدا الأوسط على الصغير وقاتله لأنه لم يخرج معه، ولم يقاتل معه الأكبر.

• من هم المرجئة وكيف ظهرت كرد فعل لعقيدة الخوارج؟

ذكر العلماء أن الحسن بن محمد بن الحنفية هو أول من ذكر الإرجاء في المدينة بخصوص علي وعثمان وطلحة والزبير، حينما خاض الناس فيهم وهو ساكت ثم قال: قد سمعت مقالتكم ولم أر شيئا أمثل من أن يرجأ علي وعثمان وطلحة والزبير، فلا نتولاهم ولا نتبرأ منهم. ولكنه ندم بعد ذلك على هذا الكلام وتمنى أنه مات قبل أن يقوله، فصار كلامه بعد ذلك طريقا لنشأة القول بالإرجاء، وقد بلغ محمد بن الحنيفة كلام ولده الحسن فضربه بعصا فشجه، وقال: لا تتولى أباك عليّا؟ ولم يلتفت الذين تبنوا القول بالإرجاء إلى ندم الحسن بعد ذلك، فإن كلامه عن الإرجاء انتشر بين الناس، وصادف هوى في نفوس كثيرة فاعتنقوه.

ومن كبار فرق المرجئة ومشاهيرهم الجهمية أتباع الجهم بن صفوان، والصالحية أتباع أبي الحسين الصالحي، والغيلانية أتباع غيلان الدمشقي، والمريسية أتباع بشر المريسى، والكرامية أتباع محمد بن كرام، والمقاتلية أتباع مقاتل بن سليمان المشبه لله ﷻ بخلقه، والجواربية أتباع أبي داود الجواربي وهما من غلاة المشبهة. وقد اعتمدت المرجئة جميعا على أصل واحد وهو تحديد الإيمان والكفر، فكان هو المقوّم لجميع عقائدها وأفكارها، وليس لهم رأي في الموضوعات الأخرى بشكل خاص ومبسوط، ولأجل ذلك تفرقوا في آخر أمرهم، إلى فرق متبددة ومتضادة، فترى مرجئيا يتبع منهج الخوارج، وآخر يقتفي أثر القدرية، وثالثا يشايع الجبرية.

والمرجئة من أوائل الفرق التي تنتسب إلى الإسلام في الظهور، وقد احتلت مكانا واسعا في أذهان الناس، والإرجاء بمعنى التأخير كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ ﴾ الأعراف:١١١. أي أمهله وأخره، فكانوا يؤخرون العمل ويهمشونه ويقولون تكفيك النية فلا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، وأكثر فرق المرجئة على أن الإيمان هو مجرد ما في القلب من معرفة، ولا يضر مع ذلك أن يظهر من عمله ما ظهر، حتى وإن كان كفرا وزندقة، وهذا مذهب الجهم بن صفوان، ولا عبرة عنده بالإقرار باللسان ولا الأعمال أيضا، لأنها ليست جزءا من حقيقة الإيمان. وذهبت الكرّامية أتباع محمد بن كرام إلى أن الإيمان هو القول باللسان، ولا يضر مع ذلك أن يبطن أي معتقد حتى وإن أبطن الكفر، وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أن الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان، لا يغنى أحدهما عن الآخر.

أما العمل فلا يدخل في مسمى الإيمان، فمن صدق بقلبه وأعلن التكذيب بلسانه لا يسمى مؤمنا، وعلى هذا قام مذهب الحنفية، والعاصي عنده تحت المشيئة، هذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة من المرجئة، وهو ما ذهب إليه أبو حنيفة ومن قال بقوله من فقهاء الكوفة الذين أخروا العمل عن حقيقة الإيمان وماهيته.

الفصل الثاني

المعطلة والصوفية وفرق الباطنية

• من هم الجهمية وكيف تأثرت بهم جميع الفرق الكلامية؟

الجهمية تنسب إلى مؤسسها الجهم بن صفوان الترمذي (ت:١٢٨هـ) من أهل خراسان، ويكنى بأبي محرز، كان من الجبرية الخالصة، وهو أول من ابتدع القول بخلق القرآن وتعطيل صفات الله، وقد كتبت فيه مؤلفات عديدة ورسائل جامعيه، وكان الجهم كثير الجدال والخصومات متحذلقا كثير الكلام والمناظرات، ولم يكن له بصر بعلم الحديث، ولا مجالسة لأهل العلم، بل كلامه وجداله أساسه الهوى والسفسطة.

وقد استمد الجهم بن صفوان فكره أيضا من طريق وثني، ظهر حين لقي أناسا من المشركين يقال لهم السمنية، وهي فرقة تعبد الأصنام، وتقول بتناسخ الأرواح، وتنكر الوحي والدين، جرت بينهم وبين الجهم مناظرة عقلية، انتهت بفكر عقلي خبيث زعم فيه أن الله ﷻ حل في مخلوقاته، وهو بذاته في كل مكان، وموجود في كل الوجود، ثم نظر في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فما توهم بظنه السيئ أنه يوافق رأيه من النصوص احتج بها، وما توهم أنه يخالف مذهبه منها أراد حذفها من القرآن أو أنكرها وعطلها عن مدلولها تحت ما يسمى بالتأويل، وهذا هو منهج الجهمية التي تأثرت بهم جميع الفرق الكلامية كالمعتزلة والكلابية والأشعرية والماتريدية.

وأهم اعتقادات الجهمية الباطلة وأفكارها التي تفرد بها الجهم بن صفوان زعمه أن الجنة والنار تبيدان وتفنيان، وأن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، والكفر هو الجهل به فقط، وأنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحده، وأنه هو الفاعل، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز، كما يقال: تحركت الشجرة، ودارت السفينة، وزالت الشمس، وإنما فعل ذلك بالشجرة والسفينة والشمس الله سبحانه وتعالى، وكان جهم ينتحل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- **من هم المعتزلة وكيف ابتليت بها الأمة الإسلامية؟**

المعتزلة من فرق المعطلة الجهمية وهي فرقه ظهرت في القرن الثاني تنسب إلى رجل يسمى واصل بن عطاء الغزالي، نشأت هذه الطائفة متأثرة بشتى الاتجاهات الفلسفية، وأصبحت فرقه كبيره تفرعت عن الجهمية في معظم الآراء، ثم انتشرت في أكثر البلدان الإسلامية انتشارا واسعا. وقد انتقلت أفكار هذه الفرقة في عقيدة التوحيد وتعطيل الصفات إلى أغلب الفرق الإسلامية، فشيعة العراق على الإطلاق معتزلة، وأيضا شيعة الأقطار الهندية والشامية والبلاد الفارسية، ومثلهم الزيدية في اليمن فإنهم على مذهب المعتزلة في الأصول، وكذلك انتقل منهجهم إلى الأشعرية والماتريدية.

والمعتزلة يطلق عليهم جهمية لاتفاقهم مع الجهمية في المنهج والمسائل الاعتقادية، وسموا بالقدرية بسبب موافقتهم للقدرية في إنكار القدر، وإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم، وهم لا يرضون بهذا الاسم، ويرون أنه ينبغي أن يطلق على الذين يقولون بالقدر خيره وشره من الله. وسموا أيضا بالثنوية والمجوسية لقولهم بوجود خالق للخير وخالق آخر للشر، ويسمون أيضا بالوعيدية؛ لأنهم اشتهروا بقولهم: لا بد لله من إنفاذ الوعد والوعيد

لامحالة، وأن الله لا يخرج أحدا من أهل الكبائر من النار، ولا بشفاعة النبي ﷺ، ويسمون بالمعطلة وهو اسم للجهمية ثم أطلق على المعتزلة لموافقتهم الجهمية في نفي الصفات وتعطيلها، وتأويل ما لا يتوافق مع مذهبهم من النصوص، وقد سموا أنفسهم بالمنزهين لله، وأطلقوا على من عداهم وخصوصا أهل السنة أسماء جائرة كاذبة مثل المشبه والحشوية والقدرية.

وقد ابتدعت المعتزلة بالعقل الفاسد أصولا خمسة جعلتها أصول الدين وعطلت بها النقل، وحملت النصوص على غير ما تحتمل تحت مسمى التأويل، وهو في حقيقته تحريف للكلم عن مواضعه، وهي العدل والتوحيد والمنزلة بين المنزلتين وإنفاذ الوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد استطاعت المعتزلة الهيمنة على عقل الخليفة العباسي المأمون بن هارون، واستجلبوه إلى جانبهم، وحجبوا عنه كل فكر يخالف فكرهم، وكان يسوقه ويوجهه قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد، ومن ثم ناصر المعتزلة بكل ما لديه من قوه، بل حمل كافة الناس على اعتناق المذهب المعتزلي، ورغب الناس فيه، ورهبهم من تركه، ولقي المسلمون عنتا شديدا منه، وفتن كثيرة من الناس، وكانت تسمى هذه الفترة بمحنه خلق القرآن، وقد بلغوا الذروة في ابتلاء العلماء والعامة، كل ذلك جلب السخط العام على رجال الدولة، فأبطل الخليفة المتوكل المحنة وأبطل القول بخلق القرآن بعد فترة، وأبطل المحاكمات الجائرة ونصر المحدثين نصرا مؤزرا، فأصبح القول بالاعتزال يتحدث به بين أتباعه سرا بعد أن كان جهرا.

- **من هم الكلابية وما علاقتهم بفرقة المعتزلة وأصولهم العقلية؟**

الكلابية من فرق المعطلة الجهمية وتنسب إلى أبي محمد عبد الله بن سعيد

بن كلاب القطان البصري (ت: ٢٤٠هـ) رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه، والكلابية يقولون بأن الله سبحانه لم يزل متكلما، وأن كلام الله سبحانه صفة له قائمة به، وأنه قديم بكلامه، وأن كلامه قائم به،كما أن العلم قائم به، والقدرة قائمة به، وهو قديم بعلمه وقدرته، وأن الكلام ليس بحروف ولا صوت، ولا ينقسم ولا يتجزأ ولا يتبعض ولا يتغاير، وأنه معني واحد قائم بالله ﷻ، وأن الرسم هو الحروف المتغايرة، وهو قراءة القرآن، وأن العبارات عن كلام الله سبحانه تختلف وتتغاير، وكلام الله سبحانه ليس بمختلف ولا متغاير، ويفرقون بين الوصف والصفة فيجعلون الوصف هو صفات الأفعال وزعموا أنها لا تقوم به، ويجعلون الصفة هي صفات الذات أو الصفات اللازمة القائمة بالذات.

- **من هم الأشعرية وكيف كانوا امتدادا لمنهج المعتزلة والكلابية؟**

الأشعرية من فرق المعطلة الجهمية وتنسب إلى أبي الحسن الأشعري علي بن إسماعيل أحد علماء القرن الثالث ولد في البصرة، وتعمق أولا في مذهب المعتزلة وتتلمذ على أبي علي الجبائي محمد بن عبد الوهاب أحد مشاهير المعتزلة، إلا أن الله أراد له الخروج عن مذهبهم والدخول في مذهب أهل السنة والجماعة.

ومن سيرته الذي ذكرها في كتابه أنه كان دائما ما يمل من اختلاف الفرق في وقته، فهداه الله إلى الحق واقتنع بما عليه السلف من اعتقاد مطابق لما جاء في القرآن والسنة النبوية فكان له موقف حاسم، وقد مكث في بيته خمسه عشر يوما لا يخرج إلى الناس، وفي نهايتها خرج يوم جمعه، وبعد أن انتهى من الصلاة صعد المنبر وقال مخاطبا جموع الناس: من عرفني فقد عرفني، ومن لم

يعرفني فأنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وإن الله لا يُرى في الدار الآخرة بالأبصار، وإن العباد يخلقون أفعالهم، وها أنا تائب من الاعتزال مقلع متصد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم، معاشر الناس إنما تغيبت عنكم هذه المدة، لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي شيء على شيء فاستهديت الله تعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد كما انخلعت من ثوبي هذا[1].

وقد مر الأشعري بمراحل في عقيدته انتهت بإثباته ما أثبته الله لنفسه على مراد الله ورسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل على طريقة السلف. ومن أشهر زعماء الأشعرية الذين انتسبوا إلى أبي الحسن الأشعري قبل توبته وعودته إلى مذهب السلف والذين يمثلون مذهب المتكلمين المعطلة الذي يدرس في البلاد الإسلامية حتى الآن أبو بكر الباقلاني، والبيضاوي، والشريف الجرجاني، والإمام أبو المعالي الجويني، وأبو حامد الغزالي، وأبو الفتح محمد الشهرستانى.

وقد وقف الأشاعرة بالنسبة للإيمان بصفات الله وقوفا مضطربا مملوءا بالتناقض المعهود عند المعتزلة، فذهب الأشاعرة إلى تقسيم الصفات الإلهية إلى صفات نفسية راجعه إلى الذات وإلى صفات سلبيه اختاروا لها خمسة أقسام هي الوحدانية والبقاء والقدم والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس.

وهنا حقيقة هامة ربما تخفى على كثير من الدارسين للمذهب الأشعري، تلك الحقيقة التي نستطيع الجزم بها، أن أبا الحسن الأشعري الذي ينتسب إليه

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ١/ ١٨١.

جميع الأشعرية في البلاد الإسلامية اليوم، يدين لله في أغلب أمور العقيدة بغير ما يدين به هؤلاء، فطريقته في التوحيد طريقة سلفية تنطق بما نطقت به الأصول القرآنية والنبوية.

وهذا كتابه الإبانة عن أصول الديانة، وهو من أواخر ما كتب في بيان عقيدته، ولا يجرأ أحد من الأشعرية التشكيك في نسبته، لتواتر تلك النسبة إليه عند كل من ترجم لشخصيته، وقد جاء فيه بلا لبس أو غموض، أو تعصب أو جمود، جاء فيه التصريح بأن عقيدته التي يدين لله بها هي بذاتها وعينها ونفسها عقيدة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وقد أثبت فيها علو الله على خلقه، واستوائه بذاته على عرشه، وأنه تعالى في السماء، وأثبت جميع ما ورد في صفات الذات والأفعال على عكس طريقة الأشعرية في عصرنا، المنتهجين لطريقة الجهمية والمعطلة.

- **من هم الماتريدية وما الفرق بين عقيدتهم وعقيدة الأشعرية؟**

الماتريدية من فرق المعطلة الجهمية تنتسب إلى أحد علماء القرن الثالث الهجري وهو محمد بن محمد بن محمود المعروف بأبي منصور الماتريدي (ت:٣٣٣هـ) ولد في ماتريد، وهي من بلدان سمرقند فيما وراء النهر، وتلقى علوم الفقه الحنفي والكلام على أحد كبار علماء ذلك العصر، وهو نصر بن يحي البلخي وغيره من كبار علماء الأحناف، وتتلمذ عليه بعض المشاهير فكان له مناظرات ومجادلات عديدة مع المعتزلة في الأمور التي خالفهم فيها، واتحد مع الأشعري في محاربه المعتزلة وكان معاصرا له.

وقد مرت الماتريدية كفرقة كلامية بعدة مراحل ولم تعرف بهذا الاسم إلا

بعد وفاة مؤسسها، وقد انتشرت في شرق الأرض وغربها وبلاد العرب والعجم والهند والترك وفارس والروم. وهناك مدارس مازالت تتبنى الدعوة للماتريدية في شبه القارة الهندية وتتمثل في مدرسة ديوبند والمدرسة الندوية ١٢٨٣هـ، وفيها كثر الاهتمام بالتأليف في علم الحديث وشروحه فالديوبندية أئمة في العلوم النقلية والعقلية؛ وإلا أنهم متصوفة محضة، وعند كثير منهم بدع قبورية، وكذلك مدرسة البريلوية ١٢٧٢هـ نسبة إلى زعيمهم أحمد رضا خان الأفغاني الحنفي الماتريدي الصوفي الملقب بعبد المصطفى ١٣٤٠هـ، وفي هذا الدور يظهر الشرك الصريح والدعوة إلى عبادة القبور وشدة العداوة للديوبندية، وتكفيرهم فضلا عن تكفير أهل السنة. ثم مدرسة الكوثري ١٢٩٦هـ وتنسب إلى محمد زاهد الكوثري الجركسي الحنفي الماتريدي ١٣٧١هـ، ويظهر فيها شدة الطعن في أئمة الإسلام ولعنهم، وجعلهم مجسمة ومشبهة، واعتبارهم كتب السلف ككتاب التوحيد والإبانة والعلو وغيرها كتبا وثنية وتجسيما وتشبيها، كما يظهر فيها أيضا شدة الدعوة إلى البدع الشركية والتصوف من تعظيم القبور والمقبورين تحت ستار التوسل.

وقد قسم الماتريدية أصول الدين إلى ما يستقل العقل بإثباتها وهي الإلهيات وتشمل أبواب التوحيد والصفات، وإلى الشرعيات والسمعيات وهي الأمور التي يجزم العقل بإمكانها ثبوتا ونفيا، ولا طريق للعقل إليها، مثل النبوات وعذاب القبر وأمور الآخرة، علما بأن بعضهم جعل النبوات من قبيل العقليات. ولا يخفى ما في هذا من مخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة حيث إن القرآن والسنة وإجماع الصحابة هم مصادر التلقي عندهم.

والأحاديث عند الماتريدية إن كانت من أحاديث الآحاد، فإنها تفيد الظن

ولا تفيد العلم اليقيني، ولا يعمل بها في الأحكام الشرعية مطلقا، بل وفق قواعدهم وأصولهم التي قرروها، وأما في العقائد؛ فإنه لا يحتج بها ولا تثبت بها عقيدة، وإن اشتملت على جميع الشروط المذكورة للحديث الصحيح، وهذا موقف الماتريدية قديما وحديثا؛ حتى إن الكوثري ومن وافقه من الديوبندية طعنوا في كتب السنة بما فيها الصحيحين.

ومفهوم التوحيد عند الماتريدية يتفقون فيه مع الأشعرية في إثبات أن الله تعالى واحد في ذاته لا قسيم له ، واحد في صفاته لا شبيه له، واحد في أفعاله لا يشاركه أحد، وأن الإله عندهم هو القادر على الاختراع مستخدمين في ذلك الأدلة والمقاييس العقلية والفلسفية التي أحدثتها المعتزلة والجهمية، وهي أدلة طعن فيها السلف والأئمة وأتباعهم.

وقالوا بإثبات ثماني صفات لله تعالى فقط على خلاف بينهم، وهي الحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام والتكوين، وجميع الأفعال المتعدية ترجع إلى التكوين، أما ما عدا ذلك من الصفات التي دل عليها الكتاب والسنة كالصفات الخبرية من صفات ذاتية أو صفات فعلية فإنها لا تدخل في نطاق العقل ولذلك قالوا بنفيها.

وموقف الأشاعرة بشكل عام تجاه أحاديث الآحاد أقل حدة من موقف الماتريدية حيث يحتجون بها في السمعيات وفي مسائل العقيدة التي لا تتعارض مع العقل بزعمهم، أما الماتريدية فموقفهم من أحاديث الآحاد أشد غلوا، فهم يبطلون الاحتجاج بها في مسائل العقيدة، وإن اشتملت على كل الشروط المذكورة في كتب الأصول، وهذا خلاف أهل السنة والجماعة الذين يحتجون بأحاديث الآحاد متى ثبتت صحتها في مسائل العقائد والأحكام على

السواء. وفي مسألة التأويل وإن اتفق الأشعرية والماتريدية في تأويل الصفات الفعلية إلا أن الأشاعرة يؤولونها بالإرادة، بينما يؤولها الماتريدية بالتكوين، وأما أهل السنة والجماعة فأثبتوها على الوجه الذي يليق بجلال الله.

• من هم المشبهة وما علاقة التشبيه بعقيدة المعطلة؟

المشبهة هم الذين شبهوا الله بخلقه، ويقال لهم المجسمة، جعلوا صفاته من جنس صفات المخلوقين، ولذلك سموا بالمشبهة، وأول من قال هذه المقالة هو هشام بن الحكم الرافضي، وبيان بن سمعان التميمي الذي تنسب إليه البيانية من غالية الشيعة، فالمشبهة غلوا في إثبات الصفات حتى أدخلوا في ذلك ما نفاه الله ورسوله مما لا يليق به سبحانه من صفات النقص، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، ومن هؤلاء هشام بن سالم الجواليقي وداود الجواربي.

وقد اختلفت المجسمة فيما بينهم في التجسيم، وهل للبارئ تعالى قدر من الأقدار؟ فقال بعضهم: إن الله جسم محدود عريض عميق طويل، طوله مثل عرضه، وعرضه مثل عمقه، نور ساطع، له قدر من الأقدار، بمعنى إن له مقدارا في طوله وعرضه وعمقه، لا يتجاوزه في مكان دون مكان، كالسبيكة الصافية، يتلألأ كاللؤلؤة المستديرة من جميع جوانبها، ذو لون وطعم ورائحة ولونه هو طعمه، وهو رائحته، وهو يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد، هو عندهم جسم لا كالأجسام، تعالى الله عن قولهم[1].

والمشبهة عطلوا بتمثيلهم وتشبيههم الصفة الحقيقية لله؛ لأن تمثيلهم الباطل غطى على الحقيقة، فعطلوا العلم الصحيح بأوصاف الحق التي وردت

---

(١) مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ١/ ٢٠٧.

في نصوص الكتاب والسنة تحت ستار التمثيل والتشبيه.

• عرف بفرقة البيجورية وبين أثرها على واقع الأمة الإسلامية؟

البيجورية فرقة تنسب إلى إبراهيم بن إبراهيم اللقاني المالكي المصري (ت:١٠٤١هـ)، وإبراهيم بن محمد البيجوري (ت:١٢٧٧هـ) أحد شيوخ الأزهر، وهما من المعطلة الأشعرية الذين استحوذت عقيدتهما الكلامية على الأزهر حتى عصرنا، فهذا الاعتقاد البيجوري الذي يطلق عليه معتنقوه مذهب أهل السنة والجماعة، ما زال مقررا في أغلب المعاهد والجامعات في البلاد الإسلامية. وحقيقة العقيدة البيجورية هي العقيدة الأشعرية الكلامية بذاتها، غير أنها امتدادا للمعطلة الأولى ممزوجة باعتقادات كثيرة لفرق أخرى باطلة، فقد جمعت البيجورية عقائد وتصورات لمذاهب فكرية فلسفية وكلامية وذوقية كثيرة تكلم عنها أهل السنة من السلف الصالح وردوا عليها ردودا مفصلة، فأشعرية البيجوري جمعت الإرجاء في الإيمان، والجبر في القدر، وقول الجهمية في الصفات والغيبيات، وقول المعتزلة في خلق القرآن، وكثير من ضلالات الفلاسفة والصوفية، مما يجعلها فرقة مستقلة بذاتها.

وعلماء البيجورية على كثرتهم وعلى ما لهم من جوانب إيجابية إلا أن أثرهم السيئ على واقع الأمة الإسلامية غير محدود، فربما يكون أحدهم ذا مكانة في قلوب المسلمين بسبب شهرته الإعلامية ثم يصادم الناس بفتاوى ينفطر لها القلب، وما ذلك إلا أنه تربى على عقيدته البيجورية في الاستناد إلى عقله المحض في تحرير فتواه وتأويل النصوص وفق هواه، دون النظر إلى قيود الأدلة الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو يحسب بذلك أنه يحسن صنعا للإسلام والمسلمين بل يفتخر ويفاخر بأنه من البيجورية أصحاب

المدرسة العقلية.

والبيجورية لا يحتجون لعقائدهم إلا بالنصوص المتواترة، ولا يقبلون حديث الآحاد لأنه يفيد الظن فقط، وهؤلاء القوم يزعمون التوقي لدينهم من الدخن والتحرز من اعتقاد الخطأ، والعجيب أن البيجوري الذي يرى أن الكشف أعلى درجات الأدلة في إثبات العقائد يرفض أحاديث الآحاد النبوية، ويزعم أنها لا تصلح دليلا للاحتجاج في الأمور الاعتقادية، فهو يرفض حديث النبي ﷺ الذي نص فيه أن والده في جهنم لأنه حديث آحاد، وهو يرفض حديث إطالة الأجل بصلة الرحم لأنه حديث آحاد.

وقد فسر إبراهيم اللقاني مؤسس البيجورية الإيمان بالتصديق وأن قول اللسان النطق ليس بلازم لأن فيه خلاف، فمن صدق بقلبه ولم يتفق له الإقرار باللسان في عمره لا مرة ولا أكثر من مرة مع القدرة على ذلك، فهو مؤمن عند الله تعالى؛ ولكن قول اللسان شرط في إجراء الأحكام الدنيوية ليعلم أنه مسلم. وقولهم إن الإيمان هو التصديق فقط إخراج لأعمال الجوارح منه، وهو قول المرجئة الباطل، بل يعود قولهم إلى مذهب الجهم في الإيمان.

وكذلك من عقيدة البيجورية تعطيل الصفات وأنها نصوص موهمة للتشبيه والجسمية وكل نص عندهم أوهم التشبيه أوله أو فوِّض ورم تنزيها، أي اقصد تنزيهها عن الظاهر الباطل الذي دلت عليه مع تفويض علم المعنى المراد؛ هذه عقيدة التعطيل التي قررها البيجوري الأشعري في صفات الله ﷻ، وهي دراسة إلزامية في جميع المعاهد الأزهرية في مصر وغيرها من الدول العربية والإسلامية.

• هل التصوف علم أصيل له دليل من النقل أم ابتدا ع دخيل؟

جميع العلوم الإسلامية لها أصول قرآنية أو نبوية ما عدا التصوف فهو ابتداع دخيل على الأمة الإسلامية، لأن أول ما يطالب به أصحاب كل علم من العلوم الإسلامية أو كل طريقة أو مذهب ينتسب إلى الأمة الإسلامية هو البحث عن الأصول التي أهلتهم للخوض في هذا المجال، أو بتعبير آخر البحث عن أصالة علمهم وإظهار الأصول التي يعتمدون عليها من الكتاب والسنة، فمن البديهي أن العلوم الإسلامية كعلوم القرآن والحديث والفقه والمواريث والتوحيد واللغة، وغير ذلك من أنواع العلوم، لم تظهر بصورتها المتميزة في عصر النبوة أو عصر الخلافة الرشيدة، وإنما ظهرت بعد ذلك بفترة، ولكن تلك العلوم قائمة على أصول قرآنية أو نبوية تمنحها شرف الانتساب، ورخصة الإنشاء، وجواز التوسع فيها حتى تصل إلى ما يمكن من الكمال، فعلوم القرآن المختلفة كضوابط التلاوة وتنوع القراءات وتفسير القرآن، يمكن أن ترد جميعها إلى ما ورد عند البخاري عن عثمان بن عفان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِن أَفْضَلكُمْ مَن تَعَلَمَ القُرْآن وَعَلَمَهُ)[1]. فللمشتغلين بعلوم القرآن أن يحتجوا بمثل هذه الأحاديث على أصالة علمهم، وجودة مطلبهم، وسلامة مقصدهم، وشرف نسبتهم وتسميتها.

كما أن الرسول ﷺ دعا المسلمين جميعهم إلى البحث في القرآن ليكون القول فيه عن علم وفهم، وحذر من الخوض فيه بالرأي والهوى، وجعل المسلم المتعلم المعلم من خيرة الأمة وأفضلها، كل ذلك يضاف إلى ما ورد في القرآن من الأمر بترتيله وتدبره، فهذه الآيات وأمثالها تدل دلالة صريحة على

(١) البخاري في فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن ٤/ ١٩١٩ (٤٧٤٠).

أصالة هذا العلم ونقاء معدنه.

وللمشتغلين بعلوم الحديث رواية ودراية أن يستندوا في رد الحديث وعلومه إلى ما ورد عند البخاري من حديث عَبدِ الله بن عَمْرٍو ﷺ أَن النبي ﷺ قَال: (بلغُوا عَني وَلوْ آيَةً، وَحَدِّثوا عَن بني إِسْرَائِيل وَلاَ حَرَجَ، وَمَن كَذب عَلي مُتَعَمِّدًا فَليَتَبوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن النارِ) [1]. فلفظ حدثوا فيه جواز النسبة إلى علم الحديث، ورخصة إنشائه، وبذل الجهد للتوسع فيه حتى يصل إلى الكمال الممكن. وكما وجدنا أصولا لعلوم القرآن والحديث يمكن أن يجد المشتغلون بالفقه والفرائض والمواريث والتوحيد واللغة أصولا قرآنية لنسبة علومهم، والمبررات الداعية لإنشائها، وإتاحة الجهود اللازمة للتوسع فيها حتى تصل إلى الكمال الضروري في وضع الضوابط العلمية لكل باب.

وإذا عدنا إلى التصوف وعلومه، فمنذ ظهر التصوف في البيئة الإسلامية وأصبح له كيان محسوس في القرنين الثاني والثالث الهجريين، والخلاف مستمر في أصله ورد التصوف إلى أصول إسلامية أو غير إسلامية، سواء كانوا من أبناء الصوفية أو من غيرهم، فمنهم المنكر لنسبة التصوف إلى الإسلام جملة وتفصيلا، ومنهم المؤيد الداعي إلى كونه قلب الإسلام وأصله، ومنهم المتوسط بينهما، فالمنكر يحاول نفيه وإثبات بدعيته محتجا بأن عصر النبوة لا تصوف فيه، ولم يعرف عن أحد من أصحاب النبي ﷺ أنه كان متصوفا، كما أن القرآن والسنة فيهما من الحياة الروحية والأخلاق الكريمة ما يغني عن التصوف وعلوم الصوفية، والمؤيد يؤكد أن سيد الصوفية وأسوتهم هو رسول الله ﷺ ويجعله على رأس طبقاتهم ثم خيار الصحابة والتابعين،

(١) البخاري في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٣/ ١٢٧٥ (٣٢٧٤).

ويحاول جاهدا أن يرد التصوف إلى نسبة محمودة أو تبرير معقول، فتارة ينسبه إلى الصوف، وأخرى إلى الصفاء، وثالثة إلى أهل الصفة، ورابعة إلى الصف الأول، وآخرون يؤكدون أنه عَلم، وهو اسم ظهر بلا اشتقاق أو غيره.

- **هل كان الصحابة والتابعون يعرفون مصطلح التصوف؟**

لم يكن أحد من الصحابة والتابعين يعرف مصطلح التصوف، وإنما اقترن التصوف بالغلو والبدع في أواخر عصر السلف، وبدأ عامة المسلمين وخاصتهم ينكرون على الصوفية مخالفاتهم البدعية التي ارتكبوها بدافع الغلو في العبادة، أو في موقفهم من إتباع أفكار غريبة عن البيئة الإسلامية كالقول بالفناء والحلول والإتحاد، ويطالبون الصوفية على وجه التفصيل برد مفردات أفعالهم وأقوالهم إلى مستند شرعي، ويلزمونهم أيضا برد التصوف في الجملة إلى أصل قرآني أو نبوي.

وتجدر في الإشارة إلى أن بداية التصوف المعبر عن إذلال النفس ومجاهدتها والغلو في زهد الحياة بأنواعها، والذي سطر في كتب الأوائل ككتاب الصدق لأبي سعيد الخراز، وتراث الحارث بن أسد المحاسبي لاسيما كتابه الرعاية لحقوق الله والحكيم الترمذي وغيرهم، كان أصحاب تلك الفترة لا يشيرون في كتاباتهم إلى مصطلح التصوف، وإنما يذكرون مصطلح المريد وآداب المريدين والزهد والصدق والتوكل والرعاية لحقوق الله ومحاسبة النفس وما شابه ذلك من ألفاظ وتعبيرات.

أما التصوف في مراحله التالية والتي أصبحت قريبة من الفكر الفلسفي البدعي المنظم إلى حد فقد أظهر المؤلفون في التصوف عَلمِيَّة التصوف، وأنه

اصطلاح يخصهم، ومذهب يستقلون به دون سائر الناس، فحاولوا جاهدين أن يضعوا حدا للتصوف يتميز باستقلالية خاصة عن بقية العلوم ويعرفون به، فنقلوا عن الأوائل بعض العبارات الجامعة في حد التصوف تدل في مجملها على أنه مبني على الوصول إلى كمال التوحيد في العبادة وعلو الإيمان إلى أعلى درجاته وبلوغ درجة الإحسان أو أن التصوف يدور حول تهذيب النفس ومكارم الأخلاق والخلق العظيم الذي اتصف به النبي، غير أن محاولاتهم باءت جميعها بالفشل نظرا لأن كلامهم احتوى على اعتقادات بدعية وثنية كالكلام على الفناء عن شهود السِّوى والحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

وقد حاول الصوفية أن يردوا التصوف إلى لبس الصوف نظرا إلى ظهور رأي عام انتشر بين الصوفية وغيرهم يربط الزهد برؤية خشونة الصوف على بدن الزاهد، لكن لبس الصوف لم يكن مرغوبا بين الصحابة ﷺ وإنما فرض عليهم لأنهم لم يجدوا غيره، وإذا تيسر استبدلوه وغيروه، والعادة في ملبسه ﷺ وهو الأسوة والقدوة لكل مسلم فكان المحبوب لديه دائما القطن وغيره دون الصوف، كما أن نسبة التصوف إلى الصفاء، وأن الصفاء مقصور على الصوفية نسبة باطلة، وكذلك نسبة التصوف إلى أهل الصفة نسبة باطلة لأن حالهم كما نطقت الأخبار لا تتفق مع وصفهم عند الصوفية، فأهل الصفة لم يكونوا قوما عاكفين باختيارهم في المسجد تاركين العمل، بل لو وجدوا من أسباب الحياة ما يغنيهم كسائر الصحابة ﷺ ما جلسوا في الصفة وما كانوا أهل الصفة، فهم لم يخيروا فاختاروا، ولكن تركوا أوطانهم وهاجروا إلى المدينة فاضطروا إلى البقاء في المسجد حتى يجدوا سعة من الأسباب.

وقد حاول الصوفية أن ينسبوا التصوف إلى الصف الأول غير أن حال الصوفية في آدابهم التي أعلنوها في كتبهم أنهم يكرهون الإمامة والصلاة في الصف الأول بمكة وغيرها، ويكرهون التطويل، لأن الناس إنما يزدحمون على الصف الأول بدافع الرغبة في تحصيل الأجر الذي أعده الله للمصلين والصوفية لا يرغبون في جنة ولا يخافون من نار. وإذا كان هذا هو حال الصوفية أنهم لا يطمعون في ثواب الصف الأول، فكيف يقال إنهم سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله ﷻ؟ فالتصوف كاصطلاح دام أكثر من ألف عام لا أصل له ولا حجة مقبولة تسوغ الدعوة إليه. ومن ثم فإن رد التصوف إلى الصوف أو أهل الصفة أو الصفاء والصفوة أو الصف الأول هي مجرد تبريرات باطلة لإثبات الذات وتواجد الصوفية كشجرة خبيثة لا أصل لها بين أصحاب العلم النافع.

- **ما المقصود بالفناء الصوفي الذي أوقعهم في الحلول والاتحاد؟**

الفناء الصوفي الذي أوقعهم في الحلول والاتحاد يسمى بالفناء عن شهود السِّوى، وهو بمعنى إبطال قوى العقل حتى يدخل فيها يشبه الغيبوبة التي لا يشاهد فيها إلا الله، ولا يرى في الوجود إلا الله، لا خالق ولا مخلوق، فالكل هو الله، العبد رب والرب عبد، وقد زعم الحسين بن منصور الحلاج في زندقته أن التوحيد لا يكون توحيدا إلا إذا كان كل من المحب والمحبوب يحل كل منهما محل الآخر وينوب عنه في الكلام والنطق، بحيث تكون صيغته واحدة عند الطرفين، وأن العبد قد يرتقي في درجات الصفاء حتى يصفو عن طبيعة البشرية، فإذا لم يبق فيه من البشرية نصيب حل فيه روح الله الذي كان في عيسي بن مريم، فيصير مطاعا في أمره فلا يريد شيئا إلا كان يقول وقتها

للشيء كن فيكون، ويصبح جميع فعله حينئذ فعل الله، وجميع أمره أمر الله، وتحل ذات الله في ذات الإنسان، وأن الإرادة الإنسانية تتحول إلى إرادة إلهية بحيث يصبح كل ما يصدر عن الإنسان من أفعال أفعالا إلهية لله تعالى.

ونظم الحلاج نصوصا كثيرة فلسف فيها نظريته في حلول المحبوب في المحب أو حلول الرب في العبد منها قوله: مزجت روحك في روحي * كما تمزج الخمرة بالماء الزلال. فإذا مسك شيء مسني * فإذا أنت أنا في كل حال. وقوله: أنا من أهوى ومن أهوى * أنا نحن روحان حللنا بدنا. فإذا أبصرتني أبصرته * وإذا أبصرته أبصرتنا.

وقال ابن تيمية: (وحقيقة قول هؤلاء الإتحاد والحلول الخاص من جنس قول النصارى في المسيح، وهو أن يكون الموحد هو الموحد، ولا يوحد الله إلا الله، وكل من جعل غير الله يوحد الله، فهو جاحد عندهم كما قال ما وحد الواحد من واحد. أي من واحد غيره، إذ كل من وحده جاحد. فإنه على قولهم هو الموحد والموحد)[1].

ذكر ابن تيمية أن ابن الفارض في قصيدته المشهورة التي يقول فيها: لها صلواتي بالمقام أقيمها. وأشهد فيها أنها لي صلت. كلانا مصل واحد ساجد إلى. حقيقته بالجمع في كل سجدة. ثم قال: (إن العارف المحقق من هؤلاء يقول: أرسل من نفسه إلى نفسه رسولا بنفسه، فهو المرسل والمرسل إليه والرسول)[2].

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٥/ ٣٧١.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٦/ ١٦٩ ، وانظر مجموع الفتاوى ٢/ ٣١٦.

• ما المقصود بتصوف وحدة الوجود الذي قرره ابن عربي؟

ظهر تصوف أصحاب وحدة الوجود، بعد تصوف الحلول والاتحاد وقد ذهب فريق من الصوفية في القرن السادس وما بعده يتزعمهم محي الدين بن عربي الأندلسي إلى أن الله ﷻ هو هذا الوجود بعينه وأنه لا موجود سواه. وأن هذه الكثرة التي نراها إنما هي مظاهر لله فقط، أو مرآة يرى نفسه فيها، أو أثواب يلبسها ويخلعها، فهو السماء بما فيها من شمس وقمر ونجوم وأفلاك، وهو هذا السحاب الذي نراه مسخر بين السماء والأرض بما فيه من ثلج وبرد وأمطار، ولا فرق بين الأضداد، ولا فرق بين العبد والرب ؛ فالعابد هو المعبود والذاكر هو المذكور.

ونظم ابن عربي أشعارا كثيرة عبر بها عن زندقته في جعل الخالق هو المخلوق والعابد هو المعبود فقال: فيحمدني وأحمده : ويعبدني وأعبده. ففي حال أقربه : وفي الأعيان أجحده. فيعرفني وأنكره : وأعرفه فأشهده. ويقول أيضا: فأنت عبد وأنت رب : لمن له فيه أنت عبد. وأنت رب وأنت عبد : لمن له في الخطاب عهد.

والله ﷻ عند ابن عربي هو الهواء والماء والتراب والنار التي منها تتركب سائر الموجودات، والأمر قسمة بينه وبين هذه العوالم التي هي تجليات له يظهر فيها، فكما أنها فقيرة ومحتاجة إليه، فكذلك هو مفتقر إليها من أجل تعينه وظهوره فيها، كما تفتقر الروح في ظهور آثارها للأبدان. فقال ابن عربي: سبحان من خلق الأشياء وهو عينها. وقال: يا خالق الأشياء في نفسه: أنت لما

تخلقه جامع. تخلق مالا ينتهي كونه فيك : فأنت الضيق الواسع [1]. وقال: فإنا أعبدٌ حقا : وإن الله مولانا. وإنا عينه فاعلم : إذا ما قلت إنسانا. فلا تحجب بإنسان: فقد أعطاك برهانا. فكن حقا وكن خلقا : تكن بالله رحمانا [2]

وهذه العبارات التي نطق بها ابن عربي في وحدة الوجود مهما اختلفت وتنوعت فإن مضمونها شيء واحد، وهو أن يكون الله ﷻ هو جميع الأشياء بما فيها من الإنس والجن والشجر والحيوان وكل شيء، ولذا يرى ابن عربي أن الأديان كلها حق، وأن المجوس عبدة النار والمشركين عابدي والأوثان وغيرهم ليسوا كفار وضلالا، بل مذاهبهم هي عين الهدى والإيمان، لأنهم حين عبدوا النار والحجارة والصلبان ما عبدوا إلا الله ﷻ.

وحكم ابن عربي أيضا بإيمان فرعون وأنه كان يشاهد عين الحقيقة حين قال أنا ربكم الأعلى، ولم يكن كاذبا في دعواه أنه هو الله، بل كان في أعلى مقامات التوحيد، ولذا كان إغراقه في البحر تطهيرا له من توهم الغيرة حين هم أن يسلم، وخالف في ذلك صريح القرآن الذي نطق بموته على الكفر، وأنه لم ينفعه إيمانه حين أدركه الغرق، وأن الله إنما نجاه ببدنه ليكون عبرة ماثلة للأجيال من بعده، وزعم أيضا أن موسى عليه السلام لم يلم قومه على عبادة العجل ولم ينكرها عليهم.

وقد أكد ابن عربي في فلسفته لمعاني الجزاء والطاعة والمعصية بأن هذه الأمور لا مدلول لها في مذهبه بالمعنى الذي نفهمه نحن منها، فإنه لا نعيم ولا

---

(١) فصوص الحكم ص٩٤.

(٢) السابق ص ١٤٣.

عذاب بالمعنى المفهوم من الشرائع، بل إن مآل الخلق جميعا إلى النعيم حتى من كان في عذاب فهو في نعيم بهذا العذاب الذي سمي عذابا من عذوبته وحلاوة طعمه، قال ابن عربي: وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم : على لذة فيها نعيم مباين. نعيم جنان الخلد فالأمر واحد : وبينهما عند التجلي تباين. يسمي عذابا من عذوبة طعمه : وذاك كالقشر والقشر صائن[1].

تلك حقيقة التصوف الفلسفي التي حملت من أمور الزندقة ما شوهت به صورة الإسلام، وما من مكان إلا وستجد من شيوخ الطرق الصوفية من يدافع عن ابن عربي ويتبنى آراءه الفلسفية، بل يعتبره قطب الأولياء وخاتمهم، وأن البشرية لم تنجب عارفا مثله.

- **بين أثر الفلسفة الصوفية في العبث بالأصول القرآنية والنبوية؟**

ظهر أثر هذا العبث الصوفي الفلسفي في الأصول القرآنية والنبوية فبدلا من أن يكون اللفظ عندهم موضوعا على المعنى المراد في الكتاب والسنة، أصبح اللفظ نفسه موضوعا عندهم على نقيضه تماما تحت هذه الفلسفة الحلولية والوجودية، فالقرآن لم يعد هو القرآن، الذكر لم يعد هو الذكر الذي عرفه الصحابة والتابعون بل أصبح الذكر في زندقة الصوفية ومفهوم ابن عربي لا يؤدي إلى معنى تطمئن به القلوب وتغفر به الذنوب، ولكن يؤدي إلى ما ذكره ابن عربي في قوله: ألا بذكر الله تزداد الذنوب.. وتحتجب البصائر والقلوب وترك الذكر أفضل كل شيء.. فشمس الذات ليس لها غروب. وقوله: دع الذكر والتسبيح إن كنت عاشقا.. فليس يديم الذكر إلا المنافق.

---

(١) فصوص الحكم لابن عربي ص١٢٢.

إذا كان من تهواه في القلب حاضرا.. وأنت تديم الذكر كنت منافقا[١].

ومن زندقة الصوفية أن الصنم الذي عنوان الشرك والضلال أصبح هو الله عند الصوفية، فالصنم عندهم هو مظهر الوجود المطلق وهو الحق من حيث الحقيقة وليس باطلا أو عبثا، وعابد الصنم يطلق عندهم على عابد الحق لأن الحق يظهر في صورة صنم.

وليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، ويوم الجمعة الذي جعله الله لصلاة الجمعة تغير فيهما المعنى، فأصبحت ليلة القدر ويوم الجمعة عند الصوفية هو وقت اللقاء والوصول إلى عين الجمع، وهو يوم وصول السالك إلى مقام المشاهدة الحقيقية التي يرى نفسه فيها ربا ويرى الرب عبدا، ويكون مجموع فانيا، فيوم الجمعة يوم دائم عندهم يعني به الصوفي وقت مطلق اللقاء، كما قال عمرو بن الفارض: وكل الليالي ليلة القدر إن دنت كما كل أيام اللقا يوم الجمعة[٢].

وقد ادعي الصوفية أن الولي المحقق عند الصفاء يعلم السراء والضراء ويعرج إلى السماء كيفما يشاء. ويذكر الصوفي القديم المشهور عزيز الدين النسفي عن عروج المتصوفة إلى السماء: (إن بعض الصوفية يعرجون إلى السماء الأولى ويطوفون حولها، وبعضهم يتجاوزون من السماء الأولى.. وبعضهم يصلون إلى العرش إذا أمكن لهم)[٣].

(١) ديوان ترجمان الأشواق لابن عربي ص٤: ٥.

(٢) انظر تفسير روح المعاني ٣٠/ ١٩٩.

(٣) انظر زبدة الحقائق لعزيز الدين نسفي ص٥٨.

والصوفية لا يعرجون إلى السماء فقط، ولكنهم يدعون أنهم يكلمون ربهم عند التجلي في عين الجمع، فيقول عبد الكريم الجيلي: (ومن المكلمين من يذهب به الحق من عالم الأجسام إلى عالم الأرواح وهؤلاء أعلى مراتب. فمنهم من يخاطب في قلبه، ومنهم من يصعد بروحه إلى سماء الدنيا، ومنهم إلى الثانية والثالثة كل على حسب ما قسم له، ومنهم من يصعد به إلى سدرة المنتهى فيكلمه الله هناك..وممن صعد به إلى سدرة المنتهى من قيل له: حبيبي إنيتك هي هويتي، وأنت عين هو، وما هو إلا أنا.. فلولاك ما كنا، ولولاي لم تكن، فكنت وكنا، والحقيقة لا تدرى، فإياك نعني بالمعزة والغنى، وإياك نعني بالفقير ولا فقرا) [1].

والصوفية يزعمون أن أولياءهم يعلمون الغيب ويعلمون ما كان وما يكون ، قال عبد الكريم الجيلي: (إذا كشف الحجاب، وفتح لهم الباب علم العوالم بأجمعها على ما هي عليه من تفاريعها من المبدأ إلى المعاد، وعلم كل شيء كيف كان؟ وكيف هو كائن؟ وكيف يكون؟ وعلم ما لم يكن، ولم لا يكون ما لم يكن؟ ولو كان ما لم يكن كيف كان يكون؟ كل ذلك علما أصليا حكيما كشفيا ذوقيا من ذاته لسريانه في المعلومات، علما إجماليا تفصيلا كليا جزئيا مفصلا في إجماله. ومنهم من تجلى الله عليه بصفة السمع فيسمع نطق الجمادات والنباتات والحيوانات وكلام الملائكة واختلاف اللغات، وكان البعيد عنه كالقريب)[2].

وقال ابن عربي: (من الصوفية من لا يزال عاكفا على اللوح، ومنهم من

(١) الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي ص٦٥.

(٢) السابق للجيلي ١/ ٦٣.

يشهده تارة تارة)[1]. وقال: (يرتقي الوليّ إلى عالم الغيب فيشاهد اليمين ماسكة قلمها وهي تخطط في اللوح)[2]. هذا ومثله أكثر من أن يحصى، وتأتي حكايات المتصوفة المتضمنة إخبارهم بالغيب، وإحاطتهم بجميع علوم الكون وأحواله، وإطلاعهم على ما كان وما يكون في محله.

• ما وجه الصلة بين الصوفية والشيعة في البدع الاعتقادية؟

إذا نظرنا إلى الفكر الفلسفي الصوفي ومعتقدات الصوفية الخاصة لرأينا الصلة الوثيقة بين التصوف والتشيع، بل ترى الأصول المسترة والظاهرة في كلام الصوفية، ويسهل التعرف على منبعه، ومصدره ومأخذه، فعقائد الشيعة الاثنا عشرية في أئمتهم مبنية على أن جبريل عليه السلام ينزل عليهم الوحي، ويكلمهم الله من وراء حجاب، ويناجيهم من دون حجاب، وأن النبوة لم تنقطع، ولم تختم بمحمد ﷺ، وأن الولاية أعظم وأفضل من النبوة والرسالة، وعلمهم بدون واسطة فصاروا يعلمون علم ما كان وما يكون، وفضلهم على الخلائق من الأنبياء والرسل، والنصوص والروايات في هذا الخصوص جاوزت المئات، وعليها أسست وبنيت الديانة الشيعية نتيجة مؤامرة ابن سبأ اليهودية للقضاء على الأمة الإسلامية ودعوة خاتم النبيين[3].

وإذا رجعنا بتأمل إلى آراء الصوفية وأفكارهم ومعتقداتهم وكتبهم ورسائلهم ورواياتهم ومقولاتهم وتصريحاتهم وعباراتهم نجد معظم هذه الأفكار وطابعها واضحا جليا، بل إنها عين هذه الترهات والخزعبلات،

---

(١) مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار لابن عربي ص١٤٨.

(٢) مواقع النجوم لابن عربي ص٨٢.

(٣) التصوف المنشأ والمصادر للشيخ إحسان إلهي ظهير ص ١٦٤ بتصرف.

مبثوثة منشورة في كتب الأولين منهم والآخرين. قال الصوفي الكبير عبد القادر الحلبي المعروف بابن قضيب البان: (كل ما خصّت به الأنبياء، خصّت به الأولياء)[1].

لقد تأثر التصوف بالتشيع وعلمائه، فسلاسل التصوف كلها ما عدا النادر القليل منها تنتهي إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه دون سائر أصحاب رسول الله ﷺ، وفي طرق إسنادها إلى أسماء أئمة الشيعة المعصومين حسب زعمهم من أولاد علي رضي الله عنه دون غيرهم، وأن رؤساء هذه العصابة من الصوفية يذكر لهم اتصال وثيق، وصلات وطيدة مع أئمة القوم كما يذكر في تراجمهم وسيرهم وأحوالهم. ويرتب الصوفية أئمتهم بنفس ترتيب الشيعة لأئمتهم حيث يعدّون الإمام الأول والثاني والثالث علي وابنه الحسن والحسين، والرابع والخامس والسادس زين العابدين، ومحمد الباقر، وجعفر بن محمد الباقر. ثم الإمام السابع والثامن عندهم: موسى بن جعفر الملقب بالكاظم، وعلي بن موسى الكاظم الملقب بالرضا، من الأئمة الاثنا عشر. الصوفية يدعون عصمة الأولياء كما زعمت الشيعة لأئمتهم، ومن أهم المبادئ الشيعية وأسسهم ومعتقداتهم الإخفاء والكتمان، وإظهار ما لا يعتقدونه في السر، وإعلان ما يبطنون خلافه، وهذا من أخطر ما يؤمن به الشيعة، ويميزهم بالسوء عن الطوائف المسلمة الأخرى، والصوفية كذلك أخذوا مذهب التقية بكامله عنهم، فيكتمون آراءهم ومعتقداتهم عن غيرهم، ويوصون مريديهم في كتبهم ومؤلفاتهم بكتمانها وأنها كتبت للخاصة وخاصة الخاصة، قال عبد الوهاب الشعراني: (وكان بعض العارفين يقول: نحن قوم يحرم

---

(١) المواقف الإلهية لابن قضيب البان المتوفى ١٠٤٠هـ ص١٦٠.

النظر في كتبنا على من لم يكن من أهل طريقتنا، وكذلك لا يجوز لأحد أن ينقل كلامنا إلا لمن يؤمن به، فمن نقله إلى من لا يؤمن به دخل هو والمنقول إليه جهنم الإنكار، وقد صرح بذلك أهل الله تعالى على رؤوس الأشهاد وقالوا: من باح بالسرّ استحق القتل)[(١)].

• ما هو تقسيم الصوفية البدعي لدرجات أتباعهم ورجالهم؟

القاسم المشترك بين طوائف الصوفية أنهم يقسمون طريق السالكين تقسيما بدعيا، فيجعلونه على ثلاث مراحل، مرحلة تخص العوام وهي طريق العابدين، ووصفوا هؤلاء بأنهم أدنى أنواع السالكين الذين يعبدون الله طمعا في جنته وخوفا من ناره، فلا يوقرون الله إلا لما ينالهم من العوض. ثم المرحلة الثانية وهي تخص الأواسط من الناس، ويسلكون طريق المريدين، وهم الذين عبدوا الله لمحبة الذات الإلهية بلا عوض، كما اشتهر عن رابعة العدوية، فلا يطمعون في جنة ولا يخافون من نار.

ثم المرحلة الثالثة وتسمى بطريق العارفين الذين هم أرقى أنواع السالكين عند الصوفية، فإذا قيل هذا عارف بالله، فقد قطع المرحلتين السابقتين طريق العابدين وطريق المريدين. وهذا التصنيف يعد أساسا ساريا في كلامهم، وكلام من تأثر بهم من طوائف الصوفية المختلفة، إما تصريحا وإما تلميحا، وإما ظاهرا أو باطنا، وإما بارزا أو مستترا، فالأول هو توحيد العامة، والثاني للخاصة، والثالث لخاصة الخاصة.

وأصل الطريقة الصوفية الانتساب إلى شيخ عارف من قبل جماعة من

---

(١) اليواقيت والجواهر للشعراني ص١٧.

المريدين يسلك بهم رياضة بدنية، وأورادا خاصة بهم على دعوى تصفية القلب لغاية الوصول إلى معرفة الله. ومن ثم فإن الطريقة الصوفية تعني اتصال المريد بالشيخ، وارتباطه به حيا أو ميتا، وذلك بواسطة ورد من الأذكار يقوم به المريد بإذن من الشيخ أول النهار وآخره، ويلتزم به بموجب عقد بينه وبين الشيخ، وهذا العقد يعرف بالعهد، وصورته أن يتعهد الشيخ بأن يخلص المريد من كل شدة، ويخرجه من كل محنة، متى ناداه مستعينا به، كما يشفع له يوم القيامة في دخول الجنة، ويتعهد المريد بأن يلتزم بالورد وآدابه فلا يتركه مدى الحياة، كما يلتزم بلزوم الطريقة وعدم استبدالها بغيرها من سائر الطرق.

وهناك تنافس محموم بين الطرق الصوفية لجذب المريدين، ولذلك فإن كل طريقة تحاول أن يكون لها ذكر خاص تنفرد به عن سائر الطرق، وأن يكون لهذا الذكر ميزة خاصة، ومسبحة خاصة، وحركات خاصة، ولكل طريقة مشاعر خاصة، من حيث لون العلم والخرقة وطريقة الذكر ونظام الخلوة وغيرها.

والطرق يتوارثها الأبناء من الآباء، وذلك أن الطريقة التي تستطيع جلب عدد كبير من المريدين والتابعين تصبح بعد مدة من الزمن إقطاعية صوفية تفد الوفود إلى رئيسها أو شيخها من كل ناحية في مولد الشيخ، وتأتيه الصدقات والهبات والبركات من كل حدب وصوب، وحيثما حل الشيخ في مكان ذبحت الطيور والخرفان وأقيمت الموائد، ولذلك فإن أصحاب الطرق الصوفية اليوم يتقاتلون عليها بالسيوف.

والطرق الصوفية وإن اختلفت وتباينت فإنها تتفق في الاحتفال بدخول

المريد في الطريقة بطقوس مرسومة دقيقة، وقد يتطلب في بعض الطرق من المريد أن يمضي وقتا شاقا في الاستعداد للدخول، كما تتطلب التقيد بخرقة أو زي خاص يمثل رمز أصحاب الطريقة الذي يميزهم عن غيرهم.

ولا بد من اجتياز المريد مرحلة شاقة من الخلوة والصلاة والصيام وغير ذلك من الرياضات، والإكثار من الذكر مع الاستعانة بالموسيقى والطبل والحركات البدنية المختلفة التي تساعد على الوجد والجذب، ولابد من الاعتقاد في القوى السرية الخارقة للعادة التي يكتسبها المريدون بالمجاهدات، وهي القوى التي تمكنهم من أكل الجمر، والتأثير على الثعابين، والإخبار بالمغيبات، وفي كل الطرق قاسم مشترك وهو احترام شيخ الطريقة إلى درجة التقديس، فيكون المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي مغسله.

- **كيف ظهرت الطرق الصوفية بهيكلها المعروف حاليا ؟**

نشأة الطرق الصوفية بهيكلها المعروف حاليا ترجع إلى أبي سعيد محمد أحمد الميهي الصوفي الإيراني٤٣٠هـ، فهو أول من وضع هيكلا تنظيميا للطرق الصوفية بجعله متسلسلا عن طريق الوراثة، ويمثل القرن السادس الهجري البداية الفعلية للطرق الصوفية وانتشارها، حيث انتقلت من إيران إلى المشرق الإسلامي، فظهرت الطريقة القادرية المنسوبة لعبد القادر الجيلاني ٥٦١هـ، كما ظهرت الطريقة الرفاعية المنسوبة لأبي العباس الرفاعي ٥٧٨هـ، وفي القرن السابع الهجري ظهرت الطريقة الأحمدية البدوية ٦٢٧هـ، وقد دخل التصوف الأندلس وأصبح ابن عربي أحد أكابر الصوفية ٦٣٨هـ.

واستمرت الصوفية بعد ذلك في القرون التالية إذ انتشرت الفوضى

واختلط الأمر على الصوفية لاختلاط أفكار المدارس الصوفية، وبدأت مرحلة الدراويش والتصوف المختلط بالتفاعل المركب والمزود بأنواع من الطقوس والخرق الدالة على الزهد مع الفلسفات الوثنية والمذاهب الكلامية الحلولية وطقوس الديانات الاتحادية كالهندية والبوذية مع بعض الشعائر الإسلامية وشركيات العرب في الجاهلية. ويلاحظ أن الذين ينتمون لهذه الطرق من عارفيهم يجمعهم منهج واحد وإن تعددت الطرق الصوفية، فمنهجهم التزم طريق السالكين الذي يبدأ بطريق العابدين، ثم طريق المريدين، ثم طريق العارفين، بقي هذا المنهج ساريا في جميع الطرق الصوفية حتى يصل الصوفي إلى الفناء عن شهود السوى، ثم القول بالحلول والاتحاد، ووحدة الوجود.

قال عبد القادر عيسى: (إن الطريق واحدة في حقيقتها، وإن تعددت المناهج العملية، وتنوعت أساليب السير والسلوك، تبعا للاجتهاد وتبدل المكان والزمان، ولهذا تعددت الطرق الصوفية، وهي في ذاتها وحقيقتها وجوهرها واحدة) [1].

ومن ثم فإن الصوفية عقيدتهم الأصلية التي يدين بها كل المتصوفة قديمهم وحديثهم واحدة، فجميع الطرق الصوفية كالرفاعية القادرية والبدوية والبرهامية، والشاذلية، وغيرها من الطرق، وإن اختلفت أسماؤها فهي كلها تؤدي إلى هدف واحد هو تبني العقيدة الصوفية التي تنتهي بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

---

(١) حقائق عن التصوف ص٢٧٢.

• ما هي أبرز الطرق الصوفية المنتشرة في العالم الإسلامي ؟

أبرز الطرق الصوفية المنتشرة في العالم الإسلامي هي الطرق القديمة المنسوبة إلى أربعة من عارفي الصوفية يسمونهم الأقطاب الأربعة وهم عبد القادر الجيلاني ٥٦١هـ مؤسس الطريقة القادرية وتسمى الطريقة الجيلانية نسبوا إليه من الأمور العظيمة ما لا يقدر عليها إلا الله تعالى من معرفة الغيب، وإحياء الموتى وتصرفه في الكون حيا أو ميتا، بالإضافة إلى مجموعة من الأذكار والأوراد والأقوال التي منها قوله: (من استغاث بي في كربة كشفت عنه، ومن ناداني في شدة فرجت عنه، ومن توسل بي في حاجة قضيتها له)[1]. وقد انتشرت وولدت طرقا كثيرة استمرت حتى عصرنا، وينتشر أتباع الطريقة القادرية في كثير من البلاد أشهرها سوريا وتركيا والعراق والمغرب والجزائر وفلسطين ولبنان والصين وموزمبيق والكاميرون ونيجيريا والاتحاد السوفيتي وغانا وإيران والجزائر ومصر والسودان والنيجر ومالي وغينيا وتشاد وأفغانستان وباكستان والصومال وأندونيسيا ويوغسلافيا وتونس وماليزيا وإرتيريا.

أما القطب الثاني عند الصوفية فهو مؤسس الطريقة الرفاعية أبو العباس أحمد الرفاعي، ويطلق عليها الطريقة البطائحية نسبة إلى مكان ولاية بالقرب من قرى البطائح بالعراق، وجماعته يستخدمون السيوف ودخول النيران في إثبات الكرامات. وقد بالغ الصوفية فنسجوا حوله الأساطير والخرافات، بل ويرفعونه إلى مقام الربوبية، ومن هذه الأقوال قول الشعراني: (كان قطب الأقطاب في الأرض، ثم انتقل إلى قطبية السماوات، ثم صارت السماوات

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١١/ ١٧١.

السبع في رجله كالخلخال)[1]. قال ابن خلكان: (ولأتباع أحمد الرفاعي أحوال عجيبة من أكل الحيات وهي حية، والنزول في التنانير وهي تضرم بالنار فيطفئونها، ويقال: إنهم في بلادهم يركبون الأسود، ومثل هذا وأشباهه)[2].

أما القطب الثالث عند الصوفية فهو مؤسس الطريقة الأحمدية أو البدوية المنسوبة إلى الشيخ أحمد البدوي، وتذكر كتب البدوية أنه نزل مع أسرته مهاجرا من المغرب إلى مكة، إلا أنه أقام بمصر، وتوفي البدوي في مدينة طنطا بمصر سنة ٦٧٥هـ، وطريقته من أكبر الطرق الصوفية في مصر، ولها فروع كثيرة، ويعتبر مولد أحمد البدوي أكبر موالد مصر، وتنتشر الطريقة البدوية في جميع أنحاء مصر، ويوجد ضريح البدوي في مدينة طنطا شمال القاهرة. والبدوية من الصوفية يبالغون في كرامات البدوي بصورة خرافية خيالية فيذكر الشعراني من كراماته أن ثورا كاد يقتل رضيعا بمصر، فمد البدوي يده إليه وكان حينذاك موجودا بالعراق، فنجاه وأبعد الثور عنه![3].

وأما القطب الرابع عند الصوفية فهو مؤسس الطريقة الدسوقيّة إحدى الطرق الصوفية التي تنسب إلى برهان الدين إبراهيم بن أبي المجد المعروف بإبراهيم الدسوقي، الملقب عند الصوفية بأبي العينين ٦٧٦هـ، والمكنى ببرهان الملة والدين عند الصوفية، ويزعم أتباع الطريقة أنها خاتمة الطرق الصوفية، وأكثرها انتشارا في جميع أرجاء العالم، والخلاف قائم في اسم الطريقة المنسوبة إلى إبراهيم الدسوقي، هل اسمها الطريقة البرهامية بالميم، أو البرهانية

---

(١) انظر قلادة الجواهر ص٤٢.

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ١/ ١٧٢.

(٣) الطبقات ١/ ٢٦٠.

بالنون؟ وينسبون إلى إبراهيم الدسوقي في وصف قدراته الخارقة قوله: (أشهدني الله تعالى ما في العلا وأنا ابن ست سنين، ونظرت في اللوح المحفوظ وأنا ابن ثمان سنين، وفككت طلسم السماء وأنا ابن تسع سنين، ورأيت في السبع المثاني حرفا معجما حار فيه الجن والإنس ففهمته وحمدت الله تعالى على معرفته، وحركت ما سكن، وسكنت ما تحرك بإذن الله تعالى، وأنا ابن أربع عشرة سنة)[1].

ونظرا لأن الصوفية قصروا القطبية على أربعة أقطاب فقط، فإن شيخ الطريقة الشاذلية أبو الحسن الشاذلي ٦٥٦هـ أدركته الغيرة وبالغ في وصف نفسه بما هو أعظم من القطبية فقال: والله لقد جئت في هذا الطريق ما لم يأت به أحد، حتى تعالى وتفاخر فقال: قدمي على جبهة كل ولي لله[2].

وحسب زعم الشاذلية أن شيخهم لما القطبانية وظهر بالخلافة الكبرى والولاية الكثرى والقطبية العظمى، وخصّه الله بعلوم الأسماء، ومنّ عليه بأعلى مقامات الأولياء، وانفرد في زمانه بالمقام الأكبر والمدد الأكثر والعطاء الأنفع والنوال الأوسع استقل ولم ينتسب لأحد[3]. فظهرت الطريقة الشاذلية كسلسلة صوفية مشهورة وطريقة منتشرة في مصر وتونس والجزائر وغيرها من البلدان. والعجيب أن كل طائفة من الصوفية تدعي أن القطب منهم، ولا يرضى بهذه المقولة أحد من غير الشاذلية، وقد اشتهر عنهم أوراد عديدة منها حزب البر، وحزب البحر، والحزب الكبير، وغيرها من الأحزاب والأوراد،

(١) طبقات الشعراني.

(٢) جامع الأصول في الأولياء للكمشخانوي ص١١٧، ولطائف المنن ص١٤٦.

(٣) السابق ص١١٧.

واختلقوا لها فضائل ومناقب لم ينزل الله بها من برهان.

وهناك طرقا أخرى كثيرة جدا تنتشر كالأخطبوط في سائر دول العالم تفت من عضد الأمة الإسلامية، وتوهنها بالمناهج الصوفية البدعية، والتي تشترك جميعها في القول بالحلول والاتحاد وتتبنى الفكر الفلسفي في وحدة والوجود وهي الطريقة الأكبرية، والطريقة البكداشية، والطريقة النقشبندية، والطريقة التيجانية، والطريقة الختمية، والطريقة البريلوية، والطريقة السعدية، والطريقة العلوية، والطريقة العروسية، والطريقة العيساوية، والطريقة الخلوتية، والطريقة السمانية، والطريقة الإدريسية، والطريقة المولوية، والطريقة السنوسية، والطريقة الكسنزانية، والطريقة الجعفرية، والطريقة البودشيشية، والطريقة العظمية وغيرهم من الطرق التي تتعدد بتعدد مشياخهم، فكل شيخ له طريقة وإن كانت مغمورة.

- **ما هو مذهب الباطنية وما مكائدها الخبيثة للأمة الإسلامية؟**

يعتبر مذهب الباطنية من أخبث وأردأ المذاهب، وقد تم تأسيس هذا المذهب فيما ذكره أبو حامد الغزالي في اجتماع لقوم من أولاد المجوس وشرذمة من الملحدين، وبقايا من اليهود، وقالوا: إن محمدا غلب علينا، وأبطل ديننا، واتفق له من الأعوان ما لم نقدر على مقابلتهم، ولا مطمع لنا في نزع ما في أيدي المسلمين من المملكة بالسيف والحرب لقوة شوكتهم وكثرة جنودهم، وكذلك لا مطمع لنا فيهم من قبيل المناظرة لما فيهم من العلماء والفضلاء والمتكلمين والمحققين فلم يبق إلا اللجوء إلى الحيل والدسائس[1].

(١) فضائح الباطنية لأبي حامد الغزالي ص١٨.

ثم اتفقوا على وضع حيل وخطط مدروسة يسيرون عليها لتحقيق أهدافهم من خلال التظاهر بالإسلام وحب آل البيت والانتصاف لهم، ودعوى أن النصوص لها ظاهر وباطن، والظاهر قشور والباطن لبّ، والعاقل يأخذ اللبّ ويترك القشور، وهذا الزعم الكاذب يريدون من ورائه سلب المعاني عن الألفاظ، والإتيان بمعان باطنية تتفق مع ما يهدفون إليه من الكيد للإسلام. واختاروا أن يدخلوا على المسلمين عن طريق التشيع، وعلى مذهب الرافضة، وإن كان هؤلاء الباطنيون يعتبرون الروافض أيضا على ضلال إلا أنهم رأوهم أردأ الناس عقولا، وأسخفهم رأيا، وألينهم لقبول المحالات، وأطوعهم للتصديق بالأكاذيب المزخرفات ، وأكثر الناس قبولا لما يلقى عليهم من الروايات الواهية الكاذبة، فتستروا بالانتساب إليهم ظاهرا للوصول إلى أصناف الناس، فكان ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض، أو كما قال بعض العلماء: إن الإمامية دهليز الباطنية، وهذا هو التفسير الواضح لما تلحظ من التقارب الشديد بين الباطنية والرافضة[1].

واتفقوا أن يبثوا دعاتهم وأن يلزموهم بخطة ماكرة، وهي أنه يجب على كل داعية أن يوافق هوى المدعو مهما كان مذهبه ودينه مستعملا معه تسع حيل معروفة ومقننة عنهم. وكان من أبرز دعاتهم ميمون بن ديصان القدّاح، وهو رئيسهم تظاهر بالإسلام على يدي جعفر الصادق وترك المجوسية فغيروا اسمه إلى القداح فيما بعد، وهو فارسي من الأهواز[2].

ومن أبرز دعاتهم حمدان بن الأشعث الأهوازي الملقب بقرمط، أصله من

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧.

(٢) مذهب الباطنية وبطلانه للديلمي ص ٢٠.

خوزستان، ولقب بقرمط لقصر كان فيه، فرجلاه قصيرتان بشكل ملفت للنظر الأمر الذي جعله ناقما على المجتمع، وقد سماه ابن كثير قرمط بن الأشعث البقار[1]. وقد تحمل دعاة الباطنية كثيرا من المشقة والآلام والأسفار الكثيرة في نشر باطلهم من بلد إلى بلد. ومن أسماء الباطنية التي يتخفون تحتها الإسماعيلية، والسبعية، والتعليمية والإباحيّة، والملاحدة، والمزدكية، والبابكية والخرمية، والمحمرة، ومن الأسماء التي أطلقت على الباطنية، وأصبحت علما تاريخيا على ضلالهم اسم القرامطة، وسبب تسميتهم بهذا الاسم انتسابهم إلى رجل يقال له حمدان قرمط.

والباطنية القرامطة لهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة، فإذا كانت لهم مكنة يسفكون دماء المسلمين، وإن عجزوا لجئوا إلى الخطط والمؤامرات السرية ضدهم، وحينما استولوا على البحرين وصارت لهم فيه دولة عاشوا في الأرض فسادا. وكذلك حينما تمكنوا من الوصول إلى مكة والناس في الحج قتلوا الحجيج، بل حصدوهم كما تحصد الحشائش، وألقوا بجثثهم في بئر زمزم، وبعضهم دفنوهم في صحن المسجد، وبعضهم تركوهم جثثا منثورة، ثم اقتلعوا الحجر الأسود وأخذوه معهم، وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم وأمرائهم وجندهم ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى.

وهم دائما مع كل عدو للمسلمين، فقد كانوا في أيام الحروب الصليبية أعظم أعوان النصارى، فلم يستول الصليبيون على السواحل الشامية إلا من جهتهم، وما دخل التتار بلاد المسلمين إلا بمعونتهم، فلقد كان النصير الطوسي أبرز عيونهم، ولقد كان الخليفة مغترا به. وما أن دخل التتار بغداد

---

(١) انظر البداية والنهاية ١١/ ٦٢،.

حتى حرضهم النصير الطوسي على قتل الخليفة وعشرات الألوف من المسلمين، وهدم عليهم دورهم، وقتل النساء والأطفال، وسبى من أراد سبيه من نسائهم وفضحهن، وأغرق كثيرا من كتب المسلمين في نهر دجلة حتى تغير ماء النهر[1].

وأعظم أعيادهم هو اليوم الذي يصيب المسلمين فيه بلاء وكرب، كيوم استيلاء الصليبيين على سواحل الشام، وكيوم استيلاء التتار على بغداد. كما كانت أعظم مصائبهم يوم أن نصر الله المسلمين على التتار والصليبيين.

- **من هم النصيرية وما هي أصولهم الاعتقادية الوثنية؟**

تنتسب النصيرية إلى زعيمهم محمد بن نصير النميري، وكنيته أبو شعيب، وكان من الشيعة الاثنا عشرية، وأصله من فارس، ثم انفصل عنهم إثر نزاع بينه وبينهم على ثبوت صفة الباب إلى المهدي المنتظر ابن الحسن العسكري فادعى أنه الباب ، فلم تقرّ له الإمامية بذلك، فانفصل عنهم وكوّن له طائفة، وقد ظل زعيما لطائفته إلى أن هلك سنة ٢٦٠هـ، وقيل سنة ٢٧٠هـ، وقد كان فيما ذكر علماء الفرق مولى للحسن العسكري الإمام الحادي عشر للشيعة الاثنا عشرية. والنصيرية من أسمائهم العلويون لأنهم يعبدون علي بن أبي طالب، ولهم تثليث خاص كتثليث النصارى إليه بثلاثة حروف هي ع.م.س ويقولون: إن الله حلّ في ثلاثة هم علي ومحمد وسلمان الفارسي[2]. وقد أطلق عليهم الأتراك اسم السوراك، ويطلق عليهم اسم النميرية، نسبة إلى محمد بن

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٢١٥.

(٢) تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن ٤/ ٢٦٥.

نصير النميري، ولهم أسماء أخرى محلية مثل التختجية والحطابون في غربي الأناضول، والعلي إلهية في فارس وتركستان وكردستان [١].

النصيرية يعتقدون بإلوهية الإمام علي، والشمالية منهم يقولون إنه حالٌّ في القمر. وفرقة منهم تسمى الكلازية يذهبون إلى أنه حال في الشمس، ولهذا فهم يقدسون الشمس والقمر وسائر النجوم. ويعتقدون بتناسخ الأرواح، فالأرواح الصالحة عندهم تحل في النجوم، ولهذا يسمون عليا أمير النحل أي أمير النجوم، والأرواح الشريرة تحل في أجسام الحيوانات، ولهم كتاب مقدس يسمى الهفت الشريف يعتمدونه ويرجعون إليه وهو غير القرآن، وأغلب العقائد خليط بين عقائد وثنية قديمة وإسلامية متطرفة [٢]. وفي كتابهم وصايا عديدة حول الاحتراس من المرأة، وذكر المساوئ الكثيرة التي تصدر عنها، وأن الرجل قد يجازى أيضا بالتناسخ بأن يتحول إلى صورة امرأة عقابا له إذا كان في حياته السابقة غير مؤمن بالنصيرية[٣].

وبحسب اعتقادهم أن الله تجلى في علي، فقد اتخذ علي محمدا، وبالغوا في كفرهم فقالوا إن عليا خلق محمدا، ومحمد خلق سلمان الفارسي، وسلمان خلق الأيتام الخمسة الذين بيدهم مقاليد السموات والأرض وهم المقداد رب الناس وخالقهم، الموكل بالرعود والصواعق والزلازل، وأبو الدر أبو ذر الغفاري الموكل بدوران الكواكب، والنجوم، وعبد الله بن رواحة الأنصاري الموكل بالرياح وقبض أرواح البشر، وعثمان بن مظعون الموكل

(١) العلويون أو النصيرية ص٣١.

(٢) العلويون أو النصيرية لعبد الحسين الشيعي ص٦٣.

(٣) الجيل التالي لمحمد حسين ص٩.

بالمعدة وحرارة الجسد وأمراض الإنسان، وقنبر بن كادان الموكل بنفخ الأرواح في الأجسام»[١].

ويتجلى تأليههم للإمام علي ﷺ في تلك الأدعية الخالية عن أدنى أنواع المعرفة، والتي تسمى سورا عندهم كما جاء في السورة الثالثة: (اللهم إني أسألك يا مولاي، يا أمير النحل، يا عليا يا عظيم، يا أزل يا فرد يا قديم، يا علي يا كبير، يا أكبر من كل كبير، يا خالق الشمس والقمر المنير، يا علي يا قدوة الدين، يا عالم يا خبير، يا راحم الشيخ الكبير يا منشئ الطفل الصغير، يا جابر العظم الكسير، يا محل كل يسير من غير عسير)[٢].

وأكثر النصيرية يعيش اليوم في الجنوب والشمال من سوريا، ولهم وجود في جنوب تركيا وأطراف لبنان الشمالي وفارس وتركستان الروسية وكردستان[٣].

ومن أبرز دعاتهم الرئيس السوري حافظ الأسد النصيري الذي قام بمجزرة لأهل السنة في مدينة حماة السورية هزت كيان العالم، ففي عام ١٩٨٢م حوصرت مدينة حماة المسلمة السنية بقواته الخاصة السورية الشيعية النصيرية حتى تم تدمير وهدم ٨٨ بالمائة من مساجد حماة، وتصفية شباب أهل السنة في جريمة نكراء قتل فيها ما يزيد على أربعين ألف مسلم، واعتقال خمسة عشر ألف آخرين يعتبرون إلى الآن في عداد المفقودين، بينما تشرد نحو ١٥٠ ألف مسلم سني من المدن السورية الأخرى إلى البلاد العربية المجاورة.

---

(١) طائفة النصيرية للدكتور سليمان الحلبي ص٤٧.

(٢) الإسلام في مواجهة الباطنية لأبي الهيثم ص٢٥٠، والجيل التالي ص٧٩.

(٣) العلويون أو النصيرية لعبد الحسين الشيعي ص٧.

وهناك مجازر أخرى متعدد ارتكبها هذا النصيري وما زال ابنه بشار الأسد النصيري ينتهج نهج أبيه في إبادة أهل السنة والجماعة.

- **من هم الدروز وما هي عقائدهم الوثنية الخبيثة؟**

الدروز إحدى فرق الباطنية الإسماعيلية العبيدية الغلاة الذين ألهوا الحاكم بأمر الله العبيدي الفاطمي، وجحدوا كل ما أخبر به الله عن القيامة والثواب والعقاب، وقالوا بالتناسخ الذي يسمونه التقمص، ظهرت هذه الفرقة في بداية القرن الخامس الهجري في مصر. وقد حذر علماء المسلمين من هذه الطائفة أشد تحذير[1].

قال السفاريني: (وكتب أهل الكفر لاسيما كتب الدروز عليهم لعنة الله، فقد نظرت في بعضها فرأيت العجب العجاب، فلا يهود ولا نصارى ولا مجوس مثلهم؛ بل هم أشد مَن عَلمنا كفرا لإسقاطهم الأحكام وإنكارهم القيامة، وزعمهم أن الحاكم العبيدي الخبيث رب الأنام)[2].

وهم يتكتمون على عقائدهم أشد التكتم، ولهذا خفي أمرهم على كثير من علماء الفرق والتاريخ، وهم لا يسمحون لأحد أن يدخل في مذهبهم، ومن الجدير بالذكر أن بينهم وبين النصيرية اتفاقا في كثير من الآراء الاعتقادية، واختلافا أيضا في بعضها، وبينهم عداوة شديدة بسبب تأليه النصيرية لعلي بن أبي طالب ﷺ وعدم تأليههم للحاكم بأمره، وكراهية النصيرية لهم لتأليههم الحاكم دون علي ﷺ، وهي اعتقادات باطلة تعد ظُلُمات بعْضُها فوْق بعْض.

(١) أضواء على العقيدة الدرزية ص٥.

(٢) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ١/ ٢٥٢.

وتنسب هذه الطائفة إلى أحد دعاة الباطنية الذين قالوا بإلوهية الحاكم العبيدي، ويسمى هذا الداعي محمد بن إسماعيل نشتكين الدرزي من أصل فارسي، قدم إلى مصر ودخل في خدمة الحاكم بأمر الله، ثم كان أول من أعلن إلوهية ذلك الحاكم المفتون، ولم يكن نشتكين في هذا الميدان وحده، بل كان معه رجل ضال آخر فارسي يسمى حمزة بن علي الزوزني من أهالي زوزن بإيران، وكان له الأثر البارز في تاريخ الدروز فيما بعد، بل هو زعيم المذهب الدرزي ومؤسسه[1].

والدروز لا يؤمنون بيوم القيامة، فلا حساب ولا جزاء ولا ثواب ولا عقاب في الحياة الآخرة، وإنما يتم ذلك كله في الدنيا عن طريق التقمص، وما تلاقيه الروح في تقمصها من النعيم أو العقاب، إلا أنهم ينتظرون يوما يجيء الحاكم في صورة ناسوتية مرة أخرى، ويدين له كل أهل الأديان بالتوحيد والطاعة كما يزعمون، يخرج من بلاد مصر أو من بلاد الصين من سد الصين العظيم، وحوله قوم يأجوج ومأجوج القوم الكرام أو المؤمنون بالحاكم كما يسمونهم، ويتضح حقد هؤلاء على الإسلام والمسلمين في زعمهم أن الحاكم إذا جاء يأتي إلى الكعبة ويهدمها ويفتك بالمسلمين والنصارى في جميع الأرض حيث يحاسبهم حمزة حسابا شديدا[2].

والدروز في العصر الحاضر يقودهم كمال جنبلاط، وهو من أشد المتعصبين لمذهب الدرزي، وقد أقدم على جريمة كبيرة في هذا العصر؛ حيث بدأ هو وشخص آخر اسمه عاطف العجمي بتأليف كلام يحاكيان به القرآن

---

(١) طائفة الدروز ص٦.

(٢) طائفة الدروز ص١٠٢.

الكريم، زاعمين أنه كلام مقدس تحت اسم المصحف المنفرد بذاته، أو مصحف الدروز مملوء من شتى الأفكار، ومن حِكم الهند، ومن كلام زعمائهم، فأصبح خليطا فاسدا يدور كله حول تأليه الحاكم، والثبات على العقيدة الدرزية.

- **من هم الشيخية والرشتية وما علاقتهم بالبابية والبهائية؟**

البهائية إحدى الفرق الباطنية الخبيثة التي حاولت هدم الإسلام وإخراج أهله منه بأساليب وطرق شتى قديما وحديثا، وقبل البدء بالكلام عن البهائية لابد من التطرق أولا وبإيجاز إلى التعريف بالبابية وبيان الصلة بين البابية والبهائية، فالبابية والبهائية والشيخية والرشتية حلقات متصلة بعضها بالبعض الآخر، وتعتبر الشيخية والرشتية هي النواة الأولى للبابية، كما تعتبر البابية هي الدرجة الأولى للبهائية.

ونبدأ الآن بذكر الشيخية، فالشيخية هي الطائفة المنسوبة إلى زعيمها الضال أحد شيعة العراق، ويسمى الشيخ أحمد الإحسائي، وهو أحمد بن زين الدين بن إبراهيم الإحسائي الذي توفي سنة ١٢٤١هـ، ودفن بالبقيع، ويعتبر من كبار علماء الشيعة الإمامية وهو باطني من الغلاة، وله أفكار خارجة عن الإسلام يظهر فيها الاعتقاد بالحلول مثل قوله: إن الله تجلى في علي وأولاده الأحد عشر، ولولاهم ما خلق الله شيئا، ويظهر فيها الإلحاد كما في قوله: إن اللوح المحفوظ هو قلب الإمام المحيط بكل السموات وكل الأرضين، وكان ينكر المعاد والبعث.

كما يظهر فيها كذلك القول بالتناسخ حينما زعم للناس أن المهدي يحل في

أي رجل كان فيكون له صفة الباب، وأن روح المهدي حلت فيه هو فصار هو الباب إلى المهدي.. إلى آخر ما قاله من خرافات وإلحاد.

وتتضح شخصية الإحسائي وأوهامه من خلال دراسة الرشتية والبابية؛ لأن هؤلاء صاروا على طريقته مع زيادة الغلو الذي استحسنوه لتقوية المذهب وتكامله، ولتتم كذلك المؤامرة الرهيبة التي خطط لها هؤلاء، ومن وراءهم بهدف القضاء على الإسلام والأمة الإسلامية وتمزيق وحدتها، وتشتيت كلمة أبنائها، وضرب بعضهم ببعض.

وما أن انتهت أيام الإحسائي الذي ألهب مشاعر أتباعه من الشيعة بقرب مجيء المهدي، وجعله في أذهانهم قاب قوسين أو أدنى، ما إن انتهت أيامه حتى تولى بعده أعظم تلاميذه وهو الرشتي الذي أسس بعد ذلك جماعة ينتسبون إلى اسمه وهم الرشتية، واسمه كاظم الرشتي ولد سنة ١٢٠٥هـ في بلدة رشت في إيران.

وقد سار على نفس طريقة أستاذه الإحسائي وزاد عليه أقوالا كفرية أخرى، كانت هي النواة الأولى لظهور البابية بفعل تأثير الرشتي في تلميذه علي محمد الشيرازي الذي تزعم الدعوة البابية الهدامة التي ظهرت في إيران البلد المضياف لكثير من الدعوات المناوئة للإسلام، وقد قال بالتناسخ حيث ادعى أنه حل فيه روح الباب كما حل في الإحسائي، ولكنه استحقر فكرة الأبواب هذه وقفز إلى التبشير بظهور المهدي نفسه، وقد روج الرشتي أفكار شيخه الإحسائي، وأدخل الكثيرين في مذهبه ومذهب الإحسائي، وصارت الشيخية فرقة مستقلة في كثير من الأفكار، ويحترم البابيون والبهائيون الإحسائي والرشتي احتراما عظيما ويسمونهما بالنورين.

أما زعيم البابية الأول هو علي بن محمد رضا الشيرازي ولد في سنة ١٢٣٥هـ في بلدة شيراز جنوبي إيران، استمر في ضلالته متدرجا من كونه الباب للمهدي إلى أنه هو المهدي إلى النبوة وأخيرا إلى الإلوهية، وكان أتباعه ينادونه بالرب وبالإله، وقد أذله الله في أماكن كثيرة أمام الناس بعد مناظراته ويضرب ضربا مهينا ثم يبدي التوبة، إلا أن المتآمرين على إثارة التفرقة بين المسلمين والراغبين في الإباحية ونسخ الشريعة الإسلامية كانوا يدفعونه دفعا ويهيئون له الجو الملائم لمثل هذه الدعاوى الكاذبة.

وقد أسفرت البابية عن إنكار القيامة وما جاء في وصفها في القرآن الكريم، وزعم أنها قيام الروح الإلهية في مظهر بشري جديد، وأن البعث هو الإيمان بإلوهية هذا المظهر، وعن لقاء الله يوم القيامة بأنه لقاء الباب لأنه هو الله، وعن الجنة بأنها الفرح الذي يجده الشخص عندما يؤمن بالباب، وعن النار بأنها الحرمان من معرفة الله في تجلياته في مظاهره البشرية، وزعم أنه البرزخ المذكور في القرآن، لأنه كان بين موسى وعيسى.

وقد كتب الشيرازي كتابه الذي سماه البيان وهو كتاب البيان العربي الذي زعم فيه أنه منزل من عند الله، وأنه ناسخ للقرآن، وأنه أفضل الكتب المنزلة على الإطلاق، بل وتحدى الجن والإنس أن يأتوا بمثله على حد زعم الشيرازي. قال الشيرازي في بيانه المزعوم في اللوح الأول من آيات الوحي شئون الحمراء: (إنا قد جعلناك جليلا للجاللين وإنا قد جعلناك به عظيما عظيمانا للعاظمين، وإنا قد جعلناك نورا نورانا للنورين، قد جعلناك رحمانا رحيما للراحمين، وإنا قد جعلناك تميما للتامين. إلى أن يقول: قل: إنا قد جعلناك مليكا للمالكين، قل: إنا قد جعلناك عليا للعالين، قل: إنا قد جعلناك

بشيرا للباشرين)[(١)].

وأما مؤسس البهائية يسمى حسين علي النوري المازندراني، اعتنق البابية سنة١٢٦٠هـ وهو في السابعة والعشرين من عمره ولقب نفسه بهاء الله وجاء بتخريفات إلحادية وزعم أنه أمي لا يعرف شيئا، ولكن الله ألهمه العلوم والمعرفة جميعا، وكتب ما كتب من أقوال تعد من أشنع الكذب، جمع فيها أقوال الصوفية وشطحاتهم وأفكار البراهمة والبوذيين والباطنية والمانوية، وغير ذلك من المذاهب التي كان يغترف منها مدعيا أن كلامه وحي وظهور لكلام الله تعالى.

والبهائية مذهب خارج عن الإسلام، لا يتفق مع الإسلام في شيء، بل ولا مع تعاليم الديانات السماوية كلها، وأهم دعاياتهم التي ينادون بتحقيقها ليضمنوا للبشر السعادة فيما يزعمون، وحدة جميع الأديان والالتقاء على دين الدين البهائي، لتزول الخلافات بين الناس، وتتوحد الأوطان بحيث تنمحي المفاهيم الوطنية ولا يبقى في الأذهان إلا الوطن الذي سيختاره المازندراني لهم، ووحدة اللغة بحيث لا يتكلم الناس كلهم بأي لغة لا محلية ولا عالمية إلا اللغة التي سينتخبها لهم المازندراني.

وأما كتاب البهائية الذي يقدسونه فقد ادعى حسين علي المازندراني الإلوهية، ومن هنا كان حتما عليه أن ينزل الكتب المقدسة ويبيّن لعباده ما يريد حسب أوهامه، فجاء بكتاب سماه الأقدس، وجاء فيه بما يستحي طالب العلم المبتدئ في الطلب من نسبته إلى نفسه، فكان بحق أحط كتاب، وصيغ

(١) حقيقة البابية والبهائية، لمحسن عبد الحميد ص٩٩.

بأردأ العبارات، وحشي بألفاظ وعبارات تنضح جهلا، وزعم المازندراني أنه أفصح وأشرف كتاب منزل على الإطلاق، نسخ به جميع الكتب السابقة وفي أولها القرآن الكريم. ومما لفقه المازندراني في كتابه الأنجس وليس الأقدس قوله: (من يقرأ من آياتي لخير له من أن يقرأ كتب الأولين والآخرين، هذا بيان الرحمن إن أنتم من السامعين، قل هذا حق العلم لو أنتم من العارفين.. لو يقرأ أحدا به من الآيات بالروح والريحان خير له من أن يتلو بالكسالة صحف الله المهيمن القيوم.. قل تالله لا تغنيكم اليوم كتب العالم، ولا ما فيه من الصحف إلا بهذا الكتاب الذي ينطق في قطب الإبداع أنه لا إله إلا أنا العليم الحكيم)[1]. إلى آخر إفكه وإلحاده وجهله بجميع الأديان.

وقد انتشرت البهائية في أماكن كثيرة بعضها معلوم وبعضها في الخفاء، إلا أن وجودهم الأكبر ومركزهم الرئيسي بين حلفائهم في أرض فلسطين التي اغتصبها اليهود، ويوجد لهم خلايا كثيرة في إيران وأمريكا والعراق ومصر وإمارات الخليج والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، ومحافلهم كثيرة وأكبرها في شيكاغو وإسرائيل وكندا وبنما ولندن وألمانيا وسويسرا والهند وباكستان وشمال أفريقيا وأوغندا واستراليا.

• اذكر تعريفا موجزا لفرقة القاديانية الأحمدية الباطنية الخبيثة؟

القاديانية هي إحدى الفرق الباطنية الخبيثة، ظهرت في آخر القرن التاسع عشر في الهند، وتسمى في الهند وباكستان بالقاديانية، وسموا أنفسهم في أفريقيا وغيرها من البلاد التي غزوها بالأحمدية؛ تمويها على المسلمين أنهم

(١) السابق ص١٧٣.

ينتسبون إلى الرسول ﷺ، فهي ثورة على النبوة المحمدية وثورة على الإسلام ومؤامرة دينية وسياسية.

وزعيم القاديانية هو غلام أحمد القادياني زعم أنه نبي وأن نبوته لا تتعارض مع القول بختم النبوة بمحمد ﷺ، مستعملا في ذلك شتى أنواع التأويلات الباطنية للتمويه والتعميم على نبوته الجديدة، وبعد مدة من الزمن، وبعد أن اشتد طمعه في إثبات النبوة له، تمرد وعتا وادعى هو وجماعته بكل وضوح أن النبوة لا تزال ولن تزال أبدا تحل بأشخاص وتنتهي عند أشخاص دون انقطاع، وأن النبوة لم تختم بمحمد ﷺ، ولم يقتصر غلام أحمد القادياني على التنبؤ، بل حمله غروره على أن فضّل نفسه على أكثر الأنبياء والمرسلين، وأنه جُمع فيه ما تفرق في أنبياء كثيرين؛ فما من نبي إلا وقد أخذ منه قسطا فقال: (لقد أراد الله أن يتمثل جميع الأنبياء والمرسلين في شخص رجل واحد، وإنني ذلك الرجل.. وقد آتاني ما لم يؤت أحدا من العالمين)[1].

ومعتقدات القاديانية تتمثل في اعتقاد التناسخ والحلول، وأن الأنبياء تتناسخ أرواحهم، وتتقمص روح بعضِهِم وحقيقتُه جسد الآخرين وحقيقتهم، وتظهر في مظهر الجسد الآخر تماما، وقد وصف الله تعالى بأنه مثل الأخطبوط له أياد وأرجل كثيرة، وأعضاءه بكثرة لا تعد ولا تحصى، وفي ضخامة لا نهاية لطولها وعرضها، مثل الأخطبوط له عروق كثيرة امتدت إلى أنحاء العالم وأطرافه، بل يصف القادياني إله العالمين بصفات في غاية القبح والشناعة، ننزه عن ذكرها أسماع وأبصار طلاب العلم؛ كلها تدور حول الجنس والولادة على طريقة الباطنية وغلاة التشبيه والتجسيم، بل وعلى

(١) انظر فرق معاصرة تنسب إلى الإسلام للدكتور غالب العواجي ٢/ ٢٢٢.

طريقة النصارى الذين ادعوا أن لله ولدا.

وقد احتضنها الإنجليز حينما كانوا حكاما مستعمرين للهند وتبنوها، وبذلوا لنصرتها ما في وسعهم من الإمكانيات المادية والمعنوية؛ وذلك لما رأوه فيها من تحقيق مآربهم، واحتضنتها كذلك اليهودية العالمية، ولهم مراكز في أنحاء العالم وفي إسرائيل.

الفصل الثالث
ظهور اليهودية والصهيونية

• اذكر باختصار تاريخ دعوة التوحيد من عصر آدم إلى نوح؟

وكل الله تعالى آدم عليه السلام منذ خروجه وزوجته من الجنة بالرسالة السماوية التي احتوت على أوامر الله التكليفية ليلتزم بها فيما استخلفه واسترعاه، وأمره بتبليغها إلى ذريته، ثم تكاثر الناس وانتشروا في جهات الأرض، حتى كان منهم الشعوب والقبائل، ومع تطاول العهد نسوا وصايا أبيهم آدم، وضيعوا دينهم، ولعبت بهم الأهواء، وأضلتهم الشياطين، فأشركوا وظلموا وكفروا بالله، فتداركهم الله بإرسال الرسل معلمين ومبشرين ومنذرين كما قال تعالى:

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ ﴾ فاطر: ٢٤.

وكان أول فساد وقع على الأرض قتل أحد ابني آدم لأخيه، ثم فسد حال الناس بعد ذلك وتطاول عليهم العمر، وصاروا يعبدون الأوثان، وقد أثبت القرآن الكريم خمسة أوثان كانوا يقدسونها ويعبدونها، وهي ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فبعث الله تعالى نوحا عليه السلام لما عبدت هذه الأصنام والطواغيت، فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض.

ولما بعث الله نوحا عليه السلام دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له وألا يعبدوا معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتا، وأن يؤمنوا بوحدانيته وأنه لا إله غيره

ولا رب سواه، فدعاهم إلى الله مرارا، ليلا ونهارا، جهرا وإسرارا، وكل هذا لم يؤثر فيهم، بل استمر أكثرهم على الطغيان والضلالة، وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة في كل وقت وآن، وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم ولما رأى نوح عليه السلام أنه لا خير فيهم، وأنهم تواصلوا في أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل سبيل دعا عليهم بالهلاك، فاستجاب الله دعوته وأمره أن يصنع سفينة لنجاة المؤمنين؛ لأن الله قدر إغراقهم، فنجاه الله بها، وفتح بينه وبين قومه، وأقر عينه ممن خالفه وكذبه، وأرسل الله تعالى من السماء مطرا، لم تعهده الأرض قبله حتى لم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء، ثم أمر الله الأرض أن تبتلع ماءها وأمر السماء أن تقلع.

لقد جعل الله ذرية نوح الباقين من نسل آدم، فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينسبون إلى من ركبوا السفينة مع نوح، وما ورد في القرآن يقتضي أن نوحا عليه السلام مكث في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاما، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك؟

- **ما هو تاريخ الدعوة من عصر نوح إلى إبراهيم؟**

بعد مدة من طوفان نوح أرسل الله هودا عليه السلام لما ظهر الشرك والفساد في قوم عاد، وهم قبيلة تنسب إلى عاد بن عوص بن سام بن نوح وكانوا عربا يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل التي كانت باليمن بين عُمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر، وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، فبعث الله فيهم أخاهم هودا عليه السلام فدعاهم إلى الإسلام، فأبوا إلا الكفر بالله عز وجل فأرسل الله عليهم ريحا عاتية فيها عذاب أليم، استمرت عليهم

سبع ليال وثمانية أيام حسوما، فلم تبق منهم أحدا، بل تتبعهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال فتهلكهم.

وبعد مدة من هلاك عاد أرسل الله صالحا عليه السلام لما ظهر الشرك والفساد في قوم ثمود، وكانوا عربا يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخلعوا عبادة الأصنام والأنداد، فآمنت طائفة منهم وكفر أغلبهم، وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، حيث جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض ففاضت الأرواح وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، فأصبحوا في دارهم جاثمين، جثثا لا أرواح فيها ولا حراك بها، ونجى الله نبيه صالحا عليه السلام ومن آمن به.

وبعد مدة من هلاك ثمود أرسل الله إبراهيم الخليل عليه السلام لما ظهر الشرك والفساد في العراق وبلاد الشام وفلسطين ومصر، وقد ولد إبراهيم ببابل في العراق على الصحيح، وهي أرض الكلدانيين وقتها، وكانت أول دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام، فبين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان، ثم حدثت المناظرة لقومه في هذه الأجرام والكواكب التي عبدوها من دون الله، وكان أهل بابل يصورون لمعبوداتهم أوثانا وأصناما على هيئتها، فناظرهم في عبادتهم لها وأهانها وبين بطلانها، فلما خرجوا إلى عيدهم واستقر هو في بلدهم، راغ إلى آلهتهم ضربا باليمين، وجعلهم حطاما إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون، فلما رجعوا من عيدهم، ووجدوا ما حل بمعبوداتهم، أتوا به على رءوس الأشهاد وقالوا احرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، فأمر

الله النار أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم.

ثم خرج إبراهيم ﷺ من أرض الكلدانيين في العراق، وكان معه ابن أخيه لوط إلى أرض الكنعانيين في بلاد الشام، فنزلوا حران، وناظر فيها النمرود ابن كنعان، وكان قد طغى وبغي، فدعاه إبراهيم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فحمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار وجود الله، فحاج إبراهيم في ربه وادعى لنفسه الربوبية، فغلبه إبراهيم في الحجة حتى بهت الذي كفر، وأهلك الله النمرود.

ثم ارتحلوا قاصدين بيت المقدس فأقاموا فيها، وكانت سارة امرأة الخليل إبراهيم عاقرا لا يولد لها، ولم يكن له من الولد أحد، بل معه ابن أخيه لوط، فمكث إبراهيم في فلسطين، ثم انطلق بعد قحط وشدة وغلاء حل بهم، فارتحلوا إلى مصر ومعه زوجته سارة، وكان فرعون مصر وقتها يأخذ المرأة الحسناء لنفسه غصبا من زوجها، فحفظها الله بقدرته من فرعون فخاف الفرعون منها وأكرمها وأهداها جارية.

ثم عاد إبراهيم ﷺ مع زوجته سارة وجاريته هاجر غانمين آمنين إلى فلسطين، وأمر إبراهيم لوطا ﷺ أن يذهب إلى الأردن في أرض الأغوار لينذرهم ويحذرهم من أفعالهم الفاسدة عند انتشار الشذوذ بينهم، ومعاشرة الرجال بعضهم لبعض، فنزل بمدينة سدوم، وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان، وكان أهلها أشرارا كفارا فجارا، فجعل الله عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة أهلكتهم جميعا، ونجى الله لوطا ﷺ.

ثم إن سارة وهبت هاجر لإبراهيم ﷺ فدخل بها وحملت منه بإسماعيل،

وحدث بينها وبين سارة ما يكون بين النساء من الغيرة، فوضعت هاجر إسماعيل عليه السلام، وإبراهيم له من العمر وقتها ست وثمانون سنة، قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة، ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة، ومن وراء إسحاق يعقوب.

ولما ولد لهاجر إسماعيل عليه السلام ذهب إبراهيم بها وبولدها إلى برية فاران وهي موقع مكة المكرمة، وكان ولدها إذ ذاك رضيعا، ثم ذهب وتركهما ثم دعا ربه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ إبراهيم:٣٧.

ثم أمر الله إبراهيم أن يذهب إلى مكة ويرفع القواعد من البيت مع ولده إسماعيل، وجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بالمقام وهو حجر كان يقوم وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة حتى انتهى بناء الكعبة وأذن في الناس بالحج. وبعد بناء البيت عاد إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين ومكث فيها، وقد مرت الملائكة بإبراهيم عليه السلام مجتازين ذاهبين إلى قوم لوط ليدمروا عليهم قريتهم سدوم فظنهم الخليل ضيوفا فعاملهم معاملة الضيوف وشوى لهم عجلا سمينا فقربه إليهم، فلم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية فنكرهم، وأوجس منهم خيفة، فأخبروه خبرهم، وبشروه بإسحاق من سارة، ومن وراء إسحاق يعقوب.

ولما وفي إبراهيم عليه السلام ما أمره به ربه جعله للناس إماما يقتدون به ويأتمون بهديه، وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة في عقبه، وباقية في نسبه،

فأجيب إلى ما سأل على ألا ينالها الظالمون. ولم يخرج من ذرية إسماعيل ﷺ من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم، وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي المكي ثم المدني صلوات الله وسلامه عليه، فلم يوجد من هذا الفرع الشريف سوى هذه الجوهرة الباهرة.

• بين تاريخ دعوة التوحيد من عصر إسحاق إلى موسى؟

يعتبر نبي الله إسحاق ﷺ هو الفرع الثاني لإبراهيم ﷺ، فقد ظهر منه جميع الأنبياء، فأنجب إسحاق يعقوب وقد سماه الله إسرائيل، وأنجب يعقوب الأسباط، وهم بنو إسرائيل اثنا عشر ولدا ذكرا، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف ﷺ، وأبرز إخوته ممن أثرت في التاريخ ذريتهم لاوى ويهوذا، فقد خرج من نسل لاوى موسى وهارون، وخرج من نسل يهوذا داود وسليمان وعيسى بن مريم عليهم السلام.

وبعد ذلك حدثت قصة يوسف ﷺ، منذ تآمر إخوته على قتله وألقوه في البئر، وحملته السيارة إلى مصر وبيعه فيها رقيقا لعزيزها، وراودته امرأته عن نفسها وعصمه الله منها، وسجنها له ثم تأويله لرؤيا الملك في البقرات السبع، ثم توليه للقيادة الاقتصادية في مصر، ثم التجاء إخوته إليه بعد أن أصابهم القحط في فلسطين، ثم إحضار يوسف لأبيه وتحقيق رؤيته لما صار عزيزا لمصر، ورفع أبويه على العرش، وقد وصى يعقوب ﷺ بنيه الأسباط بالإسلام والتزام توحيد العبادة لله كما قال تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ البقرة:١٣٣ .

وقد استقر بنو إسرائيل بمصر قرابة أربعة قرون حتى أرسل الله موسى بن عمران عليه السلام من نسل لاوي بن يعقوب إلى فرعون لما ادعى الربوبية، وليعيد بني إسرائيل إلى موطنهم الأصلي، وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام في مواضع كثيرة من القرآن.

لقد طغى فرعون وبغى فقتل المؤمنين الذين كانوا سحرته بالأمس، ولم تؤثر فيه الآيات التسع، ولا السنين وأعوام الجدب، ولا وفّى بوعده أنه سيؤمن لموسى ويرسل معه بني إسرائيل، بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم، حتى أخذهم الله عز وجل أخذ عزيز مقتدر، وخرج المسلمون بنو إسرائيل بأمر الله متوجهين إلى الأرض المقدسة وهي أرض فلسطين، وقد أرهقوا موسى بكثرة مطالبهم، وقد كان من نعم الله عليهم أنه ظلل الغمام عليهم وجعل السحاب يستر عنهم حر الشمس في حلهم وترحالهم، فأمرهم الله عز وجل أن يتوجهوا إلى فلسطين لقتال الجبارين الذين ملكوها، فأبوا وقالوا لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا في سيناء قاعدون، فضرب الله عز وجل عليهم التيه أربعين سنة، فكانوا يحاولون الخروج من سيناء دون جدوى.

وقد أنزل الله على موسى التوراة في ألواح مكتوبة بيد الله كتب فيها موعظة وتفصيلا لكل شيء مما يتطلبه أمر التكاليف الشرعية والأخبار الغيبية التي سيحاسب الله عليها بني إسرائيل. وقد احتفظ موسى بالتوراة في تابوت عند سبطه، وهم اللاوون نسبة إلى جده لاوى بن يعقوب من إخوة يوسف، وكان يذكرهم بالتوراة ويخرجها لهم، ويقرأها عليهم أيام السبت، ويعرفهم بأحكام الشريعة والإيمان.

ومكث موسى وهارون في سنوات التيه حتى مات هارون ثم مات موسى قرب الأرض المقدسة، ولم يبق أحد ممن أبى أن يحارب الجبارين وأن يدخلوا فلسطين من الجيل الذي تعود على الجبن والذل في عهد فرعون إلا مات ولم يشهد الفتح، إلا الرجلين المذكورين الذين أنعم الله عليهما، والقائلين: ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وجعل الله الفتح على يد الجيل الذي ولد حرا في سنوات التيه، فقادهم فتى موسى يوشع بن نون حتى تم لهم النصر بفضل الله، كما روى أحمد وصححه الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس)[1].

ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس استمروا في فلسطين مع نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه، وكانوا هم المسلمون وأهل التوحيد في زمانهم، وصاروا ممكنين في الأرض المقدسة ما شاء الله، يحكمهم ويسوسهم كثير من الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي آخر، وكانت التوراة في تابوت العهد الذي استحفظ الله عليه اللاوين من الأسباط وهم كانوا أحبار وعلماء بني إسرائيل، يخرجون التوراة الحقيقية المكتوبة بيد الله في الألواح، يقرأونها على عامة المسلمين كما علمهم موسى عليه السلام.

• اذكر كيفية ضياع التوراة التي كتبها الله بيده لموسى؟

بعد مدة من وجود بني إسرائيل في فلسطين، انتشر بينهم الفساد واتباع الهوى وأنواع المشتهيات، وكانت أول فتنة لهم النساء، وبدأ الناس يتعاملون

---

(١) أحمد في المسند ٢/ ٣٢٥ (٨٢٩٨)، والسلسلة الصحيحة (٢٠٢).

بالربا، وظهر فيهم الظلم والرشوة والمحسوبية، وكانوا يتآمرون على قتل أنبيائهم بسبب منعهم من أفعال السوء والفحشاء، وتحذيرهم من عواقب أفعالهم، وظهر الفساد بين كثير من الأحبار والرهبان لأكلهم أموال الناس بالباطل وصدهم عن سبيل الله بتأويلهم كلام الله، وقلبهم للحق باطلا، بقي الناس لا يتناهون عن منكر فعلوه، وكانوا قد مكثوا في الأرض المقدسة ما يزيد على أربعة قرون، فسلط الله عليهم ملوكا من الأعداء جبارين سفكوا دماءهم وأخرجوهم من ديارهم وأبنائهم، وكان علماؤهم من اللاوين وقت خروجهم يحتفظون بتابوت العهد الذي حفظت فيه التوراة وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، ولما غلب الجبارون بقيادة جالوت على بني إسرائيل وقتلوا منهم خلقا كثيرا، وسبوا من أبنائم جمعا كبيرا، بعث الله لهم نبيا فطلبوا منه أن يبعث لهم ملكا يقاتلون معه في سبيل الله فبعث لهم طالوت.

وقد دلت نصوص القرآن على أن التوراة كانت في تابوت العهد، وأن الملائكة تجسدت وحملته أمام أعينهم، ونقلته من سبط لاوى وسلمته إلى طالوت كدليل على اختيار الله له ملكا عليهم، ثم انتقلت التوراة بعد ذلك إلى داود عليه السلام، وهو من سبط يهوذا، وذلك بعد أن قتل داود جالوت وآته الله الملك والحكمة.، ثم ورث سليمان أباه داود، وسخر الله له كل ما يحتاج إليه من الجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين، فاتسع ملك سليمان وهيمن على ملوك الشام، ثم امتد ملكه إلى اليمن، وخضعت له ملكة سبأ فآمنت به ودخلت في دينه، وقام بعمارة بيت المقدس، وقد ذكر الله شأن سليمان ونبوته وملكه، وأنه أوحى إليه كما أوحى إلى سائر الرسل، وأن الله فضله وأباه على أهل زمانه، وآتاه علم منطق الطير،

وسخر له الريح تجري بأمره حيث أراد، وقد سخر الله له من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه.

وقد بقيت التوراة الحقيقية محفوظة حتى عهد سليمان عليه السلام، وعقب انتهاء ملكه في مطلع القرن العاشر قبل الميلاد انقسمت مملكة بني إسرائيل في الأرض المقدسة إلى قسمين متنازعين بين أبناء سليمان الذين هم من سبط يهوذا، وحدث علو كبير منهم على سبط لاوى وبقية أسباط بني إسرائيل، وانتشر الفساد والشرك بينهم أكثر مما كان قبل عصر داود وسليمان، حتى وقع فيهم الهلاك مرتين، فسلط الله عليهم الآشورين في الوعد الأول، وسلط عليهم البابليين في المرة الثانية بقيادة بختنصر البابلي فقتلهم، وسبى نساءهم وذراريهم وهدم مسجد سليمان وأحرق التوراة، وهذا التدمير البابلي هو ما يعرف في تاريخهم بالسبي البابلي، حيث أجلاهم بختنصر عن بيت المقدس وأخذ أغلبهم سبيا إلى بابل في العراق.

- **كيف ظهرت اليهودية كديانة منحرفة عن دين موسى؟**

عاش بنو إسرائيل في المنفى أو السبي البابلي مدة طويلة، انحرفوا خلالها عن الدين الحق، وتأثروا بوثنية أسيادهم البابليين ومن جاء بعدهم، ثم احتل الفرس بابل وورثوا ممتلكاتهم، وأظهر ملك الفرس كورش تعاطفا نحو بني إسرائيل حيث سمح لهم بالعودة إلى فلسطين، ولكن الكثيرين منهم فضلوا البقاء في بابل، وعاد بعضهم على صورة جماعات تحت قيادة رجل يقال له عزرا، أو عزير كما سماه القرآن، حيث أعاد بناء مدينة أورشليم وهيكل سليمان، وقد زعم اليهود أنه أعاد التوراة المفقودة في السبي البابلي من حفظه، وأنه الذي جمع أسفار الكتاب المقدس ونظمها، وأنه مؤسس اليهودية

المتأخرة في القرن الخامس قبل الميلاد، ولذلك يلقبونه بـالكاهن الكاتب أو الوراق.

ومن ذلك الزمان اختفي ذكر الأسباط العشرة الأخرى، فمن عاد منهم إلى فلسطين اختلط بسبطي يهوذا وبنيامين، وفي ذلك الحين سُمَّي الإسرائيليون يهودا، وقد عاشت الجماعات اليهودية العائدة إلى فلسطين تحت ظل الحكم الفارسي لتلك البلاد، ومن بعده في ظل حكم الإسكندر الأكبر المكدوني اليوناني، ومن بعده حكم البطالسة المصريين التابعين لأحد قادة الإسكندر الأكبر الذين اقتسموا مملكته بعد وفاته، ثم جاء الحكم الروماني على فلسطين في القرن الأول قبل الميلاد، وفي فترة الحكم الروماني ولد وعاش عيسى بن مريم عليه السلام.

وقد حاول اليهود مرارا وتكرارا في ظل الحكومات المتعاقبة السابقة إعادة مجدهم السابق، وعزهم الزائل وحلمهم الكبير في إقامة مملكة مستقلة لليهود في فلسطين، ولكن محاولاتهم الكثيرة كانت تبوء بالفشل والندم والدم حيث تنتهي ثوراتهم بتدميرهم وقتلهم وتشريدهم عقابا لهم من الله وغضبا عليهم، لكفرهم وفجورهم وقتلهم الأنبياء والصالحين وإفسادهم في الأرض.

وعلى أثر ثورة من الثورات المتكررة التي كان يقوم بها اليهود في القرن الأول الميلادي دمّر الإمبراطور الروماني تيطس هيكل سليمان مرة ثانية، وقتل وسبى عددا كبيرا من اليهود، وفي القرن الثاني الميلادي قام اليهود بثورة أخرى زمن الإمبراطور الروماني أدريانوس الذي دمّر مدينة أورشليم، وبنى مكان الهيكل معبدا لجوبتير كبير آلهة الرومان وغيّر اسم المدينة إلى إيليا، وتخلص من اليهود بالقتل والتعذيب والتشريد والنفي ومنعهم من دخولها،

فازداد تشتت اليهود وتفرقهم في أنحاء العالم عما كانوا عليه من قبل.

وإلى هنا ينتهي تاريخ الإسرائيليين كأمة، فإنهم بعد خراب أورشليم تفرقوا في جميع بلاد الله، وتاريخهم فيما بقي من العصور ملحق بتاريخ الممالك التي توطنوها أو نزلوا فيها، وقد قاسوا في غربتهم هذه صنوف العذاب والبلاء، فإن الرومانيين حظروا عليهم دخول أورشليم. وبالرغم من تشتتهم فإن العذاب كان يحل بهم أينما حلوا، وتعرضوا لنقمة أهل البلاد التي يسكنون فيها بسبب كفرهم وفسقهم وفسادهم وإفسادهم في الأرض وإشاعتهم للفتن والرذائل، وأكل أموال الناس بالباطل، فكان عقاب الله ﷻ عليهم بأن سلّط عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ الأعراف: ١٦٧/ ١٦٨.

لقد سلط الله على اليهود الفراعنة والآشوريين والبابليين واليونانيين والبطالسة والرومان، وقطعهم في الأرض أمما متفرقين، فتفرقوا في كثير من البلدان يحملون أحقادهم في التوراة التي كتبها لهم عزير، والذي قدسوه وعبدوه وزعموا أنه ابن الله، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وكان ممن تقطع في الأرض جماعة من علمائهم كانوا يعرفون نبي آخر الزمان محمد ﷺ الذي جاء ذكره في التوراة، وجاء ذكر وصفه ووصف بلده ومبعثه ومماته، وأنه سيعلو على أعدائه، فهاجروا إلى يثرب انتظارا له لعله يعيد لهم مجدهم ودولتهم.

غير أن اليهود ظنوا أن أنبياء الله سيوافقونهم على ضلالاتهم التي دونها لهم عزرا في التوراة المحرفة، فمن مكث منهم في فلسطين تآمر على قتل عيسى عليه السلام حتى رفعه الله، ومن انتظر خاتم الأنبياء والمرسلين في يثرب، سلط الله نبيه ﷺ عليهم بعد محاولتهم قتله، فأجلى بني قينقاع وبني النضير عن المدينة النبوية، وقتل بني قريظة وحارب يهود خيبر حتى استسلموا له وصالحوه، ثم أوصى بإخراجهم من جزيرة العرب.

• اذكر نبذة عن تاريخ اليهود من بعد تفرقهم إلى قيام دولتهم؟

ظل اليهود متفرقين متقطعين في شتى البلاد يسومهم الناس سوء العذاب عقابا على أفعالهم الخبيثة في الدول الأوروبية النصرانية وغيرها، فعوقبوا في بريطانيا سنة ١٢٩٨م حينما أمر الملك ادوارد الأول بطرد اليهود من جميع البلاد البريطانية، وفتك البريطانيون باليهود فتكا ذريعا جزاء أفعالهم وخبثهم، وفي فرنسا عاقبهم الملك لويس التاسع، والملك فيليب ونكل بهم الفرنسيون وطردوهم مرات ومرات، وفي إيطاليا حاربهم بابوات الكنيسة الكاثوليكية حربا شعواء، وثار عليهم الإيطاليون سنة ١٥٤٠م فقتلوهم وطردوهم، وفي روسيا حدثت مذابح فظيعة في عهد الحكم القيصري النصراني خاصة سنة ١٨٨١م حيث قتل اليهود بالآلاف[1].

وفي ألمانيا ظل قتل اليهود قائما في القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين كعقاب لهم، وكان آخر ما لاقوه من عذاب وتقتيل وتشريد على يد هتلر النازي ابتداء من توليه الحكم في ألمانيا عام ١٩٣٣م إلى ١٩٤٥م، وهذه

---

(١) انظر بتصرف تاريخ اليهود للدكتور محمود عبد الرحمن قدح ص٣٠.

العقوبات التي وقعت على اليهود في كل البلاد التي نزلوا بها بسبب خبثهم وعقيدتهم التي يستبيحون فيها أموال غيرهم ودماءهم، وينشرون الرزيلة والفحشاء في كل مكان حلوا به، فتعرضوا لنقمة أهل البلاد التي سكنوها وغضبهم، ويستوي في ذلك تاريخهم القديم والأوسط والحديث وفي المستقبل أيضا حسب الوعيد الإلهي بأنهم يسامون العذاب إلى يوم القيامة، ويكون ذلك على يد المسلمين إن شاء الله كما ورد عند البخاري من حديث ابن عمر ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (تقاتلكم اليهود، فتسلطون عليهم، ثم يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله) [1].

وهاهم اليهود اليوم لم تقم لهم قائمة ولا دولة إلا في عصرنا الحاضر حينما تحالفت اليهودية الماكرة مع الصليبية الحاقدة التي احتلت بلاد المسلمين بجيوشها الصليبية وسعت في تشريد المسلمين وسلب أراضيهم في فلسطين، وخاصة بيت المقدس ومنحها أو بيعها لليهود، وتشجيع هجرتهم إليها من شتى بقاع الأرض لإقامة دولة غاصبة لهم في فلسطين، وقد استطاع اليهود أن يتغلغلوا في الأوساط الدينية والاجتماعية والمالية والإعلامية والسياسية في البلاد الغربية ذات النفوذ العالمي مثل بريطانيا وروسيا وفرنسا ثم أمريكا وغيرها، وأن يُسَخِّروا حكومات وشعوب تلك البلاد في تحقيق المصالح اليهودية والأهداف الصهيونية والتي كانت تلتقي دائما مع المطامع والمصالح الصليبية الغربية ضد الإسلام والمسلمين.

وقد استطاعت الدولة اليهودية التي سُميت باسم إسرائيل ترسيخ وجودها، بل توسيع أراضيها المغتصبة في المنطقة العربية الإسلامية بدعم

---

(١) البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٣/ ١٣١٦ (٣٣٩٨).

حلفائها الغربيين، وخاصة أمريكا وروسيا حيث قامت باحتلال القدس الغربية وجنوب النقب عام ١٩٤٩م، ثم احتلال القدس الشرقية والضفة الغربية، وقطاع غزه، وصحراء سيناء وهضبة الجولان عام ١٩٦٧م، وبناء المستوطنات الإسرائيلية على الأراضي المحتلة.

- **ما هي حقيقة الديانة اليهودية المعاصرة التي تتبناها إسرائيل؟**

الديانة اليهودية التي دخلت عليها الطقوس الوثنية البابلية والمصرية والكنعانية لم تكتسب صيغة الضلال النهائية إلا في زمن متأخر، أي عند كتابة التوراة البابلية بعد فقدان الألواح في الأسر البابلي، وهذا هو العصر الذي يمثل البداية الأولى للديانة اليهودية، وقد أراد الأحبار المتأخرون في كتابتهم للتوراة أن ينشئوا جسرا يصل عصورهم بين السبي البابلي ومعتقدات الدولة الفارسية من جهة، وبين العصر الذي وجد فيه موسى عليه السلام، وحاولوا أن ينكروا وجود ثغرة بينهم وبين موسى عليه السلام، ولكن هذه الثغرة بقيت طويلا، ولم يستطيعوا ردمها، ولذلك فإن جذور العلاقة بين الفرس الممثلين في إيران الآن وبين اليهود وأساليبهم جذور ضاربة في أعماق التاريخ.

لقد ظل توحيد العبادة لله معروفا وغالبا لدى اليهود، أو بني إسرائيل قبل تسميتهم باليهود فترة الخروج من مصر والدخول إلى الأرض المقدسة، وكذلك أيام حكم داود وسليمان، وإن لم تخل هذه الفترات من حدوث الشرك لدى كثير منهم كما حدث عند عبادتهم لعجل السامري أيام موسى عليه السلام، وقد كان الموحدون منهم يمثلون المسلمين المؤمنين في ذلك الزمان بفتراته المتعددة، غير أنه سرعان ما ضعف إيمانهم بالله الواحد، وانشغلوا بالشهوات والشبهات، وكان اتجاه اليهود بعد زوال أغلب المسلمين من بني

إسرائيل بموت سليمان ووقوع الخراب البابلي، كان اتجاههم يميل إلى التجسيم والتشبيه».

وقد كان اليهود في معظم أحوالهم وعلى الرغم من أنهم شعب صغير كانوا أكثر الشعوب غرورا وتعصبا لجنسهم، فهم ينظرون إلى غيرهم من الشعوب غير اليهودية نظرة التعالي والازدراء مهما كانت نشأتهم، ومهما بلغت هذه الشعوب سطوتها، أو حضارتها، أو عراقتها، أو اتساع رقعتها، وكانوا يلقبونهم كما ذكر الله تعالى بالأميين احتقارا لهم واستصغارا لشأنهم، وكانوا يعتبرون أرض هذه الشعوب نجسة، إذا مسها أو وطئها يهودي تنجس، ووجب عليه أن يبادر إلى تطهير نفسه على مقتضى أحكام الشريعة.

وسيطرت على اليهود نزعة مخيفة قادتهم إلى قسوة جنونية، وولع حقود مشبع بالقتل والشنق والذبح والخنق والرجم والحرق والتنكيل والتعذيب وتقطيع الأوصال وإبادة الناس بالجملة، وإشعال النار في المدن وإشاعة الدمار في كل مكان يقع في قبضتهم، وقد برعوا في الجاسوسية والاندساس بين الشعوب لخداعها، واستغلال ثقتها فيهم للإطلاع على أسرارها وخباياها، ثم استخدام هذه الأسرار والخبايا في السطو على هذه الشعوب والقضاء عليها، وكانوا لا يتورعون عن أن يتجسس بعضهم ضد البعض الآخر في صراعهم الذي لم ينقطع أبدا.

واشتهر اليهود في معظم عصورهم بالتمرد والعصيان وإثارة الشغب، فكانوا على الدوام يتمردون على حكامهم، سواء أكانوا يهوديا أم غير يهود، بل كانوا دائما يتمردون على شريعة ربهم ويعصون ويثورون، فلم تكن حياتهم تخلو أبدا من الخصومات والمنازعات والمشاحنات والاضطرابات

والتدمير والتخريب وإشعال النار وسفك الدماء.

• ما هي فرق اليهود القديمة وما توصيف توراتهم وكتبهم؟

تعددت فرق اليهود على مدار تاريخهم واختلفت معتقداتهم من فرقة إلى أخرى، وجميعها تحكمها الصفات العامة الخبيثة التي عليها اليهود في كل زمان ومكان وأبرزها فرقة الفريسيين وهم المتشددون ويسمون بالأحبار أو الربانيين وهم رهبانيون متصوفة لا يتزوجون، لكنهم يحافظون على مذهبهم عن طريق التبني، ويعتقدون بالبعث والملائكة واليوم الآخر. ومن فرقهم الصدقيون وتعني المكذبون، وهي تسمية من الأضداد لأنهم مشهورون بإنكار ثوابتهم، فهم ينكرون البعث والحساب والجنة والنار، وينكرون التلمود، كما ينكرون الملائكة والمسيح المنتظر.

ومنهم المتعصبون وهم في فكرهم قريبون من فكر الفريسيين، لكنهم اتصفوا بعدم التسامح وبالعداوانية، وقد قاموا في مطلع القرن الميلادي الأول بثورة كبيرة قتلوا فيها الرومان، وكذلك كل من يتعاون من اليهود مع هؤلاء الرومان، فأطلق عليهم اسم السفاكين. ومنهم فرقة الكتبة أو النساخ، عرفوا الشريعة من خلال عملهم في النسخ والكتابة، فاتخذوا الوعظ وظيفة لهم، يسمون بالحكماء، وبالسادة، وقد أثروا ثراء فاحشا على حساب مدارسهم ومريديهم. ومنهم القراءون وهم قلة من اليهود ظهروا عقب الفريسيين، وورثوا أتباعهم، لا يعترفون إلا بالعهد القديم، ولا يخضعون للتلمود، ولا يعترفون به بدعوى حريتهم في شرح التوراة.

ومنهم السامريون وهم طائفة من المتهودين الذين دخلوا اليهودية من غير

بني إسرائيل، كانوا يسكنون جبال بيت المقدس، أثبتوا نبوة موسى وهارون ويوشع بن نون، دون نبوة من جاء بعدهم، وقد ظهر فيهم رجل يقال له الألفان ادعى النبوة، وذلك قبل المسيح بمائة سنة، وقد تفرقوا إلى دوستانية وهم الألفانية، وإلى كوستانية أي الجماعة المتصوفة، وقبلة السامرين إلى جبل يقال له غريزيم بين بيت المقدس ونابلس، ولغتهم غير لغة اليهود العبرانية. ومنهم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذي دخل الإسلام ليدمره من الداخل، فهو الذي نقل الثورة ضد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ، من الافتراء بالقول والمكائد والتزوير إلى المواجهة بالسيف والحصار والتقتيل مشعلا الفتنة بين الصحابة ﷺ، وهم الذين دسوا الأحاديث الموضوعة ليدعموا بها رأيهم، فهم رواد الفتن السياسية والدينية التي أثرت في وحدة المسلمين وقوتهم.

وأما كتب اليهود فتتمثل في العهد القديم، وهو مقدس لدى اليهود والنصارى، وقد سجل فيه شعر ونثر وحكم وأمثال وقصص وأساطير وفلسفة وتشريع وغزل ورثاء، وينقسم إلى التوراة التاريخية وفيها خمسة أسفار، وهي التكوين أو الخلق، والخروج، واللاوين، والعدد، والتثنية، ويطلق عليها اسم أسفار موسى، وهي الرواية المكتوبة بعد ضياع الألواح التي نزلت من السماء على موسى ﷺ في جبل الطور، أما أسفار العهد القديم الذي يسمى بالتوراة، فأغلبها يعتريه التحريف والنقصان وسوء الترجمة.

وكذلك يحتوى العهد القديم على أسفار الأنبياء، وهي نوعان، النوع الأول أسفار الأنبياء المتقدمين وهي سفر يوشع بن نون، والقضاة، وسفر صموئيل الأول، وصموئيل الثاني، وسفر الملوك الأول، وسفر الملوك الثاني.

أما النوع الثاني فهي أسفار الأنبياء المتأخرين، كسفر أشعيا وإرميا وحزقيال وهوشع ويوئيل وغيرهم، ويحتوى العهد القديم على أسفار المزامير والزبور والأمثال، وأمثال سليمان وأيوب والمجلات الخمس وهي نشيد الإنشاد، وراعوت المرائي ومرائي إرميا، والجامعة أستير، وكذلك الكتب وهي كتب دانيال، وعزرا ونحميا، وأخبار الأيام الأول، وأخبار الأيام الثاني.

ومن كتب اليهود المقدسة التلمود وهو روايات شفوية تناقلها الحاخامات حتى جمعها الحاخام يوضاس سنة ١٥٠م في كتاب سماه المشناة، وتعني الشريعة المكررة في توراة موسى ﵇، وهي من باب الإيضاح والتفسير، وقد أتم الراباي يهوذا سنة ٢١٦م تدوين زيادات وروايات شفوية، وتم شرح هذه المشناة في كتاب آخر يسمي جمارا، ومن المشناة والجمارا يتكون التلمود. ويحتل التلمود عند اليهود منزلة مهمة جدا تزيد على منزلة التوراة، بل يعتبرونه من قديم الزمان كتابا منزلا كالتوراة ما عدا طائفة اليهود القرآئين، فإنهم لا يعتقدون ذلك، بل يرون أن التلمود هو الذي حافظ على شعب إسرائيل وصانهم أكثر من محافظتهم عليه.

ويعتبر التلمود مربي الأمة اليهودية ومعلمها، وكثير من المؤرخين والباحثين اليهود يجمعون على الإشادة بدور التلمود في الحياة اليهودية، ويعترفون بمنزلته وأثره البعيد، لكنهم يتجنبون إيراد كل إشارة من شأنها أن تبين لغير اليهود بصورة مباشرة وصريحة شيئا يسيرا عن النواحي المظلمة في تسلط التلمود وطغيانه الجائر على الحياة اليهودية طيلة قرون.

- **ما هي عقيدة اليهود التي دلت عليها كتبهم المحرفة؟**

كان بنو إسرائيل أو اليهود في عصر موسى عليه السلام مسلمين موحدين، وإن لم يظهر وقتها مصطلح اليهود، فهم كتابيون موحدون في الأصل، ويظهر منهم عبر تاريخهم الطويل فئات يتجهون إلى التجسيم والتأثر بالوثنية، واتباع الشهوات والنفعية، مما أدى إلى وجود الأنبياء فيهم بكثرة لردهم إلى جادة التوحيد، كلما أصابهم انحراف في مفهوم الإلوهية، فقد اتخذوا العجل معبودا لهم بُعيْد خروجهم من مصر، ويروي كاتب العهد القديم في افتراءاته أن موسى عليه السلام قد صنع لهم حية من نحاس، وأن بني إسرائيل قد عبدوها بعد ذلك، كما أن الأفعى مقدس لديهم لأنها تمثل الحكمة والدهاء.

أما أوصاف الإله المختلقة والمختلطة مع بقايا التوراة الصحيحة، فالإله لدى اليهود سموه يهوه، وهو ليس إلها معصوما بل يخطئ ويثور، ويقع في الندم وهو يأمر بالسرقة، وهو قاس، متعصب، مدمر لشعبه، وهو بهذا عدو للآخرين، ويزعمون أنه يسير أمام جماعة من بني إسرائيل في عمود من سحاب. وهم يعظمون عزرا الذي أعاد توراة موسى عليه السلام بعد أن ضاعت، فبسبب ذلك وبسبب إعادته بناء الهيكل سمي عزرا ابن الله، وهو الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ التوبة: ٣٠.

ومن أفكارهم ومعتقداتهم الأخرى أنهم يعتقدون بأن الذبيح من ولد إبراهيم هو إسحاق المولود من سارة، والصحيح أنه إسماعيل، ولم يرد في دينهم شيء ذو بال عن البعث والخلود والثواب والعقاب إلا إشارات بسيطة، فهذه الأمور بعيدة عن تركيبة الفكر اليهودي المادي، وعندهم أن

الثواب والعقاب إنما يتم في الدنيا، فالثواب هو النصر والتأييد، والعقاب هو الخسران والذل والاستعباد.

ويعتقدون أنهم شعب الله المختار، وأن أرواح اليهود جزء من الله، وإذا ضرب أمي إسرائيليا فكأنما ضرب العزة الإلهية، وأن الفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بمقدار الفرق بين اليهودي وغير اليهودي، ويجوز عندهم غش غير اليهودي وسرقته، وإقراضه بالربا الفاحش، وشهادة الزور ضده، وعدم البر بالقسم أمامه، ذلك أن غير اليهود في عقيدتهم كالكلاب والخنازير والبهائم، بل أن اليهود يتقربون إلى الله بفعل ذلك بغير اليهودي.

ويذكر التلمود في شأن المسيح أن يسوع الناصري موجود في لجات الجحيم بين القار والنار، وإن أمه مريم أتت به من الزنا عن طريق الخطيئة، وإن الكنائس النصرانية هي مقام القاذورات، والواعظون فيها أشبه بالكلاب النابحة، وبسبب ظروف الاضطهاد نشأت لديهم فكرة المسيح المنتظر كنوع من التنفيس والبحث عن أمل ورجاء.

وأما نظرة التلمود إلى العرب القدماء فكاتبه يراهم أمة محتقرة، وأنه من العار الزواج بعربية، وأنهم مرتكبو تسعة أعشار الجرائم في العالم، وأن صفتهم الغدر وكراهية اليهود، وقد كانوا قادة تخريب الهيكل مع بختنصر البابلي. وحسب تعاليم التلمود فإن عباد الأوثان الذين لا يعتنقون الدين اليهودي والمسيحيين والمسلمين هم في نظر اليهود أعداء الله، وأعداء اليهود، ويمنع التلمود السلام على الكفار، ويجوز أن تغشّ الغريب وتدينه بالربا الفاحش، ويجب انتزاع قلب النصراني من جسده وإهلاك علية القوم منهم، وإذا ردّ أحد اليهود إلى الغريب ما أضاعه فالرب لا يغفر له أبدا.

واليهود يضعون التلمود فوق التوراة، والحاخام فوق الله، والله يقرأ وهو واقف على قدميه، وما يقوله الحاخام يفعله الله، وتعاليم اللاهوتيين في التلمود هي أطيب من كلام الشريعة أو كلام الله، والخطايا المقترفة ضد التلمود هي أعظم من المقترفة ضد التوراة، ويعتقد كاتب التلمود أن الله يأخذ برأي الربانيين على الأرض في المشاكل التي تنشأ في السماء، وإن كلمات الربانيين أشدّ عذوبة من كلمات الأنبياء؛ لأن كلماتهم هي كلمات الله.

والتلمود مليء بطقوس السحر والشعوذة والعرافة، وطرق الاتصال بالجن، وفيه أن الأرواح الشريرة والشياطين والجنيات من ذرية آدم، وأنهم يطيرون في كل اتجاه، وهم يعرفون أحوال المستقبل باستراق السمع، وهم يأكلون ويشربون ويتكاثرون مثل الإنسان، ويجوز للناس استشارة الشيطان في آخر أيام الأسبوع.

ويعتقدون أن المسيح الذي ينتظرون ظهوره يُعيد الملك إلى إسرائيل، فتخدمه الشعوب وتخضع له الممالك، ولا يأتي ما لم ينقرض ملك الشعوب غير اليهودية، لأن السلطة على الشعوب غير اليهودية هي من نصيب اليهود فقط، وفي كل مكان يدخله اليهود يجب أن يكونوا هم المتسلطين، وطالما هم بعيدون عن تحقيق هذه الفكرة فيعتبرون أنفسهم منفيين وغرباء.

• ما هي الأدلة المنطقية على تحريف التوراة التي بأيدي اليهود؟

الأدلة على تحريف التوراة أدلة منطقية موضوعية قائمة على استقراء الواقع الذي حوته نصوص التوراة، بل شهد على هذا التحريف شهود من أهلها سواء من اليهود والنصارى، ومن أبرز الأدلة التي يمكن الاستشهاد بها

أن التوراة هي الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام في ألواح نزلت عليه من السماء في أرض سيناء، وكثير من النصوص في التوراة التي بأيديهم تدل جملة وتفصيلا على وجود ألواح كتبت بيد الله عز وجل، والسؤال الآن أين هذه الألواح التي نزلت من السماء وتلقاها موسى عليه السلام عند جبل الطور في سيناء؟

ومن أبرز الأدلة على تحريف التوارة، وجود التناقضات الصارخة القائمة فيها حتى الآن، إذ لو كانت هذه الأسفار هي كلمة الله التي نزلت على موسى عليه السلام لاستحال أن يدخلها التناقض أو الاختلاف، فعلى سبيل المثال ورد في هذه الأسفار عن بدء الخلق العديد من الاختلافات والتناقضات، ففي سفر التكوين نجد أن النور قد خلق في اليوم الأول. تكوين ١/ ٥. ثم نجد في موضع آخر أنه قد خلق في اليوم الرابع. تكوين ١: ١٦/ ١٩. وكذلك الشمس يقال في مرة إنها خلقت في اليوم الأول. تكوين ١/ ٥. ثم نجد في موضع آخر أنها خلقت في اليوم الرابع. تكوين ١/ ١: ١٩. وفي الحديث عن عمر الزمان من آدم إلى طوفان نوح نجد في التوراة العبرية ١٦٥٦ عاما، وفي النسخة اليونانية ٢٢٦٢ عاما، وفي النسخة السامرية ١٣٠٧ أعوام، فهل يجوز أن ينسب هذا الاختلاف إلى الله خالق الزمان؟

ولو تتبعنا هذه التناقضات والاختلافات لوجدنا منها المئات والمئات في كل سفر من هذه الأسفار، ويكفي أن التوراة السامرية التي ترجع إلى القرن الرابع ق.م تختلف عن النص الماسوري الحاخامي في أكثر من ستة آلاف موضع!

ومن أبرز الأدلة على تحريف التوراة شهادة علماء اليهود أنفسهم، وأولئك

الذين تخصصوا في نقد العهد القديم، ومنهم العديد من الحاخامات الذين جمع دراساتهم العالم اليهودي زالمان شازار في كتاب عنوانه تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث. وهو الكتاب الذي امتلأت فصوله وصفحاته بالشهادات اليهودية القاطعة بأن أسفار العهد القديم إنما هي ثمرة لتراكم تراث شفهي، تكوّن عبر قرون طويلة، وعصور مختلفة، وبيئات متباينة، وثقافات متمايزة، ومصادر متعددة، ومؤلفين مختلفين، ومن ثم فإن أغلب هذه الأسفار لا علاقة لها بألواح موسى عليه السلام، ولا بالبيئة الصحراوية سيناء التي نزلت فيها.

• تحدث عن نشأة الصهيونية وأهدافها اليهودية الخبيثة؟

الصهيونية منظمة يهودية مهمتها تنفيذ المخططات المرسومة لإعادة مجد بني إسرائيل، وبناء هيكل سليمان، ثم إقامة مملكة إسرائيل، ثم السيطرة من خلالها على العالم تحت ملك يهوذا المنتظر، وقد سميت بذلك نسبة إلى صهيون وهو جبل يقع جنوب بيت المقدس يقدسه اليهود، والصهيونية قرينة للماسونية إلا أن الصهيونية يهودية بحتة في شكلها وأسلوبها ومضمونها وأشخاصها، في حين أن الماسونية يهودية مبطنة تظهر شعارات إنسانية عامة، وقد ينطوي تحت لوائها غير اليهود من المخدوعين والنفعيين.

كما أن الصهيونية حركة دينية سياسية معلنة تخدم اليهود بطريق مباشر فهي الجهاز التنفيذي الرسمي لليهودية العالمية، في حين أن الماسونية حركة علمانية إلحادية سرية تخدم اليهود بطريق غير مباشر، فهي القوة الخفية التي تهيئ الأسباب والأوضاع لليهود.

والصهيونية كالماسونية ليست وليدة هذا العصر فقد مرت بمراحل كثيرة منذ القرون الأولى قبل ظهور المسيحية وبعدها، وقبل ظهور الإسلام وبعده، وكانت مهمتها في مراحلها الأولى تحريض اليهود على الانتفاضة والعودة إلى أرض فلسطين وبناء هيكل سليمان، وتأسيس مملكة إسرائيل الكبرى، وتدبير المؤامرات والمكائد ضد الأمم والشعوب الأخرى. أما الصهيونية الحديثة فقد بدأت نواتها الأولى عام ١٨٠٦م حين اجتمع المجلس الأعلى لليهود بدعوة من نابليون لاستغلال أطماع اليهود وتحريضهم على مساعدته، ثم حركة هرتزل اليهودي التي تمخضت عن المؤتمر اليهودي العالمي في بال بسويسرا عام ١٨٩٧م، والذي قرر فيه أقطاب اليهود ما يسمى ببروتوكولات حكماء صهيون، وهو المخطط اليهودي الجديد للاستيلاء على العالم، ومن هذا المؤتمر انبثقت المنظمة الصهيونية الحديثة.

وأهداف الصهيونية كحركة يهودية خالصة تقوم على شقين أو جانبين، أحدهما سياسي والآخر ديني، أما الجانب السياسي فمبني على حث سائر اليهود على التمسك بالتعاليم الدينية والعبادات والشعائر اليهودية والالتزام بأحكام الشريعة اليهودية، وإثارة الروح القتالية والعصبية الدينية والقومية بين اليهود للتصدي للأديان والأمم والشعوب الأخرى، وأما الجانب السياسي فيتلخص في إثارة الحماس الديني بين أفراد اليهود في جميع أنحاء العالم لعودتهم إلى أرض الميعاد المزعومة وهي أرض فلسطين.

- **اذكر تعريفا موجزا للماسونية وأهدافها اليهودية؟**

الماسونية كلمة تعني البنائين الأحرار، وهي منظمة يهودية سرية إرهابية غامضة محكمة التنظيم، تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم وتدعو إلى

الإِلحاد والإِباحية والفساد، وأغلب أعضائها من الشخصيات المرموقة في العالم، وتأخذ الماسونية عهدا وميثاقا عليهم بحفظ الأسرار، ويقومون بما يسمى بالمحافل للتجمع والتخطيط والتكليف بالمهام الفعالة.

والماسونية جماعة يهودية قديمة أسسها هيرودس اكريبا (ت:٤٤م) ملك الرومان بمساعدة مستشارَيه اليهوديَّيْن، وهما حيرام أبيود نائب الرئيس، وموآب لامي كاتم سر أول، قامت الماسونية منذ أيامها الأولى على المكر والتمويه والإِرهاب حيث اختاروا رموزا وأسماء وإشارات للإِيهام والتخويف، وسموا محفلهم هيكل أو أورشليم، للإِيهام بأنه هيكل سليمان، فالماسونية يهودية في تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها، فهي يهودية من البداية إلى النهاية.

أما تاريخ ظهورها فقد اختلف فيه لتكتمها الشديد، والراجح أنها ظهرت سنة ٤٣م، وسميت في عهد التأسيس القوة الخفية، وهدفها التنكيل بالنصارى واغتيالهم وتشريدهم ومنع دينهم من الانتشار، ومنذ بضعة قرون تسمت بالماسونية لتتخذ من نقابة البنائين الأحرار لافتة تعمل من خلالها، ثم التصق بهم الاسم دون حقيقته.

تلك هي المرحلة الأولى للماسونية، أما المرحلة الثانية فتبدأ سنة ١٧٧٠م عن طريق آدم وايزهاويت المسيحي الذي ألحد واستقطبته الماسونية بهدف السيطرة على العالم، وانتهى المشروع سنة ١٧٧٦م، ووضع أول محفل في هذه الفترة يسمى بالمحفل النوراني نسبة إلى الشيطان الذي يقدسونه، وقد استطاعوا خداع ألفي رجل من كبار الساسة والمفكرين، وأسسوا بهم المحفل الرئيسي المسمى بمحفل الشرق الأوسط، وفيه تم إخضاع هؤلاء الساسة

لخدمة الماسونية، وأعلنوا شعارات براقة تخفي حقيقتهم فخدعوا كثيرا من المسلمين.

وأهم الأفكار والمعتقدات التي عليها دعاة الماسونية، فتتمثل في أنهم يكفرون بالله ورسله وكتبه وكل الغيبيات ويعتبرون ذلك من قبيل الخرافات، ويعملون على احتقار الأديان والقضاء عليها، وإسقاط الحكومات الشرعية، وإلغاء أنظمة الحكم الوطنية في البلاد المختلفة والسيطرة عليها، وإباحة الجنس، واستعمال المرأة كوسيلة للسيطرة، والعمل على تقسيم غير اليهود إلى أمم متنابذة تتصارع بشكل دائم، وتسليح هذه الأطراف، وتدبير الحوادث لتقاتلها. ويعملون على بث سموم النزاع داخل البلد الواحد، وإحياء روح الأقليات الطائفية العنصرية، وهدم المبادئ الأخلاقية والفكرية والدينية، ونشر الفوضى والانحلال والإِرهاب والإِلحاد، واستعمال الرشوة بالمال والجنس مع الجميع وخاصة مع ذوي المناصب الحساسة لضمهم لخدمة الماسونية، والغاية عندهم تبرر الوسيلة.

ويعملون كذلك على إحاطة الشخص الذي يقع في حبائلهم بالشباك من كل جانب لإحكام السيطرة عليه، وتسييره كما يريدون، وهو ينفذ صاغرا كل أوامرهم، كما أن الشخص الذي يلبي رغبتهم في الانضمام إليهم يشترطون عليه التجرد من كل رابط ديني أو أخلاقي أو وطني، وأن يجعل ولاءه خالصا للماسونية، وإذا تململ الشخص أو عارض في شيء تدبروا له فضيحة كبرى، وقد يكون مصيره القتل، وكل شخص استفادوا منه، ولم تعد لهم به حاجة يعملون على التخلص منه بأية وسيلة ممكنة، كما أنهم يسعون للسيطرة على رؤساء الدول لضمان تنفيذ أهدافهم التدميرية، والسيطرة على

الشخصيات البارزة في مختلف الاختصاصات لتكون أعمالهم متكاملة، وكذلك السيطرة على أجهزة الدعاية والصحافة والإِعلام واستخدامها كسلاح فتاك شديد الفاعلية.

ولأتباعهم من حيث الانتساب للماسونية درجات ثلاث: الأولى تسمى بدرجة العُمي الصغار، والمقصود بهم المبتدئون من الماسونيين، ثم الدرجة الثانية وهي الماسونية الملوكية، وهذه درجة لا ينالها إلا من تنكر كليا لدينه ووطنه وأمته وتجرد لليهودية، ومنها يقع الترشيح للدرجة الثالثة كتشرشل وبلفور، ثم الدرجة الثالثة وهي درجة الماسونية الكونية وهي قمة الطبقات، وكل أفرادها يهود، وهم فوق الأباطرة والملوك والرؤساء لأنهم يتحكمون فيهم، وكل زعماء الصهيونية من الماسونية الكونية كتيودور هرتزل، وهم الذين يخططون لقيادة العالم.

والماسونية وراء عدد من الويلات التي أصابت الأمة الإسلامية، ووراء أغلب الثورات التي وقعت في العالم، فكانوا وراء إلغاء الخلافة الإسلامية، وعزل السلطان عبد الحميد، كما كانوا وراء الثورة الفرنسية والبلشفية والبريطانية. ولم يعرف التاريخ منظمة سرية أقوى نفوذا من الماسونية، إذ لها نفوذ واسع في العالم من خلال الزعماء الذي اصطادتهم فأصبحوا كالدمى في يدها خوفا على أنفسهم وعلى كراسيهم، ولها محافل في كل بلاد العالم تقريبا.

- **من هم يهود الدونمة وكيف أسقطوا الخلافة الإسلامية؟**

يهود الدونمة هم جماعة من اليهود أظهروا الإِسلام وأبطنوا اليهودية للكيد بالمسلمين، سكنوا منطقة الغرب من آسيا الصغرى، وأسهموا في

تقويض الدولة العثمانية، وإلغاء الخلافة عن طريق انقلاب جماعة تسمى بجماعة الاتحاد والترقي، ولا يزالون إلى الآن يكيدون للإسلام، ولهم براعة كبيرة في مجالات الاقتصاد والثقافة والإعلام وغيرها من وسائل السيطرة على المجتمعات. وهذه الجماعة تنسب إلى سبتاي زيفي ١٦٧٥م، وهو يهودي أسباني الأصل، تركي المولد والنشأة، أسسها سنة ١٦٤٨م حين أعلن أنه مسيح بني إسرائيل ومخلصهم الموعود، وقد استفحل خطر سبتاي فاعتقلته السلطات العثمانية وناقشه العلماء في ادعاءاته، ولما عرف أنه تقرر قتله أظهر رغبته في الإسلام.

وقد واصل دعوته الهدامة من موقعه الجديد كمسلم وأمر أتباعه بأن يظهروا الإِسلام ويبقوا على يهوديتهم في الباطن، وقد طلب من الدولة العثمانية السماح له بالدعوة في صفوف اليهود، فسمحت له بذلك فعمل بكل خبث واستفاد من هذه الفرصة العظيمة للنيل من الإسلام واتضح للحكومة العثمانية بعد أكثر من عشر سنوات أن إسلام سبتاي كان خدعة فنفته إلى ألبانيا ومات بها.

ويهود الدونمة عقيدتهم يهودية صرفة وبالتالي فهم يتحلون بالخصال الأساسية لليهود كالخبث والمراوغة والدهاء والكذب والجبن والغدر، وتظاهرهم بالإسلام إنما هو وسيلة لضرب الإسلام من داخله، ولهم علاقة وطيدة بالماسونية، وكان كبار الدونمة من كبار الماسونية يعملون ضمن مخططات الصهيونية العالمية.

وغالبيتهم العظمى توجد الآن في تركيا، ولا يزالون يملكون فيها وسائل السيطرة على الإعلام والاقتصاد، ولهم مناصب حساسة جدا في الحكومة،

وكانوا وراء تكوين جماعة الاتحاد والترقي التي كان أغلب أعضائها منهم، كما ساهموا من موقعهم هذا في علمنة تركيا المسلمة، وقد سخروا كثيرا من شباب المسلمين ونسائهم المخدوعات بمذهبهم لخدمة أغراضهم التدميرية.

- **ما المقصود بنوادي الليونز؟ وما علاقتها بالماسونية؟**

الليونز هي مجموعة نواد ذات طابع خيري اجتماعي في الظاهر، لكنها لا تعدو أن تكون واحدة من المنظمات العالمية التابعة للماسونية التي تديرها أصابع يهودية بغية إفساد العالم وإحكام السيطرة عليه، دعا مؤسس هذه النوادي ملفن جونس في صيف ١٩١٥م إلى فكرة إنشاء نواد تضم رجال الأعمال من مختلف أنحاء الولايات المتحدة، وكان أول نادٍ تأسس من هذا النوع في مدينة تكساس. ولقد أنشئ نادي الليونز ليكون بديلا عن النوادي السابقة في حالات انكشافها أو اضطهادها لما يتمتع به من مظهر اجتماعي إصلاحي خيري، واسم الليونز بمعنى الأسود إنما يرمز إلى القوة والجرأة، وحروف الكلمة بالإنجليزية كل حرف منها يرمز لمعنى عندهم.

ونوادي الليونز تنهى كسائر النوادي الماسونية عن المجادلة في الأمور السياسية والعقائدية الدينية، وتتظاهر بالعمل في الدعوة إلى الإخاء والحرية والمساواة والخدمات العلمية والثقافية وتشجيع تبادل الزيارات والرحلات واللقاءات، ونشر معاني الخير والتعاون بين الشعوب، وتنمية روح الصداقة بين الأفراد بعيدا عن الروابط العقدية، والاهتمام بالرفاهية الاجتماعية، وإقامة المسابقات الترفيهية وتشجيع اللقاءات وتبادل الزيارات والرحلات، ودعم المشروعات الخيرية.

وشروط العضوية في هذه النوادي لا تختلف كثيرا عن شروط العضوية في نوادي الماسونية والروتاري، لكنها تمتاز عن النوادي الماسونية بأنه يجوز لديهم بأن يمثل المهنة الواحدة أكثر من عضوين، ولا يستطيع أي شخص أن يقدم طلب انتساب إليها، إنما هم الذين يرشحونه ويعرضون عليه ذلك إذا رأوا مصلحة لهم فيه. ويشترط أن يكون العضو من رجال الأعمال الناجحين، وأن يكون مكان عمل العضو في ذات المنطقة التي فيها النادي، ويمنعون منعا باتا دخول أصحاب العقائد، ويجتذبون السيدات من زوجات كبار المسئولين، كما يسند إليهن مهمة الاتصال بالشخصيات الكبيرة، ولهن نوادٍ خاصة تسمى نوادي سيدات الليونز.

وتتشابه أندية الليونز مع أندية الروتاري في وضع نظام شبه جغرافي يقسم العالم إلى عدد من التكتلات حسب كثافة انتشار الأندية ولكل تكتل رقم خاص، ويتكون التكتل الواحد من دولة أو عدد من الدول ويسمى بالمنطقة أو المحافظة، وترتبط رئاسة كل منطقة من المناطق على مستوى العالم مباشرة بالمركز العام وتقع مجموعة الدول العربية في المنطقة رقم ٣٥٢ من تقسيم أندية الليونز.

وتتمثل خطورة هذه النوادي في نشاطاتها الخيرية الظاهرية، فهي مصيدة تخفي وراءها أهدافها الحقيقية، وهم يتسمون بالتخطيط الدقيق، ويعملون على أساس من السرية في جمع المعلومات، ويتعرفون على أسرار المهن من خلال لقاءاتهم مما يعطيهم قدرة على التحكم في السوق المحلية كما يعينهم على التدخل في الشؤون الاقتصادية للبلد، ويرددون دائما شعار الدين لله والوطن للجميع، ويقف الإسلام لديهم على قدم المساواة مع الديانات

الأخرى، سماوية كانت أم بشرية، هذا من حيث الظاهر، أما الحقيقة فإنهم يكيدون له أكثر مما يكيدون لسواه، وهم يركزون في دعواتهم ومحاضراتهم على إبراز مكانة معينة لإسرائيل وشعبها، كما يقومون بزراعة أفكار الصهيونية في عقول أعضائها، وهم يقيمون حفلات مختلطة ماجنة راقصة تحت شعار الحفلات الخيرية، ومن ثم فإن نوادي الليونز لا تخرج عن الدائرة الماسونية التي تتبع لها، فالجذور إذا واحدة، وقد أصدر المجمع الفقهي قرارا بَيَّن فيه أن مبادئ حركات الماسونية والليونز والروتاري تتناقض كليّا مع مبادئ وقواعد الإسلام.

الفصل الرابع

النصرانية والأديان الوثنية

• ما هو موقف اليهود من دعوة عيسى عليه السلام؟

أرسل الله عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل لما خرجوا عن فطرة العبودية ودين الإسلام وقد نصت الأناجيل على أن الله أرسل المسيح عليه السلام إلى بني إسرائيل ولم يرسل إلى غيرهم، والأمر واضح جدا من العهد الجديد، ولم يثبت عن المسيح أبدا في دعوته أنه حاول تبليغها لغير اليهود، فلم نسمع أنه أرسل رسلا أو رسالات في حياته إلى الملوك والأمراء والسلاطين، كما فعل نبينا محمد ﷺ مع حكام الفرس والروم ومصر والحبشة واليمن وغيرها، لأن الإسلام دين عالمي بلا منازع، وقد كان أتباع المسيح الاثنا عشر يهودا، وأتباعه من النساء والشيوخ والآخرين كلهم يهود، قال المسيح: (لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة) متى ١٥: ٢٣/ ٢٤.

ولد عيسى عليه السلام من غير أب، فلما شب ودعاهم مع يحيى إلى الإخلاص وعبادة الله تآمروا على قتله، وتذكر الأناجيل أن يحيا مات مقتولا على يد هيرودس حاكم الجليل والله أعلم بالسبب الحقيقي في مقتله، أما عيسى عليه السلام فقد رفعه الله إلى السماء بعد ما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به، وخلصه ممن أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان، فأمر الملك بقتله وصلبه فحصروه في دار ببيت المقدس، فلما حان

وقت دخولهم ألقى الله شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ممن وشى به وهو يهوذا الاسخريوطي، ورفع عيسى عليه السلام من فتحة البيت الذي كان فيه إلى السماء واختفي عن أنظار تلامذته.

ومن ثم خاطب التلاميذ يهوذا بعد إلقاء الشبه عليه ظانين أنه عيسى عليه السلام فقبض عليه الجنود واقتادوه ظانين هم أيضا أنه عيسى عليه السلام، فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له، وظن كثير من عوام النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى عليه السلام حين رفع، واعتقدوا أنه صلب، وضلوا بسبب ذلك ضلالا مبينا بعيدا، وقد ثبت أن عيسى عليه السلام ينزل إلى الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام.

- **من هو مؤسس المسيحية بشكلها الحالي المبني على الوثنية؟**

مؤسس المسيحية بشكلها الحالي المبني على الوثنية هو بولس اليهودي الذي أثر هائل في تحريف ديانة النصارى، وإن كانوا يرونه أهم من كل كتابهم ومفكريهم، وذو رأي معتبر بين جميع طوائف النصارى المنتشرة في جميع أنحاء العالم، فهو عندهم أهم الإنجيليين على الإطلاق، وقد سافر إلى أماكن عدة يبشر بالنصرانية وينشر أفكاره بين غير اليهود حتى عُرف بين اللاهوتيين باسم رسول الأمم.

ولد بولس لأبوين يهوديين في مدينة طرسوس في آسيا الصغرى أو تركيا القديمة في العام الرابع للميلاد تقريبا، ونشأ فيها من أصل عبراني خالص، وكان اسمه فيما مضى شاؤول، ثم سمى نفسه بعد تنصره بولس، وتذكر

كذلك أغلب المصادر أنه كان متعصبا لليهودية، ذو غيرة على دينه أكثر من كل أقرانه اليهود، ولا تذكر المصادر النصرانية التقاء بولس بالمسيح ﷺ على الرغم من أن بولس كان من معاصريه ﷺ. وأول ذكر لبولس فيما يتصل بالنصرانية هو شهوده محاكمة وقتل استفانوس أحد تلاميذ المسيح عام ٣٧م، ويذكر بولس أنه كان راضيا عن قتله، فقد كان يهوديا معاديا للنصرانية، بل وكان يشارك في تعذيب النصارى الأوائل فكان يسطو على الكنيسة، ويدخل البيوت ويجرّ رجالا ونساء، ويسلّمهم إلى السّجن.

ويذكر سفر أعمال الرسل أيضا تنصر بولس المفاجئ وانقلابه دون مقدمات ولا تمهيدات بعد أن رأى المسيح ﷺ بعد رفعه بسنوات، فزعم أنه بينما هو ذاهب إلى دمشق في مهمة لرؤساء الكهنة اليهود قد تجلى له المسيح ﷺ وحده دون القافلة التي كان يسير معها، فأبرق حوله نور من السماء، فسقط على الأرض وسمع صوتا قائلا له: شاؤل لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيد، فقال الرب: أنا يسوع الذي أنت تضطهده، فقال وهو مرتعد ومتحير: يا رب ماذا تريد أن أفعل؟ فقال له الرب: قم وادخل المدينة، فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل.

وذكر أن يسوع منحه حينئذ منصب الرسالة، وقد أضاف في رسالته أن عيسى هو ابن الله، وأن الله أرسل ابنه الوحيد ليخلص البشرية من خطيئة آدم، وبعد ذلك انتقل بولس إلى أورشليم القدس، وحاول أن يرافق الحواريين، غير أنهم أوجسوا منه خيفة لأفكاره الغريبة، ولماضيه المحمل بآلام النصارى وتعذيبهم، فما كانوا يصدقون أنه قد تنصر، فأخذه برنابا وقربه منهم حتى خرجوا جميعا يكرزون بديانتهم في أنحاء البلدة، وبعد ذلك

كما يزعمون وقع اختيار الروح القدس بحسب رواية سفر الأعمال على بولس وبرنابا للتبشير بين الأمم، فذهبا إلى قبرص ثم أنطاكية، ثم إلى سوريا، ثم عادا إلى أنطاكية فحدثت بينهما مشاجرة أدت إلى افتراقهما.

وبعد ذلك خرج بولس في رحلة تبشيرية عام ٥٥م إلى بلاد اليونان، وإفسوس من أسيا الصغرى ثم عاد إلى أورشليم، وكان خلال رحلته ينشئ الكنائس، ويكتب الرسائل، ويلقي الخطب والمواعظ حتى كانت رسائله أول ما كتب من العهد الجديد، وهي أساس اعتقاد النصارى بما اشتملت عليه من مبادئ في الاعتقاد بإلوهية المسيح وصلبه.

وهنا يتعجب العاقل ويسأل: كيف يتحول رجل من الكفر بديانة أو عقيدة إلى شدة الاعتقاد فيها كطفرة دون سابق تمهيد؟ فقد يحدث أن يتحول أحدهم من الكفر إلى الإيمان، فلذلك حالات كثيرة في مختلف الديانات، ولكن من الكفر الشديد إلى الدعوة إلى الدين الذي ناوأه وعاداه ثم الزعم بأنه رسول يوحى إليه أيضا! فهذه طفرة شديدة تحتاج إلى تفسير معقول، فلم يُعهد ذلك في أنبياء الله أو رسل العهد القديم، فالمعروف أن الرسل يجب أن تكون لهم مقدمات وعلامات وإعدادات لتقبل الوحي، وإذا لم يكن للرسالة إرهاصات قبل تلقيها، فلا يكون قبلها ما ينافيها ويناقضها.

- **ما هو الدليل على وقوع التحريف في الإنجيل؟**

أولا: فقدان الإنجيل الأصلي، فقد جاء المسيح عليه السلام بإنجيل كتب باللغة الآرامية، فأين هو هذا الإنجيل؟ إن العالم كله بجميع كنائسه وبكل مذاهب النصرانية فيه لا يملك نسخة واحدة من هذا الإنجيل، إنجيل المسيح عليه السلام،

والذي لدى كل الكنائس المسيحية هي أناجيل لا يُنسب واحد منها إلى المسيح، وإنما هي سير وقصص كتبها كتاب متعددون ومختلفون، ودونوا فيها ما سمعه كل واحد منهم عن ظهور المسيح، وما تحدث به، وما حدث له. من هنا فإن الإنجيل الذي جاء به المسيح والذي تحدث عنه القرآن الكريم باعتباره ذكرا أنزله الله، وفيه هدى ونور، والذي يطلب من النصارى أن يقيموا أحكامه، هذا الإنجيل لا وجود له لدى أي كنيسة من كنائس النصرانية، ولا لدى أي نصراني في هذا العالم.

ثانيا: أن الأناجيل الأربعة المشهورة والمعتمدة لدى الكنائس النصرانية الكبرى المعاصرة، اثنان منها كتبهما اثنان من الجيل التالي لجيل المسيح أي من تابعي أصحاب المسيح، فمرقس تلميذ لبطرس الحواري، ولوقا تلميذ لبولس فليسا شاهدين على ما كتبا! والإنجيل الثالث إنجيل يوحنا الذي تفرد بتأليه المسيح ترجح الدراسات المستندة إلى النقد الداخلي لنصوصه أنه قد كتب بواسطة يوحنا آخر غير يوحنا الحواري في نهاية القرن الأول الميلادي، فنحن أمام ثلاثة أناجيل من أربعة لا علاقة لها بعصر المسيح!

ثالثا: أن هذه الأناجيل قد انتقلت نصوصها وتغيرت ألفاظها مرات عديدة بالترجمات إلى العديد من اللغات، الأمر الذي باعد بين ألفاظها في هذه الترجمات وبين أصولها بعدا شديدا، وإذا كانت الترجمة مهما بلغت دقتها إنما تمثل نوعا من الحكاية عن النص الأصلي وخاصة عندما يكون النص ذا طابع شعري أو وعظي أو صوفي تكثر فيه المجازات والكنايات والاستعارات والتشبيهات كما هو حال هذه الأناجيل، فمن ذا الذي يجرؤ على الحديث عن انتفاء التحريفات والتغييرات التي أصابت هذه الأناجيل؟ وإذا كانت

الأناجيل قد مرت بمئات التغييرات في الألفاظ ومن ثم في المعاني عندما ترجمت مئات الترجمات إلى مئات اللغات الأمر الذي يفتح الباب لدراسات مقارنة لهذه الاختلافات في ألفاظها ومعانيها.

رابعا: إننا إذا نظرنا في افتتاحية إنجيل لوقا الإصحاح الأول، فنقرأ قول لوقا تلميذ بولس: (إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا، كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداما للكلمة، رأيت أنا أيضا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفليس، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به) لوقا١/ ٤. فنحن أمام نص يقول لنا إن كثيرين وليسوا أربعة فقط قد ألفوا أناجيل كثيرة هي قصص، ولوقا هذا قد كتب قصة إنجيله ليصحح الكلام الذي كتبه الكثيرون من كتّاب الأناجيل الكثيرة!. ادعى أنه هو الذي تتبع كل شيء من الأول بتدقيق رغم أنه من التابعين وليس من تلامذة المسيح عليه السلام!

وإذا كان كلام الله الذي يستحق هذا الوصف لابد أن يكون وحيا مباشرا ولا يدخل فيه التأليف البشري والإبداع الإنساني، فإن هذه الأناجيل التي كتبها بشر، والتي حفلت بالعديد من الاختلافات والتناقضات لا يمكن أن تكون وحيا إلهيا، وإلا لجاز لنا في الإسلام أن نطلق وصف الوحي وكلام الله على آلاف الكتب التي ألفت في سيرة رسولنا عليه الصلاة والسلام.

خامسا: من الأدلة على تحريف الأناجيل الاختلافات والتحريفات والتناقضات وحتى الشكوك في حقيقة كُتاب الأناجيل فلقد جاء في دائرة المعارف البريطانية، وهي أوثق وأشهر دوائر المعارف في العالم المسيحي جاء عن هذه الأناجيل الأربعة، إن كون متى هو مؤلف هذا الإنجيل أمر مشكوك

فيه، وإنجيل مرقس في أفضل المخطوطات، تعتبر بعض الأسفار إضافات متأخرة والأعداد الأخيرة فيه غير موجودة في بعض المخطوطات، وإنجيل لوقا تقول عنه الموسوعة البريطانية إن مؤلف هذا الإنجيل يظل مجهولا، إنجيل يوحنا هو الإنجيل الوحيد الذي ينص على إلوهية عيسى وهذا يعارض الأناجيل الأخرى.

سادسا: أن الأصول الأولى لكل الأناجيل المشهورة والمعتمدة عند الكنائس المسيحية قد فقدت، وأقدم المخطوطات لهذا الأناجيل الحالية يفصل بينها وبين المسيح وعصر من نسبت إليهم هذه الأناجيل ما يقرب من ثلاثمائة عام، وبشهادة الموسوعة البريطانية: فإن جميع النسخ الأصلية للعهد الجديد التي كتبت بأيدي مؤلفيها الأصليين قد اختفت، وأن هناك فاصلا زمنيا لا يقل عن مائتين أو ثلاثمائة سنة بين أحداث العهد الجديد وتاريخ كتابة مخطوطاته الموجودة حاليا[1].

سابعا: إذا كان فقد المخطوطات الأصلية للأناجيل واختفائها ووجود فجوة زمنية تبلغ مئات السنين بين الأصول الأولى وبين المخطوطات التي أخذت عنها هذه الأناجيل الحالية لا يكفي دليلا للتحريف عند النصارى، فإن هناك أكثر من مائة وخمسين ألفا من مواضع الاختلاف بين المخطوطات التي طبعت منها الأناجيل المتداولة الآن، وهذه الاختلافات ليست بين مخطوطات الأناجيل المختلفة فقط، بل في مخطوطات الإنجيل الواحد، وبنص عبارة الموسوعة البريطانية: فإن جميع نسخ الكتاب المقدس قبل عصر الطباعة تظهر اختلافات في النصوص، وإن مقتبسات آباء الكنيسة من كتب العهد

(١) دائرة المعارف البريطانية ٢/ ٩٤١.

الجديد والتي تغطيه تقريبا، تظهر أكثر من مائة وخمسين ألفا من الاختلافات بين النصوص[1].

• بين كيف أن دين النصارى قائم على الطعن في ذات الله؟

ذكر ابن القيم أن النصارى يعتقدون أن رب السموات والأرض تبارك وتعالى نزل عن كرسي عظمته وعرشه ودخل في فرج امرأة تأكل وتشرب وتبول وتتغوط وتحيض فالتحم ببطنها، وأقام هناك تسعة أشهر بين البول ودم الطمث، ثم خرج منها يصرخ، وكلما بكى ألقمته أمه ثديها، ثم انتقل إلى المكتب بين الصبيان، ثم آل أمره إلى لطم اليهود لخديه، وصفعهم قفاه، وبصقهم في وجهه، ووضعهم الشوك على رأسه استخفافا به، وانتهاكا لحرمته، ثم قربوه من مركب فشدوه عليه، وربطوه بالحبال وسمروا يديه ورجليه، وهو يصيح ويبكي ويستغيث من حر الحديد، وألم الصلب.

ومع هذا كله يتولى تدبير السماوات والأرض، وقسم الأرزاق والآجال، ولكن اقتضت حكمته ورحمته أن يمكن أعداءه من نفسه لينالوا منه ما نالوا، فيستحقوا بذلك العذاب والسجن في الجحيم، ويفدي أنبياءه ورسله وأولياءه بنفسه، فيخرجهم من سجن إبليس، فإن روح آدم وإبراهيم ونوح وسائر النبيين عندهم كانت في سجن إبليس حتى خلصها من سجنه بتمكينه أعداءه من صلبه.

وأما قولهم في مريم فإنهم يقولون إنها أم المسيح ابن الله في الحقيقة، ووالدته في الحقيقة، لا أم لابن الله إلا هي، ولا والدة له غيرها، ولا أب لابنها

(١) المصدر السابق ٢/ ٩٤١.

إلا الله، ولا ولد له سواه، وأن الله اختارها لنفسه، ولولادة ولده وابنه من بين سائر النساء، ولو كانت كسائر النساء لما ولدت إلا عن وطء الرجال لها، ولكن اختصت عن النساء بأنها حبلت بابن الله وولدت ابنه الذي لا ابن له في الحقيقة غيره، ولا والد له سواه، وأنها على العرش جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى، والد ابنها، وابنها عن يمينه.

والنصارى يدعونها ويسألونها سعة الرزق، وصحة البدن، وطول العمر، ومغفرة الذنوب، وأن تكون لهم عند ابنها ووالده الذي يعتقد عامتهم أنه زوجها، ولا ينكرون ذلك عليهم، ويقولون في دعائهم: يا والدة الإله اشفعي لنا، وهم يعظمونها ويرفعونها على الملائكة وعلى جميع النبيين والمرسلين، ويسألونها ما يسأل الإله من العافية والرزق والمغفرة.

والراهب والقسيس يغفر ذنوبهم، ويطيب لهم نسائهم، وليس عند النصارى على من زنا أو لاط أو سكر حد في الدنيا أبدا، ولا عذاب في الآخرة، لأن القس والراهب يغفره لهم، فكلما أذنب أحدهم ذنبا أهدى للقس هدية، أو أعطاه درهما، أو غيره ليغفر له به، وإذا زنت امرأة أحدهم بيتها عند القس ليعاشرها فتطيب له، فإذا انصرفت من عنده وأخبرت زوجها أن القس طيبها قبل ذلك منها، وتبرك به"[1].

• ما هي أفضل الطرق للمقارنة الإيجابية بين الإسلام والنصرانية؟

أفضل الطرق للمقارنة الإيجابية بين الإسلام والنصرانية تتبع نصوص الوحي في الإسلام ومقارنتها بنصوص الكتاب المقدس عند النصارى، فكثير

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم ص١٣٩ .

من القساوسة والرهبان يعرفون محمدا ﷺ بالدليل والبرهان كما يعرفون أبناءهم، وأنه رسول الله حقا وصدقا، وأنه نبي آخر الزمان إلزاما وحتما، بل ينتاب القارئ شعور غريب وإحساس عجيب عندما يرى أن النصين قد نزلا من السماء وخرجا من مشكاة واحدة، وأن محاولات التغيير وطمس الحقيقة أمر يعتري الكتب السابقة على الوحي الإسلامي.

لقد كان معلوما من حال محمد ﷺ أنه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ، وكذلك كان معروفا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بكتاب معجز، أخبر فيه عما وقع وحدث من عظائم الأمور ومهمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه، ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم، فقد كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار وحملة الأخبار، ولا مترددا إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه علم الوحي ، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ العنكبوت:٤٨/ ٤٩.

وعلى فرض صحة إدعاء الزاعمين لو زعم أحدهم أن جميع النسخ العربية للكتاب المقدس كانت بين يدي النبي محمد ﷺ كما هي الآن، أو قل إن شئت جميع نسخ الكتاب المقدس بلغاتها الأصلية ومترجمة له بكل لغات العالم لغة لغة، فإن ما جاء به أعلم وأكمل، وأدق وأشمل، وأعظم وأجمل، وأعلى وأفضل من أصله الذي نقل عنه، هذا لو فرضنا في قول الزاعم صحة زعمه، فعند نظر العاقل ومقارنته يقول المقارنون في شأنه: شتان ثم شتان .

ولو صح جدلا أن محمدا ﷺ لم يكن نبيا، وأنه كان شخصا عاديا اشتهر عبر التاريخ عند كثير من الناس، ثم جاءنا بما هو أكمل وأجمل وأحكم وأفضل مما في الكتاب المقدس الذي بين أيدينا، فهل استطاع أحد أو يستطيع أن يأتي بمثله، وهو ينظر بعينه إلى الكتاب المقدس بجميع نسخه واختلاف مواضعه وتنوع لغته؟ وإن جاء، ونحن على يقين من عجزه، فعند نظر العاقل ومقارنته سوف يقول المقارنون في شأنه: شتان ثم شتان .

ولو صح جدلا أن محمدا ﷺ لم يكن نبيا، وأنه كان شخصا عاديا اشتهر عبر التاريخ عند كثير من الناس، ثم جاءنا بما هو أعلم وأكمل وأحكم وأجمل وأظهر وأفضل مما في الكتاب المقدس الذي بين أيدينا، فلو كان في إمكان الشخص العادي أن يأتي بكلام تشريعي بلاغي يقول فيه المقارنون في شأنه: شتان ثم شتان، فإن لم يكن محمدا ﷺ بما قاله وجاء به نبيا، وكان على صحة زعمهم شخصا عاديا، فغيره لم يكن نبيا أبدا من باب أولى، لعجز بيانهم وكمال بيانه، واختلاف كلامهم ودقة برهانه.

- **ما هو الكتاب المقدس عند النصارى على اختلاف طوائفهم؟**

الكتاب المقدس عند النصارى على اختلاف طوائفهم هو حسب اعتقادهم ذلك الكتاب الذي يتكون من التوارة التي نزلت على موسى عليه السلام، والأناجيل التي نزلت على عيسى عليه السلام، وكذلك وحي الله إلى الأنبياء الذين أرسلوا للناس ما بين عيسى موسى عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم.وموقف النصارى من كتابهم المقدس أنهم يرونه بعهديه القديم والجديد كلمة الله للناس أجمعين، لم يعتريها كما يزعمون أي تحريف يذكر، وحجتهم الأساسية في ذلك أن الله لا يمكن أن يترك كتابه ليحرفه الناس،

وهي حجة مردودة لأنها قائمة على الاحتجاج بالمشيئة الإلهية.

غير أنهم يعتقدون في كتابهم الكائن حتى الآن أنه معصوم من التحريف، وأنه بجميع ما فيه جاء من مصدر سماوي محض، وأن الله بين فيه أسماءه وأوصافه وأفعاله وتشريعاته وما أحدثه في الأمم الغابرة، ويعتقدون أن الله واحد مثلث، وأن وحدانية الله جامعة لثلاثة ذوات منفصلة عند الكاثوليك والبروتستانت، أو متصلة متقلبة متغيرة متلونة عند الأرثوذكس، وهم أب وابن وروح قدس.

والكتاب المقدس بحاله المطبوع في يومنا هذا يتكون من قسمين: القسم الأول ويسمى بالعهد القديم، وهو يحتوي التوراة، وأسفار تاريخية وغيرها، كسفر الخروج، واللاويين، وسفر العدد، وسفر التثنية، والأسفار التاريخية كسفر يشوع، والقضاة وراعوث، وصموئيل الأول والثاني، وملوك الأول والثاني، وأخبار أيام الأول والثاني، وعزرا، ونحميا، وأستير. أما الجزء الثاني فيسمى بالعهد الجديد، ويحتوي على أربعة أناجيل، هي التي تم اعتمادها من قبل مجامع النصرانية التي عقدت بعد رفع المسيح بمدة طويلة، وهي إنجيل متى، وإنجيل مرقص، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا.

- **ما المقصود بالربوبية في الكتاب المقدس عند النصارى؟**

دل الكتاب المقدس على المعنى اللغوي الربوبية وليس على معنى الأبوة التي فهمها القساوسة فالرب يراد به السّيِّد المدبّر الحاكم والمربِّي والقائد الموجه؛ فرب الإبل ورب الدار؛ أي مالكها ومدبرها وحاكمها وسيدها، وهذا يصدق على المخلوق ويصدق على الخالق، وقد ضل النصارى في معنى

قولهم: الرب يسوع، لأن المقصود به في لغة من ترجم الكتاب المقدس السيد الموصوف بالسيادة والقيادة لبني إسرائيل، فهو موجه لهم ومدبر لشئونهم بالروح القدس، وحاكم فيهم بكلمة الله، ومربيهم على طاعة ربه، وحامل رايتهم إلى سبل السلام، وليس عيسى عليه السلام ربا موصوفا بخصائص الربوبية التي انفرد بها الرب الخالق العلي الذي فوق السماء الإله العلي المتعالي جِدًّا، القُدُّوس القادِرُ على كل شيْءٍ، الذي يُغيِّرُ الأوْقات والأزْمنة، ويعْزِل ملوكا، ويُنصِّبُ ملوكا، ويُعْطي الحُكماء حِكمةً، ويُعلم العارِفِين فهْما، وله كل ما فِي السّموات والأرْضِ.

وقد ورد بالدليل القاطع في الكتاب المقدس عندهم أن اسم يسوع ليس اسما من أسماء الله الحسنى، ولا الابن، ولا الأب، ولا الروح القدس، وأن مصطلح الأب في جميع نصوصه التي ورد فيها في الكتاب المقدس يطلق في الأصل على الإنسان، ولو ذكر في حق الله الرب الأعلى الإله فإنه يقال من باب قياس الأوْلى وإضافة اسم المخلوق لخالقه لإدراك معنى الرعاية والإحاطة بكل معانيها من حفظ ومعية وتدبير، وحكمة وهداية وتقدير.

وكذلك مصطلح الابن في الكتاب المقدس يطلق في الأصل على الذكر من ولد الإنسان، ولو ذكر في حق الرب الإله الأعلى فإنه يقال من باب قياس الأوْلى لإدراك معنى الولاية الخاصة لأحباب الله وخاصته من الأنبياء والأولياء والمؤمنين الصالحين وسائر عباده المقربين، وهو مثل بلاغي تقريبي لبيان أن مقدار الولاية والمحبة أعظم من محبة الأب لابنه، وأعظم من ولايته له بكل أنواع الإحاطة والرعاية من باب قياس الأولى، وجميع الشواهد المذكورة في الكتاب المقدس في ذكر البنوة تدل جميعها على أن المقصود بأبناء الله في النصوص هم أهل الإيمان

الأتقياء الأصفياء أتباع الرسل والأنبياء، وأن البنوة المعنية في الكتاب المقدس ليست مقصورة على شخص بعينه سواء كان نبيا، أو وليا ، أو فردا مؤمنا، بل يراد بها ولاية العبودية والتأدب بمنهج الله وأحكامه الشرعية، وأنها ليست بنوة ولادة عن الله انفصلت فيها ذات الابن عن ذات الأب كإقنوم خرج منفصلا عن أقنوم، أو أقنوم ناسوتي انفصل عن أقنوم لاهوتي، فهذا من سوء الفهم وضلال العقل لدى الكتبة والمترجمين .

وقد ورد في الكتاب المقدس أن يعقوب عليه السلام وبنيه أو بني إسرائيل هم أبناء الله وأحباؤه، وتلك البنوة بمعنى الرعاية والمعية الخاصة لمن وحد الله وصدّق ربه في باب الخبر، وأطاعه فيما أمر، وليست بنوة ولادة وأقانيم منفصلة، وكذلك ورد أن سليمان هو ابن الله أيضا كما أن يسوع هو ابن لله، وأن الله أب لسليمان كما أن الله أب ليسوع، ومن فرق بينهما فقد فرق بين متماثلين كانا يأكلان الطعام، فعلم أن البنوة التي وردت في نصوص الكتاب المقدس بأسرها هي في أصلها تعبير بلاغي فهمه من فهمه على غير ما هو في أصل اللغة التي نزل بها الكتاب المقدس، وذلك يعد من أخطاء المترجمين، وهي ليست أبدا بنوة ولادة يأخذ فيه المولود خصائص أزلية أبدية كخصائص الذات الإلهية.

وكذلك فإن المراد بالروح القدس في الكتاب المقدس هو الملك الذي ينزل بالوحي من السماء، وينقل كلمة الله وأوامره بدقة وأمانة إلى الرسل والأنبياء، ويتولى تنفيذ ما أمر الله به في بعض خلقه الأصفياء، وجميع النصوص في الكتاب المقدس تدل على أن الروح القدس ليس هو الله، وليس اسما من أسماء الله، وقد بينا الأدلة في ذلك مفصلة.

إن التعميد باسم الآب والابن والروح القدس كان يمثل في الأصل الإيمان

بالله وملائكته وما أنزلته من كتب الله على رسله، وقولهم: باسم الآب والابن والروح القدس، إنما هو كقول القائل في خطابه: باسم الشعب وباسم الوطن وباسم الأمة، وهو يعني أنه يتكلم بالنيابة عنهم وينقل للآخرين مرادهم، ويبين للجميع توجههم، ومن ثم فإن التعميد الذي ورد في إنجيل متى في الدعوة لأتباع عيسى عليه السلام أن يذهبُوا ويتلمذوا جميع الأُمم، ويعمدُوهُم باسْم الآب والاِبْن والرُّوحِ القُدُس إنما هو النطق بشهادة العبودية الحق وعبادة المعبود بحق من خلال الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وكان تعميده يعني أن يشهد الإنسان أنه عقد في قلبه عقدا يعظم فيها ربه تعظيما يدفعه إلى تصديق خبره وتنفيذ أمره عن محبة وإخلاص، ومتابعة للرسل والأنبياء الذين جاءوا بكلمة الله وكتبه المقدسة، والدعوة إلى كلمة الله التي بين فيها أمور الجزاء والحساب في اليوم الآخر كحجة عليهم نقلها إليهم ولي الله وكلمته وصفيه وحبيبه ونبيه وعبده ورسوله عيسى عليه السلام، ونقلها عيسى عن الروح القدس أو سيد نقلة الوحي من الملائكة وهو جبرائيل، ونقلها روح القدس عن الله.

وليس المقصود باسم الأب والابن والروح القدس التثليث الذي يزعم فيه القساوسة أن الله ثالث ثلاثة، أو أنه ذات مثلثة الصفات، هكذا عند الإنصاف والتجرد يفهم العقلاء حقا المراد بمعنى اسم الأب، واسم الابن، واسم الروح القدس في قول الكتاب المقدس عند النصارى: (فاذهبُوا إذن، وتلمذوا جميع الأُمم، وعمدُوهُم باسْم الآب والابْن والرُّوحِ القُدُسِ) متى٢٨/١٩.

• عرف تعريفا موجزا بالديانة الفرعونية القديمة؟

الديانة الفرعونية من أقدم الديانات التي امتدت في التاريخ قبل سبعة آلاف سنة قبل الميلاد، واعتقد المصري القديم أن السماء نوت والأرض جيب

ولدت من زواج إلهين هما شو وتفنوت، ومن زواج السماء والأرض ولد أربعة آلهة، هم أوزوريس وسيت وإيزيس ونفتيس؛ فتزوج الإله أوزوريس من إيزيس، و الإله سيت من نفتيس، وقد أنجبت إيزيس الإله حوروس، أما سيت فكان عقيما لا ينجب.

وبعد فترة قتل الإله سيت أخاه الإله أوزوريس وقطع جسده إلى أربع عشرة قطعة وزعها في جميع أرجاء مصر، ولكن إيزيس عثرت عليها وجمعتها، ونفخت فيها الحياة، فقام الإله من بين الأموات، ولكن الإله أوزوريس قرر مغادرة الأرض والصعود إلى السماء، وهناك رحب به رهط الآلهة وأعطوه سلطة مطلقة على عالم الموت، فصار قاضيا في العالم الأسفل يحاسب الموتى على ما قدمت أيديهم في الحياة الدنيا، أما أخاه سيت فقد حول نشاطه العدواني إلى حوروس الذي ورث عرش أبيه، وابتدأت جولات لا تنتهي من الصراع بين الطرفين.

واعتقد المصري القديم أن الإنسان بعد الموت سينال حقلا في إقليم ما، يشبه ما هو في مصر، ويخترقه نهرٌ يشبه النيل، أما بعد بناء الأهرام فقد اعتقد أنه سيخلد بعد الموت خلودا سرمديا على هيئة إله، وسوف يتحول كل عضو من أعضاء المرء إلى رب قائم بذاته، أو عضوا في جسد إله معين على أي صورة كائنة في الطبيعة.

ومن هنا ظهر تعدد الآلهة عند المصريين القدماء، فجعلوا العجل أبيس إلها لخصوبة الأرض، وجعل قرص الشمس بأشعة تنتهي بيد آدمية تمسك مفتاح الحياة الإله آتون، وقد عبده أخناتون وجعله الإله الأوحد، وجعلوا صورة الكبش أو الإوزة الإله آمون ملك الآلهة، وجعلوا كلب جالس على

قاعدة الإله أنوبيس حامي وحارس الجبانة، وجعلوا رجلا يعلو رأسه تاج مكون من أربع ريشات الإله أنوريس، ويعني اسمه الذي يحضر البعيدة، وجعلوا امرأة تحمل علامة العرش على رأسها، أو تلبس تاج عبارة عن قرنين بينهما قرص الشمس الإله إيزيس الساحرة.

وقد صدق فيهم قول الله تعالى عن يوسف عليه السلام وهو في مصر حين كان في السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ يوسف:٣٩/ ٤٠.

- **من هم الصابئة المندائية وما عقيدتهم بين القديم والحديث؟**

تعد الصابئة المندائية من أقدم الديانات التي تعتقد بأن الخالق واحد وهي بهذا الوصف تعتبر من الديانات السماوية، ويعتبر أتباعها أتباع دين كتابي، والصابئة المندائية هي طائفة الصابئة الوحيدة الباقية إلى اليوم والتي تعتبر يحيى عليه السلام نبيّا لها، وقد انحرفت عن دعوة يحيى عليه السلام فأصحابها يقدّسون الكواكب والنجوم ويعظمونها، ويعتبر الاتجاه نحو نجم القطب الشمالي، وكذلك التعميد في المياه الجارية من أهم معالم هذه الديانة التي يجيز أغلب فقهاء المسلمين أخذ الجزية من معتنقيها أسوة باليهود والنصارى.

والصابئة المندائية يدّعون بأن دينهم يرجع إلى عهد آدم عليه السلام، وأنهم ينتسبون إلى سام بن نوح عليه السلام، ويزعمون أن يحيى عليه السلام هو نبيهم الذي أرسل إليهم، كانوا يقيمون في القدس، وبعد الميلاد طردوا من فلسطين فهاجروا إلى

مدينة حران، فتأثروا هناك بمن حولهم، وتأثروا بعبدة الكواكب والنجوم من الصابئة الحرانيين، ومن حران هاجروا إلى موطنهم الحالي في جنوبي العراق وإيران، وما يزالون فيه، حيث يعرفون بصابئة البطائح، منهم الكنزبرا الشيخ عبد الله بن الشيخ سام الذي كان مقيما في بغداد سنة ١٩٦٩م، وهو الرئيس الروحي لهم، وقد كان في عام ١٩٥٤م يسكن في دار واقعة بجوار السفارة البريطانية في الكرخ ببغداد.

والصابئة لديهم عدد من الكتب المقدسة مكتوبة بلغة سامية قريبة من السريانية، وهي الكنزاربا أي الكتاب العظيم، ويعتقدون بأنه صحف آدم عليه السلام، فيه موضوعات كثيرة عن نظام تكوين العالم، وحساب الخليقة وأدعية وقصص، وتوجد في خزانة المتحف العراقي نسخة كاملة منه، وقد طبع في كوبنهاجن سنة ١٨١٥م.

ومواقع نفوذ الصابئة المندائية الحالية كائنة على الضفاف السفلى من نهري دجلة والفرات، ويسكنون في منطقة الأهوار وشط العرب، ويكثرون في مدن العمارة والناصرية والبصرة وقلعة صالح والحلفاية والزكية وسوق الشيوخ والقرنة، وهي موضع اقتران دجلة بالفرات، وهم موزعون على عدد من الألوية مثل لواء بغداد، والحلة، والديوانية والكوت وكركوك والموصل، كما يوجد أعداد مختلفة منهم في ناصرية المنتفق والشرش ونهر صالح والسليمانية، كذلك ينتشرون في إيران، وتحديدا على ضفاف نهر الكارون، ويسكنون في مدن إيران الساحلية، كالمحمرة، وناصرية الأهواز وششتر ودزبول.

وقد تهدمت معابدهم في العراق، ولم يبق لهم إلا معبدان في قلعة صالح، وقد بنوا معبدا بجوار المصافي في بغداد، وذلك لكثرة الصابئين النازحين إلى

هناك من أجل العمل، ويعمل معظمهم في صياغة معدن الفضة لتزيين الحلي والأواني والساعات وتكاد هذه الصناعة تنحصر فيهم لأنهم يحرصون على حفظ أسرارهما كما يجيدون صناعة القوارب الخشبية والحدادة وصناعة الخناجر، ومهاراتهم في صياغة الفضة دفعتهم إلى الرحيل للعمل في بيروت ودمشق والإسكندرية، ووصل بعضهم إلى إيطاليا وفرنسا وأمريكا، وليس لديهم أي طموح سياسي، وهم يتقربون إلى أصحاب الديانات الأخرى بنقاط التشابه بينهم وبين الآخرين.

• عرف بالديانة الهندوسية البرهمية التي يعتنقها أهل الهند؟

الهندوسية ويطلق عليها أيضا البرهمية ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند، وهي مجموعة من العقائد والعادات والتقاليد التي تشكلت عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر، فهي ديانة تضم بعض القيم الروحية والخلقية إلى جانب المبادئ القانونية والتنظيمية، متخذة عدة آلهة بحسب الأعمال المتعلقة بها، فلكل منطقة إله، ولكل عمل أو ظاهرة إله. ولا يوجد للديانة الهندوسية مؤسس معين، ولا يعرف لمعظم كتبها مؤلفون معينون، فقد تمّ تشكل هذه الديانة، وكذلك الكتب المقدسة لديهم عبر مراحل طويلة من الزمن، ويعتبر الآريُّون الغزاة الذين قدموا إلى الهند في القرن الخامس عشر قبل الميلاد هم المؤسسون الأوائل للديانة الهندوسية، أما ديانة الفاتحين الجديدة، فلم تمح الديانة القديمة للهنود، بل مازجتها وتأثرت كل منهما بالأخرى.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد تطورت الهندوسية على أيدي الكهنة البراهمة الذين يزعمون أن في طبائعهم عنصرا إلهيّا، ثم تطورت مرة أخرى في القرن

الثالث قبل الميلاد عن طريق قوانين منوشاستر.

وأما أهم الأفكار والمعتقدات فللهندوسية عدد هائل من الكتب العسيرة الفهم والغريبة اللغة، وقد ألفت كتب كثيرة لشرحها، وأخرى لاختصار تلك الشروح، وكلها مقدسة وأهمها كتاب الفيدا، والفيدا هي كلمة سنسكريتية معناها الحكمة والمعرفة، وهي تصور مدارج الارتقاء للحياة العقلية من السذاجة إلى الشعور الفلسفي، وفيه أدعية تنتهي بالشك والارتياب، كما أن فيه تأليها يرتقي إلى وحدة الوجود، والفيدا تتألف من أربعة كتب فرعية هي رج فيدا أو راجا فندا، أي الفيدا الملكية، وترجع إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، فيها ذكر لإله الآلهة إنذار، ثم لإله النار أغني، ثم الإله فارونا، ثم الإله سوريه إله الشمس.

أما الكتاب الفرعي الثاني فيسمى يجور فيدا، وهو كتاب يتلوه الرهبان عند تقديم القرابين، والثالث سم فيدا، وينشدون أناشيده أثناء إقامة الصلوات والأدعية، والرابع أثروا فيدا، وهو عبارة عن مقالات من الرقي والتمائم لدفع السحر والتوهم والخرافة والأساطير والشياطين، وكل واحد من هذه الفيدات يشتمل على أربعة أجزاء فرعية أخرى، فيها أدعية وصلوات وأسرار ومشاهدات نفسية للعرفاء من الصوفية.

ولهم كتاب اليوجا ويحتوي على أربعة وستين ألف بيت، ألف ابتداء من القرن السادس عبر مرحلة طويلة على أيدي مجموعة من الناس، فيها أمور فلسفية ولاهوتية، وكذلك كتاب راما يانا، ويعتني هذا الكتاب بالأفكار السياسية والدستورية، وفيه خطب لملك اسمه راما، جعلوه إلها وعبدوه.

والهندوسيون إذا أقبلوا على إله من الآلهة ككرشنا أو راما أو غيرهما أقبلوا عليه بكل جوارحهم حتى تختفي عن أعينهم كل الآلهة الأخرى، وعندها يخاطبونه برب الأرباب أو إله الآلهة، ويقولون بأن لكل طبيعة نافعة أو ضارة إلها يُعبد كالماء والهواء والأنهار والجبال، وهي آلهة كثيرة يتقربون إليها بالعبادة والقرابين. وقد ظهرت عقيد التثليث في القرن التاسع قبل الميلاد، حيث جمع الكهنة الآلهة في إله واحد الذات مثلث الصفات، أخرج العالم من ذاته فهو براهما من حيث هو موجود، فشنو من حيث هو حافظ، سيفا من حيث هو مهلك، ومن يعبد أحد الآلهة الثلاثة فقد عبدها جميعا، أو عبد الواحد الأعلى، ولا يوجد أي فارق بينها، وهم بذلك قد فتحوا الباب أمام النصارى للقول بالتثليث.

ويلتقي الهندوس على تقديس البقرة، وأنواع من الزواحف كالأفاعي وأنواع من الحيوان كالقردة، ولكن تتمتع البقرة من بينها جميعا بقداسة تعلو على أي قداسة، ولها تماثيل في المعابد والمنازل والميادين، ولها حق الانتقال إلى أي مكان، ولا يجوز للهندوسي أن يمسها بأذى أو يذبحها، وإذا ماتت دفنت بطقوس دينية معينة.

ويعتقد الهندوس أن آلهتهم قد حلت كذلك في إنسان اسمه كرشنا وقد التقى فيه الإله بالإنسان، أو حل اللاهوت في الناسوت، وهم يتحدثون عن كرشنا كما يتحدث النصارى عن المسيح، وقد عقد الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله مقارنة بينهما مظهرا التشابه العجيب، بل التطابق، وعلق في أخر المقارنة قائلا: وعلى المسيحيين أن يبحثوا عن أصل دينهم. ومنذ أن وصل الآريون إلى الهند شكّلوا طبقات ما تزال قائمة إلى الآن، ولا طريق لإزالتها

لأنها تقسيمات أبدية من خلق الله كما يعتقدون.

وحسب قوانين منو الذي وضع طقوس الديانة الهندسوية في القرن الثاني والثالث قبل الميلاد، فقد جعل الناس على طبقات منهم البراهمة، وهم الذين خلقهم الإله براهما من فمه، فمنهم المعلم والكاهن والقاضي، ولهم يلجأ الجميع في حالات الزواج والوفاة، ولا يجوز تقديم القرابين إلا في حضرتهم، ثم الكاشتر وهم الذين خلقهم الإله من ذراعيه، ويتعلمون ويقدمون القرابين ويحملون السلاح للدفاع، ثم الويش وهم الذين خلقهم الإله من فخذه يزرعون ويتاجرون ويجمعون المال، وينفقون على المعابد الدينية، ثم الشودر وهم الذين خلقهم الإله من رجليه، وهم مع الزنوج الأصليين يشكلون طبقة المنبوذين، وعملهم مقصور على خدمة الطوائف الثلاث السابقة الشريفة، ويمتهنون المهن الحقيرة والقذرة، ويلتقي الجميع على الخضوع لهذا النظام الطبقي بدافع ديني.

وقد كانت الديانة الهندوسية، تحكم شبه القارة الهندية وتنتشر فيها على اختلاف في التركيز، ولكن البون الشاسع بين المسلمين والهندوس في نظرتيهما إلى الكون والحياة وإلى البقرة التي يعبدها الهندوس ويذبحها المسلمون ويأكلون لحمها؛ كان ذلك سببا في حدوث التقسيم حيث أعلن عن قيام دولة الباكستان بجزأيها الشرقي والغربي والتي معظمها من المسلمين، وبقاء دولة هندية معظم سكانها هندوس، والمسلمون فيها أقلية كبيرة.

- **ما حقيقة الديانة الشنتوية التي يعتنقها اليابانيون حتى الآن؟**

الشنتوية ديانة وضعية اجتماعية ظهرت في اليابان منذ قرون طويلة، ولا

زالت الدين الأصيل فيها، وقد بدأت بعبادة الأرواح، ثم قوى الطبيعة، ثم تطور احترام الأجداد والزعماء والأبطال إلى عبادة الإمبراطور الميكادو الذي يعد من نسل الآلهة كما يزعمون، ولا تنتسب الشنتوية إلى شخص معين كما نجد ذلك في البوذية مثلا، بل هي دين اجتماعي مر بأدوار متعددة.

وتشيع في الشنتوية الحالية عبادة الطبيعة وقواها المنتجة، حيث يعظمون الشمس وكذلك الأرز الغذاء الرئيسي لهم، والذي تكثر معابده في الأقاليم الزراعية، وفي الشنتوية يوقر الناس الأجداد والأسلاف من الزعماء والأبطال والملوك، وهناك فرق بين عبادة الأسلاف في الصين وبين توقير اليابانيين واحترامهم لأجدادهم.

ويطلق الشنتويون لفظ كامي على كل إله أو شيء يسمو فوق الإنسان كالسماء أو السلطان، وقد تطورت فكرة احترام الأجداد إلى عبادتهم، وانحصرت هذه العبادة والتأليه في الإمبراطور الميكادو الخالد في نظرهم، وهو المنزه عن العيوب والنقائص، والسمو به إلى درجة لا يشاركه فيها سواه، وقد جاء في منشور صدر عن وزارة المعارف اليابانية عام ١٩٣٧م: (إن أرضنا بلد إلهية يحكمها الإمبراطور وهو إله).

ولا ندري كيف يجتمع هذا السخف مع التقدم العلمي في اليابان الحديثة، ويعد الإمبراطور والدولة هما كل شيء، ولا قيمة للفرد في الديانة الشنتوية لذلك تعد التضحية به شرف عظيم له، ويعد الاهتمام بالنظافة أمرا مقدسا، ويكره أتباع الشنتوية كل شيء يدنس الجسد أو الثوب.

وقد تطورت الشنتوية من احترام وتوقير الأسلاف من زعماء القبائل أو

الأبطال إلى عبادتهم، وكان رجال قبيلة يماتو أشد الناس إحياء لتوقير السالفين من القبائل، وهم الذين صاروا سادة اليابان فيما بعد، وفي منتصف القرن السادس الميلادي هاجر إلى اليابان بعض الكهنة البوذيين من كوريا والصين، وكان لهم أثر عميق في البلاط الملكي، فقد حاولوا أن ينشروا البوذية في اليابان، ولكنهم أخفقوا إخفاقا عظيما وذلك لتمسك الشعب الياباني بالشنتوية، وفي القرن الثامن الميلادي استطاع راهب بوذي أن يؤثر في الشنتوية على اعتبار أن آلهتها مظاهر مجسدة لبوذا. وفي العصر الحديث حينما استيقظ الشعور القومي في اليابان، وبلغ ذروته في ثورة ١٨٦٨م نفر الشعب من كل ما هو أجنبي، ومنه البوذية فأزيلت تماثيل بوذا من المعابد، وأوقف الكهنة البوذيون عن ممارسة وظائفهم وعادت الشنتوية دينا قوميا، وكانت الحكومة اليابانية تعمل على توطيد الشنتوية في البلاد للاحتفاظ بعبادة الإمبراطور الميكادو.

وبعد انهزام اليابان في الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م عملت السياسة الأمريكية على إبطال عبادة الإمبراطور، وحاولت القضاء على الوطنية الفائقة التي تغرسها الشنتوية في النفس اليابانية التي أفرزت أثناء الحرب العالمية الفرق الانتحارية التي أنهكت الأسطول الأمريكي، ومن الملاحظ أن البوذية دخلت اليابان ولم تخرج منه، إلا أن البوذية اليابانية تختلف عن البوذية الهندية والصينية في كثير من التعاليم.

ولكن التسامح سائد بين البوذية اليابانية والشنتوية، ولهذا نرى الناس في اليابان ينتقلون من هيكل بوذي إلى معبد شنتوي دون حرج، والعقائد التي يعتنقها الفرد الياباني العادي مزيج من الشنتوية والكونفشيوسية والبوذية،

والشنتوية منتشرة في اليابان فقط، ولا زالت الدين الأصيل فيها حتى الآن.

- **ما هي مبادئ الديانة الكونفوشيوسية التي يعتنقها الصينيون؟**

الكونفوشيوسية ديانة يعتنقها أهل الصين وهي ترجع إلى الفيلسوف كونفوشيوس الذي ظهر في القرن السادس قبل الميلاد داعيا إلى إحياء الطقوس والعادات والتقاليد الدينية التي ورثها الصينيون عن أجدادهم مضيفا إليها جانبا من فلسفته وآرائه في الأخلاق والمعاملات والسلوك القويم، وهي تقوم على عبادة إله السماء أو الإله الأعظم، وتقديس الملائكة، وعبادة أرواح الآباء والأجداد.

ويعتبر كونفوشيوس المؤسس الحقيقي لهذه العقيدة الصينية، ولد سنة ٥٥١ قبل الميلاد في مدينة تسو، وهي إحدى مدن مقاطعة لو، وكونفوشيوس مكونة من كلمتين الأولى كونف أو كونج، وهو اسم القبيلة التي ينتمي إليها، وفوشس معناه الرئيس أو الفيلسوف، فهو بذلك رئيس كونج أو فيلسوفها، وينتسب إلى أسرة عريقة، فجدّه كان واليا على تلك الولاية، تلقى علومه الفلسفية على يدي أستاذه الفيلسوف لوتس، حيث كان يدعو إلى القناعة والتسامح المطلق، ولكن كونفوشيوس خالفه فيما بعد داعيا إلى مقابلة السيئة بمثلها، وذلك إحقاقا للعدل.

وقد انقسمت الكونفوشيوسية إلى اتجاهين، مذهب متشدد حرفي ويمثله منسيوس إذ يدعو إلى الاحتفاظ بحرفية آراء كونفوشيوس وتطبيقها بكل دقة، ومنسيوس هذا تلميذ روحي لكونفوشيوس إذ أنه لم يتلق علومه مباشرة عنه، بل إنه أخذها عن حفيدة وهو المسمى تسيزي الذي قام بتأليف كتاب

يسمى بالانسجام المركزي. أما الاتجاه الثاني فهو المذهب التحليلي، ويمثله هزن تسي ويانج تسي إذ يقوم مذهبهما على أساس تحليل وتفسير آراء المعلم واستنباط الأفكار باستلهام روح النص الكونفوشيوسي.

ومن أبرز الشخصيات تشو هزي ولد سنة ١٢٠٠م حيث قام بنشر الكتب الأربعة التي كانت تدرس في المدارس الأولية والابتدائية في الصين، وفي سنة ٤٢٢م أقيم معبد لكونفوشيوس على قبره، ثم أقيم معبد آخر في العاصمة سنة ٥٠٥م وأصبحت كتبه تدرس في المدارس على أنها كتب مقدسة، وفي سنة ٦٣٠م أمر أحد الأباطرة ببناء معابد مزودة بتماثيل لكونفوشيوس في جميع أنحاء الإمبراطورية، كما أمر بإنشاء كليات لتعليم آراء كونفوشيوس الذي أصبح رمزا للوحدتين السياسية والدينية.

وقد بدأ نجم الكونفوشيوسية بالأفول سنة ١٩٠٥م حيث أُلغي الامتحان الديني الذي كان يعتبر ضروريا للتعيين في الوظائف، وبعد الثورة الشعبية تحولت الصين إلى النظام الجمهوري مما أدى إلى اختفاء الكونفوشيوسية من الحياة الدينية والسياسية، لكنها بقيت ماثلة في الأخلاق والتقاليد الصينية، وفي سنة ١٩٢٨م صدر قرار بتحريم تقديم القرابين لكونفوشيوس، ومنع إقامة الطقوس الدينية له.

وعندما استولى اليابانيون على منشوريا عادت الصين إلى استنهاض الهمم بالعودة إلى الكونفوشيوسية وعاد الناس عام ١٩٣٤م إلى تقديم القرابين مرة ثانية، كما أعيد تدريس الكونفوشيوسية في كل مكان لاعتقادهم بأن نكبتهم ترجع إلى إهمالهم تعاليم المعلم الأكبر، وسادت حركة إحياء جديدة بزعامة تشانج كاي شيك، وقد استمرت هذه الحركة إلى ما بعد الحرب العالمية

الثانية، وفي عام ١٩٤٩م سيطرت الشيوعية على الصين، ولكن شيئا فشيئا بدأت الخلافات بين الصين والاتحاد السوفيتي بالظهور مما أوجد تباينا بين كل منهما، وبعد موت الزعيم الصيني الشيوعي الشهير ماو تسي تونج بدأ التراجع عن الشيوعية في الصين، وبدأت رياح الغرب تهب عليها.

والمعتقدات الأساسية للكونفوشيوسية تتمثل لديهم في الإله أو إله السماء، والملائكة، وأرواح الأجداد، حيث يعتقدون بالإله الأعظم أو إله السماء ويتوجهون إليه بالعبادة، كما أن عبادته وتقديم القرابين إليه مخصوصة بالملك، أو بأمراء المقاطعات، وكذلك للأرض إله يعبده عامة الصينيين، والشمس والقمر، والكواكب، والسحاب، والجبال، وغيرها لكل منها إله، وعبادتها وتقديم القرابين إليها مخصوصة بالأمراء.

وكذلك يقدسون الملائكة ويقدمون إليها القرابين، ويقدس الصينيون أيضا أرواح أجدادهم الأقدمين، ويعتقدون ببقاء الأرواح، والقرابين عبارة عن موائد يدخلون بها السرور على تلك الأرواح بأنواع الموسيقى، ويوجد في كل بيت معبد لأرواح الأموات ولآلهة المنزل.

ولم يكن كونفوشيوس نبيّا، ولم يدّع هو ذلك، بل يعتقدون أنه من الذين وهبتهم السماء وفوضتهم ليقوموا بإرشاد الناس وهدايتهم، فقد كان مداوما على إقامة الشعائر والطقوس الدينية، وكان كونفوشيوس مغرما بالسعي لتحقيق المدينة الفاضلة التي يدعو إليها، وهي مدينة مثالية لكنها تختلف عن مدينة أرسطو الفاضلة، إذ إنّ مدينة كونفوشيوس مثالية في حدود واقع ممكن التحقيق والتطبيق، بينما مدينة أرسطو خيالية بعيدة عن مستوى التطبيق البشري القاصر، وكلا الفيلسوفين متعاصران.

ولا يعتقد الصينيون في وجود الجنة والنار، ولا يعتقدون بالبعث أصلا، إذ إنّ همّهم منصبّ على إصلاح الحياة الدنيا، ولا يسألون عن مصير الأرواح بعد خروجها من الأجساد، وقد سأل تلميذٌ أستاذه كونفوشيوس عن الموت، فقال: إننا لم ندرس الحياة بعد، فكيف نستطيع أن ندرس الموت. والجزاء والثواب عندهم إنما يكونان في الدنيا، إن خيرا فخير، وإن شرّا فشر، ويعتقدون في القضاء والقدر، فإن تكاثرت الآثام والذنوب كان عقاب السماء لهم بالزلازل والبراكين، ويعتقدون أن حاكمهم هو ابن للسماء، وأنه إذا ما قسا وظلم وجانب العدل، فإن السماء تسلط عليه من رعيته من يخلعه ليحلّ محلّه شخص آخر عادل.

وتنتشر الكونفوشيوسية في الصين، وهي ماثلة في النظم الاجتماعية في فرموزا أو الصين الوطنية، وانتشرت كذلك في كوريا، وفي اليابان حيث درست في الجامعات اليابانية، وهي من الأسس الرئيسية التي تشكل الأخلاق في معظم دول شرق آسيا وجنوبها الشرقي في العصر الحديث.

- **ما حقيقة الديانة البوذية ومبادئها في الفلسفة الوثنية؟**

البوذية فلسفة دينية ظهرت في الهند بعد الديانة البرهمية الهندوسية في القرن الخامس قبل الميلاد، وكانت في البداية تناهض الهندوسية وتتجه إلى العناية بالإنسان، كما أن فيها دعوة إلى التصوف والخشونة ونبذ الترف والمناداة بالمحبة والتسامح وفعل الخير، وبعد موت مؤسسها تحولت إلى معتقدات باطلة ذات طابع وثني، ولقد غالى أتباعها في مؤسسها حتى ألّهوه. والبوذية تعتبر مذهبا فكريا مبنيا على نظريات فلسفية، وتعاليمها ليست وحيا، وإنما هي آراء وعقائد بوذا، وتختلف البوذية القديمة عن البوذية

الجديدة في أن الأولى صبغته أخلاقية، في حين أن البوذية الجديدة هي تعاليم بوذا مختلطة بآراء فلسفية وقياسات عقلية عن الكون والحياة.

والبوذية أسسها سدهارتا جوتاما الملقب ببوذا ولد سنة ٥٦٠ قبل الميلاد ومات سنة ٤٨٠ قبل الميلاد، وكلمة بوذا تعني العالم، وقد نشأ بوذا في بلدة على حدود نيبال، وكان أميرا فشبّ مترفا في النعيم وتزوج في التاسعة عشرة من عمره، ولما بلغ السادسة والعشرين هجر زوجته منصرفا إلى الزهد والتقشُّف والخشونة في المعيشة والتأمل في الكون ورياضة النفس، وعزم على أن يعمل على تخليص الإنسان من آلامه التي منبعها الشهوات، ثم دعا إلى تبني وجهة نظره حيث تبعه أناس كثيرون.

ويعتقد البوذيون أن بوذا هو ابن الله، وهو المخلّص للبشرية من مآسيها وآلامها، وأنه يتحمل عنهم جميع خطاياهم، ويعتقدون أن تجسد بوذا قد تم بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا، ويقولون إنه قد دل على ولادة بوذا نجم ظهر في أفق السماء، ويدعونه نجم بوذا، ويقولون أيضا إنه لما ولد بوذا فرحت جنود السماء، ورتلت الملائكة أناشيد المحبة للمولود المبارك، وقد قالوا: لقد عرف الحكماء بوذا وأدركوا أسرار لاهوته، ولم يمض يوم واحد على ولادته حتى حيّاهُ الناس، وقد قال بوذا لأمه وهو طفل إنه أعظم الناس جميعا، وقالوا: دخل بوذا مرة أحد الهياكل فسجدت له الأصنام، وقد حاول الشيطان إغواءه فلم يفلح، ويعتقد البوذيون أن هيئة بوذا قد تغيّرت في أخر أيامه، وقد نزل عليه نور أحاط برأسه، وأضاء من جسده نور عظيم فقال الذين رأوه: ما هذا بشرا إن هو إلا إله عظيم.

ويصلي البوذيون لبوذا ويعتقدون أنه سيدخلهم الجنة، والصلاة عندهم

تؤدى في اجتماعات يحضرها عدد كبير من الأتباع، ولما مات بوذا قال أتباعه: صعد إلى السماء بجسده، بعد أن أكمل مهمته على الأرض، ويؤمنون برجعة بوذا ثانية إلى الأرض ليعيد السلام والبركة إليها، ويعتقدون أن بوذا هو الكائن العظيم الواحد الأزلي، وهو عندهم ذاتٌ من نور غير طبيعية، وأنه سيحاسب الأموات على أعمالهم، ويعتقدون أن بوذا ترك فرائض ملزمة للبشر إلى يوم القيامة، ويقولون إن بوذا أسس مملكة دينية على الأرض.

وينقسم البوذيون إلى قسمين، البوذيون المتدينون وهؤلاء يأخذون بكل تعاليم بوذا وتوصياته، والبوذيون المدنيون وهؤلاء يقتصرون على بعض التعاليم والوصايا فقط. وقد احتفظت البوذية ببعض صورها الأولى في منطقة جنوب آسيا وخاصة في سيلان وبورما، أما في الشمال وعلى الأخص في الصين واليابان فقد ازدادت تعقيدا وانقسمت إلى مذهبين هما، مذهب ماهايانا أو مذهب الشمال، ويدعو إلى تأليه بوذا وعبادته وترسُّم خطاه، ومذهب هنايانا مذهب الجنوب وقد حافظ على تعاليم بوذا، ويعتبر أتباع هذا المذهب أن بوذا هو المعلم الأخلاقي العظيم الذي بلغ أعلى درجة من الصفاء الروحي.

وشعار البوذية عبارة عن قوس نصف دائري، وفي وسطه قائم ثالث على رأسه ما يشبه الوردة، وأمام هذا التمثال صورة مجسمة لجرة الماء وبجوارها فيل يتربع عليه بوذا في لباسه التقليدي، والديانة البوذية منتشرة بين عدد كبير من الشعوب الآسيوية حيث يدين بها أكثر من ستمائة مليون نسمة، ولهم معبد ضخم في كاتمندو بالنيبال، وهو عبارة عن مبنى دائري الشكل وتتوسطه قبة كبيرة وعالية، وبها رسم لعينين مفتوحتين وجزء من الوجه،

ويبلغ قطر المبنى أربعين مترا، أما الارتفاع فيزيد عن خمسة أدوار.

- **ما هي مبادئ السيخية وعلاقتها بالإسلام والهندوسية؟**

السيخ جماعة دينية من الهنود الذين ظهروا في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين داعين إلى دين جديد، زعموا فيه الجمع بين الديانتين الإسلامية والهندوسية تحت شعار لا هندوس ولا مسلمون، وكلمة سيخ كلمة سنسكريتية تعني المريد أو التابع.

ويعتبر تاناك غورو المؤسس الفعلي للسيخية ويدعى غورو أي المعلم، ولد سنة ١٤٦٩م في قرية تبعد ٤٠ ميلا عن لاهور، كانت نشأته هندوسية تقليدية، ولما شب عمل محاسبا لزعيم أفغاني في سلطان بور، وهناك تعرف على عائلة مسلمة ماردانا كانت تخدم هذا الزعيم، وقد أخذ ينظم الأناشيد الدينية، كما نظّم مقصفا ليتناول المسلمون والهندوس الطعام فيه، درس علوم الدين، وتنقل في البلاد، كما قام بزيارة مكة والمدينة، وزار أنحاء العالم المعروفة لديه، وتعلم الهندية والسنسكريتية والفارسية.

وقد ادعى أنه رأى الرب حيث أمره بدعوة البشر، ثم اختفى أثناء استحمامه في أحد الجداول، وغاب لمدة ثلاثة أيام ظهر بعدها معلنا لا هندوس ولا مسلمون، وكان يدّعي حب الإسلام، مشدودا إلى تربيته وجذوره الهندوسية من ناحية أخرى، مما دفعه لأن يعمل على التقريب بين الديانتين فأنشأ دينا جديدا في القارة الهندية، وبعض الدارسين ينظرون إليه على أنه كان مسلما في الأصل، ثم ابتدع مذهبه هذا.

أنشأ المعبد الأول للسيخ في كارتار بور بالباكستان حاليّا، وقبل وفاته عام

١٥٣٩م عيّن أحد أتباعه خليفة له، وقد دفن في بلدة ديرة بابا ناناك من أعمال البنجاب الهندية الآن، ولا يزال له ثوب محفوظ فيه مكتوب عليه سورة الفاتحة وبعض السور القصيرة من القرآن، وقد خلفه من بعده عشرة خلفاء معلمون أخرهم غوبند سنغ المتوفى سنة ١٧٠٨م والذي أعلن انتهاء سلسلة المعلمين، وقد صار زعماؤهم بعد ذلك يعرفون باسم المهراجا، ومنهم المهراجا رانجيت سنغ المتوفى سنة ١٨٣٩م.

وقد انفصلت السيخية تدريجيّا عن المجتمع الهندوسي حتى صارت لهم شخصية دينية متميزة، وقد أباح ناناك الخمر، وأكل لحم الخنزير، وقد حرم لحم البقر مجاراة للهنادكة. وأصول الدين لديهم خمسة بانج كهكها أي الكافات الخمس لأنها تبدأ بحرف الكاف، وهي خمسة توجيهات، تتمثل في ترك الشعر مرسلا بدون قص من المهد إلى اللحد، وذلك لمنع دخول الغرباء بينهم بقصد التجسس، وأن يلبس الرجل سوارا حديدا في معصميه بقصد التذلل والإقتداء بالدراويش، وأن يلبس الرجل تبانا وهو أشبه بلباس السباحة تحت السراويل رمزا للعفة، وأن يضع الرجل مشطا صغيرا في شعر رأسه، وذلك لتمشيط الشعر وترجيله وتهذيبه، وأن يتمنطق السيخي بحربة صغيرة أو خنجر على الدوام، وذلك لإعطائه قوة واعتدادا، وليدافع به عن نفسه إذا لزم الأمر.

والسيخ ينكرون المعجزات والقصص والخرافات ويعتقدون بأن ترديد أسماء الإله الناما يطهر المرء من الذنوب، ويقضي على مصادر الشر في النفوس، وإنشاد الأناشيد كيرتا والتأمل يؤدي إلى الاتصال بالإله، ويعتقدون بأن روح كل واحد من المعلمين تنتقل منه إلى المعلم التالي له.

• ما حقيقة الديانة الطاوية الصينية المنتشرة حتى الآن؟

الطاوية إحدى أكبر الديانات الصينية القديمة التي ما تزال حية إلى اليوم، إذ ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، تقوم في جوهر فكرتها على العودة إلى الحياة الطبيعية، والوقوف موقفا سلبيا من الحضارة والمدنية، كان لها دور هام في تطوير علم الكيمياء منذ آلاف السنين.

وتنسب الطاوية إلى فيلسوف يسمى لوتس ولد عام ٥٠٧ قبل الميلاد، وقد وضع كتابه طاو تي تشينغ أي كتاب طريق القوة، وقد التقى به كونفوشيوس فأخذ عنه أشياء وخالفه في أشياء أخرى. وبقيت الطاوية خلال أكثر من ألفي سنة تؤثر في الفكر الصيني وفي التغيرات التاريخية الصينية، وقد ظهر شوانغ تسو الذي يرجع إلى القرن الرابع والثالث قبل الميلاد زاعما بأن لوتس كان أحد المعلمين السماويين كما قام بشرح كتاب معلمه لوتس مضيفا إليه شيئا من فلسفته.

لقد نمت الطاوية المنظمة في منطقة جبال شي شوان قبل غيرها، وفي عام ١٤٢م زعم شانغ طاولينغ أنه قد جاءه الوحي من الرب تعالى بأن يتحمل تبعات إصلاح الدين الطاوي، وأنه قد ارتقى وسُمِّيَ المعلم السماوي. وقاد ذلك التنظيم الذي صار تبعا لسلالته الذين عرفوا بالمعلمين السماويين، وفي القرن الثاني الميلادي انتشرت الطاوية الشعبية، وقد كان للمعلمين السماويين دور كبير في نشرها، ولهم أدب فلسفي وديني سري، قسم منه يعود إلى القرن الرابع والقرن الثاني قبل الميلاد ويركز على إقناع الحكام، وقسم يبدأ منذ نهاية القرن الثاني الميلادي وهو يمثل حركات دينية منظمة، وينتقل من الشيخ إلى تلاميذه من أداء القسم للمحافظة على سريته.

والإله لديهم ليس بصوت ولا صورة، أبدي لا يفنى، وجوده سابق وجود غيره وهو أصل الموجودات، وروحه تجري فيها، ويعتقدون أن طاو هو المطلق الكائن، وهو مراد الكون، إنه ليس منفصلا عن الكون بل هو داخل فيه دخولا جوهريّا، انبثقت عنه جميع الموجودات، كما أنهم يؤمنون بوحدة الوجود إذ إن الخالق والمخلوق شيء واحد لا تنفصل أجزاؤه وإلا لاقى الفناء، وتعد نظرتهم إلى الإله قريبة جدّا من مذهب الحلولية الذي يذهب إلى أن الخالق حالٌّ في كل الموجودات، كما أن الخالق لا يستطيع أن يتصرف أو يعمل إلا بحلوله في الأشياء.

وهناك طقس شيو، وهو أقدم الطقوس، إذ هو تجديد لعلاقة الجماعة بالآلهة، ولا يزال هذا الطقس موجودا في تايوان إلى اليوم، وهناك طقوس لتنصيب الكهنة، وأخرى عند ميلاد الآلهة، وبعض الكهنة يمارسون طقوسا معينة في مناسبات الدفن والزواج والولادة، ومن طقوسهم معالجة المريض، وذلك بإدخاله إلى غرفة هادئة يقضي فيها بعض الوقت متأملا منشغلا بذنوبه، كما يقوم بعضهم باستعمال الوسطاء الذين يسترخون في سبات، ويزعمون أنهم يقومون بنقل آراء الآلهة أو الأموات أو الأقارب، وحرق البخور موضوع أساسي لكل عبادة طاوية، فضلا عن استعمال الخناجر والماء المسحور والموسيقى، والأقنعة والكتب المقدسة.

ويجب على الطاوي المتصوف أن ينظف نفسه من جميع المشاغل والشوائب ليوجد في داخله فراغا هو في الحقيقة الامتلاء نفسه، وذلك بالوصول إلى الحقائق المجردة، ويتم ذلك عن طريق التجرد من الماديات ليصبح الإنسان روحا خالصا، وأعلى مراتب التصوف هي مرحلة الوحدة التامة بين الفرد

والقانون الأعظم، وذلك بحصول اندماج بين المتصوف والذات العليا لتصيرا شخصية واحدة، وإذا ارتقى الإنسان إلى المعرفة الحقة عندها يستطيع أن يصل إلى الحالة الأثيرية حيث لا موت ولا حياة.

- **ما هي مبادئ الديانة المجوسية الزرادشتية المانوية الثنوية؟**

يطلق على المجوسية الزرادشتية، ومجوس اسم رجل أو اسم لقبيلة فارسية أو وصفٌ لعبادة النار، وقد أتى زرادشت فحددها وأظهرها وزاد فيها، فالمجوسية أسبق من الزرادشتية، وقيل إن زرادشت بن يورشب المولود في القرن السابع قبل الميلاد هو مؤسس هذه الديانة، وأن المجوس قبيلة فارسية دخلت في هذه الديانة، فصح الانتساب لها على أن الأصل هو زرادشت.

وأيا كانت الأسبقية فهما اسمان لديانة واحدة فالمجوسية هي الزرادشتية والعكس، كما يطلق عليهما المانوية والثنوية، وذلك لقولهم بإلهين اثنين، وهي ديانة فارسية وثنية تُقدس النار وتقول بإلهين اثنين إله للخير وإله للشر، وقد تأثروا ببعض الديانات الهندية، فقالوا بتناسخ الأرواح، وكان لهم أثر كبير في ظهور بعض الحركات الباطنية الذين تستروا بحب آل البيت لهدم الإسلام من الداخل فمنهم عبد الله بن سبأ المجوسي أصل الباطنية في الأمة الإسلامية، وكذلك أبو لؤلؤة المجوسي قاتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ.

ويبلغ تعداد المجوس الزرادشتية في العالم أكثر من ثلاثمائة ألف نسمة يعيش أكثرهم في إيران موزعين على مدن طهران وكرمان وأصفهان، ويوجد عددٌ قريبٌ من ذلك في الهند، كما يوجد أقلية منهم في باكستان ودول أوربا وأفريقيا الجنوبية وأمريكا، مع ملاحظة أن العدد الحقيقي غير معلومٍ بالدقة لأن بعضهم يخفي انتماءه الديني.

وأهم عقائدهم الثنوية وهي القول بإلهين غير متساويين، وهما إله النور وإله الظلمة، وأن الأصل هو إله الخير ولا يصدر عنه إلا ما هو خير، ونتيجة لوجود الشر فقد جعلوا إلها آخر وهو إله الظلمة الذي يصدر منه الشرور، وأن الصراع مستمرٌ بين الإلهين، وأن الشرور والأشرار ينتسبون إلى إله الظلمة، وأن الصالحين أنصار إله النور.

ويؤمنون بتناسخ الأرواح وانتقال الروح من بدن قد مات صاحبه إلى بدن آخر لمخلوق حي، إنسانا كان أم حيوانا، ويقدسون النار عندهم لأنها مصدر للنور الذي يجب عليهم الاتجاه إليه، لأنه قبسٌ من نور الإله، ويؤمنون بأن نهاية العالم تكون بانتصار إله الخير على إله الشر، فتنتهي الشرور من العالم وكل أنواع الشقاء.

- **اذكر تعريفا موجزا للنحلة المهاريشية الهندوسية؟**

المهاريشية نحلة هندوسية دهرية ملحدة، انتقلت إلى أمريكا وأوروبا متخذة ثوبا عصريّا من الأفكار التي لم تخف حقيقتها الأصلية، وهي تدعو إلى طقوس كهنوتية من التأمل التصاعدي التجاوزي بغية تحصيل السعادة الروحية، وهناك دلائل تشير إلى صلتها بالماسونية والصهيونية التي تسعى إلى تحطيم القيم والمثل الدينية وإشاعة الفوضى الفكرية والعقائدية والأخلاقية بين الناس.

ومؤسس المهاريشية رجل فقير هندوسي لمع نجمه في الستينات واسمه مهاريشي ماهيش يوجي انتقل من الهند ليعيش في أمريكا ناشرا أفكاره بين الشباب الضائع الذي يبحث عن المتعة الروحية بعد أن أنهكته الحياة المادية

الصاخبة، وقد بقي في أمريكا مدة ١٣سنة حيث اتبعه الكثيرون، ومن ثم رحل لينشر فكرته في أوروبا وفي مختلف بلدان العالم.

ولا يؤمن أفراد هذه النحلة بالله سبحانه وتعالى، ولا يعرفون إلا المهاريشي إلها وسيدا للعالم، فلا يؤمنون بدين من الأديان السماوية، ويكفرون بجميع العقائد والمذاهب، ولا يعرفون التزاما بعقيدة إلا بالمهاريشية التي تمنحهم الطاقة الروحية على حد زعمهم، وهم يرددون لا رب ولا دين، ولا يؤمنون بشيء اسمه الآخرة أو الجنة أو النار أو الحساب، ولا يهمهم أن يعرفوا مصيرهم بعد الموت لأنهم يقفون عند حدود متع الحياة الدنيا لا غير.

وحقيقتهم الإلحاد لكنهم يظهرون للناس أهدافا براقة يخفون بها تلك الحقيقة، فمن ذلك أنهم يدعون إلى التحالف من أجل المعرفة أو علم الذكاء الخلاق، ويفسرون ذلك بالعلم والبحث المنهجي التجريبي، والوسائل القوية القادرة على إحداث التغييرات في كل زمان ومكان. وهم يصلون إلى ذلك عن طريق التأمل التجاوزي والطاقة التي تأخذ بأيديهم كما يعتقدون إلى إدراك غير محدود، والتأملات التي تتحقق عن طريق الاسترخاء، وإطلاق عنان الفكر والضمير والوجدان حتى يشعر الإنسان منهم براحة عميقة تنساب داخله، ويستمر في حالته الصامتة تلك حتى يجد حلاّ للعقبات والمشكلات التي تعترض طريقه، وليحقق بذلك السعادة المنشودة، ويخضع المنتسب للتدريب على هذه التأملات التصاعدية خلال أربع جلسات موزعا على أربعة أيام، وكل جلسة مدتها نصف ساعة، وينطلق الشخص بعد ذلك ليمارس تأملاته بمفرده على أن لا تقل كل جلسة عن عشرين دقيقة صباحا ومثلها مساء كل يوم وبانتظام. ومن الممكن أن يقوموا بذلك بشكل جماعي،

ومن الممكن أن يقوم به عمال في مصنع رغبة في تجاوز إرهاقات العمل وزيادة الإنتاج، ويحيطون تأملاتهم بجو من الطقوس الكهنوتية.

وقد استعاضت المهاريشية عن النبوة والوحي بتأملاتهم الذاتية، واستعاضوا عن الله بالراحة النفسية التي يجدونها، وترجع الجذور الفكرية والعقائدية للمهاريشية إلى ديانة هندوسية مصبوغة بصبغة عصرية جديدة من الحرية والانطلاق، فهي مزيج من اليوغا، ومن الرياضات المعروفة عند الهندوس خالطت معتقداتها طقوس صوفية بوذية هندية، وتعتبر طريقة المهاريشية الأساس المتين لما يسمى الآن بطريقة العلاج بالطاقة والبرمجة اللغوية العصبية أو التنمية البشرية.

الفصل الخامس
المذاهب الفكرية المعاصرة

• ما هي رؤية النصارى للمسلمين إلى نهاية الحروب الصليبية؟

لقد كانت دعوة الإسلام في أعين أعدائها عند مبعث النبي ﷺ تمثل ثورة من قبل العرب للخروج من أرض قحطاء جدباء، قليلة الزرع والماء إلى أرض المروج والأنهار والخيرات والثمار في فارس والروم، هذه رؤيتهم للإسلام في بدايته، لم ينظروا إليه بعين سليمة تتعرف على حقيقته وسمو دعوته، وإنما نظروا إليه نظرة دنيوية مادية ضيقة بنوا عليها تصورهم، وأساس حربهم.

ثم فوجئوا بالمسلمين ينتصرون عليهم، ويحالفهم في كل مرة نصر كبير بعدد قليل، وثبات لم يعهدوا له مثيل، ورغبة في الموت والشهادة أكبر من رغبة أعدائهم في الحياة، فهالهم الأمر وأفزعهم، ولم يتمكنوا من ضبطه على الصورة التي رسموها في أذهانهم للعرب، بأنهم قوم همج ورعاع، وبدو جياع، يريدون الغزو والقتال من أجل المال والمتاع، والاستحواذ على خيرات الفرس والروم.

ومن المعلوم أن أخبار المعارك التي نصر الله فيها المسلمين على عدوهم كانت تنتشر في العالم كله أيام الخلفاء الراشدين وبعدهم، يسمعون عن أبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وخالد بن الوليد وغيرهم في أكثر

من ثلاثين معركة، حتى أصبح خالد بن الوليد في نفوس النصارى صورة أسطورية خيالية مرعبة، يخوفون بها أولادهم عند نومهم، ويعلمونهم أن قدوم خالد يعني موتا محققا وهلاكا محتوما.

ازداد النصارى غيظا وبغضا لهذا الدين، كيف يواجهون المسلمين ويقضون عليهم؟ لم يدركوا وقتها طبيعتهم، فظنوا أن كثرة العدد والعدة تحقق لهم النصر والغلبة، فكونوا في كثير من المعارك جيوشا ضخمة، لكن المعركة الفاصلة بين المسلمين والنصارى هي التي تجسدت يوم اليرموك، حيث كان عدد المسلمين قرابة الأربعين ألفا أو الخمسين، وعدد النصارى يقارب الربع مليون، وقيل مليون، فكانت النسبة تمثل السدس أو العشر تقريبا، وبالرغم من ذلك مكن الله لأمة الإسلام، ونصرهم على عدوهم، وجعل النصارى صرعي في أغوار الأردن.

كيف تمكن هذا العدد القليل من إحراز هذا النصر الكبير؟ بعث ذلك في المجتمع الغربي الحيرة والجنون، وازدادوا حنقا وحقدا وغيظا وكمدا، ولا حيلة لهم إلا معاودة الكرة ولو بعد حين، وقد تهيأت لهم أيام واقعة الجمل وواقعة صفين الأسباب المواتية للانقضاض على المسلمين، لكن النصارى انكسرت شوكتهم آنذاك، وبلغت قوتهم من الضعف والهذيان بحث تبقي ساكنة بلا حراك أربعة قرون من الزمان، حتى تمكنوا بالفعل من تجميع أكبر عدد ممكن من جندهم للقضاء على أمة الإسلام، فبلغت جيوشهم أكثر من ستمائة ألف مقاتل أيام السلطان ألب أرسلان زمن الدولة العباسية [(١)].

جمع النصارى هذا العدد الضخم، وعلى الرغم من حالة الضعف

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٢/ ١٠١.

والانقسام والتناحر والخصام الذي كانت عليه أمة الإسلام إلا أن المسلمين أدركوا أن العلة في نصرهم لا تكمن في كثرة عدتهم أو عددهم، وإنما تكمن في إيمانهم وإخلاصهم واستعانتهم بالله، وكانوا قد طلبوا الهدنة من قائد النصارى أرمانوس فأبى وتكبر، فاستفتوا في حالهم أهل العلم، فقالوا لهم: إنكم لا تنتصرون بقوتكم، ولكن بفضل الله وإيمانكم به.

وأشار أهل العلم أن يكتبوا دعاءا موحدا يوزع على المساجد في جميع البلاد الإسلامية، وأن يقف الشيوخ الكبار والنساء والأطفال ليستعينوا بالله تعالى ساعة الإجابة في يوم الجمعة، ويتحرك المسلمون ليباغتوا النصارى بالهجوم، وكان عدد المسلمين ستين ألفا، بنسبة الواحد إلى العشرة، وقيل أكثر من ذلك، وفي يومها تجرد السلطان لله وخلع ثوب الإمارة ولبس كفنه، وقال: لست اليوم أميرا إلا أن ينصرنا الله تعالى، فلما أخلصوا ووحدوا واستعانوا سحقوا النصارى وأسروا ملكهم، وهذه المعركة تسمى ملازكرد، ولم تنل حظها من الشهرة في التاريخ كما نالته القادسية واليرموك مع أنها من أفضل المعارك التي مرت في تاريخ الأمة الإسلامية .

ازداد النصارى في الغرب غيظا وجهلا بطبيعة هذا الدين فعادوا إلى أوربا، وجمعوا كيدهم وحقدهم في إعلان كليرمونت الذي ألقي فيه بابا روما أوربيان الثاني خطابه الشهير في النصارى ليثير حفيظتهم ضد المسلمين في تجهيز الحروب الصليبية، ووعد من يشترك بالغفران الكامل؛ فأعدوا العدة وتتدفقوا على العالم الإسلامي واتسم غزوهم بروح التعصب والانتقام.

وقد كان المسلمون وقتها متناحرين متنازعين منقسمين إلى دويلات صغيرة هجرت دينها ومصدر عزها، فتمكن النصارى بالفعل من استباحة

حرمة المسلمين والاستيلاء على القدس ثالث الحرمين، وصبوا حقدهم، وأفرغوا كيدهم في الانتقام والتشفي في المسلمين، كما ذكر الراهب روبرت أحد الصليبيين المتعصبين، وهو شاهد عيان لما حدث في بيت المقدس واصفا سلوك قومه: (كان قومنا يجيبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها، كانوا يذبحون الأولاد والشباب ويقطعونهم إربا إربا، وكانوا يشنقون أناسا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه، فيبقروا بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية، فيا للشره وحب الذهب، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث) (١).

لقد ظن النصارى أن أمة الإسلام كتب عليها الفناء، وأنها لن تقوم لها قائمة، ولكن الله تعالى خيب ظنهم، فقد كتب لهذا الدين البقاء وأزاح عنه النفوس الظالمة، فبعد قرنين من الزمان انتهت الحملات الصليبية بمعركة حطين على يد القائد الأيوبي صلاح الدين الذي نصر الله به المسلمين، فازداد غيظ النصارى وتراكم حقدهم، وأرسلوا حملة أخرى فجاءت جيوشهم الصليبية بقيادة الملك لويس التاسع، ودخلت إلى البلاد الإسلامية من دمياط في مصر، وهزم في المنصورة شر هزيمة، وأسر في دار بن لقمان (٢).

• ما هو مخطط الملك لويس التاسع في غزو المسلمين فكريا؟

نقطة التحول الفاصلة في حياة النصرانية وكيدهم للأمة الإسلامية، جلس لويس التاسع مع نفسه في سجنه يحلل تاريخ الصراع بين المسلمين وأعدائهم

---

(١) حاضر العالم الإسلامي د. جميل المصري ص٦٤.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين أبي الأتابكي ٦/ ٣٦٦.

تحليلا منطقيا، فوجد النصارى منذ سبعة قرون في تدهور مستمر، وهزائم متوالية في حربهم مع العرب، ينهزمون في كل مرة بصورة تدهش العقول وتثير العجب، فالعرب في كل معركة ينتصرون بعدد قليل وحماس كبير فما السبب؟ فوصل إلى حيثيات أكيدة، وأحكم للمسلمين المكيدة، وأيقن أن السبب في نصرهم هو التزامهم بدينهم وإسلامهم، أما ذواتهم وأشخاصهم فهم بشر لا يزيدون عن الآخرين في الحجم والصور، ومن ثم توصل إلى حقيقية يقينية أساسها؛ أنه لا بد لانتصار النصارى على المسلمين أن نفصل بينهم وبين إسلامهم أولا، ونحدث فجوة بينهم وبين عقيدتهم في ربهم، فنزرع فيها الشهوات والشبهات، ونخلع عن أبدانهم لباس الإيمان والطاعات، حتى يستووا معنا في الهيئات، عندها وفقط يتمكن النصارى من كسرهم وإخضاعهم، واستعبادهم وتقطيع أوصالهم.

وقرر أنه لا بد من دراسة هذه الديانة التي هي سبب نصرهم، ولا بد للجهد النصراني أن يتحول إلى غزو فكري يحقق هذا الهدف، فأحسن لويس التاسع التحليل والتفسير، وأحكم الخطة والمكر والتدبير منذ أكثر من سبعة قرون مضت، والآن يقطف النصارى ثمارها، والمسلمون يشعرون بآثارها، بل يمكن أن نفسر من خلالها أحداث العالم التي تدور من حولنا، وحال المسلمين المشين إنما هو نتيجة مباشرة لخطة الغزو الفكري الذي يتكاتف فيه الجهد النصراني مع الخبث اليهودي.

لقد قرر لويس التاسع ملك فرنسا في وثيقة محفوظة في دار الوثائق القومية في باريس أنه لا يمكن الانتصار على المسلمين من خلال حرب، وإنما يمكن الانتصار عليهم بواسطة السياسة بإتباع ما يلي:

١-إشاعة الفرقة بين قادة المسلمين، وإذا حدثت فليعمل على توسيع شقتها ما أمكن حتى يكون هذا الخلاف عاملا في إضعاف المسلمين.

٢-عدم تمكين البلاد الإسلامية والعربية أن يقوم فيها حكم صالح.

٣-إفساد أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية بالرشوة والفساد والنساء حتى تنفصل القاعدة عن القمة.

٤-الحيلولة دون قيام جيش مؤمن بحق يضحي في سبيل مبادئه.

٥-العمل على الحيلولة دون قيام وحدة عربية في المنطقة.

٦-العمل على قيام دولة غربية في المنطقة العربية تمتد ما بين غزة جنوبا وأنطاكية شمالا، ثم تتجه شرقا وتمتد حتى تصل إلى الغرب.

ويخطئ من يظن أن الغزو الفكر إنما هو مصطلح عصري نشأ في القرن العشرين، لأن الملك لويس النصراني في بنود وثيقته زرع الفكرة وخطط لها بإتقان، وعمل الغرب الصليبي على تنفيذها من زمنه حتى الآن، ويمكن النظر والمقارنة بين ما جاء في وثيقته وما يحدث للمسلمين في العقود الماضية والحاضرة، ليجد ما خطط له واقعا مشهودا.

• ما هو مفهوم الاستشراق وما تاريخه وأهدافه وآثاره ؟

الاستشراق هو القيام بالدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي والتي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته وأرضه، وما فيها من كنوز وخيرات وكل ما يتعلق بهم، فظاهره حركة علمية يراد بها دراسة لغة الشرق وتراثه، وفي حقيقة أمره تيار منظم لمواجهة الإسلام وتشويهه وصرف الناس عنه، وتمهيد لاستعمار النصارى للعالم الإسلامي، وخدمة للصهيونية العالمية،

فالمستشرقون إلا ما شذ منهم لم يريدوا خدمة العلم بهذه الدراسة، ولم يكن لهم قصد حسن، أو نزاهة في البحث، بل كثير منهم قساوسة حاقدون على الإسلام وحضارة المسلمين، فهم أبعد ما يكون عن بيئة العلم والتجرد، أما من تجرد منهم للبحث العلمي فهم قليل جدا، وبعضهم كان منصفا ودفعه ذلك إلى إظهار الحقيقة، أو الدخول في الإسلام.

أما تاريخه فقد بدأ الاستشراق بعد فشل الحروب الصليبية وانتشار الحضارة الإسلامية الكبيرة خاصة في بلاد الأندلس، وبشكل رسمي بدأ الاستشراق حين صدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام ١٣١٢م، وذلك بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوربية، ولكنه بدأ قبل ذلك بصورة فردية، وقد نبغ في هذه الفترة عدد من علماء الغرب في الاستشراق، وأصدروا لذلك المجلات في كثير من البلاد، وأغاروا على المخطوطات العربية، وسرقوا كثيرا منها، وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس عام ١٨٧٣م وتوالى عقد المؤتمرات التي تلقى فيها الدراسات عن الشرق وأديانه وحضاراته.

ولم يقف الاستشراق عند حد الغرب النصراني، بل إن الشرق الشيوعي أيضا قد شكل جمعية للمستشرقين تحت عنوان رابطة تحرير الشرق أسسها عام ١٩٢٠م واعتبرها مدرسة علمية لتخريج الطلائع المبشرة بالشيوعية في العالم الإسلامي، ولم يقتصر الاستشراق على الغرب النصراني والشرق الشيوعي فقط، بل إن اليهود وجدوا فيه بابا هاما من أبواب السيطرة على البلاد التي يحلمون بها، فتخصص فريق منهم بالدراسات الشرقية، وتابعوا المسيرة ضمن الدراسات الشرقية في الجامعات الكبرى.

وأما أهداف الاستشراق فالهدف الديني يأتي على رأس أهداف الاستشراق ودوافعه، وهذا واضح لا يحتاج إلى برهان، فطلائع المستشرقين كانوا من الرهبان والقساوسة الحاقدين على الإسلام، كما أن العلاقة بين الغرب والإسلام قائمة على صراع ديني، ظهر واضحا أثناء الحروب الصليبية التي امتدت قرنين من الزمان، وقد سلكوا طرقا متعددة لتحقيق هذا الهدف، تتمثل في التشكيك في صحة رسالة النبي ﷺ والقرآن والطعن فيه، حتى ينصرف الناس عنه، والتشكيك في صحة الحديث.

ومن أهدافهم الدعوة إلى التنصير، وقد بدأ الاستشراق بالرهبان والقساوسة، وكانت دوافعهم واحدة، وتتلخص في انصراف المسلمين عن دينهم ومحاولة إدخالهم في النصرانية، أو بقائهم بلا دين، وكان من أهداف الاستشراق الهدف التجاري، وهو من الدوافع التي شجعت الغربيين على دراسة علوم الشرق، خاصة قبل الاستعمار الغربي لبلاد المسلمين حتى يتمكنوا من استغلال خيرات العالم الإسلامي، ويحصلوا منهم على المواد الأولية التي يستخدمونها في صناعتهم بأبخس الأثمان، ثم تكون بعد ذلك بلاد الشرق الإسلامي سوقا واسعا لترويج بضاعتهم بأغلى الأسعار.

ومن أهداف الاستشراق الهدف السياسي الاستعماري، وقد دعت الحاجة إلى هذا الهدف حينما أراد الاستعمار الغربي غزو بلاد المسلمين واحتلال أراضيهم، وكان الاستشراق هو الممهد لهذا الأمر بعد دراسة حاجة البلاد الإسلامية والوقوف على نقاط الضعف فيها، ولما تم لهم الاستيلاء العسكري قاموا بإضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوس المسلمين.

وقد سلك المستشرقون وسائل مختلفة وأساليب متنوعة لتحقيق أهدافهم

السابقة، منها تأليف الكتب في موضوعات مختلفة عن الإسلام واتجاهاته والطعن في رسوله ﷺ، والقرآن الذي نزل عليه، وفيها كثير من التحريف المتعمد والطعن في هذا الدين، ومن هذه الكتب كتاب حياة محمد لوليم مور، وكتاب الإسلام لزويمر، ودائرة المعارف الإسلامية وهي معجم ألفه المستشرقون لخدمة اليهودية والنصرانية، لم يتركوا شيئا من عقائد الإسلام ولا شرائعه إلا وصوروه لقرائهم بما يخالف الصورة الصحيحة في كثير من الوجوه، وفي هذه الدائرة كثير من العيوب العلمية والتاريخية المغرضة، وكانت هذه الكتب بما فيها من تحريف متعمد لحقائق الإسلام من أخطر الوسائل، خاصة وأنه اقتنع بما فيها كثير من الغربيين فصرفتهم عن الإسلام وشوهت صورته أمامهم.

ومن آثارهم نشر إرساليات التنصير في العالم الإسلامي لتزاول أعمالا إنسانية في الظاهر كالعمل بالمستشفيات والخدمات الاجتماعية وغيرها، ثم يقومون بتحقيق أهداف الاستشراق إلى جانب التنصير، وكذلك عقد الندوات والمؤتمرات وإلقاء المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية، ومن المؤسف أن أشدهم خطرا وعداءً للإسلام كانوا يُسْتدعوْن إلى الجامعات العربية الإسلامية في بعض البلاد ليتحدثوا عن الإسلام، فيجلس أبناء المسلمين ليتعلموا إسلامهم وأدبهم من اليهود والنصارى، بل فيهم ملاحدة لا يؤمنون بالله، وفي هذه الندوات ولقاءات التحاور يستدرجون بعض المسلمين حتى يساير المفاهيم الغربية.

وهم يخططون منذ أمد بعيد برعاية الهيئات والجامعات والمؤسسات العالمية النصرانية لاكتساح العالم الإسلامي والقضاء عليه، ويتمركزون

بصورة خاصة في أندونيسيا وماليزيا وبنجلاديش وباكستان، وفي بلدان أفريقيا بصورة عامة، كما أنهم نجحوا في تنصير أربعة أخماس الفلبين، كما نجحوا في محو المعالم الإسلامية في سنغافورة.

وقد كانت هناك خطة موضوعة لإزالة الإسلام من أفريقيا مع نهاية القرن العشرين، ويشرف على هذه الخطة بابا الفاتيكان الذي يتابع بنفسه مدى نجاح الخطة المرسومة، ولكن الله ضيع جهودهم، وباءوا بالخسران، وأصابهم الفشل في كثير من أعمالهم"[1].

• ما هي العلمانية وكيف ظهرت وما هي صورها الحقيقية؟

العلمانية كلمة ينسبونها في اللغات الأوربية للعلم، وهي ترجمة مضللة لأنها توحي بأن لها صلة بالعلم، بل المقصود بها في تلك اللغات هو إقامة الحياة بعيدا عن الدين، أو الفصل الكامل بين الدين والحياة. وقد ذكرت دائرة المعارف البريطانية في تعريف العلمانية بأنها حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها، ذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخر، ومن أجل مقاومة هذه الرغبة ظلت العلمانية تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالانجازات الثقافية البشرية، وبإمكانية تحقيق طموحاتهم في هذه الحياة القريبة، وظل الاتجاه إلى العلمانية يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية.

---

(١) ملخص بتصرف من بحث التنصير والاستشراق، د. عبد الله شاكر الجنيدي.

وهكذا يتضح أنه لا علاقة للكلمة بالعلم، إنما علاقتها قائمة بالدين ولكن علي أساس سلبي، أي علي أساس نفي الدين والقيم الدينية عن الحياة، وأولى الترجمات بها في العربية أن نسميها اللادينية بصرف النظر عن دعوي العلمانيين في الغرب بأن العلمانية لا تعادي الدين، إنما تبعده فقط عن مجالات الحياة الواقعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية وغيرها، ولكنها تترك للناس حرية التدين بالمعنى الفردي الاعتقادي على أن يظل هذا التدين مزاجا شخصي لا دخل له بأمور الحياة العملية، فاللادينية هي أقرب ترجمة تؤدي المقصود من كلمة العلمانية عند أصحابها.

وتبدو نشأة العلمانية في أوروبا أمرا منطقيا مع سير الأحداث هناك، إذا رجعنا إلى عبث الكنيسة بدينها، وتحريفه وتشويهه، وتقديمه للناس في صورة منفرة، دون أن يكون عند الناس مرجع يرجعون إليه لتصحيح هذا العبث وإرجاعه إلى أصوله، كما هو الحال مع القرآن المحفوظ بحفظ الله من كل عبث أو تحريف.

والعلمانية لها صورتان منتشرتان كل صورة منهما أقبح من الأخرى، فالصورة الأولى للعلمانية هي العلمانية الملحدة وهي التي تنكر الدين كلية وتنكر وجود الخالق البارئ المصور، ولا تعترف بشيء من ذلك، بل وتحارب وتعادي من يدعو إلى مجرد الإيمان بوجود الله، وهذه العلمانية على فجورها ووقاحتها في التبجح بكفرها، إلا أن الحكم بكفرها أمر ظاهر ميسور لكافة المسلمين، فلا ينطلي بحمد الله أمرها على المسلمين، ولا يُقبل عليها من المسلمين إلا رجل يريد أن يفارق دينه، وخطر هذه الصورة من العلمانية من حيث التلبيس على عوام المسلمين خطر ضعيف، وإن كان لها خطر عظيم من

حيث محاربة الدين، ومعاداة المؤمنين وحربهم وإيذائهم بالتعذيب أو السجن أو القتل.

أما الصورة الثانية للعلمانية فهي العلمانية غير الملحدة وهي علمانية لا تنكر وجود الله، وتؤمن به إيمانا نظريا، لكنها تنكر تدخل الدين في شؤون الدنيا، وتنادي بعزل الدين عن الدنيا، وهذه الصورة أشد خطرا من الصورة السابقة من حيث الإضلال والتلبيس على عوام المسلمين، فعدم إنكارها لوجود الله، وعدم ظهور محاربتها للتدين يغطي حقيقة هذه الدعوة الكفرية على أكثر العوام، فلا يتبينون ما فيها من الكفر لقلة علمهم ومعرفتهم الصحيحة بالدين، ولذلك تجد بعض الأنظمة الحاكمة اليوم في بلاد المسلمين إلا من رحم الله أنظمة علمانية، والكثرة الكاثرة والجمهور الأعظم من المسلمين لا يعرفون حقيقة ذلك.

ومثل هذه الأنظمة العلمانية اليوم إلا من رحم الله تحارب الدين حقيقة، وتحارب الدعاة إلى الله، وهي آمنة مطمئنة أن يصفها أحد بالكفر والمروق من الدين؛ لأنها لم تظهر بالصورة الأولى، وما ذلك إلا لجهل كثير من المسلمين. ولهذا فليس من المستبعد أو الغريب أن يجد المسلم ذو البصيرة في كلمات أو كتابات كثير من العلمانيين المعروفين بعلمانيتهم ذكر الله سبحانه وتعالى، أو ذكر رسوله ﷺ أو ذكر الإسلام، وإنما تظهر الغرابة وتبدو الدهشة عند أولئك الذين لا يفهمون حقائق الأمور.

والعلمانيون في العالم العربي والإسلامي كثيرون، منهم كثير من الكتاب والأدباء والصحفيين، ومنهم كثير ممن يسمونهم بالمفكرين، ومنهم أساتذة في الجامعات، ومنهم جمهرة غفيرة منتشرة في وسائل الإعلام المختلفة وتسيطر

عليها، ومنهم غير ذلك، وكل هذه الطبقات تتعاون فيما بينها، وتستغل أقصى ما لديها من إمكانات لنشر العلمانية بين المسلمين، حتى غدت العلمانية متفشية في أغلب جوانب الحياة.

• ما المقصود بالشيوعية وما هي أبرز أفكارها الإلحادية؟

الشيوعية الماركسية دعوة مادية تنكر الأديان كلها، وتسعى لهدمها من أصولها، واقتلاعها من جذورها ؛ لأنها لا تعترف بغير المادة، وشعارها لا إله والحياة مادة، بل إن الدين عند الشيوعية وهم، وهو مخدر يتعزى به الفقراء والكادحون.

والشيوعية هدامة من جهة مخالفتها للفطرة، فهي تبعث على الحقد بين طبقات الأمة الواحدة، وتوغر صدور بعضها على بعض، وتوهم بتوحيد طبقة العمال على الرغم من اختلاف الأوطان والأديان، وهي في الحقيقة تستعبد هذه الطبقة لصالح النظام وزعمائه، والشيوعية تهبط بالنوع البشري وتهوى به إلى الحيوانية؛ لأنها تحصر أهداف الإنسانية في الكسب والرزق وقضاء الشهوة، والشيوعية من هذه الجوانب تدخل في طوائف الكفر من أوسع أبوابه.

وقد نشأت الشيوعية في جو ملتهب بالاضطراب والاستبداد والظلم والبؤس وكل ألوان الاضطهاد، نشأت الشيوعية كنتيجة من نتائج الصراع الذي قام بين السلطة في الكنيسة والسلطة في الدولة، تماما كما نشأت العلمانية، فالكنيسة غاشمة والسلطة ظالمة، وبالتالي انتشرت المحسوبية والفساد، وابتزاز الأموال على حساب الشعوب. وقد استعملت الشيوعية بمعنى الشيوع أي تكون الأشياء مشاعة وملكيتها مشتركة، ثم أطلقت على اليسار

المتطرف الذي أطلق عليه العصبة الشيوعية سنة ١٨٤٧م.

ويعتبر ماركس هو مؤسس الشيوعية وصاحب نظرية التفسير المادي للتاريخ وهو صاحب المقولة الشهيرة، الدين أفيون الشعوب، وهو يهودي ألماني، أخذ جوهر النظرية الداروينية التي زعم فيها داروين أن الإنسان تطور من خلية أولية مائية ثم برمائية ثم تطور إلى أن أصبح قردا ثم إنسانا، أخذ ماركس هذه النظرية وأنشأ على أساسها نظرية اقتصادية وتفسيرا لحياة البشرية يحصر الإنسان في عالم المادة والتطور المادي، ويجعل قوانين المادة منطبقة على عالم البشر، كما يجعل أمور الحياة كلها من عقائد ومشاعر وأفكار ومنظمات ومؤسسات متطورا تبعا للطور الاقتصادي وللأوضاع المادية التي يعيش فيها الإنسان.

وقسم الحياة البشرية بمقتضى هذا التصور إلى خمس مراحل حتمية، هي الشيوعية الأولى، والرق والإقطاع، والرأسمالية، والشيوعية الثانية، والشيوعية الأخيرة، وجعل الانتقال من كل مرحلة إلى الأخرى أمرا حتميا من جهة، ومردودا إلى أسباب مادية واقتصادية من جهة أخري.

ويعتبر لينين الذي مات سنة ١٩٢٤م هو المسئول عن قيام الشيوعية في روسيا، وهو تلميذ كارل ماركس، ولكن بسبب أثره العميق في بلاد كثيرة في العالم، يعتبر من أخطر الرجال أثرا في التاريخ، ظهر كشخصية ثورية في غاية العنف، واستطاع أن يقفز ليكون على قمة السوفيت، وعندما توفي سنة ١٩٢٤م احتفظوا بجثمانه محنطا في متحف يشاهده الناس بالألوف يوميا في الميدان الأحمر بموسكو. وهذا هو الرجل الذي حول أفكار كارل ماركس إلى واقع بمنتهى القوة والعنف والقسوة، ومن رأيه أنه لا يمكن حل مشكلة من

المشاكل إلا بالعنف، وقد استطاع أن يجعل العنف والقهر فلسفة في الحكم، ولم يعرف التاريخ الشيوعي رجلا استطاع أن ينفرد بالقهر والإرهاب والتخويف وإبادة الملايين كما فعل لينين في الاتحاد السوفيتي دون أن تهتز له شعرة، فقد وضع أمام عينيه سيطرة الحزب على الشعب بمنتهى القسوة، وشعاره لا يلتوي الحديد بغير النار، والإنسان أشد صلابة من الحديد، فهو في حاجة إلى نار بغير دخان الضغط والقهر والعنف في كل صوره، والشيوعيون يقدسون لينين كأنه إله، رغم أنهم لا يعرفون المقدسات ولا يؤمنون بالله!

وتقوم النظرية الشيوعية على مجموعة من الأسس والمبادئ أولها إلغاء الملكية الفردية لتحل الملكية الجماعية محلها، فلا يملك أحد شيئا من وسائل الإنتاج وأدواته ملكية فردية، سواء كان الإنتاج زراعيا أو صناعيا، إنما تكون الملكية جماعية. وثانيا إلغاء الطبقات، حتى لا تصبح الطبقة المالكة هي التي تحكم، فطالما كان هناك ملكية فردية فهناك طبقات، ولا بد من إلغاء الأمرين. وثالثا كفالة الدولة لجميع المواطنين، وفي مقابل كفالة الدولة لجميع المواطنين فإنه ينبغي على كل قادر على العمل أن يعمل رجالا ونساء ومن لا يعمل لا يأكل. ورابعا المساواة في الأجور، وتقوم النظرية الشيوعية على أساس مبدأ المساواة بين جميع الأفراد في المجتمع، لأن هذه هي الصورة التي كانت عليها البشرية في الشيوعية الأولى، وهي عندهم الأصل الذي تستمد منه كل المبادئ التي ينبغي أن تعود إليها البشرية.

وخامسا وهو الأهم إلغاء الدين حيث تعتبر الشيوعية الدين خرافة ونحن الآن في عصر العلم، كما أن الدين يخالف المعتقد الشيوعي القائم في نظرهم على أسس علمية، والدين أفيون الشعب فقد كان المستغلون من

الإقطاعيين والرأسماليين يستخدمونه لتخدير الجماهير لكي ترضى بالظلم الواقع عليها ولا تتمرد عليه، مقابل الحصول على نعيم الجنة في الآخرة.

• **ما هي الوجودية وما هي أبرز مبادئها وأفكارها المنحرفة؟**

الوجودية مبنية استغنائه الإنسان بنفسه عن غيره في اتخاذ قراراته دون الحاجة إلى موجه ديني، وأن الإنسان صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار ولا يحتاج إلى موجه، وهي فلسفة تعبر عن جملة من الاتجاهات والأفكار المتباينة التي تتعلق بالحياة والموت والمعاناة والألم، وليست نظرية فلسفية واضحة المعالم، ونظرا لهذا الاضطراب والتذبذب لم تستطع إلى الآن أن تأخذ مكانها بين العقائد والأفكار.

ويرى رجال الفكر الغربي أن مؤسس المدرسة الوجودية هو سورين كيركجورد المتوفى سنة ١٨٥٥م، ومن مؤلفاته كتاب رهبة واضطراب، وأشهر زعمائها المعاصرين جان بول سارتر الفيلسوف الفرنسي المولود سنة ١٩٠٥م وهو ملحد، ويناصر الصهيونية وله عدة كتب وروايات تمثل مذهبه، منها الوجودية مذهب إنساني، الوجود والعدم.

وأهم معتقدات الوجودية أنهم يكفرون بالله ورسله وكتبه وبكل الغيبيات وكل ما جاءت به الأديان ويعتبرونها عوائق أمام الإنسان نحو المستقبل، وقد اتخذوا الإلحاد عقيدة ومبدأ. ويعاني الوجوديون من إحساس أليم بالضيق والقلق واليأس والشعور بالسقوط والإحباط، لأن الوجودية لا تمنح شيئا ثابتا يساعد على التماسك والإيمان، وتعتبر الإنسان قد ألقي به في هذا العالم وسط مخاطر تؤدي به إلى الفناء، ويؤمنون إيمانا مطلقا بالوجود الإنساني ويتخذونه منطلقا لكل فكرة، ويعتقدون بأن الإنسان أقدم شيء في

الوجود، وما قبله كان عدما، وأن وجود الإنسان سابق لماهيته.

ويعتقدون أن الأديان والنظريات الفلسفية التي سادت خلال القرون الوسطى والحديثة لم تحل مشكلة الإنسان، ويقولون إنهم يعملون لإعادة الاعتبار الكلي للإنسان ومراعاة تفكيره الشخصي وحريته وغرائزه ومشاعره، وقد أدى فكرهم إلى شيوع الفوضى الخلقية والإباحية الجنسية والتحلل والفساد، والوجودي الحق عندهم هو الذي لا يقبل توجيها من خارج ذهنه، إنما يسير نفسه بنفسه، ويلبي نداء شهواته وغرائزه دون قيود ولا حدود.

وتمثل الوجودية اليوم واجهة من واجهات الصهيونية الكثيرة التي تعمل من خلالها، وذلك بما تبثه من هدم للقيم والعقائد والأديان، وقد ظهرت في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى ثم انتشرت في فرنسا وإيطاليا وغيرهما، وقد اتخذت من بشاعة الحروب وخطورتها على الإنسان مبررا للانتشار السريع، وترى حرية الإنسان في عمل أي شيء متحللا من كل الضوابط، وهذا المذهب يعد اتجاها إلحاديا يمسخ الوجود الإنساني ويلغي رصيد الإنسانية، وقد انتشرت أفكارهم المنحرفة المتحللة بين المراهقين والمراهقات في فرنسا وألمانيا والسويد والنمسا وإنجلترا وأمريكا وغيرها، حيث أدت إلى الفوضى الخلقية والإباحية الجنسية واللامبالاة بالأعراف الاجتماعية والأديان.

- **ما هو مذهب العقلانية في الفكر المعاصر وما علاقته بالمعتزلة؟**

العقلانية مذهب فكري يزعم أنه يمكن الوصول إلى معرفة طبيعة الكون والوجود عن طريق الاستدلال العقلي بدون الاستناد إلى الوحي الإلهي أو التجربة البشرية، وكذلك يرى إخضاع كل شيء في الوجود للعقل سواء لإثباته أو نفيه أو تحديد خصائصه.

ويحاول المذهب إثبات وجود الأفكار في عقل الإنسان قبل أن يستمدها من التجربة العملية الحياتية، أي أن الإدراك العقلي المجرد سابق على الإدراك المادي المجسد. والعقلانية مذهب قديم جديد في نفس الوقت، برز في الفلسفة اليونانية على يد سقراط وأرسطو، ثم الجهمية والمعتزلة والأشعرية في دولة الإسلام، وبرز في الفلسفة الحديثة والمعاصرة على أيدي بعض الفلاسفة أبرزهم ديكارت (ت:١٦٥٠م)، وهو فيلسوف فرنسي اعتمد المنهج العقلي لإثبات الوجود عامة ووجود الله على وجه أخص، وذلك من مقدمة واحدة عُدت من الناحية العقلية عند هؤلاء غير قابلة للشك وهي قوله: أنا أفكر فأنا إذن موجود.

وفي المجتمع الإسلامي نجد أن المعتزلة قد اعتمدوا على العقل وجعلوه أساس تفكيرهم ودفعهم هذا المنهج إلى تأويل النصوص من الكتاب والسنة التي تخالف رأيهم، ولعل أهم مقولة لهم قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ولو لم يرد بها شيء، ونقل المعتزلة الدين إلى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية وذلك لتأثرهم بالفلسفة اليونانية.

وقد فند علماء الإسلام آراء المعتزلة في عصرهم، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل ثم جاء بعد ذلك ابن تيمية ورد عليهم ردا قويا في كتابه درء تعارض العقل والنقل، وبين أن صريح العقل لا يمكن أن يكون مخالفا لصحيح النقل، وهناك من يحاول اليوم إحياء فكر المعتزلة بتبني مذهب العقلانية.

وتعتمد العقلانية على عدد من المبادئ الأساسية أبرزها أن العقل لا الوحي هو المرجع الوحيد في تفسير كل شيء في الوجود، ويمكن الوصول إلى المعرفة عن طريق الاستدلال العقلي وبدون لجوء إلى أية مقدمات تجريبية،

ومن مبادئهم عدم الإيمان بالمعجزات أو خوارق العادات، وأن العقائد الدينية ينبغي أن تختبر بمعيار عقلي.

- **اذكر مختصرا موجزا عن الوضعية كمذهب فلسفي ملحد؟**

المذهب الوضعي مذهب فلسفي ملحد يرى أن المعرفة اليقينية هي معرفة الظواهر التي تقوم على الوقائع التجريبية، وينطوي على إنكار وجود معرفة تتجاوز التجربة الحسية، ولاسيما فيما يتعلق بالغيبيات، وقد تأسس المذهب الوضعي في فرنسا على يد الفيلسوف كونت (ت:١٨٥٧م)، ومعظم من جاء بعده طبق منهجه في العلم والمعرفة، وقد نشر كتابه محاضرات في الفلسفة الوضعية، بسط فيه نظريته في المعرفة والعلوم، وقد نادى بضرورة قيام دين جديد هو الدين الوضعي يقوم على أساس عبادة الإنسان كفكرة تحل محل عبادة الله سبحانه وتعالى في الأديان السماوية.

ومن أبرز شخصيات هذا المذهب سان سيمون (ت:١٨١٣م) وهو فيلسوف فرنسي اشتراكي النزعة، جعل الوضعية مبنية على العلوم القائمة على الوقائع الخاضعة للملاحظة والتحليل، والعلوم التي لم تؤسس على هذا النحو يسميها العلوم الظنية، ومنهم وزكي نجيب محمود وهو مفكر عربي مصري، تبع الفلسفة الوضعية الملحدة، وتبنى أفكارها، وألف كتاب المنطق الوضعي.

وقد صاغ الفيلسوف الفرنسي كونت مبادئ وأفكار المذهب الوضعي، ثم بلور من جاء بعده من الوضعيين هذه الأفكار وسار على منهجها، وقد استحوذت على تفكير كونت فكرة التقدم الإنساني، ووضع كونت قانون التقدم الإنساني، وهو قانون الحالات الثلاث الذي يتقدم العقل البشري بمقتضاه من المرحلة اللاهوتية إلى المرحلة الميتافيزيقية ثم إلى المرحلة الوضعية

الأخيرة. وقد قسم كونت المرحلة اللاهوتية إلى ثلاث مراحل، المرحلة الوثنية والمرحلة التعددية والمرحلة التوحيدية وهي المرحلة الأخيرة التي بدأت بظهور النصرانية والإسلام، أما المرحلة الوضعية بدأت بالثورة الفرنسية، وهي المرحلة التي تفسر الظواهر عن طريق الاستقرار القائم على الملاحظة، ويطبق كونت هذا القانون في التطور على جميع العلوم الإنسانية والاجتماعية مثل الحضارة والسياسة والفن والأخلاق.

وقد اعتبر فرنسيس بيكون ١٦٢٦م نفسه داعية للعلوم الجديدة، وهي العلوم التي كانت في طريقها إلى الانفصال عن الفلسفة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وربما عد بيكون بادئ الوضعية وواضع الاسم الذي سميت به في القرن التاسع عشر، ففي كتابه في المبادئ والأصول ١٦٢٣م أطلق بيكون صفة وضعي على الحقائق الأولية التي يجب تقلبها إيمانا بصدق الخبرة. وقد كان بيكون موضع تقدير كبير من الفلاسفة التجريبيين في القرن التاسع عشر في كل من إنكلترا وفرنسا، وأصبحت كلمة وضعي تطلق على مناهج العلوم الطبيعية، نظرا لاعتماد هذه المناهج على الملاحظة واستخدمها للتجربة، وقد اقتبس كونت هذه الأفكار وأقام عليها نظريته وقانونه الوضعي.

- **ما حقيقة مذهب الفرويدية كمذهب تحليلي جنسي؟**

الفرويدية مدرسة في التحليل النفسي أسسها اليهودي سيجموند فرويد، وهي تفسر السلوك الإنساني تفسيرا جنسيا، وتجعل الجنس هو الدافع وراء كل شيء، كما أنها تعتبر القيم والعقائد حواجز وعوائق تقف أمام الإشباع الجنسي مما يورث الإنسان عقدا وأمراضا نفسية.وقد ولد سيجموند فرويد

سنة ١٨٥٦م من والديْن يهوديين.

ومن تلاميذ فرويد كارل جوستاف ١٩٦١م، وهو مسيحي نصبه فرويد رئيسا للجمعية العالمية للتحليل النفسي، لكنه خرج على أستاذه معتقدا بأن هذه المدرسة التحليلية ذات جانب واحد وغير ناضجة، وحدث انسلاخ كبير عن الفرويدية الأصلية، وذلك عندما تكونت الفرويدية الحديثة التي كان مركزها مدرسة واشنطن للطب العقلي، وهي مدرسة تتميز بالتأكيد على العوامل الاجتماعية معتقدة أن ملامح الإنسان الأساسية إيجابية.

والأسس التي تركز عليها المدرسة التحليلية هي الجنس والطفولة والكبت، وهم يركنون إلى إشباع الرغبة الجنسية، وذلك لأن الإنسان عندهم صاحب الطاقة الجنسية القوية والذي لا تسمح له النصرانية إلا بزوجة واحدة؛ إما أن يرفض قيود المدنية ويتحرر منها بإشباع رغباته الجنسية، وإما أن يكون ذا طبيعة ضعيفة لا يستطيع الخروج على هذه القيود فيسقط صاحبها فريسة للمرض النفسي ونهبا للعقد النفسية.

ويزعمون أن الامتناع عن الاتصال الجنسي قبل الزواج قد يؤدي إلى تعطيل الغرائز عند الزواج، ودعوا إلى تحريم بقاء المرأة عذراء قبل الزواج، وزعموا أن ذلك يحمل مشكلات وأمراضا لكلا الطرفين، واستدلوا على ذلك بأن بعض الأقوام البدائية كانت تقوم بإسناد أمر فض البكارة لشخص آخر غير الزوج، وذلك ضمن احتفالات وطقوس رسمية. لقد برز عندهم عشق المحارم لأن اليهود أكثر الشعوب ممارسة له بسبب انغلاق مجتمعهم الذي يحرم الزواج على أفراده خارج دائرة اليهود، وقد استغل اليهود هذه النظرية وقاموا بإنتاج عدد من الأفلام الجنسية الفاضحة التي تعرض نماذج

من الزنا بالمحارم، وفي كفاحهم ضد القيود، والأوامر العليا الموجهة إلى النفس، صاروا إلى محاربة الدين واعتباره لونا من المرض النفسي.

ويرى فرويد أن العقائد الدينية أوهام لا دليل عليها، فبعضها بعيد عن الاحتمال، ولا يتفق مع حقائق الحياة، وهي تقارن بالهذيان، ومعظمها لا يمكن التحقق من صحته، ولابد من مجيء اليوم الذي يصغى فيه الإنسان لصوت العقل، وحديثه عن الكبت فيه إيحاءات قوية وصارخة بأن الوقاية منه تكمن في الانطلاق والتحرر من كل القيود، كما يحرم الإدانة الخلقية على أي عمل يأتيه المريض، مركزا على الآثار النفسية المترتبة على هذه الإدانة في توريثه العقد المختلفة مما يحرفه عن السلوك السوي.

ومن أكبر الآثار المدمرة لآراء فرويد أن الإنسان حين كان يقع في الإثم كان يشعر بالذنب وتأنيب الضمير، فجاء فرويد ليريحه من ذلك، ويوهمه بأنه يقوم بعمل طبيعي لا غبار عليه، وبالتالي فهو ليس بحاجة إلى توبة، وبذلك أضفى على الفساد صفة أخلاقية، وقد بدأت هذه الحركة لفرويد في فيينا، وانتقلت إلى سويسرا، ومن ثم عمت أوروبا، وصارت لها مدارس في أمريكا، وانتقلت هذه النظرية إلى العالم كله لاسيما بلاد المسلمين عن طريق الطلاب الذين يذهبون إلى هناك ويعودون لنشرها في بلادهم.

- **عرف بمذهب البرجماتية الذرائعية والمنفعة الواقعية؟**

البرجماتية الذرائعية مذهب فلسفي اجتماعي يقوم على المنفعة، وأن صدق قضية ما هو في كونها مفيدة للناس، وقد أصبحت الذرائعية طابعا مميزا للسياسة الأمريكية، وفلسفة الأعمال الأمريكية كذلك، لأنها تجعل الفائدة العملية معيارا للتقدم بغض النظر عن المحتوى الفكري أو الأخلاقي أو

العقائدي، وقد نشأت الذرائعية البرجماتية كمذهب عملي في الولايات المتحدة الأمريكية مع بداية القرن العشرين، وقد وجدت في النظام الرأسمالي الحر الذي يقوم على المنافسة الفردية خير تربة للنمو والازدهار.

ومن أبرز رموز المذهب تشارلس بيرس (ت:١٩١٤م) وهو مبتكر كلمة البرجماتية في الفلسفة المعاصرة، عمل محاضرا في جامعة هارفارد الأمريكية، وكان متأثرا بداروِن ووصل إلى مثل آرائه، وكان أثره عميقا في الفلاسفة الأمريكيين.

ومن أهم أفكار ومعتقدات المذهب الذرائعي البرجماتي أن أفكار الإنسان وآراءه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولا ثم السير نحو السمو والكمال ثانيا، وإذا تضاربت آراء الإنسان وأفكاره وتعارضت كان أحقها وأصدقها أنفعها وأجداها، والنفع هو الذي تنهض التجربة العملية دليلا على فائدته، كما أن العقل خُلق أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها، فليست مهمته تفسير عالم الغيب المجهول، بل يجب أن يتوجه للحياة العملية الواقعية. وعندهم أن الاعتقاد الديني لا يخضع للبيئات العقلية، والتناول التجريبي الوحيد له هو آثاره في حياة الإنسان والمجتمع إذ يؤدي إلى الكمال، بما فيه من تنظيم وحيوية، ويعتبرون النشاط الإنساني له وجهتان، فهو عقل، وهو أداة، ونموه كعقل ينتج العلم، وحين يتحقق كإرادة يتجه نحو الدين، فالصلة بين العلم والدين ترد إلى الصلة بين العقل والإرادة.

إن البرجماتية أو الذرائعية ثورة ضد الفكر النظري البعيد عن الواقع وعن الإنسان خاصة والذي لا يخدم الإنسان في حياته العملية، أما كلمة برجماتية فكانت قليلة الاستعمال في اللغة الإنكليزية، ولم تكن تستعمل مطلقا في سياق

الحديث الفلسفي، حتى أدخلها الفيلسوف الأمريكي بيرس عام ١٨٧٨م كقاعدة منطقية معرفا البرجماتية بأنها النظرية القائلة بأن الفكرة إنما تنحصر فيما نتصوره لها من أثر على مسلك الحياة.

- **انتشر مصطلح العولمة بصورة غامضة فما المراد بالعولمة؟**

ما زال مصطلح العولمة من المصطلحات الغامضة التي لم تُحدد معالمه بدقة؛ على الرغم من كثرة الكتب والدراسات التي كتبت فيه، لكن مصطلح العولمة اقترن بمصطلح الأمركة، نظرا إلى التقدم التكنولوجي في مختلف مجالات الحياة الأمريكية وبطريقة أصبح الوجود الإنساني شديد التشابك والارتباط بما تصدره أمريكا.

والعولمة مذهب من عملية أمريكية تنخرط من خلالها الشعوب والدول عبر القارات والأقاليم في سلوك نمط من القيم الغربية الأمريكية، فأظهرت للوجود نوعا من المؤسسات المشتركة لم تكن معهودة من قبل، ولعل الطابع التكنولوجي والاقتصادي والإعلامي للعولمة زاد من تأثيرها الثقافي والاجتماعي والسياسي، فصارت الأرض كلها تقوم على مبادئ السوق والتبادل التجاري والإعلامي والتكنولوجي والثقافي والمعرفي، وانتهت بسببه كثير من المفاهيم المحلية لمفردات الحياة.

وقد أصبحت الحضارة الغربية من خلال العولمة هي قانون العصر المهيمن، فالغرب أتلف الرؤية الصحيحة للوجود وأتلف الفطرة النقية المبنية على تعبيد الناس لربهم والافتقار الاختياري إلى خالقهم، وكل ذلك بسبب الثقافة الغربية التي أخضعت كل شيء، وكل فكرة إلى مقاييس المادة واعتبارها المنهج العلمي الصحيح، فالتطور الهائل الذي عرفته العلوم

الطبيعية والتكنولوجية قائم على الفكر المادي البحت، وصار الاعتقاد وأوامر الدين وفق النظرة المادية الوضعية من قبيل الشأن الشخصي الذي لا علاقة له بالواقع، وبالتالي فالعولمة منهج غربي مادي ينكر الغيب وما يتصل به من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وترفض الحضارة الغربية وفق منهجها العلمي أي مصدر آخر للمعرفة خارج عن نطاق التجربة والمشاهدة، ولا يوجد هناك ما يسمى ثوابت مثل القيم والأخلاق، لأنها ليست أشياء يمكن تقديرها بالكم، فالصدق والمحبة والتواضع بما أنه لا يمكن وزنها ولا قياسها بالأرقام فهي في المفهوم الغربي شيء مفتعل وغير موجود، ولا ثمرة من ورائها.

لقد غدت الأخلاق بالمفهوم الغربي ذات طابع نفعي تجاري، فالرجل لا يكذب لأن سمعته تتأثر، فإذا لم تتأثر فلا بأس، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن التحلل من القيم الدينية صار موضة وعلامة على الحضارة الغربية التي هتكت الأستار وعرت الإنسان، وتجاوزت في إباحيتها كل وصف، وهذا الذي دفع كثيرا من الشباب إلى الانتحار بطرقه المختلفة، إما بالانغماس في عالم الرذيلة والمخدرات والفجور، وأصيبت الأسرة بالانهيار والتفكك، واختلت كل القيم الروحية التي تفتح أمام الإنسان أبواب الأمل في الحياة الكريمة التي يؤدي فيها العلة من وجوده.

وأما تحدي الفساد الكوني للعولمة فالإحصاءات تشير إلى التدهور الخطير الذي أحدثته هذه الثورة في الطاقة الإنتاجية للطبيعة فازداد التلوث لدرجة تهدد الجنس البشري، بل أصبح سائر الناس بدولهم مطالبين في نظام العولمة بتحمل تبعات التقدم الصناعي الغربي الذي يستفيد وحده من هذه العولمة،

فالغابات بدأت تضمحل، وانخفض مستوى المسطحات المائية بصورة مفزعة، كما أن تكنولوجيا القتل الجديدة تهدد بقتل البشر وغيرهم من الكائنات الحية، وكذلك الأسلحة الكيميائية والبكتيرية الفيروسية، والنووية من أحدث تقنيات هذه التكنولوجيا القاتلة للحياة على كوكب الأرض، وإذا نظرنا إلى مخزون الولايات المتحدة وروسيا الذي يصل إلى مئة ألف سلاح نووي، تبلغ قوة كثير منها أكبر من القنبلتين اللتين ألقيتا على اليابان آلاف المرات، فإذا انفجر حتى جزء قليل منها فليس هناك احتمال أن يبقى على قيد الحياة أي كائن من الكائنات الثديية، كما سوف تقاسي الكائنات الأخرى من أضرار مرعبة، ولن يصبح العالم قابلا للحياة بالنسبة للجميع.

• ما هي حقيقة الديمقراطية والنظام الديمقراطي المعاصر؟

الديمقراطية كلمة تعني سلطة الشعب، ومعناها الحكم الذي تكون فيه السلطة للشعب، وتطلق على نظام الحكم الذي يكون الشعب فيه رقيبا على أعمال الحكومة بواسطة المجالس النيابية، ويكون لنواب الأمة سلطة إصدار القوانين التشريعية، ولازم ذلك زوال الأحكام الشرعية ورفعة الأحكام الوضعية التي يكون الحكم فيها بغير ما أنزل الله.

وعلى ذلك فإن الديمقراطية أسلوب غربي في الحكم، يراد تعميمه على كل المجتمعات بزعم أنه الأصلح للبشرية، وليس معناها الشورى كما يزعم البعض ولكنها في حقيقتها نوع من إبعاد الشريعة الإسلامية والتحاكم إلى الطاغوت، هذا فضلا عن عدم واقعيتها في المجتمعات الغربية أو العربية فالذين نادوا بالديمقراطية من الحكام نهبوا البلاد وأذلوا العباد تحت مسمى الديمقراطية، فأغلب من رفع شعارها أراد النفعية الشخصية.

والمجتمعات الغربية في أوربا وأمريكا اختاروا النظام الديمقراطي لأن أغلبهم أصحاب دنيا لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، والنصارى منهم ليس لديهم شرع متكامل يحقق الغاية من وجود الإنسان في الحياة، أو ينظر إلى الحياة على أنها وسيلة إلى الآخرة يسعى فيها الإنسان لتحقيق مرضاة الله، ومع أن الإسلام نظام كفيل بسعادة كل من تمسك به من جماعات وأفراد ودول، ولا يحتاج أن يستعير من غيره شيئا، إلا أنهم يستكبرون عن الدخول فيه فكانت الديمقراطية أفضل إطار مناسب للحكم في الغرب بعيدا عن الإسلام ونظامه.

ومن المؤسف أن دعاة الديمقراطية من المنتسبين للإسلام في هذا الزمان يصفونها بأنها أرقى ما وصل إليه العقل البشري في الحرية والمساواة، فكل من وقع عليه الظلم يستطيع أن يدفعه عنه بواسطة نائبه، وكذلك من تعسر عليه الوصول إلى حق يستعين بنائبه على الوصول إليه، وفيها حرية الاعتقاد والانتقاد في ضمن القانون، وإبداء الرأي وسائر الحريات مكفولة، فلا يعاقب أحد بحبس أو غرامة إلا إذا خالف القانون المتفق عليه، وتوزع الحقوق والواجبات بالتساوي، فلا يعفى من الواجبات أحد كيف ما كان مركزه، فيكون كل فرد آمنا مطمئنا على نيل حقوقه.

وقد تناسى هؤلاء قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ النساء:٦٠. وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا

يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥.

والديمقراطية لا تمانع في اختيار القوانين التي وافقت عليها الأغلبية حتى لو كانت إباحة المخدرات أو الشذوذ الجنسي أو القمار أو الزنا فإنه يصبح قانونا ويتم تطبيقه وحمايته.

• ما حقيقة الدعوة إلى حركة القومية العربية المعاصرة؟

القومية العربية حركة سياسية فكرية متعصبة، تدعو إلى تمجيد العرب، وإقامة دولة موحدة لهم على أساس من رابطة الدم واللغة والتاريخ، وإحلالها محل رابطة الدين.

وقد ظهرت بدايات الفكر القومي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين متمثلة في حركة سرية تألفت من أجلها الجمعيات والخلايا في عاصمة الخلافة العثمانية، ثم في حركة علنية في جمعيات أدبية تتخذ من دمشق وبيروت مقرًّا لها، ثم في حركة سياسية واضحة المعالم في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس سنة ١٩١٢م.

ومن أهم الجمعيات ذات التوجه القومي الجمعية السورية في دمشق وبيروت وطرابلس وصيدا، وجمعية حقوق الملة العربية وهي تهدف إلى وحدة المسلمين والنصارى، وجمعية رابطة الوطن العربي، وقد ظلت الدعوة إلى القومية العربية محصورة في نطاق الأقليات الدينية غير المسلمة، وفي عدد محدود من أبناء المسلمين الذين تأثروا بفكرتها، ولم تصبح تيارا شعبيا عاما إلا حين تبنى الدعوة إليها الرئيس المصري جمال عبد الناصر حين سخر لها أجهزة إعلامه وإمكانيات دولته، ويمكن أن يقال إنها الآن تعيش فترة

انحسار أو جمود على الأقل.

ويعتبر ساطع الحصري ١٩٦٨م داعية القومية العربية وأهم مفكريها وأشهر دعاتها، وله مؤلفات كثيرة تعد الأساس الذي يقوم عليه فكرة القومية العربية، ويأتي بعده في الأهمية ميشيل عفلق. والفكر القومي يعلي من شأن رابطة القربى والدم على حساب رابطة الدين، بل بعضهم يصر على إبعاده إبعادا تامًّا عن الروابط التي تقوم عليها الأمة، بحجة أن ذلك يمزق الأمة بسبب وجود غير المسلمين فيها ويرون أن رابطة اللغة والجنس أقدر على جمع كلمة العرب من رابطة الدين.

ويدعو الفكر القومي إلى تحرير الإنسان العربي من الخرافات والإيمان بالغيبيات والأديان كما يزعمون، لذلك يتبنى شعار الدين لله والوطن للجميع، والهدف من هذا الشعار، إقصاء الإسلام عن أن يكون له أي وجود فعلي من ناحية، وجعل أخوة الوطن مقدمة على أخوة الدين من ناحية أخرى. ويرى الفكر القومي أن الأديان والأقليات والتقاليد المتوارثة عقبات ينبغي التخلص منها من أجل بناء مستقبل الأمة، ويقول عدد من قادة هذا الفكر نحن عرب قبل محمد وعيسى وموسى صلوات الله عليهم.

• ما هي حقيقة البرمجة اللغوية العصبية وأفكارها الوثنية؟

البرمجة اللغوية العصبية هي إعادة تفكيك المعتقدات الموجودة عند الإنسان وإزالتها شيئا فشيئا لكي يضع معتقدات أخرى جديدة، سواء كانت معتقدات دينية أو غيرها، والبرمجة في أصلها عبارة عن مدرسة نفسية أنشأها أمريكيان هما ريتشارد باندلر، وجون جندر سنة ١٩٧٣م، أنشئوا الإتحاد العالمي للبرمجة اللغوية العصبية سنة ١٩٩٣م ثم انتقلت إلى العالم العربي، وأنشئ

الإتحاد العربي للبرمجة اللغوية العصبية سنة٢٠٠٠م.

وحقيقة البرمجة هي عملية تفكيك للمعتقدات وإزالتها، فالشخص الذي يعتقد أنه ضعيف يعاد تفكيك اعتقاداته ويبرمج من جديد ليعتقد أنه قوي، ولو وجد من يعتقد أنه فاشل، يفكك هذا المعتقد ويوضع مكانه معتقد إيحائي بأنه ناجح وهكذا، تفكيك المعتقدات القديمة ليعاد برمجتها على معتقدات جديدة من وضع غير المسلمين.

وكلمة البرمجة توحي بأن الإنسان يعامل كآلة أو جهاز كمبيوتر يعاد تهيئته لكل جديد من البرامج الوافدة، فننزع المواد التي بداخله ونضع مواد جديدة بغض النظر عن المشاعر الإنسانية، أو المعتقدات الإيمانية، أو حب الله ورسوله ﷺ، أو الإيمان بالغاية من وجود الإنسان وعبادته لله، فيتعاملون مع الإنسان كجهاز كمبيوتر، ويسقطون الجانب الوهبي الذي منحه الله لمن شاء من عباده. وأصحاب البرمجة يزعمون أن سعيهم إنما هو برمجة الإنسان ليستطيع تحقيق النجاح مثل إسحاق نيوتن، أو إديسون أو عالم من العلماء، وننظر كيف نجح هذا الشخص فنحاكي طريقته في النجاح، وهذا منطلق لا يراعي الحكم العليا في تحقيق معاني الابتلاء التي خلق الإنسان من أجلها، كما أن مفهوم النجاح والفشل ضابطه التقوى والإتباع، وليس كثرة المال أو الغني أو الشهرة أو المكانة كما يصورها أصحاب البرمجة اللغوية العصبية، لأن النجاح عند المصدرين لهذه البرمجة هو نجاح دنيوي زائف.

والخطر في البرمجة اللغوية العصبية ليس فقط أنها وافدة من مشبوهين فقط، بل لأنها تحمل فلسفاتهم وعقائدهم، كما أنها ليست مجرد نتائج لأبحاث علمية أو دراسات نفسية محايدة حتى نعتبرها حكمة مشتركة يسوغ لنا أن

ننتقي منها ما يوافق ثوابتنا، بل هي فكر فلسفي عقدي ملحد يلبس ثوب الحكمة والعلم ليتسلل في صفوفنا.

وقد انتقلت بدعة البرمجة اللغوية العصبية من الغرب عن طريق مجموعة من المسلمين الذين خدعوا بها كان أبرزهم إبراهيم الفقي وهو رجل مصري هاجر إلى كندا لدراسة الإدارة، وفتن بالبرمجة العصبية وعاد ودرب أكثر من ستمائة ألف شخص، ونشر بينهم هذا الفكر الوثني الخبيث الذي يعتمد في فلسفة البرمجة على تعظيم قدرات الإنسان التي يحققها عقله الباطن، وأصبحت سلوكيات وفلسفات البوذيين والعقائد الطاوية الوثنية والفلسفة المهاريشية في تعظيم الذات وما يسمى بقوى النفس الخارقة أصبحت هذه الفلسفة عبودية للعقل الباطن حتى جعلوا النفس إلها يُعبد من دون الله.

خاتمة كتاب سهل

- **ما هو مجمل اعتقاد الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة؟**

مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة هو الإيمان بكل ما جاء في القرآن وصح في السنة بفهم سلف الأمة، وفهم سلف الأمة يقوم على ركنين أساسيين هما تصديق الخبر، وتنفيذ الأمر؛ مع عدم تقديم العقل على النقل عند توهم التعارض بينهما.

وقد بين الإمام أبو جعفر الطحاوي عقيدة أهل السنة والجماعة على وجه الإجمال، وذكر عقيدتهم في أغلب المسائل الاعتقادية التي ضلت فيها مختلف الفرق الإسلامية، وتعد هذه العقيدة بحق معبرة عن عقيدة السلف الصالح إلا في بعض الأمور التي تتطلب إعادة النظر فيها بما يوافق الأدلة القرآنية والنبوية، وهذه العقيدة هي أفضل ما نختتم به كتاب سهل في التوحيد والعقيدة، وبيانها على النحو التالي:

عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يقولون في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له، ولا شيء مثله، ولا شيء يعجزه، ولا إله غيره، أول لا شيء قبله، وآخر لا شيء بعده، حيٌّ لا يموت، قيوم لا ينام، خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة، ما زال بصفاته أولا قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئا، لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزليا، كذلك لا يزال عليها أبديا، ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق، ولا بإحداث البرية استفاد اسم الباري، له وصف الربوبية ولا مربوب، ووصف الخالقية ولا مخلوق، وكما أنه

محيي الموتى بعدما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم، ذلك بأنه على كل شيء قدير، وكل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

خلق الخلق بتقديره وعلمه، وكتب أمورهم بقلمه في لوحه، فقدر لهم أقدار، وضرب لهم آجالا، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته، فكل شيء يجري بتقديره ومشيئته وقدرته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن، يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي فضلا، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلا، وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله، وهو متعال عن الأضداد والأنداد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره، قضاء وحكما وأمرا كونيا.

آمنّوا بذلك كله، وأيقنوا أن كلا من عنده، وأن محمدا ﷺ عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى، وأنه خاتم الأنبياء، وإمام الأتقياء، وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين، وكل دعوى النبوة بعده فغي وهوى، وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى بالحق والهدى، وبالنور والضياء.

وآمنوا أن القرآن كلام الله، منه بدأ بلا كيفية قولا، وأنزله على رسوله ﷺ وحيا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ المدثر:٢٦. فلما أوعد الله بسقر لمن قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ المدثر:٢٥. علمنا وأيقنا أنه قول

خالق البشر، ولا يشبه قول البشر، ومن وصف الله بصفة البشر فقد كفر، فمن أبصر هذا اعتبر، وعن مثل قول الكفار انزجر، وعلم أنه بصفاته ليس كالبشر.

والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ القيامة:٢٢/ ٢٣. وتفسيره على ما أراده الله تعالى وعلِمَه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، ولا ندخل في ذلك متأوّلين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلِم في دينه إلا من سلّم لله ﷻ ولرسوله ﷺ، وردَّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه.

ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوسا تائها شاكا، لا مؤمنا مصدقا، ولا جاحدا مكذبا، ومن لم يتوق التعطيل والتمثيل زل، ولم يصب التوحيد، فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية والأحدية والوترية، ليس في معناه أحد من البرية.

والمعراج حق، وقد أُسري بالنبي ﷺ، وعرج بشخصه في اليقظة إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العلا، وأكرمه الله بما شاء، وأوحى إليه ما أوحى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾النجم:١١. فصلى الله عليه وسلم في الآخرة والأولى.

والحوض الذي أكرمه الله تعالى به غياثا لأمته حق، والشفاعة التي ادخرها لهم حق، كما روي في الأخبار، والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق، وقد علم الله تعالى وقدر فيما كتبه في اللوح المحفوظ عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار جملة واحدة، فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه، وكذلك أفعالهم فيما قدر بعلمه أن يفعلوه، وكل ميسر لما خُلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله الكوني، واتباعه لقضائه الشرعي، والشقي من شقي بقضاء الله الكوني ومخالفته لقضائه الشرعي.

وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يَطَّلع على ذلك ملكٌ مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأنبياء:٢٣. فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين، فهذا جملة ما يحتاج إليه من نور الله قلبه من أوليائه، وهي درجة الراسخين في العلم، لأن العلم علمان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود كفر، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود، وترك طلب العلم المفقود.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يقولون: نؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد رُقم، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائنٌ، ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ليجعلوه كائنا لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى

يوم القيامة، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه وتقديره في كل كائن من خلقه، فقدر ذلك تقديرا محكما مبرما ليس فيه ناقض، ولا معقب، ولا مزيل، ولا مغير، ولا ناقص، ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه، وذلك من عقد الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿ٱلَّذِى وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾ الفرقان:٢. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ٣٨﴾الأحزاب:٣٨. فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيما، وأحضر للنظر فيه قلبا سقيما، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرا كتيما، وعاد بما قال فيه أفّاكا أثيما.

والعرش والكرسي حق، وهو سبحانه غني عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يقولون: إن الله اتخذ إبراهيم خليلا، وكلم الله موسى تكليما، إيمانا وتصديقا وتسليما، ونؤمن بالملائكة والنبيين، والكتب المنزلة على المرسلين، ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين، ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، ولخبره مصدقين ولأمره طائعين.

ولا نخوض في الله، ولا نماري في دين الله، ولا نجادل في القرآن، ونشهد أنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فعلمه سيد المرسلين محمدا ﷺ، وهو كلام الله تعالى لا يساويه شيء من كلام المخلوقين، ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين.

ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب كالخوارج، ولا نقول بقول المرجئة: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله، ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته، ولا نأمن عليهم، ولا نشهد لهم بالجنة، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم، ولا نقنطهم، والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة، ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بانتفاء ركن من الأركان التي بينتها أدلة الكتاب والسنة، والإيمان في باب طاعة الأمر هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان، والعمل بالجوارح والأركان، وأركان الإيمان التي يدل عليها الإيمان المطلق بالمطابقة هي علم القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح، وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق، والإيمان يزيد بالخشية والتقى، ومخالفة الهوى، وملازمة الأولى، وينقص بما يقابل ذلك .

والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن، وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن، والإيمان في باب تصديق الخبر هو الإيمان بالله، وملائكته، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وحلوه ومره من الله تعالى، ونحن مؤمنون بذلك كله، لا نفرق بين أحد من رسله، ونصدقهم كلهم على ما جاءوا به.

وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون، إذا ماتوا وهم موحدون، وإن لم يكونوا تائبين، بعد أن لقوا الله عارفين مؤمنين، وهم في مشيئته وحكمه، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله، كما ذكر ﷻ في كتابه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ النساء:٤٨. وإن شاء عذبهم في النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يبعثهم إلى جنته، وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته، ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته

الذين خابوا من هدايته، ولم ينالوا من ولايته، اللهم يا وليّ الإسلام وأهله ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يقولون: ونرى الصلاة خلف كل برّ وفاجر من أهل القبلة، وعلى من مات منهم، ولا ننزل أحدا منهم جنة ولا نارا، ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق ما لم يظهر منهم شيء من ذلك، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى، ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف، ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يدا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله ﷻ فريضة ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة، ونتبع السنة والجماعة، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة، ونحب أهل العدل والأمانة، ونبغض أهل الجور والخيانة، ويقولون: الله أعلم، فيما اشتبه علينا علمه، ونرى المسح على الخفين في السفر والحضر كما جاء في الأثر.

والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين برهم وفاجرهم إلى قيام الساعة، لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما، ونؤمن بالكرام الكاتبين، وأن الله قد جعلهم علينا حافظين، ونؤمن بملك الموت، الموكل بقبض أرواح العالمين، وبعذاب القبر لمن كان له أهلا، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة رضوان الله عليهم، والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران.

ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان، والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدا ولا تبيدان، وأن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما

أهلا، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلا منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له، والخير والشر مقدران على العباد.

والاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به فهي مع الفعل، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل، وبها يتعلق الخطاب، وهو كما قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ البقرة:٢٨٦. وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد، ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم، وهو تفسير لا حول ولا قوة إلا بالله.

ويقولون لا حيلة لأحد، ولا حركة لأحد، ولا تحول لأحد عن معصية الله إلا بمدد وعطاء من الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بمدد وتوفيق من الله، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، غلبت مشيئتُه المشيئات كلها، وغلب قضاؤه الحِيَلَ كلها، يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبدا، تقدس عن كل سوء وحين، وتنزه عن كل عيب وشين، قال تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾الأنبياء:٢٣. وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات. والله تعالى يستجيب الدعوات، ويقضي الحاجات، ويملك كل شيء، ولا يملكه شيء، ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين، ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر، وصار من أهل الهلاك والحين. والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى.

ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ

من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان، ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولا لأبي بكر الصديق ﷺ، تفضيلا له، وتقديما على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب ﷺ، ثم لعثمان ﷺ، ثم لعلي بن أبي طالب ﷺ.

وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون، وأن العشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ وبشرهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله ﷺ وقوله الحق هم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وهو أمين هذه الأمة، رضي الله عنهم أجمعين. ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس فقد برئ من النفاق.

وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل. ولا نفضل أحدا من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام. ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء. ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات من رواياتهم.

ونؤمن بأشراط الساعة من خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها، وخروج دابة الأرض من موضعها. ولا نصدق كاهنا ولا عرافا، ولا من يدعي شيئا يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة. ونرى الجماعة حقا وصوابا، والفرقة زيغا وعذابا. ودين الله في الأرض والسماء واحد، وهو دين الإسلام. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ

﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ آل عمران:١٩. وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ المائدة:٣. وهو بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعطيل، وبين الجبر والقدر، وبين الأمن والإياس. فهذا ديننا واعتقادنا ظاهرا وباطنا، ونحن براء إلى الله من كل من خالف الذي ذكرناه وبيناه، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان، ويختم لنا به، ويعصمنا من الأهواء المختلفة، والآراء المتفرقة والمذاهب الردية، مثل المشبهة والمعتزلة والجهمية، والجبرية والقدرية، وغيرهم من الذين خالفوا السنة والجماعة وحالفوا الضلالة، ونحن منهم براء، وهم عندنا ضلال وأردياء، وبالله العصمة والتوفيق.

فهرس كتاب سهل

الموضــــــــــــــــــــــــــــــــــوع	الصفحة
• الفصل الثاني: مراتب القدر وأنواع التقدير.	٢١١
• لماذا ارتبط فهم السلف للقضاء والقدر بتوحيد الربوبية لله؟	٢١١
• ما المقصود بمراتب القضاء والقدر عند أهل السنة؟	٢١٣
• ما هي الأدلة النقلية على أن علم التقدير من مراتب القدر؟	٢١٥
• ما مراتب علم الله وتعلقاته بأنواع معلوماته ومخلوقاته؟	٢١٦
• بين وجه ارتباط علم الله بالقدرة والتقدير والحكمة والتدبير؟	٢١٨
• ما الدليل على أن كتابة المقادير من مراتب القدر؟	٢١٩
• ما العلة في عدم المحو والتغيير لما دون في اللوح المحفوظ؟	٢٢١
• متى كانت بداية وقت الكتابة في اللوح المحفوظ؟	٢٢٣
• ما الدليل على أن اللوح المحفوظ فوق العرش؟	٢٢٥
• ما الدليل على أن مشيئة الله من مراتب القضاء والقدر؟	٢٢٦
• ما هو أثر الإيمان بمشيئة الله على حياة الإنسان؟	٢٢٧
• هل يصح الاحتجاج بقدر الله ومشيئته على المعصية؟	٢٢٨
• ما عقيدة أهل السنة في الفرق بين مشيئة الله وإرادته ومحبته؟	٢٣٠
• ما الدليل على المرتبة الرابعة من مراتب القدر؟	٢٣١
• ما هو أثر الإيمان بمراتب القدر في الأخذ بالأسباب؟	٢٣٣
• ما الفرق بين قضاء الله وقدره؟	٢٣٦
• ما هي أنواع التقدير في القرآن والسنة؟	٢٣٨
• لماذا تعددت أنواع التقدير بين التقدير المبرم والمعلق؟	٢٤٠
• هل يصح الدعاء بطول العمر مع تقدير الأجل في أم الكتاب؟	٢٤٥
• الفصل الثالث: التدبير الكوني والتدبير الشرعي.	٢٤٧
• ما المقصود بالتدبير الكوني والتدبير الشرعي؟	٢٤٧
• ما علاقة التدبير الكوني بالقضاء والقدر وتوحيد الربوبية؟	٢٤٨
• ما علاقة التدبير الشرعي بمحبة الله وتوحيد العبودية؟	٢٤٩
• ما هي أنواع القضاء الذي ورد في كتاب الله؟	٢٥١
• ما هي أنواع الحكم الذي ورد في كتاب الله؟	٢٥٢
• ما هي أنواع الأمر الذي ورد في كتاب الله؟	٢٥٣
• ما هي أنواع الإرادة التي وردت في كتاب الله؟	٢٥٤

الموضـــــــــــــــــــــوع	الصفحة

★★★★★

سهل في التوحيد والعقيدة

www.alridwany.com

موقع الرضوانية

دار العقيدة المصرية للتعليم عن بعد يقدم لطلاب العلم

الدورات العلمية اللازمة للحصول على إجازة علمية في تدريس التوحيد والعقيدة، كل دورة علمية تعادل سنة دراسية كاملة لمفردات مادة العقيدة في أفضل كليات الدعوة وأصول الدين في العالم الإسلامي، وهذه الدورات هي:

١- دورة أصول العقيدة في التعرف على عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات وكل ما جاء في النقل الصحيح عن الغيبيات.

٢- دورة منة القدير في التعرف على عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد الربوبية ومسائل الإيمان بالقضاء والقدر والحكمة والتدبير.

٣- دورة منة الرحمن في التعرف على عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد العبادة، وبيان أنواع الشرك وخطورته، وحقيقة العمل وأنواع الإيمان وما يقابلها من أنواع الكفر.

٤- دورة كفاية الطالبين في التعرف على عقيدة أهل السنة والجماعة في بيان فرق المسلمين وأديان المخالفين ومذاهب المعاصرين.

- **متطلبات الحصول على التزكية العلمية في كل دورة علمية:**

١- حضور الدورة العلمية أو مشاهدة المحاضرات المسجلة على الكمبيوتر والوسائط المتعددة بحيث لا تقل عن ستين ساعة سماعا مباشرا.

٢- تفريغ المحاضرات المرئية تفريغا يدويا للاطلاع عليها قبل دخول الاختبار.

٣- تلخيص المطالب في الكتاب المقرر، كل مطلب في عشر صفحات، أو عمل الأبحاث العلمية المطلوبة التي يكلف بها الطلاب في كل محاضرة من المحاضرات بحيث لا يقل مجموعها عند الاختبار عن عشرين بحثا.

٤- اجتياز الاختبار الشفوي والتحريري بتقدير لا يقل عن ٨٠ ٪ ثمانين في المائة من جملة الدرجات.

٥- تقديم تزكية علمية من أحد العلماء المعروفين على الساحة العلمية والدعوية مع صورة البطاقة، الشخصية، وآخر مؤهل علمي، وطلب التحاق مستوفي جميع البيانات .

نظام الاختبارات

وكيفية احتساب الدرجات في دار العقيدة المصرية

١- الاختبار التحريري في كل دورة تسير بنظام الاختيار من متعدد، والاختبار مكون من مائة سؤال تغطي منهج الدورة، وتقيس بدقة مدى فهم الطالب للمادة المقررة، وكل سؤال له أربعة اختيارات، يتخير الطالب الصواب منها، وتحدد درجة الاختبار التحريري بخمسين في المائة من مجموع الدرجات الكلية لكل دورة علمية.

٢- تحدد درجة الأبحاث العلمية بعشرين في المائة ٢٠ ٪ من مجموع الدرجات الكلية، ويمكن للطالب استبدال عمل الأبحاث بتلخيص المطالب الثلاثين في الكتاب المقرر، بما لا يقل عن عشر صفحات لكل مطلب.

٣- تحدد درجة تفريغ المحاضرات المرئية، وتلخيصها كتابة يدوية بعشرين في المائة ٢٠ ٪ من مجموع الدرجات الكلية، ولا يستثنى من ذلك النظام أحد من الطلاب إلا من تجاوز الخامسة والأربعين من عمره.

٤- تحدد درجة الاختبار الشفوي بعشرة في المائة ١٠ ٪ من مجموع الدرجات الكلية، وتتم الاختبارات الشفوية بالمقابلة الشخصية المباشرة مع عميد دار العقيدة المصرية الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني أو من ينيبه، ويحق للطالب اختيار أحد النظم البديلة لإجراء الاختبار الشفوي بالتعامل المباشر مع الحاسب الآلي في برامج الاختبارات الخاصة بدار العقيدة.

٥- تحسب درجة النجاح اللازمة للحصول على التزكية في كل دورة، أو الإجازة العلمية في مجموع الدورات بما لا يقل عن ٨٠ ٪ثمانين في المائة من المجموع الكلي للدرجات.

٦- يحدد تقدير الطالب الحاصل على ٩٥ ٪، امتياز بتفوق ٩٠ ٪، امتياز، ٨٥ ٪ جيد جدا، ٨٠٪ جيد ، ويعتبر الطالب راسبا إذا لم يحصل على تقدير جيد.

للتسجيل بالدورات العلمية

٠١١٤٧١٧١٠٧٠ – ٠١٠٠٢٦٤٢٦٨٧ – ٠٢ ٤٤٣٤٢١١٨

a0182279679@hotmail.com
ababm2000@yahoo.com

الإنتاج العلمي للمؤلف

1. ترميز مصحف الأسماء والصفات والأفعال.
2. كتاب سهل في التوحيد والعقيدة.
3. كتاب أصول العقيدة في توحيد الأسماء والصفات.
4. كتاب منة القدير في توحيد الربوبية.
5. كتاب منة الرحمن في توحيد العبادة .
6. كتاب كفاية الطالبين في الفرق والأديان والمذاهب المعاصرة.
7. ثم شتان دراسة منهجية في مقارنة الأديان.
8. أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة – الكتاب الجامع .
9. أسماء الله الحسنى بين الإطلاق والتقييد .
10. أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب المقدس عند النصارى .
11. شروط لا إله إلا الله .
12. معجم ألفاظ الصوفية (الأصول القرآنية للمصطلح الصوفي) .
13. مفهوم القدر والحرية عند أوائل الصوفية .
14. الرد الميسر على بيان المسير وآرائه الاعتزالية في أسماء الله الحسنى.
15. توحيد العبادة ومفهوم الإيمان .
16. توحيد الصفات بين اعتقاد السلف وتأويلات الخلف .

١٧. مختصر القواعد السلفية في الصفات الربانية .

١٨. التصوف هل له أصل في الكتاب والسنة؟

١٩. إثبات الشفاعة لصاحب المقام المحمود والرد على د.مصطفى محمود .

٢٠. الإنسان وبداية الكون .

٢١. المختصر المفيد في علة تصنيف التوحيد .

٢٢. المحكم والمتشابه وعلاقته بالتفويض .

٢٣. الدليل من الأناجيل على أن نصارى اليوم يعرفون محمدا كما يعرفون أبناءهم.

٢٤. الفضائيات والغزو الفكري .

٢٥. البدعة الكبرى (محنة الإمام في صفة الكلام) .

٢٦. أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة – الإحصاء .

٢٧. أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة – الشرح والتفسير .

٢٨. أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة – دلالتها على الصفات .

٢٩. أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة – دعاء المسألة .

٣٠. أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة – دعاء العبادة .

٣١. الدعاء بالأسماء الحسنى .

٣٢. مختصر أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة.

٣٣. مختصر أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب المقدس عند النصارى.

أسماء الله الحسنى

وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا

هو الله الذي لا إله إلا هو الرَّحْمَنُ ﷻ الرَّحيمُ ﷻ المَلِكُ ﷻ القُدُّوسُ ﷻ السَّلامُ ﷻ
المُؤْمِنُ ﷻ المُهَيْمِنُ ﷻ العَزِيزُ ﷻ الجَبَّارُ ﷻ المُتَكَبِّرُ ﷻ الخَالِقُ ﷻ البَارِئُ ﷻ المُصَوِّرُ ﷻ
الأَوَّلُ ﷻ الآخِرُ ﷻ الظَّاهِرُ ﷻ البَاطِنُ ﷻ السَّمِيعُ ﷻ البَصِيرُ ﷻ المَوْلَى ﷻ النَّصِيرُ ﷻ
العَفُوُّ ﷻ القَدِيرُ ﷻ اللطيفُ ﷻ الخَبِيرُ ﷻ الوِتْرُ ﷻ الجَمِيلُ ﷻ الحَيِيُّ ﷻ السِّتِّيرُ ﷻ
الكَبِيرُ ﷻ المُتَعَالُ ﷻ الوَاحِدُ ﷻ القَهَّارُ ﷻ الحَقُّ ﷻ المُبِينُ ﷻ القَوِيُّ ﷻ المَتِينُ ﷻ
الحَيُّ ﷻ القَيُّومُ ﷻ العَلِيُّ ﷻ العَظِيمُ ﷻ الشَّكُورُ ﷻ الحَلِيمُ ﷻ الوَاسِعُ ﷻ العَلِيمُ ﷻ
التَّوابُ ﷻ الحَكِيمُ ﷻ الغَنِيُّ ﷻ الكَرِيمُ ﷻ الأَحَدُ ﷻ الصَّمَدُ ﷻ القَرِيبُ ﷻ المُجِيبُ ﷻ
الغَفُورُ ﷻ الوَدودُ ﷻ الوَلِيُّ ﷻ الحَمِيدُ ﷻ الحَفِيظُ ﷻ المَجِيدُ ﷻ الفَتَّاحُ ﷻ الشَّهِيدُ ﷻ
المُقَدِّمُ ﷻ المُؤَخِّرُ ﷻ المَلِيكُ ﷻ المُقْتَدِرُ ﷻ المُسَعِّرُ ﷻ القَابِضُ ﷻ البَاسِطُ ﷻ الرَّازِقُ ﷻ
القَاهِرُ ﷻ الدَّيَّانُ ﷻ الشَّاكِرُ ﷻ المَنَّانُ ﷻ القَادِرُ ﷻ الخَلَّاقُ ﷻ المَالِكُ ﷻ الرَّزَّاقُ ﷻ
الوَكِيلُ ﷻ الرَّقِيبُ ﷻ المُحْسِنُ ﷻ الحَسِيبُ ﷻ الشَّافِي ﷻ الرَّفِيقُ ﷻ المُعْطِي ﷻ المُقِيتُ ﷻ
السَّيِّدُ ﷻ الطَّيِّبُ ﷻ الحَكَمُ ﷻ الأَكْرَمُ ﷻ البَرُّ ﷻ الغَفَّارُ ﷻ الرَّءوفُ ﷻ الوَهَّابُ ﷻ
الجَوَادُ ﷻ السُّبوحُ ﷻ الوَارِثُ ﷻ الرَّبُّ ﷻ الأَعْلَى ﷻ الإِلَهُ ﷻ .

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى